

٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري

فوائد شهر محرم

كتبه الفقير إلى عفو ربه

أ. د. خالد بن عبد الغفار آل عبد الرحمن

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ

ح خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن ، ١٤٤٥هـ

عبد الرحمن ، أ.د. خالد عبد الغفارعبد الله
فوائد شهر محرم الجزء الأول من سلسلة كتاب ٣٦٠ فائدة علي مدار العام الهجري./ أ.د. خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن
ط ١.- الرياض ، ١٤٤٥هـ
١٢٤ ص ! ١٧ x ٢٤ سم.- (٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري)

رقم الإيداع : ٢٠٠٤٢ / ١٤٤٥
ردمك :٢-٦١٦-٠٣١٦-٠٥-٦٠٣-٩٧٨



بسم الله الرحمن الرحيم





إهــداء

إلى زوجتي وأبنائي الأوفياء الذين كان لهم الفضل بعد الله عزَّ وجلَّ بتشجيعي ودعمي المتواصل لإعداد هذه السلسلة من الفوائد التي تُحفِّز المسلم والمسلمة للعمل الصالح واغتنام أيام العمر فيما ينفع ويُرضي الله عزَّ وجلَّ.





مُقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. فبين يديك أخي القارئ الكريم الجزء الأول من كتاب "٣٦٠ فائدة " على مدار العام الهجري، وهو كتاب يضمُّ فوائد ودروسًا تُحفِّز المسلم والمسلمة على العمل الصالح واغتنام أيام العمر فيما يَنفع ويُرضي الله عزَّ وجلَّ. تمَّ تقسيمها على أيَّام السنة الهجريَّة بحيث يستطيع القارئ أن يبدأ بالقراءة من تاريخ اليوم الذي عزم أن يقرأ الكتاب فيه، ويقطف من ثمرات وفوائد ذلك اليوم. وفي كلِّ يومٍ يجد القارئ جملة من المقتطفات التي تدور حول موضوع واحد قد يكون له ارتباط بذلك اليوم أو الأيَّام أو الشهر تحديدًا وقد لا يكون. ولكن الموضوعات تُشكِّل في مجملها خلاصة الفوائد والخواطر والدروس التي تُعين المسلم على التجارة مع الله والعمل الصالح الذي يكون بإذن الله زادًا له في الدنيا ونجاة له في الآخرة برحمة الله ومِنَّته وفضله. وهذا الجزء مُخصَّصٌ لفوائد شهر مُحرَّم، أسأل الله أن يكون فيه النفع والفائدة وحُجَّة لكاتبه وقارئه وكلِّ مَن أعان على نشْره وتوزيعه.

كتبه الفقير إلى عفو ربِّه

أ.د.خالد بن عبد الغفَّار آل عبد الرحمن
drkhalid63@gmail.com

الرياض

شهر الله المحرَّم ١٤٤٥ هـ



فهرس فوائد شهر مُحرَّم



١ محـــرم

شهر الله المحرَّم

هو أحد الأشهر الحُرُم التي قال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾(1).

قال القرطبي:"خصَّ اللهُ تعالى الأشهر الحُرُم بالذكْر ونهى عن الظلم فيها تشريفًا لها، وإن كان منهيًّا عنه في كلِّ الزمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾(2).

وعلى هذا أكثر أهل التأويل، أي: لا تظلموا في الأربعة الأشهر أنفسكم، وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ في الاثني عشر"(3).

قال ابن كثير: "وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام، هل هو منسوخ أو مُحكَم على قولين:

الأول وهو الأشهر: أنَّه منسوخ؛ لأنَّه تعالى قال ههنا: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾(4) وأَمَرَ بقتال المشركين، وظاهر السياق مُشعِرٌ بأنَّه أَمَرَ بذلك أمرًا عامًا، ولو كان مُحرَّمًا في الشهر الحرام لأوشك أن يُقيِّده بانسلاخها، ولأنَّ رسول الله ﷺ حاصَرَ أهل الطائف في شهر حرامٍ وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين(5).

---

(١) سورة التوبة ٣٦.

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ١٣٥). الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى:٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية– القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٤) سورة التوبة ٣٦.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤١) برقم (٧٤٨٠) كتاب التوحيد. باب في المشيئة والإرادة" وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله"؛ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيَّامه= صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقِّق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ. ورواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٠٢) برقم (١٧٧٨) كتاب الجهاد والسير. باب غزوة الطائف. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقِّق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت.



والقول الثاني: إنَّ ابتداء القتال في الشهر الحرام حرامٌ، وأنَّه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ ﴾[(١)]. ويُحتمل أنَّه أذِن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم"[(٢)].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي- رحمه الله- في تفسيره:

"﴿ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ ﴾[(٣)] يحتمل أنَّ الضمير يعود إلى الاثني عشر شهرًا، وأنَّ الله تعالى بيَّن أنَّه جعلها مقادير للعباد، وأن تُعمَر بطاعته، ويُشكَر اللهُ تعالى على مِنَّتِه بها وتقييضها لصالح العباد، فلْتحذروا من ظلْم أنفسكم فيها. ويحتمل أنَّ الضمير يعود إلى الأربعة الحُرُم، وأنَّ هذا نهيٌ لهم عن الظلم فيها خصوصًا، مع النهي عن الظلم كلَّ وقتٍ لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشدَّ من غيرها"[(٤)].

قال الحافظ ابن رجب- رحمه الله-:" وقد اختلف العلماء في أي الأشهر الحُرُم أفضل؟ فقال الحسن وغيره: أفضلها شهر الله المحرَّم، ورجَّحه طائفة من المتأخِّرين.

وروى وهب بن جرير عن قرة بن خالد عن الحسن، قال: إنَّ الله افتتح السنة بشهر حرام، وختمها بشهر حرام، فليس شهرٌ في السنة بعد شهر رمضان أعظم عند الله من المحرَّم، وكان يُسمَّى شهر الله الأصمَّ من شدَّة تحريمه"[(٥)].

وقد كانت العرَبُ تُعَظِّمُه في الجاهليَّةِ.

وقد ذكر أهل الأخبار عدَّة أسماءٍ كان يُطلِقها العرب على شهر مُحرَّم، وأشهرها الأصمُّ: وقد سُمِّي بذلك لخُلوِّه من القتال؛ فلا يُسمَع فيه صوتُ الأسلحة، أو حركة القِتال. كما كان يُسمَّى صفر: وهو

---

(١) سورة المائدة ٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٩). تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)، المحقِّق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) سورة التوبة ٣٦.

(٤) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٣٦). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقِّق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ -٢٠٠٠م

(٥) لطائف المعارف لابن رجب (ص ٣٤). لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، الناشر: دار ابن حزم للطباعة. والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

اسمٌ كان يُطلَق عليه في الجاهليَّة؛ إذ كان يُسمَّى صفر الأوَّل؛ تمييزًا له عن صفر الثاني، ثمَّ غلب اسم مُحرَّم عليه، فصار عَلَمًا له.

ولم يكنِ التَّاريخُ السَّنويُّ معمولًا به في أوَّل الإسلام، حتى كانت خلافةُ عمرَ بنِ الخَطَّاب- رضي الله عنه- ففي السَّنةِ الثَّالثةِ أو الرَّابعةِ من خلافتِه كتب إليه أبو موسى الأشعريُّ- رضي الله عنه-: أنَّه يأتينا منكَ كتبٌ ليس لها تاريخٌ! فجمع عمرُ الصَّحابةَ- رضي الله عنهم- فاستشارهم. فيُقال: إنَّ بعضَهم قال: أرِّخوا كما تُؤرِّخُ الفُرسُ بمُلوكِها، كلَّما هلك مَلِكٌ أرَّخوا بولايةِ مَن بعدَه. فكَرِهَ الصَّحابةُ ذلك. فقال بعضُهم: أرِّخوا بتاريخ الرُّومِ. فكرِهوا ذلك- أيضًا-. فقال بعضُهم: أرِّخوا مِن مَولد النَّبي ﷺ. وقال آخرون: مِن مبعثِه. وقال آخرون: من مُهاجِرِه. فقال عمر: الهجرةُ فرَّقت بين الحقِّ والباطل؛ فأرِّخوا بها. فأرَّخوا من الهجرةِ، واتَّفقوا على ذلك. ثم تشاوروا من أيِّ شهرٍ يكون ابتداءُ السَّنة. فقال بعضُهم: من رمضان؛ لأنَّه الشَّهر الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ. وقال بعضُهم: من ربيعٍ الأوَّل؛ لأنَّه الشَّهر الذي قدِم فيه النَّبيُّ ﷺ مُهاجِرًا. واختار عمرُ وعثمانُ وعليٌّ أن يكونَ من المحرَّمِ؛ لأنَّه شهرٌ حرامٌ يلي شهر ذي الحجَّةِ الذي يُؤدِّي المسلمون فيه حجَّهم الذي به تمامُ أركانِ دينِهم، والذي كانت فيه بيعةُ الأنصار للنبي ﷺ والعزيمةُ على الهجرةِ. فكان ابتداءُ السَّنَةِ الإسلاميَّة الهجريَّة من الشهرِ المحرَّم الحرام[١].

وخَرَّجَ النسائي من حديث أبي ذر- رضي الله عنه- قال: سألتُ النَّبيَّ ﷺ: أيُّ الليلِ خيرٌ؟ وأيُّ الأشهر أفضل؟ فقال:" خيرُ الليلِ جوفُهُ، وأفضلُ الأشهرِ شهرُ الله الذي تدعونهُ المحرَّم"[٢].

---

(١) ذكر هذا الأثر السيوطي في جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» (١٥/ ٦٩٥) مع اختلافٍ يسيرٍ، ومثله في كنز العمال (١٠/ ٣١٠). جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، المؤلف: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ)، المحقِّق: مختار إبراهيم الهائج- عبد الحميد محمد ندا- حسن عيسى عبد الظاهر، الناشر: الأزهر الشريف، القاهرة- جمهورية مصر العربية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المؤلف: علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، المحقِّق: بكري حياني- صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٤/ ٢٣٣) برقم (٤٢٠٢) كتاب المناسك. باب أيُّ الأشهرِ الحرُمِ أفضلُ. السنن الكبرى المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣ هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. والحديث ضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (ص ١١٥) برقم (٧٩٤). ضعيف الجامع الصغير وزيادته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: المجدَّدة والمزيدة والمنقَّحة.



وإطلاق النبي ﷺ في هذا الحديث أفضل الأشهر؛ محمولٌ على ما بعد رمضان.

قال الحافظ ابن رجب- رحمه الله-:" وقد سمَّى النبيُّ ﷺ المحرَّمَ شهرَ اللهِ، وإضافته إلى الله عزَّ وجلَّ تدلُّ على شرفه وفضله، فإنَّ الله تعالى لا يضيف إليه إلَّا خواص مخلوقاته، كما نسب محمَّدًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء إلى عبوديته، ونسب إليه بيته وناقته"(١).

أي يُقال:" شهر الله المحرَّم" وهذه إضافة تشريف وتفضيل، كمثل: بيت الله وناقة الله.

وفي الصحيحين من حديث أبي بكرة- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ خطب في حجَّته فقال:" إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خَلَقَ اللهُ السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم، ورجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان"(٢).

ولعلَّنا نستخلص الخلاصة من قول الإمام العزِّ بن عبد السلام- رحمه الله-: وتفضيل الأماكن والأزمان ضربان: أحدهما: دنيوي، والضرب الثاني: تفضيل ديني راجعٌ إلى أنَّ الله يجود على عباده فيها بتفضيل أجر العاملين، كتفضيل صوم رمضان على صوم سائر الشهور، وكذلك يوم عاشوراء،... ففضْلُها راجعٌ إلى جود الله وإحسانه إلى عباده فيها(٣).

يقول الشاعر- ولعلَّه ابن رجب الحنبلي نفسه-:

شهرُ الحرامِ مُباركٌ مَيمونُ ... والصومُ فيه مُضاعَفٌ مَسنونُ
وثَوابُ صَائِمِهِ لوجْهِ إلهِهِ ... في الخُلدِ عندَ مليكِهِ مخزُونُ(٤)

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص ٣٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٦٦) برقم (٤٦٦٢) كتاب تفسير القرآن. باب قوله (إنَّ عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خَلَقَ السمواتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم «هو القائم»؛ صحيح مسلم (٣/ ١٣٠٥) (١٦٧٩) كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات. باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض.

(٣) يُنظَر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٤٥) بتصرُّفٍ يسيرٍ. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقَّب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ)، راجعه وعلَّق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية– القاهرة، (وصوَّرتها دور عدَّة مثل: دار الكتب العلمية- بيروت، ودار أم القرى- القاهرة)، طبعة: جديدة مضبوطة منقَّحة، ١٤١٤هـ - ١٩٩١م.

(٤) لطائف المعارف لابن رجب (ص ٣٦).

٢ محرم

ما الغاية من خلْق الإنسان؟

مع كثرة مشاغل الدنيا والانغماس بملذَّاتها وشهواتها؛ قد يغفل الإنسان عن إدراك الغاية التي خُلِقْنا من أجْلها. فقد احتار بعض الناس- هداهم الله- في الحكمة من وجودهم في هذه الحياة ووقعوا في حيرةٍ وتخبُّطٍ وضلالٍ حتَّى قال أحدُهم:

جئتُ لا أعلمُ من أين ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرتُ قُدَّامي طريقًا فمشيتُ
وسأبقى ماشيًا إن شئتُ هذا أم أَبَيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟
لستُ أدري!
أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوجود؟
هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود؟
أتمنَّى أنَّني أدري ولكن ... لستُ أدري![(١)].

وقد يصل الحال ببعض الناس أن يُقدِّم الدنيا على الآخرة كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[(٢)].

فحالهم كما وصفهم سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[(٣)]. كما قال ابن كثير- رحمه الله-: أي أكثر الناس ليس لهم علمٌ إلَّا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حُذَّاقٌ أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأنَّ أحدهم مُغفَّلٌ لا ذهن له ولا فكرة.

وقال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-: هم الكُفَّار، يعرفون عُمران الدنيا، وهم في أمر الدين جُهَّال.

---

(١) من قصيدة الطلاسم، كما في ديوان إيليَّا أبو ماضي (ص ١٩١) دار العودة- بيروت.

(٢) سورة الأعلى آية ١٦-١٧.

(٣) سورة الروم ٧.



قال الحسن البصري: والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنَّه يُقلِّب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يُحسن أن يُصلِّي[(١)].

والواجب على المسلم وعلى العقلاء من الناس أن يُدركوا الغاية من خلْقهم ويعملوا على تحقيقها. ولهذا بيَّن الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم الغاية من خلْق الجنِّ والإنس؛ فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[(٢)].

قال العلَّامة السعدي- رحمه الله- في تفسير هذه الآية العظيمة: هذه الغاية التي خَلَقَ الله الجنَّ والإنسَ لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمِّنة لمعرفته ومحبَّته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه، وذلك يتضمَّن معرفة الله تعالى، فإنَّ تمام العبادة مُتوقِّفٌ على المعرفة بالله، بل كلَّما ازداد العبد معرفةً لربِّه؛ كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خَلَق اللهُ المكلَّفين لأجله، فما خَلَقَهم لحاجةٍ منه إليهم[(٣)].

والمقصود بالعبادة كما عرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله تعالى- بقوله: العبادة هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة والزكاة والصيام والحجُّ وصدْق الحديث والأمانة وبرُّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكُفَّار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم، والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذِّكْر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حُبُّ اللهِ ورسولِه، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحُكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكُّل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله.

وذلك أنَّ العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خَلَقَ الخلْق لها، وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوحٌ لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[(٤)]. وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم، وقال تعالى:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٠٥).
(٢) الذاريات آية ٥٦-٥٨.
(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨١٣).
(٤) الأعراف ٥٩.

وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[٣][٤].

كما تتضمَّن الغاية من خلْق الإنسان معنى الابتلاء والامتحان للعباد، فالله عزَّ وجلَّ يمتحن عباده في هذه الدنيا، ومدَّة هذا الامتحان هي مدَّة حياة الإنسان على هذه الأرض، فإذا انتهت حياته عليها انتهت مدَّة امتحانه ليحاسبه الله بعد ذلك على عمله، إنْ خيرًا فخيرًا، وإنْ شرًا فشرًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾[٥].

قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: وفي ذكْرهما- أي الموت والحياة- تخلُّصٌ إلى ما يترتَّب عليهما من الآثار التي أعظمها العمل في الحياة والجزاء عليه بعد الموت، وذلك ما تضمَّنه قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ فإنَّ معنى الابتلاء مُشْعِرٌ بترتُّب أثرٍ له، وهو الجزاء على العمل للتذكير بحكمة جعْل هذين الناموسين البديعين في الحيوان لتظهر حكمة خلْق الإنسان ويُفضِيا به إلى الوجود الخالد، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾[٦][٧].

وفي الحديث المتَّفق على صحَّته[٨] عن أبي سفيان صخر بن حرب- رضي الله عنه- قال: قال هِرَقل: فماذا يَأمُرُكم؟ (يعني: النبيَّ ﷺ) قال أبو سفيان: قلتُ: يقول:" اعبدوا الله وَحدَه لا تُشرِكوا بِهِ

---

(١) النحل ٣٦.

(٢) الأنبياء ٢٥.

(٣) الأنبياء ٩٢.

(٤) العبودية (ص ٤٤ – ٤٥). العبودية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: السابعة المجدَّدة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

(٥) الملك ٢.

(٦) المؤمنون ١١٥.

(٧) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣). التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر- تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

(٨) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٩) برقم (٧) كتاب بدء الوحي. باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٩٤) برقم (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير. باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.



شيئًا، وَاتركوا ما يَقول آبَاؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدْق، والعفاف، والصلة". فكان ممَّا سأل أبا سفيان سؤاله عمَّا كان يأمرهم به النبي ﷺ فأخبره بأنَّه يأمرهم أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئًا، فلا يعبدوا غير الله، لا ملكًا ولا رسولًا، ولا شجرًا ولا حجرًا، ولا شمسًا ولا قمرًا، ولا غير ذلك، فالعبادة لله وحده، وهذه دعوة الرسل، فجاء النبي ﷺ بما جاءت به الأنبياء من قبله بعبادة الله وحده لا شريك له. ولهذا قال ﷺ- كما في صحيح البخاري-:" لا تطروني كما أطرتِ النصارى ابنَ مريمَ، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه"[١].

الخلاصة: أنَّ الغاية من خلْق الإنسان هي العبادة بمفهومها الشامل الذي يجعل المسلم يرتبط في دنياه بآخرته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]. كما تجعله يتذَّكر ويُسخِّر حياته وأعماله في خدمة الغاية البعيدة التي خُلِقنا من أجْلِها وهي عبادة الله. كما قال الطغرائي في لاميته:

ترجو البقاءَ بدارٍ لا ثباتَ لها ... فهــل سمـــــعتَ بظلٍ غيرِ مُنتقـــلِ؟!
ويا خبيرًا على الأسرارِ مُطَّلِعًا ... اصمتْ! ففي الصمتِ منجاةٌ مِنَ الزلَلِ
قد هيَّئوكَ لأمرٍ لو فطِنتَ له ... فاربأْ بنفسِكَ أن تَرعى معَ الهمَلِ[٣]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٦٧) برقم (٣٤٤٥) كتاب أحاديث الأنبياء. باب قول الله تعالى: {واذكرْ في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها}.

(٢) الأنعام ١٦٢.

(٣) لامية الطُغرائي (ص ١٨) والبيت الثالث هنا فيه:
قد رشَّحُوك لأمرٍ لو فطنتَ له .... لامية الطُغرائي، علي جواد الطاهر، بغداد- ١٩٦٢م، مطبعة العاني.

٣ محرم

اغتنام الأوقات في طاعة ربِّ الأرض والسموات

إنَّ مرور الشهور والأعوام؛ إيذانٌ بقُرْب الارتحال من دنيا المَمَرِّ إلى دار المستقَرِّ، ولقد كان السلف الصالح- رحمهم الله- يغتنمون الليالي والأيَّام بما يُقرِّبهم إلى ربِّهم المَلِك العلَّام. فلا يمرُّ عليهم يومٌ ولا ليلةٌ بلا فائدة ولا ثمرة، طرحوا عنهم اللهو واللعب وإضاعة الأوقات فيما لا فائدة فيه ولا نفع، فهُم بين علمٍ يتعلَّمونه، وجهادٍ في سبيل الله وطاعةٍ وعبادةٍ، وقيامٍ بحقوق الأسرة، وصلة رحمٍ، وزيارة مريضٍ، ودعوةٍ إلى الله- عزَّ وجلَّ-.

وإنَّ من رحمة الله بعباده أنْ نوَّع لهم العبادات والشعائر، ولم يجعلْها على نمطٍ واحدٍ، وفي هذا ترغيبٌ للنفس على الطاعة، وتربية لها على الالتزام والجدِّ في تحصيل الثواب، ومن ذلك أنَّ الصلاة فريضة يوميَّة، وهي عمود الدين وركن من أركان الإسلام، تُهذِّب النفس، وتُطهِّر القلب، وتحول بين الإنسان وبين المنكرات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

والصيام عبادة جليلة مفروضة في شهر رمضان، أيَّامًا معدودات، يستطيع المسلم أداءها دون إرهاق أو مشقَّة زائدة. وفي هذه العبادة من الفضل والفضائل ما يزيد في المؤمن ملَكة التقوى، ويُعوِّده على الخضوع والعبودية لربِّ العالمين، كما يُهذِّب النفس بما يغرسه فيها من خوف الله- عزَّ وجلَّ- ومراقبته في السرِّ والعلن، فالصوم سِرٌّ بين العبد وربِّه، وهو أبعد العبادات عن الرياء.

والزكاة عبادة ماليَّة محضة لا دخل للبدن فيها، سوى النِّيَّة الصادقة بأداء ما فرض الله على الأغنياء في أموالهم، وهي طهارةٌ للمال والنفس من الشُّحِّ والبُخل، وتُطهِّر المال بالنماء والخير والبركة، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[2].

وأمَّا الحجُّ فريضة العمر الذي فُرِض على المسلم مرَّة واحدة، فهو يجمع بين العبادة البدنيَّة والماليَّة.

وهكذا فمواسم العبادة والطاعة بمثابة محطَّات لتُزوِّد المسلم بالإيمان والتقوى والعمل الصالح بما يُغذِّي الروح والبدن، ويجعل المؤمن في نشاط دائم، وهو يُؤدِّي هذه العبادات الفكريَّة والروحيَّة والبدنيَّة، فهو في محراب الصلاة يُناجي خالقه بالقرآن الكريم والذِّكْر الحكيم، وفي الصيام يحفظ سرَّه

---

(١) العنكبوت ٤٥.

(٢) التوبة ١٠٣.

ويصبر على شهوات النفس والبدن، وفي الزكاة يُطهِّر نفسه وماله، وفي الحجِّ يُؤدِّي المناسك من طواف وسعي ورمي للجمار ووقوف بعرفات والمشعر الحرام ، وهكذا يبقى المؤمن في شوقٍ للطاعة والعبادة على مرِّ السنين وتوالي الأيَّام.

فاحرصْ- أخي المسلم- على اغتنام أوقاتك في الطاعة، فقد أنَّب الله تعالى الكُفَّار لما أعطاهم العمر المديد فلم يستفيدوا منه؛ فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1]. ومدح المؤمنين لأنَّهم استفادوا من أعمارهم، واغتنموا أوقاتهم، فقال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[2].

فوبَّخ هؤلاء- مع أنَّه عمَّرهم- لأنَّهم لم يستفيدوا من العمر، ومدح هؤلاء لأنَّهم اغتنموا الأيَّام الخالية في طاعة الله تعالى، وهذا المبدأ مُهِمٌّ للغاية أن يعلم الإنسان قيمة عمره. وأنَّه سيُسأل عن العمر عمومًا، وعن مرحلة الشباب خصوصًا؛ لأنَّها مرحلة فيها نشاط وقوَّة وحيويَّة، ففي أيِّ شيءٍ صَرَفَها؟ وفيمَ قضاها؟ وكذلك سيُسأل عن الصحَّة؛ لأنَّها نعمةٌ يستطيع أن يفعل بها أكثر ممَّا يفعل حال المرض، وسيُسأل كذلك عن أوقات الفراغ، وقد بيَّن النبي ﷺ هذا المفهوم عندما قال:" لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتَّى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه" رواه الترمذي[3].

---

(١) فاطر ٣٧.

(٢) الحاقة ٢٤.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦١٢) برقم (٢٤١٧) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع. باب في القيامة، وقال عقبه:" هذا حديث حسن صحيح". سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩ هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥ م. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٤١٧). صحيح وضعيف سنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية– المجاني– من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.



وقال أيضًا:" اغتنمْ خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحَّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك" رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما(١).

وللأسف الشديد فإنَّ كثيرًا من الناس لا يدرون قيمة عمرهم، قال رسول الله ﷺ:"نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحَّة والفراغ" متفق عليه(٢) ، فالحديث يدلُّ على توفُّر أمرين: الوقت وقوَّة الجسد، الوقت الذي يمكن ملؤه، وقوَّة الجسد المعينة على العمل، وفترة الشباب تكون زاخرة بهذين الأمرين.

وكان الإمام البخاري- رحمه الله- كثيرًا ما يتمثَّل بهذين البيتين:

اغتنمْ في الفــــراغ فضْلَ ركوعٍ ... فعسى أن يكون موتُك بغتة

كم صحيحٍ رأيتَ من غير سقمٍ ... ذهبتْ نفسُه الصحيــحةُ فلتة(٣)

وفعلًا فقد تُوفِّي- رحمه الله- فجأة، ولكن أي شيء خلَّف البخاري؟ ماذا ترك محمد بن إسماعيل- رحمة الله عليه-؟ ترك هذا الكتاب العظيم الذي هو أصحُّ كتابٍ بعد كتاب الله، ومنه ينهل الواردون، ويأتي المتعطِّشون للعلم، ويُستدلُّ بأحاديثه في الخطب والدروس والمواعظ، فكم جاء لأبي عبد الله في قبره من حسنات!!

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٤٧) برقم (٢٩٢٧) كتاب الرقاق؛ والنسائي في السنن الكبرى (١٠/٤٠٠) برقم (١١٨٣٢) كتاب المواعظ. المستدرك على الصحيحين للحاكم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المحقِّق: أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار النشر: دار الحرمين، البلد: القاهرة– مصر، سنة الطبع: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٤٣) برقم (١٠٧٧). صحيح الجامع الصغير وزياداته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٨) برقم (٦٤١٢) كتاب الرقاق. باب لا عيش إلَّا عيش الآخرة.

(٣) أورده ابن أبي الدنيا عن رجلٍ من الأنصار كما في قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص ١٤٦). قصر الأمل، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقِّق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم- لبنان / بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. وذكره ابن حجر عنه كما في ترجمته للإمام البخاري في مُقدِّمة شرحه للصحيح. فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٨١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩هـ، رقَّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصحَّحه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلَّامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.



والخلاصة: أنَّ الوقت هو الحياة، وأوْقاتنا هي رأس مالنا في هذه الدنيا، ومن فرَّط في وقته وعمُره فقد فرَّط في خيرٍ كبيرٍ، وقد جاء في الأثر أنَّه:" ما من يوم ينشقُّ فجرُه إلَّا ويُنادي: يا ابن آدم؛ أنا خلقٌ جديدٌ، وعلى عملك شهيدٌ، فتزوَّد منِّي، فإنِّي لا أعود إلى يوم القيامة"[١]. وكان الحسن البصري- رحمه الله- يقول:" يا ابن آدم إنَّما أنت أيَّام؛ إذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك"[٢]. وكان- رحمه الله- يقول عن حال السَّلف:" أدركتُ أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشدَّ حرصًا منكم على دراهمكم ودنانيركم"[٣]. وقال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-:" ما ندمتُ على شيءٍ ندمي على يومٍ غربتْ شمسُه، نقص فيه أجلي، ولم يزددْ فيه عملي"[٤].

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي عندما قال:

دَقَّـاتُ قَلبِ المَـــــرءِ قائِلَةٌ لَهُ ... إِنَّ الحيـــاةَ دَقـائِقٌ وَثَـواني

فَارْفَعْ لِنَفسِكَ بَعدَ مَوتِكَ ذِكْرَها ... فَالذِّكرُ لِلإِنسانِ عُمْرٌ ثاني[٥]

---

(١) لم أقف عليه في كتب الحديث والآثار والتخريج، وقد ذكره عددٌ من المعاصرين ممَّن كتب في الزهد والرقاق؛ يُنظَر: مفتاح الأفكار للتأهُّب لدار القرار (١/ ٨٥). مفتاح الأفكار للتأهُّب لدار القرار، المؤلف: أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ).

(٢) يُنظَر: الزهد لأحمد بن حنبل (ص ٢٢٥)؛ حلية الأولياء (١٨٤/٢). الزهد، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠ هـ)، الناشر: مطبعة السعادة- بجوار محافظة مصر، عام النشر: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٣) لم أقف عليه في كتب الحديث والآثار والتخريج، وقد ذكره عددٌ من المعاصرين ممَّن كتب في الزهد والرقاق؛ يُنظَر: مفتاح الأفكار للتأهُّب لدار القرار (٣/ ٢٩).

(٤) لم أقف عليه في كتب الحديث والآثار والتخريج، وقد ذكره عددٌ من المعاصرين ممَّن كتب في الزهد والرقاق؛ يُنظَر: مفتاح الأفكار للتأهُّب لدار القرار (٣/ ٢٩).

(٥) يُنظَر ديوان أحمد شوقي (٢/ ٥٧٥). ديوان شوقي. توثيق وتبويب وشرح وتعقيب الدكتور: أحمد محمد الحوفي، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة- القاهرة.



٤ محرم

كيف أتوب إلى الله؟

التوبة واجبة شرعًا، لازمة عقلًا؛ لأنَّها من أصول الإسلام، وقواعد الدين، وأوَّل منازل السالكين، وقد دعا الله عباده إليها، ودلَّهم عليها، وأمرهم بها؛ فقال مخاطبًا لهم: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[(١)]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[(٢)].

وأخرج البخاري عن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ:"وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً"[(٣)]، وفي صحيح مسلم أنَّ النبي ﷺ قال:"وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ"[(٤)].

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في تعريف مفهوم التوبة النصوح: النصح في التوبة يتضمَّن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها؛ بحيث لا تدع ذنبًا إلَّا تناولتْه.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكُلِّيَّته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردُّد ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كلَّ إرادته وعزيمته مُبادِرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة ممَّا عنده. لا كَمَنْ يتوب لحفْظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته، ولحفْظ حاله أو لحفْظ قُوَّته وماله، أو استدعاء حمْد الناس أو الهرب من ذمِّهم، أو لئلَّا يتسلَّط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحَّتها وخلوصها لله عزَّ وجلَّ.

فالأوَّل يتعلَّق بما يتوب منه، والثالث يتعلَّق بمَن يتوب إليه، والأوسط يتعلَّق بذات التائب ونفسه، فنُصْحُ التوبة الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أنَّ هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمَّنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة[(٥)].

---

(١) النور ٣١.

(٢) التحريم ٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم (٦٣٠٧)كتاب الدعوات. باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٥) برقم (٢٧٠٢)كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (١/ ٣١٧). مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، المحقِّق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.



والتَّوْبةُ لغة تعني: الرُّجُوعَ من الذَّنْبِ. وتابَ إِلى اللَّهِ يَتُوبُ تَوْبًا وتَوْبةً ومَتابًا: أي أَنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إِلى الطاعةِ، ورَجلٌ تَوَّابٌ: تائِبٌ إِلى اللَّهِ. وتاب العبد: رجع إلى طاعة ربِّه، وعبدٌ توَّابٌ: كثير الرجوع إلى الطاعة. وأصل التوبة الرجوع؛ يقال: تاب وثاب وآب وأناب: أى رجع.

والتوبة شرعًا تعني: الرجوع إلى الله تعالى فيما أَمَرَ به وترْك ما نهى عنه.

"فإذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة والندم، والانكسار والذُّلِّ والافتقار، والاستعانة به، وصدْق اللجأ إليه، ودوام التضرُّع والدعاء، والتقرُّب إليه بما أمكن من الحسنات؛ ما تكون تلك السَّيِّئة به سببَ رحمته، حتَّى يقولَ عدوُّ الله: يا ليتني تركتُه ولم أوقعْه، وهذا معنى قول بعض السلف: إنَّ العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنَّة، ويعمل الحسنة يدخل بها النَّار، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفًا منه مُشفقًا وجِلًا باكيًا نادمًا، مُستحيًا من ربِّه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، مُنكسِر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتَّب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتَّى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنَّة، ويفعل الحسنة فلا يزال يمنُّ بها على ربِّه ويتكبَّر بها، ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول: فعلتُ وفعلتُ؛ فيُورثه من العجب والكبر، والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمرٍ يكسره به، ويذلُّ به عنقه، ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلَّاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإنَّ العارفين كلَّهم مجمعون على أنَّ التوفيق أنْ لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان أنْ يكلك الله تعالى إلى نفسك"[(1)].

وشروط التوبة كما ذكرها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله تعالى- ثلاثة:" الندم على الماضي ممَّا فعلتَ ندمًا صادقًا، والإقلاع عن الذنوب ورفضْها وترْكها مُستقبَلًا طاعةً لله وتعظيمًا له، والعزم الصادق أن لا تعود إلى تلك الذنوب، هذه أمورٌ لا بُدَّ منها:

أوَّلًا: الندم والحزن على الماضي منك.

ثانيًا: الإقلاع والترْك لهذه الذنوب دقيقها وجليلها.

ثالثًا: العزم الصادق أن لا تعود فيها.

---

(١) يُنظَر من قوله: (فإذا أراد اللهُ بعبده خيرًا ..) إلى هنا: الوابل الصيب لابن القيم (ص ١١). الوابل الصيب من الكلم الطيب، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق : محمد عبد الرحمن عوض، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م.



فإن كانت عندك حقوقٌ للناس: أموالٌ أو دماءٌ أو أعراضٌ؛ فأدِّها إليهم، هذا أمرٌ رابعٌ من تمام التوبة، عليك أن تُؤدِّي الحقوق التي للناس، إن كان قصاصًا تُمكِّن من القِصاص إلَّا أن يسمحوا بالدِّية، وإن كان مالًا تَرُدُّ عليهم أموالهم إلَّا أن يسمحوا، وإن كان عِرْضًا كذلك، تكلَّمتَ في عِرْضهم واغتبتَهم تستسمحهم، وإن كان استسماحُهم قد يُفضي إلى شرٍّ فلا مانع من تركه، ولكن تدعو لهم، وتستغفر لهم، وتذكرهم بالخير الذي تعلمه منهم في الأماكن التي ذكرتَهم فيها بالسوء، فيكون هذا كفارةً لهذا، وعليك البدار قبل الموت، وقبل أن ينزل بك الأجل، عليك البدار والمسارعة، ثم الصبر والصدق، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[١]. افهمْ معنى: وَلَمْ يُصِرُّواْ يعني: لم يقيموا على المعاصي، بل تابوا وندموا وتركوا، وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، ثم قال بعد هذا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[٢]. هذا جزاء التائبين الذين أقلعوا ولم يُصرُّوا؛ مغفرة وجنَّة، فأنتَ- إن شاء الله- منهم إذا صدقتَ في التوبة"[٣].

والخلاصة: أنَّ التوبة واجبةٌ وفرضُ عينٍ في كلِّ حالٍ، وتتأكَّد التوبة لمن عمل ذنبًا ولو صغيرًا، وشروطها ثلاثة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم على أنْ لا يعود، ثم ردُّ المظالم إلى أهلها؛ إن كان الذنب في حقِّ العباد، فلا تُقبَل توبة المتمادِي في الفسوق والمقيم على الذنب.

ولله درُّ القائل:

يا نفسُ تُوبي فإنَّ الموتَ قد حانَا	واعصي الهوى فالهوى ما زالَ فتَّانَا
أمَا تَرينَ المنـــايا كيفَ تلقطُنـا	لقطًا فتُلـــحِقُ أُخــــرانا بأُولانَا
في كلِّ يومٍ لنا مَيْتٌ نُشَـــيِّعُهُ	نُحيي بمصـــــــرَعِه آثارَ مَوْتَانَا[٤]

---

(١) آل عمران ١٣٥.

(٢) آل عمران ١٣٦.

(٣) مجموع فتاوى ابن باز (٢٨/ ٤٤٧-٤٤٩). مجموع فتاوى العلَّامة عبد العزيز بن باز- رحمه الله-، المؤلف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

(٤) ذكرها ابن الجوزي في المدهش (ص ٣٧٥). وابن رجب الحنبلي في كتابه شرح حديث: (إنَّ أغبطَ أوليائي) (ص ٧٦٨) ضمن مجموعة رسائل ابن رجب. المدهش، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقِّق: الدكتور مروان قباني، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت / لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، المؤلف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دراسة وتحقيق: أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.

٥ محرم

الاستقامة على الدين

الاستقامة:" كلمةٌ آخِذةٌ بمجامع الدين كلِّه، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، وهي تتعلَّق بالأقوال والأفعال، والأحوال والنِّيَّات"، ولهذا رتَّب الله- سبحانه- على الاستقامة الأجر العظيم فقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[١]، هذا في الآخرة، أمَّا في الدنيا فإنَّ الله- عزَّ وجلَّ - قال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾[٢].

قال ابن كثير- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[٣]: أي أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرعه الله لهم[٤].

وقال العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي- رحمه الله- في تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[٥]: أي: اسلكوا الصراط الموصِل إلى الله تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتِّباع الأمر، واجتناب النهي، هذه هي حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك[٦].

وقال الإمام ابن رجب- رحمه الله-: الاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، من غير تعرُّج عنه، يمنةً ويسرةً، ويشمل ذلك: فِعْل الطاعات كلِّها الظاهرة والباطنة، وترْك المنهيات كلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيةُ جامعةً لخصال الدين كلِّها"[٧].

---

(١) فصلت ٣٠.

(٢) الجن ١٦.

(٣) فصلت ٣٠.

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٥).

(٥) فصلت ٦.

(٦) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٤٥).

(٧) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١٠). جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقِّق: شعيب الأرناؤوط- إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.



وكان الصالحون دومًا يسألون الله الاستقامة ومجاهدة النفس لنيلها، فكان الحسن يقول: اللهمَّ أنتَ ربُّنا؛ فارزقْنا الاستقامة[١]. وقال ابن المنكدر: كابدتُ نفسي أربعين سنة حتَّى استقامتْ[٢]. فإذا وُفِّق العبد المؤمن للاستقامة على دين الله؛ فإنَّ عليه أن يجاهد نفسه على الثبات، قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[٣].

قال الحافظ ابن كثير–رحمه الله–: يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة[٤].

وقال ابن عطية: أمْرُ النبي ﷺ بالاستقامة وهو عليها؛ إنَّما هو أمْرُ بالدوام والثبات[٥].

إنَّ الاستقامة لنعمة عظيمة ومنحة جليلة، فمَن وُفِّق للاستقامة على دين الله؛ فهذه من أجَلِّ نِعَمِ الله عزَّ وجلَّ عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–: الكرامة لزوم الاستقامة، وإنَّ اللهَ لم يُكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يُحبُّه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٦] [٧].

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٣/ ١٥٤). تفسير عبد الرزاق، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت. الطبعة: الأولى، سنة ١٤١٩هـ

(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ١٤٧). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة– بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م، ثم صورتها عدَّة دور منها، ١– دار الكتاب العربي– بيروت، ٢– دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت، ٣– دار الكتب العلمية– بيروت (طبعة ١٤٠٩ هـ بدون تحقيق).

(٣) هود ١١٢.

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٤).

(٥) تفسير ابن عطية= المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٢١١). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقِّق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٦) يونس ٦٢.

(٧) أمراض القلوب وشفاؤها (ص ٤٩). أمراض القلب وشفاؤها، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، الناشر: المطبعة السلفية– القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ.

كما أمر الشارعُ بسلوك طريق الاستقامة والترغيب في ذلك، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[(١)].

قال الشيخ أبو بكر الجزائري: من هداية الآيات: وجوب الاستقامة على دين الله تعالى عقيدةً وعبادةً وحُكمًا وأدبًا [(٢)].

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي– رضي الله عنه– قال: قُلتُ: يا رسول الله؛ قُلْ لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال:" قُلْ آمنتُ بالله ثم استقمْ" رواه مسلم[(٣)].

فعلى المسلم أن يُكثر من الدعاء بالثبات على الاستقامة، فعن أنس– رضي الله عنه– قال:" كان رسول الله ﷺ يُكثِر أن يقول:" يا مُقلِّبَ القلوبِ؛ ثبِّتْ قلبي على دينِكَ" قلتُ: فقلتُ: يا نبي الله؛ آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم؛ إنَّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يُقلِّبُها كيف شاء" أخرجه الترمذي[(٤)]. قال الإمام المباركفوري– رحمه الله–:" ثبِّتْ قلبي على دينِكَ" أي اجعله ثابتًا على دينك، غير مائل عن الدين القويم، والصراط المستقيم[(٥)].

قال الحافظ ابن رجب– رحمه الله–: وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾[(٦)]؛ إشارة إلى أنه لا بُدَّ من تقصيرٍ في الاستقامة المأمور بها، فيَجبُرُ ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى

---

(١) هود ١١٢.

(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٨٤). أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم (٣٨) كتاب الإيمان. باب جامع أوصاف الإسلام. وهو عنده بلفظ:" قلْ آمنتُ بالله فاستقمْ".

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٤٤٨) برقم (٢١٤٠) أبواب القدر. باب ما جاء أنَّ القلوب بين أصبعي الرحمن، وقال عقبه:" هذا حديث حسن". وهو أيضًا في مسند الإمام أحمد (١٩/ ١٦٠) برقم (١٢١٠٧). مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط– عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م. والحديث صحَّحه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١/ ٣٧). مشكاة المصابيح، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١ هـ)، المحقِّق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي— بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م.

(٥) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٩١). تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المؤلف: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (المتوفى: ١٣٥٣ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية— بيروت.

(٦) فصلت ٦.



الاستقامة، فهو كقول النبي ﷺ لمعاذٍ:" اتَّقِ الله حيثما كنتَ، وأتبعِ السيئة الحسنة تمحها"رواه الترمذي[١]، وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ الناس لن يطيقوا الاستقامة حقَّ الاستقامة، ففي حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال:" استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أنَّ خير أعمالكم الصلاة، ولا يُحافِظُ على الوضوء إلَّا مؤمنٌ" أخرجه ابن ماجه[٢]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال:" سدِّدوا وقاربوا"[٣]، فالسدادُ هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد.

والخلاصة: أنَّ أصل الاستقامة الثبات على التوحيد، وعدم الميل عنه، ومحلُّها القلب، فمتى استقام القلب على معرفة الله- عزَّ وجلَّ-، وخشيته وإجلاله، ومهابته ومحبَّته، وإرادته ورجائه، ودُعائه والتَّوكُّل عليه، والإعراض عمَّا سواه؛ استقامت الجوارح كلُّها على طاعته، فإنَّ القلب هو ملِك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملِك استقامت جنوده ورعاياه، وأعظم ما يُراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللِّسان، فإنَّه ترجمان القلب المعبِّر عنه. فعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب "رواه البخاري[٤]. وعن أنس عن النبي ﷺ قال:" لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتَّى يستقيم لسانه" رواه أحمد[٥].

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٦) برقم (١٩٨٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في معاشرة النساء. وقال عقبه:" هذا حديث حسن صحيح". والحديث صحَّحه الألباني بمجموع طرقه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٣٦٢). سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ١٠١) برقم (٢٧٧) كتاب الطهارة وسننها. باب المحافظة على الوضوء. سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية- فيصل عيسى البابي الحلبي. والحديث صحَّحه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١/ ٩٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٦) برقم (٣٩) كتاب الإيمان. باب الدينُ يُسرٌ. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧١) برقم (٢٨١٨) كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار. باب لن يدخل أحدٌ الجنَّة بعمله بل برحمة الله تعالى.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم (٥٢) كتاب الإيمان. باب فضْل مَنِ استبرأ لدينه. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) كتاب المساقاة. باب أخْذ الحلال وترْك الشبهات.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٢٠/ ٣٤٣) برقم (١٣٠٤٨). مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ٨٢٢) برقم (٢٨٤١).

وأخيرًا عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- عن النَّبيِّ ﷺ قال:" إذا أصبح ابنُ آدم فإنَّ الأعضاء كلَّها تُكفِّر اللِّسان، فتقول: اتقِ الله فينا، فإنَّما نحن بك، فإنِ استقمتَ استقمنا، وإنِ اعوججتَ اعوججنا" رواه الترمذي(١).

ويُعجبني قول القائل- وقد أحسن وأبدع- عن الاستقامة:

بالأمسِ كنتُ على شفا جُرفٍ هَوَى ... والذَّنبُ في ظُلُمَاتِهِ بُرْكَانِي

مـا كنتُ أعلمُ أنَّ رُوحـــي تَائِهَةٌ ... حتَّى اســتقرَّ النُّورُ فِي أَرْكَـــانِي

ثُمَّ اســتقامَ القلبُ فِي دَرْبِ الهُدَى ... وَجَوَارِحِي حتَّى استَقَامَ لِسَانِي

إنَّ الهِـــدَايَةَ مِثْلُ غَيثٍ مَاطِـــرٍ ... تَرْوِي ضُلُـــوعَ القَلْبِ بِالْقُرْآنِ

وَمَنِ اســتَقَامَ عَلَى الصِّـرَاطِ طَرِيقُهُ ... كَانَتْ نِهَايَتُهُ بِأَعْلَـــى جِنَانِ(٢)

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٦) برقم (٢٤٠٧) أبواب الزهد. باب ما جاء في حفظ اللِّسان. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٤٠٧). صحيح وضعيف سنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.

(٢) لم أقف على قائلها.



٦ محرم

الثبات زمن الفتن

التثبيت: مِن ثَبَتَ الشيءُ يثبت ثبوتًا؛ أي: دام واستقرَّ فهو ثابت. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "التثبيت هو التثبُّت؛ كقوله تعالى:﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾[1]. والتثبُّت: هو القوَّة والمكنة، وضده الزلزلة والرجفة.

وقال ابن القيم:" الخلْق كلُّهم قسمان: مُوفَّقٌ بالتثبيت، ومخذولٌ بترْك التثبيت، ومادة التثبيت وأصله ومَنشؤه من القول الثابت وفِعْل ما أُمِر به العبد، فبهما يُثبِّت الله عبده، فكلُّ مَن كان أثبت قولًا وأحسن فعلًا؛ كان أعظم تثبيتًا[2].

ويقول الله تعالى عن الفتن وعلاقتها بالإيمان: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[3].

وعن حذيفة بن اليمان– رضي الله عنه– قال: كنَّا عند عمر– رضي الله عنه– فقال: أيُّكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال لهم عمر: لعلَّكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل، قال: تلك تُكفِّرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيُّكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج كموج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلتُ: أنا، قال: لله أبوك، قال حذيفة– رضي الله عنه–: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:" تُعرَضُ الفتنُ على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشربها نكتتْ فيه نكتة سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نكتتْ فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبَين: على أبيض مثل الصفا فلا تضرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا يُنكِر مُنكَرًا إلَّا ما أُشرِب مِن هواه" رواه مسلم[4].

---

(١) النساء ٦٦.

(٢) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين (١/ ١٣٦). إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٣) العنكبوت ٢-٣.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٨) برقم (١٤٤) كتاب الإيمان. باب بيان أنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنَّه يأرز بين المسجدين.

وعن خباب بن الأرت قال:" شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو مُتوسِّدٌ بُردةً له في ظلِّ الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيُجعَل فيه، فيُجاء بالمنشار فيُوضَع على رأسه فيُشقُّ باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينه. ويُمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصبٍ وما يصدُّه ذلك عن دينه، واللهِ ليُتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتَّى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلَّا اللهَ أو الذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون" رواه البخاري(١).

ومن الفتن العظيمة التي حذَّرنا منها النبي ﷺ (وقد زلَّتْ بكثيرٍ من الناس) فتنة النساء، فيقول:" مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِي النَّاسِ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاء" رواه مسلم(٢).

فاختلاطهن بالرجال من أعظم الفتن، فإنَّ تمكينَ النساءِ من الاختلاطِ بالرجالِ أصلُ كلِّ بليةٍ وشرٍّ، وهو أعظمُ أسبابِ نزولِ العقوباتِ العامَّة. قال رسول الله ﷺ:" فاتَّقوا الدنيا، واتَّقوا النساء؛ فإنَّ أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء" رواه مسلم(٣).

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من خطر الفتن فقال:" بادِروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يُصبِح الرجلُ مؤمنًا ويُمسِي كافرًا، أو يُمسِي مؤمنًا ويُصبِح كافرًا، يبيع أحدُهم دينَه بعَرَضٍ من الدنيا قليل" رواه مسلم(٤).

وعن أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَت:" اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً فَزِعًا يَقُولُ:" سُبْحَانَ اللَّهِ؛ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْفِتَنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ- يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ- لِكَيْ يُصَلِّينَ؟ رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا، عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ" رواه البخاري(٥).

وعَنْ عَائِشَةَ- رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ:" اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَغْرَمِ وَالْمَأْثَمِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَفِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ" رواه البخاري(٦).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٠١) برقم (٣٦١٢) كتاب المناقب. باب علامات النبوَّة في الإسلام.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٨) برقم (٢٧٤١) كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء، وأكثر أهل النَّار النِّساء، وبيان الفتنة بالنِّساء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٨) برقم (٢٧٤٢) كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء، وأكثر أهل النَّار النِّساء، وبيان الفتنة بالنِّساء.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٠) برقم (١١٨) كتاب الإيمان. باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهُر الفتن.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ٤٩) برقم (٧٠٦٩) كتاب الفتن. باب لا يأتي زمانٌ إلَّا الذي بعده شرٌّ منه.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٠) برقم (٦٣٧٥) كتاب الدعوات. باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة النَّار.



وفي عهد الإمام أحمد بن حنبل ظهر من ادَّعى أنَّ القرآنَ مخلوقٌ وهم من يُسمَّون بالمعتزلة، فعندما جاء الخليفة المأمون إلى الحكم بدأ المعتزلة يتسلَّقون إلى سدَّة الحكم وصاروا بطانة السوء للمأمون، وبرز منهم ابن أبي دؤاد الذي قام بتحريك الفتنة وأقنع بها المأمون، فصارت فكرًا رسميًّا مُعلَنًا من الدولة؛ إذ طلب المأمون أن يُنشرَ في كلِّ مكانٍ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ، فرفض الإمام هذا الفكر المختلَّ، وأعلن رفضه له فتعرَّض للسجن وللضرب بالسياط حتَّى يرجع عن فتواه ويقرَّ هذا الفكر الشاذَّ، فرفض وتصدَّى لهم ولمن يناصرهم، حتى قضى على هذه الفكرة الغريبة على الدين حتَّى قيل:" لولا سياطٌ على ظهر ابن حنبل ما كان إمامَ أهلِ السُّنَّة".

ومن ثمرات الثبات على الحق في زمن الفتن أنَّ أهل الثبات في الدنيا هم أهل الثبات في الآخرة؛ قال تعالى:﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

أخي المسلم؛ لا تأمنْ على نفسك، ولا تركنْ إلى ما عندك من العلم والعبادة، بل اجتهدْ في العمل والافتقار إلى الله ودعائه بالثبات، وعليك أن تُكْثِرَ مِن قول: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾[2]. وقولِ:" يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ؛ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ".

والخلاصة: أنَّ التثبيت منهجٌ ربَّانيٌّ وطريقٌ عتيقٌ، فيه سار الأنبياء والرسل،والصِّدِّيقون والعلماء، والشُّهداء والصَّالحون، وهم قدوتنا وأسوتنا أمام دعاة التثبيط والتغريب، فعلينا أن نثقَ بنصر الله عزَّ وجلَّ، فمهما طال الليل واشتدَّ الظلام؛ فلا بُدَّ أن يبزغ الفجر، ويحلَّ النهار، ويعمَّ النور، فهذه عقيدة عميقة في قلوب أصحاب الدعوات؛ لأنَّهم استمعوا بقلوبهم إلى قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[3].

---

(١) إبراهيم ٢٧.

(٢) آل عمران ٨.

(٣) يوسف ١١٠.

ولله درَّ القائل(١):

إليكَ أسـبابُ الثَّباتِ على التُّقَى ... مِنهَا لُزُومُ الصِّدْقِ كُـلَّ أَوَانِ
وَعَقيدةُ التَّوحيـدِ مِن ثَمراتِهَـا ... شرْحُ الصُّدورِ لسَائرِ الإنسانِ
وَمجَالِـسُ العُلمَاءِ لَا تَزهَـدْ بِهَا ... وَلْتَصْحَبِ الْأَزْكَى مِنَ الْخِلَّانِ
وَالذِّكرُ لَا تترُكْهُ إِنْ رُمْتَ الهُدَى ... وَاحذَرْ مِنَ الْهُجْرَانِ لِلْقُرْآنِ
قَلِّبْ بِطَرفِكَ نَاظِرًا مَلَكُـوتَ مَنْ ... هُوَ لِلْخَلِيقَةِ مَظْهَرُ الْإِحْسَانِ
لَا تَأمَنَـنْ مَكْرَ الإِلَهِ فَإِنَّ ذَا ... صِفَةٌ لِأَهْلِ الزَّيْغِ وَالْكُفْرَانِ
وَسَلِ الثَّبَاتَ عَلَى الهُدَى مِنْ رَبِّنَا ... فَهُوَ الْمُجِيبُ وَغَافِرُ الْعِصْيَانِ

---

(١) لم أقف على قائلها.



٧ محرم

مواسم الطاعات

مِن فضْل الله تعالي على أمَّة محمَّدٍ ﷺ أن جعل لهم مواسم للطاعات، تتضاعف فيها الحسنات، وتُرفَع فيها الدرجات، ويُغفَر فيها كثير من المعاصي والسيِّئات، فالسعيد مَنِ اغتنم هذه الأوقات، وتعرَّض لهذه النفحات. وقد جعل الله في أيَّام الحياة مواسم خيرات، وفرصًا للتزوُّد من الطاعات، يرتقي بها المسلم أعلى الدرجات، ويفوز برحمةٍ من الله وفضْلٍ، وذلك لحِكَمٍ بليغة ومسالك تربوية سامية، وأجَلُّها أن يبقى العبد قويَّ الصلة بربِّه، هذه المواسم تزيد الإيمان وتُنمِّي التقوى، وترفع رصيدك في ميزان العمل الصالح، وتُزكِّي الروح، وتُهذِّب النَّفس، وتُقوِّي الهمَّة، وتُعوِّض النقص والخلل في العبادة، وتدفع السآمة والملل والفتور، وتفتح آفاقًا رحبة في ميدان التنافس، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾(١).

والمسلم عندما تدخل عليه مواسم الطاعة ينشط لها، ويفرح بها، يرجو ثواب ربِّه، ويأمل ما عنده من خيرٍ وبِرٍّ، وإنَّ من الفرح بفضْل الله ورحمته والاغتباط بنعمته؛ اغتنام مواسم الخيرات وأوقات الطاعات، وانتهاز فرصها، والمبادرة بالجدِّ فيها بصالح العمل، والتوبة إلى الله عمَّا مضى من النقص والخلل، والتنافُس في الطاعة، وتجديد النشاط في البِرِّ، وإزالة مظاهر السآمة والملل والفتور، والمسارعة والمسابقة إلى دار النعيم والحبور.

والناس في مواسم الطاعات على صنفين:

فأمَّا الصنف الأوَّل: فهو صنفٌ عَلِمَ الغاية التي من أجْلِها خُلِقَ، فعلم أنَّه لم يُخلَق ليأكل أو يشرب، أو يلهو ويلعب، أو يتمتَّع ويلبس، لكنَّه علم أنَّ الله عزَّ وجلَّ خلقه لعبادته وطاعته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢).

فهؤلاء أقوامٌ امتلأتْ قلوبهم بمعرفة الله، وغمرتْ قلوبهم محبَّة الله وخشيته، ومراقبته وإجلاله، فَسَرَتِ المحبَّة في قلوبهم وأبدانهم، فلم يبقَ فيها عِرْقٌ ولا مفصلٌ إلَّا وقد دخله الحُبُّ، وقد أنساهم حُبُّه ذِكْرَ غيره، وأوحشهم أنسُهم به ممَّن سواه.

---

(١) المطففين ٢٦.

(٢) الذاريات ٥٦.

فبات الجسم على الفراش يتجافى عن مضجعه، والقلب قد آوى إلى مولاه وحبيبه فآواه، وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا، ذليلًا مُنكسِرًا من كلِّ جهاته، فما أشرفها من سجدة!!

وأمَّا الصنف الآخر: فصنفٌ غافلٌ لاهٍ ساهٍ، لا يعرف قيمة وقته ولا عمره، ولا يعرف حقَّ رازقه وخالقه، فتجده مُضيِّعًا لأوقاته في اللهو واللعب، تمرُّ عليه الأيَّام والسنون فلا ينتبه ولا يعتبر، ولا يشعر بقيمتها ولا بفضائلها، سبقت حظوظ نفسه وشهواته واجباته وحقوق ربِّه عليه، فخرج من دنياه بلا زاد، فيا حسرته على ما فرَّط في حقِّ نفسه وحقِّ ربِّه، ويا حسرات مَن ضيَّع وقته وعمره فيما لا ينفع.

قال ابن القيم:" فالوقتُ مُنقَضٍ بذاته، مُنصَرِمٌ بنفسه، فمَن غفلَ عن نفسه تصرَّمتْ أوقاته، وعظم فواته، واشتدَّتْ حسراته، فكيف حاله إذا علم عند تحقُّق الفوت مقدار ما أضاع، وطلب الرُّجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع، وطلب تناول الفائت، وكيف يُردُّ الأمس في اليوم الجديد، وأنَّى لهم التناوشُ من مكانٍ بعيدٍ، ومُنِع ممَّا يُحِبُّه ويرتضيه، وعلم أنَّ ما اقتناه ليس ممَّا ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه"(١).

فلا بُدَّ للمرء أن يستشعر في نفسه قصر أجله وقصر عمره، وإذا استقبل المرء مواسم الخير وهو قاصر الأمل يقول: لا أدري أعيش غدًا أم لا؛ فلا شكَّ أنَّ هذا من أعظم الأمور والأسباب المعينة على اغتنام مواسم الطاعات، والإنسان مهما طالت حياته وطال عمره لا بُدَّ له في النهاية أن يموت، وليس بين المرء وأمر الآخرة إلَّا قبض روحه، والموت لا يدع صغيرًا لصغره، ولا يدع كبيرًا لكبره، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢).

ولله درُّ كعب بن زهير– رضي الله عنه– حين قال:

كلُّ ابنِ أُنثى وإنْ طالتْ سلامتُه ... يومًا على آلةٍ حدباءَ محمولُ(٣)

ولما علِمَ الصالحون قصر العمر وحثَّ الحادي؛ سارعوا وطووا مراحل الليل مع النهار؛ اغتنامًا للأوقات، فأصغِ يا أخي سمعك لنداء ربِّك، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾(٤)، وبادِرْ قبل طيِّ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٣/ ٥٠).

(٢) الأعراف ٣٤.

(٣) ديوان كعب بن زهير (ص ٤٩). ديوان كعب بن زهير، المؤلف: كعب بن زهير بن أبي سلمى، المزني، أبو المضرَّب شاعر مخضرم.

(٤) الذاريات ٥٠.



صحيفتك، واحسرْ عن رأسك قناع الغافلين، وشمِّرْ للسباق غدًا، فإنَّ الدنيا ميدان المتسابقين، واعلمْ أنَّنا خُلِقنا لنحيا في دارٍ غَرَسَ غراسَها الرحمنُ بيده.

معاشر المؤمنين؛ اعمروا أوقاتكم بالطاعة، واغتنموا مواسم الخير والبِرِّ بأربح البضاعة، وقِفوا عند الحدود، وأخلصوا للإله الحقِّ المعبود، وتذكَّروا أنَّ المؤمن لا يزيده عمره إلَّا خيرًا، فخيرُكم مَن طال عمرُه وحسُن عملُه، وليس للعمل انقطاع دون الموت؛ قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[(١)].

وقد بيَّن الله- سبحانه وتعالى- أنَّ الاستعداد لمواسم الخير التي هي فُرصٌ عابرةٌ؛ دليلٌ على الصدق لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ﴾[(٢)]، مُبيِّنًا أنَّ لهذه الأُمَّة نفحاتٍ في أيَّام دهرها، يقول أنس بن مالك- رضي الله عنه-:" اطلبوا الخير دهركم كلَّه، وتعرَّضوا لنفحات رحمة الله، فإنَّ لله- سبحانه وتعالى- نفحاتٍ من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده"[(٣)].

وإنَّ من أعظم الخسارة أن تضيع من العبد مواسم الخيرات والطاعات دون أن يغتنمها، ويخرجَ منها فائزًا برحمات الله وبركاته، ولا تزيده هذه المواسم المباركة هدًى واستمساكًا بشريعة ربِّه- سبحانه- وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وإنَّ المسلم اللبيب ليغتنم أنفاسه، ويُقبِل على ربِّه ويُكثِر من الطاعات، يرجو رضا ربِّ الأرض والسماوات.

فاحرصْ- أخي المسلم- على اغتنام أوقاتك في الطاعة، وخذْ من قُوَّتك لضعفك، ومن شبابك لهرمك، ومن غناك لفقرك، ومن فراغك لشغلك، ومن صحَّتك لسقمك، فالسعيد مَن أشغل نفسه في الطاعة، والشقيُّ مَن أتبع نفسه هواها، ومَن تمنَّى على الله الأماني، والنفس إن لم تشغلْها بالطاعة شغلتْك بالمعصية، والوقت كالسيف إن لم تقطعْه قطعك.

---

(١) الحجر ٩٩.

(٢) محمد ٢١.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٧١) برقم (١٠٨٣). شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي– الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. والحديث حسَّنه الألباني مرفوعًا كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٥١١) وأوَّلُه:" افعلوا الخير دهركم ...".

والخلاصة: أنَّ التذكير بفضل اغتنام مواسم الطاعات يكون مِن خلال ثلاثة معالم مُهمَّة:

أوَّلها: بيان حكمة الله في تقلُّب الزمان، وتفضيل بعض الشهور والأيَّام.

ثانيها: بيان أهمِّيَّة الوقت ووجوب عمارته بالطاعة، والحذر من ضياعه فيما لا فائدة منه.

ثالثها: استحباب الاستعداد للطاعات قبل دخول زمانها.

فقد جعل الله لكلِّ موسمٍ وظيفة مِن وظائف طاعته: (صيام- حج- قيام- صدقة- أضحية.......) يقول النبي ﷺ:" إنَّ لِربِّكم عزَّ وجلَّ في أيَّامِ دهرِكم نَفَحاتٍ، فتعرَّضوا لها؛ لعَلَّ أحَدَكم أنْ تُصيبَه منها نَفحةٌ لَا يشقى بعدَها أبدًا "رواه الطبراني(١).

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٣/ ١٨٠) برقم (٢٨٥٦) وقال عقبه:" لا يُروَى هذا الحديث عن محمد بن مسلمة إلَّا بهذا الإسناد، تفرَّد به أحمد بن عبدة". المعجم الأوسط، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقِّق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين– القاهرة. والحديث حسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٥١٢).



٨ محرم

قصَّة نجاة موسى– عليه السلام– وقومه

بعد أن أظهر الله– عزَّ وجلَّ– حُجَّة موسى– عليه السلام– على فرعون واستمرَّ في دعوته إلى الله؛ قام فرعون وقومُه بالتآمُر على قتْل موسى، فذلك أقرب طريقٍ أمامهم، وأدنى السُّبُل لبقاء مُلْكهم بعد أن أعيتْهم الحيل، وسُدَّتْ أمامهم منافذ الخلاص. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[1]، وبينما هم في أخذٍ وردٍ في تآمُرهم على قتْل موسى؛ إذ وقعت المروءة والشجاعة في قلبِ رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون، أنار الله بصيرته، وكشف له سبيل الرشد والإيمان، فدافع عن موسى أشدَّ الدفاع، وقال لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[2].

استمرَّ موسى في دعوته، لا يثنيه وعيد، ولا يخيفه تهديد، يدعو فرعون إلى الإيمان بربِّه، وأن يُطلِق معه بني إسرائيل، ولكنَّ فرعون الطاغية جمع قومه يريد أن يُبهرهم بالقُوَّة، ويُثبِّتهم على الكفر والمذلَّة، قال: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[3].

فأخذهم الله– عزَّ وجلَّ– بنقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات، فنضب النيل، وغاض ماؤه، وقصر عن إرواء أراضيهم، فنقصت ثمراتهم، وذوى عود خيرهم، ثم أغرقهم الطوفان من مطر السماء، فأضرَّ بما بقي من الزرع والضرع، ثم زحف عليهم جرادٌ أَكَلَ الثمار والأزهار، واستولى عليهم القُمَّل فأقضَّ مضاجعهم وأقلق رقادهم، وابتلوا بالضفادع فنغَّصتْ عيشتهم، واحتشد جمعُها في طعامهم وشرابهم وبين ملابسهم، وسلَّط عليهم الرعاف– أي خروج الدم– من أنوفهم.

ثم محق الله أموالهم وأهلكها جزاء كفرهم وعنادهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

---

(١) غافر ٢٦.

(٢) غافر ٢٨.

(٣) الزخرف ٥١-٥٢.



يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[١].

فكان الله- عزَّ وجلَّ- يكشف العذاب والبلاء عن فرعون وقومه بعد أن يطلبوا من موسى أن يدعو الله ليكشف عنهم البلاء، وعندما يكشفه الله- عزَّ وجلَّ- يعودون لنقْضِ العهد حتَّى انتقم الله منهم بإغراقهم.

عزم موسى- بعد أن أوحى الله إليه- أن يخرج بالمؤمنين معه من مصر إلى الأرض المقدَّسة، وقد سهَّل الله إليها طريقهم، فساروا حثيثًا يدفعهم الخوف ويعصمهم الإيمان، حتَّى قطعوا رقعة اليابسة المصرية، وإذا بهم أمام بحرٍ لُجيٍّ يقف سدًّا منيعًا دون غايتهم، فساورهم القلق، واستولى عليهم الجزع، ودخل نفوسهم الروع والفزع؛ لأنَّ فرعون وقومه جدُّوا في السير في طلبهم، وأوشكوا أن يقتربوا منهم لأنَّهم- على حدِّ زعمه- عبيدٌ آبقون، وأتباعٌ مارقون، وقد جيَّش فرعونُ جيشه، وحشد خيله ورجاله، وسار وراء موسى ومن تبعه، فاقتربوا منهم، فهاج بنو إسرائيل، وتقطَّعت نفوسُهم همًّا وحسرة، وصاح بعضهم: يا كليم الله؛ أين تدبيرك؟! ها قد أدركَنا عدوُّنا؟! فالبحرُ أمامنا، والعدوُّ وراءنا، وليس لنا من الموت محيصٌ ولا مفرٌّ.

فقال موسى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[٢].

فسار الأمل في نفوسهم، وأوحى الله- عزَّ وجلَّ- إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فإذا باثني عشر طريقًا بعدد بطون بني إسرائيل، فهيَّأ الله- عزَّ وجلَّ- لهم في البحر طريقًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[٣].

---

(١) الأعراف ١٣٠- ١٣٦.

(٢) الشعراء ٦٢.

(٣) طه ٧٧.



فأصبح في البحر طريقٌ، وعلى كلِّ جانبٍ كالجبل العظيم من المياه، فدخلوا بأمْرٍ من الله حتَّى خرجوا من الجهة الأخرى سالمين، وإذا بفرعون وجنوده خلفهم يتأهَّبون ليسلكوا من البحر مسالك بني إسرائيل التي عبروا منها حتَّى يلحقوا بهم، فعاد الخوف والقلق إلى نفوس بني إسرائيل بعد أن أظلَّهم الأمن، وهنا همَّ موسى أن يدعو البحر ليعود إلى حاله حتَّى يحول بينهم وبين فرعون ويحجزهم حتَّى لا يبطشوا بهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فأوحى الله- عزَّ وجلَّ- إلى موسى أن يترك البحر ساكنًا على حاله؛ لأنَّ له سبحانه أمرًا آخر.

تلفَّتَ فرعون وجنوده، فإذا سُبُلُ البحر مُفتَّحةٌ أمامهم، فأخذهم الغرور والضلال، فأمر فرعونُ جنوده بعبور البحر، فلمَّا وصلوا إلى عرضه ودخلوا فيه جميعًا انطبق عليهم فأغرقهم أجمعين، فصاروا مثلًا للآخَرين.

ولما انطبق البحر على فرعون وقومه انطباقًا صاخبًا سأل بنو إسرائيل موسى- عليه السلام-: ما هذه الضوضاء؟! فقال لهم موسى: إنَّ الله أغرق فرعون ومَن معه وأهلكهم، وقد رسخ في عقولهم أنَّ فرعون لا يموت حسب وهمهم، ولكنَّ هذه قدرة الله- عزَّ وجلَّ-، عند ذلك أَمَرَ الله- عزَّ وجلَّ- البحر أن يُلقِي جُثَّة فرعون على ساحله ليراها بنو إسرائيل ويُصدِّقوا ويذهب خوفهم واعتقادهم أنَّه لا يموت، فنظر بنو إسرائيل إلى جُثَّته داهشين ذاهلين، ليكون آية لمن خلفه، آية ناطقة على قدرة الله ومعجزته، وذلك غاية الإنعام الذي تفضَّل به ربُّ العالمين على موسى وقومه. ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[1]. آمنَ فرعونُ الطاغية عندما رأى الموت وأنَّه لا نجاة له من الغرق.

والخلاصة: أنَّ الله- عزَّ وجلَّ- لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[2].

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[3].

---

(١) يونس ٩٠ -٩٢.

(٢) غافر ٨٥.

(٣) النساء ١٨.

٩ محرم

فضْل صيام يوم عاشوراء ويومٍ قبله

قال الإمام النووي- رحمه الله-:" عاشوراء وتاسوعاء اسمان ممدودان، هذا هو المشهور في كتب اللغة، قال أصحابنا: هو اليوم العاشر من المحرَّم، وتاسوعاء هو التاسع منه، وبه قال جمهور العلماء. وهو ظاهر الأحاديث، ومقتضى إطلاق اللفظ، وهو المعروف عند أهل اللغة"[١].

وعن عبد الله بن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال:" قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، نجَّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوِّهم، فصامه، فقال: أنا أحقُّ بموسى منكم فصامه، وأمر بصيامه" رواه البخاري[٢].

وفي رواية:" فصامه موسى شُكْرًا، فنحن نصومه" رواه مسلم[٣].

وفي رواية ثالثة:" فنحن نصومه تعظيمًا له" رواه مسلم[٤].

وعن الرُّبيّع بنت معوّذ- رضي الله عنها- قالت:" أرسل رسول الله ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة: مَن كان أصبح صائمًا فليُتِمَّ صومَه، ومن كان مُفطرًا فلْيُتِمَّ بقيَّة يومه، فكنَّا بعد ذلك نصومُه، ونُصوِّمُه صبياننا الصغار، ونذهب إلى المسجد، فنجعل لهم اللعبة من العُهن، فإذا بكى أحدهم أعطيناها إيَّاه، حتى يكون الإفطار" رواه مسلم[٥].

وفي رواية:" فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم، حتَّى يُتِمُّوا صومهم" رواه مسلم[٦].

وعن سلمة بن الأكوع- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ أمر رجلًا من أسلم:" أن أذِّنْ في الناس: مَن كان أكل فلْيصُمْ بقيَّة يومه، ومن لم يكن أكل فلْيصُمْ، فإنَّ اليوم عاشوراء" رواه البخاري[٧].

---

(١) المجموع شرح المهذب (٦/ ٣٨٣) بتصرُّف. المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي))، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ) الناشر: دار الفكر، (طبعة كاملة معها تكملة السبكي والمطيعي).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٤) برقم (٢٠٠٤) كتاب الصوم. باب صيام يوم عاشوراء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٦) برقم (١١٣٠) كتاب الصيام. باب صوم يوم عاشوراء.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٥) برقم (١١٣٠) كتاب الصيام. باب صوم يوم عاشوراء.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٨) برقم (١١٣٦) كتاب الصيام. باب مَن أكل في عاشوراء فليكُفَّ بقيَّة يومه.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٩) برقم (١١٣٦) كتاب الصيام. باب مَن أكل في عاشوراء فليكُفَّ بقيَّة يومه.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٤) برقم (٢٠٠٧) كتاب الصوم. باب صيام يوم عاشوراء.



وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت:" كان عاشوراء يُصام قبل رمضان، فلمَّا نزل رمضان كان مَن شاء صام، ومَن شاء أفطر" رواه البخاري(١).

وفي رواية:" كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان ﷺ يصومه في الجاهلية، فلمَّا قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فُرِض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمَن شاء صامه، ومَن شاء تركه" رواه البخاري(٢).

وعن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:" لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأصومَنَّ التاسع" رواه مسلم(٣).

وفي رواية قال:" حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء، وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله؛ إنَّه يومٌ تُعظِّمه اليهود والنصارى؟ فقال رسول الله ﷺ: فإذا كان العام القابل- إن شاء الله- صُمنا اليوم التاسع، قال: فلم يأت العام المقبل، حتى تُوفِّيَ رسول الله ﷺ" رواه مسلم(٤).

وروى مسلم في صحيحه من حديث ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أنَّه سُئِلَ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ؟ فَقَالَ:" مَا عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَامَ يَوْمًا يَطْلُبُ فَضْلَهُ عَلَى الْأَيَّامِ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ، وَلَا شَهْرًا إِلَّا هَذَا الشَّهْرَ. يَعْنِي رَمَضَانَ"(٥).

وعن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ:" صوموا يوم عاشوراء، وخالفوا فيه اليهود، صوموا قبله يومًا، أو بعده يومًا " أخرجه أحمد(٦).

قال الإمام ابن باز- رحمه الله-:" صيام يوم عاشوراء سُنَّةٌ، يُستحَبُّ صيامُه؛ صامه ﷺ، وصامه الصحابة، وصامه موسى قبل ذلك شُكرًا لله- عزَّ وجلَّ-؛ ولأنَّه يومٌ نجَّى الله فيه موسى وقومه،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٤) برقم (٤٥٠٢) كتاب تفسير القرآن. باب يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كُتب على الذين مِن قبلكم لعلَّكم تتَّقون.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٤) برقم (٢٠٠٢) كتاب الصوم. باب صيام يوم عاشوراء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٨) برقم (١١٣٤) كتاب الصيام. باب أيِّ يومٍ يُصام في عاشوراء.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٧) برقم (١١٣٤) كتاب الصيام. باب أيِّ يومٍ يُصام في عاشوراء.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٧) برقم (١١٣٢) كتاب الصيام. باب مَن أَكَلَ في عاشوراء فليكُفَّ بقيَّة يومه.

(٦) رواه أحمد في مسنده (٥٢/٤) برقم (٢١٥٤). والحديث ضعَّفه الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٥١٢). ضعيف الجامع الصغير وزيادته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: المجدَّدة والمزيدة والمنقَّحة.



وأهلك فرعون وقومه، فصامه موسى وبنو إسرائيل شُكْرًا لله- عزَّ وجلَّ-، ثم صامه النبي ﷺ شُكْرًا لله- عزَّ وجلَّ- وتأسيًّا بنبي الله موسى، وكان أهل الجاهلية يصومونه أيضًا، وأكَّده النبي ﷺ على الأُمَّة، فلمَّا فرض الله رمضان قال ﷺ:" مَن شاء صامه، ومَن شاء تركه" رواه البخاري ومسلم واللفظ له(١). وأخبر ﷺ أنَّ صيامه يُكفِّر اللهُ به السنةَ التي قبله. والأفضل أن يُصام قبله يومٌ أو بعده يومٌ خلافًا لليهود؛ لما ورد عنه ﷺ:" صوموا يومًا قبله أو يومًا بعده" رواه أحمد(٢)، وفي لفظ:" صوموا يومًا قبله ويومًا بعده"(٣) فإذا صام يومًا قبله أو بعده يومًا، أو صام اليوم الذي قبله واليوم الذي بعده، أي صام ثلاثة أيام؛ فكلُّه طيِّبٌ، وفيه مخالَفةٌ لأعداء الله اليهود"(٤).

وقال ابن حجر:" ويُؤخَذ من مجموع الأحاديث أنَّه كان واجبًا لثبوت الأمر بصومه، ثم تأكَّد الأمر بذلك، ثم زيادة التأكيد بالنداء العام، ثم زيادته بأمْر مَن أكلَ بالإمساك، ثم زيادته بأمْر الأمَّهات أن لا يرضعن فيه الأطفال، وبقول ابن مسعود الثابت في مسلم:" لما فُرِض رمضانُ ترك عاشوراء"(٥)، مع العلم بأنَّه ما ترك استحبابه، بل هو باقٍ، فدلَّ على أنَّ المتروك وجوبه"(٦).

---

(١) تقدَّم قريبًا تخريجه عند البخاري. ورواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٢) برقم (١١٢٦) كتاب الصيام. باب صوم يوم عاشوراء.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥٢/٤) برقم (٢١٥٤) برقم (٢١٥٤) بلفظ:" صوموا قبله يومًا، أو بعده يومًا"، وحسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٦٧٥).

(٣) رواه البزار في مسنده= البحر الزخار (١١/ ٣٩٩) برقم (٥٢٣٨). والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٨٤) برقم (٨٤٨٠). مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، المحقِّق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقَّق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقَّق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقَّق الجزء ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م). السنن الكبرى، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليٍّ البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية (الدكتور/ عبد السند حسن يمامة)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م. والحديث ذكره الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٥١٢).

(٤) مجموع فتاوى ابن باز (١٥/ ٤٠١).

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٤) برقم (١١٢٧) كتاب الصيام. باب صوم يوم عاشوراء، ولفظه: دخل الأشعث بن قيس على ابن مسعود وهو يأكل يوم عاشوراء فقال: يا أبا عبد الرحمن؛ إنَّ اليوم يوم عاشوراء فقال: «قد كان يُصام قبل أن ينزل رمضان، فلمَّا نزل رمضان تُرِكَ، فإن كنتَ مفطرًا فاطعمْ».

(٦) فتح الباري لابن حجر (٤/ ٢٤٧).



وقد أَنْشَدَنَا الْحَافِظُ أَبُو الْفَضْلِ بْنُ الْحُسَيْنِ لِنَفْسِهِ:

اسْتَفْتِحِ الْعَامَ بِالصِّيَامِ ... لِلَّهِ فِي شَهْرِ الْحَرَامِ
وَعَاشِرَ الْمُحَرَّمِ صُمْ يُكَفِّرْ ... عَنْكَ ذُنُوبًا مَضَتْ لِعَامِ
وَارْجِعْ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ ... فَإِنَّهُ غَافِرُ الآثَامِ
واغتنمِ الْعُمْرَ فَإِنَّهُ ضَيْفٌ ... لَا مَطْمَعَ مِنْهُ فِي الْمَقَامِ
وَلَا تَكُنْ آيِسًا قَنُوطًا ... فَالْعَفْوُ مِنْ شِيمَةِ الْكِرَامِ[١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وتكفير الطهارة، والصلاة، وصيام رمضان، وعرفة، وعاشوراء للصغائر فقط"[٢].

والخلاصة: ما ذكره ابن القيم أنَّ صيام عاشوراء على ثلاث مراتب:

أكملها: أن يُصام قبله يومٌ وبعده يومٌ.

ويليها: أن يُصام التاسع والعاشر.

ويليها: إفراد العاشر وحده بالصوم[٣].

قلتُ: أمَّا الأُولى وهي أن يُصام قبله يومٌ وبعده يومٌ؛ فلم يثبت بها حديثٌ عن النبي ﷺ، وإنَّما صحَّ ذلك عن ابن عبَّاس موقوفًا عليه.

لكن له أن يفعل ذلك لأحد أمرين:

إمَّا أن يشكَّ في دخول الشهر؛ فيصوم ثلاثة أيَّام احتياطًا، فقد رُوي عن الإمام أحمد أنَّه قال:" فإن اشتبه عليه أوَّل الشهر صام ثلاثة أيَّام، وإنَّما يفعل ذلك ليتيقَّن صوم التاسع والعاشر"[٤].

---

(١) يُنظَر: الأمالي المطلقة (ص ٢٣). الأمالي المطلقة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢ هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد بن إسماعيل السلفي، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ -١٩٩٥م.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٣٤٢). الفتاوى الكبرى، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، الناشر : دار المعرفة- بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٧٢). زاد المعاد في هدي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

(٤) ذكره عن الإمام أحمد ابن قدامة في المغني (٤/ ٤٤١). المغني، المؤلف: أبو محمد موفَّق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، ط: عالم الكتب، الرياض- السعودية، الطبعة: الثالثة، سنة النشر: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

وقد ذكر ابن رجب في "اللطائف" أنَّ ممَّن رُوِيَ عنه فِعْلُ ذلك أبو إسحاق وابن سيرين، وأنَّهما إنَّما يفعلان ذلك عند الاختلاف في هلال الشهر احتياطًا[١].

الحال الثانية: أن ينوي بصيامها مع صيام يوم عاشوراء صيام ثلاثة أيَّامٍ من كلِّ شهرٍ، لما ثبت في "الصحيحين" عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:" صوم ثلاثة أيَّام من كلِّ شهرٍ صومُ الدهر كلِّه"[٢].

(١) يُنظَر: لطائف المعارف لابن رجب (ص ٥٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٠) برقم (١٩٧٩) كتاب الصوم. باب صوم داود عليه السلام من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ:" لا صام مَن صام الدهر، صوم ثلاثة أيَّام صوم الدهر كلِّه"؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٢) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام. باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرَّر به أو فوَّت حقًّا من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ:" فصمْ وأفطرْ، ونمْ وقمْ، وصمْ من الشهر ثلاثة أيَّام، فإنَّ الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر".



١٠ محرم

فضْل صوم النوافل

من رحمةِ اللهِ- جلَّ وعلا- بعبادهِ أن شرَع لهم من الأعمالِ ما يُعينُهم بها على الوصولِ لتلك المحبَّةِ، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" رواه البخاري(١).

فمَن أدَّى الفرائضَ، وأكثرَ من نوافلِ العباداتِ؛ أحبَّه اللهُ، وقرَّبه إليه، ووفَّقه لطاعتِه، وأجابَ دعاءَه، وحفظه في حواسِّه، وأعانَه على أمْرِ دينِه ودنياهُ وآخرتِه.

ولقد جعل اللهُ مع كلِّ فريضةٍ افترضَها على عبادِه؛ نافلةً من جِنسِها لتكونَ جابرةً لما يحصلُ فيها من النقصِ والخللِ، وهذا من رحمةِ اللهِ بعباده لعلْمهِ بضعفهِم، وما يعتريهم من النقصِ، وإنَّ من أفضلِ نوافلِ العباداتِ وأحبّها إلى الله عبادةَ الصيامِ، قال ﷺ:" مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا" رواه البخاري(٢).

وصيامُ التطوُّعِ من أعظمِ شُعَبِ الإيمانِ، وأجَلِّ خصالِ التعبُّدِ، وقد تضافرتِ النصوصُ الشرعيَّةُ في الحثِّ عليه، ومدْحِ أهلِه، ووَعَدَهم بالأجرِ العظيمِ والثوابِ الجزيلِ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾(٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢) كتاب الرقاق. باب التواضع.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٦) برقم (٢٨٤٠) كتاب الجهاد والسير. باب فضْل الصوم في سبيل الله.

(٣) الأحزاب ٣٥.

قال ابن كثير في تفسيره: والصائمين والصائمات: في الحديث الذي رواه ابن ماجه:" الصوم زكاة البدن"[(١)] أي: تُزكّيه وتُطهّره وتُنقّيه من الأخلاط الرديئة طبعًا وشرعًا، قال سعيد بن جُبير: مَن صام رمضان وثلاثة أيّام من كلّ شهرٍ دخل في قوله: والصائمين والصائمات [(٢)].

وقال- جلّ وعلا- في كتابه مُذكّرًا عبادَه بما ينالُهم من العيشةِ الهنيةِ عند دخولِهم الجنَّة: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾[(٣)]، قال مجاهدُ- رحمه الله-: نزلت هذه الآيةُ في الصائمين[(٤)].

وهذا الصيامُ ينقسمُ إلى: تطوُّعٍ مُطلَقٍ: وهو أن يتطَّوعَ المسلمُ بصيامِ أيّ يومٍ أرادَ من أيامِ السنةِ، إلّا ما ورد النهيُ عنه كيومَي العيدَينِ، وأيّامِ التشريقِ، وصيامِ يومِ الجمعةِ لمن قصد صومَه وحده.

ومِن صورِ التطُّوعِ المطلَقِ صيامُ يومٍ وفِطْرُ يومٍ، قال ﷺ:" أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا" رواه مسلم[(٥)].

وتطوُّع مُقيَّدُ: وهو ينقسمُ إلى قسمين:

الأوَّلُ: المقيَّدُ بحالِ الشخصِ، كالشابِّ الذي لم يستطع الزواجَ، كما قال ﷺ:"يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ؛ مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ" رواه البخاري ومسلم[(٦)]. فإنَّ هذا الصيامَ يتأكّدُ في حقّهِ ما دام عزبًا.

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٥٥٥) برقم (١٧٤٥) كتاب الصيام. باب في الصوم زكاة الجسد بلفظ:" لكلّ شيءٍ زكاة، وزكاة الجسد الصوم". والحديث ذكره ابن الجوزي وقال: "هذا حديث لا يصح". قال ابن حبان:" لا يجوز الاحتجاج بحماد بن الوليد، كان يسرق الحديث ويلزق بالثقات ما ليس من حديثهم، وقال ابن عدي:" عامَّة ما يرويه لا يتابع عليه" العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (٢/ ٤٩). العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقِّق: إرشاد الحق الأثري، الناشر: إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م. وكذا ضعَّفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (٣/ ٤٩٧). سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، دار النشر: دار المعارف، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٤١٩).

(٣) الحاقة ٢٤.

(٤) ذكره الشيخ ابن عثيمين في مجالس شهر رمضان (ص ٨٠). مجالس شهر رمضان، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٠) برقم (١١٣١) كتاب التهجُّد. باب مَن نام عند السحر؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٦) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام. باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرَّر به.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٣) برقم (٥٠٦٦) كتاب النكاح. باب مَن لم يستطع الباءة؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١٨) برقم (١٤٠٠) كتاب النكاح. باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه.



وأمَّا الثاني: فهو المقيَّدُ بوقتٍ مُعيَّنٍ، ومن ذلك: صيامُ الاثنينِ والخميسِ، فعن عَائِشَةَ-رضي الله عنها- قَالَت:" إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَحَرَّى صِيَامَ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيس" رواه ابن ماجه(١).

وقد سُئل ﷺ عن صيام يوم الاثنين ويوم الخميس فقال:" ذَانِكَ يَوْمَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الأَعْمَالُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ" أخرجه النسائي(٢).

ومن ذلك أيضًا: استحبابُ صيامِ ثلاثةِ أيَّامٍ من كلِّ شهرٍ: فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال:" أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ؛ صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ" رواه البخاري(٣).

والمستحَبُّ فيها صيامُ أيَّامِ البيضِ، فعن أَبِي ذَرٍّ- رضي الله عنه- قَال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِذَا صُمْتَ شَيْئًا مِنْ الشَّهْرِ؛ فَصُمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ" أخرجه النسائي(٤).

ومن ذلك أيضًا: صيامُ أيَّامٍ مُعيَّنةٍ مخصوصةٍ، ومنها:

- يومُ عاشوراء: وهو اليومُ العاشرُ من شهرِ مُحرَّمٍ، فقد قال ﷺ:" صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ "رواه مسلم(٥). ويُسنُّ أن يصوم يومًا قبله أو يومًا بعده لمخالَفة اليهود.
- يومُ عرفةَ: وهو اليومُ التاسعُ من ذي الحجَّة، وهو مُستحَبٌّ لمنْ لم يكن واقفًا بعرفة، قال ﷺ:" صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ " رواه مسلم(٦).

---

(١) رواه ابن ماجه في سُننه (١/ ٥٥٣) برقم (١٧٣٩) كتاب الصيام. باب صيام يوم الاثنين والخميس. والحديث صحَّحه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٤/ ١٠٥). إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى : ١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٧) برقم (٢٦٧٩) كتاب الصيام. باب صوم النبي ﷺ بأبي هو وأمي، وذكر اختلاف الناقلين في ذلك. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٦/ ٢). صحيح وضعيف سنن النسائي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٨) برقم (١١٧٨) كتاب التهجُّد. باب صلاة الضُّحى في الحضر.

(٤) رواه النسائي في سننه (٤/ ٢٢٢) برقم (٢٤٢٤) كتاب الصيام، ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر في صيام ثلاثة أيَّام من الشهر. المجتبى من السنن= السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي. الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣ هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية— حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦ م. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٦/ ٦٨).

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٨) برقم (١١٦٢) كتاب الصيام. باب استحباب صيام ثلاثة أيَّام من كلِّ شهرٍ، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٨) برقم (١١٦٢) كتاب الصيام. باب استحباب صيام ثلاثة أيَّام من كلِّ شهرٍ، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس.



أمَّا ما يُسنُّ صومه في بعض شهور العام، فمنها:

- صيامُ ستَّةِ أيَّامٍ من شوال: قال ﷺ:" مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ" رواه مسلم[١].
- صيامُ أيَّامٍ من شهرِ اللهِ المحرَّم: فقد سُئِلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الصَّلَاةِ أفضَلُ بعد المكتوبةِ؟ وأيُّ الصِّيامِ أفضَلُ بعد شَهرِ رمضانَ؟ فقال: أفضَلُ الصَّلَاةِ بعدَ الصَّلَاةِ المكتوبةِ الصَّلَاةُ في جَوفِ اللَّيلِ. وأفضَلُ الصِّيامِ بعدَ شَهرِ رَمَضانَ صِيامُ شَهرِ اللهِ المحَرَّم" رواه مسلم[٢].
- صيامُ أغلبِ أيَّامِ شهرِ شعبان: فقد سُئلتْ عائشةُ- رَضِيَ اللهُ عنها- عن صيامِ رَسولِ الله ﷺ، فقالت:" كان يصومُ حتى نقولَ: قد صام، ويُفطِرُ حتى نقولَ: قد أفطَرَ، ولم أرَهُ صائمًا من شَهرٍ قَطُّ أكثَرَ مِن صيامِه مِن شَعبانَ؛ كان يصومُ شَعبانَ كُلَّه، كان يصومُ شَعبانَ إلَّا قليلًا" رواه مسلم[٣].

والخلاصة: أنَّ صيام النوافل من أحبِّ الطاعات إلى الله تعالى، وله أوقاتٌ لا تُنسَى، وفضائلُ لا تُحصَى:

اللهُ يَجْــــزِي الصَّائِمينَ لِأَنَّهُــــمْ ... مِنْ أَجْلِهِ سَخِرُوا بِكُلِّ صِعَابِ
لَا يَدْخُلُ الرَّيَّانَ إِلَّا صَـــــائِمٌ ... أَكْرِمْ بِبَابِ الصَّومِ فِي الأَبْوَابِ
وَوَقَاهُمُ المولَى بِحَرِّ نَهَــــــارِهِمْ ... رِيحَ السَّمُومِ وَشَرَّ كُلِّ عَذَابِ
وَسُقُوا رَحِيقَ السَّلْسَبِيلِ مِزَاجُهُ ... مِـنْ زَنْجَبِيـلٍ فَـاقَ كُـلَّ شَـرَابِ
هَذَا جَــزَاءُ الصَّائِمِينَ لِرَبِّهِـــــم ... سَـعِدُوا بِخَيرِ كَرَامَةٍ وَجَنَابِ[٤]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٢٢) برقم (١١٦٤) كتاب الصيام. باب استحباب صوم ستَّة أيَّام من شوال.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٢٢) برقم (١١٦٣) كتاب الصيام. باب فضْل صوم المحرَّم.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١١) برقم (١١٥٦) كتاب الصيام. باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان، واستحباب أن لا يخلي شهرًا عن صوم.

(٤) أبيات لخير الدين وانلي كما في أرشيف ملتقى أهل الحديث- ٣ (٨٣/ ٤٥٧).



١١ محرم

الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات

ابتدأ الله سبحانه وتعالى الحديث عن صفات المسلمين المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(١)، فذكر هذه الأوصاف التي تنتظم مراتب أهل الإيمان، ثم ختم ذلك كلَّه بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، ثم ذكر جزاءهم: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

جاء عن ابن عبَّاسٍ- رضي الله عنهما- قال:" يريد في أدبار الصَّلوات، وغُدُوًّا وعشيًّا، وفي المضاجع، وكلَّما استيقظ من نومه، وكلَّما غدا وراح من منزله؛ ذَكَرَ اللهَ".

وجاء عن مجاهدٍ- رحمه الله-:" لا يكون العبدُ من الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومُضطجعًا"(٢)؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾(٣).

وجاء أيضًا في حديث أبي سعيدٍ الخدري- رضي الله عنه-: أنَّ النبي ﷺ قال:" إذا أيقظ الرجلُ أهلَه من الليل فصلَّيا أو صلَّى ركعتين جميعًا كُتِبَا في الذَّاكرين والذَّاكرات" رواه أبو داود(٤).

وعن ابن عبَّاسٍ- رضي الله عنهما- أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾(٥)، أنَّه قال: "إنَّ الله لم يفرض على عباده فريضةً إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلَها

---

(١) الأحزاب ٣٥.

(٢) يُنظَر: التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٤٧١). الوسيط في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدَّمه وقرَّظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٣) النساء ١٠٣.

(٤) رواه أبو داود في سننه (٢/ ٣٣) برقم (١٣٠٩) أبواب قيام الليل. باب قيام الليل. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣/ ٣٠٩). صحيح وضعيف سنن أبي داود، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.

(٥) الأحزاب ٤١.

في حال عذرٍ، غيرَ الذِّكْر؛ فإنَّ الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلَّا مغلوبًا على تركه، فقال: ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ ﴾[(١)]، بالليل والنَّهار، وفي البَرِّ والبحر، وفي السَّفر والحضر، والغنى والفقر، والسَّقم والصحَّة، والسِّرِّ والعلانية، وعلى كلِّ حالٍ، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[(٢)]، فإذا فعلتُم ذلك صلَّى عليكم هو وملائكته"[(٣)].

يقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله–:" وأقلُّ ذلك أن يُلازِم العبدُ الأذكارَ المأثورة عن مُعلِّم الخير وإمام المتَّقين ﷺ؛ كالأذكار المؤقَّتة في أول النَّهار وآخره، وعند أخْذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصَّلوات، والأذكار المقيَّدة مثل: ما يُقال عند الأكل والشُّرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل والمسجد والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد، إلى غير ذلك"، إلى أن يقول: "ثم مُلازمة الذكر مُطلقًا، وأفضله: لا إله إلَّا الله"[(٤)]، إلى آخر ما قال من أنَّ بعضَ الذكر قد يكون في بعض الأحوال مطلوبًا: كسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله، فقد يكون ذلك في بعض المواضع مُقدَّمًا على غيره.

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي– رحمه الله–:" وأقلُّ ذلك أن يُلازِم الإنسانُ أورادَ الصباح والمساء، وأدبار الصَّلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب"[(٥)].

ثم إنَّ الله– تبارك وتعالى– أمر بذكره في أعظم المواطن: حال الالتحام، ومُلاقاة الأعداء: فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[(٦)].

وخرج معاوية بن أبي سفيان– رضي الله عنهما– ذات يوم على حَلَقة في المسجد، فقال:" ما أجلَسَكم؟ قالوا: جلَسْنا نذكرُ الله، قال: آللهُ ما أجلسكم إلَّا ذاك؟ قالوا: ما أجلَسَنا إلَّا ذاك، قال: أمَا إنِّي لم أستحلِفْكم تهمةً لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي منه ﷺ أقلَّ عنه حديثًا منِّي، إنَّ رسول الله ﷺ خرج على حلقةٍ من أصحابه، فقال: ما أجلَسَكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا

---

(١) النساء ١٠٣.

(٢) الأحزاب ٤٢.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٠). مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦ هـ/١٩٩٥ م.

(٥) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٦٧).

(٦) الأنفال ٤٥.



للإسلام ومنَّ به علينا، قال: آللهُ ما أجلَسَكم إلَّا ذاك؟ قالوا: واللهِ ما أجلسنا إلَّا ذاك، قال: أَمَا إِنِّي لم أستحلِفْكم تهمةً لكم، ولكنَّه أتاني جبريل، فأخبرني أنَّ الله يُباهي بكم الملائكة" رواه مسلم[١].

بل إنَّ النبي ﷺ لما سأله رجلٌ وأخبره أنَّ شرائع الإسلام قد كثُرتْ عليه، قال: فأخبِرْني بشيءٍ أتشبَّثُ به، فقال له النبي ﷺ:" لا يزال لسانُك رطبًا مِن ذكْر الله" رواه ابن ماجه[٢].

وقال ﷺ أيضًا:" سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال:" الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات" رواه مسلم[٣].

وفي الحديث الطويل عن أبي موسى- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ: أنَّ الله تعالى أمر يحيى بن زكريا- عليهما السلام- بخمس كلمات؛ أن يعمل بهنَّ ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، منها:" وآمروكم أن تذكروا الله تعالى، فإنَّ مثل ذلك كمثل الرجل خرج العدوُّ في أثره سراعًا، حتَّى إذا أتى على حصنٍ حصينٍ فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يُحرِز نفسه من الشيطان إلَّا بذكْر الله" رواه الترمذي[٤].

وصحَّ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربِّ العزَّة سبحانه وتعالى أنَّه قال:" أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرَّبَ إليَّ شبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولة" رواه البخاري[٥].

حقًّا؛ مَن ذَكَرَ اللهَ يذكره، لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[٦].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٥) برقم (٢٧٠١) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل الاجتماع على تلاوة القرآن.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٤٦) برقم (٣٧٩٣) كتاب الأدب. باب فضْل الذكْر. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٨/ ٢٩٣). صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٢) برقم (٢٦٧٦) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب الحث على ذكر الله تعالى.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ١٤٩) برقم (٢٨٦٣) أبواب الأمثال. باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم (٧٤٠٥) كتاب التوحيد. باب قول الله تعالى: {ويُحَذِّركم الله نفسه}؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦١) برقم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب الحث على ذكْر الله تعالى.

(٦) البقرة ١٥٢.



ومَن لم يذكر الله وأعرض عن ذكره فقد توعَّده الله سبحانه وتعالى بالمعيشة الضنك في الدنيا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1] .

وعن أبي الدرداء- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال: ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأرضاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، ومن أن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذِكْرُ الله" رواه ابن ماجه[2].

وقال ابن مسعود- رضي الله عنه- في قول الله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[3]، فقال: أن يُطاع فلا يُعصَى، وأن يُذكر فلا يُنسَى، وأن يُشكَر فلا يُكفَر[4].

والخلاصة: كما قال الإمام ابن القيم- رحمه الله-: ولا ريب أنَّ أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:

فنسيانُ ذِكْرِ اللهِ موتُ قُلوبِهِم وأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وأرواحُهم في وحشةٍ مِن جسومِهم وليس لهم حتَّى النشورِ نشورُ[5]

---

(١) طه ١٢٤.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٤٥) برقم (٣٧٩٠) كتاب الأدب. باب فضْل الذكر. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥١٣).

(٣) آل عمران ١٠٢.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠٦) برقم (٣٤٥٥٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٣٨). الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥ هـ)، المحقِّق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد– الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة- بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٥) يُنظَر: مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ٤٠٢).



١٢ محرم

الكاظمون الغيظ

وَصَفَ الله تبارك وتعالى المتقين الذين يستحقُّون الجنَّة في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(١)؛ فجعل مِن صفاتهم أنَّهم يكظمون الغيظ، ويعفون عمَّن ظلمهم.

قال العلَّامة الشنقيطي- رحمه الله تعالى-:" وقد دلَّت هذه الآية على أنَّ كظْم الغيط، والعفو عن الناس؛ من صفات أهل الجنَّة، وكفى بذلك حثًّا على ذلك، ودلَّت أيضًا: على أنَّ ذلك من الإحسان الذي يُحبُّ الله المتَّصفين به"(٢).

وفي كتب اللغة: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ الغَيْظ: الغَضَب، وقيل: الغَيْظ غَضَبٌ كامِنٌ للعاجز، وقيل: هو أشدُّ من الغَضَب، وقيل: هو سَوْرَته وأوَّله. وغِظْتُ فلانًا، أَغِيظُه غَيْظًا. وقد غَاظَه فاغْتَاظ. وغَيَّظه فتَغَيَّظ، وهو مَغِيظ. وقال الأصفهاني: الغَيْظ: أشدُّ الغَضَب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فَوَرَان دم قلبه(٣).

وعليه فمعنى الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ أَيِ: الْجَارِعِينَ الْغَيْظَ عِنْدَ امْتِلَاءِ نُفُوسِهِمْ مِنْهُ، وَالْكَظْمُ: حَبْسُ الشَّيْءِ عِنْدَ امْتِلَائِهِ، وَكَظْمُ الْغَيْظِ أَنْ يَمْتَلِئَ غَيْظًا فَيَرُدَّهُ فِي جَوْفِهِ وَلَا يُظْهِرَهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾(٤).

---

(١) آل عمران ١٣٣-١٣٤.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/ ٤٨٧). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت– لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٣) يُنظَر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ١١٧٦)، تاج العروس (٢٠/ ٢٤٨). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزَّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقَّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقِّق: مجموعة من المحقِّقين، الناشر: دار الهداية.

(٤) غافر ١٨.

وقال الإمام الطبري- رحمه الله- في قوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ يعني:" والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، يقال منه:" كظم فلان غيظه" إذا تجرَّعه، فحفظ نفسه من أن تُمضي ما هي قادرةٌ على إمضائه باستمكانها ممَّن غاظها، وانتصارها ممَّن ظلمها، وأصل ذلك مِن كظْم القِربة، يُقال منه:" كظمتَ القِربة" إذا ملأتَها ماء، و" فلان كظيم ومكظوم" إذا كان ممتلئًا غمًّا وحُزنًا؛ ومنه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾[(١)]، يعني: ممتلئ من الحزن، ومنه قيل لمجاري المياه:" الكظائم" لامتلائها بالماء؛ ومنه قيل:" أخذتُ بكظمه" يعني: بمجاري نفسه"[(٢)].

ذكر الإمام القرطبي- رحمه الله- عن ميمون بن مهران- رحمه الله-:" أنَّ جاريته جاءت ذات يومٍ بصحفةٍ فيها مرقة حارَّة، وعنده أضياف، فعثرتْ، فصبَّت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي استعمل قول الله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ}، قال لها: قد فعلتُ، فقالت: اعمل بما بعده: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}، فقال: قد عفوتُ عنكِ، فقالت الجارية: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، قال ميمون: قد أحسنتُ إليكِ، فأنتِ حُرَّةٌ لوجه الله تعالى"[(٣)].

عن أبي رزين قال: جاء رجلٌ إلى الفضيل بن بَزْوَان، فقال: إنَّ فلانًا يقع فيك. فقال: لأغيظنَّ مَن أمرَه، يغفر الله لي وله. قيل: مَن أمَرَه؟ قال: الشَّيطان[(٤)].

وعن أنس- رضي الله عنه- أنَّ النَّبي ﷺ مرَّ بقومٍ يَصْطَرِعون، فقال:" ما هذا؟ فقالوا: يا رسول الله؛ فلانٌ الصَّريع، لا ينتدِب له أحدٌ إلَّا صَرَعه، فقال رسول الله ﷺ: ألَا أدلُّكم على مَن هو أشدُّ منه؟ رجلٌ ظَلَمَهُ رجلٌ، فكَظَم غَيْظَه فغلبه، وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه" أخرجه البزار وصحَّحه الألباني[(٥)].

---

(١) يوسف ٨٤.

(٢) تفسير الطبري= جامع البيان (٦/ ٥٧). تفسير الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م.

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٧).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٢٣٤). الزهد والرقائق لابن المبارك (يليه «مَا رَوَاهُ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ فِي نُسْخَتِهِ زَائِدًا عَلَى مَا رَوَاهُ الْمَرْوَزِيُّ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ»)، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١ هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

(٥) رواه البزار في مسنده= البحر الزخار (١٣/ ٤٧٥). وصحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٨٦٩).



وعن فضْل كظْم الغيظ في الآخرة يقول رسول الله ﷺ:" مَن كَظَمَ غيظًا وهو قادرٌ على أن يُنفذه؛ دعاه الله عزَّ وجلَّ على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتَّى يُخيِّره مِن أيِّ الحور العين شاء" رواه أبو داود(١).

وعن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢). "يقول ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-: مَن تَرَكَ القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو؛ ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، أي إنَّ الله يأجُره على ذلك، قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة"(٣).

قال السعدي:" ذَكَرَ اللهُ في هذه الآية مراتب العقوبات، وأنَّها على ثلاث مراتب: عدْلٌ، وفضْلٌ، وظُلْمٌ. فمرتبة العدل: جزاء السَّيِّئة بسيِّئةٍ مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكلُّ جارحةٍ بالجارحة المماثلة لها، والمال يُضمَن بمثله. ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(٤)، يجزيه أجرًا عظيمًا، وثوابًا كثيرًا، وَشَرَطَ اللهُ في العفوِ الإصلاحَ فيه؛ ليدلَّ ذلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعيَّة تقتضي عقوبته؛ فإنَّه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به، وفي جعْل أجر العافي على الله ما يُهيِّج على العفو، وأن يُعامِل العبدُ الخلْقَ بما يُحِبُّ أن يُعامِله اللهُ به، فكما يُحبُّ أن يعفوَ الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يُحِبُّ أن يُسامحه الله فليسامحْهم؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل. وأمَّا مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٥)، الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلمٌ"(٦).

عن ابن عمر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" ما مِن جرعةٍ أعظم أجرًا عند الله مِن جرعةِ غيظٍ كظمَها عبدٌ ابتغاءَ وجهِ اللهِ" رواه ابن ماجه(٧).

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢٤٨) برقم (٤٧٧٧) كتاب الأدب. باب مَن كظَمَ غيظًا. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ٢٧٧).

(٢) الشورى ٤٠.

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ٤٠).

(٤) الشورى ٤٠.

(٥) الشورى ٤٠.

(٦) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٦٠).

(٧) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠١) برقم (٤١٨٩) كتاب الزهد. باب الحلم. وصحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٩/ ١٨٩).

والخلاصة ما أورده شيخنا ابن باز- رحمه الله- بقوله: إنَّ أفضل الخصال الحميدة كتم الغيظ، فكثيرٌ من الناس إذا غضب أنفذ غضبه، وتعدَّى بالضرب والقتل والسبِّ وغير ذلك، لكنَّ أهل التقوى والإيمان وأهل البصائر يُوفَّقون لكتم الغيظ، ويُعينهم اللهُ على كتم الغيظ، ويتحمَّلون ويصبرون ولا يُنفذون مُقتضى غيظهم وغضبهم، فيتحمَّلون ذلك ابتغاء وجه الله ويتصبَّرون، والله وعدهم بهذه الأحاديث الكثيرة المتعدِّدة الطرق التي يشدُّ بعضها بعضًا؛ وعدهم به خيرًا كثيرًا أنَّه يَقيهم عذابَه، وأنَّه يملأ قلوبهم أمنًا وإيمانًا، وأنَّه يُخيِّرُهم مِن الحور العين أيُّها شاءوا يوم القيامة، فهذه فضائل وكرامات وجزاءات مُتنوِّعة لهذا الأمر العظيم، فينبغي للمؤمن أن يُجاهد نفسه في ذلك وألَّا يُنفذ غضبه، ولا سيِّما إذا كان غضبه في غير طاعة الله، ولغير الله، بل لحظِّ نفسه وهواه، أمَّا إذا كان لله فليتأمَّل وليتثبَّت حتى لا يُنفذ إلَّا ما يُرضي الله، ولا يزيد على حدِّ الله وشرعه. أمَّا إذا كان لحظِّ نفسه وهواه على ولدٍ أو زوجةٍ أو جارٍ أو قريبٍ أو غير ذلك، فلْيحذرْ تنفيذ الغضب وليتحمَّلْ ولْيتصبَّرْ؛ لعلَّ الله جلَّ وعلا يرزقه هذا الخير العظيم(١).

قال العرجي الشاعر المعروف:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كاظِمًا ... لِلْغَيْظِ تُبْصِرُ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ
فَكَفَى بِهِ شَرَفًا تَصبُّرُ سَاعَةٍ ... يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهُ وَتُرْفَعُ(٢)

---

(١) ذكره الشيخ- رحمه الله تعالى- في تعليقه على تفسير ابن كثير- رحمه الله- عند قوله تعالى: {والكاظمين الغيظ} من سورة آل عمران. يُنظَر موقع الشيخ على الشبكة: https://binbaz.org.sa/audios/271/05-.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسير= الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٢٦٥). الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (المتوفى: ٤٢٧هـ)، أشرف على إخراجه: د. صلاح باعثمان، د. حسن الغزالي، أ. د. زيد مهارش، أ. د. أمين باشه، تحقيق: عدد من الباحثين (٢١) مثبت أسماؤهم بالمقدِّمة (ص ١٥)، أصل الكتاب: رسائل جامعية (غالبها ماجستير) لعددٍ من الباحثين، الناشر: دار التفسير، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.



١٣ محرم

والعافين عن الناس

عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال: قَدِمَ عُيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النَّفر الذين يُدنيهم عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-، وكان القُرَّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبَّانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي؛ هل لك وجهٌ عند هذا الأمير؟ فاستأذِنْ لي عليه. قال: سأستأذنُ لك عليه. قال ابن عبَّاس: فاستأذن الحرُّ لعُيينة، فأَذِن له عمر، فلمَّا دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الخطَّاب! فواللهِ ما تُعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغَضِب عمر، حتى همَّ أن يُوقِع به، فقال له الحرُّ: يا أمير المؤمنين؛ إنَّ الله تعالى قال لنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[١]، وإنَّ هذا من الجاهلين، واللهِ ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله[٢].

وفي تفسير ابن كثير- رحمه الله-: عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ:" إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ يقول: أين العافون عن الناس؟ هلمُّوا إلى ربِّكم، وخذوا أجوركم، وحقٌّ على كلِّ امرئٍ مسلمٍ إذا عفا أن يدخل الجنَّة"[٣].

وفي الحديث:" ثلاثٌ أُقسِمُ عليهنَّ: مَا نَقصَ مالُ عبدٍ من صدَقةٍ، ولَا ظُلِمَ عبدٌ مَظلمةً صبرَ عليْها إلَّا زادَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عِزًّا، ولَا فتَحَ عبدٌ بابَ مسألَةٍ إلَّا فتَحَ اللهُ عليه بابَ فقْرٍ" أخرجه الترمذي[٤].

وفي تفسير القرطبي:" وقال ابن المبارك- رحمه الله-: كنتُ عند المنصور جالسًا فأمرَ بقتْلِ رجُلٍ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين؛ قال رسول الله ﷺ:" إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ بين يدي الله- عزَّ وجلَّ-: مَن كانت له يدٌ عند الله فلْيتقدَّمْ، فلا يتقدَّمُ إلَّا مَن عفا عن ذنبٍ" فأمر بإطلاقه"[٥].

---

(١) الأعراف ١٩٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٦٠) برقم (٤٦٤٢) كتاب تفسير القرآن. باب (خُذِ العفو وأمرْ بالعُرف وأعرضْ عن الجاهلين).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٢). والأثر رواه أبو الشيخ في الثواب عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- كما ذكر ذلك السيوطي في جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» (١/ ٤٨٦). جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، المؤلف: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ)، المحقِّق: مختار إبراهيم الهائج- عبد الحميد محمد ندا- حسن عيسى عبد الظاهر، الناشر: الأزهر الشريف، القاهرة- جمهورية مصر العربية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٦٢) برقم (٢٣٢٥) أبواب الزهد. باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٨٠).

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٨).

وفي تفسير ابن كثير- رحمه الله- لما أنزل الله- عزَّ وجلَّ- على نبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١)، قال رسول الله ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال:"إنَّ الله أمركَ أن تعفوَ عمَّن ظلمك ، وتُعطي مَن حرمك ، وتصل مَن قطعك"(٢).

ثم قال:" وقد أَخَذَ بعض الحكماء هذا المعنى ، فسبكه في بيتين فيهما جناس؛ فقال:

خُذِ الْعَفْوَ وَأمُرْ بِعُرْفٍ كَمَا ... أُمِـــرْتَ وَأَعْرِضْ عَـــنِ الْجَاهِلَينْ
وَلِنْ فِي الْكَـلَامِ لِكُـــلِّ الْأَنَامِ ... فَمُسْتَحَسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لِـينْ(٣)

قال جابر بن سليم أبو جري:" ركبتُ قعودي ثم أتيتُ إلى مكَّة فطلبتُ رسول الله ﷺ، فأنختُ قعودي بباب المسجد، فدلُّوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالسٌ عليه بُردٌ من صوفٍ فيه طرائق حمر، فقلتُ: السلام عليك يا رسول الله. فقال: وعليك السلام. فقلتُ: إنَّا معشر أهل البادية؛ قومٌ فينا الجفاء؛ فعلِّمْني كلماتٍ ينفعُني الله بها. قال: ادنُ- ثلاثًا- فدنوتُ فقال: أعِدْ عليَّ، فأعدتُ عليه فقال: اتقِ الله، ولا تحقرنَّ من المعروف شيئًا؛ وأن تلقى أخاك بوجهٍ مُنبسِطٍ، وأن تُفرِغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ سبَّك بما لا يعلم منك فلا تسبَّه بما تعلم فيه، فإنَّ الله جاعلٌ لك أجرًا وعليه وزرًا، ولا تَسُبَّنَّ شيئًا ممَّا خولك الله تعالى. قال أبو جري: فوالذي نفسي بيده، ما سببتُ بعده شاةً ولا بعيرًا" رواه أحمد(٤).

وعن عائشة- رضي الله عنها- أنَّها قالت:" لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا مُتفحِّشًا ولا صخَّابًا في الأسواق، ولا يُجزي بالسيِّئة السيِّئة، ولكن يعفو ويصفح" أخرجه أحمد والترمذي(٥).

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٦).

---

(١) الأعراف ١٩٩.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص ٢٤). مكارم الأخلاق، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١ هـ)، المحقِّق: مجدي السيد إبراهيم، الناشر: مكتبة القرآن- القاهرة.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣١- ٥٣٢).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣٤/ ٢٣٧) برقم (٢٠٦٣٥) مع اختلاف يسيرٍ في القصة. والحديث صحَّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٣٣٨).

(٥) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٩) برقم (٢٠١٦) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في خُلُق النبي ﷺ. وكذا رواه أحمد في مسنده (٤٢/ ٢٥٦) برقم (٢٥٤١٧). وصحَّحه الألباني كما في مشكاة المصابيح (٣/ ١٦١٩).

(٦) النور ٢٢.



قال الإمام ابن كثير- رحمه الله-: هذه الآية نزلت في الصِّدِّيق؛ حين حلف ألَّا ينفع مِسْطَحَ بن أثاثة بنافعةٍ بعدما قال في عائشة ما قال، فلمَّا أنزل الله براءةَ أمِّ المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرَّت، وتاب الله على مَن كان تكلَّم من المؤمنين في ذلك، وأُقيم الحدُّ على مَن أُقيم عليه، شَرَع تبارك وتعالى- وله الفضْل والمنَّة- يُعطِّفُ الصِّدِّيق على قريبه ونسيبه، وهو مِسْطَحُ بن أثاثة، فإنَّه كان ابن خالة الصِّدِّيق، وكان مسكينًا لا مال له إلَّا ما يُنفِق عليه أبو بكر- رضي الله عنه-، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد وَلَق وَلْقَة تاب الله عليه منها، وضُرِبَ الحدَّ عليها. وكان الصدِّيق- رضي الله عنه- معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلمَّا نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، أي: فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصدِّيق: بلى، واللهِ إنَّا نُحِبُّ- يا ربَّنا- أن تغفر لنا. ثم رَجَع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: واللهِ لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: واللهِ لا أنفعه بنافعةٍ أبدًا، فلهذا كان الصدِّيق هو الصدِّيق- رضي الله عنه وعن بنته-[2].

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال:" جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلمَّا كان في الثالثة، قال: اعفُ عنه في كلِّ يومٍ سبعين مرَّة" رواه أبو داود[3].

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- أنَّه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتْهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرَّق الناس يستظلُّون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، وعلَّق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي. فقال:" إنَّ هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلتًا، فقال: مَن يمنعك منِّي؟ فقلتُ: الله. ثلاثًا، ولم يعاقبه وجلس" رواه البخاري[4].

---

(١) النور ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣١).

(٣) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٣٤١) برقم (٥١٦٤) أبواب النوم. باب في حقِّ المملوك. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١١/ ١٦٤).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٤٠) برقم (٢٩١٠) كتاب الجهاد والسير. باب مَن علَّق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة.

والخلاصة أنَّ العفو عند المقدرة من شيم الكرام، والغدر والخيانة من شيم اللئام، وفي هذا يقول الشاعر بتصرُّف:

إذا استطعتَ كُنْ إمَّا رَحيمًا مُسامِحًا   عِداكَ؛ وإمَّا فارسَ الحربِ عنترا
فما اللؤمُ إلَّا إن حقدتَ فلم تكنْ   كريمًا فتعفو أو شُجاعًا فتثأرا[1]

(١) يُنظَر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٧/ ١٢٨، بترقيم الشاملة آليًّا). مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، المؤلف: أحمد قبش بن محمد نجيب.



١٤ محرم

الصلاة نور

عن أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:"الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملآن- أو تملأ- ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حُجَّة لك أو عليك، كلُّ الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها" رواه مسلم[١].

قال الإمام النووي:"وأمَّا قوله ﷺ: والصلاة نور. فمعناه أنَّها تمنع من المعاصي، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتهدي إلى الصواب، كما أنَّ النور يُستضاء به. وقيل معناه: إنَّه يكون أجرها نورًا لصاحبها يوم القيامة، وقيل:لأنَّها سببٌ لإشراق أنوار المعارف، وانشراح القلب، ومكاشفات الحقائق؛ لفراغ القلب فيها، وإقباله إلى الله تعالى بظاهره وباطنه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٢]. وقيل معناه: إنَّها تكون نورًا ظاهرًا على وجهه يوم القيامة، ويكون في الدنيا أيضًا على وجهه البهاء، بخلاف مَن لم يُصلِّ"[٣].

ويقول الشيخ ابن عثيمين:" وَالصَّلاةُ نورٌ" أي صلاة الفريضة والنافلة نورٌ؛ نورٌ في القلب، ونورٌ في الوجه، ونورٌ في القبر، ونورٌ في الحشر؛ لأنَّ الحديثَ مُطلَقٌ، وجرِّبْ تجِدْ. إذا صلَّيتَ الصلاة الحقيقية التي يحضر بها قلبك، وتخشع جوارحك، تحسُّ بأنَّ قلبك استنار، وتلتذُّ بذلك غاية الالتذاذ؛ ولهذا قال النبي ﷺ:" جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ" رواه أحمد والنسائي[٤][٥].

وقال أيضًا:" فالصلاة نورٌ" نورٌ للعبد في قلبه، وفي وجهه، وفي قبره، وفي حشره؛ ولهذا تجد أكثر الناس نورًا في الوجوه أكثرهم صلاة، وأخشعهم فيها لله عزَّ وجلَّ، وكذلك تكون نورًا للإنسان في قلبه؛

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٣) برقم (٢٢٣) كتاب الطهارة. باب فضْل الوضوء.

(٢) البقرة ٤٥.

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠١). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢١/ ٤٣٣) برقم (١٤٠٣٧). والنسائي في السنن الكبرى (١٤٩/٨) برقم (٨٨٣٦) كتاب عِشرة النِّساء. باب حُبُّ النِّساء. وصحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٨٥٩).

(٥) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص ٢٢٢). شرح الأربعين النووية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر.



تفتح عليه باب المعرفة لله عزَّ وجلَّ، وباب المعرفة في أحكام الله، وأفعاله، وأسمائه، وصفاته، وهي نورٌ في قبر الإنسان؛ لأنَّ الصلاة هي عمود الإسلام، إذا قام العمود قام البناء، وإذا لم يقم العمود فلا بناء، كذلك نورٌ في حشره يوم القيامة؛ كما أخبر بذلك الرسول ﷺ:" أنَّ مَن حافظَ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومَن لم يُحافِظ عليها لم تكن له نورًا ولا برهانًا ولا نجاة يوم القيامة، وحُشِر مع فرعون وهامان وقارون وأُبي بن خلف" أخرجه أحمد[١]، فهي نورٌ للإنسان في جميع أحواله، وهذا يقتضي أن يُحافظ الإنسان عليها، وأن يحرِص عليها، وأن يُكثِر منها حتَّى يَكثُر نوره وعلمه وإيمانه[٢].

وجاء عنه ﷺ أنَّه وصف الصلاة بالنور في قوله:" خمس صلوات كتبهنَّ الله في اليوم والليلة، مَن حافظ عليهنَّ كانت له نورًا يوم القيامة، ومَن لم يُحافظ عليها لم يكن له نورٌ يوم القيامة "[٣]، وقال ﷺ فيما يتعلَّق بالوضوء:" إنَّ أمَّتي يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحجَّلين من أثر الوضوء "[٤].

وقال علماؤنا[٥]:" والصلاة نورٌ" هي نورٌ في الدنيا؛ لأنَّ المؤمن إذا طهَّر قلبه، وأدَّى الصلاة؛ كانت الصلاة له شحنة نور في قلبه، ولهذا يقول ﷺ:" اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنَّه ينظر بنور الله" أخرجه الترمذي[٦]، مِن أين يأتيه هذا النور؟ من عبادته، ومن صلاته:" ولا يزال يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به" رواه البخاري[٧]، فيُنير الله له بصيرته.

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٨]، إذا همَّه أمرٌ فزع إلى الصلاة، فأنار الله قلبه وبصيرته، وشرح صدره، ويسَّر أمره.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١١/ ١٤١) برقم (٦٥٧٦). والحديث ضعَّفه الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٤٢٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ١٩٠). شرح رياض الصالحين، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦هـ.

(٣) رواه محمد بن نصر عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- كما ذكر السيوطي في جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» (٤/ ٧١٥). وضعَّفه الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٤٢٠).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢١٦) برقم (٢٤٦) كتاب الطهارة. باب استحباب إطالة الغرَّة والتحجيل في الوضوء.

(٥) شرح الأربعين النووية لعطية سالم (٤٩/ ٧، بترقيم الشاملة آليًّا) إلى قوله هنا: وبذلك يشعر بحقيقة نور الصلاة وحلاوتها. شرح الأربعين النووية، المؤلف: عطية بن محمد سالم (المتوفى : ١٤٢٠ هـ)، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

(٦) رواه الترمذي في سننه (٥/ ٢٩٨) برقم (٣١٢٧) أبواب تفسير القرآن. باب ومن سورة الحجر. والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (٤/ ٢٩٩).

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢) كتاب الرقاق. باب التواضع.

(٨) البقرة ٤٥.



"والصلاة نورٌ" للمؤمن في الدنيا بتوجُّهِه إلى الخير، واطمئنان النفس والقلب، وبحفظه عن المعاصي؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(١)، والصلاة نورٌ في الدنيا كما قال بعض السلف:" مَن صلَّى بالليل حسُنَ وجهُه بالنهار"(٢) أي: يُضيء وجهه، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾(٣)، وهكذا في عرصات القيامة، فالصلاة نورٌ للعبد يوم القيامة.

"والصلاة نورٌ" حقيقةً يوم القيامة، ودلالة وهداية في الدنيا، ويُدرِك ذلك مَن ذاق طعم الصلاة، حينما يُؤدِّيها بخشوعها، ويُتِمُّها بركوعها وسجودها، ويُوفِّيها حقَّها مِن الطهارة، واستقبال القبلة، وستْر العورة، واستحضار القلب، وبذلك يشعر بحقيقة نور الصلاة وحلاوتها.

وقيل: معناه أنَّها تكون نورًا ظاهرًا على وجهه يوم القيامة، ويكون في الدنيا أيضًا على وجهه البهاء، بخلاف مَن لم يُصلِّ، والله أعلم.

وقد بَشَّرَنا النبيُّ ﷺ بقوله:" بَشِّرِ المشَّائين في الظُّلَمِ إلى المساجدِ بالنورِ التامِّ يوم القيامة" رواه الترمذي وأبو داود(٤).

قال المباركفوري:" بالنور التامِّ" الذي يُحيط بهم من جميع جهاتهم، أي على الصراط، لما قاسوا مشقة المشي في ظلمة الليل؛ جُوزوا بنورٍ يُضيء لهم ويحيطهم(٥).

والخلاصة: أنَّ الصلاة إمَّا نورٌ حِسِّيٌّ أو معنويٌّ أو هما معًا. وإمَّا أن يكون في الدنيا فقط أو في الآخرة فقط أو فيهما معًا، وما ذلك على الله ببعيد.

---

(١) العنكبوت ٤٥.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢٥٣) برقم (٤١١) عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا. مسند الشهاب، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤ هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ– ١٩٨٦م. والحديث ذكر الألباني أنَّه موضوعٌ كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (١٠/ ١٦٩).

(٣) الفتح ٢٩.

(٤) رواه أبو داود في سننه (١/ ١٥٤) برقم (٥٦١) كتاب الصلاة. باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام. والترمذي في جامعه (١/ ٤٣٥) برقم (٢٢٣) أبواب الصلاة. باب ما جاء في العشاء والفجر في الجماعة. وابن ماجه في سننه (١/ ٢٥٧) برقم (٧٨١) كتاب المساجد والجماعات. باب المشي إلى الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٤٥).

(٥) تحفة الأحوذي (٢/ ١٣).

تُصَــلِّي بِلَا قَلْــبٍ صَــلَاةً بِمِثْلِهــا ... يَكُــونُ الْفَــتَى مُسْتَوْجِبًا لِلْعُقوُبَةِ

فَوَيْحَــكَ تَدْرِي مَنْ تُنَاجِيهِ مُعْرِضًــا ... وَبَيْنَ يَدَيْ مَــنْ تَنْحَنِي غَيْرَ مُخْبِتِ

تُخَــاطِبُهُ "إِيَّاكَ نَعْبُــدُ" مُقْبِــلًا ... عَلَى غَيْرِهِ فِيهَــا لِغَيْرِ ضَــرُورَةِ

وَلَوْ رَدَّ مَنْ نَاجَــاكَ لِلْغَيرِ طَــرْفُـهُ ... تَمَيَّزْتَ مِنْ غَيــظٍ عَلَيْهِ وَغَيْــرَةِ

أَمَا تَسْتَحِي مِنْ مَالِكِ الْمُلْكِ أَنْ يَرَى ... صُدَودَكَ عَنْهُ يَا قَلِيلَ الْمُرُوءَةِ؟[١]!

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان (١/ ٢٣٤). موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، المؤلف: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤هـ.



١٥ محرم

الصدقة برهان

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في الحديث السابق: وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ[١].

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري[٢]:" والصدقة سُمِّيَتْ صدقة؛ لأنَّها دليلُ صدْقِ إيمان صاحبها؛ لأنَّ المال شقيق الروح، فمِنَ الناس مَن يفدي ماله بروحه، ومع هذا يُخرجه فيضعه في يد أرملة، لا يمكنه أن ينتفع بها قط، وقد يضعه في يد أعمى لا يراه حتى الحشر، وقد يضعه في يد بائسٍ فقيرٍ لاصقٍ بالأرض لا يُؤمّل فيه أن ينفع أحدًا، وقد يضعه في يدِ غريبٍ مسافرٍ ابنِ سبيلٍ قد لا يلتقي معه الدهر كلَّه. هذه العملية ما دام الباعث عليها رجاء ما عند الله، وابتغاء ما عند الله تُسمَّى صدقة، وهي دالَّةٌ على صدق إيمان فاعلها، حقًّا إنَّه يؤمن بالله وبلقاء الله، يؤمن بالله وبالبعث الآخر الذي يتلقَّى فيه الناسُ جزاء كسبهم مِن خيرٍ أو شرٍّ. قد يتصدَّق المتصدِّق يريد وجوه الناس ليلفتها إليه، يريد من الناس أن يكَفُّوا عنه فلا يؤذونه بذمٍّ، ولكن تلك النفقة لا تُسمَّى صدقة، الصدقة ما ابتُغي به وجهُ الله، هذه دالَّة دلالة قوية على صدْق إيمان صاحبها، فلولا الإيمان ما خرج الرجل من بستانه وتركه لله.

لما نزل قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[٣]؛ قام أبو طلحة وكان أكثر الأنصار نخلًا ومالًا، فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله؛ لقد أُنزِلَ عليك قول الله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[٤]؛ وإنَّ مِنْ أحبِّ مالي إليَّ بيرحاء (حديقة غنَّاء ذات ماءٍ وشجرٍ ونخيلٍ، وكانت قبالة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يخرج من المسجد فيدخلها فيشرب من مائها، وكان ماؤها عذبًا. وهي إلى الآن ما زالتْ كما هي، وهي المساحة التي عليها قصر المدينة وتلك الفنادق) قال: يا رسول الله؛ ضعْها حيث أراك الله، ليكون قد استجاب لهذا الخبر وحقَّق إيمانه، وأخرج منها زوجته وأولاده وخلَّاها لله" رواه البخاري[٥].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٣) برقم (٢٢٣) كتاب الطهارة. باب فضْل الوضوء.

(٢) من كلمة للشيخ بعنوان الصدقة برهان. مُفرَّغة منشورة على الشبكة موقع إسلام ويب.
https://audio.islamweb.org/audio/index.php?page=FullContent&audioid=244595

(٣) آل عمران ٩٢.

(٤) آل عمران ٩٢.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١١) برقم (٢٧٦٩) كتاب الوصايا. باب إذا وقف أرضًا ولم يُبيِّن الحدود فهو جائز، وكذلك الصدقة.



مِن هنا يقول ﷺ: "والصدقة برهان" والبرهان الحُجَّة، فكيف تكون الصدقة حُجَّة، حُجَّة على مَن؟ ولمن؟ حُجَّة لصاحبها على أنَّه مؤمن، ولن يتصدَّق ابتغاء مرضاة الله وطلبًا لما عند الله إلَّا مؤمنٌ، فإذا أردتَ أن تستدلَّ على إيمانِ عبدٍ؛ فانظر: هل يتصدَّق سرًّا وخفاء؟ إن وجدتَه يتصدَّق سرًّا فاعلم أنَّه مؤمن، إذ صدقة العلن قد تكون لاعتبارات، لكن السِرِّيَّة لن تكون إلَّا من الإيمان، هذه الصدقة التي قال فيها النبي ﷺ:" والصدقة برهان" تشمل الزكاة التي فرض الله، وتشمل صدقات التطوُّع، فالزكاة سُمِّيتْ زكاة لأنَّها تُزَكِّي النفس، وسُمِّيت صدقة لأنَّها برهان على إيمان صاحبها، تدلُّ على صدقه في الإيمان. والزكاة- كما يعلم الجميع- قاعدة الإسلام، وهي أخت الصلاة وشقيقتها، والتفرقة بينهما لا تصح، كما قال أبو بكر الصديق- رضي الله عنه-: ما كنتُ أبدًا لأُفرِّق بين الصلاة والزكاة وقد جمع الله بينهما. فما ذُكرت الصلاة في الكتاب إلَّا وذُكرت الزكاة معها، فهل يُفرِّق العبد بين ما جمع الله؟ وقد قاتل أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- مع أصحابه؛ مانعي الزكاة حتَّى أجبروهم على أدائها، وهذا الحكم باقٍ ببقاء الدين والأمَّة، أيُّما جماعةٍ أو فردٍ يمنع الزكاة إلَّا وعلى إمام المسلمين قتاله حتى يفيء إلى طاعة الله، ويُؤدِّي الزكاة التي أوجب الله، وهي- كما تعلمون- واجبة في الحبوب والثمار، وتجب في المواشي وهي الأنعام: الإبل والبقر والغنم، وتجب في النقدين، والمراد بذلك: الذهب والفضة، الدينار الذهبي والدرهم الفضي، والآن استعاض الناس عن الذهب والفضة بالعُملات المختلفة كالريال والدرهم والجنيه والدينار وما إلى ذلك من هذه الأوراق المالية، وهي قائمة مقام العين.

والصدقة نوعان: صدقة واجبة وصدقة تطوُّع، وكِلا الصدقتين برهان ساطع وحجَّة قاطعة على أنَّ المتصدِّق مؤمنٌ، ومفهومه: أنَّ الذي لا يتصدَّق ما هو بمؤمنٍ، ما آمن إيمانًا بعثه على أن يُنفِق ماله الآن ليتسلَّمه غدًا، فهو إذًا ضعيف المعتقَد في لقاء الله والبعث الآخر".

ويَكفي أنَّ المتصدِّق في ظلِّ صدقته يوم القيامة، كما في الحديث:" كلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقته حتَّى يُقضَى بين الناس" أخرجه أحمد(١).

لذا كان بعض الصحابة والتابعين ومنهم أبو مرثد لا يُخطئه يومٌ إلَّا تصدَّق فيه بشيءٍ ولو كعكةٍ أو بصلةٍ، وقد ذكر النبيُّ ﷺ:" أنَّ من السبعة الذين يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه: رجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها؛ حتَّى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه" رواه البخاري(٢).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٨/ ٥٦٨) برقم (١٧٣٣٣). والحديث صحَّحه الألباني كما في الجامع الصغير وزيادته (ص ٨٦٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١١١) برقم (١٤٢٣) كتاب الزكاة. باب الصدقة باليمين. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة. باب فضْل إخفاء الصدقة.



كما أنَّ في الصدقة دواءً للأمراض البدنيَّة؛ كما في قوله ﷺ:" داووا مرضاكم بالصدقة" أخرجه أبو داود[١].

يقول ابن شقيق: سمعتُ ابن المبارك- رحمه الله- وقد سأله رجلٌ عن قُرحةٍ خرجتْ في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع به، فقال: اذهبْ فاحفرْ بئرًا في مكان حاجةٍ إلى الماء، فإنِّي أرجو أن ينبع هناك عينٌ ويمسك عنك الدم، ففعل الرجلُ فبرأ[٢].

وفي الصدقة دواءٌ للأمراض القلبيَّة كما في قوله ﷺ لمن شكا إليه قسوة قلبه:" إذا أردتَ تليينَ قلبك فأطعمِ المسكينَ، وامسحْ على رأس اليتيم" أخرجه أحمد[٣].

والخلاصة: أنَّ الصدقة برهانٌ ودليلٌ على محبَّة العبد لله، ودليلٌ على إيمانه بربِّه وباليوم الآخر وبالحساب وبالجنَّة والنَّار، ودليلٌ على ثقته بمولاه وبوعده للمؤمنين المنفقين المتصدِّقين: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٤].

قال أحمد بن جعفر البرمكي:

أَنْفِقْ وَلَا تَخْشَ إِقْلَالًا فَقَدْ قُسِمَتْ ... بَيْنَ الْعِبَادِ مَعَ الْآجَالِ أَرْزَاقُ
لَا يَنْفَعُ الْبُخْلُ مَعَ دُنْيَا مُوَلِّيَةٍ ... وَلَا يَضُرُّ مَعَ الْإِقْبَالِ إِنْفَاقُ [٥]

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل (ص ١٢٨) برقم (١٠٥). المراسيل، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقِّق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ. والحديث ذكر الألباني أنَّه ضعيف جدًّا كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (٧/ ٤٨٧) وذكر أنَّه موضوع كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (٨/ ٨٧).

(٢) ذكره البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٧٠) برقم (٣١٠٩). وضعَّفه الألباني كما في ضعيف الترغيب والترهيب (٢٨٥/١) برقم (٥٦٥). ضعيف الترغيب والترهيب، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض– المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٣/ ٢١) برقم (٧٥٧٦). وصحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٠٧).

(٤) سبأ ٣٩.

(٥) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٢/ ١٨٠، بترقيم الشاملة آليًّا).



١٦ محرم

لا تحاسدوا

عن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ:" لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكم على بَيْعِ بعضٍ، وكُونوا عبادَ الله إخوانًا، المسلمُ أخُو المسلمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَكذبُه وَلَا يَحْقِرُه، التقوى ههنا– ويشير إلى صدره ثلاث مرَّات–، بِحَسْبِ امرِئٍ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخَاه المسلمَ، كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دَمُهُ ومَالُهُ وعِرْضُهُ" رواه مسلم[١].

فالحسدُ خُلُقٌ لا يليق بالمسلم، بل هو من أخلاق اليهود والمشركين، إذ عادَوا رسولَ الله ﷺ وكفَروا برسالته وهُم يعلمون أنَّها الحقُّ حسدًا من عند أنفسهم، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[٢].

والحاسدُ مُعترِضٌ على قضاء الله وقَدَرِه؛ حيث لم يرضَ بما قسم الله له ولغيره، وهو دليلٌ على قُبْح النَّفس وسوء طبعها، ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٣].

يقول ابن رجب الحنبلي: الحسد مركوزٌ في طباع البشر، وهو أنَّ الإنسان يكره أن يفوقَه أحدٌ من جنسه في شيءٍ من الفضائل[٤].

وترْك الحسد من علامات الإيمان بقضاء الله وقَدَره، وسببٌ في دخول الجنَّة، وقد شهِدَ النبي ﷺ لرجلٍ من الأنصار ثلاثَ مرَّات أنَّه من أهل الجنَّة، فلمَّا سأله عبد الله بن عمرو بن العاص– رضي الله عنه– قال: ما هو إلَّا ما رأيتَ، غير أنِّي لا أجِدُ في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشًّا، ولا أحسد أحدًا على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه، قال عبد الله: هذه التي بلغَتْ بكَ" أخرجه النسائي[٥].

وَلما كَانَ الحَسَدُ مِنْ صِفاتِ شَرِّ خَلْقِ اللهِ؛ فإنَّ سَلَامَةَ الصُّدُورِ مِنهُ مِنْ صفاتِ أوْلياءِ اللهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٦) برقم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعِرضه وماله.

(٢) البقرة ١٠٩.

(٣) النساء ٥٣–٥٤.

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٦٠).

(٥) رواه النسائي قريبًا من هذا مُطوَّلًا في السنن الكبرى (٩/ ٣١٩) برقم (١٠٦٣٣) كتاب عمل اليوم والليلة، نوع آخر. وقد رواه أحمد في مسنده بهذا اللفظ كما في المسند (٢٠/ ١٢٥) برقم (١٢٦٩٧). والحديث أشار إلى تحسينه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (١/ ٢٦) حيث قال:" وإسناده صحيح على شرط الشيخين؛ كما قال المنذري".



فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[١]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ- رَحِمَهُ اللهُ-: أيْ: وَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِم حَسَدًا لِلمُهَاجِرِينَ فِيمَا فَضَّلَهُم اللهُ بِهِ مِنَ المَنْزِلَةِ والشَّرَفِ والتَّقدِيمِ فِي الذِّكْرِ والرُّتْبَةِ[٢].

والحسد طبيعة وفطرة ملازمة للخلْق إلَّا مَن رحم ربِّي، قلَّما ينجو ويسلم منها أحد؛ وفي الحديث:" ثلاثة لا يسلم منهنَّ أحدٌ: الطيرة ، والظنُّ، والحسد؛ فإذا تطيَّرتَ فلا ترجعْ، وإذا حسدتَ فلا تبغِ، وإذا ظننتَ فلا تُحقِّقْ" رواه الطبراني[٣]، ويقول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: ما كانت نعمة الله على أحدٍ إلَّا وجَد لها حاسدًا، فلو كان الرجل أقومَ مِنَ القدَح لَمَا عدم غامِزًا[٤]، وكما قيل: لا يخلو جسدٌ من حسدٍ، لكنَّ الكريم يُخفيه واللئيم يُبديه، ليس هذا فقط، بل إنَّ المعصية الأولى في سُلَّم المعاصي كانت معصية الحسد، فأوَّل معصية عُصِي بها اللهُ في السماء كانت معصية إبليس؛ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٥].

قال قتادة: حسَد عدوُّ اللهِ إبليسُ آدمَ- عليه السلام- على ما أعطاه الله من الكرامة.

كما أنَّ أوَّل معصيةٍ عُصِي بها اللهُ في الأرض كانت حسد قابيل أخاه هابيل، لقبول الله طاعته، فقتَله بغيًا وحسدًا؛ قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[٦].

وقد بيَّن ابن رجب مراتب الناس في الحسد، فقال:

١- فمنهم مَن يسعى في زوال نعمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل، ويسعى في نقل ذلك إلى نفسه وهو مذموم.

---

(١) الحشر ٩.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٦٩).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٢٨) برقم (٣٢٢٧). المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠ هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية– القاهرة، الطبعة: الثانية. والحديث ضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٣٧٢).

(٤) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص ٢٧١). أدب الدنيا والدين، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) الناشر: دار مكتبة الحياة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م.

(٥) البقرة ٣٤.

(٦) المائدة ٢٧.

٢- ومنهم مَن يسعى في إزالته عن المحسود فقط من غير نقلٍ إلى نفسه، وهو شرُّهما وأخبثهما، وهذا هو الحسد المذموم المنهي عنه، وهو ذنب إبليس حيث حسد آدم.

٣- ومنهم مَن إذا حسد لم يتمنَّ زوال نعمة المحسود، بل يسعى في اكتساب مثل فضائله، ويتمنَّى أن يكون مثله في أمور الآخرة، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" لا حسدَ إلَّا في اثنتيْنِ: رجلٌ آتاه اللهُ مالًا، فسلَّطَه على هَلَكَتِه في الحقِّ، وآخَرُ آتاه اللهُ حكمةً، فهو يَقضي بها ويُعلِّمُها" رواه البخاري[١]، وهذا هو الغبطة.

٤- وقسم آخر إذا وجد من نفسه الحسد سعى في إزالته وفي الإحسان إلى المحسود؛ بإسداء الإحسان إليه، والدعاء، ونشْر فضائله، وفي إزالة ما وجد له في نفسه من الحسد؛ حتى يُبْدله بمحبَّة أن يكون أخوه المسلم خيرًا منه، وأفضل، وهذا من أعلى درجات الإيمان[٢].

والحسد داء الأمم السابقة كما أشار النبي ﷺ بقوله:" دبَّ إليكم داءُ الأُممِ قبلكم: الحسدُ والبغضاءُ، هي الحالِقةُ، لا أقولُ: تحلِقُ الشَّعرَ، ولكن تحلِقُ الدِّينَ، والذي نفسي بيده؛ لا تدخلوا الجنَّةَ حتى تُؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أفلا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم، أَفشوا السلَامَ بينكم" أخرجه الترمذي[٣].

وقال الحسن البصري- رحمه الله-: يا بن آدم؛ لا تحسِدْ أخاك، فإن كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه؛ فلا تَحسِدْ مَن أكرمه الله تعالى، وإن كان لغير ذلك فلِمَ تحسِدُ مَن مصيرُه إلى النَّار[٤].

والحسد دليلٌ على خُبْث نفْس الحاسد كما قال ابن القيم في زاد المعاد عن الحسد: وهو أصل الإصابة بالعين؛ فإنَّ النفس الخبيثة الحاسدة تتكيَّف بكيفيَّةٍ خبيثةٍ، وتقابل المحسود فتُؤثِّر فيه بتلك الخاصية، ولذا من الرقية الشرعيَّة التعوُّذ بالله من الحاسد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٥].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥) برقم (٧٣) كتاب العلم. باب الاغتباط في العلم والحكمة. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٥٩) برقم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل مَن يقوم بالقرآن ويُعلِّمه وفضْل مَن تعلَّم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلَّمها.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٦٠-٢٦٣) بتصرُّف.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٦٤) برقم (٢٥١٠) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ١٠).

(٤) ذكره الهيتمي كما في الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٩٣). الزواجر عن اقتراف الكبائر، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ)، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٥) الفلق ٥.



والخلاصة: أنَّ الحاسد لا ينال الخيرية المشهود لها من خير البرية ﷺ، فقد قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أفضل؟ قال:" كلُّ مخموم القلب، صدوق اللِّسان"، قالوا: صدوق اللِّسان نعرِفه، فما مخمومُ القلب؟ قال:" هو التقيُّ النقيُّ، لا إثمَ فيه، ولا بغيَ، ولا غِلَّ، ولا حسدَ" رواه ابن ماجه(١).

حَسَدُوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَه   فالناسُ أعداءٌ له وخُصُومُ
كضرائرِ الحسناءِ قُلنَ لوجْهِها   حَسَدًا وبَغيًا: إنَّه لدميمُ(٢)

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٩) برقم (٤٢١٦) كتاب الزهد. باب الورع والتقوى. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٩/ ٢١٦).

(٢) ذكره الماوردي في الأمثال والحكم (ص ٢٢٧). الأمثال والحكم، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠ هـ)، تحقيق ودراسة: المستشار الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض– المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.



١٧ محرم

وبالوالدين إحسانًا

يقول عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-:" سألتُ النبي ﷺ: أيُّ العملِ أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: الصلاةُ على وقتِها، وقال: قلتُ: ثُمَّ أيُّ؟ قال: برُّ الوالدين، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: الجهادُ في سبيلِ اللهِ" أخرجه النسائي[١].

وروى الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئبُ فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنَّما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنَّما ذهبَ بابنك، فتحاكما إلى داود- عليه السلام- فقضي به للكُبرى فخرجتا على سليمان بن داود – عليهما السلام- فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسِّكِّين أشقُّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعلْ رحمَكَ اللهُ؛ هو ابنها، فقضى به للصغرى[٢]، لأنَّه علم من قولها أنَّها أُمُّه الحقيقية؛ فالأمُّ التي حملتْ في بطنها، وأرضعتْ من ثديها، وتحمَّلتْ الآلام والأوجاع، وسهرتْ وتعبتْ؛ لا تقبل بحالٍ من الأحوال أن يُشقَّ ولدها على مرأى ومسمعٍ منها، وإنَّما هي تتمنَّى له الحياة؛ حتَّى وإن عاش بعيدًا عنها.

لذا جعلتْ شريعتنا الغراء على لسان حبيبنا المصطفى ﷺ للأمِّ ثلاثة أرباع البِرِّ، يقول أبو هريرة- رضي الله عنه-:" جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ مَن أحقُّ الناس بحُسنِ صحابتي؟ قال: أمُّكَ، قال: ثم مَن؟ قال: أمُّكَ، قال: ثم مَن؟ قال: أمُّكَ، قال: ثم مَن؟ قال: ثم أبوكَ" رواه مسلم[٣].

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢/ ٢٢٧) برقم (١٥٩٣) كتاب قيام الليل وتطوُّع النهار. باب فضْل الصلاة لوقتها. والحديث رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٢) برقم (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل الصلاة لوقتها. ومسلم في صحيحه (١/ ٨٩) برقم (٨٥) كتاب الإيمان. باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٦٢) برقم (٣٤٢٧) كتاب أحاديث الأنبياء. باب قول الله تعالى:{ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنَّه أوَّاب} الراجع المنيب. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٤٤) برقم (١٧٢٠) كتاب الأقضية. باب بيان اختلاف المجتهدين.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢) برقم (٥٩٧١) كتاب الأدب. باب مَن أحقُّ الناس بحُسن الصحبة. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٧٤) برقم (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة والآداب. باب برِّ الوالدين وأنَّهما أحقُّ به.



ووالله الذي لا إله غيره؛ لن نُوفِّيَها حقَّها مهما فعلنا من أجلها، فعن أبي بردة أنَّه شهد ابن عمر- رضي الله عنهما- ورجلٌ يمانيٌ يطوف بالبيت يحمل أُمَّه وراء ظهره يقول:

إنِّي لها بعيرُها المذلَّل إنْ أذعرتْ ركابُها لم أذعرِ

ثم قال: يا ابن عمر؛ أتراني جزيتُها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة[١].

وفي رواية: فقال الرجل: أليس قد حملتُها على ظهري، وحبستُ نفسي عليها؟ قال: إنَّما كانتْ تصنع ذلك بك وهي تتمنَّى بقاءك، وأنت تصنع ذلك وتتمنَّى فراقها[٢].

وإذا أردتَ أن تعرف الفرق بين قلب الأب والأمِّ وبين قلب الابن؛ فانظر إلى حال يعقوب- عليه السلام- لما غاب عنه ولده تفطَّر قلبه وذهب بصره، وكاد أن يهلك من الحزن على ولده ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٤ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[٣]، ومع أنَّ الابن هنا هو نبي الله يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم والذي كان بارًّا بوالديه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٤]، إلَّا أنَّ القرآن لم يذكر لنا حزنه على فراق والده، بل حكى لنا معاناة الوالد وحزنه على ولده حتَّى ابيضَّت عيناه من الحزن، إنَّه قلب الوالد.

ولذلك كان للوالد نصيبٌ في أبواب الجنَّة الثمانية قال رسول الله ﷺ:" الوالد أوسط أبواب الجنَّة". يقول أبو الدرداء- رضي الله عنه-:" فإن شئتَ فأضِعْ ذلك الباب أو احفظْه" أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي[٥].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٨) برقم (١١) باب جزاء الوالدين. الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقِّق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م. وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ٣٦). صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، حقَّق أحاديثه وعلَّق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٢) ذكره ابن الجوزي في البر والصلة (ص ٤٠). البر والصلة لابن الجوزي، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، تحقيق وتعليق وتقديم: عادل عبد الموجود، علي معوض، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

(٣) يوسف ٨٤- ٨٥.

(٤) البقرة ٨٣.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٤٥/ ٥٠٤) برقم (٢٧٥١١)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٣١١) برقم (١٩٠٠) أبواب البر والصلة. باب ما جاء من الفضْل في رضا الوالدين؛ وابن ماجه في سننه (١/ ٦٧٥) برقم (٢٠٨٩) كتاب الطلاق. باب الرجل يأمره أبوه بطلاق امرأته. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٨٣).



وأَمَرنا ربُّنا سبحانه وتعالى ببرِّهما معًا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1]، والإحسان نهاية البِرّ وذروة سنامه، وقال أيضًا: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[2]، فقرن البِرَّ بعبادته عزَّ وجلَّ، وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[3].

لذا كان الصحابي الجليل أبو هريرة– رضي الله عنه– إذا خرج من بيته صاح بأعلى صوته: السلام عليكِ ورحمة الله وبركاته يا أمَّاه، فتقول له أُمُّه: وعليكَ السلام ورحمة الله وبركاته يا بُنيَّ، فيقول: رحمكِ اللهُ كما ربَّيتِيني صغيرًا، فتقول: وأنتَ يا بُنيَّ، فجزاكَ اللهُ خيرًا ورضي عنك كما بررتَني كبيرًا[4].

والقرآن ضرب لنا أروع الأمثلة من حياة الأنبياء وبِرِّهم بآبائهم وأُمَّهاتهم، فهذا نبي الله يحيى– عليه السلام– لما آتاه الله الحُكم في الصِّبا وَصَفَه بالبِرِّ لوالديه ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[5] وهذا عيسى– عليه السلام– أيضًا لما تكلَّم في المهد قال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[6]، ولأنَّ الجزاء يكون دائمًا من جنس العمل، ولما كان إبراهيم بارًّا بوالديه رُزِق بالولد البارِّ، فوالله الذي لا إله غيره؛ لن تجني إلَّا ما تزرعه في ولدك.

وينشأُ ناشئُ الفتيان منَّا على ما كان عوَّدَه أبوه[7]

فإذا رآك ولدُك بارًّا بوالديك سيتعلَّم منك وستجني منه البِرَّ، وإن كانت الأخرى فلا تلومَنَّ إلَّا نفسَك، فنحن كثيرًا ما نسمع خُطباءنا يذكرون قصَّة الرجُل الذي أراد قتْل والده وذهب به إلى الصحراء، فلمَّا أحسَّ والدُه منه ذلك؛ قال: يا بُنيَّ؛ إن كنتَ لا بُدَّ قاتِلي؛ فاقتلني عند هذه الصخرة، فقال الولد: ولِمَ يا أبي؟ فقال له: لأنِّي قتلتُ والدي عندها، ولك غدًا مثلُها يا بُنيَّ، فاعتبروا يا أولي الألباب.

---

(١) البقرة ٨٣.

(٢) النساء ٣٦.

(٣) الإسراء ٢٣– ٢٤.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٨). وحسَّن إسناده الألباني كما في صحيح الأدب المفرد (ص ٣٧).

(٥) مريم ١٤.

(٦) مريم ٣٢.

(٧) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١/ ١٠، بترقيم الشاملة آليًّا).



جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد في سبيل الله، وكلُّنا يعلم فضْل الجهاد في سبيل الله، فقال له النبي ﷺ: أحيٌّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهِدْ" رواه البخاري[١]، فتبيَّن أنَّ بِرَّ الوالدين مُقدَّمٌ على الجهاد في سبيل الله؛ وفي رواية أخرى: قال الرجل: ولقد تركتُ أبوَيَّ يبكيان، قال ﷺ:" ارجعْ إليهما فأضحِكْهما كما أبكيتَهما" أخرجه النسائي[٢].

حتَّى وإن كان الوالدان على غير دين الإسلام؛ يأمرنا الحبيب ﷺ بالبِرّ والصلة لهما، فهذه أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- تقول: قلتُ للنبي ﷺ: إنَّ أُمِّي قدمتْ عليَّ وهي راغبةٌ أفأصلها؟ قال:" نعم، صِلي أمَّكِ" رواه البخاري[٣]، وذلك امتثالًا منه ﷺ لأمْرِ ربِّنا ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾[٤].

والخلاصة: أنَّ مَنْ أرادَ النجاحَ والفلاحَ فلْيَبَرَّ أبَوَيْهِ، فإنَّ بِرَّ الوالِدَيْنِ بَرَكَةٌ في الدُّنْيا والآخرةِ.

وأطِـعْ أبـــــاكَ فإنَّه ربَّاكَ مِن عهــدِ الصِّغَرْ
واخضعْ لأُمِّكَ وارضِها فعُقوقُها إحدى الكُبَرْ[٥]

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٥٩) برقم (٣٠٠٤) كتاب الجهاد والسير. باب الجهاد بإذن الوالدين. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٧٥) برقم (٢٥٤٩) كتاب البر والصلة والآداب. باب برِّ الوالدين وأنَّهما أحقُّ به.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٧/ ١٧٥) برقم (٧٧٣٨) كتاب البيعة، البيعة على الهجرة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٩/ ٢٣٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠٣) برقم (٣١٨٣) كتاب الجزية. باب بدون ترجمة. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٩٦) برقم (١٠٠٣) كتاب الزكاة. باب فضْل النفقة والصدقة على الأقربين.

(٤) لقمان ١٥.

(٥) يُنظَر: برُّ الوالدين (ص ١٥، بترقيم الشاملة آليًّا). برُّ الوالدين، المؤلف: أزهري أحمد محمود، الناشر: دار ابن خزيمة.



١٨ محرم

لئن شكرتم لأزيدنَّكم

ذُكِر أنَّ أعرابيًّا دخل على هارون الرشيد الخليفة العباسي فقال: يا أمير المؤمنين؛ ثبَّتَ الله عليك النعم التي أنتَ فيها بإدامة شكرها، وحقَّق لك النعم التي ترجوها بحُسن الظنِّ به ودوام طاعته، وعرَّفك النعم التي أنتَ فيها ولا تعرفها لتشكرَها، فأعجبه ذلك منه وقال: ما أحسنَ تقسيمَه!!(١)

فالشكر فضائله عظيمة:

١- فهو سببٌ لنيل مرضاة الله، قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢).

٢- والشكر يُوجِب الزيادة للشاكر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(٣)؛ قال الحسن البصري- رحمه الله-: إنَّ الله ليُمتِّع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشكَرْ عليها قلبها عذابًا، ولهذا كانوا يُسمُّون الشكر بالحافظ لأنَّه يحفظ النعم الموجودة، وبالجالب لأنَّه يجلب النعم المفقودة(٤).

٣- كما أنَّ الشكر سبيلٌ للنَّجاة من العذاب، قال عزَّ مِن قائل: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾(٥).

٤- الشكر سببٌ للأجر الجزيل في الآخرة: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٦)، وقال تعالى في الآية التي تليها: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٧).

---

(١) ذكرها ابن القيم في كتابه الفوائد (ص ١٧٣). الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٢) الزمر ٧.

(٣) إبراهيم ٧.

(٤) ذكره ابن القيم في عدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص ١٢٠). عدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت / مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٥) النساء ١٤٧.

(٦) آل عمران ١٤٤.

(٧) آل عمران ١٤٥.



ومما يُؤكِّد على فضْل الشكر أنَّ الله تعالى خصَّ الشاكرين بمنَّته ورحمته وفضله، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١).

وشكر الله تعالى يأتي على ثلاثة أنواع:

أوَّلًا: شكره بالقلب: وهو اعتقاد الإنسان اعتقادًا جازمًا بأنَّ ما به من النعم والهبات؛ هي من الله وحده لا شريك له في حصوله عليها وتنعُّمه بها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾(٢).

وقد رُوي عن داود- عليه السلام- أنَّه قال: يا ربِّ؛ كيف أشكُرُك؟ وشُكرِي لك نِعمةٌ مِنكَ علَيَّ، فقال الله تعالى:" يا داود؛ الآنَ شكَرتَني، إذ علمتَ أنَّ ذلكَ منِّي"(٣).

ثانيًا: شكره باللِّسان: وذلك بالتحدُّث بعطايا الله ونعمه والثناء عليه وحمده على ما أسبغ من النعم الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٤).

فإذا ما أراد العبد أن يُحقِّق عبودية الشكر ويجني ثمارها ويكسب فضائلها؛ فعليه أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يُلهمه الشكر ويُعينه عليه، قال تعالى على لسان نبيه سليمان- عليه السلام-: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٦).

ويُؤيِّد ذلك وصية الحبيب ﷺ لمعاذ بن جبل- رضي الله عنه- حين قال له:" واللهِ يا مُعاذ؛ إنِّي أُحِبُّكَ، فلا تَدعنَّ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ أن تقول: اللهمَّ أعِنِّي على ذِكْرِك وشُكرِك وحُسْنِ عبادتِك" أخرجه أبو داود(٧).

---

(١) الأنعام ٥٣.

(٢) النحل ٥٣.

(٣) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ٢٣٥).

(٤) الضحى ١١.

(٥) النمل ١٩.

(٦) الأحقاف ١٥.

(٧) رواه أحمد في مسنده (٣٦/ ٤٣٠) برقم (٢٢١١٩). وأبو داود في سننه (٢/ ٨٦) برقم (١٥٢٢) باب تفريع أبواب الوتر. باب في الاستغفار. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٤٧) برقم (٩٨٥٧) كتاب عمل اليوم والليلة. الحث على قول: «رب أعِنِّي على ذِكْرك وشُكرك وحُسْن عبادتك» دبر الصلوات. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ٢٥٦).



ويُلحَق بشكر الله سبحانه وتعالى؛ شكرُ الناس على صنائعهم ومعروفهم وإحسانهم؛ فـ" مَن لا يشكُرُ الناسَ لَا يشكُرُ اللهَ" أخرجه الترمذي[١]. وفي بعضِ الروايات:" أشكَرُ النَّاسِ للهِ أشكَرُهم للنَّاسِ" أخرجه أحمد[٢].

ثالثًا: شكره تعالى بالجوارح والأعضاء وتسخير ما أَوْلاكَ به سبحانه وتعالى من النعم فيما يُرضيه، وصرْفها في محبوباته وطاعته، وأن لا يستعملها العبد فيما يسخطه ويبغضه والتخوُّض فيه بغير حقٍّ؛ فعن خولة بنت قيس الأنصارية- رضي الله عنها- قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:" إنَّ رجالًا يَتَخَوَّضُونَ في مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، فلهمُ النارُ يومَ القيامةِ"[٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾[٤].

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الشكر بالعمل عندما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٥].

واعلموا أنَّ بقاء هذه النعم مرهونٌ بشكرها ورعايتها حقَّ رعايتها واستخدامها في مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ورحم اللهُ الإمام الشافعي حيث قال:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها … فإنَّ المعاصي تُزيل النِّعمْ
وداوِمْ عليها بشُكْرِ الإلهِ … فإنَّ الإلهَ سريعُ النِّقمْ[٦]

وعلى المسلم الإكثار من التفكُّر في كثرة نعم الله تعالى وعطاياه، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾[٧]؛ يقولُ طَلقُ بن حبيب- رحمه الله-: إنَّ حُقوقَ اللهِ أعظَمُ مِن أن يقومَ بها العبادُ، ونِعمُ اللهِ أكثرُ مِن أن يُحصِيها المِداد، ولكن أصبِحُوا تائِبين، وأمسُوا تائِبين، واغدُوا شاكِرين، ورُوحُوا شاكِرين"[٨].

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٣٩) برقم (١٩٥٤) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١١٢٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٦/ ١٦٦) برقم (٢١٨٤٦). وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٣٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٨٥) برقم (٣١١٨) كتاب فرض الخمس. باب قول الله تعالى: {فأنَّ لله خمسه وللرسول} الأنفال ٤١.

(٤) يونس ٥٩.

(٥) سبأ ١٣.

(٦) يُنظَر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١٠/ ٣٦٩، بترقيم الشاملة آليًّا).

(٧) إبراهيم ٣٤.

(٨) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٨٢) برقم (٣٥١٥٨) دون قوله:" واغدوا شاكرين، وروحوا شاكرين".



ولْيستشعرْ حجم المسؤولية والوقوف بين يدي المعطي– سبحانه وتعالى- حينما يسأل عباده يوم القيامة عن النعم وشكرهم لها، ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

والخلاصة: أنَّ على المسلم أن يعلم أنَّ في إخلاله بعبودية الشكر استجابةً لإبليس اللعين؛ حيث أقسم بأن يصرف المؤمنين عن شكر الله تعالى كما جاء في الآية الكريمة: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[2].

وأنَّ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ قد بيَّن الشكر بالعمل، فقد كان ﷺ يقوم الليل حتَّى تتفطَّر أو تتورَّم قدماه، وعندما يُسأل: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فيقول:" أَفَلاَ أَكُون عَبْدًا شَكُورًا" رواه البخاري[3].

أفلا نكون نحن أولى من رسول الله ﷺ، ونكون عبيدًا لله شكورين؟!!

(١) التكاثر ٨.

(٢) الأعراف ١٦– ١٧.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٠) برقم (١١٣٠) كتاب التهجُّد باب: قيام النبي ﷺ الليل حتَّى تورَّم قدماه. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧١) برقم (٢٨١٩) كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار. باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.



١٩ محرم

إنَّ الله مع الصابرين

يقول رسول الله ﷺ:" عَجَبًا لأَمْرِ المؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له" رواه مسلم[(١)].

وحقيقة الصبر: ترْك الشَّكوى من أَلَمِ البلوى لغير الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى أثنى على أيوب- عليه السلام- بالصبر، بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[(٢)]؛ مع دعائه في دفْع الضُّر عنه بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(٣)].

والصَّبرُ ثلاثةُ أنواع:

١- منها الصبر على الأوامر والطاعات حتَّى يُؤدِّيها، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[(٤)]؛ وقال أيضًا :﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[(٥)].

٢- ومنها الصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وأكثر الناس يفعل الطاعات ويصبر عليها، ولكنَّه لا يصبر عن المعاصي، فلا يوصف بأنَّه من الصابرين.

٣- ومنها الصبر على الأقدار والمصائب حتى يعلم بأنَّ المصيبة مُقدَّرة من الله تعالى، وأنَّ مَنْ صَبَرَ أُجِرَ، وأمْرُ اللهِ نافذ، ومَنْ جَزِعَ وتسخَّط أثِمَ، وأمْرُ اللهِ نافذ، ومِصداقُه قول النبيِّ ﷺ:" إنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ" رواه الترمذي[(٦)].

وقد أثنى الله تعالى على أهل الصبر؛ فقال سبحانه: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[(٧)]؛ كما أوجبَ سبحانه وتعالى محبَّته للصابرين: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(٨)]، والصبرُ خيرُ ما يُعطاه العبد؛ كما في قوله ﷺ:" وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ"[(٩)].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٥) برقم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمنُ أمرُه كلُّه خيرٌ.

(٢) ص ٤٤.

(٣) الأنبياء ٨٣.

(٤) الحجر ٩٩.

(٥) الرعد: ٢٢.

(٦) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠١) برقم (٢٣٩٦) أبواب الزهد. باب ما جاء في الصبر على البلاء. والحديث حسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤٢٤).

(٧) البقرة ١٧٧.

(٨) آل عمران ١٤٦.

(٩) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٣) برقم (١٤٦٩).



والمسلمون يتفاضلون فيما بينهم بمقدار صَبْرِهم؛ كما قال رسول الله ﷺ:" الْمُسْلِمُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ؛ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ" رواه الترمذي(١).

وللصبر أجرٌ عظيم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢)؛ وقال سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣). وقال النبي ﷺ:" يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ؛ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ" رواه الترمذي(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام:" إِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ (يُرِيدُ عَيْنَيْهِ) فَصَبَرَ؛ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ" رواه البخاري(٥).

ومنها الصبر في الدعوة إلى الله تعالى، وما يترتَّب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأذى والأَلَم، وقد جاء تأكيد ذلك في وصية لقمانَ لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٦).

ومِن أهمّ آدابِ الصبر أن يكون عند الصَّدمةِ الأُولى؛ فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ- رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى عَلَى امْرَأَةٍ تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا، فَقَالَ لَهَا: اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَقَالَتْ: إليكَ عنّي؛ فإنَّك لم تُصَبْ بمُصِيبَتِي. فَلَمَّا ذَهَبَ قِيلَ لَهَا: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. أَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ، فَأَتَتْ بَابَهُ فَلَمْ تَجِدْ عَلَى بَابِهِ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ:" إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَدْمَةِ الأُولى" رواه البخاري(٧).

ومن آداب الصبر أيضًا الصبرُ على موتِ الأحِبَّة وخاصَّة الأبناء؛ ففي حديث أبي موسى- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" إذا مات ولدُ العبدِ قال اللهُ لملائكته: قبضتُم ولد عبدي؟

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٦٣) برقم (٢٥٠٧) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع. باب بدون ترجمة بلفظ: «المسلم إذا كان يخالط الناس ...». ورواه أحمد في مسنده (٩/ ٦٤) برقم (٥٠٢٢). وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٣٨) برقم (٤٠٣٢) كتاب الفتن. باب الصبر على البلاء. كلاهما بلفظ:" المؤمن الذي ..". والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٦١٤).

(٢) الزمر ١٠.

(٣) النحل ٩٦.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٣) برقم (٢٤٠٢) أبواب الزهد. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٣٥٨).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٦) برقم (٥٦٥٣) كتاب المرضى. باب فضْل مَن ذهب بصرُه.

(٦) لقمان ١٧.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم (١٢٨٣) كتاب الجنائز. باب زيارة القبور.



فيقولون: نعم، فيقول: قبضتُم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدكَ واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّة، وسمُّوه: بيت الحمد" رواه الترمذي(١).

وكفى الصابر أجرًا وثوابًا أنَّه لا جزاء له إلَّا الجنَّة ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما-:" أَتَتِ امرأةٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي. قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ. فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا" رواه مسلم(٢).

ويجب على المسلم إذا نزلتْ به مصيبة أن يتذكَّر قول رسول الله ﷺ:" مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا". تقول أم سلمة- رضي الله عنها- وهي راوية الحديث:" فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ؛ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ؛ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ" رواه مسلم (٣).

والخلاصة: أنَّ الدنيا دار بلاء وابتلاء، والإنسان فيها مُعرَّضٌ للمصائب، فعلينا بالصبر ولْنعلمْ أنَّ مُصابَنا بموت الرسول ﷺ أعظم، وأنَّ كلَّ مصيبةٍ دون مصيبتِنا بموتِ النبيّ ﷺ تهون، فبموتِه انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة، وانقطعت النُّبوَّات، يقول النبيُّ ﷺ:" إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ" أخرجه الطبراني(٤)، وفي رواية أخرى:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ؛ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي" رواه ابن ماجه(٥).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٣٣٢) برقم (١٠٢١) أبواب الجنائز. باب فضْل المصيبة إذا احتسب. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣/ ٢١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٤) برقم (٢٥٧٦) كتاب البر والصلة والآداب. باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتَّى الشوكة يُشاكُّها.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٣١) برقم (٩١٨) كتاب الجنائز. باب ما يُقال عند المصيبة.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ١٦٧) برقم (٦٧١٨). وقد رواه الدارمي في سننه (١/ ٥٣) برقم (٨٤). والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٤٢٤). والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ١٢٤). سنن الدارمي، المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي/ الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٥) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٥١٠) برقم (١٥٩٩) كتاب الجنائز. باب ما جاء في الصبر على المصيبة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٤/ ٩٩).



وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

فَاصْـــــبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ وَاعْلَـــمْ بِأَنَّ المـــــــرءَ غَيرُ مُخَلَّدِ

وَاصْبِرْ كما صَبَرَ الكِرامُ فَإِنَّهَا نُوَبٌ تنوبُ اليومَ تُكْشَفُ فِي غَدِ

فَإِذا أَتَتْكَ مُصِيبَةٌ تســـلو بها فَاذْكُـــرْ مُصَـــابَكَ بِالنَبِيِّ مُحَمَّدِ[١]

---

(١) دروس للشيخ علي القرني (٧/ ٥، بترقيم الشاملة آليًّا). دروس للشيخ علي القرني، المؤلف: علي بن عبد الخالق القرني، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.



٢٠ محرم

وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلَّا هو

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[(١)]. وقال أيضًا: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[(٢)]. ويقول سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[(٣)].

إنَّ الله جلَّت قدرته بيده ملكوت كلِّ شيء، وبيده مقاليد كلِّ شيء، وكلُّ ما في هذا الكون مُسخَّرٌ لله جلَّ وعلا، بل إنَّ الكون كلَّه جندٌ من جنود الله عزَّ وجلَّ ، يُسخِّره كيف يشاء.

فالريحُ مثلًا جندٌ من جنود الله، يُهلِك به مَن أراد مِن الأقوام والمجتمعات التي طغتْ عن أمْر ربِّها وكذَّبت رسله، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾[(٤)].

والماءُ كذلك جُندٌ من جنود الله، أهلك به اللهُ جلَّ وعلا أقوامًا تمرَّدوا على شرع الله، وفسقوا وظلموا، فكان عاقبتهم أن سلَّط الله عليهم هذا الجندي من جنوده، فأغرق القوم قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٥)].

هذا الماء كان وبالًا على الظالمين الكافرين، فأغرق الله به فرعون وجنوده، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(٦)].

---

(١) الفتح ٤.

(٢) الفتح ٧.

(٣) المدثر ٣١.

(٤) الحاقة ٥-٨ .

(٥) هود ٤١-٤٤.

(٦) يونس ٩٠.



وكان الماءُ أيضًا جُندًا من جنود الله في غزوة بدر عندما كان في صفِّ الجيوش المسلِمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾(١).

ومن جنود الله أيضًا والذي يكون عونًا من الله تبارك وتعالى للفئة المؤمنة "الحَجر"، نعم، الحَجر يُسخِّره الله سبحانه وتعالى لمن شاء من عباده نصرًا وتأييدًا لهم.

وللحَجر قصة طويلة عبر التاريخ مع المسلمين والمؤمنين.

فإبراهيم عليه السلام حين يلاحقه إبليس ليمنعه من ذبْح ولده إسماعيل، يلتقط حَجرًا، ويقذفه في وجه الشيطان راجمًا إياه، ويعاود إبليس المحاولة مرَّة ثانية وثالثة، ولكن إبراهيم عليه السلام يعاود رجمه في كل مرَّة حتى يأس، لتصبح هذه سُنَّة خالدة، وواجبًا يُؤدِّيه الحاجُّ في ذلك المكان إلى يوم الدين، اقتداءً بسُنَّة إبراهيم الخليل عليه السلام، وتعبيرًا عن العداء الأبدي بين المسلم وبين الشيطان.

ثم مع موسى عليه الصلاة والسلام؛ يطلب موسى من ربِّه السُّقيا لقومه، فيستجيب الله له، ويأمره أن يضرب بعصاه حَجرًا. فينفجر من ذلك الحَجر بأمر الله جلَّ وعلا؛ اثنتا عشرة عينًا، بعدد أسباط بني إسرائيل.

ثم مع قوم لوط عليه السلام، عندما ارتكب قومه تلك الجريمة البشعة التي تُنافي الدين والخُلُق والكرامة والمروءة، والتي تتعارض مع الفطرة السليمة، حتَّى قيل بأنَّ أولئك القوم هم أوَّل مَن أحدثوا هذه الفِعلة الشنيعة، ولم يكن لهم سابِقٌ في هذا الأمر، فبعد ما دعاهم نبيُّهم لوط عليه السلام وحذَّرهم؛ رفضوا وأصرُّوا على جريمتهم النكراء، فأرسل الله ملائكته وأمرهم أن يُمطروهم بحجارة من طين، مُسوَّمة عند ربِّك للمسرفين، فكانت الحجارة سلاحًا إلهيًّا فتَّاكًا ومُدمِّرًا في يد الملائكة. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٢).

ويدور الزمان دورته، ويغزو أبرهةُ مكةَ بجيشٍ جرَّارٍ تتقدَّمُه الفيلة، وهو يريد هدْم بيت الله العتيق، ويعجز العرب عن التصدِّي لهذا الزحف الهائل، لضآلة مكانتهم، وتفرُّقهم إلى قبائل متناحِرة لا يجمعها دِينٌ، ولا تُوحِّدها عصبية، ويقفون موقف المترقِّب العاجز، الذي لايُحرِّك ساكنًا، والذي لا يدري ما

---

(١) الأنفال ١١.

(٢) هود ٨٢-٨٣ .



يَفعَل وما يُفعَل به، فلا يجد عبد المطِّلِب زعيمُ قريش في ذلك الوقت حيلةً إلَّا التعلُّق بأستار الكعبة وهو يُردِّد:

اللهُمَّ إنَّ العبدَ يمنع رحلَه فامنعْ رحـالَكْ

لا يغلبنَّ صليبُهم ومحالُهــم أبدًا محــالَكْ

إنْ كنتَ تاركَهم وقبلتَنا فأمرٌ مَا بدا لَكْ[١]

وبعد أن يصل الأمرُ بقريش مبلغًا عظيمًا، حتَّى تركوا ديارهم وخرجوا من مكَّة لا حول لهم ولا قوَّة؛ عندئذٍ يُرسل الله عزَّ وجلَّ جُندًا من جنوده؛ طيرًا ينزل من السماء يحمل حجارة من طين، فتنزل هذه الحجارة على ذلك الجيش كالقنابل فتحرقهم وتتركهم كأوراق الشجر الجافَّة المحترقة، ويحفظ الله بيته، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[٢].

ثم يأتي وعْدُ رسول الله ﷺ في آخر الزمان:" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ، فيختبئ اليهوديُ خلفَ الحجرِ والشجرِ، فيَقُولَ الْحَجَرُ والشجرُ: يَا مُسْلِمُ؛ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، تعال فَاقْتُلْهُ" رواه البخاري[٣].

والخلاصة: أنَّ جُنود الله لا تُحصَى، ولا يعلمها إلَّا خالقها، فعلى العبد المسلم أن يُسلِم أمره إلى الله، وأن يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا فإنَّما يقول له كن فيكون، فعليه باللجوء إلى الله، والتوكُّل عليه، واستمداد القوَّة منه، ودعائه سبحانه وتعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[٤].

---

(١) المنمق في أخبار قريش (ص ٧٦). المنمق في أخبار قريش، المؤلف: محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (المتوفى: ٢٤٥هـ)، المحقِّق: خورشيد أحمد فاروق، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) الفيل ١-٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٤٣) برقم (٢٩٢٦) كتاب الجهاد والسير. باب قتال اليهود.

(٤) آل عمران ١٧٣-١٧٤.



وصدق الدكتور الشاعر عبد الحميد محمد بدران حيث قال:

هَلْ سَاءَلُوا الشَّرْقَ عَنْ بَدْرٍ وَمَا صَنَعَتْ ... عَزَائِمُ الْجُنْدِ فِي الْهَيْجَا بِوَادِينَا

يَرْمُونَ صَدْرَ الْعِدَا بِالْقَتْلِ مُفْتَخِرًا ... وَاللَّهُ يَرْمِي وَنَصْرُ اللَّهِ حَادِينَا

إِنْ تَنْصُـــــرُوا اللَّهَ- جُنْدَ اللَّهِ – نَاصِرَ ... كُـمْ حَتَّى يَقُولَ الْعِدَا: لَلَّهُ يَرْمِينَا[1]

(١) قصيدة للدكتور عبد الحميد محمد بدران بعنوان: الله أكبر (قصيدة عن غزوة بدر). نُشِرتْ على موقع الألوكة.



٢١ محرم

كلٌّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾(١)، كلُّنا مرهونون بأعمالنا، ومُحاسَبون على أقوالنا وأفعالنا، ومُساءَلون يوم القيامة على تصرُّفاتنا، فلْنسألْ أنفسنا: هل نحن مُستعِدُّون ليوم القيامة ولقاء الله تعالى؟ يقول الرسول ﷺ:" مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ" رواه البخاري(٢).

إنَّنا واللهِ نخاف على أنفسنا أن يدركها الأجل ونحن على هذه الأحوال السيِّئة، أو يأتينا الموت بغتة قبل التوبة، أو تخذلنا أعمالنا وسيِّئاتنا في لحظات الوداع الأخيرة لهذه الحياة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾(٣).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(٤).كم ألهتْنا الدنيا عن أداء صلواتنا، وحالتْ بيننا وبين القيام بعباداتنا، وأوقعتْنا في ارتكاب المحارم وفعْل الفواحش وأكْل الحرام، طمعًا في متاعها الزائل وغرورها الذاهب. ماذا لو علمنا أنَّه لم يبقَ من أعمارنا شيءٌ؟ وماذا لو داهمَنا الموت بغتة فبِتْنا الليلة في قبورنا؟ وماذا لو انتقلنا في لحظة واحدة من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، ومن هذه الحياة إلى حياة القبر والبرزخ؟ ماذا سنقول لربِّنا عن تفريطنا وتقصيرنا؟ وكيف سنقابل الله ونحن مُلوَّثون ومُلطَّخون بمعاصينا وآثامنا؟ وكيف سنعتذر في يومٍ لا ينفع فيه الاعتذار ولا تُجدي فيه الحسرات ولا تنفع فيه الأنَّات والآهات؟

---

(١) المدَّثر ٣٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٦) برقم (٦٥٠٧) كتاب الرقاق. باب مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٥) برقم (٢٦٨٣) كتاب باب مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه، ومَن كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءه.

(٣) الحشر ١٨- ٢٠.

(٤) المنافقون ٩- ١١.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾[(١)].

دخل يزيد الرقاشي الزاهد الواعظ على عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين- رحمه الله- فقال عمر بن عبد العزيز: يا يزيد؛ عِظْني، فقال: يا أمير المؤمنين؛ اعلمْ ما أنت أوَّل خليفة تموت؛ فبكى عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- وقال: زدْني يا يزيد، فقال يزيد: يا أمير المؤمنين؛ ليس بينك وبين آدم إلَّا أبٌ ميّتٌ، فبكى عمر وقال: زدْني، فقال: ليس بينك وبين الموت موعِدٌ، فبكى عمر بكاءً شديدًا وقال: زدْني، فقال له: يا أمير المؤمنين؛ ليس بين الجنَّة والنَّار منزِلٌ، فسقط عمر- رحمه الله- مغشيًا عليه[(٢)].

ويُحكى أنَّ ميمون بن مهران لقي الحسن البصري المعروف بزهده وورعه فقال له ميمون: قد كنتُ أحبُّ لقاءك؛ فعظْني، فقرأ عليه الحسن البصري قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾[(٣)] فقال: عليك السلام أبا سعيد، لقد وعظتَ فأحسنتَ الموعظة[(٤)].

كما بيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ الناس يوم القيامة يحملون أوزارهم على ظهورهم، وكلَّ إنسانٍ منهم يحمل طائره في عنقه، فيأتي بكلِّ أعماله فيجد صالحها وسيِّئها ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدًا﴾[(٥)]، لكنَّ أهل الجنَّة الذين يتجاوز الله عن سيِّئاتهم؛ يجدون تلك السيِّئات قد مُحيتْ وعُوِّضتْ بالحسنات التي عملوها، فيسترهم الله بستره الجميل، والله يبسط كنفه على عبده المؤمن، فيقول: أتذكر يوم كذا إذ فعلتَ كذا، كنتُ قد نهيتُك عنه؟ فيقول: نعم يا ربِّ! وكنتُ قد نسيتُ، فيقول: لكنَّني لم أنسه، فيقول: إنِّي سترتُك به في الدنيا فلن أفضحك به يوم القيامة[(٦)].

---

(١) الزمر ٥٤- ٥٦.

(٢) رواه البيهقي في الزهد الكبير (ص ٢١٦) برقم (٥٥١). كتاب الزهد الكبير، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، المحقِّق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية– بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٦ م.

(٣) الشعراء ٢٠٥-٢٠٧.

(٤) يُنظَر: سراج الملوك (ص ٢٧). سراج الملوك، المؤلف: أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (المتوفى: ٥٢٠ هـ)، الناشر: من أوائل المطبوعات العربية– مصر، تاريخ النشر: ١٢٨٩هـ، ١٨٧٢م.

(٥) آل عمران ٣٠.

(٦) بهذا المعنى رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٨) برقم (٢٤٤١) كتاب المظالم والغصب. باب قول الله تعالى: {ألا لعنة الله على الظالمين} ولفظه:" إنَّ الله يُدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرفُ ذنب كذا، أتعرفُ ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ، حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنَّه هلك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى كتاب حسناته، وأمَّا الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: {هؤلاء الذين كذبوا على ربِّهم ألا لعنة الله على الظالمين} هود ١٨".
ورواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٢٠) برقم (٢٧٦٨) كتاب التوبة. باب قبول توبة القاتل وإن كثُر قتلُه.



فأولئك الذين يسترهم الله على رءوس الأشهاد يوم القيامة، وفي المقابل يُفتضَح آخرون الفضيحة العظيمة على رؤوس الملأ، كما صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال:" إذا جَمع اللَّهُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ يَومَ القِيامَةِ؛ يُرْفَعُ لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ، فقِيلَ: هذِه غَدْرَةُ فُلانِ بنِ فُلان" رواه مسلم[١].

ومعنى كونها رهينة بما كسبت أي: أنَّها تأتي حاملة له تحمله بكامله، فلا يفوت منه شيء؛ فهذا الموقف من المواقف العظيمة التي قال تعالى فيها حكاية عن الذين كفروا عندما يرون الصُحُف: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾[٢]، هنا نريد أن نشير إلى أمرٍ أكَّد عليه القرآن الكريم وهو من المفاهيم القرآنية الراقية والتي هي أحد أصول العدالة التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان، فثمَّة آيات عديدة- بالإضافة إلى هذه الآية- تُقرِّر أنَّ كلَّ إنسانٍ مُرتهنٌ بفعله، وليس من إنسانٍ يُحاسَبُ على فعْل غيره، فالنفس دون غيرها هي التي تُحاسَب على ما تفعل، فلا يُحاسَب على فعْلها قريبٌ لها أو صديقٌ، فلا يُحاسَب الأبُ بجريرة ابنه، ولا الرجلُ بجريرة زوجته، ولا الابنُ بجريرة أبيه، ولا الصديقُ بجريرة صديقه، كلٌ مرهونٌ بعمله، ولا يتعدَّى أثر عمله غيره، هذا قانونٌ إلهيٌّ، وسُنَّةٌ إلهيَّةٌ، ومظهرٌ من مظاهر العدالة الإلهية، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾[٣]. هذه السُّنَّة الإلهيَّةُ قد نتجاوزها في كثيرٍ من شؤوننا، فالسلطان يُنكِّل بأسرةٍ كاملةٍ لأنَّ واحدًا من أبناء هذه الأسرة يراه مُجرِمًا في حقِّه، وأمَّا بقيَّة الأسرة فلا شأن لهم بذلك، ورغم ذلك فهذا السلطان يُنكِّل بأسرة كاملة، وقد يُنكِّل بقبيلة كاملة من أجل النكاية بواحدٍ- من أبناء هذه الأسرة أو من أبناء هذه القبيلة- هو بنظره مجرمٌ في حقِّه.

والخلاصة: أنَّ قلوبنا الغافلة، وأنفسنا الطامعة، وسيِّئاتنا الخاذلة، ودنيانا المضِلَّة؛ هي التي تُبعِدُنا من الله، وتُلهينا عن طاعة الله، وتُنسينا ذكْر الله، وتزيدنا بُعْدًا من الله، حتَّى ننسى لقاء الله، وننسى الحساب والجزاء.

إنِّي بُليتُ بأربعٍ ما سُلِّطُوا ... إلَّا لِشِدَّةِ شِقْوَتِي وَعَنَائِي
إبْلِيسُ وَالدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالْهَوَى ... كَيفَ الْخَلَاصُ وَكُلُّهُمْ أَعْدَائِي[٤]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٥٩) برقم (١٧٣٥) كتاب الجهاد والسير. باب تحريم الغدر.

(٢) الكهف ٤٩.

(٣) الأنعام ١٦٤.

(٤) موارد الظمآن لدروس الزمان (٢/ ٤١٣).



٢٢ محرم

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

يقول الإمام ابن القيم- رحمه الله- مُفسِّرًا تلك الآية السابقة:" لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه؛ دعاه خالقه وبارئه ومُصوِّره وفاطره من قطرة ماء؛ إلى التبصُّر والتفكُّر في نفسه، فإذا تفكَّر الإنسان في نفسه استنارتْ له آيات الربوبيَّة، وسطعتْ له أنوار اليقين، واضمحلتْ عنه غمرات الشَّكِّ والريب، وانقشعتْ عنه ظلمات الجهل، فإنَّه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلَّة التوحيد على ربِّه ناطقات، شاهدة لمدبِّره، دالَّة عليه، مُرشِدة إليه، إذ يجده مُكوَّنًا من قطرةِ ماءٍ؛ لحومًا مُنضَّدة، وعظامًا مُركَّبة، وأوصالًا مُتعدِّدة، مأسورة مُشدَّدة بحباله، العروق والأعصاب قد قمطتْ وشُدَّتْ وجُمِعَتْ بجلدٍ متينٍ، مُشتمِل على ثلاثمائة وستين مفصلًا ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحنٍ، وشُدَّتْ هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقًا للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمدِّ والضمِّ، والصنايع والكتابة.

وجعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشَّم، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفُّس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسُها.

وجعل داخل بابَي السمع مُرًّا قاتلًا لئلَّا تلج فيها ما تخلص إلى الدماغ فتؤذيه، وجعل داخل بابَي البصر مالحًا لئلَّا تُذيبَ الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم، وجعل داخل باب الطعام والشراب حُلوًا ليسيغ به ما يأكله ويشربه فلا يتنغَّص به لو كان مُرًّا أو مالحًا.

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء مُركَّبَينِ في أعلى مكانٍ منه، وفي أشرف عضوٍ من أعضائه طليعة له، وركَّب هذا النور في جزءٍ صغيرٍ جدًّا يُبصِر به السماء والأرض وما بينهما، وغشَّاه بسبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فوق بعض حماية له وصيانة وحراسة، وجعل على محلِّه غلقًا بمصراعين أعلى وأسفل، وركَّب في ذيل المصراعين أهدابًا من الشَّعر وقاية للعين وزينة وجمالًا، وجعل فوق ذلك كلِّه حاجبين من الشَّعر يحجبان العين من العَرَق النازل، ويتلقَّيان عنها ما ينصب من هناك، وجعل سبحانه لكلِّ طبقةٍ من طبقات العين شُغلًا مخصوصًا، ولكلِّ واحدٍ من الرطوبات مقدارًا مخصوصًا؛ لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلَّت المنافع والمصالح المطلوبة، وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة، ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والجبال، والعالم العلوي والسفلي، مع اتِّساع أطرافه وتباعد أقطاره، واقتضتْ حكمتُه سبحانه أن جعل فيها



بياضًا وسوادًا، وجعل القوّة الباصرة في السواد، وجعل البياض مُستقَرًا لها ومسكنًا، وزيَّن كُلًّا منهما بالآخر، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدَّم، وجعلها سوداء؛ إذ لو كانت بيضاء لتفرَّق النور الباصر فضعف الإدراك، فإنَّ السواد يجمع البصر ويمنع من تفرُّق النور الباصر، وخَلَقَ سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعًا وعشرين عضلة، لو نقصتْ عضلةٌ واحدةٌ لاختلَّ أمْرُ العين.

ولما كانت العين كالمرآة- التي إنَّما تنطبع فيها الصور إذا كانتْ في غاية الصقالة والصفاء- جعل سبحانه هذه الأجفان مُتحرِّكة جدًّا بالطبع إلى الانطباق من غير تكلُّف لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات، ولهذا لما لم يخلُقْ لعين الذُّبابة أجفانًا فإنَّها لا تزال تراها تُنظِّف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات.

وكما جعل سبحانه العينين مُؤدِّيَتَينِ للقلب ما يريانه فيوصلانه إليه كما تَريانه؛ جعلهما مرآتين للقلب يظهر فيهما ما هو مُودَعٌ فيه من الحُبِّ والبغض، والخير والشر، والبلادة والفطنة، والزيغ والاستقامة، فيُستدَلُّ بأحوال العين على أحوال القلب، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة: وهي فراسة العين، وفراسة الأذن، وفراسة القلب، فالعين مِرآةٌ للقلب وطليعة ورسول. ومن عجيب أمرها أنَّها من ألطف الأعضاء وأبعدها تأثُّرًا بالحرِّ والبرد، على أنَّ الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثَّر بهما أكثر من تأثُّر العين على لطافتها، وليس ذلك إلَّا بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان، فإنَّها لو كانت مُتفتِّحة لم تتأثَّر بذلك تأثُّر الأعضاء اللطيفة.

ومن ذلك: الأذنان شقَّهما- تبارك وتعالى- في جانِبَي الوجه، وأودعهما من الرطوبة ما يكون مُعينًا على إدراك السمع، وأودعهما القوة السمعيَّة، وجعل سبحانه في هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات لتطول المسافة قليلًا، فلا يصل الهواء إلَّا بعد انكسار حِدَّته، فلا يصدمها وهلة واحدة فيؤذيها، وأيضًا لئلَّا يفجؤها الداخل إليها من الدبيب والحشرات، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الانعطافات؛ وقف هناك فسهُل إخراجُه.

وكانت العينان في وسط الوجه، والأذنان في جانِبَيْهِ؛ لأنَّ العينين محلُّ الملاحة والزينة والجمال، وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الإنسان، وأمَّا الأذنان فكان جعْلُهما في الجانبين لكون إدراكهما لما خلْف الإنسان وأمامه وعن يمينه وعن شماله سواء، فتأتي المسموعات إليهما على نسبة واحدة، وخَلَقَ العينين بغطاء والأُذُنين بغير غطاء، وهذا في غاية الحكمة؛ إذ لو كان للأُذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت، فلا يحصل إلَّا بعد ارتفاع الغطاء، والصوت عَرَضٌ لا ثبات له، فكان يزول قبل كشف الغطاء، بخلاف ما تراه العين، فإنَّه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء



وفتح العين. وجَعَلَ سبحانه الأذن عضوًا غضروفيًّا ليس بلحمٍ مُسترخٍ ولا عظم صلب، بل هي بين الصلابة واللين، فتُقبَل بلِينها وتُحفَظ بصلابتها، ولا تنصدع انصداع العظام، ولا تتأثَّر بالحرِّ والبرد والشمس والسموم تأثُّر اللحم؛ إذ المصلحة في بروزها لتتلقَّى ما يرِدُ عليها من الأصوات والأخبار"[١].

والخلاصة: أنَّه إذا تأمَّل الإنسان المؤمن وهو يستشعر قول الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[٢]؛ تُضيءُ قلبَه تلك الآياتُ الباهراتُ، وتسطعُ له أنوار اليقين، فيزداد إيمانُه بخالقه الذي أوجده على هذه الهيئة البديعة، وسوَّى خلقه فَعَدَّلَه بهذه الصورة الفريدة، ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾[٣]، وتظهر له عظمة الخالق بأنَّه سبحانه على كلِّ ما يشاء وما يريد قدير. وفي هذا يقول الشاعر؛ ولعلَّه أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-:

دُوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تُبْصِرُ ... وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تَشْعُرُ
وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ ... وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ[٤]

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٣٠٣ -٣٠٧). التبيان في أقسام القرآن، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقِّق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢) الذاريات ٢١.

(٣) النمل ٨٨.

(٤) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٩/ ٢٦٥، بترقيم الشاملة آليًّا). والبيت الأوَّل عنده:
دَوَاؤكَ فيكَ وما تَشْعُرُ ... ودواؤكَ منكَ وما تبصرُ.
ولعل الشطر الثاني فيه خطأ، والمثبَت هو الصواب: وداؤك منك ..

٢٣ محرم

ادعونى أستجبْ لكم

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾[٢].

إنَّ الدعاء عبادة من أعظم العبادات، وقُربة من أجَلِّ القُربات، شأنه عند الله كبير، وأجره عند الله عظيم، به تُستمطَر الرحمات، وتُغفَر الزلات، وتُرفَع الدرجات، وتُدفَع البلايا، وتُجزَل العطايا، وبه يُرَدُّ القضاء، وتُستمطَرُ السماء.

والدعاء معناه إظهار الافتقار لله تعالى، والتبرُّؤ من الحَوْل والقوة، وقد جاءت النصوص الشرعيَّة مُبيِّنةً أمْرَ الله عزَّ وجلَّ لعباده بالدعاء، وعِظم شأنه وفضْله، فهو من أعظم العبادات، بل هو العبادةُ نفسُها، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ- رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾" رواه الترمذي[٣].

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي، ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين[٤].

والدعاء من أعظم أسباب دفْع البلاء قبل نزوله، ورفعه بعد نزوله، فعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" إِنَّ الدُّعاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نزلَ ومِمَّا لمْ يَنْزِلْ، فَعليكُمْ عِبادَ اللهِ بالدعاءِ" رواه الترمذي[٥].

---

(١) غافر ٦٠.

(٢) البقرة ١٨٦.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٢١١) برقم (٢٩٦٩) أبواب تفسير القرآن. باب: ومن سورة البقرة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ٤٦٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ١٥٥).

(٥) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٥٢) برقم (٣٥٤٨) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٨/ ٤٨).



والدعاء سببٌ لانشراح الصدر وتفريج الهمّ وزوال الغمّ، وهو مفزَع المظلومين، وملجأ المستضعَفين، ففي حديث معاذ- رضي الله عنه- قال ﷺ:"وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ" رواه البخاري ومسلم(١).

وقال ابن القيم في كتابه الداء والدواء:" والأدعية والتعوُّذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحدِّه فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به، والساعِدُ ساعِدٌ قويٌّ، والمانع مفقودٌ؛ حصلتْ به النكاية في العدو، ومتى تخلَّف واحدٌ من هذه الثلاثة تخلَّف التأثير"(٢).

واعلموا أنَّ أعجز الناس مَن عجز وترَكَ الدعاء، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" وإنَّ أعجزَ الناسِ مَن عجزَ عنِ الدعاءِ" أخرجه البخاري في الأدب المفرد(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضى الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ" أخرجه الترمذي(٤).

وقال ابن القيم:" هذا يدلُّ على أنَّ رضاه في مسألته وطاعته، وإذا رَضِيَ تعالى فكلُّ خيرٍ في رضاه، كما أنَّ كلَّ بلاءٍ ومُصيبةٍ في غضبه(٥)، والدعاء عبادة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٦)، فهو تعالى يغضب على مَن لم يسأله.

واعلموا أنَّ استجابة الدعاء تتنوَّع، فإمَّا أن يُعْطَى العبد ما سأل، وإمَّا أن يُصْرَف عنه من السوء مثله، أو أن يُدَّخَر له في الآخرة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري- رضى الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" ما مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ " أخرجه أحمد(٧).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٩) برقم (١٤٩٦) كتاب الزكاة. باب أخْذ الصدقة من الأغنياء وتُردُّ في الفقراء حيث كانوا. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٠) برقم (١٩) كتاب الإيمان. باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي= الداء والدواء (ص ١٥). الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار المعرفة- المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

(٣) الأدب المفرد (ص ٣٥٩). وصحَّحه الألباني موقوفًا ومرفوعًا كما في صحيح الأدب المفرد (ص ٣٩٧).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٥٧) برقم (٣٣٧٣) أبواب الدعوات. باب منه. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٣٧٣).

(٥) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي= الداء والدواء (ص ١٨).

(٦) غافر ٦٠.

(٧) رواه أحمد في مسنده (١٧/ ٢١٣) برقم (١١١٣٣). والحديث صحَّحه الألباني كما في تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٢٢). تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.



يقول الفاروق عمر- رضي الله عنه-:" إِنِّي لا أحمل همَّ الإجابة، ولكنِّي أحمل همَّ الدعاء، فإذا وُفِّق العبدُ للدعاء؛ فإنَّ الإجابة معه" [١]؛ لأنَّ هناك وعدًا ربانيًا ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾[٢]؛ فإذا أراد اللهُ بعبده خيرًا وفَّقه للدعاء، فإذا لم يُوفَّق فمعنى ذلك أنَّ الله- سبحانه وتعالى- لم يُرِد به هذا الخير.

وأمَّا عدم العلم فإنَّ كثيرًا من الناس يظنُّون أنَّ الدعاء أمرٌ صعبٌ أو أنَّه شيءٌ مُعقَّدٌ يحتاج إلى ألفاظٍ مُحدَّدةٍ مُعيَّنةٍ فيمنعهم هذا من الدعاء.

سأل النبيُّ ﷺ يومًا أحد الصحابة:" ما تقول في صلاتك؟ فقال: يا رسول الله؛ إِنِّي أتشهَّدُ ثم أسألُ اللهَ الجنَّة وأعوذُ به من النَّار، فوالله ما أُحسِنُ دندنتك ولا دندنة معاذ" رواه ابن ماجه[٣].

والدندنة هو الصوت الخفي الذي يُسمَع ولا يُفهَم، مهما طال الدعاء، مهما كثرت الكلمات، فإنَّ المراد واحد، والمقصود واحد، والهدف واحد، نسعى لرحمة الله، ونرجو عفو الله، ونطمع في جنَّة الله، فالعبرة ليست بكثرة الكلمات، وليست العبرة ببلاغة العبارات وفصاحتها، إنَّما العبرة بما في القلب بما يريده الإنسان.

فهذا يونس- عليه السلام- حين دعا ربَّه- تبارك وتعالى- وهو في بطن الحوت، سمع صوته في السماء وهو في جوف البحار فماذا عساه قال؟ قال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤]، كلمات قليلة، كلمات يسيرة، يقول عنها ﷺ:" فإنَّهُ لم يَدْعُ بها مُسلِمٌ رَبَّهُ في شَيءٍ قَطُّ إلَّا استَجابَ له "رواه الترمذي والنسائي[٥].

فعلى المسلم أن يتحرَّى أوقات الإجابة مثل يوم الجمعة، والثُّلُث الأخير من الليل، وفي الأسحار قُبيل الفجر، وبين الأذان والإقامة من كلِّ صلاةٍ، وفي أدبار الصلوات المكتوبات؛ فإنَّها أوقاتٌ تُرجَى فيها الإجابة بإذن الله، يقول النبي ﷺ:" إنَّ في الجمُعةِ ساعةً لا يُوافِقُها عَبدٌ مُسلِمٌ قائمٌ يُصلِّي يَسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ شيئًا إلَّا أعطاهُ إيَّاهُ " رواه النسائي[٦].

---

(١) ذكره ابن القيم في عددٍ من كتبه؛ منها: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي= الداء والدواء (ص ١٧).

(٢) غافر ٦٠.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٢٩٥) برقم (٩١٠) كتاب إقامة الصلاة والسُنَّة فيها. باب ما يُقال بعد التشهُّد والصلاة على النبي ﷺ. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١/ ٥٢).

(٤) الأنبياء ٨٧.

(٥) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٢٩) برقم (٣٥٠٥) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٢٤٣) برقم (١٠٤١٧) كتاب عمل اليوم والليلة. ذِكْر دعوة ذي النُّون. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٨/ ٥).

(٦) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢/ ٢٩١) برقم (١٧٦١) كتاب الجمعة. الساعة التي يُستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٤/ ٧٥). والحديث أصله في الصحيحين: رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٣) برقم (٩٣٥) كتاب الجمعة. باب الساعة التي في يوم الجمعة. ومسلم في صحيحه (٢/ ٥٨٣) برقم (٨٥٢) كتاب الجمعة. باب في الساعة التي في يوم الجمعة.

ويقول ﷺ أيضًا:" يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فيَقولُ: مَن يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له، مَن يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَن يَسْتَغْفِرُنِي فأغْفِرَ له؟" رواه البخاري(١).

وسُئلَ ﷺ: يا رسول الله؛ أيُّ الدعاءِ أسمعُ؟ (أي ما هي الأوقات التي يُسمَعُ فيها الدعاء أكثر؟) فقال ﷺ:" في جوف الليل الآخِر ودُبُر الصلوات المكتوبات" رواه الترمذي(٢).

وأخيرًا: إذا دعوتَ الله- سبحانه وتعالى- فاملأْ قلبَكَ يقينًا بأنَّه- سبحانه وتعالى- سيُجيبُ دعوتك لا محالة، قال ﷺ:" ادعوا اللهَ وأنتم مُوقِنونَ بالإجابةِ ، واعلموا أنَّ اللهَ لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ لاهٍ" رواه الترمذي(٣)؛ قلبٌ شاردٌ يدعو الله وهو في وادٍ آخَر، يرفع يديه إلى الله، وقلبُه عند الخلْق، لا يُستجاب لمثل هذا، إنَّما يُستجاب لمن توجَّه بيده ولسانه وقلبه إلى الله بيقين صادق.

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ(٤)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٣) برقم (١١٤٥) كتاب التهجُّد. باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٢١) برقم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب الترغيب في الدعاء والذِّكْر في آخر الليل، والإجابة فيه.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٢٧) برقم (٣٤٩٩) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٤٧) برقم (٩٨٥٦) كتاب عمل اليوم والليلة. ما يُستحَبُّ من الدعاء دُبُر الصلوات المكتوبات. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٤٩٩).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥١٧) برقم (٣٤٧٩) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٤٧٩).

(٤) لم أقف على قائلهما، وقد ذكرهما كثيرٌ من المعاصرين في رسائلهم. يُنظَر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج (٤٢/ ٤٧). البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، المؤلف: محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، (١٤٢٦ - ١٤٣٦هـ).



٢٤ محرم

لو يعلمُ النَّاسُ ما في النِّداءِ والصَّفِّ الأوَّلِ

عن أبي هريرة- رضي الله عنه-: أنَّ رسول الله ﷺ قال:" لو يعلمُ النَّاسُ ما في النِّداء والصفِّ الأوَّل ثم لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا" رواه البخاري(١).

قال الإمام النووي:" معناه أنَّهم لو علموا فضيلة الأذان وقدره وعظيم جزائه، ثم لم يجدوا طريقًا يحصلونه بها؛ لاقترعوا في تحصيله"(٢).

قال الإمام القرطبي- رحمه الله-:" واعلمْ أنَّ الأذان على قِلَّة ألفاظه مُشتمِلٌ على مسائل العقيدة؛ وذلك أنَّه- عليه الصلاة والسلام- بدأ بالأكبرية، وهي تتضمَّن وجود الله تعالى ووجوبه وكماله، ثم ثنَّى بالتوحيد، ثم ثلَّث برسالة رسوله، ثم ناداهم لِما أراد مِن طاعته، ثم ضمن ذلك بالفلاح، وهو البقاء الدائم، فأشعر بأنَّ ثَمَّ جزاء، ثُمَّ أعاد ما أعاد توكيدًا"(٣).

ولذا عظُمَ ثوابُ المؤذِّنين عند الله تعالى، وجاءت الأحاديث والآثار الكثيرة في فضْل وظيفتهم، وأنَّها من أعظم الوظائف ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٤). قالت عائشة- رضي الله عنها-: هو المؤذِّن إذا قال: حيَّ على الصلاة، فقد دعا إلى الله، وقال ابن عمر وعكرمة: إنَّها نزلت في المؤذِّنين(٥).

وفي حديث معاوية- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" المؤذِّنون أطولُ الناس أعناقًا يوم القيامة" رواه مسلم(٦)، قال النضر بن شميل: إذا ألجم الناسَ العرقُ طالتْ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٦) برقم (٦١٥) كتاب الأذان. باب الاستهام في الأذان. ومسلم في صحيحه (١/ ٣٢٥) برقم (١٢٩) كتاب الصلاة. باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضْل الأوَّل فالأوَّل منها، والازدحام على الصَّفِّ الأوَّل، والمسابقة إليها، وتقديم أُولي الفضْل، وتقريبهم من الإمام.

(٢) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٥٨).

(٣) المفهِم لما أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ١٤). المفهِم لما أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه وقدَّم له: محيي الدين ديب ميستو- أحمد محمد السيد- يوسف علي بديوي- محمود إبراهيم بزال، الناشر: (دار ابن كثير، دمشق- بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق- بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٤) فصلت ٣٣.

(٥) تفسير ابن كثير (٧/ ١٨٠).

(٦) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٩٠) برقم (٣٨٧) كتاب الصلاة. باب فضْل الأذان وهرب الشيطان من سماعه.



أعناقهم لئلَّا يغشاهم ذلك الكرب، وقيل: هم رؤساء الناس في الموقف؛ لأنَّ العرب تصف السادة بطول الأعناق(١).

ويأتي المؤذِّن يوم القيامة ومعه شهاداتٌ مِن كلِّ مَن سمِعَ أذانه، قال أبو سعيد الخدري- رضي الله عنه- لعبد الرحمن بن أبي صعصعة:" إِنِّي أراك تُحِبُّ الغنم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك أو باديتك؛ فأذَّنْتَ للصلاة فارفعْ صوتك بالنداء، فإنَّه لا يسمع مدى صوت المؤذِّنِ جِنٌ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلَّا شهد له يوم القيامة. ثم قال أبو سعيد- رضي الله عنه-: سمعتُه من رسول الله ﷺ" رواه البخاري(٢).

كما يُغفَر له مع كلِّ أذانٍ يُؤذِّنه، كما قال رسول الله ﷺ:" يُغفَر للمؤذِّن مُنتهى أذانه، ويَستغفر له كلُّ رطبٍ ويابسٍ" رواه أحمد(٣).

والمؤذِّن أوَّل المصلِّين قدومًا إلى المسجد، والتبكير إلى الصلوات فيه من الأجر ما لا يخفى، ويتأتَّى للمؤذِّن إحسان الوضوء، والمحافظة على أذكاره، وأذكار الخروج من المنزل، وأذكار دخول المسجد، وأذكار الأذان، والمشي إلى المسجد بسكينة؛ ما قد لا يتأتَّى لغيره، وكلُّ هذه عبادات وقُربات لها أجرها وثوابها.

وإذا انتهى من الأذان، وقال ما بعده من أذكار، وصلَّى ما كُتِب له، ودعا، وقرأ ما تيسَّر من القرآن، وتلك عبادات أخرى، فإذا حضرت الإقامة وأقام الصلاة؛ كان ما قام به من عبادات سابقة مُهيِّئًا لأداء الفريضة على أكمل وجه، ومُعينًا له على الخشوع والتدبُّر؛ لأنَّ ما تقدَّم من عبادات سببٌ لطرد الشيطان ووساوسه.

علاوة على أنَّ الأذان والإقامة من أعظم أسباب الخشوع وطرد الوساوس والخطرات، وفي هذا يقول ابن الجوزي- رحمه الله-:" على الأذان هيبةٌ يشتدُّ انزعاج الشيطان بسببها؛ لأنَّه لا يكاد يقع في الأذان رياءٌ ولا غفلةٌ عند النطق به، بخلاف الصلاة؛ فإنَّ النفس تحضر فيها فيفتح لها الشيطان أبواب الوساوس"(٤).

---

(١) يُنظَر: المفهِم لما أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ١٥).

(٢) رواه البخاري في صحيح (١/ ١٢٥) برقم (٦٠٩) كتاب الأذان. باب رفْع الصوت بالنداء.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٦/ ٢٧) برقم (٩٩٣٥). ورواه أبو داود في سننه (١/ ١٤٢) برقم (٥١٥) كتاب الصلاة. باب رفْع الصوت بالأذان. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢/ ١٥).

(٤) كشف المشكِل من حديث الصحيحين (٣/ ٣٧٢). كشف المشكِل من حديث الصحيحين، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقِّق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن– الرياض.



وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال:" إذا نُودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراطٌ حتَّى لا يسمع التأذين" رواه البخاري[١]؛ ولأجل هذا نُهِي المسلم عن الخروج من المسجد بعد الأذان. قال ابن بطال:" لئلَّا يكون مُتشبِّهًا بالشيطان الذي يفرُّ عند سماع الأذان"[٢].

وصحَّ عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنَّه قال:" لو أُطيقُ الأذان مع الخلافة لأذَّنتُ"[٣].

وقال ابن مسعود- رضي الله عنه-:" لو كنتُ مُؤذِّنًا ما باليتُ أن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد"[٤].

أمَّا عن الصَّفِّ الأوَّل فهو أفضل صفوف المصلِّين، وفيه فضْلٌ عظيمٌ؛ فينبغي للمصلي الحرص على أن يكون دائمًا في الصفِّ الأوَّل، ولا ينبغي لمن جاء مُبكِّرًا أن يتأخَّر عن الصَّفِّ الأوَّل إلَّا لعذر، وقد قال ﷺ:" تقدَّموا فأتمُّوا بي، ولْيأتمَّ بكم مَن بعدكم، ولا يزال قومٌ يتأخَّرون حتَّى يُؤخِّرَهم الله" رواه مسلم[٥]؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: مَن جاء أوَّل الناس وصَفَّ في غير الأوَّل؛ فقد خالف الشريعة؛ ومَن ترك الصَّفَّ الأوَّل فقد حرَم نفسه خيراً كثيراً[٦].

والحفاظ على الصَّفِّ الأوَّل يستلزم التبكير في الذهاب إلى المسجد؛ لِما يترتب عليه من الفوائد، ومنها: إدراك الصَّفِّ الأوَّل، وإدراك الصلاة من أوَّلها، وأداء النافلة، وقراءة القرآن، وحصول استغفار الملائكة له، وأنَّه لا يزال في صلاةٍ ما انتظر الصلاة، وغير ذلك.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٥) برقم (٦٠٨) كتاب الأذان. باب فضْل التأذين.

(٢) نص كلام ابن بطال:" لئلَّا يشبه فعل الشيطان فى هروبه لئلَّا يسمع النداء" شرح صحيح البخارى لابن بطال (٢/ ٢٣٥). شرح صحيح البخارى لابن بطال، المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩ هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد- السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٣) رواه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (١/ ٤٨٦) برقم (١٨٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢٠٤) برقم (٢٣٤٥). المصنف، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١ هـ)، المحقِّق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، يُطلَب من: المكتب الإسلامي— بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

(٤) رواه أبو نعيم في الصلاة (ص ١٥٥) برقم (١٨٧)؛ والفسوي في مشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي (ص ٧٠). الصلاة المؤلف: أبو نعيم الفضل بن عمرو بن حماد بن زهير بن درهم القرشي التيمي بالولاء الملائي، المعروف بابن دُكَيْن (المتوفى: ٢١٩ هـ)، المحقِّق: صلاح بن عايض الشلاحي، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة / السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م. مشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي، المؤلف: يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، أبو يوسف (المتوفى: ٢٧٧هـ)، المحقِّق: محمد بن عبد الله السريع، الناشر: دار العاصمة— الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٢٥) برقم (٤٣٨) كتاب الصلاة. باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضْل الأوَّل فالأوَّل منها، والازدحام على الصَّفِّ الأوَّل، والمسابقة إليها، وتقديم أُولِي الفضْل، وتقريبهم من الإمام.

(٦) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٦٢).



والمقصود بالصَّفِّ الأوَّل كما بيَّنه الحافظ ابن حجر في الفتح بقوله: والمراد به ما يلي الإمام مُطلَقًا، وقيل: أوَّلُ صفٍّ تامٍّ يلي الإمام؛ لا ما تخلَّله شيءٌ كمقصورة، وقيل: المراد به مَن سبق إلى الصلاة ولو صلَّى آخِر الصفوف، قاله ابن عبد البَرِّ: واحتجَّ بالاتِّفاق على أنَّ مَن جاء أوَّل الوقت ولم يدخل في الصَّفِّ الأوَّل فهو أفضل ممَّن جاء وزاحم إليه. ولا حجَّة له في ذلك كما لا يخفى. قال النووي: القول الأوَّل هو الصحيح المختار، وبه صرَّح المحقِّقون، والقولان الآخران غلطٌ صريحٌ"[١].

والخلاصة: أنَّ فضْل الأذان والصَّفِّ الأوَّل فضْلٌ عظيمٌ، لا يعلم الناسُ فضْلهما حقَّ المعرفة، ولو علموا ذلك لتنافسوا وتزاحموا وتقاتلوا عليهما، حتَّى لا يجدوا سبيلًا لفضِّ النزاع سوى اللجوء للاقتراع بينهم.

إِذَا مَا دَعَا دَاعِي الْهُدَى فِي الْمَآذِنِ ... وَجَالَ صَدَاهُ فِي الْقُرَى وَالْمَدَائِنِ
أُصَلِّي عَلَى الْمُخْتَارِ طَهَ وَصَحْبِهِ ... نَبِيِّ الْوَرَى الْمَنْصُورِ صَافِي الْمَعَادِنِ
إِذَا شَدَّنِي صَوتُ الْأَذَانِ بِسِحْرِهِ ... فَمَا عَادَ يُغْرِينِي هِزَارُ الْجَنَائِنِ
إِذَا مَا سَرَى صَوتُ الْمُؤَذِنِ غَطَّنِي ... بِنُورٍ شَفَانِي مِنْ جَمِيعِ الْبَرَاثِنِ
فَيَا مَئْذَنَاتٍ فِي الْمَسَاجِدِ أَذِّنِي ... وَهَيِّجِي بِلَمْحِ النُّورِ فَيْضَ كَوَامِنِي[٢]

(١) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٢٠٨).
(٢) لم أقف على ناظمها.

٢٥ محرم

خيرُ الزّاد

قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾[١]، فالتقوى هي أفضلُ زادٍ يتزوَّد به العبد .وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[٢].

فالتقوى هي وصيةُ الله عزَّ وجلَّ للبشر أجمعين؛ وذلك لأنَّها جامعةٌ لكلِّ خيرٍ، فالذي يتَّقي الله سبحانه وتعالى سيُوحِّدُه وحده ولن يُشرك به شيئًا، سيبحث عمَّا يُرضيه سبحانه فيأتيه، وعمَّا يُغضِبه سبحانه فيجتنبه، فهي خيرُ وصيةٍ من ربِّ البريَّة، يُرشِد عبادَه لما فيه فلاحُهم ونجاحُهم في الدنيا والآخرة.

وجعل الله التقوى هي ميزان الحقِ الذي يُوزَن به الناس، لا ميزان الحَسَب والنَّسب والمال والشُّهرة؛ فقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[٣].

والتقوى أجملُ لباسٍ يتزيَّن به العبدُ، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾[٤].

وهي سببٌ لمحبة الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[٥].

وبها ينال العبدُ معيَّةَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[٦].

قال رسول الله ﷺ:" اتَّقِ الله حيثُما كنتَ، وأَتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخَالقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ" رواه الترمذي[٧].

قال ابن القيم- رحمه الله-: ودَّع ابنُ عون رجلًا فقال:" عليك بتقوى الله؛ فإنَّ المتَّقِي ليس عليه وَحْشَة".

---

(١) البقرة ١٩٧.

(٢) النساء ١٣١.

(٣) الحجرات ١٣.

(٤) الأعراف ٢٦.

(٥) آل عمران ٧٦.

(٦) النحل ١٢٨.

(٧) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٥) برقم (١٩٨٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في معاشرة الناس. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٤/ ٤٨٧).



قال الثوري:" إنِ اتَّقيتَ اللهَ كفاكَ الناسَ، وإنِ اتَّقيتَ النَّاسَ لن يُغنوا عنكَ من الله شيئًا"[١].

وكان من دعاء النبي ﷺ:" اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها" رواه مسلم[٢].

واختلفَتْ أقوال العلماء في تعريف التَّقوى، ولكنَّها كلَّها تدورُ حولَ مفهومٍ واحدٍ؛ وهو:" أنْ يأخذ العبدُ وقايته مِن سخط الله عزَّ وجلَّ وعذابه؛ وذلك بامتثالِ المأمور، واجتناب المحظور".

قال الحافظُ ابن رجب:" وأصل التَّقوى: أن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه، فتقوى العبدِ ربَّه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربِّه: مِن غضبه وسخطه وعقابه؛ وقايةً تقيه من ذلك؛ وهو فِعْلُ طاعته، واجتناب معاصيه"[٣].

وقال ابن القيم: التَّقوى حقيقتُها:" العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أَمَرَ اللهُ به إيمانًا بالأمْر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى اللهُ عنه إيمانًا بالنَّهي وخوفًا من وعيده"[٤].

وقال ابن مسعود- رضي الله عنه-:" حقُّ تقاته أن يُطاع فلا يُعصَى، ويُذكَر فلا يُنسَى، وأن يُشكَر فلا يُكفَر"[٥].

وقال أبو هريرة – رضي الله عنه- وقد سُئِل عن التقوى:" هل أخذتَ طريقًا ذا شوكٍ؟ قال: نعم، قال: كيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قَصرتُ عنه، قال: ذاكَ التقوى"[٦].

يقول الإمام السعدي- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٧]: "وأمَّا الزاد الحقيقي المستَمِرُّ نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه؛ فهو زاد التقوى الذي هو

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٥٤). الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٨٨) برقم (٢٧٢٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب التعوُّذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨).

(٤) الرسالة التبوكية= زاد المهاجر إلى ربِّه (ص ١٣). الرسالة التبوكية= زاد المهاجر إلى ربِّه، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، المحقِّق: د. محمد جميل غازي، الناشر: مكتبة المدني- جدة.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠٦) برقم (٣٤٥٥٣)؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٣٨).

(٦) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٢).

(٧) البقرة ١٩٧.



زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذَّة، وأجَلِّ نعيم دائم أبدًا، ومَن ترك هذا الزاد؛ فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكلِّ شرٍّ، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين. فهذا مدحٌ للتقوى. ثم أَمَرَ بها أولي الألباب فقال: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة؛ اتقوا ربَّكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركُها دليلٌ على الجهل وفساد الرأي"[١].

وقال ابن رجب:" أصل التَّقوى: أن يعلم العبدُ ما يتَّقي ثم يَتَّقي"[٢].

وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خُنيس: كيف يكون مُتَّقيًا مَن لا يدري ما يتَّقي؟ ثم قال معروف: إذا كنتَ لا تُحسِنُ تتَّقي أكلتَ الرِّبا، إذا كنتَ لا تُحسِنُ تتَّقي لقيَتْكَ امرأةٌ ولم تغضَّ بصرك"[٣].

ولا يزال الشيطان يُهوِّن أمر المعصية ولو من الصغائر على العبد؛ حتَّى يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف النادم أحسنَ حالًا منه، قال ﷺ:" إِيَّاكُم وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَومٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ" رواه أحمد[٤].

يقول العلامة ابن باز- رحمه الله- عن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[٥]:" قال بعض السلف: هذه الآية أجمع آية في كتاب الله، وما ذاك إلَّا لأنَّ الله رتَّب عليها خير الدنيا والآخرة، فمَنِ اتَّقى الله جعل له مخرجًا من مضائق الدنيا ومضائق الآخرة، والإنسان في أشدِّ الحاجة، بل في أشدِّ الضرورة إلى الأسباب التي تُخلِّصه من المضائق في الدنيا والآخرة، ولكنَّه في الآخرة أشدُّ حاجة وأعظم ضرورة، وأعظم الكُربات وأعظم المضائق كُربات يوم القيامة وشدائدها، فمَنِ اتَّقى الله في هذه الدار فرَّج الله عنه كربات يوم القيامة، وفاز بالسعادة والنجاة في ذلك اليوم العظيم العصيب، فمَن وقع في كُربة من الكُربات فعليه أن يتَّقي الله في جميع الأمور، حتَّى يفوز بالفرج والتيسير، فالتقوى بابٌ لتفريج كُربة العُسر، وكُربة الفقر، وكُربة الظُّلم، وكُربة الجهل، وكُربة السيِّئات والمعاصي، وكُربة الشرك

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٩٢).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٢).

(٣) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٢).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣٧/ ٤٦٧) برقم (٢٢٨٠٨). وصحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٢٧٦).

(٥) الطلاق ٢.



والكفر إلى غير ذلك، فدواء هذه الأمور وغيرها أن يتَّقي الله بترْك الأمور التي حرَّمها الله ورسوله، وبالتعلُّم والتفقُّه في الدين حتَّى يسلم من داء الجهل، وبالحذر من المعاصي والسِّيئات حتَّى يسلم من عواقبها في الدنيا والآخرة"[١].

والخلاصة: أنَّك ترى مِن الناس مَن يتَّقي الكفرَ وكبائر الذنوب، إلاَّ أنَّه لا يتورَّع عن الصغائر ولا يُكثِر من النوافل، فلا شكَّ أنَّه أقربُ للنَّجاة، إلاَّ أنَّه لم يأخُذ الجُنَّة الكاملةَ من النَّار، فلا بُدَّ أن يكون هناك من التقصير في الفرائض والوقوع في الصغائر التي يُخشَى من المداومة عليها التجرُّؤ على الكبائر، وليس له مِن نوَافل الطاعات واجتناب الشُّبُهات والمكروهات ما يكمل به تقوى العبد.

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ   هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ شَنِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ   إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[٢]

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٢/ ٢٨٣- ٢٨٤).

(٢) ذكرها ابن القيم في عددٍ مِن كتبه، يُنظَر: روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين (ص ٢٦٦). وكذا ذكرها غيره. روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢٦ محرم

وكونوا مع الصادقين

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١].

فالصدقُ محمَدةٌ في الدنيا والآخرة، وعلامة التقوى، وسببٌ لتكفير السيّئات، ورِفعة الدرجات، وكلُّ ذلك مجموعٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٢].

أمَّا يوم القيامة فتأمَّل قولَ الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٣].

ولقد كان الصِّدقُ عُنوانًا لقدوتنا وأُسوتنا محمَّدٍ ﷺ، فعُرِف به حتَّى قبل البعثة، ولُقِّب بالصادق الأمين، واشتُهِر بهذا بين الناس، ولما أُمِر بالجهر بالدعوة، وتبليغ الرسالة جمَع الناسَ وسألهم عن مدى تصديقهم له إذا أخبرهم بأمرٍ، فأجابوا قائلين:" ما جرَّبنا عليك إلَّا صدقًا" رواه البخاري[٤].

واستمرَّ على هذا المبدأ حتَّى تُوفِّي، لم يكذب كذبةً واحدة، بل كان الكذِبُ أبغضَ خُلُقٍ إليه، قالت عائشة- رضي الله عنها-:" ما كان مِن خُلُقٍ أبغضَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ من الكذبِ، ما اطَّلع على أحدٍ من ذلك بشيءٍ فيخرُجُ من قلبِه حتَّى يعلمَ أنَّه قد أحدث توبةً" أخرجه أحمد والترمذي[٥].

---

(١) التوبة ١١٩.

(٢) الزمر ٣٣-٣٥.

(٣) المائدة ١١٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١١١) برقم (٤٧٧٠) كتاب تفسير القرآن. باب {وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} الشعراء ٢١٤- ٢١٥، ألِنْ جانبك.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٤٢/ ١٠١) برقم (٢٥١٨٣). والحديث صحَّحه الألباني كما في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٨/ ٢٣٣). التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذِّه من محفوظه، مؤلف الأصل: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي الحنفي (المتوفى: ٧٣٩هـ)، مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

تنبيه: الحديث لم أقف عليه في جامع الترمذي نسخة الشيخ أحمد شاكر، والظاهر أنَّه سقط من نسخة الشيخ، لكنَّه في نسخة الشيخ بشار عواد، سنن الترمذي، ت بشار (٣/ ٤١٦) برقم (١٩٧٣).



يقول ابنُ القَيِّمِ- رحمه الله-:" فَكُلُّ عَمَلٍ صالحٍ ظاهرٍ أو بَاطِنٍ فَمَنشَؤُهُ الصِّدقُ، وَكُلُّ عَمَلٍ فَاسِدٍ ظَاهِرٍ أو بَاطِنٍ فَمَنشَؤُهُ الكَذِبُ، وَاللهُ- تعالى- يُعَاقِبُ الكَذَّابَ بِأَن يُقعِدَهُ وَيُثَبِّطَهُ عَن مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ، وَيُثِيبُ الصَّادِقَ بِأَن يُوَفِّقَهُ لِلقِيَامِ بمصالحِ دُنيَاهُ وَآخِرَتِهِ، فَمَا استُجلِبَتْ مَصَالحُ الدُّنيا وَالآخِرَةِ بِمِثلِ الصِّدقِ، وَلا مَفَاسِدُهما وَمَضَارُّهما بِمِثلِ الكَذِبِ"(١).

والصِّدقُ خُلُقٌ شَامِلٌ، يَدخُلُ فِيهِ الصِّدقُ في الأَقوَالِ وَالأَعمَالِ وَالأَحوَالِ، قال ابنُ القَيِّمِ- رحمه الله-:" فَالصِّدقُ في الأَقوَالِ استِوَاءُ اللِّسَانِ على الأَقوَالِ كاستِوَاءِ السُّنبُلَةِ على سَاقِهَا، وَالصِّدقُ في الأَعمَالِ استِوَاءُ الأَفعَالِ على الأَمرِ وَالمتَابَعَةِ كاستِوَاءِ الرَّأسِ على الجَسَدِ، وَالصِّدقُ في الأَحوَالِ استِوَاءُ أَعمَالِ القَلبِ وَالجَوَارِحِ على الإِخلاصِ وَاستِفرَاغِ الوُسعِ وَبَذلِ الطَّاقَةِ، فَبِذَلِكَ يَكُونُ العَبدُ مِنَ الذِينَ جَاؤُوا بِالصِّدقِ، وَبِحَسَبِ كَمَالِ هَذِهِ الأُمُورِ فِيهِ وَقِيَامِهَا بِهِ تَكُونُ صِدِّيقِيَّتُهُ"(٢).

فمِن الصِّدق في الأفعال أنَّ رجلًا جَاءَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن أَهلِ نَجدٍ ثَائِرَ الرَّأسِ يُسمَعُ دَوِيُّ صَوتِهِ وَلَا يُفقَهُ مَا يَقُولُ، حتَّى دَنَا فَإِذَا هُوَ يَسأَلُ عَنِ الإِسلامِ، فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ:" خمسُ صَلَواتٍ في اليَومِ وَاللَّيلَةِ، فقال: هَل عَلَيَّ غَيرُهَا؟ قال: لا إِلَّا أَن تَطوَّعَ، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَصِيَامُ رَمَضَانَ، قال: هَل عَلَيَّ غَيرُهُ؟ قال: لا إِلَّا أَن تَطوَّعَ، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قال: هَل عَلَيَّ غَيرُهَا؟ قال: لا إِلَّا أَن تَطوَّعَ، فَأَدبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلا أَنقُصُ، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفلَحَ إِن صَدَقَ" رواه البخاري(٣).

ومنه أيضًا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعرَابِ جَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ، ثم قال: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعضَ أَصحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَت غَزَاتُهُ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعطَى أَصحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرعَى ظَهرَهُم، فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيهِ، فقال: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قَسمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قال: قَسَمتُهُ لَكَ، قَال: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعتُكَ، وَلَكِن اتَّبَعتُكَ عَلَى أَن أُرمَى إِلى هَا هُنَا- وَأَشَارَ إِلى حَلقِهِ- بِسَهمٍ فَأَمُوتَ فَأَدخُلَ الجَنَّةَ، فقال ﷺ: إِن تَصدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثم نَهَضُوا إِلى قِتَالِ العَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ إِلى النَّبِيِّ ﷺ يُحمَلُ قَد أَصَابَهُ سَهمٌ حَيثُ أَشَارَ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قال: صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ" رواه النسائي(٤).

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص ١٣٦).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ٢٥٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٨) برقم (٤٦) كتاب الإيمان. باب الزكاة من الإسلام. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٠) برقم (١١) كتاب الإيمان. باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام.

(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢/ ٤٣٣) برقم (٢٠٩١) كتاب الجنائز. باب الصلاة على الشهداء. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٥/ ٩٧).



ومن الصدق في النِّيَّة قوله ﷺ:" مَن سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ مِن قَلبِهِ صَادِقًا بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِن مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ" رواه الترمذي(١).

ومن الصِّدق في المعاملات يأتي قوله ﷺ:" البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لم يَتَفَرَّقَا، فَإِن صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لهما في بَيعِهِمَا، وَإِن كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَت بَرَكَةُ بَيعِهِمَا" رواه البخاري(٢).

وعن رفاعةَ- رضي الله عنه- أنَّه خرج مع النبيِّ ﷺ إلى المصلَّى، فرأى الناس يتبايعون، فقال:" يا معشر التُّجار؛ فاستجابوا لرسول اللهِ ﷺ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: إنَّ التجار يُبعَثون يومَ القيامةِ فجَّارًا إلَّا مَنِ اتَّقى الله وبرَّ وصدق" رواه الترمذي(٣).

ومِنَ الكذب المعاصر والمتجدِّد كذب التوقيع في سجلَّات الدوام حضورًا وانصرافًا، ناهيك عن أعذار التأخير، ومعاذير الاستئذان مقرونة بالأيمان، ومن الكذب كذب الباعة ومعارض السيارات وأهل العقارات وادِّعاء السوم فيها زعمًا أو كذبًا، وعموم إنفاق السلع بالحلف الكاذب الماحِق للبركة ، كذا ما يُسمِّيه البعضُ الكذبَ الأبيضَ؛ كيف والكذب كلُّه أسود، وكذب جلسات الزملاء ونكت الأصحاب؛ عن بهز بن حكيم عن أبيه عن رسول الله ﷺ:" وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ، لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ" رواه الترمذي(٤).

والخلاصة: أنَّهُ مَا مِن خَيرٍ وَلا برٍّ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ إلَّا وَمَنشَؤُهُ الصِّدقُ، وَمَا مِن شَرٍّ وَلا فُجُورٍ إلَّا وَبِدَايَتُهُ الكَذِبُ، وقد صَحَّ عنه ﷺ أَنَّهُ قال:" عَلَيكُم بِالصِّدقِ؛ فَإِنَّ الصِّدقَ يَهدِي إلى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهدِي إلى الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُم وَالكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهدِي إلى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهدِي إلى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا" رواه مسلم(٥).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥١٧) برقم (١٩٠٩) كتاب الإمارة. باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى. والترمذي في جامعه (٤/ ١٨٣) برقم (١٦٥٣) أبواب فضائل الجهاد. باب ما جاء فيمن سأل الشهادة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٨) برقم (٢٠٧٩) كتاب البيوع. باب إذا بيَّن البيِّعان ولم يكتما ونصحا. ومسلم في صحيحه (٣/ ١١٦٤) برقم (١٥٣٢) كتاب البيوع. باب الصدق في البيع والبيان.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٠٧) برقم (١٢١٠) أبواب البيوع. باب ما جاء في التُّجَّار وتسمية النبي ﷺ إيَّاهم. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣/ ٢١٠).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ٢٤٤) برقم (٢٠٠٤٦)، وأبو داود في سننه (٤/ ٢٩٨) برقم (٤٩٩٠) كتاب الأدب. باب في التشديد في الكذب باللفظ المذكور. ورواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٥٧) برقم (٢٣١٥) أبواب الزهد. باب فيمن تكلَّم بكلمةٍ يُضحِك بها الناس. ولفظه: «ويلٌ للذي يُحدِّث بالحديث ليُضحِك به القوم فيكذب، ويلٌ له، ويلٌ له» والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ٤٩٠).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٥) برقم (٦٠٩٤) كتاب الأدب. باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} التوبة: ١١٩، وما ينهى عن الكذب. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١٣) برقم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة والآداب. باب قُبْح الكذب وحُسْن الصدق وفضْله.



وفي هذا يقول القائل:

لَعَضُّ جِيفَةِ كَلْبٍ خَيرُ رَائِحَةٍ　　　مِن كِذبةِ المرْءِ فِي جدٍّ وَفِي لَعِبِ
لَا يَكــذبُ المرءُ إلَّا مِن مَهَانَتِهِ　　　أَو عَادَةِ السُّــوءِ أَو مِن قِلَّةِ الأَدَبِ[(١)]

(١) ذكره في الدر الفريد وبيت القصيد (١١/ ٢٥٠). الدر الفريد وبيت القصيد، المؤلف: محمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩ هـ - ٧١٠ هـ)، المحقِّق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٢٧ محرم

وقولوا للناس حُسْنًا

قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾[١]. وقال أيضًا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾[٢].

فهذا أمْرٌ من الله تعالى أن نقول للناس حُسنًا، وقد أمر نبيَّه ﷺ كذلك أن يَقُول هو ومن معه الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وما قال: الذي هو حسن، بل قال: التي هي أحسن. أفعل تفضيل. فينبغي على المسلم أن يختار أحسن الكلمات وأجمل العبارات عندما يريد أن يتكلَّم مع الناس، الكبير والصغير، القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم، فتتكلَّم مع الجميع بكلام ليس فيه سخرية ولا استهزاء، ولا تكبُّر ولا تحقير، ولا طعن في الآخرين ولا لعن، ولا تتكلَّم بكلام فاحش أو بذيء، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ" رواه الترمذي[٣].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ فهناك مَن يتكلَّم بكلام عادي لا يقصد به شيئًا، فينزغ الشيطان في قلب البعض ويقول له: أنت المقصود بهذا الكلام، يريد أن يُوقِع بين الناس، فكيف إذا كانت كلمة سيّئة؟ لا شكَّ أنَّ النزغ يكون أكثرَ وأشدَّ ممَّا يُوقِع العداوة بين الناس ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾.

علينا أن نُفكِّر في كلامنا قبل أن يخرج من أفواهنا، فإذا خرج الكلام فلا نستطيع أن نردَّه مرَّة أخرى، فعلينا أن نستحضر أوامر ربِّنا ووصايا نبيِّنا ﷺ حيث يقول لنا:" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ" رواه مسلم[٤].

فالبعض يهوى الكلام الجارح الذي لا يلتئم بسرعة.

جراحاتُ السنانِ لها التئامٌ ولا يلتئمُ ما جَرَحَ اللِّسَانُ[٥]

---

(١) البقرة ٨٣.

(٢) الإسراء ٥٣.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٠) برقم (١٩٧٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في اللعنة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٤/ ٤٧٧).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١١) برقم (٦٠١٨) كتاب الأدب. باب مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذِ جاره. ومسلم في صحيحه (١/ ٦٨) برقم (٤٧) كتاب الإيمان. باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلَّا عن الخير، وكون ذلك كلِّه من الإيمان.

(٥) يُنظَّر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٩/ ٢٢٢، بترقيم الشاملة آليًّا).



حدثتْ خصومةٌ بين أحد السلف ورجُلٍ فقال الرَّجُلُ: واللهِ إن قلتَ لي كلمةً قلتُ لك عشرًا، فقال له: واللهِ إن قلتَ لي عشر كلمات لا أردُّ عليك ولا بكلمة واحدة ، فهدأ الرجل واستحيى منه واعتذر، هذا أثر الكلام الطيِّب مع الناس.

وجاء رجلٌ إلى علي بن الحسين بن علي- رضي الله عنهم أجمعين- فقال له: إنَّ فلانًا قد آذاك ووقع فيك. فقال له: انطلقْ بنا إليه، فانطلَقَ معه، وهو يرى أنَّه سينتصر لنفسه، ويقتصُّ منه، ويردُّ له الصاع صاعين، فلمَّا أتاه قال له:" يا هذا؛ إن كان ما قلتَ فيَّ حقًّا فغفرَ اللهُ لي، وإن كان ما قلتَ فيَّ باطلًا فغفرَ اللهُ لك"(١).

ورُوِي عن الشعبي نفس الموقف إلَّا أنَّه قال للرجل: إن كنتَ صادقًا غفر اللهُ لي، وإن كنتَ كاذبًا غفر اللهُ لك(٢).

حتَّى إن كنتَ تدافع عن دينك فلا تنفعل، فالدفاع عن الدين يكون بالقول الحسن بل بالأحسن ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾(٣).

لقد دخل الملايين من الناس في دين الله أفواجًا ومنهم مسلمو إندونيسيا وكذلك الهند والصين وغيرها من البلدان بسبب الأخلاق الإسلاميَّة.

كتبتْ مُهندِسة يهوديَّة من اليمن مقالًا تقول فيه: إنَّ بعض أصدقائها يدعونها إلى الإسلام وأرسلوا لها قصَّة النبي ﷺ مع اليهودي الذي كان يؤذيه، فلمَّا مرض اليهودي زاره النبي ﷺ، فكانت الزيارة سببًا في دخوله الإسلام، فتقول: إنَّ أخلاق نبيِّكم أغرتْ ذلك اليهودي وجعلتْه يدخل الإسلام، أمَّا أنتم فبماذا تُغرونني لكي أدخل الإسلام، وأنتم يذبح بعضُكم بعضًا، ويُكفِّر بعضُكم بعضًا، ويشتم بعضُكم بعضًا، وبأسُكم بينكم شديدٌ؟!

وها هو عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- يعظ ابنه فيقول له:" يا بُنيَّ؛ إنَّ البِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ؛ وجه طليق، وكلام لَيِّن"(٤).

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٥٤). صفة الصفوة، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقِّق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م.

(٢) يُنظَر: المجالسة وجواهر العلم (٣/ ١٦٤). المجالسة وجواهر العلم، المؤلف: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣ هـ)، المحقِّق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين- أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت- لبنان)، تاريخ النشر: ١٤١٩ هـ.

(٣) النحل ١٢٥.

(٤) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (ص ٦٤). مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧ هـ)، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، الناشر: دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.



وخيرٌ منه كلامُ ربِّنا تبارك وتعالى الذي يقول: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾(١).

والكلمة معيار سعادة الإنسان أو شقائه، فبكلمةٍ ينال العبد رضوان الله فيرفعه بها إلى أعلى الدرجات، وبكلمةٍ يسخط الله عليه فيهوي بها إلى أسفل الدركات، ففي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّه ﷺ قال:" إنَّ العبد ليتكلَّم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإنَّ العبد ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جهنَّم" رواه البخاري(٢).

فكم من كلمةٍ طيِّبةٍ كتب الله بها الرضوان: تدفع عن مسلمٍ أذى، أو تنصر مظلومًا، أو تُفرِّج كُربة، أو تُعلِّم جاهلًا، أو تُذكِّر غافلًا، أو تهدي ضالًّا، أو ترأب صدعًا أو تُطفئ فتنة، وكم من مشاكل حُلَّتْ، وكم من صِلات قَوِيَتْ، وكم من خصومات زالتْ بكلمةٍ طيِّبةٍ.

وكم من كلمةٍ خبيثةٍ مزَّقتْ بين القلوب، وفرَّقتْ بين الصفوف، وزرعت الأحقاد والضغائن في النفوس، وخرَّبتْ كثيرًا من البيوت، وزرعت الكثير من الزور والفُحش والكَذِب والبهتان، فيهوي بها قائلُها إلى دركات النَّار:" وهل يَكُبُّ الناسَّ في النَّار على وجوههم أو على مناخرهم إلَّا حصائدُ ألسنتهم؟" أخرجه الترمذي(٣).

والكلمة الطَّيِّبة واللين في الكلام سببٌ في دخول الجنَّة؛ قال رسول الله ﷺ:" إنَّ في الجنَّة غُرفًا يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، قالوا: لمن؟ قال: لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وصلَّى بالليل والناسُ نيامٌ"(٤).

والخلاصة: أنَّ الكلام مسطورٌ ومحفوظٌ، فقد أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ الملائكة تُحصي على الناس أقوالهم وتكتبها، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(٥). وقال أيضًا: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٦).

---

(١) الفرقان ٦٣.
(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠١) برقم (٦٤٧٨) كتاب الرقاق. باب حفْظ اللِّسان.
(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ١٢) برقم (٢٦١٦) أبواب الإيمان. باب ما جاء في حرمة الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ١١٦).
(٤) رواه البزار في مسنده= البحر الزخار (٢/ ٢٨١) برقم (٧٠٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٦٢) برقم (٥٠٩). وصحَّحه الألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب (٥٦٠/١). صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبَة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض- المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
(٥) الزخرف ٨٠.
(٦) ق ١٨.

وصدق الإمام الشافعي إذ يقول:

احفَظْ لِسَانَكَ أَيُّها الإِنسَانُ لَا يَلدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعبانُ
كَمْ فِي المِقابِرِ مِن قَتيلِ لِسانِهِ كانَتْ تَهَابُ لِقاءَهُ الأَقرانُ[١]

(١) يُنظَر: الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت (ص ٣٢). الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت، المؤلف: الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البَنَّا، أبو علي، البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقِّق: عبد الله يوسف الجديع، الناشر: دار العاصمة- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.



٢٨ محرم

وإذا قلتُم فاعدلوا

يقول الله- جلَّ وعلا- في معرض وصاياه لعباده: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[(١)]، "ولو" للمبالغة في التزام قول العدل حتَّى وإن كان فيه مضرَّة لذي قُربى، له مكانته في النفس، حتَّى يقطع الإسلام الطريق أمام الأهواء والتعصُّبات التي تُؤدِّي للحيف وتمنع العدل﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

يقول الإمام ابن كثير- رحمه الله-:" وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾[(٣)]، وكذا التي تشبهها في سورة النساء الآية ١٣٥[(٤)]، يأمر تعالى بالعدل في الفِعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكلِّ أحدٍ، في كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ حالٍ[(٥)].

ويقول الإمام السعدي- رحمه الله-:" ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولًا تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلَّمون به على المقالات والأحوال ﴿فَاعْدِلُوا﴾ في قولكم، بمراعاة الصدق فيمن تُحِبُّون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإنَّ الميل على مَن تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المحرَّم. بل إذا تكلَّم العالِم على مقالات أهل البدع؛ فالواجب عليه أن يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وأن يُبيِّن ما فيها من الحقِّ والباطل، ويعتبر قُربها من الحقِّ وبُعدها منه. وذكر الفقهاء أنَّ القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظه ولفظه"[(٦)].

فالمنصفون فقط هم الذين يذكرون المرء بما فيه من خيرٍ أو شرٍّ، ولا يبخسونه حقَّه ولو كان الموصوف مُخالِفًا لهم في الدين والاعتقاد أو في المذهب والانتماء، فكيف إذا كان مِن إخواننا وعلمائنا ممَّن لا نتَّهمهم في عقيدتهم أو سلوكهم؟

---

(١) الأنعام ١٥٢.

(٢) الأنعام ١٥٢.

(٣) المائدة ٨.

(٤) يريد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، وحصل هنا قلبٌ في تفسير ابن كثير: فقوله تعالى ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ إنَّما هي في النساء وليست في المائدة، وفي التفسير في النسخة المطبوعة أنَّها في المائدة وهو خطأ. فليتنبه. والله أعلم.

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٥).

(٦) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٢٨٠).



قال ابن رجب:" والمنصف مَن اغتفر قليلَ خطأِ المرءِ في كثيرِ صوابِهِ"[١].

وقال الذهبي:" ونُحِبُّ السُّنَّة وأهلها، ونُحِبُّ العالِمَ على ما فيه من الاتّباع والصفات الحميدة، ولا نُحِبُّ ما ابتدع فيه بتأويلٍ سائغٍ، وإنَّما العبرة بكثرة المحاسن"[٢].

وقال ابن القيم:" فلو كان كلُّ مَن أخطأ أو غلط؛ تُرِكَ جملةً وأُهدرتْ محاسنُه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطَّلت معالمها"[٣]، وكما قال شيخ الإسلام:" الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية"[٤].

وهكذا منهج القرآن والسُّنَّة، فكتاب الله ينصف أهل الكتاب: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾[٥]، ورسول الله ﷺ ينصف حاطب بن أبي بلتعة- رضي الله عنه- وقد ارتكب الخيانة العُظمى بإفشاء أسرار الدولة، فيقول لعمر بن الخطاب- رضي الله عنه-:" إِنَّه شَهِدَ بَدْرًا وما يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ " رواه البخاري[٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" ومن سلك طريق الاعتدال عظَّم مَن يستحقُّ التعظيم، وأحبَّه ووالاه، وأعطى الحقَّ حقَّه، فيُعظِّم الحقَّ، ويرحم الخلْق، ويعلم أنَّ الرجُل الواحد تكون له حسنات وسيِّئات، فيُحمَد ويُذمُّ، ويُثاب ويُعاقَب، ويُحَبُّ مِن وجهٍ ويُبغَض مِن وجهٍ، هذا هو منهج أهل السُّنَّة والجماعة"[٧].

---

(١) قواعد ابن رجب (١/ ٤). تقرير القواعد وتحرير الفوائد [المشهور بـ «قواعد ابن رجب»]، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقِّق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٦). سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨ هـ)، المحقِّق: مجموعة من المحقِّقين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ٤٠).

(٤) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٤٩).

(٥) آل عمران ٧٥.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٤٩) برقم (٤٨٩٠) كتاب تفسير القرآن. باب {لا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء} الممتحنة: ١. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٤١) برقم (٢٤٩٤) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب مِن فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

(٧) منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٤/ ٥٤٣). منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشيعة القدريَّة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.



وقال أيضًا- رحمه الله-:" والكلام في النَّاس يجب أن يكون بعلمٍ وعدلٍ، لا بجهلٍ وظلمٍ كحال أهل البدع"(١).

والكلام مُؤاخَذٌ به المسلم، وما خرج على لسانك لا عودة له، ولا تنسَوا حديث النبي ﷺ لمعاذ بن جبل- رضي الله عنه- وفي آخره:" ألَا أُخبرُك بملاك ذلك كلِّه؟ قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: كُفَّ عليكَ هذا، وأشار إلى لسانه، قلتُ: يا نبيَّ الله؛ وإنَّا لمؤاخَذون بما نتكلَّم به؟ فقال: ثكلتْكَ أمُّك يا معاذ؛ وهل يَكُبُّ الناسَ في النَّار على وجوههم إلَّا حصائدُ ألسنتهم؟!" أخرجه الترمذي(٢).

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣)، وإنَّ العدل في الكلام هَيِّنٌ فيما ترغب فيه النفس، أمَّا فيما لا ترغب فيه أو تجد فيه شيئًا تكرهه أو تجد ضيقًا أو حرجًا عليها؛ فهناك الابتلاء والتمحيص.

وكلام المرء يُترجِم عن مجهوله، ويُبرهِن عن محصوله، واللِّسان معيارٌ أطاشَه الجهلُ، وأرجحَه العقلُ، وآفةُ القولِ ترْكُ العدل.

ولَلصَّمتُ خيرٌ مِن كلامٍ بمأثَمٍ فكُنْ صامِتًا تسلَمْ وإنْ قُلتَ فاعدِلِ(٤)

وإنَّك لتجد الرجل الصالح المصلِّي الراكع الساجد؛ إذا حكم على بعض الناس لا يحكم إلَّا بالظلم والإجحاف، أمَّا الإنصاف فهو عزيزٌ بين الناس، وهذا الأمر مفطورٌ عليه أكثر الناس إلَّا من خالف هواه، فاسمع إلى الشعبي- رحمه الله- وهو يقول، وكأنَّه قد عرف الناس واختبرهم، فعرف معادنهم وحقيقتهم، قال:" واللهِ لو أصبتُ تسعًا وتسعين مرَّةً وأخطأتُ مرَّةً واحدةً؛ لعدُّوا عليَّ خطئي"(٥) فالناس ينسون تلك المحاسن والفضائل لخطأٍ واحدٍ.

---

(١) منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٤/ ٣٣٧).

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ١٢) برقم (٢٦١٦) أبواب الإيمان. باب ما جاء في حرمة الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ١١٦).

(٣) المائدة ٨.

(٤) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٦/ ٢١١، بترقيم الشاملة آليًّا).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٠٨).



والخلاصة: أنَّ الإسلام يأمرنا بالعدل والإنصاف ولو بالقول، وجعل من علامات المنافق الفجور في الخصومة "وإذا خاصم فجر"[١] فتجد أحدهم إذا رضي عنك رفعك إلى أعلى عليين، فأكثرَ مِن ذِكْر فضائلك، وتغاضى عن عيوبك، وإذا غضب وسخط جعلك في أسفل سافلين، فأكثرَ مِن ذكْر عيوبك، وتغاضى عن فضائلك. لقد قال ربُّنا: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[٢]، والعدل في وصْف الآخرين يقتضي ذكْر المساوئ والمحاسن والموازنة بينهما، ولا أحد يسلم من الخطأ، فلا ينبغي أن تُدفَن محاسن المرء لخطأٍ، كما أنَّ الماء إذا بلغ القُلَّتَينِ لم يحمل الخبث.

ويُنسَبُ إلى الإمام الشافعي– رحمه الله– قوله:

وعينُ الرِّضَا عَن كُلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخطِ تُبدِي المِسَاوِيَا[٣]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٦) برقم (٣٤) كتاب الإيمان. باب علامة المنافق. ومسلم في صحيحه (١/ ٧٨) برقم (٥٨) كتاب الإيمان. باب بيان خصال المنافق.

(٢) الأعراف ٨٥.

(٣) يُنظَر: الأمثال المولدة (ص ٤٠٤). الأمثال المولدة، المؤلف: محمد بن العباس الخوارزمي، أبو بكر (المتوفى: ٣٨٣ هـ)، الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، عام النشر: ١٤٢٤ هـ.



٢٩ محرم

يمحق الله الربا

يقول الله- جلَّ وعلا-: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[١].

قال قتادة:" وتلك علامة أهل الرِّبا يوم القيامة، بُعِثوا وبهم خبلٌ من الشيطان"[٢]. فهم يقومون يوم القيامة من قبورهم كالمجانين: كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ.

وتوعَّد اللهُ آكِلَ الرِّبا بوعيدٍ شديدٍ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٣]، وهذا وعيدٌ شديدٌ لكلِّ مُرابٍ عنيدٍ، قال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-:" يُقال يوم القيامة لآكِلِ الرِّبا: خُذْ سلاحَك للحرب- تهكُّمًا به-"[٤].

وعنه أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أنَّه قال:" لا يقبل اللهُ منه صدقةً، ولا جهادًا، ولا حجًّا، ولا صِلةً"[٥].

وقد استفاضت الأحاديث النَّبويَّة في التحذير من الرِّبا، ومنها قول النبي ﷺ:" الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلّ" رواه أحمد وابن ماجه[٦].

وفي صحيح مسلم:" لَعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبا ومُوكِلَه وكاتِبَه وشاهِدَيْه، وقال:" هُمْ سَوَاءٌ"[٧].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ أنَّه قال:" لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا ومُوكِلَهُ وشاهِدَيْهِ وكاتِبَهُ" رواه النسائي[٨].

---

(١) البقرة ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) نقله الطبري عنه كما في تفسير الطبري= جامع البيان (٥/ ٤٠).

(٣) البقرة ٢٧٨-٢٧٩.

(٤) نقله الطبري عنه كما في تفسير الطبري= جامع البيان (٥/ ٣٩).

(٥) تفسير الثعلبي= الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٧/ ٤١٨).

(٦) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ٧٦٥) برقم (٢٢٧٩) كتاب التجارات. باب التغليظ في الرِّبا ولفظه:" ما أحدٌ أكثرَ من الرِّبا؛ إلَّا كان عاقبة أمره إلى قلَّة". وصحَّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٥/ ٢٧٩). وأمَّا اللفظ المذكور فرواه أحمد في مسنده (٦/ ٢٩٧) برقم (٣٧٥٤) وصحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٦٦٤).

(٧) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٨) كتاب المساقاة. باب لعْن آكِلِ الرِّبا ومؤكِلِه.

(٨) لم أقف عليه عند النسائي بهذا اللفظ، وإنما بلفظ: "لَعَنَ رسولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبا، وموكِلَه، وكاتِبَه، وشاهِدَيْه" السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٣٤١) برقم (٩٣٣٦) كتاب الزينة. وذكر اختلاف عبيد الله بن مرة والشعبي على الحارث في هذا الحديث.



وقال ﷺ:" مَا ظهرَ في قومٍ الرِّبا والزِّنا إِلَّا أحلُّوا بأنفسِهم عقابَ اللهِ- عزَّ وجلَّ-" رواه أحمد[١].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنَّه قال:" اجتنبُوا السَّبعَ الموبِقاتِ؛ وذكر منهُنَّ: وأكْلَ الرِّبا" رواه البخاري[٢].

والرِّبا في اصطلاح الفقهاء يتناول أمرين في الجملة:

الأوَّل: ربا الجاهلية "ربا القرض": وهو الزِّيادة في الدَّيْن مقابل تأجيل المدَّة، سواء اشتُرِطت الزيادة عند حلول الأجل أو في بداية الأجل.

فيحرُم على المرء أن يقترض مبلغًا من المال على أن يرُدَّ أكثر منه، سواء كان الاقتراض من بنك أو غيره، فالقرضُ عقدُ إرفاقٍ وإحسانٍ، واشتراطُ ردِّ زيادة عليه؛ ربا مُحرَّمٌ، واستغلالٌ سيِّءٌ، وكلُّ قرضٍ جرَّ نفعًا فهوَ رِبا.

والثاني: ربا البُيوع وهو نوعان:

الأوَّل: ربا الفضْل: وهو الزيادة في أحد البدلَينِ الربويَّيْنِ المتَّفقَينِ جنسًا؛ كأن يبيع صاعًا من البُرِّ بصاعين منه، فهذا حرامٌ، أو مائة مثقال من الذهب بمائة وعشرين، وإن اختلفا في الجودة.

وقد دلَّت الأحاديث الصحيحة على هذا، فقد قال ﷺ:" الذَّهبُ بالذَّهبِ، والفضَّةُ بالفضَّةِ، والبُرُّ بالبُرِّ، والشَّعيرُ بالشَّعيرِ، والتَّمرُ بالتَّمرِ، والمِلحُ بالمِلحِ، مِثلًا بِمِثلٍ، وسواءً بسواءٍ، يدًا بِيَدٍ، فإذا اختلفتْ هذهِ الأصنافُ؛ فبيعوا كيفَ شئتم إذا كان يدًا بيدٍ" رواه مسلم[٣].

النوع الثاني: ربا النَّسِيئَة: يعني تأخير القبض عند مبادلة الربوي بالربوي.

مثال ذلك: بُرٌّ ببُرٍّ بعد شهر، أو ريال بريالين بعد شهر مثلًا، وقد يجتمع ربا الفضْل مع ربا النسيئة في مثل هذه الحالة، وهي: مائة ريال بمائة وعشرة بعد شهر مثلًا.

قال النبي ﷺ:" لا تبيعوا الدينارَ بالدينارينِ، ولا الدِّرهمَ بالدرهمينِ" رواه مسلم[٤].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٣٥٨) برقم (٣٨٠٩) ولفظه:" ما ظهر في قومٍ الرِّبا والزِّنا؛ إلَّا أحلُّوا بأنفسهم عقاب الله عزَّ وجلَّ". والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩٨٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠) برقم (٢٧٦٦) كتاب الوصايا. باب قول الله تعالى: {إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلمًا إنَّما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا} النساء: ١٠، ومسلم في صحيحه (١/ ٩٢) برقم (٨٩) كتاب الإيمان. باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢١١) برقم (١٥٨٧) كتاب المساقاة. باب الصرْف وبيع الذهب بالوَرِقِ نقدًا.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢٠٩) برقم (١٥٨٥) كتاب المساقاة. باب الرِّبا.



وجاء بلالٌ بتمرٍ بُرْنِيّ- جيّد- فقال له رسول الله ﷺ:"من أين هَذا؟ فقال بلال: تمرٌ كان عندي رديء؛ بعتُ منه صاعَين بصاعٍ لمِطعَم النَّبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك:" أوَّهْ، عينُ الرِّبَا، لا تفعلْ، ولكن إذا أردتَ أن تشتريَ فبِعْهُ ببيعٍ آخرَ، ثمَّ اشترِ بِهِ" رواه البخاري(١).

وعليه فيحرُمُ بيعُ الذهب بالذهب مع الزيادة، ويجوز بيع الذهب بالفضة، ولو زاد أحدهما على الآخر، وكذلك التمر بالبُرّ لكن بشرط التقابُض في مكان البيع قبل التَّفرُّق.

ومن أغلظ أنواع الرِّبا: ما تفعله كثيرٌ من البنوك من القرض بفائدة، وكذلك ما تعطيه لعملائها من فوائد بنكيَّة، وهي الرِّبا بعينه. فلْيحذرِ المسلمُ من التورُّط في معاملاتٍ مشبوهةٍ، ولْيتحرَّ لُقمة الحلال، لئلَّا ينبت جسمُه على سُحتٍ فيكون خاسرًا؛ دعاؤه مردودٌ، وإثمه مُضاعَفٌ، وهذا ما يفعله بعض الناس اليوم، وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال:" ليأتينَّ على الناسِ زمانٌ لا يُبالِي المرءُ بما أُخِذَ المالُ؛ أمِن الحلالِ أم منَ الحرَامِ" رواه البخاري(٢).

وآكِلُ الرِّبا دعاؤُه مردودٌ، وباب الخير في وجهه مسدودٌ، وسوء الخاتمة تنتظره، وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ ذكرَ الرجلَ يُطيلُ السَّفرَ أشعثَ أغبَرَ، يمدُّ يديهِ إلى السَّماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمُه حرامٌ، ومشربُه حرامٌ، وملبسُه حرامٌ، وغُذِّيَ بالحرامِ، فأنَّى يُستجابُ لذلك" رواه مسلم(٣).

والرِّبا سببُ ما نُعانيه اليوم مِن مذلةٍ ومهانةٍ، فقد قال رسول الله ﷺ:" إذَا تبايَعتم بالعِينةِ، وأخذتُم أذنابَ البقرِ، ورضيتُم بالزَّرعِ، وتركتُم الجهادَ؛ سلَّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه، حتَّى ترجِعوا إلى دِينكم" رواه أبو داود(٤).

والرِّبا أيضًا سببُ العذاب الأليم في الآخرة، فعن سمرة بن جندب- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ:" رأيتُ الليلة رجُلَينِ أتَيَاني فأخرجاني إلى أرضٍ مُقدَّسةٍ، فانطلقنا حتَّى أتينا على نهرٍ من دمٍ فيه رجلٌ قائمٌ، وعلى وسط النَّهر رجلٌ بين يديه حجارةٌ، فأقبلَ الرَّجلُ الذي في النَّهر، فإذا أراد أن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٠٢) برقم (٢٣١٢) كتاب الوكالة. باب إذا باع الوكيل شيئًا فاسدًا؛ فبيعه مردودٌ. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٥) برقم (١٥٩٤) كتاب المساقاة. باب بيع الطعام مِثلًا بِمِثلٍ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٩) برقم (٢٠٨٣) كتاب البيوع. باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة واتَّقوا الله لعلكم تفلحون} آل عمران: ١٣٠.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣) برقم (١٠١٥) كتاب الزكاة. باب قبول الصدقة مِن الكسب الطَّيِّب.

(٤) رواه أبو داود في سننه (٣/ ٢٧٥) برقم (٣٤٦٢) أبواب الإجارة. باب في النهي عن العينة. والحديث صحَّحه الألباني لمجموع طرقه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٤٢).



يخرجَ رَمى الرجلَ بحجرٍ في فِيهِ فَرُدَّ حيثُ كان، فجعلَ كُلَّما جاءَ ليخرجَ رمى في فيه بحجرٍ فيرجع كمَا كان، فقلتُ: مَن هذا؟ فقال: الذي رأيتَه في النَّهرِ آكِلُ الرِّبا" رواه البخاري[١].

والخلاصة: أنَّ الرِّبا من أكبر الكبائر، ويكفي أنَّ رسول الله ﷺ أعلن أمْرَ الرّبا ووضْعه في أعظم مكان، وأعظم خطبة، وأكثرها رؤية مِن قِبَل الناس، خطبة شهدها مائة وأربعة وعشرون ألفًا من الصحابة، في حجَّة الوداع يوم النحر الأعظم، يوم العاشر من ذي الحجَّة، خطبهم خطبة عظيمة، فقال فيها:" إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألَا كلُّ شيءٍ من أمرِ الجاهليَّة تحت قدمي موضوع، ودماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ، وإنَّ أوَّل دمٍ أضع من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث، كان مُسترضِعًا في بني سعدٍ فقتلتْه هذيل، وربا الجاهليَّة موضوعٌ، وأوَّل ربًا أضع ربانا ربا عبَّاس بن عبد المطَّلب، فإنَّه موضوعٌ كلُّه" رواه الترمذي[٢].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٩) برقم (٢٠٨٥) كتاب البيوع. باب آكِل الرِّبا وشاهده وكاتبه وقوله تعالى: {الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلَّا كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان من المسّ ..} الآية.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٨٩) برقم (١٢١٨) كتاب الحج. باب حجَّة النبي ﷺ. والترمذي في جامعه (٥/ ٢٧٣) برقم (٣٠٨٧) أبواب تفسير القرآن. باب ومن سورة التوبة. والله أعلم.

٣٠ محرم

ويُربي الصدقات

يقول عزَّ مِن قائل: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾(١) بعد الحديث عن الرِّبا؛ يأتي الحديث مباشرة عن الصدقة.

قال العلامة السعدي- رحمه الله-:"﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يُذهِبه ويُذهِب بركته ذاتًا ووصفًا، فيكون سببًا لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق منه لم يُؤجَر عليه، بل يكون زادًا له إلى النَّار ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يُنمّيها ويُنزل البركة في المال الذي أُخرِجتْ منه ويُنَمِّي أجر صاحبها، وهذا لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فإنَّ المرابي قد ظلَمَ الناس وأخَذَ أموالهم على وجه غير شرعي، فجُوزيَ بذهاب ماله، والمحسِنُ إليهم بأنواع الإحسان؛ ربُّه أكرمُ منه، فيُحسِن عليه كما أحسَنَ على عباده ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ لنعم الله، لا يُؤدِّي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شرّه عبادُ الله ﴿ أَثِيمٍ﴾ أي: قد فعل ما هو سببٌ لإثمه وعقوبته"(٢).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن تصدَّق بعدلِ تمرةٍ مِن كسبٍ طيّبٍ- ولا يقبل اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- فإنَّ اللهَ يقبلها بيمينه، ثم يُربِّيها لصاحبها كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه- أي مهره- حتى تكون مثل الجبل" رواه البخاري(٣).

وقد وعد الله- سبحانه وتعالى- المنفِق بالخلف، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(٤).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" قال الله تعالى: أَنْفِقْ يا ابن آدم؛ أُنفِقْ عليك" رواه البخاري(٥).

---

(١) البقرة ٢٧٦.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ١١٧).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٠٨) برقم (١٤١٠) كتاب الزكاة. باب الصدقة من كسبٍ طيّبٍ لقوله: {ويُربي الصدقات والله لا يُحبُّ كُلَّ كفَّارٍ أثيمٍ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون} البقرة: ٢٧٦- ٢٧٧. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٢) برقم (١٠١٤) كتاب الزكاة. باب قبول الصدقة مِنَ الكسب الطَّيِّب وتربيتها.

(٤) سبأ ٣٩.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٦٢) برقم (٥٣٥٢) كتاب النفقات. باب فضْل النفقة على الأهل. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٩٠) برقم (٩٩٣) كتاب الزكاة. باب الحث على النفقة وتبشير المنفِق.



وكما جاء في حديث آخر عن النبي ﷺ:" مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ العِبادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" رواه البخاري(١).

وجاءت النصوص لتؤكِّد أنَّ المال لا ينقص بالإنفاق بل يزيد، فها هو رسول الله ﷺ يَقُولُ:" ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ:

عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا؛ فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ.

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا؛ فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ.

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا؛ فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ.

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ" رواه أحمد والترمذي(٢).

وحرَّم الإسلامُ الحسدَ في كلِّ شيءٍ إلَّا في أبواب الخير عامَّة ومنها باب الصدقة، فعن النبي ﷺ أنَّه قال:" لا حسدَ إلَّا في اثنتين: رجُلٍ آتاه اللهُ مالًا فسلَّطه على هلكته في الحقِّ، ورجُلٍ آتاه اللهُ حكمة فهو يقضي بها ويُعلِّمها" رواه البخاري(٣).

وقد رُويتْ آثارٌ عن النبي ﷺ في فضْل الصدقة، منها: أنَّها تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئ الماءُ النَّارَ، وتَسُدُّ سبعين بابًا من السوء، وأنَّ البلاءَ لا يتخطَّى الصدقة، وأنَّها تزيد في العمر، وتمنع ميتة السوء، وأنَّها لتُطفئ عن أهلِها حرَّ القبور.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٥) برقم (١٤٤٢) كتاب الزكاة. باب قول الله تعالى: {فأمَّا مَن أعطى واتَّقى وصدَّق بالحسنى فسنُيسره لليُسرى وأمَّا مَن بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى، فسنُيسره للعُسرى} الليل: ٥-١٠. «اللهمَّ أعطِ مُنفقَ مالٍ خلفًا». ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٠) برقم (١٠١٠) كتاب الزكاة. باب في المنفِق والممسِك.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٥٦٢/٤) برقم (٢٣٢٥) أبواب الزهد. باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر. ورواه أحمد في مسنده (٢٩/ ٥٥٢) برقم (١٨٠٢٤) من قوله: مثل هذه الأمَّة مثل أربعة نفر ..." دون أوَّله، ومع اختلافٍ يسيرٍ في الحديث. والله أعلم. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٣٢٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥) برقم (٧٣) كتاب العلم. باب الاغتباط في العلم والحكمة. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٥٩) برقم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل مَن يقوم بالقرآن ويُعلِّمه، وفضْل مَن تعلَّم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلَّمها.



وصحَّ عنه ﷺ قوله:" مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تمرةٍ" رواه البخاري(١).

ويقول الله سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

وقد جاء في حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ (أي: في أرضٍ ذاتِ حجارةٍ سُودٍ كثيرة) فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ (منزلق لسيل الماء) قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ؛ مَا اسْمُكَ؟! قَالَ: فُلَانٌ- لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ- فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ؛ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا؛ فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ" رواه مسلم(٣).

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّه:"إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ " رواه مسلم(٤).

ولذا فالصدقة هي أوَّلُ ما يتمنَّاه العبد بعدَ مماته لو رجع إلى حياته، يقول تعالى:﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٥).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٨) برقم (٧٥١٢) كتاب التوحيد. باب كلام الربِّ عزَّ وجلَّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣) برقم (١٠١٦) كتاب الزكاة. باب الحث على الصدقة ولو بشقِّ تمرة أو كلمةٍ طيّبةٍ، وأنَّها حِجابٌ من النَّار.

(٢) البقرة ٢٦١- ٢٦٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٨) برقم (٢٩٨٤) كتاب الزهد والرقائق. باب الصدقة في المساكين.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢٥٥) برقم (١٦٣١) كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

(٥) المنافقون ١٠.



قال العلَّامة السعدي- رحمه الله-:" ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ يدخل في هذا النفقاتُ الواجبةُ من الزكاة والكفَّارات، ونفقة الزوجات والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحَبَّة كبذْل المال في جميع المصالح، وقال:﴿مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ ليدلَّ ذلك على أنَّه تعالى لم يُكلِّف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشقُّ عليهم، بل أمرهم بإخراج جزءٍ ممَّا رزقَهم اللهُ الذي يسَّره لهم ويسَّر لهم أسبابه"(١).

والخلاصة: أنَّ الصدقة تجارةٌ مع الله، كلُّها منافع ومكاسب؛ فالله يُضاعِفها أضعافًا مُضاعَفة، ويُخلِف على صاحبها بالخلَف الصالح، فالمال مال الله، ومع هذا يُؤجَر العبدُ على إنفاقه في سبيل الله.

يَا مَنْ تَصَــدَّقَ؛ مالُ اللهِ تَبْذُلُهُ ... فِي أوجُــهِ الخَيرِ مَا لِلمَالِ نُقصَانُ

كَمْ ضَاعَفَ اللهُ مالًا جَادَ صَاحِبُهُ ... إنَّ السَخَاءَ بِحُكْمِ اللهِ رِضْوانُ(٢)

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٦٥).

(٢) لم أقف على قائله.




تم بحمد الله



٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري

فوائد شهر صفر

كتبه الفقير إلى عفو ربه

أ. د. خالد بن عبد الغفار آل عبد الرحمن

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ

ح خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن ، ١٤٤٥هـ

عبد الرحمن ، أ.د. خالد عبد الغفار عبد الله
فوائد شهر صفر الجزء الثاني من سلسلة كتاب ٣٦٠ فائدة علي مدار العام الهجري./ أ.د. خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن
ط ١.- الرياض ، ١٤٤٥هـ
١٢٥ ص ! ١٧ x ٢٤ سم.- (٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري)

رقم الإيداع : ١٤٤٥ / ٢٠١٢٧
ردمك : ١-٣٨٤-٠٥-٦٠٣-٩٧٨



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



إهــداء

إلى زوجـتي وأبنـائي الأوفيـاء الـذين كـان لهـم الفضـل بعـد الله عـزَّ وجـلَّ بتشـجيعي ودعمـي المتواصـل لإعـداد هـذه السلسـلة مـن الفوائـد الـتي تُحفِّـز المسـلم والمسـلمة على العمـل الصـالح واغتنام أيَّام العمر فيما ينفع ويُرضي الله عزَّ وجلَّ.





مُقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. فبين يديك أخي القارئ الكريم الجزء الثاني من كتاب "٣٦٠ فائدة " على مدار العام الهجري، وهو كتاب يضمُّ فوائد ودروسًا تُحفِّز المسلم والمسلمة على العمل الصالح واغتنام أيَّام العمر فيما يَنفع ويُرضِي الله عزَّ وجلَّ. تمَّ تقسيمها على أيَّام السنة الهجريَّة بحيث يستطيع القارئ أن يبدأ بالقراءة من تاريخ اليوم الذي عزم أن يقرأ الكتاب فيه، ويقطف من ثمرات وفوائد ذلك اليوم. وفي كلِّ يومٍ يجد القارئ جملة من المقتطفات التي تدور حول موضوع واحد قد يكون له ارتباط بذلك اليوم أو الأيَّام أو الشهر تحديدًا وقد لا يكون. ولكن الموضوعات تُشكِّل في مجملها خلاصة الفوائد والخواطر والدروس التي تُعين المسلم على التجارة مع الله والعمل الصالح الذي يكون بإذن الله زادًا له في الدنيا ونجاة له في الآخرة برحمة الله ومِنَّته وفضْله. وهذا الجزء مُخصَّصٌ لفوائد شهر صفر، أسأل الله أن يكون فيه النفع والفائدة وحُجَّة لكاتبه وقارئه وكلِّ مَن أعان على نشْره وتوزيعه.

كتبه الفقير إلى عفو ربِّه

أ.د.خالد بن عبد الغفَّار آل عبد الرحمن

drkhalid63@gmail.com

الرياض

شهر صفر ١٤٤٥هـ

فهرس فوائد شهر صفر



١ صفر

لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال:" لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ" رواه البخاري (١).

يقول العلَّامة ابن باز- رحمه الله-: "والمعنى إبطال ما يعتقده أهل الجاهلية من أنَّ الأشياء تُعدي بطبعها، فأخبرهم ﷺ أنَّ هذا الشيءَ باطلٌ، وأنَّ المتصرِّف في الكون هو الله وحده، فقال بعض الحاضرين له ﷺ:" يا رسول الله؛ الإبل تكون في الصحراء كأنَّها الغزلان، فيدخل فيها البعير الأجرب فيُجرِبُها، فقال ﷺ: فمَن أعدى الأوَّل؟" رواه البخاري (٢).

والمعنى أنَّ الذي أنزل الجَرَبَ في الأوَّل هو الذي أنزله في الأخرى، ثم بيَّن لهم رسول الله ﷺ أنَّ المخالَطة تكون سببًا لنقل المرض من الصحيح إلى المريض بإذن الله، ولهذا قال ﷺ:" لا يُورِدَنَّ مُمْرَضٌ على مُصِحٍّ" رواه البخاري ومسلم(٣).

والمعنى: النهْيُ عن إيراد الإبل المريضة ونحوها بالجَرَبِ ونحوه مع الإبل الصحيحة؛ لأنَّ هذه المخالَطة قد تُسبِّب انتقال المرض من المريضة إلى الصحيحة بإذن الله، ومن هذا قوله ﷺ:" فِرَّ من المجذوم فرارَكَ من الأسد" رواه البخاري(٤)، وذلك لأنَّ المخالَطة قد تُسبِّب انتقال المرض منه إلى غيره، وثبت عنه ﷺ أنَّ انتقال الجذام من المريض إلى الصحيح؛ إنَّما يكون بإذن الله، وليس شيئًا لازمًا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٦) برقم (٥٧٠٧) كتاب الطِّبِّ. باب الجذام. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه= صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقِّق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مُصوَّرة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٨) برقم (٥٧١٧) كتاب الطِّبِّ. باب لا صفر. وهو داءٌ يأخذُ البطن. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٤٢) برقم (٢٢٢٠) كتاب السلام. باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول، ولا يُورَدُ مُمْرَضٌ على مُصِحٍّ. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١ هـ)، المحقِّق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

(٣) رواه البخاري (٧/ ١٣٨) برقم (٥٧٧١) كتاب الطِّبِّ. باب لا هامة. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٤٣) برقم (٢٢٢١) كتاب السلام. باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول، ولا يُورَدُ مُمْرَضٌ على مُصِحٍّ.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٦) برقم (٥٧٠٧) كتاب الطِّبِّ. باب الجذام. ولفظه: وفرَّ من المجذوم كما تفرُّ من الأسد.

والأحاديث في هذا الباب تدلُّ على أنَّه لا عدوى على ما يعتقده الجاهليون من كون الأمراض تُعدِي بطبعها، وإنَّما الأمر بيد الله سبحانه. إن شاء انتقل الداء من المريض إلى الصحيح، وإن شاء سبحانه لم يقع ذلك.

ولكنَّ المسلمين مأمورون بأخْذ الأسباب النافعة، وترْك ما قد يُفضي إلى الشرِّ.

أمَّا قوله ﷺ:" ولا طيرة" فمعناه: إبطال ما يعتقده أهل الجاهلية من التطيُّر بالمرئيَّات والمسموعات ممَّا يكرهون، وتَردُّهم عن حاجتهم، فأبطلها النبي ﷺ، وقال في الحديث الآخر:" الطِّيَرَةُ شِرْكٌ" رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي(١).

وقال ﷺ:" إذا رأى أحدُكم ما يكره فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت، ولا يدفع السَّيِّئات إلَّا أنت، ولا حول ولا قوة إلَّا بك" رواه أبو داود(٢).

وروي عنه ﷺ أنَّه قال:" مَن ردَّتْه الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك، قالوا: وما كفَّارة ذلك يا رسول الله؟ قال: أن يقول: اللَّهُمَّ لا خيرَ إلَّا خيرُك، ولا طير إلَّا طيرُك، ولا إله غيرك" أخرجه أحمد(٣).

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٤/ ١٧) برقم (٣٩١٠) كتاب الطِّبِّ. باب في الطِّيَرَة؛ وابن ماجه في سُننه (٢/ ١١٧٠) برقم (٣٥٣٨) كتاب الطِّبِّ. باب مَن كان يُعجبُه الفألُ ويكره الطِّيَرَة. الترمذي في جامعه (٤/ ١٦١) برقم (١٦١٤) أبواب السِّيَر. باب ما جاء في الطِّيَرَة. بلفظ:" الطِّيَرَةُ مِنَ الشِّرْكِ". سُنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥ هـ)، المحقِّق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا- بيروت. سُنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية- فيصل عيسى البابي الحلبي. سُنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩ هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.

(٢) رواه أبو داود في سُننه (٤/ ١٨) برقم (٣٩١٩) كتاب الطِّبِّ. باب في الطِّيَرَة؛ والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (٤/ ١٢٣). سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، دار النشر: دار المعارف، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١١/ ٦٢٣) برقم (٧٠٤٥). مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠١ م. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٥٤) بلفظ:" اللَّهُمَّ لا طيرَ إلَّا طيرُك، ولا خيرَ إلَّا خيرُك، ولا إلهَ غيرُك". سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج

وأمَّا الهامة: فهو طائر يُسمَّى البومة، يزعم أهل الجاهلية أنَّه إذا نعق على بيت أحدهم فإنَّه يموت هذا البيت، فأبطلَ النبيُّ ﷺ ذلك.

وأمَّا قوله ﷺ:" ولا صفر" فهو الشهر المعروف، وكان بعض أهل الجاهلية يتشاءمون به. فأبطلَ النبيُّ ﷺ ذلك، وأوضح أنَّه كسائر الشهور ليس فيه ما يُوجِب التشاؤم. وقال بعض أهل العلم: إنَّها دابَّةٌ تكون في البطن تُسمَّى: صفر، وكان بعض أهل الجاهلية يعتقدون فيها أنَّها تُعدِي، فأبطلَ النبيُّ ﷺ ذلك"(١).

ويقول الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: قوله ﷺ:" لا عدوى" لا نافية للجنس، ونفيُ الجنسِ أعمُّ من نفي الواحد والاثنين والثلاثة؛ لأنَّه نفْيٌ للجنس كُلِّه، فنفَى الرسول ﷺ العدوى كلَّها(٢).

فينبغي أن يُعلَم أنَّ كُلًّا من العدوى والطِّيَرَةِ قد وردا في هذه الأحاديث نكرةً في سياق النفي، وكلُّ نكرةٍ في سياق النفي تكون من صيغ العموم كما تقرَّر في علم الأصول، فكأَّنما النَّبيُّ ﷺ قال: ليس شيءٌ من أفراد العدوى والطِّيَرَة ثابتًا.

قال ابن القَيِّم- رحمه الله-:" ويُقوِّي هذا العموم حديث معاوية بن الحكم السلمى- رضي الله عنه- أَنَّه قَالَ:" يَا رَسُول الله؛ وَمِنَّا أُنَاسٌ يَتَطَيَّرُونَ، فَقَالَ: ذَلِك شَيْءٌ يجِدُهُ أحدُكُم فِي نَفسه فَلَا يَصُدَّنَّه" رواه مسلم(٣)، فأخبر أَنَّ تأذيَّه وتشاؤمه بالتطيُّر إنَّما هو فِي نفسه وعقيدته لا في المتطيَّر بِه، فوهمُه وخوفُه وإشراكُه هو الذي يُطيِّره ويصدُّه، لا ما رآه وسمعه ، فأوضح لأُمَّته الأَمر وبيَّن لهم فساد الطِّيَرَة"(٤).

نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: ٦، عام النشر: جـ ١ - ٤: ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م، جـ ٥: ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦ م، جـ ٦: ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠٢ م.

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٢٥/ ٨٩-٩١). مجموع فتاوى العلَّامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، المؤلف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٥٦٢). مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى : ١٤٢١ هـ)، جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الوطن- دار الثريا، الطبعة: الأخيرة، ١٤١٣ هـ.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٤٨) برقم (٥٣٧) كتاب السَّلام. باب تحريم الكهانة وإتيان الكُهَّان. وآخره عنده بلفظ: "فلا يَصُدَّنَّكم".

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/ ٢٣٤). مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية— بيروت.

والعدوى في حقيقتها: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحِسِّيَّة؛ يكون أيضًا في الأمراض المعنويَّة الخُلُقيَّة، ولهذا أخبر النبيُّ ﷺ:" أنَّ جليس السوء كنافخ الكير؛ إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد منه رائحة كريهة" رواه البخاري ومسلم[١].

يقول الشاعر صالح بن عبد القدوس مُحذِّرًا من عدوى الأخلاق:

واحذرْ مُصاحبةَ اللئيمِ فإنَّهُ ... يُعدي كما يُعدي الصحيحَ الأجربُ [٢]

الخلاصة: نخلص من جميع ما تقدَّم إلى الفوائد التالية:

١- العدوى حقيقة موجودة؛ ولكن المرض لا ينتقل من مريض إلى صحيح إلَّا بإرادة الله جلَّ وعلا.

٢- من تمام الإيمان الاعتقاد الجازم بما أخبر به النبيُّ ﷺ:" واعلم أنَّ ما أصابك لم يكُن لِيُخطِئَكَ، وما أخطأك لم يكن لِيُصيبَكَ" رواه أبو داود[٣]. ذلك أنَّ أمور الكون كلَّها، صغيرها وكبيرها، تجري وفقًا لإرادة الله عزَّ وجلَّ، وبمقتضى حِكمته وعدله ورحمته تبارك وتعالى.

٣- الأخْذ بأسباب السلامة والعافية، وتجنُّب الأمور التي يمكن أن تُلحِقَ بالإنسان وبيئتِه الضرَّ والأذى. ومن ذلك: التحرُّز من دخول الأماكن التي تظهر فيها الأوبئة، وعدم مُخالَطة المرضى بأمراض مُعدية، وأخْذ الاحتياطات اللازمة عند التعامُل معهم، وإقرار الحَجْرِ الصِّحِّيِّ الذي تُطبِّقه الدول حفاظًا على صحَّة مواطنيها. فعلى الإنسان أن يعتمد على الله ويتوكَّل عليه. قال

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٩٦) برقم (٥٥٣٤) كتاب الذبائح والصيد. باب المِسْك. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٦) برقم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة والآداب. باب استحباب مجالسة الصالحين، ومُجانَبة قُرناء السوء.

(٢) من قصيدة له بعنوان فدعِ الصبا (القصيدة الزينبية) يُنظَر: مجموعة القصائد الزهديَّات (٤٦٣/١). مجموعة القصائد الزهديات المؤلف: أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان (ت ١٤٢٢ هـ) الناشر: مطابع الخالد للأوفسيت- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ.

(٣) رواه أبو داود بلفظ:" وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن لِيُخطِئَكَ، وأنَّ ما أخطأك لم يكن لِيُصيبَكَ" (٤/ ٢٢٥) برقم (٤٦٩٩) كتاب السُّنَّة. باب في القَدَر. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ١٩٩). وقد رواه الطبراني بهذا اللفظ في المعجم الكبير للطبراني (١١/ ١٢٣) برقم (١١٢٤٣)؛ والحاكم في المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٦٦٦) برقم (٦٣٨٣). المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية- القاهرة، الطبعة: الثانية. المستدرك على الصحيحين للحاكم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المحقِّق: أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار النشر: دار الحرمين، البلد: القاهرة- مصر، سنة الطبع: ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.



تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[(١)]، ولا يُمكن أن يُقال: إنَّ الرسول ﷺ يُنكِر تأثير العدوى؛ لأنَّ هذا أمرٌ يُبطِلُه الواقعُ والأحاديث الأخرى.

٤- على المسلم أن يتفاءل دومًا، ولْيحذرْ من التشاؤم؛ فإنَّه لا يُغني حَذَرٌ من قَدَرٍ.

كَـمْ تَشْـتَكِي وَتَقُـولُ إنَّـكَ مُعـدَمُ ... والأرضُ مِلكُـكَ والسَّمَا والأَنْجُـمُ

وَلَـكَ الحُقُـولُ وَزَهْرُهَـا وَأَرِيجُهَـا ... وَنَسِـيمُهَا وَالْبُلْبُـلُ الْمُتَـرَنِّمُ

هَشَّـتْ لَـكَ الـدُّنْيَا فَمَالَـكَ وَاجِـمٌ ... وَتَبَسَّـمَتْ فَعَـلَامَ لَا تَتَبَسَّـمُ

إِنْ كُنْـتَ مُكْتَئِبًـا لِعِـزٍّ قَـدْ مَضَـى ... هَيْهَـاتَ يُرْجِعُـهُ إِلَيْـكَ تَنَـدُّمُ

أَوْ كُنْـتَ تُشْـفِقُ مِـنْ حُلُـولِ مُصِيبَةٍ ... هَيْهَـاتَ يَمْنَـعُ- أَنْ تَحِـلَّ- تَجَهُّـمُ

أَوْ كُنْتَ جَاوَزْتَ الشَّبَابَ فَلَا تَقُـلْ ... شَـاخَ الزَّمَانُ فَإِنَّهُ لَا يَهْـرَمُ[(٢)]

(١) البقرة ١٩٥.

(٢) يُنظَر: كتاب موسوعة الرقائق والأدب. ياسر الحمداني- هموم العلماء (ص ٦٠٩٩). موسوعة الرقائق والأدب. المؤلف: ياسر بن أحمد بن محمود بن أحمد بن أبي الحمد الكويس الحمداني.

٢ صفر

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢]، وفي حديث جبريل- عليه السلام- لما سأل النبيَّ ﷺ عن الإيمان قال:" أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدَر خيره وشرِّه" رواه مسلم[٣].

وقال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤].

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-:" في هذه الآية الكريمة دليلٌ على أنَّ الإنسان مخلوقٌ لله تعالى، وأنَّ أفعاله مخلوقةٌ لله، وأنَّ كلَّ شيءٍ قد قُدِّر وانتهى، وإذا كان كذلك فلْيلجأ الإنسان إذا أصابته ضراء إلى الله الخالق، وإذا أراد السراء أيضًا يلتجئ إلى الله الخالق، لا يفخرَنَّ ولا يعجبَنَّ بنفسه إذا حصل له مطلوب، ولا ييأسَنَّ إذا أصابه المكروب، فالأمر بيد الله"[٥].

قال الشاعر أبو نوَّاس يُخاطِبُ نفسَه:

يَا نُوَّاسِيُّ تَوَقَّرْ وتَجَمَّلْ وتَصبَّرْ
سَاءَكَ الدهرُ بشيءٍ وبِمَا سَرَّكَ أكثرْ
يَا كبيرَ الذنبِ عفوُ اللهِ مِن ذنبِك أكبرْ
أكبرُ الأشياءِ عَن أصغرِ عفوِ اللهِ أصغرْ
ليسَ للإنسانِ إلَّا مَا قضَى اللهُ وقَدَّرْ
ليسَ للمخلوقِ تدبيرٌ بَلِ الْخَالِقُ دبَّرْ[٦]

---

(١) القمر ٤٩.

(٢) التغابن ١١.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٧) برقم (٨) كتاب الإيمان. باب معرفة الإسلام والإيمان والقدَر وعلامة الساعة.

(٤) الرعد ٣٩.

(٥) تفسير العثيمين: الحجرات- الحديد (ص ٢٩٢). تفسير الحجرات– الحديد، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

(٦) يُنظَر شرح مقامات الحريري (٣/ ٤٨٣) فقد ذكرها مع اختلاف يسير، ونصُّها عنده: يا نوَّاسيُّ توقَّر ... وتعزَّى وتصبَّر، ساءَكَ الدهرُ بشيءٍ ... ولما سرَّك أكثر، يا كبير الذنب عفو الله ... من ذنبك أكبر، أكبر الأشياء في أصغ ... ر عفو الله أصغر، ليس للإنسان إلَّا ... ما قضى الله وقدَّر، ليس للمخلوق تدبي ... ر بل الخالق دبَّر. شرح مقامات الحريري، المؤلف: أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيْسي الشُّريشي (المتوفى: ٦١٩هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الثانية، ٢٠٠٦ م- ١٤٢٧هـ.



وسُئِل الشيخ ابن باز- رحمه الله-:" هل الدعاء يَرُدُّ القدَر؟ فقال: نعم، الدعاء من أسباب ردِّ القدَر المعلَّق، والقدَر يكون مُعلَّقًا ويكون مبتوتًا، فإذا كان قدَرًا مُعلَّقًا؛ قد قدَّر الله جلَّ وعلا أن يهبَه ولدًا إذا دعا ربَّه، فدعا ربَّه واستجاب دعوته، هذا مُعلَّقٌ بالدعاء، أو قدَّر الله له مالًا إذا دعا ربَّه في طلب ذلك المال، فإذا دعا ربَّه يسَّر الله له المال المعلَّق على هذا الدعاء، أو طلب زوجة، طلب أن يُزوِّجه فلانة، والله قد قدَّر له ذلك بهذا الطلب، قد علَّق القدَر بهذا الطلب، أنَّ فلانًا قدَّر الله في سابق علمه أنَّه يسأل ربَّه أن يُزوِّجه فلانة بنت فلان، فإذا ألهمه الله الدعاء ووفَّقه للدعاء، حصل المقدور المعلَّق، أمَّا الأقدار المبتوتة التي ليستْ مُعلَّقة، هذه ما تتعلَّق بالدعاء، الموت المحدود في يوم معلوم دون دعاء، إذا جاء يوم موته المحدود مات؛ دعا أو لم يدع"(١).

قال معالي الشيخ الدكتور صالح آل الشيخ في شرْح الطحاويَّة، وها نحن ننقله باختصار:" وللإيمان بالقدَر أربعُ مراتب، هي: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخَلْق.

فالمرتبة الأولى: العلم، وهي الإيمانُ بعلم الله المحيط بكل الموجودات والمعدومات، والممكِنات والمستحيلات؛ قال ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾(٢)، وعن أُبَيّ بن كعب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:"إنَّ الغلامَ الذي قتَله الخَضِرُ طُبِعَ يومَ طُبِعَ كافرًا، ولو عاش لأرهَق أبويه طُغيانًا وكُفرًا" رواه مسلم(٣).

والمرتبة الثانية: الكتابة، وهي الإيمان بكتاب الله، الذي لم يُفرِّط فيه من شيءٍ؛ قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾(٥)، وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٦).

---

(١) فتاوى نور على الدرب. لابن باز بعناية الشويعر (٤/ ٢٥٥). فتاوى نور على الدرب، المؤلف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، جمعها: الدكتور محمد بن سعد الشويعر، قدَّم لها: عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ.

(٢) الحشر ٢٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥١) برقم (٢٣٨٠) كتاب الفضائل. باب مِن فضائل الخضر عليه السلام. و (٤/ ٢٠٥٠) برقم (٢٦٦١) كتاب القدَر. باب معنى (كُلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرة).

(٤) النبأ ٢٩.

(٥) يس ١٢.

(٦) الحج ٧٠.

والمرتبة الثالثة: المشيئة، وهي الإيمان بمشيئة الله تعالى النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء اللهُ كَوْنَه؛ فهو كائنٌ بقُدرته لا محالة، وما لم يشأِ الله تعالى لم يكن؛ لعدم مشيئته سبحانه إيَّاه، ليس لعدم قدرته عليه؛ فالسبب في عدم وجود الشيء هو عدم وجود مشيئة الله، لا أنَّه عجَز عنه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾(٣).

المرتبة الرابعة: الخَلْق، وهي الإيمان بأنَّ الله سبحانه وتعالى خالِقُ كُلِّ شيءٍ؛ فهو خالقُ كُلِّ عاملٍ وعمله، وكُلِّ مُتحرِّكٍ وحركته، وكُلِّ ساكنٍ وسكونه، وما من ذرَّة في السموات ولا في الأرض إلَّا والله سبحانه وتعالى خالِقُها، وخالِقُ حركتها وسكونها، ولا خالِقَ غيره، ولا ربَّ سواه، وأنَّه سبحانه خَلَقَ مِن العدم، وهذا من توحيد الربوبيَّة التي هي من أفعال الله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾(٤)، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٥) (٦)، وقال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-:" إنَّ الرجل ليمشي في الأسواق، وإنَّ اسمَه لفي الموتى"(٧)، وذُكِرَ القدَرُ عنده يومًا، فأدخل إصبعه السبَّابة والوسطى في فيه فرقَم بهما باطن يديه، فقال: أشهدُ أنَّ هاتَينِ الرَّقمتَينِ كانتا في أُمِّ الكتاب" (٨).

وإليك تلك الوصية الغالية من رسول الله ﷺ والتي يقول فيها:" احرصْ على ما ينفُعُك، واستعنْ بالله ولا تعجز، وإن أصابكَ شيءٌ فلا تقلْ: لو أنِّي فعلتُ كذا لكان كذا وكذا، ولكن قُلْ: قدَّرَ الله وما شاء فعل" رواه مسلم(٩).

---

(١) فاطر ٤٤.

(٢) الأنعام ٣٥.

(٣) البقرة ٢٥٣.

(٤) الرعد ١٦.

(٥) الصافات ٩٦.

(٦) يُنظَر: شرح الطحاويَّة لصالح آل الشيخ= إتحاف السائل بما في الطحاويَّة من مسائل (ص: ٢٣١، بترقيم الشاملة آليًّا). إتحاف السائل بما في الطحاويَّة من مسائل، المؤلف: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، [الكتاب مُرَقَّمٌ آليًّا، دروس مُفرَّغة].

(٧) رواه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه (٤/ ٣١٧) برقم (٧٩٢٦). المصنف، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١ هـ)، المحقِّق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، يُطلَب من: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ.

(٨) رواه عبد الله بن أحمد في السُّنَّة (٢/ ٤٣٢) برقم (٩٥٥). السُّنَّة، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، المحقِّق: د. محمد سعيد سالم القحطاني، الناشر: دار ابن القيِّم- الدَّمَّام، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ.

(٩) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٢) برقم (٢٦٦٤) كتاب القَدَر. باب في الأمْر بالقُوَّة وترْك العجز.

والخلاصة: أنَّ جميع الكتب السماوية والسُّنن النَّبويَّة؛ قد اتَّفقتْ على أنَّ القدَر لا يمنع العمل، ولا يُوجِب الاتِّكال، بل يُوجب الجدَّ والاجتهاد، والحرص على العمل الصالح؛ فعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال:" كُنَّا جلوسًا مع النبي ﷺ ومعه عُودٌ ينكُتُ به في الأرض، وقال: ما منكم من أحدٍ إلَّا وقد كُتِب مقعده من النَّار أو من الجنَّة، فقال رجلٌ من القوم: ألا نتَّكِلُ يا رسول الله؟ قال: لا، اعمَلوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِق له، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾(١) رواه البخاري ومسلم(٢).

وعلى المسلم التعامُل مع موضوع القَدَر بحَذَرٍ شديدٍ، فلا ينزلق في المسائل الشائكة، عملًا بقوله ﷺ:" إذا ذُكِرَ أصحابي فأمسِكوا، وإذا ذُكِرَ النُّجومُ فأمسِكوا، وإذا ذُكِرَ القَدَرُ فأمسِكوا" رواه الطبراني(٣).

ويُعجبُني قولُ القائل:

مَا مَسَّنِي قَدَرٌ بِكُرْهٍ أَوْ رِضا ... إِلَّا اهتديتُ بِهِ إليكَ طَرِيقَا
أَمضِ القَضَاءَ عَلَى الرِّضَا مِنِّي بِهِ ... إِنِّي وَجَدْتُكَ فِي الْبَلَاءِ رَفِيقَا(٤)

---

(١) الليل ٥-١٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٧١) برقم (٤٩٤٩) كتاب تفسير القرآن. باب {فسنُيسِّره للعسرى} الليل: ١٠. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٤٠) برقم (٢٦٤٧) كتاب القَدَر. باب كيفيَّة خلْق الآدمي في بطن أُمِّه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٩٦) برقم (١٤٢٧). والحديث صحَّحه الألباني بشواهده كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٧٥).

(٤) ذكره ابن القيِّم كما في إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٧٣). إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، المحقِّق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٣ صفر

لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

جاء ذِكْرُ خطوات الشيطان في أربعة مواضع من كتاب الله تعالى، كُلُّها بصيغة النهي عن اتِّباعها " لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ"، وهذه المواضع الأربعة حسب ترتيبها في المصحف هي:

الموضعان الأوَّل والثالث في سياق ذِكْر الطعام؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[2].

الموضع الثاني في سياق الأمر بأخذ شرائع الإسلام كلِّها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[3].

الموضع الرابع في سياق النهي عن الفواحش: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾[4].

قال الشيخ أبو بكر الجزائري في تفسير الآية:" أي: يا من صدَّقتم اللهَ ورسوله ﷺ ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾؛ فإنَّه عدوُّكم، فكيف تمشون وراءه وتتَّبعونه فيما يُزيِّن لكم من قبيح المعاصي وسَيِّئ الأقوال والأعمال؛ فإنَّ مَن يتَّبع خطوات الشيطان لا يلبث أن يصبح شيطانًا، يأمر بالفحشاء والمنكر، ففاصلوا هذا العدوَّ، واتركوا الجري وراءه؛ فإنَّه لا يأمر بخيرٍ قط، فاحذروا وساوسه، وقاوموا نزغاته بالاستعاذة بالله السميع العليم؛ فإنَّه لا ينجيكم منه إلَّا هو سبحانه وتعالى"[5].

وقال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-:" كُلُّ شيءٍ حرَّمه الله فهو من خطوات الشيطان، سواء كان عن استكبار أو تكذيب أو استهزاء أو غير ذلك؛ لأنَّه يأمر به، وينادي به، ويدعو إليه، والله أعلم"[6].

---

(١) البقرة ١٦٨

(٢) الأنعام ١٤٢.

(٣) البقرة ٢٠٨.

(٤) النور ٢١.

(٥) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٥٧). أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوَّرة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٦) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٢/ ٢٣٤). تفسير الفاتحة والبقرة، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.



وقال الشيخ السعدي- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي: طرقه ووساوسه. وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي المتعلِّقة بالقلب واللِّسان والبدن. ومن حِكمته تعالى أن بيَّن الحُكم، وهو: النَّهْي عن اتِّباع خطوات الشيطان. والحِكمة وهو: بيان ما في المنهي عنه من الشَّرِّ المقتضي، والداعي لتركه، فقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: الشيطان ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه، ﴿وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ وهو ما تُنكره العقول ولا تعرفه. فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان؛ لا تخرج عن ذلك، فنهْيُ الله عنها للعباد نعمةٌ منه؛ عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأنَّ ذلك صيانةٌ لهم عن التدنُّس بالرذائل والقبائح، فمِن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكْلِ السموم القاتلة ونحوها"(١).

قال ابن عاشور:" والمعنى: ومَن يتَّبع خطوات الشيطان يفعل الفحشاء والمنكر؛ لأنَّ الشيطان يأمر النَّاس بالفحشاء والمنكر، أي بفعلهما، فمَن يتَّبع خطوات الشيطان يقع في الفحشاء والمنكر؛ لأنَّه من أفراد العموم" (٢).

ويُلاحَظ في القرآن الكريم أنَّ الله تعالى كرَّر النَّهي عن اتِّباع خطوات الشيطان، ولم يقل: لا تتبعوا الشيطان، ولعلَّ ذلك لأمرين:

الأوَّل: مِن جهة العبد، فمِن المستبَعد أن يتَّبع الشيطان وهو يعلم عداوته له؛ فحذَّر الله تعالى العبد ممَّا لا ينتبه له، وهو خطوات الشيطان.

الثاني: مِن جهة الشيطان، وهو أنَّه يتدرَّج مع المؤمن في الإغواء، فيُزيِّن له التوسُّع في المباحات، ثم التساهُل في المتشابهات، فغشيان مُحقَّرات الذُّنوب، إلى أن يصل به إلى الحرام المحض، بل إلى الكبائر والعياذ بالله تعالى. ويبعد جدًّا أنَّ عبدًا مُؤمنًا مُطيعًا لله عزَّ وجلَّ؛ مُنتهٍ عن محارمه؛ ينتقل فجأة إلى الموبقات وكبائر الذُّنوب، لكن يصل إليها بالتدرُّج إذا تسلَّط عليه الشيطان بخطواته، ووَجَده

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٦٤). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقِّق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨٧). التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر– تونس، سنة النشر: ١٩٨٤م.

يسير معه فيها. وإذا عجز عن العبد من جهة المعصية؛ لمتانة دينه وبُعْدِه عن الشهوات؛ أتاه مِن جهة البدعة والوسوسة في الطاعات.

ومن خطوات الشيطان:

١- القول على الله بلا علمٍ. وهذا يكون بالخوض في الشريعة وأحكامها بجهلٍ، كما يقع في ذلك كثيرٌ من الجهلة المتشبّهين بالغرب ونحوهم؛ فيُبيحون المحرَّمات، ويُسقِطون الواجبات، وينتهكون حِمى الشريعة، ويُهوّنون أحكامها لدى العامَّة بما يستحسنونه من آرائهم التي يستمدُّونها من ثقافات الغرب وأفكاره.

٢- الترخيص على الناس وإرضاؤهم، فمَن فعل ذلك سينتهي به المطاف إلى إباحة المحرَّمات، وإسقاط الواجبات؛ وذلك أنَّ الله تعالى لما أمر بالدخول في الإسلام كافَّة، وأخْذِ الشرائع كلِّها؛ نهى عن اتِّباع خطوات الشيطان؛ لأنَّ الشيطان يريد صدَّ الناس عن الأخْذِ بالشرائع كلِّها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[1]. قال ابن عثيمين- رحمه الله-:" نَهْيٌ بعد أمْرٍ؛ لأنَّ اتِّباع خطوات الشيطان يُخالِف الدخول في السِّلم كافَّة"[2].

والشيطان- في تحقيق عداوته للإنسان، وفي سبيل غزوه إيَّاه بخطواته- يسلك كُلَّ طريقٍ للإغواء، ويأتي الإنسان من جهاته الأربع ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[3]؛ ولذا كان واجبًا على الإنسان أن يجعل الشيطان عدوًّا له؛ فلا يتَّبع خطواته، ولا يستسلم لوساوسه؛ لئلَّا يقوده إلى المحرَّمات ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[4].

والخلاصة: أنَّ الشيطان يبدأ عند غواية العبد ببواعث المعصية في النفس حتى السقوط فيها، ثم الاستمرار عليها ثم المداومة إلى الموت إلَّا أن يعصمه الله. فهو يبدأ غوايته بخطرة، ثم فكرة، ثم هَمٍّ، ثم عزْم، ثم فِعْل، ثم عادة، ثم سلوك، ثم مُجاهَرة، والخاتمة يعلمها الله وحده.

---

(١) البقرة ٢٠٨.

(٢) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٦).

(٣) الأعراف ١٦- ١٧.

(٤) فاطر ٦.

فإذا أردت أن تنجو من حبائل الشيطان فلا تتَّبِع خطواته، بل احذر أوَّل خطوة. فمَن يتَّبع خطوات الشيطان فإنَّه يترقَّى من رتبة الضلال والفساد إلى رتبة الإضلال والإفساد فيأمر هو بذلك. كما قال بعضهم:

وكنتُ امْرَءًا من جُندِ إبليسَ فارتَقَى ... بي الحالُ حتَّى صَارَ إبليسُ من جُندِي

فإنْ مَاتَ قَبلي كنتُ أُحسِنُ بعدَهُ ... طَرَائِقَ فِسْقٍ ليسَ يُحسنُهَا بَعْدِي[1]

---

(١) ذكره غير واحد من أهل العلم ولم أقف على نسبته لقائلٍ بعينه. يُنظَر: الاعتصام للشاطبي (٢/ ٥٢٦). الاعتصام، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٤ صفر

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ

المسابقة إلى الخيرات خُلُقٌ عظيمٌ، ومسلَكٌ كريمٌ لا يتَّصِفُ به إلّا الجادُّون المشمِّرون، والمسارعةُ إلى أعمالِ البِرِّ طبعٌ لا يتخلَّقُ به ولا يُهدَى إليه إلّا مَن وهَبَه الله عُلُوَّ هِمَّة، وقُوَّةَ عزيمَة، مع سلامةِ قلبٍ، ورَجاحَةِ عقلٍ، وانشِراحِ صَدرٍ.

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[1]، أي: وفي هذا الثواب والجزاء ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾أي: فليتسابق المتسابقون سباقًا يَصِل بهم إلى حدِّ النَّفَس، وهو كنايةٌ عن السرعة في المسابقة؛ يقال: نافَسْتُه، أي: سابَقْتُه سِباقًا بلغ بي النَّفَس.

والمنافَسة في الخير هي: المسابَقة إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ وإلى ما يُرضِي الله سبحانه وتعالى، والبُعد عمَّا يُسخِط الله[2].

وقال الشيخ السعدي- رحمه الله-: ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾أي: يتسابقوا في المبادرة إليه بالأعمال الموصِّلة إليه، فهذا أولى ما بُذلتْ فيه نفائسُ الأنفاس، وأحرى ما تزاحمتْ للوصول إليه فحولُ الرجال" [3].

وقال ابن القيّم- رحمه الله-:" الْمُنَافَسَةُ هِيَ كَمَالُ الرَّغْبَةِ فِي الشَّيْءِ، وَمَنْعُ الْغَيْرِ مِنْهُ، إِنْ لَمْ يُمْدَحْ فِيهِ الْمُشَارَكَةُ، وَالْمُسَابَقَةُ إِلَيْهِ إِنْ مُدِحَتْ فِيهِ الْمُشَارَكَةُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[4]، وَبَيْنَ الْمُنَافَسَةِ وَالْغِبْطَةِ جَمْعٌ وَفَرْقٌ، وَبَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْحَسَدِ أَيْضًا جَمْعٌ وَفَرْقٌ.

فَالْمُنَافَسَةُ تَتَضَمَّنُ مُسَابَقَةً وَاجْتِهَادًا وَحِرْصًا، وَالْحَسَدُ: يَدُلُّ عَلَى مَهَانَةِ الحَاسِدِ وَعَجْزِهِ، وَإِلَّا فَنَافِسْ مَنْ حَسَدْتَهُ، فَذَلِكَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْ حَسَدِهِ، كَمَا قِيلَ:

إِذَا أَعْجَبَتْكَ خِلَالُ امْرِئٍ ... فَكُنْهُ يَكُنْ مِنْكَ مَا يُعْجِبُكْ

فَلَيْسَ عَلَى الْجُودِ وَالْمَكْرُمَا ... تِ إِذَا جِئْتَهَا حَاجِبٌ يَحْجُبُكْ

---

(١) المطفِّفين ٢٦.

(٢) تفسير العثيمين: جزء عمَّ (ص ١٠٥). تفسير جزء عمَّ، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢ م.

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٩١٦).

(٤) المطفِّفين ٢٦.

وَالْغِبْطَةُ تَتَضَمَّنُ نَوْعَ تَعَجُّبٍ وَفَرَحٍ لِلْمَغْبُوطِ وَاسْتِحْسَانٍ لِحَالِهِ[١].

وقال البغوي- رحمه الله-:" أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس ويريده كُلُّ أحدٍ لنفسه" [٢]، وربما فرحتْ إذا شاركتْها فيه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير، ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحضُّ بعضُهم بعضًا عليه مع تنافُسهم فيه، وهي نوعٌ من المسابقة وقد قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٤]، وكان عمر بن الخطَّاب يُسابِق أبا بكر- رضي الله عنهما- فلم يظفر بسبقه أبدًا، فقال:" واللَّهِ ما سبقتُه إلى خيرٍ؛ إلَّا وجدتُه قد سبقني إليه"[٥].

والمتنافِسان كعبدَينِ بين يدَيْ سيِّدهما، يتباريان ويتنافسان في مرضاته، ويتسابقان إلى محابِّه، فسيِّدُهما يُعجبُه ذلك منهما، ويحثُّهما عليه، وكلٌّ منهما يُحِبُ الآخَر، ويُحرِّضُه على مرضاة سيِّده.

قال الحسن- رحمه الله-: مَن نافسَك في دينِك فنافسْه، ومَن نافسَك في دنياك فألْقِها في نحره[٦].

والتسابُق في الخير له فوائد عظيمة، وثمرات يانعات مباركات، فمن ثماره أنَّه:

١- دليلٌ على حُسْنِ الإيمان وصِدْقِ اليقين: فقد وصف الله المؤمنين الخالصين بأنَّهم هم الذين يسارعون في الخيرات طلبًا للصلاح والفلاح، قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٣/ ٤٨).

(٢) تفسير البغوي (٨/ ٣٦٨) وتتمَّته:" وينفس به على غيره، أي يضنُّ". معالم التنزيل في تفسير القرآن= تفسير البغوي، المؤلف: مُحيي السُّنَّة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠ هـ)، المحقِّق: حقَّقه وخرَّج أحاديثه محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م.

(٣) البقرة ١٤٨.

(٤) الحديد ٢١.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٧/ ٣٦٠) برقم (٤٣٤٠) ولفظه:" يرحم اللهُ أبا بكرٍ، ما سبقتُه إلى خيرٍ قط؛ إلَّا سبقني إليه". والحديث حسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٥/ ٣٧٩).

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الزهد (ص ٢٢٩) ولفظه:« إذا رأيتَ الرجل ينافسك في الدنيا فنافسْه في الآخرة». الزهد لابن أبي الدنيا، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

٢- دليلُ حُبِّ الله تعالى للعبد: وأنَّه قد اختاره ليجعله في الأرض مفتاحًا من مفاتيح الخير، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[2].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ، مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ" رواه ابن ماجه[3].

٣- سببٌ لتفريج الكروب وسترِ العيوب: وذلك من صفات أهل الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

٤- سببٌ لاستجابة الدعاء وقبول الرجاء: يقول الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[5].

لذا فقد كان من دعاء النبي ﷺ:" اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي" أخرجه الترمذي[6].

---

(١) آل عمران ١١٣-١١٥.

(٢) الأنبياء ٧٣.

(٣) رواه ابن ماجه في سُننه (١/ ٨٦) برقم (٢٣٧) افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم. باب مَن كان مفتاحًا للخير. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (١/ ٣٠٩). صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة بالإسكندرية.

(٤) آل عمران ١٠٤.

(٥) الأنبياء ٨٩-٩٠.

(٦) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٦٩) برقم (٣٢٣٥) أبواب تفسير القرآن. باب ومن سورة ص. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٧/ ٢٣٥). صحيح وضعيف سُنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة بالإسكندرية.

وانظرْ إلى تنافُس الصحابة عندما أتى فقراء المهاجرين رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا: ذَهَبَ أهلُ الدثور (أي المال الكثير) بالدرجات العُلا، والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك؟ قالوا: يُصلُّون كما نُصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويُعتِقون ولا نُعتِق. فقال رسول الله ﷺ: أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به مَن سبقكم، وتسبقون به مَن بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم؛ إلَّا مَن صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تُسبِّحون، وتُكبِّرون، وتحمدون دبر كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين مرَّة، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمعَ إخوانُنا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ:" ذلك فضْلُ الله يُؤتيه من يشاء" رواه البخاري ومسلم(١).

والخلاصة: أنَّ العُقبى الحسنة لمن سابَق الناس في فِعْل الخيرات واجتناب المنكرات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾(٢).

أخي المسلم؛ بادرْ إلى الخيرات، وسارعْ إلى الصالحات، تَنَلِ البركات، وتُستجَبْ منك الدعوات، وتُفرَّجْ لك الكُرُبات، وتَنَلِ المرضاة من ربِّ البريَّات.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٦٨) برقم (٨٤٣) كتاب الأذان. باب الذِّكْر بعد الصلاة. ومسلم في صحيحه (١/ ٤١٦) برقم (٥٩٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب استحباب الذِّكْر بعد الصلاة وبيان صفته.

(٢) فاطر ٣٢-٣٥.

٥ صفر

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ

في خضم الابتلاء الكبير الذي مرَّ برسول الله ﷺ وصحابته الكرام في غزوة أُحُدٍ؛ تجلَّتْ عظمة شخصيَّة النبي ﷺ حين يشهد القرآن له في آية كريمة برقَّة القلب وسعة الصدر وطيب القول في أعقاب هزيمة هزَّتْ زمرة المؤمنين وزلزلتْهم، نتيجة لانكسارات متتابعة اعترتهم في معركة أحد، حيث أُشيرَ على النبي ﷺ بغير ما يريد، وإذ تراجع ثُلُثُ الجيش من المنافقين قبل المعركة، وإذ لم يلتزم الرماة بأماكنهم، وإذ فرَّ الشجعان؛ والرسول ﷺ سيِّد الشجعان يدعوهم في أخراهم فلا يلتفتون إليه. في أعقاب كلِّ هذا تتبدَّى فرادة شخصية النبي ﷺ؛ لينُه ورحمتُه وحُسْنُ حديثِه ورقَّةُ قلبِه.

قال الحافظ ابن كثير- رحمه الله-: يقول تعالى مُخاطِبًا رسولَه ﷺ مُمتنًّا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أُمَّته، المتَّبعين لأمْره، التاركين لزجْره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾[1]، أي: أيُّ شيءٍ جعلك لهم ليِّنًا لولا رحمةُ الله بك وبهم. قال قتادة: يقول: فبرحمةٍ من الله لنتَ لهم. واللين سهولة الأخلاق"[2].

يقول البغوي: أي: سهَّلْتَ لهم أخلاقك، وكثرة احتمالك، ولم تُسرِعْ إليهم فيما كان منهم يوم أُحُدٍ[3].

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[4]، والفظاظةُ كما يقول أبو حيَّان الأندلسي في تفسيره المحيط: هي الجفوة في المعاشرة قولًا وفعلًا، قال الشَّاعر:

أخشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أَوْ جَفَاءَ أَخٍ ... وَكُنْتُ أَخْشَى عَلَيْهَا مِنْ أذَى الْكَلِمِ

والغلظُ: كبر الإجرام، ثم تُجُوِّز به في عدم الشفقة، وكثرة القسوةِ في القلب.

---

(١) آل عمران ١٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨). تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)، المحقِّق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩م.

(٣) تفسير البغوي (٢/ ١٢٤).

(٤) آل عمران ١٥٩.



قال الشاعر:

بْكَى عَلَيْنَا وَلاَ نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ ... ونَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الإبِلِ

وقال أبو حيَّان:" يُستعمَلُ الغلظُ في قِلَّة الانفعال وقِلَّة الإشفاق والرحمة، والانفضاض: التفرُّق. وفضضتُ الشيءَ: كسرتُه، وهو تفرقة أجزائه"[١].

قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية: أي برحمة الله لك ولأصحابك؛ مَنَّ الله عليك أن ألنتَ لهم جانبك، وخفضتَ لهم جناحك، وترقَّقتَ عليهم، وحسَّنتَ لهم خُلُقَكَ، فاجتمعوا عليك وأحبُّوك، وامتثلوا أمرك، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي سَيِّئَ الخُلُقِ ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي قاسيه ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأنَّ هذا يُنفِّرهم ويُبغِّضُهم لمن قام به هذا الخُلُقُ السَّيِّئ، فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدنيا تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السَّيِّئة من القائد في الدين تُنفِّر النَّاس عن الدِّين، وتُبغِّضُهم إليه مع ما لصاحبها من الذَّمِّ والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم ﷺ يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟ أليس من أوجب الواجبات وأهمِّ المهمَّات الاقتداء بأخلاقه الكريمة ومعاملة الناس بما كان يُعاملهم به ﷺ من اللين وحُسْن الخُلُق والتأليف؛ امتثالًا لأمْر الله وجذبًا لعباد الله لدين الله[٢]. قال رسول الله ﷺ:" إنَّ الرفقَ لا يكون في شيءٍ إلَّا زانه، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلَّا شانه" رواه مسلم[٣].

يقول عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَمْرِو بنِ العَاصِ- رَضِيَ اللَّهُ عنْهمَا-:" واللَّهِ إنَّه ﷺ لَمَوْصُوفٌ في التَّوْرَاةِ ببَعْضِ صِفَتِهِ في القُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٤]، وحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أنْتَ عَبْدِي ورَسولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، ليسَ بفَظٍّ ولَا غَلِيظٍ، ولَا سَخَّابٍ في الأسْوَاقِ، ولَا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولَكِنْ يَعْفُو ويَغْفِرُ، ولَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حتَّى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بأَنْ يَقولوا: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، ويَفْتَحُ بهَا أعْيُنًا عُمْيًا، وآذَانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا" رواه البخاري[٥].

---

(١) يُنظَر: البحر المحيط في التفسير (٣/ ٣٨٣). البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيَّان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقِّق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر- بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ١٥٤).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠٤) برقم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب. باب فضْل الرفق.

(٤) الأحزاب ٤٥.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٦٧) برقم (٢١٢٥) كتاب البيوع. باب كراهية السخب في السوق.

وقال الفخر الرازي:" وها هنا دقيقة أخرى: وهي أنَّه تعالى منعه من الغلظة في هذه الآية، وأمَرَه بالغلظة في قوله: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[1] فها هنا نهاه عن الغلظة على المؤمنين، وهناك أمَرَه بالغلظة مع الكافرين، فهو كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [2]، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [3]، وتحقيق القول فيه: أنَّ طرفي الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة في الوسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة، وأخرى بالنهي عنه؛ إنَّما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتفريط، فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم ، فلهذا السِّرِّ مدح الله الوسط فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [4] [5].

وقال القاضي عياض في (الشفا): قال أبو بكر محمد بن طاهر: زيَّن الله تعالى محمدًا ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلْق، فمَن أصابه شيءٌ من رحمته فهو الناجي في الدارين من كلِّ مكروهٍ، والواصل فيهما إلى كلِّ محبوبٍ[6].

وبكلِّ هذا بدت شخصيَّة النبي ﷺ من خلال تلك الآية العظيمة التي تجلَّت بها بوصلة النجاح والنصر والسيادة، والتي تقود إلى وحدة المسلمين وائتلافهم وتراحمهم وصدورهم عن رأيٍ سديدٍ.

والخلاصة: أنَّ الآية الكريمة قد وضعتْ منهجًا جليًّا يرسم ملامح شخصية الداعية القائد، رسول الله ﷺ، ومَن سار على دربه من الدُّعاة والمصلحين، يمكن استخلاصه فيما يلي:

١- لين الجانب لإخوانه وأصحابه المؤمنين، وهو لين لا يُبذَل إلَّا لمن يستحقُّه، ولا ينسَحِبُ على مَن سواهم.

---

(١) التوبة ٧٣.

(٢) المائدة ٥٤

(٣) الفتح ٢٩.

(٤) البقرة ١٤٣.

(٥) تفسير الرازي= مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٩/ ٤٠٨). مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

(٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ١٦). الشفا بتعريف حقوق المصطفى- مُذيَّلًا بالحاشية المسمَّاة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: ٥٤٤هـ)، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمنى (المتوفى: ٨٧٣هـ)، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.



٢- ينبعث لينُه مِن رحمةٍ لا مِن ضعفٍ، وهي رحمةٌ ربانيَّةٌ مُنضبِطةٌ بشرع الله، تقود إلى الوحدة والائتلاف، ولا تُفضي إلى تبعثُر وخور.

٣- فظاظة اللِّسان وسوء الحديث ليس من شيم الداعية المسلم ولا تنتصر دعوة به، وليس أسلوبًا ناجعًا لتقويم السائرين في الطريق وعلاج أخطائهم وزلَّاتهم.

٤- غلظة القلب تنعكس على الجوارح، فلا يمكن إخفاؤها بابتسامة زائفة أو كلمات مُصطَنعة، وهي مُفضية إلى انفضاض الناس وتذمُّرهم وتفرُّقهم، لأنَّ غلظة القلب والفظاظة صنوان يتلازمان معًا، ويُؤدِّيان إلى تنفير الناس وكسْر نفوسهم، ويقودان إلى التهوُّر وسوء التقدير.

٥- الداعية القائد مُحِبٌّ لأصحابه، يعفو عن زلَّاتهم، ويدعو لهم، ويستغفر لهم، ويستشيرهم في أموره.

٦ صفر

أهل الثناء والمجد

يقول رسول الله ﷺ:" ولا أحدَ أحبَّ إليه المدحُ من الله تعالى" رواه البخاري ومسلم(١).

فلا أحدَ أشدَّ حُبًّا للمدح والثناء الصادق الصحيح من الله تعالى، فإنَّه عزَّ وجلَّ يُحِبُّ الثناء والشُّكْر من عباده بالطاعة والعبادة والذِّكْر، ويكافؤهم عليه بزيادة النعمة، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢)، ومن أجل ذلك مدَحَ نفسه وأثنى على نفسه بنفسه ليُعلِّمَ عباده كيفيَّة الثناء عليه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(٣).

لقد أثنى الله تعالى على نفسه بالحياة فقال عزَّ وجل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٥)، وخاطب نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾(٦). وهو سبحانه المتفرِّد بالحياة الكاملة دون ما سواه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾(٧)، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾(٨).

وأثنى سبحانه على نفسه بالعلْم، ففي قصَّة خلْق آدم واستخلافه في الأرض قال ربُّنا عزَّ وجلَّ لملائكته المسبِّحة بحمده: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٩)، وقال سبحانه لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(١٠)، وخاطب سبحانه عباده يخبرهم بأنَّه عزَّ وجلَّ أعلمُ بهم من أنفسهم ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾(١١).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٣٥) برقم (٥٢٢٠) كتاب النكاح. باب الغيرة. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١١٤) برقم (٢٧٦٠) كتاب التوبة. باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش.

(٢) إبراهيم ٧.

(٣) الفاتحة ١.

(٤) آل عمران ٢

(٥) غافر ٦٥.

(٦) الفرقان ٥٨.

(٧) القصص ٨٨

(٨) الرحمن ٢٦- ٢٧.

(٩) البقرة ٣٠.

(١٠) البقرة ٣٣.

(١١) الإسراء ٥٤- ٥٥.

ومعنى الثناء على الله هو أن يتضرَّع العبد إلى المولى عزَّ وجلَّ، وأن تكون بداية دعائه حمْد الله علي نعمه الكثيرة وفضله على عباده. كما أنَّ بدء دعاء العبد لله بالأسماء الحُسنى وصفاته العظيمة يُعتبَر من ضمن الثناء على الله قبل الدعاء.

قال النووي: حقيقة هذا مصلحة للعباد لأنَّهم يثنون عليه سبحانه وتعالى فيُثيبهم فينتفعون، وهو سبحانه غنيٌّ عن العالمين، لا ينفعه مدْحهم، ولا يضرُّه ترْكُهم ذلك، وفيه تنبيه على فضْل الثناء عليه سبحانه وتعالى، وتسبيحه وتهليله، وتحميده وتكبيره، وسائر الأذكار(١).

قال النبي ﷺ:" أَلِظُّوا بيَا ذَا الجَلال والإِكرام" رواه الترمذي(٢). أي الْزَمُوه واثْبُتُوا عليه وأَكْثِرُوا من قوله والتَّلَفُّظِ به في دُعائِكم.

ولو تدبَّرنا القرآن حقَّ التدبُّر لوجدنا أنَّ القرآن كلَّه في الحديث عن الله تعالى وعن أسمائه وصفاته وقُدرته وعَظَمَتِه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾(٣).

قال ابن تيمية: وأمَّا سورة الإخلاص والمعوِّذتان؛ ففي الإخلاص الثناء على الله، وفي المعوِّذتين دعاء العبد ربَّه ليُعيذَه، والثناء مقرونٌ بالدعاء، كما قُرِن بينهما في أُمِّ القرآن المقسومة بين الربِّ والعبد: نصفها ثناءٌ للرَّبِّ، ونصفها دُعاءٌ للعبد(٤).

ولقد عرَّفنا الله بنفسه في كتابه الكريم في عدَّةِ آياتٍ منها على سبيل المثال: أعظم آية في القرآن؛ آية الكُرسيِّ وهي كلُّها من أوَّلها إلى آخرها ثناءٌ على الله.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾(٥). وقوله سبحانه: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٧٧). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٣٩) برقم (٣٥٢٤) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ٢٤).

(٣) الزمر ٦٧.

(٤) يُنظَر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٧٨). مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٥) الأعراف ١٨٠.

وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾(١). ووصف نفسه سبحانه وتعالى بأنَّه: ﴿خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾(٢)، وأنَّه﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٣) ، وأنَّه ﴿خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾(٤)، وأنَّه ﴿خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾(٥)،وأنَّه ﴿خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾(٦)، وأنَّه ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(٧)، وأنَّه ﴿خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾(٨)، وأنَّه ﴿خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴾(٩)، وأنَّه ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾(١٠).

كذا ورد الثناء على الله تعالى في السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة، فقد جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ فقال:" علِّمْني كلامًا أقوله، قال: قلْ: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، سُبحانَ اللهِ ربِّ العالمين، لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العزيز الحكيم، قال: فهؤلاء لربِّي؛ فما لي؟ قال: قل: اللَّهُمَّ اغفرْ لي وارحمْني واهدِني وارزقْني" رواه مسلم(١١). فهذا الحديث يشتمل على الثناء على الله في بدايته ثم الدُّعاء للنَّفْس.

الخلاصة: أنَّ مِن محبته للثناء عليه شَرَعَه للداعي قبل سؤاله ودعائه؛ ليكون وسيلة له بين يدي حاجته؛ كالمتقرِّب إلى المسؤول بما يُحِبُّه، ويسأله بين يدي مطلوبه، كما في السُّنن حيث جاء رجلٌ فصلَّى فقال: اللَّهُمَّ اغفرْ لي وارحمْني، فقال ﷺ:" عجلتَ أيُّها المصلِّي، إذا صليتَ ففرغتَ فاحمدِ الله بما هو أهلُه، ثم صلِّ على النبي، ثم ادعه، ثم صلَّى رجلٌ آخر بعد ذلك، فحمد الله، وصلَّى على النبي، فقال له النبي ﷺ:" أيُّها المصلِّي؛ ادعُ تُجَبْ" رواه الترمذي(١٢).

---

(١) المؤمنون ٨٤-٨٩.

(٢) آل عمران ١٥٠.

(٣) المؤمنون ١٠٩- ١١٨.

(٤) الأعراف ٨٩.

(٥) الأعراف ١٥٥.

(٦) الأعراف ٨٧، يونس ١٠٩، يوسف ٨٠.

(٧) المائدة ١١٤، الحج ٥٨، المؤمنون ٧٢، سبأ ٣٩، الجمعة ١١.

(٨) الأنبياء ٨٩.

(٩) الأنعام ٥٧.

(١٠) المؤمنون ٢٩.

(١١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٢) برقم (٢٦٩٦) كتاب الذِّكْر والدُّعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل التهليل والتسبيح والدُّعاء.

(١٢) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥١٦) برقم (٣٤٧٦) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٧/ ٤٧٦).



وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: كنتُ أُصلِّي فلمَّا جلستُ بدأتُ بالثناء على الله، ثم الصلاة على النبي ﷺ، ثم دعوتُ لنفسي، فقال النبي ﷺ: "سلْ تُعطَه، سلْ تُعطَه" رواه الترمذي[١].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنَّه كان يقول في سجوده: " اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذ برضاك مِن سخطك، وبمعافاتك مِن عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أُحصي ثناء عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك" رواه مسلم[٢].

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٢/ ٤٨٨) برقم (٥٩٣) أبواب السَّفر. باب ما ذكر في الثناء على الله والصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٢/ ٩٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٥٢) برقم (٤٨٦) كتاب الصلاة. باب ما يُقال في الركوع والسجود.

٧ صفر

يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

لقد كرَّم الله الإنسان وفضَّله على كثيرٍ ممَّن خَلَقَ، لكنَّ هذا الإنسان في غفلةٍ ولهوٍ عن عبادة ربِّه، فالكونُ مِن حوله يُسبِّحُ بحمْد ربِّه، الجبالُ تخشعُ لعظمة آياته، الحجارةُ تهبِط إجلالًا وخشوعًا لربِّها، بينما الإنسانُ غارقٌ في شهواته وملذَّاته، مُعرِضٌ عن ربِّه.

هل استشعرتَ يومًا أنَّ الطيورَ في السماء تُسبِّح ربَّها؟ هل خطر على قلبِك أنَّ الطعامَ الذي تأكله، والثوبَ الذي تلبَسُه يُسبِّحُ بحمْد ربِّه؟ أما بلغَك أنَّ صوتَ الرعد الذي يملأ القلوب فزعًا؛ إنَّما هو تسبيحٌ بحمْد الله سبحانه؟ ألا تعلم أنَّ كلَّ ما حولك من الجمادات والجبال والشجر والدوابِّ وكلِّ ما خَلَقَ الله؛ قد أُلهِم التسبيحَ بحمْد ربِّنا الجليل سبحانه، إلَّا البشر، فهم في غفلةٍ ولهوٍ؟ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

والتسبيح هو: تنزيه الله تعالى في ذاته وأفعاله وصفاته عن كلِّ ما لا يليق به.

وقيل: إنَّ التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء، والتنزيه من غيرهم، وفي الآية بيانُ أنَّ هذه الجمادات والحيوانات تُسبِّح الله عزَّ وجلَّ، وفي ذلك تقريعٌ للكُفَّار وتوبيخٌ لهم؛ حيث جعلوا الجمادات- التي من شأنها التسبيح لله سبحانه- شركاء يعبدونها كعبادته عزَّ وجلَّ.

والتسبيح هو تنزيه الله تعالى عن النقائص، وإثبات العظمة والكمال له وحده لا شريك له؛ ولذا قال حذيفة- رضي الله عنه- في وصف صلاة النبي ﷺ في جوف الليل:" وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ" رواه مسلم[2]، وفي حديث آخر قال ﷺ:" فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ" رواه مسلم[3].

يقول الشيخ السعدي:" نبَّه تعالى عباده على عظمته، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيَّتها، وعبادتها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من حيوان وجماد ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾ أي: صافَّاتٍ أجنحتَها في جوِّ السماء تُسبِّحُ ربَّها. ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾.

---

(١) النور ٤١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٣٦) برقم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٤٨) برقم (٤٧٩) كتاب الصلاة. باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود.

أي: كلٌّ له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إمَّا بواسطة الرسل؛ كالجنّ والإنس والملائكة، وإمَّا بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: عَلِمَ جميع أفعالها، فلم يخفِ عليه منها شيءٌ، وسيُجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جمع بين علْمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علْمه بأعمالهم المتضمِّن للجزاء[1].

ولأهمِّيَّة التسبيح كُرِّر في القرآن في نحوٍ من تسعين موضعًا، وافتُتِحتْ به سبع سور سُمِّيت (المسبِّحات) وخُتِمتْ به أربع سور، وجاء بصيغ مُتعدِّدة؛ فاستخدم فيه الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[2]، والمضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[3]، والأمر ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾[4]، والمصدر ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[5]، وما ذلك إلَّا لإثبات أنَّ التسبيح لله تعالى هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل، وأنَّ المؤمن ينبغي له أن يلازمه، ولا يغفل عنه، ولا يفتر لسانه منه، كما قال الله تعالى عن الملائكة المسبِّحين ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[6].

من عَظَمَةِ التسبيح وأهمِّيَّته أنَّ من حِكمة إرسال الرسول- عليه الصلاة والسلام- أن يُعلِّم الناس التسبيح فيُسبِّحوا الله تعالى ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[7].

والتسبيح- وإن كان قولًا- فهو اعتقاد القلب مع قول اللِّسان، بأن يعتقد المؤمن وهو يُسبِّح ما تضمَّنه التسبيح من تنزيه الله تعالى وتعظيمه، مع حضور قلبه أثناء تسبيحه؛ ليجتمع عمل القلب مع عمل اللسان فيكون التسبيح في أعلى درجات العمل الصالح، وينتفع به القلب انتفاعًا كبيرًا.

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٧٠).

(٢) الحديد ١.

(٣) الجمعة ١.

(٤) الواقعة ٧٤.

(٥) المؤمنون ٩١.

(٦) الأنبياء ١٩-٢٠.

(٧) الفتح ٨-٩.

والخلاصة : أنَّ التسبيح مِن أحبِّ الكلام إلى الله تعالى، يقول النبي ﷺ:" أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ للَّه، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، وَاللَّه أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ" رواه مسلم(١).

وأحبُّ إلى النبي ﷺ ممَّا طلعت عليه الشمس، كما قال ﷺ:" لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّه، وَالْحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، وَاللَّه أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ" رواه مسلم(٢).

كما أنَّ التسبيح مُكفِّر للذُّنوب، فقد ثبت عنه ﷺ أنَّه قال:" مَن قال حين يُصبِح وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده مائة مرَّة، غُفِرتْ خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر" رواه مسلم(٣).

وهو أيضًا غراس الجنَّة، ففي حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنَّه قال:" لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّه، وَالْحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، وَاللَّه أَكْبَرُ " أخرجه الترمذي(٤).

الشمسُ والبدرُ مِن أنوارِ حِكمتِهِ ... والبرُّ والبحرُ فيضٌ مِن عطاياهُ
الطيرُ سبَّحَهُ والوحشُ مجَّدَهُ ... والموجُ كبَّرَهُ والحُوتُ ناجاهُ
والنملُ تحتَ الصُّخورِ الصُّمِّ قدَّسَهُ ... والنَّحلُ يَهتِفُ حمدًا في خَلاياهُ(٥)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٦٨٥) برقم (٢١٣٧) كتاب الآداب. باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧١) برقم (٢٦٩٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧١) برقم (٢٦٩٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل التهليل والتسبيح والدعاء. ولفظه:" مَن قال: حين يُصبِح وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده، مائة مرَّة، لم يأتِ أحدٌ يوم القيامة بأفضلَ ممَّا جاء به؛ إلَّا أحدٌ قال مثل ما قال أو زاد عليه". ولفظ:" غُفِرَتْ خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر" إنَّما ورد في حديث الأذكار دبر الصلاة كما في صحيح مسلم (١/ ٤١٨) برقم (٥٩٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب استحباب الذِّكْر بعد الصلاة وبيان صفته. ولفظه:" مَن سبَّح الله في دبر كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين، وحَمَدَ الله ثلاثًا وثلاثين، وكبَّر الله ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير؛ غُفِرَتْ خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر".

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥١٠) برقم (٣٤٦٢) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٢١٤).

(٥) يُنظَر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة (٢/ ٣٢، بترقيم الشاملة آليًّا). موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة، المؤلف: محمد راتب النابلسي، الناشر: دار المكتبي- سورية- دمشق- الحلبوني- جادة ابن سينا، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.



٨ صفر

وَهُزِّي إليكِ بجذعِ النَّخلةِ (عن الأخْذ بالأسبابِ)

إنَّ الأخْذ بالأسباب من أخصِّ صفات المؤمنين، ومن أهمِّ الصفات التي يجب أن تستقرَّ في قلب المؤمن وكيانه؛ وعليه أن يبذل قصارى جهده ووقته؛ وأن يتسلَّح بسلاح العلم والمعرفة، والكياسة والفطنة، والشجاعة والمروءة، وغير ذلك من الأسباب؛ ومن هنا فإنَّ التوكُّل الحقيقي على الله لا يصِحُّ إلَّا مع الأخْذ بالأسباب.

قال الشيخ السعدي- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[(١)]، أي: طريًّا لذيذًا نافعًا. ﴿فَكُلِي﴾ من التمر، ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ بعيسى. فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب الهني[(٢)].

وقال الحافظ ابن كثير- رحمه الله تعالى-: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ أي: وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عبَّاس. وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. والظاهر أنَّها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه: ولهذا امتنَّ عليها بذلك، أن جعل عندها طعامًا وشرابًا، فقال: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾، أي: طيبي نفسًا، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيءٍ خيرٌ للنُّفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة [(٣)].

يقول ابن رجب الحنبلي: واعلم أنَّ تحقيق التوكُّل لا يُنافي السعي في الأسباب التي قدَّر الله تعالى المقدورات بها، وجرتْ سُنَّتُه في خلْقه بذلك؛ فإنَّ الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمْره بالتوكُّل؛ فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكُّل بالقلب عليه إيمان به؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[(٤)].

وقال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾[(٥)] [(٦)]، فالحذر والإعداد من الأسباب اللازمة عند ملاقاة الأعداء. والانتشار والسعي لا بُدَّ منهما لاستجلاب الرزق وتحصيله.

---

(١) مريم ٢٥.
(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٩٢).
(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٢٥).
(٤) النساء ٧١.
(٥) الأنفال ٦٠.
(٦) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٨). جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقِّق: شعيب الأرناؤوط- إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ آخِذٌ كُلَّ الَّذِي لَكَ   فِي الْكِتَابِ مُقَدَّرٌ مَسْطُورُ[(١)]

وعن إثبات الأسباب يقول ابن القيِّم في كتابه مدارج السالكين: واعلم أنَّ نُفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكُّلٌ البتَّة، لأنَّ التوكُّلَ من أقوى الأسباب في حصول المتوكَّل فيه؛ فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعوِّ به؛ فإذا اعتقد العبد أنَّ توكُّله لم ينصبه الله سببًا ولا جعل دعاءه سببًا لنيل شيء؛ فإنَّ المتوكَّل فيه المدعوَّ بحصوله؛ إن كان قد قُدِّر حصل؛ توكَّل أو لم يتوكَّل، دعا أو لم يدع. وإن لم يُقدَّر لم يحصل؛ توكَّل أيضًا أو ترَك التوكُّل. وصرَّح هؤلاء- أي نُفاة التوكُّل- أنَّ التوكُّل والدعاء عبوديَّة محضة لا فائدة لهما إلَّا ذلك، ولو ترك العبد التوكُّل والدعاء؛ ما فاته شيءٌ ممَّا قُدِّرَ له. وهذا خطأ منهم؛ والصحيح الواقع هو أن يكون الله تعالى قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكُّل والدعاء، فنصب الدعاء والتوكُّل سببَينِ لحصول المطلوب، وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه، فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبَّب. وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها، فإذا لم يُجامِع لم يُخْلَقِ الولد، وقضى بحصول الشبع إذا أكل، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو. وقضى بدخول الجنَّة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة؛ فإذا ترَكَ الإسلام ولم يعمل الصالحات لم يدخلها أبدًا. فالتوكُّل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه؛ فمَن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكُّل، ولكن من تمام التوكُّل عدم الركون إلى الأسباب، وقطْع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها[(٢)].

والأخْذ بالأسباب سُنَّةٌ كونيَّةٌ وشرعيَّةٌ، لذا فقد أخَذَ الأنبياء بالأسباب، فهذا نوح- عليه السلام- يصنع السَّفينة هو ومَن معه بوحي من الله سبحانه؛ أخْذًا بأسباب النَّجاة، قال سبحانه: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[(٣)].

ويعقوب- عليه السلام- يقول لولده يوسف: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾[(٤)]، إخفاءً للنعمة عن أعين الحاسدين وأسماعهم؛ لئلَّا يكيدوا له؛ أخْذًا بالأسباب.

ويوسف الصِّدِّيق- عليه السلام- يأخذ بالأسباب ويضع خطَّة لإنقاذ مصر من الجدب والمجاعة، ويتلوها على ملئه قائلًا عن القمح: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾[(٥)]؛ لئلَّا يتعفَّن، وتصيبه الآفات.

---

(١) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص ١٩٣). أدب الدنيا والدين، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ١١٩-١٢٠).

(٣) هود ٣٧.

(٤) يوسف ٥.

(٥) يوسف ٤٧.

كما وجَّه الله عباده إلى الأخْذ بالأسباب في كلِّ شؤونهم الدينيَّة والدنيويَّة: قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[١]، وقال النبي ﷺ: "اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" رواه البخاري ومسلم[٢].

والخلاصة: أنَّه يجب على أبناء الأُمَّة الإسلاميَّة أن يتجاوزوا مرحلة الوهن والغُثاء إلى مرحلة القُوَّة والبِناء، وأن يكفُّوا عن التراخي، والأحلام والأُمنيَّات، وينهضوا بكلِّ الأسباب التي تُوصِّلهم إلى التمكين وتُؤهِّلهم له.

وإن كان يُشترَط لصحَّة الأخْذ بالأسباب أن تكون الأسبابُ مُباحةً شرعًا، وألَّا يُتوصَّل بها إلى معصية، وألَّا يعتقد العبد أنَّها تنفع وتضرُّ بذاتها دون إرادة الله سبحانه وحِكمته وقُدرته.

قال الشاعر القحطاني:

تَوكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كلِّ حَاجَةٍ ... ولا تُؤثِرَنَّ العجزَ يومًا على الطَّلَبْ

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ قالَ لمريمٍ ... وَهُزِّي إليك الجذعَ يَسَّاقَطُ الرُّطَبْ

ولوْ شاءَ أن تَجنيهِ مِن غيرِ هَزِّهِ ... جَنَتْهُ، ولكنْ كلُّ شيءٍ لَهُ سَبَبْ

وقدْ كانَ حبُّ اللهِ أولى برِزْقِها ... كما كانَ حبُّ الخَلْقِ أدعى إلى النَّصَبْ

---

(١) الملك ١٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٧١) برقم (٤٩٤٩) كتاب تفسير القرآن. باب {فسنُيسِّره للعُسرى} الليل ١٠. وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٠) برقم (٢٦٤٧) كتاب القَدَر. باب كيفيَّة خلْق الآدمي في بطن أُمِّه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

٩ صفر

لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ

إنَّ حقيقة التوكُّل تبدأ بمعرفة الربِّ سبحانه وصفاته، وأنَّه القادر الكافي الحسيب الذي بيده كلُّ شيءٍ، وإليه المرجع في كلِّ شيءٍ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ فكلُّ مَن كان بالله وصفاته أعلمَ وأعرفَ؛ كان توكُّله أصحَّ وأقوى، وأنَّ حقيقة التوكُّل: توحيد القلب؛ وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحَّة التوكُّل، فإنَّ العبد متى التفتَ إلى غير الله؛ أخذ ذلك الالتفاتُ شُعبةً من شُعب قلبه، فنقص مِن توكُّله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة.

عن عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا" رواه الترمذي وابن ماجه[١].

قال العلَّامة ابن عثيمين- رحمه الله-: يقول النبي ﷺ حاثًّا أُمَّته على التوكُّل:" لو أنَّكم تتوكَّلون علي الله حقَّ توكُّله"؛ أي: توكُّلًا حقيقيًّا، تعتمدون علي الله عزَّ وجلَّ اعتمادًا تامًّا في طلب رزقكم وفي غيره" لرزقكم كما يَرزقُ الطير"؛ الطيرُ رزقُها علي الله عزَّ وجلَّ، لأنَّها طيورٌ ليس لها مالك، فتطير في الجوِّ، وتغدو إلى أوكارها، وتَستجلِبُ رزق الله عزَّ وجلَّ[٢].

أمَّا عن تعريف التوكُّل فيقول ابن عبَّاس— رضي الله عنهما-: التوكُّل هو الثقة بالله، وصدْق التوكُّل أن تَثِق في الله وفيما عند الله، فإنَّه أعظم وأبقى ممَّا لديك في دنياك.

وقال الشيخ أبو حامد- رحمه الله- في كتابه مختصر منهاج القاصدين: قد يُظنُّ أنَّ معنى التوكُّل ترْكُ الكسب بالبدن، وترْك التدبير بالقلب، والسقوطُ على الأرض كالخرقة الملقاة أو كلحمٍ على وضم، وهذا ظنُّ الجُهَّال، فإنَّ ذلك حرامٌ في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكِّلين[٣]، فكيف يُنال

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٧٣) برقم (٢٣٤٤) أبواب الزهد. باب في التوكُّل على الله. وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٦٦) برقم (٤١٦٤) أبواب الزهد. باب التوكُّل واليقين. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٦٢٠).

(٢) يُنظَر: شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٧). شرح رياض الصالحين، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦هـ.

(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص ٣٣٣). مُخْتَصرُ مِنْهَاجِ القَاصِدِين، المؤلف: نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٨٩هـ)، قدَّم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتَبَةُ دَارِ البَيَان، دمشق، عام النشر: ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

مقام من مقامات الدين بمحظُورٍ من محظُورات الدين؟ بل نكشف عن الحقِّ فيه، فنقُول: إنَّما يظهر تأثيرُ التوكُّل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده[1].

وللتوكُّل أقسام ومراتب؛ فهناك:

١- توكُّل العبد على الله في استقامة نفسه وإصلاحها دون النظر إلى غيره.

٢- توكُّل العبد على الله في استقامة نفسه، وكذلك في إقامة دين الله في الأرض ونصْره، وإزالة الضلال عن عبيده، وهدايتهم والسعي في مصالحهم، ودفْع فساد المفسدين، ورفْعه، والأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- توكُّل على الله في جلْب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية؛ كالرزق والزواج، والذُّرِّيَّة والعافية، والانتصار على العدو الظالم، أو دفْع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

وبين القسم الثاني والثالث من الفضْل ما لا يُحصيه إلَّا الله، فمتى توكَّل عليه العبد في النوع الثاني حقَّ توكُّله؛ كفاه النوع الثالث تمام الكفاية، ومتى توكَّل عليه في النوع الثالث دون الثاني كفاه أيضًا؛ لكن لا يكون له عاقبة المتوكِّل فيما يُحِبُّه ويرضاه.

٤- توكُّل على الله في دفْع مُحرَّم من إثم أو فاحشة، أو دفْع مأمور به[2]. وللتوكُّل أهمِّيَّته ومنزلته في العقيدة والإيمان والسلوك، فالتوكُّل على الله خُلُقٌ عظيمٌ من أخلاق الإسلام، وهو من أعلى مقامات اليقين، وأشرف أحوال المقرَّبين، وهو نظام التوحيد وجماع الأمْر؛ كما أنَّه نصف الدين والإنابة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، وهو مفتاح كلِّ خيرٍ؛ لأنَّه أعلى مقامات التوحيد، وعبادة من أفضل العبادات، وهو فريضة يجب إخلاصه لله تعالى وعقيدة إسلاميَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[3].

---

(١) يُنظَر: شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السُّنن (١٠/ ٣٣٣٦)؛ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٢٠). شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمَّى بـ (الكاشف عن حقائق السُّنن)، المؤلف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ)، المحقِّق: د. عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة- الرياض)، عدد الأجزاء: ١٣ (١٢ ومجلد للفهارس) (في ترقيم مسلسل واحد)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، المؤلف: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

(٢) أرشيف ملتقى أهل التفسير.

(٣) المائدة ٢٣.

إنَّ التوكُّل شرطٌ من شروط الإيمان، ولازمٌ من لوازمه ومقتضياته، فكلَّما قوي إيمان العبد كان توكُّله أكبر، وإذا ضعُف الإيمان ضعُف التوكُّل؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[1]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[2].

والتوكُّل مقام جليل القدْر، عظيم الأثَر، جعله الله سببًا لنيل محبَّته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾[3]. ولكن على المسلم الجمْع بين التوكُّل والأخْذ بالأسباب: فعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رجُلٌ: يا رسُول الله؛ أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ، أم أعقلها وأتوكَّل؟ قال ﷺ:" اعقلْها وتوكَّلْ" رواه الترمذي[4].

ويُعجبُني قول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" فالالتفات إلى الأسباب شِركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب- أن تكون أسبابًا- نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلِّيَّة قدحٌ في الشرع، بل العبد يجب أن يكون توكُّله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله سبحانه وتعالى، والله يُقدِّر له من الأسباب من دعاء الخلْق وغيرهم ما شاء"[5].

والدليل على أنَّ الالتفات إلى الأسباب شِرْكٌ في التوحيد: عن زيد بن خالد الجُهني- رضي الله عنه- أنَّهُ قال: صلَّى لنا رسُولُ الله ﷺ صلاة الصُبح بالحُديبية على إثر سماء كانت من الليل فلمَّا انصرف؛ أقبَلَ على النَّاس، فقال:" أتدرُون ماذا قال ربُّكُم؟ قالُوا: اللهُ ورسُولُهُ أعلمُ. قال: قال: أصبح من عبادي مُؤمنٌ بي وكافرٌ بي، فأمَّا من قال: مُطِرنا بفضْل الله ورحمته فذلك مُؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مُؤمنٌ بالكوكب" رواه البخاري ومسلم[6].

---

(١) آل عمران ١٢٢.

(٢) يونس ٨٤.

(٣) آل عمران ١٥٩.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٦٨) برقم (٢٥١٧) أبواب الزهد. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٦/ ١٧).

(٥) الواسطة بين الحقِّ والخلْق (ص ٣٣). الواسطة بين الحقِّ والخلْق، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: محمد بن جميل زينو، الناشر: مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ١٢٢) برقم (٤١٤٧) كتاب المغازي. باب غزوة الحديبية. ومسلم في صحيحه (١/ ٨٣) برقم (٧١) كتاب الإيمان. باب بيان كُفْر مَن قال: مُطِرْنا بالنَّوء.



وأمَّا الدليل على أنَّ إلغاء الأسباب قدحٌ في العقل والشرع؛ فما روى الطبراني عن معاوية بن قرة قال: لقي عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه- ناسًا من أهل اليمن فقال: مَن أنتم؟ قالوا: مُتوكِّلون. قال: كذبتم، ما أنتم مُتوكِّلون! إنَّما المتوكِّل الذي ألقى حبَّة في الأرض وتوكَّل على الله[(١)].

والخلاصة : أنَّه ينبغي على الإنسان أن يعتمد على الله تعالى حقَّ الاعتماد. وأن يعلم علم اليقين أنَّه ما من دابَّةٍ في الأرض إلَّا على الله رزقها، حتَّى الطير في جوِّ السماء، لا يُمسِكه في جوِّ السماء إلَّا الله، ولا يرزقه إلَّا الله عزَّ وجلَّ. مع ضرورة الأخْذ بالأسباب.

وفي بيان المعنى الحقيقي للتوكُّل؛ يقول الإمام الشافعي- رحمه الله-:

تَوكَّلتُ في رزقي عَلَى اللهِ خَالقِي ... وأيقنتُ أنَّ اللهَ لا شَكَّ رَازقِي

ومَا يكُ من رزقٍ فليسَ يَفوتُني ... ولَو كَانَ في قاعِ البحارِ العوامقِ

سيأتي به اللهُ العظيمُ بفضْلِهِ ... ولو لم يكنْ مِنّي اللّسانُ بناطقِ

ففي أيِّ شيءٍ تذهبُ حسرةً ... وقد قسَّمَ الرحمنُ رزقَ الخلائقِ[(٢)]

(١) لم أقف عليه عند الطبراني، وإنَّما رواه الدينوري في المجالَسة وجواهر العلم (٧/ ١٣٣) برقم (٣٠٢٧) وذَكَرَ المحقِّق أنَّ إسناده منقطع. المجالَسة وجواهر العلم، المؤلف: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى : ٣٣٣هـ)، المحقِّق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر : جمعية التربية الإسلامية (البحرين- أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت- لبنان)، تاريخ النشر: ١٤١٩هـ.

(٢) يُنظَر ديوان الإمام الشافعي (ص ١١٠). ديوان الإمام الشافعي المسمَّى (الجوهر النفيس في شِعْر الإمام محمد بن إدريس)، إعداد وتعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، نشْر: مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة- مصر.

١٠ صفر

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ

إنَّ المسلم لا يخلو حالُه من ثلاثة أحوال: إمَّا نعمة نازلة له من ربِّه، أو بلية يُصاب بها، أو ذنب صادر منه في جنب ربِّه، وهو مع النعمة واجبُه الشكر، ومع البلية واجبُه الصبر، ومع الذنب واجبُه الاستغفار. ومن أنواع الابتلاءات الابتلاء بالمرض، والمرض قد يكون تكفيرًا للسَّيِّئات أو رفعة للدرجات أو تمحيصًا وامتحانًا، قال بعض السلف: لولا المصائب لوردنا يوم القيامة مفاليس، وكان السلف يفرح أحدهم بالبلاء، كما يفرح أحدنا بالرخاء.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ يقول الشيخ السعدي في تفسير هذه الآيات:" أخبر تعالى أنَّه لا بُدَّ أن يَبتلي عباده بالمحن، ليتبيَّن الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سُنَّته تعالى في عباده؛ لأنَّ السرَّاء لو استمرَّتْ لأهل الإيمان؛ ولم يحصل معها محنة؛ لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحِكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشرِّ. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردُّهم عن دينهم، فما كان الله ليُضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنَّه سيبتلي عباده ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ أي: بشيءٍ يسيرٍ منهما؛ لأنَّه لو ابتلاهم بالخوف كلِّه أو الجوع لهلكوا، والمحن تُمحِّص لا تهلك، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخْذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك، ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يُحِبُّه، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلِّها، والخُضَر ببَرَد، أو برْد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه ، فهذه الأمور لا بُدَّ أن تقع، لأنَّ العليم الخبير أخبر بها، فوقعتْ كما أخبر، فإذا وقعتِ انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبتان: فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمْر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدالُّ على شدَّة النقصان، وأمَّا مَن وفَّقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخُّط، قولًا وفعلًا واحتسب أجرها عند الله، وعلم أنَّ ما يُدركه



من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقِّه، لأنَّها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالثواب"(١).

قال الشيخ ابن عثيمين في شرحه على رياض الصالحين:" الإنسان في هذه الدنيا لا يمكن أن يبقى مسرورًا دائمًا، بل هو يومًا يُسَرُّ ويومًا يحزن، ويومًا يأتيه شيءٌ ويومًا لا يأتيه، فهو مُصابٌ بمصائب في نفسه، ومصائب في بدنه، ومصائب في مجتمعه، ومصائب في أهله، ولا تُحصَى المصائب التي تصيب الإنسان، ولكنَّ المؤمن أمره كلُّه خيرٌ، إن أصابتْه ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابتْه سرَّاء شكر فكان خيرًا له، فإذا أُصِبتَ بالمصيبة فلا تظنَّ أنَّ هذا الهمَّ الذي يأتيك، أو هذا الألم الذي يأتيك ولو كان شوكة، لا تظنَّ أنَّه يذهب سُدىً، بل ستُعوَّض عنه خيرًا منه، ستُحطُّ عنك الذُّنوب كما تحطُّ الشجرة ورقها، وهذا من نعمة الله، وإذا زاد الإنسان على ذلك الصبر والاحتساب، يعني: احتساب الأجر، كان له مع هذا أجر(٢).

ثَمَانِيَةٌ تَجْرِيْ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ ... وَلا بُدَّ لِلإِنْسَانِ يَلْقَى الثَّمَانِيَهْ

سُرُوْرٌ وَحُزْنٌ، وَاجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ ... وَعُسْرٌ وَيُسْرٌ، ثُمَّ سُقْمٌ وَعَافِيَهْ(٣)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ" رواه البخاري ومسلم(٤).

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٤٣).

(٣) يُنظَر: المحاضرات في اللغة والأدب (ص ٢١، بترقيم الشاملة آليًّا). المحاضرات في اللغة والأدب، المؤلف: الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (المتوفى: ١١٠٢هـ).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٤) برقم (٥٦٤١) كتاب المرضى. باب ما جاء في كفَّارة المرض. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٢) برقم (٢٥٧٣) كتاب البر والصلة والآداب. باب ثواب المؤمن فيما يُصيبه من مرض أو حزن، أو نحو ذلك حتَّى الشوكة يُشاكُها.

وقد يكونَ المرضُ سببًا لرفْع منزلة المريض في الآخرة، روى ابن حبَّان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّه ﷺ قال:" إِنَّ الرَّجُلَ تَكُونُ لَهُ المنزِلَةُ عِندَ اللهِ فَمَا يَبلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ يَبتَلِيهِ بِمَا يَكرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ ذَلِكَ"(١).

ومن الوصايا التي يُوصَى بها المريض:

أوَّلًا: إحسان الظنِّ بالله تعالى: وأنَّ مَن أحسنَ ظنَّه بالله؛ رزقه الله الراحة النفسية، وطمأنينة القلب، روى ابن حبَّان في صحيحه من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" إنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ شَرًّا فَلَهُ"(٢).

ثانيًا: الإكثار من ذِكْر الله ودعائه والإلحاح عليه في الدعاء، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(٣).

ثالثًا: أنَّ على المريض ألَّا يتعلَّق بالأسباب كالمستشفيات والأطباء، والواجب أن يكون تعلُّقُ القلب بالذي أنزل الداء ولا يرفعه إلَّا هو، فإنَّه سبحانه هو الشافي لا شفاء إلَّا شفاؤه، ولا يرفع المرض إلَّا هو، سواء كان مرضًا بدنيًّا أو نفسيًّا، قال تعالى ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٥).

---

(١) رواه ابن حبَّان في صحيحه (٧/ ١٦٩) برقم (٢٩٠٨). والحاكم في مستدركه (١/ ٤٨٨) برقم (١٢٧٥). صحيح ابن حبَّان بترتيب ابن بلبان، المؤلف: محمد بن حبَّان بن أحمد بن حبَّان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤ هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م. والحديث صحَّحه الألباني كما في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان (٤/ ٤٥٥). التعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذِّه من محفوظه، مؤلِّف الأصل: محمد بن حبَّان بن أحمد بن حبَّان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله علاء الدين الفارسي الحنفي (المتوفى: ٧٣٩هـ)، مؤلِّف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

(٢) رواه ابن حبَّان في صحيحه (٢/ ٤٠٥) برقم (٦٣٩) ولفظه:« إنَّ اللهَ جلَّ وعلا يقول: أنا عند ظنِّ عبدي بي، إنْ ظنَّ خيرًا فله، وإنْ ظنَّ شرًّا فله». والحديث صحَّحه الألباني كما في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان (٢/ ٩٤).

(٣) البقرة ١٨٦.

(٤) الأنعام ١٧.

(٥) الشعراء ٨٠.

رابعًا: على المريض أن يرقي نفْسَه بالرقية الشرعيَّة، كالفاتحة والمعوِّذتين وآية الكُرسيِّ، وبالأدعية المأثورة.

خامسًا: على المريض ألَّا ييأس من الشفاء، فالله على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] وأيوب- عليه السلام- مكث في البلاء ثماني عشرة سنة، ثم كشف الله عنه وشفاه.

والخلاصة: أن يصبر المسلم على المرض إذا نزل به، وأن يبذل أسباب التداوي ويطرق أبواب الشفاء، ولكن لا يُعلِّق قلبه بالأسباب من طبيب أو دواء أو غيره ، بل يُعلِّق قلبه بالله، فالشفاء بيده وحده، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[3]، ولكن إذا كان المسلم غير مبتلى بمرض أو غيره فلْيسأَلْ ربَّه العافية، فإنَّها نعمة عظيمة لا يعرف قدْرَها إلَّا مَن افتقدها، فإذا قدَّر الله عليه المرض وجب عليه الصبر وعدم الجزع.

---

(١) يوسف ٨٧.

(٢) يس ٨٢.

(٣) الشعراء ٨٠.

١١ صفر

تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ

نحن نعيش زمانًا طغتْ فيه المادِّيَّات، وانشغل الناس فيه عن الآخرة بتحصيل الدنيا، وجمْعِ الأموال، وتناسى النَّاسُ الآخِرةَ إلَّا مَن رحِمَ اللهُ وعصم، وتناسوا أنَّ هذه الدنيا ما هي إلَّا مزرعة للآخرة، ومحطَّة من محطَّات الوصول لدار القرار، ولقد رأينا مَن يتقاتل من أجْل حفنة من مال، ومَن يبيع مبادئه ودينه من أجل درهم أو دينار أو دولار، وهذا انحطاط وسفول وتدنٍّي، والحقُّ أنَّ شهوة حُبِّ المال عمَّتْ غالب الخلْق حتَّى فُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارتْ غاية قصدهم، لها يطلبون، وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يُوالون، وعليها يُعادون، وكم قُطِّعتْ أرحامٌ في سبيلها، وسُفِكتْ دماءٌ بسببها، ووقعتْ فواحش من أجلها، ونزلت القطيعة وحلَّت البغضاء، وفُرِّق بين الأخ وأخيه، وتقاتل الأب مع ابنه، وتعادى الأصحاب والخلان، والسبب: الدنيا.

كثيرٌ من الناس لا يعرفون حقيقة الدنيا، قال الشيخ علي الطنطاوي: إنَّ لذَّات الدنيا مثل السراب، ألا تعرفون السراب؟ تراه من بعيدٍ غديرًا، فإذا جئتَه لم تجدْ إلَّا الصحراء، فهو ماء ولكن من بعيد(١).

وقال أيضًا: الدنيا كلُّها حلم كاذب: الحبُّ، والمال، والصِّحَّة، والسعادة، والمجد. لا يخلد شيء من ذلك ولا يبقى(٢).

وهي أوَّل شهوةٍ حذَّر منها النبي ﷺ أُمَّته حيث قال ﷺ:" إنَّ الدنيا حلوة خضرة، وإنَّ الله مُستخلِفُكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتَّقوا الدُّنيا واتَّقوا النِّساء" رواه مسلم(٣)، وقال أيضًا:" إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي المالُ" رواه الترمذي(٤).

---

(١) صور وخواطر (ص ١٢). صور وخواطر، المؤلف: علي بن مصطفى الطنطاوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، راجعه وصحَّحه وعلَّق عليه: حفيد المؤلِّف مجاهد مأمون ديرانية، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: العاشرة، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

(٢) قصص من التاريخ (ص ٤٩). قصص من التاريخ، المؤلف: علي بن مصطفى الطنطاوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، راجعه وصحَّحه وعلَّق عليه: حفيد المؤلِّف مجاهد مأمون ديرانية، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: العاشرة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٨) برقم (٢٧٤٢) كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء، وأكثر أهل النَّار النِّساء، وبيان الفتنة بالنِّساء.

(٤) رواه الترمذي في جامعه برقم (٢٣٣٦) أبواب الزهد. باب ما جاء أنَّ فتنة هذه الأُمَّة في المال. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٣٣٦).

ولأنَّ الرزق مضمون، فإنَّ النبي ﷺ لم يخشَ علينا من الفقر؛ بل خاف علينا من الغنى، فأقسم ﷺ:"واللهِ ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسَط عليكم الدنيا كما بُسِطتْ على مَن كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم" رواه البخاري ومسلم(١)، وقال ﷺ:"إذا فُتِحتْ عليكم خزائن فارس والروم، أيُّ قومٍ أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه-: نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله ﷺ: أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون" رواه ابن ماجه(٢).

لقد بات الناس يغترفون من الدنيا دون وعي ودون تحرٍ، فالهدف الجمْع منها، وعليه لا يُبالي كثيرٌ من الناس من أيِّ الطرق يجمع المال، وقد تنبَّأ النبي ﷺ بهذا الزمان- ولعلَّه زماننا الذي نعيش فيه- فقال:" ليأتيَنَّ على النَّاس زمانٌ لا يُبالي المرءِ بما أَخَذَ المال؟ أمن حلالٍ أم من حرامٍ؟" رواه البخاري(٣).

وفي صحيح البخاري أيضًا عن النبي ﷺ أنَّه قال: تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وإذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ(٤).

إنَّ هناك عبيدًا كُثْرٌ لهذه الدنيا، فإنَّ الإنسان أسيرٌ لما يطمع فيه، وإذا زاد الحرص صار عبدًا لما يطلب، وقديمًا قالوا:

العبدُ حُرٌّ ما قنع والحُرُّ عبدٌ ما طمع(٥)

وقال قائِلٌ أيضًا:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتْني ولو أنِّي قنعتُ لكنتُ حُرًّا(٦)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٨٥) برقم (٤٠١٥) كتاب المغازي. باب بدون ترجمة. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٧٣) برقم (٢٩٦١) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) رواه ابن ماجه في سُننه (٢/ ١٣٢٤) برقم (٣٩٩٦) كتاب الفتن. باب المال. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٨/ ٤٩٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٩) برقم (٢٠٨٣) كتاب البيوع. باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مُضاعَفة واتقوا الله لعلكم تفلحون} آل عمران: ١٣٠.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٤) برقم (٢٨٨٦) كتاب الجهاد والسِّيَر. باب الحراسة في الغزو في سبيل الله.

(٥) ذَكَرَه شيخ الإسلام في عددٍ مِن كُتُبه، يُنظَر: العبوديَّة (ص ٨١). العبوديَّة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقِّق: محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: السابعة المجدَّدة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٦) ذَكَرَه الذهبي من ألفاظ الحلَّاج في ترجمته كما في تاريخ الإسلام (٧/ ٢٦). تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ هـ)، المحقِّق: الدكتور بشار عوَّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

وقال النبي ﷺ:" ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنمٍ بأفسدَ لها من حرْص المرء على المال والشرف لدينه" رواه الترمذي(١).

وقال عليٌّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع(٢).

وقال ابن القيِّم- رحمه الله-: لصُّ الحرص لا يمشي إلَّا في ظلام الهوى(٣).

فلو كانتِ الدُّنيا جزاءً لمحسِنٍ ... إذًا لم يكن فيها معاشٌ لظالمِ
لقد جَاعَ فيها الأنبياء كَرَامةً ... وقد شبِعتْ فيها بُطونُ البهائمِ(٤)

يقول الله تعالى:﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارًا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٥).

قال الشيخ السعدي عند تفسيره لهذه الآية: وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مُطابِقٌ لحالة الدنيا، فإنَّ لذَّاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك؛ يزهو لصاحبه- إن زها- وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتمَّ اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها، فذلك ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: نبت فيها من كلِّ صنفٍ، وزوجٍ بهيجٍ ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار، ومِمَّا تأكل ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ كأنواع العشب، والكلأ المختلف الأصناف، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ أي: تزخرفتْ في منظرها، واكتستْ في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمُتفرِّجين، وآية للمُتبصِّرين،

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٨٨) برقم (٢٣٧٦) أبواب الزهد. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٣٧٦).

(٢) يُنظَر: مجمع الأمثال (٢/ ١٦٢). مجمع الأمثال، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨ هـ)، المحقِّق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة- بيروت، لبنان.

(٣) الفوائد لابن القيِّم (ص ٥٠). الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

(٤) ذَكَرَها عددٌ من أهل العلم دون ذكر قائلها، يُنظَر: تفسير القرطبي (١٦/ ٨٨). الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية— القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

(٥) يونس ٢٤.

فصرتَ ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره، ﴿ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ ﴾ أي: حصل معهم طمعٌ بأنَّ ذلك سيستمرُّ ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه، فبينما هم في تلك الحالة ﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: كأنَّها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء[١].

ليست هذه دعوة لأن نترهبن ونترك الحياة ونعتزل الناس في كهف، فليس للمؤمن أن يترك الدنيا ويبغضها، ولكن يوازن بين الأمور ويضع كُلًّا من الأشياء في نصابها الصحيح، فيعرف أنَّ الدنيا وسيلة وليست غاية، وأنَّها تُحمَد طالما أنَّها في يد الإنسان وليست في قلبه.

فالتوازن بين أمر الدنيا والآخرة أمرٌ مطلوبٌ، فقد كان لابن الزبير- رضي الله عنه- مائة غلام، يتكلَّم كلُّ غلامٍ منهم بلُغةٍ أخرى، فكان ابن الزبير- رضي الله عنه- يُكلِّم كلَّ واحدٍ منهم بلُغتِه، فكان الناظر إليه في أمر دنياه يقول: هذا رجلٌ لم يُرِد اللهَ طرفة عين، ويقول الناظر في أمر آخرته: هذا رجلٌ لم يُرِد الدنيا طرفة عين[٢].

والخلاصة: أنَّ الإنسان عليه أن يسعى في الدنيا طلبًا للرزق والعيش الرغيد والمال الوفير، ليس لأجل المال، بل ليكون المال عونًا له في الحياة على أن يعبد الله تعالى حقَّ العبادة، وأن يكون من أهل الخير وأصحاب اليد العليا، وما أجمل قول سفيان الثوري: كان المال فيما مضى يُكرَه، فأمَّا اليوم فهو تِرْسُ المؤمن[٣].

فعلى المؤمن أن يكون مُتوازِنًا بين مُتطلَّبات الدنيا ورغباته فيها وبين الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[٤].

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٦١).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٣٤). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠ هـ)، الناشر: السعادة- بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٨١).

(٤) القصص ٧٧.

١٢ صفر

أمسِكْ عليك هذا (التحذير من زلَّات اللسان)

أمرنا الله سبحانه وتعالى بالصمت إلَّا إذا كان الكلام خيرًا؛ فقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١]، وقال معاذ بن جبل- رضي الله عنه- للنبي ﷺ:"يا رسولَ اللَّهِ؛ أخبِرْني بعمَلٍ يُدخلُني الجنَّةَ، ويُباعدُني منَ النَّارِ. فقال ﷺ في آخر الحديث:" أمسِكْ عليك هذا، وأشار إلى لسانه فأعاد عليه. فقال: ثكلتْكَ أُمُّكَ، هل يكُبُّ النَّاسَ على مناخرهم في النَّار إلَّا حصائدُ ألسنتهم؟" رواه ابن ماجه والترمذي[٢].

ومعصية اللِّسان يدخل فيها الشِّرْك وهو أعظم الذُّنوب عند الله. ويدخل فيها القول على الله بلا علمٍ وهو قرين الشِّرْك. ويدخل فيها شهادة الزور التي عدلت الإشراك بالله. ويدخل فيها السِّحر والقذف. ويدخل فيها الكذب والغيبة والنميمة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال:" إنَّ الرجلَ ليتكلَّم بالكلمة ما يتبيَّن فيها، يزل بها في النَّار أبعدَ ممَّا بين المشرق والمغرب"[٣] وفي رواية أخرى له:" إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا في النَّار" رواه الترمذي وابن ماجه[٤].

---

(١) النساء ١١٤.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣١٤) برقم (٣٩٧٣) كتاب الفتن. باب كفِّ اللِّسان في الفتنة. الترمذي في جامعه (٥/ ١٢) برقم (٢٦١٦) أبواب الإيمان. باب ما جاء في حُرمة الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة (٨/ ٤٧٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠١) برقم (٤٦٧٧) كتاب الرقاق. باب حفْظ اللِّسان وليس فيه (المغرب) وقد ذكر المحقِّق أنَّه هكذا في جميع نسخ البخاري (أبعد ممَّا بين المشرق). ورواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٠) برقم (٢٩٨٨) كتاب الزهد والرقائق. باب التكلُّم بالكلمة يهوي بها في النَّار.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٥٧) برقم (٢٣١٤) أبواب الزهد. باب فيمن تكلَّم بكلمة يُضحِكُ بها الناس. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣١٣) برقم (٣٩٧٠) كتاب الفتن. باب كفِّ اللِّسان في الفتنة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٣١٤).



لذا كان خوف السلف الصالح من آفات اللِّسان عظيمًا، فقد كان أبو بكر- رضي الله عنه- يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد(١)، وكان ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- يأخذ بلسانه وهو يقول: ويحك، قلْ خيرًا تغنمْ، أو اسكتْ عن سوءٍ تسلمْ، وإلَّا فاعلم أنَّك ستندم. فقيل له: يا ابن عبَّاس؛ لِمَ تقول هذا؟ قال: إنَّه بلغني أنَّ الإنسان ليس على شيءٍ من جسده أشدُّ حنقًا أو غيظًا منه على لسانه، إلَّا من قال به خيرًا، أو أملى به خيرًا، وكان ابن مسعود- رضي الله عنه- يحلف بالله الذي لا إله إلَّا هو ما على الأرض شيءٌ أحوج إلى طول سجنٍ من لسانٍ، وقال الحسن: اللِّسان أمير البدن، فإذا جنى على الأعضاء شيئًا جنتْ، وإذا عفَّ عفَّتْ(٢).

والإكثار من الكلام الذي لا حاجة إليه يُوجِب قساوة القلب. كما روى الترمذي من حديث ابن عمر مرفوعًا:" لا تُكثِروا الكلام بغير ذِكْر الله، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكْر الله قسوةٌ للقلب، وإنَّ أبعدَ النَّاس عن الله القلب القاسي"(٣).

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٨٨) برقم (١٢) باب ما جاء فيما يخاف من اللِّسان. والنسائي في السُّنن الكبرى (١٠/ ٤٠٢) برقم (١١/٨٤١) كتاب المواعظ. وصحَّحه الألباني كما في مشكاة المصابيح (٣/ ١٣٦٥). موطأ الإمام مالك، المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، صحَّحه ورقَّمه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، عام النشر: ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م. السُّنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حقَّقه وخرجَّ أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م. مشكاة المصابيح، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقِّق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٤٨).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٧) برقم (٢٤١١) أبواب الزهد. باب منه. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٤١١).

وقال عمر- رضي الله عنه-: مَن كثُر كلامُه كثُر سقطُه، ومَن كثُر سقطُه كثُرت ذُنوبُه، ومَن كثُرتْ ذُنوبُه كانت النَّار أولى به[1].

وقال محمد بن عجلان: إنَّما الكلام أربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتسأل عن علمٍ فتخبر به، أو تتكلَّم فيما يعنيك من أمر دنياك[2].

فليس الكلام مأمورًا به على الإطلاق، ولا السكوت مأمورًا به على الإطلاق. بل لا بُدَّ من الكلام في الخير العاجل والآجل، والسكوت عن الشرِّ الآجل والعاجل. واللِّسان ترجمان القلب والمعبِّر عنه. وقد أمرنا باستقامة القلب واللِّسان. قال رسول الله ﷺ:" إذا أصبح ابن آدم فإنَّ الأعضاء كلَّها تُكفِّر اللِّسان، فتقول: اتقِ الله فينا، فإنَّما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا" رواه الترمذي[3].

وآفات اللِّسان كثيرة ومتنوِّعة: فالآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني، وفي الحديث:" مِن حُسنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه" رواه الترمذي[4].

---

(١) رواه مرفوعًا الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٣٣٤) برقم (٦٥٥٧)؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٧٤)، ورواه القضاعي مرفوعًا وموقوفًا على عمر في مسند الشهاب (١/ ٢٣٧)، والبيهقي موقوفًا في شُعب الإيمان (٧/ ٥٩) برقم (٤٦٤٠). المعجم الأوسط، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠ هـ)، المحقِّق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين- القاهرة. مسند الشهاب، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤ هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م. شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م. وقد ضعَّف الألباني الحديث المرفوع كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (١٠/ ١٦٧).

(٢) يُنظَر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٤٠).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٦) برقم (٢٤٠٧) أبواب الزهد. باب ما جاء في حفْظ اللِّسان. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٤٠٧).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٥٨) برقم (٢٣١٧) أبواب الزهد. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٣١٧).

الآفة الثانية: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، والتحدُّث عنها بما يُروِّجها بين الناس، ويشيع الفاحشة بينهم. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وقال النبي ﷺ:" لا تُؤذوا عباد الله ولا تُعيِّروهم ولا تطلبوا عوراتِهم، فإنَّه مَن طلبَ عورة أخيه المسلم؛ طلب الله عورته حتَّى يفضحَه في بيته" رواه أحمد[٢].

الآفة الثالثة: التكلُّم بالفحش والسَّبِّ والبذاءة والشتم، فإنَّ بعض الناس يعتاد النطق بلعن الأشخاص والأماكن والدوابِّ، فيكون النطق باللعنة أسهل الألفاظ عليه. وربما يواجه بها صديقه وصاحبه العزيز عليه.

وقد قال النبي ﷺ:" لعْنُ المؤمنِ كقتلِه" رواه البخاري ومسلم[٣]، وقال أيضًا:" ليس المؤمنُ بالطَّعَّانِ واللَّعَّان ولا الفاحش ولا البذيء" رواه الترمذي[٤].

وقد لعنتْ امرأةٌ ناقةً لها فأمر النبي ﷺ بأخْذ ما عليها وترْكها، وقال:" لا تصحبْنا ناقةٌ ملعونةٌ" رواه مسلم[٥].

الآفة الرابعة: كثرة المزاح، فإنَّ الإفراط في المزاح والمداومة عليه منهيٌّ عنهما، لأنَّه يُسقِط الوقار. ويُوجِب الضغائن والأحقاد، أمَّا المزاح اليسير النزيه فإنَّه لا بأس به؛ لأنَّ فيه انبساطًا وطيبَ نفسٍ"، وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلَّا حقًّا"[٦].

---

(١) النور ١٩.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٨٨/٣٧) برقم (٢٢٤٠٢). وصحَّحه لغيره مُحقِّقو المسند.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٦) برقم (٦١٠٥) كتاب الأدب. باب مَن كفَّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال. ومسلم في صحيحه (١/ ١٠٤) برقم (١١٠) كتاب الإيمان. باب غلظ تحريم قتْل الإنسان نفسه، وأنَّ مَن قتلَ نفسه بشيءٍ عُذِّبَ به في النَّار، وأنَّه لا يدخل الجنَّة إلَّا نفْسٌ مُسلِمةٌ.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٠) برقم (١٩٧٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في اللعنة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٤/ ٤٧٧).

(٥) رواه صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠٤) برقم (٢٥٩٥) كتاب البر والصلة والآداب. باب النهي عن لعْنِ الدوابِّ وغيرها ولفظه:" بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرتْ فلعنتْها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها ودعوها، فإنَّها ملعونةٌ» قال عمران: فكأنِّي أراها الآن تمشي في الناس، ما يعرض لها أحدٌ".

(٦) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٢٢٤)، ولفظه:" جاءت أُمُّ أيمن إلى النبي ﷺ فقالت: احملْني، قال:« أحمِلُكِ على ولد الناقة» فقالت: يا رسول الله؛ إنَّه لا يُطيقُني ولا أريده، فقال:« لا أحمِلُكِ إلَّا على ولد الناقة» يعني أنَّه كان يُمازحها،

الآفة الخامسة: الاستهزاء والسُّخرية بالنَّاس وتتبُّع عثراتهم والبحث عن عوراتهم والتندُّر بذلك وانتقاصهم والضحك منهم. قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[(١)]. يعني الذي يزدري الناس وينتقصهم، وقيل: الهمز بالقول واللمز بالفعل، توعَّده الله بالويل وهو كلمةُ عذابٍ، أو وادٍ في جهنَّم، نعوذ بالله من ذلك.

الآفة السادسة والسابعة من آفات اللِّسان: الغيبة والنميمة، وهما من كبائر الذُّنوب. والغيبة: ذِكْرُك أخاك حال غيبته بما يَكرَه. والنميمة: نقْلُ الحديث بين النَّاس على وجْه الإفساد، وقد شبَّه الله المغتاب بآكِل الميتة، فقال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

وأخبر النبي ﷺ" أنَّ النمَّام يُعذَّب في قبره" رواه البخاري ومسلم[(٣)]. وأخبر أنَّه:" لا يدخل الجنَّةَ نمَّامٌ" رواه البخاري ومسلم[(٤)].

والنَّمَّام يُفسِد بين الناس، ويزرع في القلوب الأحقاد والأضغان، ويهدم البيوت ويخرب الأوطان. وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾[(٥)].

وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلَّا حقًّا، والإبل كلُّها ولد النوق". الطبقات الكبرى، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، المحقِّق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.

(١) الهمزة ١.

(٢) الحجرات ١٢.

(٣) كما في حديث ابن عبَّاس، قال: مرَّ النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة، أو مكَّة، فسمع صوت إنسانَين يُعذَّبانِ في قبورهما، فقال النبي ﷺ:« يُعذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ» ثم قال: «بلى، كان أحدُهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة». رواه البخاري في صحيحه (١/ ٥٣) برقم (٢١٦) كتاب الوضوء. باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله. ومسلم في صحيحه (١/ ٢٤٠) برقم (٢٩٢) كتاب الطهارة. باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٧) برقم (٦٠٥٦) كتاب الأدب. باب ما يُكرَه من النميمة. ومسلم في صحيحه (١/ ١٠١) برقم (١٠٥) كتاب الإيمان. باب بيان غلظ تحريم النميمة. وهو عند البخاري بلفظ:" لا يدخل الجنَّة قتَّات" أي نمَّام.

(٥) القلم ١٠-١٢.



والخلاصة : قول الإمام النووي:" واعلمْ أنَّه ينبغي لكلِّ مُكلَّفٍ أنْ يحفظَ لسانَه عن جميعِ الكلام إلَّا كلامًا فيه المصلحة، ومتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحة؛ فالسُّنَّةُ الإمساكُ عنه؛ لأنَّه قد يَنجَرُّ الكلامُ المباحُ إلى حرامٍ ومكروهٍ، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامةُ لا يَعدِلُها شيءٌ" [1].

وعن ابن مسعود وسلمان الفارسي- رضي الله عنهما- قالا: أكثر النَّاس وقوفًا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل[2].

وصدق القائل:

إنَّ السكوتَ سلامةٌ ولربما ... زرعَ الكلامُ عداوةً وضِرارًا
فإنْ ندمتَ على سُكوتِكَ مرَّةً ... فلتندمَنَّ على الكلامِ مِرارًا[3]

(١) رياض الصالحين ط الرسالة (ص ٤٢٧). رياض الصالحين، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٢) ذكره ابن عبد البر عنهما كما في بهجة المجالس وأنس المجالس (ص ١١، بترقيم الشاملة آليًّا). بهجة المجالس وأنس المجالس، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ).

(٣) تُنسَبُ هذه الأبيات لأبي العتاهية. يُنظَر: شُعب الإيمان (٧/ ٩١). وهي أربعة أبياتٍ قال فيها:

إن كان يُعجبُك السُّكوتُ فإنَّه ... قد كان يُعجبُ قبلك الأخيارا
ولئن ندمتَ على سكوتك مرَّة ... فلقد ندمتَ على الكلام مرارا
إنَّ السكوت سلامةٌ ولرُبَّما ... زرع الكلامُ عداوة وضرارا
وإذا تقرَّب خاسرٌ من خاسرٍ ... زادا بذاك خسارة وتبارا

شُعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي– الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

١٣صفر

وكونوا عباد الله إخوانًا (الأُخوَّة في الله)

الأُخوَّة في الله هي منحةٌ قُدسيَّةٌ، ونعمةٌ إلهيَّةٌ يقذفها الله عزَّ وجلَّ في قلوب المخلصين من عباده، والأصفياء من أوليائه، والأتقياء من خلْقه، فالله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١)، وقال أيضًا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" لا تحاسَدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبِعْ بعضُكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلِمه، ولا يخذُله، ولا يكذِبه، ولا يحقِره، التقوى ها هنا- ويُشير إلى صدره ثلاث مرَّاتٍ-، بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ؛ دمُه ومالُه وعِرْضُه" رواه مسلم(٣).

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله- في قوله ﷺ:" وَكونوا عِبَادَ اللهِ إِخوَانًا": ذلك أن يبتعد عن كلِّ تفكيرٍ في مساوئ إخوانه، وأن يكون دائمًا يتذكَّر محاسن إخوانه، حتَّى يألفهم ويزول ما في قلبه من الحقد(٤).

وقد نَهى النَّبيُّ ﷺ عن بعضِ ما يُسبِّبُ العَداوةَ والقطِيعةَ بيْن المسلمينَ؛ لِمَا في تباغُضِهم مِن التَّفرُّقِ، ونَهاهم عن التَّحاسُدِ، وهو تَمنِّي زَوالِ النِّعمِ عنِ الآخَرين، ونَهاهم عن التَّدابُرِ، وهو أنْ يُوَلِّي المسلِمُ أخاهُ المسلمَ ظَهْرَه ودُبُرَه؛ إمَّا حِسيًّا فلا يُجالِسُه ولا يَنظُرُ إليه، وإمَّا مَعنويًّا فلا يُظهِرُ الاهتمامَ به، والمقصودُ: نَهيُهم عن التَّقاطُعِ والتَّهاجُرِ، ثُمَّ بيَّن لهمُ المنزلةَ الَّتِي يَنبغي أنْ يَكونوا عليها، وهي الأُخُوَّةُ، كَأُخُوَّةِ النَّسَبِ في الشَّفَقةِ والرَّحمةِ، والمحبَّةِ والمواساةِ، والمعاوَنةِ والنَّصيحةِ، فأمرهم أن يَأخُذوا بِأسْبابِ كلِّ ما يُوصِّلُهم لِمثْلِ الأُخُوَّةِ الحقيقيَّةِ مع صَفاءِ القلْبِ، والنَّصيحةِ بِكلِّ حالٍ.

---

(١) الأنفال ٦٣.

(٢) آل عمران ١٠٣.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٦) برقم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم ظُلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعِرضه وماله.

(٤) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص ٣٤٨). شرح الأربعين النووية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر.

ونَهاهم عن هَجْرِ المسلِمِ وتركِه؛ زيارةً أو كلامًا، ونحو ذلك مِن أشكالِ الهِجْرانِ، فوقَ ثلاثةِ أيَّام إنْ كان الخلافُ على أمْرِ الدُّنيا.

قال ابن السماك عند موته: اللَّهُمَّ إنَّك تعلم أنِّي إذا كنتُ أعصيك كنتُ أُحِبُّ مَن يُطيعك، فاجعلْ ذلك قُربة لي إليك[(١)].

وقال عبد الله بن سهل: سمعتُ يحيى بن معاذ يقول: ليكُن حظُّ المؤمن منك ثلاثًا: إن لم تنفعْه فلا تضرَّه، وإن لم تفرحه فلا تغمَّه، وإن لم تمدحه فلا تذمَّه[(٢)].

فإذا رُزِق المرء بصاحبٍ صادقٍ فتلك نعمةٌ عُظمى من المولى عزَّ وجلَّ، وسعادة كبرى يغبطهم على ذلك الأنبياء والرسل يوم القيامة. قال الشاعر:

تمسَّكْ إن ظفرتَ بذيلِ حُرٍّ   فإنَّ الحُرَّ فى الدُّنيا قليلُ[(٣)]

لأنَّ كثيرًا من الناس اليوم أصبحتْ علاقاتهم نفعيَّة، وتآخيهم صِلات دُنيويَّة فحسب، ناسين أو مُتناسين أنَّ أعظم أركان التآخي والخلَّة ما كانت لله وبالله.

أمَّا الصداقات النفعيَّة والمصلحيَّة فهي في الدرجة الدنيا، ولا يُطلَق عليها اسم الصداقة إلَّا تجنِّيًا، وإنَّما هي علاقات نفعيَّة، ولا مجال للحديث عنها هنا، ولا وجه للمقارنة بين الأُخوَّة في الله وبين صداقة المصلحة. قال الشاعر:

وكُلُّ صديقٍ ليسَ في اللهِ وُدُّهُ   فإنِّي به فى وُدِّه غيرُ واثقِ[(٤)]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (ص ٢٣٢) مع اختلافٍ يسيرٍ، والغزالي في إحياء علوم الدين (٢/ ١٦٠). المحتضرين، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقِّق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم- بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م. إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة- بيروت.

(٢) يُنظَر: صفة الصفوة (٢/ ٢٩٢). صفة الصفوة، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقِّق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٣) البيت لأبي إسحاق الشيرازي كما في ترجمته في وفيات الأعيان (١/ ٢٩). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقِّق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر– بيروت، الطبعة: الجزء: ١- ١٩٠٠م.

(٤) ذَكَرَه المروذيُّ في أخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص ١٩٧). أخبار الشيوخ وأخلاقهم، المؤلف: أحمد بن محمد بن الحجاج أبو بكر المرُّوْذِيُّ (المتوفى: ٢٧٥هـ)، حقَّقه وقدَّم له وخرَّج نصوصه: عامر حسن صبري، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

فصديق المصلحة تزول صداقته مع زوالها، وكم بليَّةٍ وقعتْ بالاستهانة بخلطاء السوء وجلساء الباطل، فكانت مُجالستُهم مرضًا فتَّاكًا، حتَّى أوقعتْ بعضهم في الجحيم باعتناق عقائد زائغة، أو سلوكٍ هابطٍ مشينٍ.

وهاكَ بعض حقوق الأُخوَّة في الله:

١- الحُبُّ في الله والبُغض في الله: فالمحبَّة في الله أمرها عظيم، ولن تستكمل إيمانك إلَّا بها، فعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ" رواه أبو داود(١).

٢- التناصُح: يقول سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾(٢)، أولياء بعض وليسوا أعداءً، نتناصح وندُلُّ على الخير وننهى عن الشَّرِّ، لكن لا يكون هناك غِلٌّ ولا حقدٌ ولا حسدٌ، بل إخوةٌ أحبابٌ في الله.

٣- حِفْظُ اللِّسان عن إخوانك: وهذه هي الطامَّة الكُبرى التي كثيرًا ما أوقعت القتلى، وسبَّبتْ سفك الدماء، وهدَّمت الأسر، وغاب عنَّا قولُ الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾(٣).

٤- صفاء القلب لإخوانك المسلمين: فيجبُ أن نُصفِّي قلوبنا من الغلِّ والحقد والحسد، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" تُفتَحُ أبوابُ الجنَّةِ يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفَرُ لكلِّ عبدٍ لا يُشرِك بالله شيئًا، إلَّا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيُقال: أنظِروا هذَينِ حتَّى يصطلحا" رواه مسلم(٤).

٥- الزيارة في الله: فَعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:" أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا؛ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ؛ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ" رواه مسلم(٥).

٦- المعونة وقضاء الحوائج: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" وَاللَّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ"رواه مسلم(٦).

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٤/ ٢٢٠) برقم (٤٦٨١) كتاب السُّنَّة. باب الدليل على زيادة الإيمان ونُقصانه. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ١٨١). صحيح وضعيف سُنن أبي داود، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة بالإسكندرية.

(٢) التوبة ٧١.

(٣) ق ١٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٧) برقم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة والآداب. باب النهْي عن الشحناء والتهاجُر.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٨) برقم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة والآداب. باب في فضْل الحُبِّ في الله.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤) برقم (٢٦٩٩) كتاب الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل الاجتماع على تلاوة القرآن.

٧- سَتْر معايبه، وحِفْظ سِرِّه، والقيام له بحقِّ النَّصيحة بأدبٍ وستْرٍ، والدفاع عن عِرْضه، والتجاوز عن زلَّاته، وحُسْن الخُلُق معه، وغير ذلك.

والخلاصة: أنَّ الأُخوَّة في الله من أشرف الأعمال والقُرُبات، ويكفي أنَّ المتحابِّين في الله" مِنَ السبعة الذين يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يوم القيامة يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه" رواه البخاري ومسلم[١]، وأنَّها ليست كلامًا ولا شعارات، وإنَّما هي أخلاق وأفعال وسلوكيَّات وحقوق وواجبات.

استكثِرَنَّ مِنَ الإخوانِ إنَّهُمُ خيرٌ لكانزِهِمْ كنزًا مِنَ الذَّهَبِ
كَمْ مِنْ أخٍ لكَ لوْ نابتْكَ نَائِبةٌ وجدتَهُ لكَ خيرًا مِنْ أخِ النَّسَبِ[٢]

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم (٦٦٠) كتاب الأذان. باب مَن جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضْل المساجد. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة. باب فضْل إخفاء الصدقة.

(٢) لم أقف على قائلها.

١٤ صفر

وَخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ

من وصايا النبي الكريم ﷺ للصحابيَين الجليلَينِ أبي ذر الغفاري ومعاذ بن جبل- رضي الله عنهما- أنَّه قال:" اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" رواه الترمذي[١].

والحُسْنُ في اللغة: هو ما كان ضدَّ القُبح، فهي صفةٌ لما حَسُنَ، فيُقال: امرأةٌ حسناء، ورجلٌ حَسَنٌ، فالحُسْنُ هو الجمال، وأمر الله- سبحانه- عباده بالقول الحَسَن فقال في سورة البقرة: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٢]، وبالمجمل فإنَّ أغلب أقوال العلماء في وصف وتعريف حُسْنِ الخُلُق يدور حول العطاء، والاحتمال، والعفو، وكظْم الغيظ، وبسْط الوجه، والصلة، واللُّطف، والمبرَّة، وحُسن الصُّحبة والعِشْرة، والطاعة.

قال الشيخ السعدي- رحمه الله-:" هو خُلُقٌ فاضلٌ عظيمٌ، أساسه الصبر، والحِلْم، والرغبة في مكارم الأخلاق، وآثاره العفو، والصفح عن المسيئين، وإيصال المنافع إلى الخلْق أجمعين"، وجَمَعَ الله- سبحانه- ذلك في آيةٍ واحدةٍ، فقال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣][٤].

وحُسْنُ الخُلُقِ يشمل جوانب كثيرة من حياة المسلم في أقواله وأعماله، وفي عبادته لربِّه وتعامله مع عباده. قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٧].

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٦) برقم (١٩٨٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في مُعاشَرة النِّساء. وقال عقبه:" هذا حديث حسن صحيح". والحديث صحَّحه الألباني بمجموع طرقه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٣٦٢).

(٢) البقرة ٨٣.

(٣) الأعراف ١٩٩.

(٤) لم أقف عليه في كتب الشيخ السعدي، لكن نقله عنه الحمد في كتابه سُوء الخُلُق (ص ٨٠). سُوء الخُلُق، المؤلف: محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، الناشر: درا بن خزيمة، الطبعة: طبعة ثانية مُنقَّحة ومزيدة.

(٥) الإسراء ٥٣.

(٦) البقرة ٨٣.

(٧) فصلت ٣٤.

وعن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال: قال ﷺ:" مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ" رواه الترمذي(١).

قال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-:" أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحِلْم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله وأخضع لهم عدوهم"(٢).

قال ابن القيّم- رحمه الله- في كتابه الفوائد:" جَمَعَ النبي ﷺ بين تقوى الله وحُسْن الخُلُق، لأنَّ تقوى الله تُصلِح ما بين العبد وبين ربِّه، وحُسْن الخُلُق يُصلِح ما بينه وبين خلْقه، فتقوى الله تُوجِب له محبَّة الله، وحُسْنُ الخُلُق يدعو الناس إلى محبَّته"(٣). ولا يكتمل إيمانُ عبدٍ ما لم يُوفَّق للخُلُق الحَسَن، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ:" أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ" رواه الترمذي(٤).

وحريٌّ بمَن تمسَّك بحُسْنِ الخُلُقِ أن يصل إلى مراتب العاملين العابدين، فعن عائشة- رضي الله عنهما- أنَّ النبي ﷺ قال:" إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ" رواه أبو داود(٥).

وسُئِلَ بعضُ العلماء عن علامات حُسْنِ الخُلُقِ فقال: هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللِّسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، بَرًّا وصولًا وقورًا، صبورًا شكورًا، رضيًّا حكيمًا، رفيقًا عفيفًا شفيقًا، لا لعَّانًا ولا سبَّابًا، ولا نمَّامًا ولا مُغتابًا، ولا عجولًا ولا حقودًا، ولا بخيلًا ولا حسودًا، بشَّاشًا هشَّاشًا، يُحِبُّ في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله، فهذا هو حُسْنُ الخُلُقِ(٦).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٢) برقم (٢٠٠٢) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في حُسْنِ الخُلُقِ. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٢).

(٢) رواه الطبري كما في تفسيره جامع البيان (٢١/ ٤٧١). جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقِّق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

(٣) الفوائد لابن القيِّم (ص ٥٤).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٤٥٨) برقم (١١٦٢) أبواب الرضاع. باب ما جاء في حقِّ المرأة على زوجها. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٣/ ١٦٢).

(٥) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢٥٢) برقم (٤٧٩٨) كتاب الأدب. باب في حُسْن الخُلُق. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ٢٩٨).

(٦) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٧٠).



وقيل لعبد الله بن المبارك: أجمِلْ لنا حُسْنَ الخُلُق في كلمة. فقال: اتركِ الغضبَ[١]. فلا تصحبْ مَن سَاء خُلُقُه، وهو الذي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة.

وبعضُ النَّاس يتصوَّر أنَّ حُسْنَ الخُلُقِ محصورٌ في الكلمة الطَّيِّبة والمعاملة الحسنة فقط، والحقيقة أنَّ حُسْنَ الخُلُق أوسع من ذلك فهو يعني- إضافةً إلى ذلك- التواضُع وعدم التكبُّر ولين الجانب، ورحمة الصغير واحترام الكبير، ودوام البِشْر وحُسْن المصاحبة، وسهولة الكلمة وإصلاح ذات البين، والتواضُع والصبر والحِلْم والصدْق، وغير ذلك من الأخلاق الحسنة التي حثَّ عليها الإسلام ورغَّب فيها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- وهو يتكلَّم عن منهج السلف في الأخلاق والسلوك:" يأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمُرِّ القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال"[٢].

ولاكتساب الأخلاق الحسنة أسبابٌ، إذا أخَذَ العبد بها استقامتْ سيرتُه بإذن الله:

١- قوَّة الإيمان وسلامة العقيدة: فالسلوك ثمرة لما يحمله الإنسان من عقيدة، والانحراف في السلوك إنَّما هو ناتجٌ عن خللٍ في المعتقَد، ثم إنَّ العقيدة هي الإيمان و:" أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا" رواه الترمذي[٣].

٢- الدُّعاء: فمَن رغبَ بالتحلِّي بمكارم الأخلاق، ورغبَ بالتخلِّي عن مساوئها؛ فلْيلجأْ إلى ربِّه، ولْيرفعْ إليه أكُفَّ الضراعة لِيرزقَه حُسْنَ الخُلُق ويصرف عنه سيِّئه.

٣- المجاهدة: والخُلُق نوعٌ من الهداية، يحصل عليه المرء بالمجاهدة الدائمة المستمرَّة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٤].

٤- أن يضع المرء نفسه موضع الآخرين؛ فلا يؤتِ النَّاس إلَّا ما يُحِبُّ أن يؤتوه إيَّاه. وهي قاعدة عظيمة في التمييز بين الأخلاق الحسنة والسَّيِّئة، أرشد إليها النبي ﷺ بقوله:" لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسِه" رواه البخاري[٥].

٥- مصاحبة الأخيار وأهل الأخلاق الفاضلة.

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٨).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٤٥٨) برقم (١١٦٢) أبواب الرضاع. باب ما جاء في حقِّ المرأة على زوجها. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٣/ ١٦٢).

(٤) العنكبوت ٦٩.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم (١٣) كتاب الإيمان. باب مِن الإيمان أن يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه.

وإنَّ لحُسْنِ الخُلُق الكثيرَ من الفضائل؛ فقد سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أكثر شيءٍ يُدخِلُ النَّاس الجنَّة، فقال:" تَقْوَى اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ" رواه الترمذي(١).

وعن ابن عبَّاس- رضي الله عنه- أنَّه قال:" لَحُسْنُ الخُلُقِ مِن الدِّين، وَإِنَّ حَسَنَ الخُلُق إذا أدخلهُ الله تعالى الجنَّة جعله في غُرَفِ النَّبِيِّين والصِّدِّيقين" (٢).

وحُسْنُ الخُلُقِ مِن أفضلِ ما يُقرِّب العبد من الله تعالى، قال رسول الله ﷺ:" أَحَبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ أحسَنُهُمْ خُلُقًا" أخرجه الحاكم والطبراني(٣).

كما أنَّ حُسْنَ الخُلُقِ سببٌ في رفْع الدرجات في الجنَّة، وسببٌ في حُبِّ رسول الله ﷺ والقُرب منه يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ:" إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ، وأقربِكُم مِنِّي مجلسًا يومَ القيامةِ؛ أحاسنَكُم أخلاقًا" رواه الترمذي(٤).

وحُسْنُ الخُلُقِ يُحوِّلُ العدوَّ إلى صديقٍ، ويُصلِحُ ما بين الإنسان وبين النَّاس، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٥).

والخلاصة: أنَّ العقيدة الصحيحة تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق من صِدْقٍ وحِلْمٍ، وكرمٍ وشجاعةٍ، ونحو ذلك، كما أنَّها تردَعُه عن مساوئ الأخلاق من كذبٍ وشُحٍّ وطيشٍ، ونحوها.

ويُعجبُني جدًّا قولُ شاعر النيل حافظ إبراهيم:

إِنِّي لَتُطرِبُنـــي الخِـــلَالُ كَرِيمَـــةً ... طَـرَبَ الغَرِيـبِ بِأَوبَــةٍ وَتَــلَاقِ

فَــإِذا رُزِقْــتَ خَليقَــةً مَحمــودَةً ... فَقَـدِ اصْـطَفاكَ مُقَسِّـمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَــذا حَظُّهُ مــــالٌ وَذَا ... عِلْــمٌ وَذاكَ مَكارِمُ الأَخْــلَاقِ(٦)

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٣) برقم (٢٠٠٤) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في حُسْنِ الخُلُقِ. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٤).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٢/ ١٤٠) برقم (٢٧١٠). الفردوس بمأثور الخطاب، المؤلف: شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو، أبو شجاع الديلميُّ الهمذاني (المتوفى: ٥٠٩ هـ)، المحقِّق: السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٦٨) برقم (٦٣٨٠)، من حديث أسامة بن شريك:" كُنَّا جُلُوسًا عند النبي ﷺ كأنَّما على رؤوسنا الطير ما يتكلَّم منَّا مُتكلِّمٌ، إذ جاءه أُناسٌ فقالوا: مَن أحبُّ عباد الله إلى الله؟ قال: أحسنُهم خُلُقًا". وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (ط مقبل) (٤/ ٥٥٧). والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٧٩٤).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٧٠) برقم (٢٠١٨) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في معالي الأخلاق. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ١٨).

(٥) فصلت ٣٤.

(٦) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٣/ ٢٥٨، بترقيم الشاملة آليًّا).

١٥ صفر

الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ

يقول رَسُولُ اللهِ ﷺ:" الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كذا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ" رواه مسلم(١).

هذا الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها الرسول ﷺ، وهو نصيحة غالية ودعوة صريحة للأُمَّة، أفرادًا وجماعات أن يتملَّكوا أسباب القوَّة التي يُحِبُّها الله ورسوله، القوَّة في كلِّ شيءٍ مادِّيَّة ومعنويَّة، وفي جميع معانيها المحبوبة لكلِّ إنسانٍ، والله سبحانه وتعالى لا يُحِبُّ للمؤمنين أن يكونوا في الجانب الضعيف، ولا أن يكونوا من المتقاعسين الذين يضعفون عن مجابهة التحدِّيات أو يجبنون عن مقاومة الأعداء.

قال الإمام النووي- رحمه الله-: تُطلَقُ القوَّة على القوَّة في الدين والتقوى والعبادة وما إلى ذلك من المعاني التي تعود إلى دين الإنسان وسلامة اعتقاده وما أشبه ذلك(٢).

أمَّا المؤمن الضعيف فهو الذي عنده فتور، وهو الذي عنده تقصير، فالمؤمن القوي بهذا الاعتبار خير، وهذه قضية محسومة لا إشكال فيها، أنَّ الإنسان القوي في دينه، التقيَّ لله أفضل من الإنسان المقصِّر، وفي كلٍّ خيرٌ؛ لأنَّ المسلم لا يخلو من معروف وطاعة وصلاح، وإن حصل منه بعض التقصير والتواني.

وذَكَرَ بعضُ أهل العلم أنَّ المؤمن قويٌّ في بدنه وفي عمله، حتَّى في عمله الدنيوي إذا عمل عملًا أتقنه، وفي صبره وجَلَده، وكذلك أيضًا في دينه، فهو خيرٌ من المؤمن الضعيف الذي يقِلُّ صبرُه، ويقِلُّ تحمُّلُه، وهو ضعيفٌ لا بلاء فيه ولا غِناء، ولا كبير جدوى في دفْعٍ أو بذْلٍ وما إلى ذلك، وفي كلٍّ خيرٌ؛ لأنَّ المؤمن وإن كان ضعيفًا في بدنه أو عاجزًا؛ فإنَّه لا يخلو من خيرٍ، وهذا أقرب.

لذا أثنى الله على الصحابة لاتِّصافهم بهذه القوَّة المحمودة؛ فقال سبحانه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾(٣)، وقد أمر بها الله عزَّ وجلَّ أنبياءه وعباده،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٢) برقم (٢٦٦٤) كتاب القَدَر. باب في الأمْر بالقوَّة وترْك العجز.

(٢) نقلًا عن موقع أ.د خالد بن عثمان السبت. https://khaledalsabt.com/explanations/1319..

(٣) الفتح ٢٩.

لأنَّه يُحِبُّها ويرضاها، فقال تعالى: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾[١]، قال ابن كثير- رحمه الله-: أي بجدٍّ وحرصٍ واجتهادٍ، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[٢]، وقال أيضًا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾[٣].

وقال أيضًا: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾﴾[٤].

فالجلَد على الطاعة، والصبر على ذلك كلِّه من القوَّة التي يُحِبُّها ربُّنا، وأمَّا القعود والكسل والخور فهو سفول وانحطاط في مرتبة العبد، ولهذا قال النبي ﷺ:" الناس معادن كمعادِنِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا" رواه البخاري ومسلم[٥].

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: يقول ﷺ: احرصْ على ما ينفعُك؛ هذه وصيةٌ من الرسول ﷺ لأُمَّته، وهي وصية جامعة مانعة يعني اجتهد في تحصيله ومباشرته، وضد الذي ينفع الذي فيه ضرر، وما لا نفع فيه ولا ضرر، وذلك لأنَّ الأفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم ينفع الإنسان، وقسم يضرُّه، وقسم لا ينفعُ ولا يضرُّ، فالإنسان العاقل الذي يقبل وصية النبي ﷺ هو الذي يحرص على ما ينفعه، وما أكثر الذين يُضيِّعون أوقاتهم اليوم في غير فائدة، بل في مضرَّة على أنفسهم وعلى دينهم[٦].

---

(١) مريم ١٢.

(٢) الأعراف ١٤٥.

(٣) الأنفال ٦٠.

(٤) الكهف ٩٤ – ٩٥.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٤٩) برقم (٣٣٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء. باب قول الله تعالى: {لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين} يوسف: ٧. وقد رواه في عددٍ من المواضع؛ كلُّها ليس فيها:" كمعادن الذَّهب والفِضَّة". وكذا رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٥٨) برقم (٢٥٢٦) كتاب الفضائل. باب خيار النَّاس.

(٦) شرح رياض الصالحين (٢/ ٧٨).



ألا في سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلٌ عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
تُعَدُّ ذنوبي عندَ قومٍ كثيرةً ولا ذنبَ لي إلَّا العُلا والفضائلُ
وقد سارَ ذكري في البلادِ فمَن لهم بإخفاءِ شمسٍ ضوءُها مُتكاملُ[1]

فالإسلام يدعو إلى تحقيق القوَّة العقائديَّة والقوة العلميَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة والعسكريَّة والاقتصاديَّة وفي كلِّ المجالات، فالنبي ﷺ يدعو إلى العمل المنتِج والتفكير الصحيح، والوجهة التي ينبغي أن يتوجَّهها المؤمن في الحالات كلِّها هي: احرصْ على ما ينفعُك، وهذه لفظة عامَّة بأن يوجد عند الإنسان دافعٌ قويٌّ، وهذا هو الحرْص على ما ينفعه، وهذه الصيغة للعموم، ما ينفعه في أمْر آخرته، وما ينفعه في أمْر دنياه، أمَّا الدنيا فإنه يأخذ منها في حدود ما أباح الله من غير أن يشغله ذلك عن طاعته ومرضاته.

ولهذا قال النبي ﷺ: " أيُّها الناس؛ اتَّقوا الله، وأجمِلوا في الطلب، فإنَّ نفسًا لن تموت حتَّى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتَّقوا الله وأجمِلوا في الطلب" رواه ابن ماجه[2].

فمن أين تأتي القوَّة إذًا؟ تأتي من الإيمان العميق والتمسُّك بالإسلام، تأتي القوَّة من قول الحقِّ والجهر به والأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأتي من الأخلاق العالية؛ فالصبر قوَّة، والرحمة قوَّة لأنَّها لا تكون إلَّا من ذوي النفوس الكبيرة، والعدل قوَّة؛ لأنَّ العادل لا يخشى بأس المتكبِّرين، ولا يرجو نفعًا من المظلومين، والتواضع قوَّة، والحلم قوَّة، وكلُّ هذه القوى كانت مُتمثِّلةً في شخص الرسول ﷺ فهو أشجع الناس وأكرم الناس وأحلم الناس وأعدل الناس. كما تأتي القوَّة من البُعد عن سفاسف الأمور، والبُعد عن الحقد والصراع من أجل المناصب.

والخلاصة: أنَّ المؤمن مُطالَبٌ ببذْل كلِّ الأسباب لتحقيق القوَّة؛ ولأنَّ الأصل في المؤمن أن يكون عزيزًا لا يذلُّ نفسه لأحدٍ، وإنَّما يكون دائمًا عزيزًا بربِّه وبإيمانه وعقيدته، ويستسهل كلَّ صعبٍ من أجل تحقيق عزَّته ورفعة دينه.

فمَن تكُنِ العلياءُ هِمَّةَ نفسِهِ فكلُّ الذي يلقاهُ فيها مُحبَّبُ[3]

---

(١) يُنظَر: الحماسة المغربيَّة (١/ ٧٦٦). (الحماسة المغربيَّة) مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرَّاوي التادلي (المتوفى: ٦٠٩هـ)، المحقِّق: محمد رضوان الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩١م.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ٧٢٥) برقم (٢١٤٤) كتاب التجارات. باب الاقتصاد في طلب المعيشة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٥/ ١٤٤).

(٣) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٧/ ٣٣٩، بترقيم الشاملة آليًّا).



١٦ صفر

إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ

إنَّ هذا الجزء من الآية الكريمة يُعَدُّ قاعدة جليلة يُؤصِّل لها القرآن، وجاءت أدلَّة السُّنَّة بعد ذلك مُؤيِّدة ومُعضِّدة لهذه القاعدة، وقد جاءت ضمن قصَّة موسى- عليه السلام- مع صاحب مدين في سورة القصص، والذي كان عاجزًا عن طلب الماء فخرجت ابنتاه للسُّقيا، بيدَ أنَّهما تأخَّرتا انتظارًا لصدور النَّاس عن البئر، إلَّا أنَّ مروءة موسى- عليه السلام- وشهامته حملته على أن يُبادر- من غير أن ينتظر سؤالهما- بقضاء حاجتهما، والسَّقي لهما، فأعجبَ هذا الفعلُ الفتاتَين، فذكرتاه لوالدهما المقعَد عن العمل، فأرسل في طلبه، فلمَّا جاء وحدَّثه بخبره، قالتْ له إحداهما- وهي العالِمة بعجز والدها عن القيام بمهام الرجال-: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[(١)]، فقولها: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ تعليلٌ لطلبها، فالقوَّة في العمل، والأمانة في أدائه على الوجه المطلوب، وتنصيص هذه الفتاة على هاتَينِ الصفتَينِ دليلٌ على وفور عقلها ورجحان تفكيرها.

قال الشيخ السعدي في تفسير آية: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ أي: إنَّ موسى أولى مَن استُؤجِر، فإنَّه جمع القوَّة والأمانة، وخيرُ أجيرٍ استُؤجِر مَن جَمَعَهما، أي: القوَّة والقدرة على ما استُؤجِر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كلِّ مَن يتولَّى للإنسان عملًا بإجارة أو غيرها، فإنَّ الخلل لا يكون إلَّا بفقْدهما أو فقْد إحداهما، وأمَّا باجتماعهما فإنَّ العمل يتمُّ ويكمل، وإنَّما قالت ذلك لأنَّها شاهدتْ من قوَّة موسى عند السَّقي لهما ونشاطه؛ ما عرفتْ به قوَّته، وشاهدتْ مِن أمانته وديانته، وأنَّه رحمهما في حالة لا يُرجى نفعُهما، وإنَّما قصد به وجه الله تعالى[(٢)].

ومَن تأمَّل القرآن الكريم يجد تلازمًا ظاهرًا بين صفتَي (القوَّة والأمانة) في عدَّة مواضع، منها:

١- ما وصف الله به جبريل- عليه السلام- في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾[(٣)]، فقد وصفه الله سبحانه بعدَّة صفات، منها القوَّة والأمانة.

---

(١) القصص ٢٦.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٦١٤).

(٣) التكوير ١٩- ٢١.

٢- قول يوسف- عليه السلام- لملِكِ مصر: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(١)، أي: حفيظٌ للذي أتولَّاه، فلا يضيع منه شيءٌ في غير محلِّه، وضابطٌ للداخل والخارج، عليمٌ بكيفيَّة التدبير والإعطاء والمنْع، والتصرُّف في جميع أنواع التصرُّفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنَّما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحِفْظ ما لم يكونوا يعرفونه، وذلك لأنَّ الوضع الاقتصادي في مصر آنذاك يقتضي مبادرة في ضبْط إدارة أموالها، خصوصًا وقد كانت مُقبِلةً- بحسب الرؤيا- على سنين عجاف مُجدِبات، تحتاج إلى حِكمة وتعقُّل في التصرُّف.

٣- ما جاء في قصَّة سليمان- عليه السلام-، وهو يَعرض على مَن كان عنده أمْرَ إحضار عرْش بلقيس ملكة سبأ ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مُعلِّقًا على هذه المواضع الثلاثة: وينبغي أن يُعرَف الأصلحُ في كلِّ منصبٍ، فإنَّ الولاية لها ركنان: القوَّة والأمانة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾(٣)، والقوَّة في كلِّ ولايةٍ بحسبها، والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألَّا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وترْكِ خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي اتَّخذها الله على كلِّ مَن حَكم على النَّاس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(٤). واجتماع القوَّة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول:" اللَّهُمَّ أشكو إليك جَلَدَ الفاجرِ وعَجْزَ الثِّقة"، فالواجب في كلِّ ولايةٍ الأصلحُ بحسبها، فإذا تعيَّن رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوةً، قُدِّم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلُّهما ضررًا فيها(٥).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يُحدِّث القوم؛ جاءه أعرابيٌّ فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكَرِهَ ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتَّى إذا قضى حديثه قال: أين السائل عن الساعة؟ قال:

(١) يوسف ٥٥.
(٢) النمل ٣٩.
(٣) القصص ٢٦.
(٤) المائدة ٤٤.
(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٥٣) بتصرُّف.

ها أنا يا رسول الله، قال: إذا ضُيّعتِ الأمانةُ فانتظرِ الساعةَ، قال: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وسدَ الأمرُ إلى غير أهله؛ فانتظرِ الساعةَ[١].

وحقًّا صِرْنا في زمنٍ يتولَّى فيه الأمرَ غيرُ أهلِهِ من أصحاب الكفاءات، وصدق القائل:

خنافسُ الأرضِ تجـري في أعِنَّتِها *** وسابحُ الخيلِ مــربوطٌ إلى الوتدِ

وأكرمُ الأُسْدِ محبـوسٌ ومُضطَهدٌ *** وأحقرُ الدودِ يسعى غيرَ مُضطَهدِ

وأتفهُ الناسِ يقضـي في مصالحِهِمْ *** حُكمَ الرويبضةِ المذكـورِ في السَّنَدِ

فكمْ شجاعٍ أضـــاعَ الناسُ هيبتَهُ *** وكمْ جبانٍ مُـهـابٍ هيبـــةَ الأسَدِ

وكمْ فصيحٍ أمــاتَ الجهلُ حُجَّتَهُ *** وكمْ صفيقٍ لهُ الأسماعُ في رَغَدِ

وكمْ كريمٍ غدا في غير موضـــعهِ *** وكمْ وضيعٍ غدا في أرفعِ الجُـــدَدِ

دارَ الزمانُ على الإنسانِ وانقلبَتْ *** كلُّ الموازينِ واختلَّـتْ بمُستنَدِ[٢]

إنَّه لمن الظلم الشديد أن يلي الأمورَ مَن لا يُحسِنُها، ومن هو غيرُ أهلٍ لها، وقد كان العرب يضربون لذلك المثل فيقولون:" أعطِ القوسَ باريها"، وأنشدَ شاعرُهم يقول:

يا باريَ القوسِ بريًا ليسَ يُحسِنُهُ لا تَظلمِ القوسَ أعطِ القوسَ باريها[٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- في مجموع الفتاوى: أمَّا أداء الأمانات ففيه نوعان؛ أحدهما الولايات، وهو سبب نزول آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٤]، فإنَّ النبي ﷺ لما فتح مكَّة، وتسلَّم مفاتيح الكعبة من بني شيبة، طلبها منه العبَّاس، ليجمع له بين سقاية الحاجّ وسدانة البيت. فأنزل الله هذه الآية، فدفع مفاتيح الكعبة إلى بني شيبة، فيجب على وليّ الأمر أن يُولِّي على كلِّ عملٍ من أعمال المسلمين أصلحَ مَن يجدُه لذلك العمل[٥].

والخُلاصة: أنَّ الإسلام يضع كلَّ شخصٍ في مكان يناسبه، وينفع من خلاله النَّاس، ويُقدِّم أفضل ما لديه في ذلك المجال ويُبدِع، ولذلك وظَّف النبي ﷺ بلالًا في الأذان لنداوة صوته، ووظَّف مُعاذًا ليكون مُعلِّمًا، ووظَّف خالدًا ليكون قائدًا حربيًّا، وهكذا كان يضع كُلًّا في مكانه ومجاله، لذلك سادوا وفتحوا أمصار الدنيا وتحوَّلوا من رعاةٍ للغنم إلى قادةٍ للأُمم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢١) برقم (٥٩) كتاب العلم. باب مُن سُئِلَ علمًا وهو مشتغِلٌ بحديثه فأتمَّ الحديث ثم أجاب السائل.

(٢) نُسِبَتْ للشاعر جعفر عبَّاس. ولم أقف على كتابه أو ديوانه.

(٣) التمثيل والمحاضرة (ص ٢٩٣). التمثيل والمحاضرة، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) المحقِّق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(٤) النساء ٥٨.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٤٦).

١٧ صفر

الجليس الصالح والجليس السوء

إنَّ الإنسان اجتماعيٌّ بطبعه، قد فُطِر على حُبِّ الاستئناس ببني جنسه، وتكوينِ صداقات مع بعضهم؛ ولذا نجد من الشرع الشريف إرشادًا إلى أُسس اختيار الأصحاب وتكوين الصداقات، ولما كان الصَّديقُ يتشبَّه بصديقه، ويتشرَّب من صفاته؛ شدَّد الشرعُ على ضرورة الفحص والنظر قبل مصاحبته وطول مجالسته؛ فقال رسول الله ﷺ:" الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ" رواه أبو داود والترمذي(١).

وينبغي فيمَن تصحبُه أن تكون فيه خمسُ خصالٍ: أن يكون عاقلًا، حَسن الخُلُق، غير فاسقٍ، ولا مبتدعٍ، ولا حريصٍ على الدنيا.

ومثلُ الأخوَينِ والأصحاب مثل اليدَينِ تغسل إحداهما الأخرى، فهما يتعاونان في إصلاح بعضِهما، وكذلك يتشاركان في السرَّاء والضرَّاء، وكلٌّ منهما للآخَرِ مُعينٌ ومُساعِدٌ، يُعينه في سير الدنيا إلى الآخرة.

وقد رفعَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذِكْرَ الكلبِ برفقته للصالحين فقال تعالى:﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾(٢).

أنتَ في النـَّاسِ تُقاسُ   بمنِ اخترتَ خليلَا
فاصحبِ الأخيارَ تعلو   وتَنَلْ ذِكرًا جميلَا(٣)

وقد أخرج الإمامان البخاري ومسلم في صحِيحَيْهما أنَّ رسول الله ﷺ قال:" إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ؛ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"(٤).

وقد حذَّر الله سبحانه من اجتماع الأصدقاء على الشرور والآثام والإفساد في الدنيا، وجَعَلَ عاقبةَ ذلك انقلابَ صداقتِهم عداوةً يوم القيامة، فلا تدومُ إلَّا صداقةُ الخير والعمل الصالح ؛ قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾(٥).

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢٥٩) برقم (٤٨٣٣) كتاب الأدب. باب مَن يُؤمَر أن يُجالس. والترمذي (٤/ ٥٨٩) في جامعه برقم (٢٣٧٨) باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٣٧٨).

(٢) الكهف ٢٢.

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٥/ ٥٥٣). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)، المحقِّق: إحسان عبَّاس، الناشر: دار صادر- بيروت- لبنان ص. ب ١٠، الطبعة: الجزء: ٥- الطبعة: ١، ١٩٩٧م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٩٦) برقم (٥٥٣٤) كتاب الذبائح والصيد. باب المِسك. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٦) برقم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة والآداب. باب استحباب مُجالَسة الصالحين، ومُجانَبة قرناء السوء.

(٥) الزخرف ٦٧.



فالصداقة الحقيقية هي التي يكون أساسُها المحبَّةَ الخالصةَ لوجه الله تعالى، لذا عظَّم الشرعُ أجرَها، وجعل جزاءها محبَّةَ الله والاستظلال بظلِّه يوم القيامة؛ فقال رسولُ الله ﷺ:"سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وذَكَرَ منهم: وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْه" رواه البخاري ومسلم[١].

وإذا وجد الإنسانُ صاحِبًا صالحًا وجَبَ عليه أن يتمسَّك به، وأن يغُضَّ الطرفَ عن عيوبه، كما قال عليٌّ- رضي الله عنه-: عليكم بالإخوانِ؛ فإنَّهم عُدَّةٌ في الدنيا والآخرة، ألَا تسمعُ قولَ أهلِ النَّارِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٢].

ولا يوجدُ إنسانٌ كاملٌ لا عيبَ فيه، فلا شكَّ أنَّ لكلِّ إنسانٍ عيبًا، وفي كلِّ مخلوقٍ نقصًا، من أولئك أيضًا مَن اخترتَهم للصُّحبة، واصطفيتَهم للرفقة ولكن:

إنْ تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللا فجلَّ مَنْ لا عيبَ فيه وعلا[٣]

إنَّ لصاحب السوء أسوأَ الأثر على صاحبه، لأنَّه يشدُّه شدًّا إلى كلِّ رذيلةٍ وفسادٍ، فقد كان المشركون إذا أراد أحدُهم الدخولَ في الإسلام، أو حدَّث نفسه بذلك ثبَّطه أقرانه، وعادوه، وأثاروا حمية الجاهلية في نفسه، بتعييره بمخالفة الآباء والأجداد، وقد كان ذلك سببًا في وفاة أبي طالب على مِلَّة الكُفْر، فقد روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحَيْهما أنَّ الرسول ﷺ دخل على عمِّه لما حضرتْه الوفاة، فقال: أيْ عمِّ؛ قل: لا إله إلَّا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب؛ ترغبُ عن مِلَّة عبد المطلِّب؟ فلم يزالا يُكلِّمانِه، حتَّى قال آخرَ شيءٍ كلَّمهم به: على مِلَّة عبد المطلِّب[٤].

قال تعالى:﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[٥].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١١١) برقم (١٤٢٣) كتاب الزكاة. باب الصدقة باليمين. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة. باب فضْل إخفاء الصدقة.

(٢) الشعراء ١٠٠- ١٠١.

(٣) ملحة الإعراب (ص ٨٧). ملحة الإعراب، المؤلف: القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري (المتوفى: ٥١٦هـ)، الناشر: دار السلام- القاهرة/ مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٥٢) برقم (٣٨٨٤) كتاب مناقب الأنصار. باب قصَّة أبي طالبٍ. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٤) برقم (٢٤) كتاب الإيمان. باب أوَّل الإيمان قول لا إله إلَّا الله.

(٥) الفرقان ٢٧-٢٩.

قال الشيخ السعدي: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجني ﴿خَلِيلٗا﴾ أي: حبيبًا مُصافيًا، عاديتُ أنصحَ النَّاسِ لي، وأبرَّهم بي، وأرفقهم بي، وواليتُ أعدى عدوٍّ لي، الذي لم تُفِدْني ولايتُه إلَّا الشقاء والخسار والخزي والبوار ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ حيث زيَّن له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ يُزيّن له الباطل، ويُقبّح له الحقَّ، ويَعِدُه الأماني، ثم يتخلَّى عنه ويتبرَّأ منه، كما قال لجميع أتباعه حين قُضي الأمر، وفرغ اللهُ من حساب الخلْقِ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[(١)]، فلْينظرِ العبدُ لنفسه وقت الإمكان، ولْيتدارك الممكن قبل أن لا يُمكن، ولْيوالِ مَن ولايتُه فيها سعادتُه، ولْيُعادِ مَن تنفعُه عداوتُه، وتضرُّه صداقتُه[(٢)].

يقول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يعِظُ رجُلًا:" لا تتكلَّمْ فيما لا يعنيك، واعتزلْ عدوَّك، واحذرْ صديقك إلَّا الأمين، ولا أمينَ إلَّا مَن يخشى اللهَ عزَّ وجلَّ ويطيعُه، ولا تمشِ مع الفاجر فيُعلِّمَكَ مِن فجوره، ولا تُطلعْه على سِرِّكَ، ولا تشاورْ في أمرِك إلَّا الذين يخشون الله سبحانه"[(٣)].

ولقد حذَّرنا الله سبحانه وتعالى مِن مُجالَسة أهل السُّوء، ونهانا عن الجلوس في مجالسهم التي تُنتهَك فيها الحُرُمات، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٤)].

قال الزهري: وهل يُنتفَعُ من السَّيِّئ الخُلُقِ بشيءٍ؟![(٥)] وقال مالك بن دينار: إنَّك إن تنقلِ الأحجار مع الأبرار؛ خيرٌ لك من أن تأكل الخبيص مع الفُجَّار. وأنشد:

---

(١) إبراهيم ٢٢.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٨٢).

(٣) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (ص ٣٠٢)، والخطابي في العزلة (ص ٤٨). مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧ هـ)، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، الناشر: دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩ م. العزلة، المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨ هـ)، الناشر: المطبعة السلفية– القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩ هـ.

(٤) الأنعام ٦٨.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة (١٩/ ٤٨٧). إتحاف المهرة بالفوائد المبتكَرة من أطراف العشرة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: مركز خدمة السُّنَّة والسيرة، بإشراف د زهير بن ناصر الناصر (راجعه ووحَّد منهج التعليق والإخراج)، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (بالمدينة)- ومركز خدمة السُّنَّة والسِّيرة النَّبويَّة (بالمدينة)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

وصاحبْ خيارَ الناسِ تنجُ مُسلِمًا   وصاحبْ شرارَ النَّاسِ يومًا فتندم[١]

وقال وهب بن منبه: الأحمقُ كالثوب الخلِق، إن رفأتَه من جانبٍ انخرق من جانبٍ آخر، مثل الفخَّار المكسور لا يرقع ولا يشعب ولا يُعاد طينًا، فهذا مثلُ الأحمق: إن صحبتَه عناك، وإن اعتزلتَه شتمك، وإن أعطاك منَّ عليك، وإن أسرَّ إليك اتَّهمك، وإن أسررتَ إليه خانَك، وإن كان فوقك حقرك، وإن كان دونك غمزك[٢].

والخلاصة: أن يحرص المسلم على أن يصحب الأخيار، وأن يكون معهم، فإنَّ في صُحبتهم نجاةً وتوفيقًا، وفي البُعد عن صُحبة السوء سلامةٌ للإنسان من سوء الحال وانغماس الإنسان في الفساد، وقد قال مالك بن دينار: كلُّ جليسٍ لا تستفيد منه خيرًا؛ فاجتنبْه[٣].

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة (١٩/ ٣٩٢)؛ تفسير القرطبي (١٣/ ٢٧).

(٢) ذكره ابن حبَّان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ١٢٢). روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، المؤلف: محمد بن حبَّان بن أحمد بن حبَّان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، المحقِّق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (ص ٤٩).

١٨ صفر

اقْرَأْ وَارْتَقِ

القرآنُ هو كلامُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو خيرُ الكلامِ وأفضلُه، وحامِلُه في صَدرِهِ خيرُ النَّاسِ وأفضلُهم في الدُّنيا والآخِرَةِ، وفي حديثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو- رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا" رواه أبو داود[١]، حيث يقول النبي ﷺ: "يُقالُ" أي: معَ دُخولِ الجَنَّةِ "لصاحِبِ القُرآنِ"، وهو القارِئُ للقرآنِ، العامِلُ بما فيه، الملازِمُ له تِلاوةً وحِفظًا؛ فالناس تتفاوتُ مكانتُهم في الجَنَّةِ بحَسَبِ تَفاوُتِهم في حِفظِه والعملِ بما فيه وتَدبُّره؛ ولذلك يُقالُ له: "اقْرَأْ- القرآن- وارْتَقِ" في دَرجاتِ الجَنَّةِ، "ورَتِّلْ كما كُنْتَ تُرتِّلُ في الدُّنيا" بقِراءتِه بتَأنٍّ وطُمَأنينةٍ مُجوَّدًا؛ فالجَنَّةُ دارُ جزاءٍ لا تَكْليفٍ، فهي قِراءةُ مُتْعةٍ؛ "فإنَّ مَنْزِلَك عِنْدَ آخرِ آيةٍ تَقْرَؤُها".

فالقرآن شرفٌ ورِفعةٌ لأصحابه في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[٢]. وهكذا ستجد أنَّ الربط بالقرآن في كلِّ شيءٍ، فأعظمُ وأجلُّ وأكبرُ مُهمَّةٍ في الإسلام في أعظم فريضة من فرائضه بعد التوحيد وهي الصلاة؛ جعل التقدُّم فيها والإمامة لها مُرتبِطٌ استحقاقُها بكتاب الله عزَّ وجلَّ:" يؤمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمهم بسُنَّة رسول الله ﷺ، فإن كانوا في السُّنَّة سواءً فأقدمُهم هجرةً، فإن كانوا في الهجرة سواءً فأكبرُهم سِنًّا" رواه مسلم[٣].

انظر المراتب كيف تكون؟ والمقاييس كيف تُؤصَّل؟ كما جاءت في سُنَّة النبي ﷺ، ومن هنا قال أنس بن مالك- رضي الله عنه-:" كان الرجلُ منَّا إذا حفظ البقرة وآل عمران جدَّ في أعيُننا" رواه أحمد[٤]. أي عظُمتْ منزلتُه، وارتفعتْ مكانتُه، وصار يُشارُ إليه بالبنان، وينظر إليه الناس نظرة التقدير والاحترام.

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٧٣) برقم (١٤٦٤) باب تفريع أبواب الوتر. باب استحباب الترتيل في القراءة. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (٣/ ٤٦٤).

(٢) الزخرف ٤٤.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٤٦٥) برقم (٦٧٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب مَن أحقُّ بالإمامة.

(٤) رواه أحمد في مسنده (١٩/ ٢٤٧) برقم (١٢٢١٥).



ومِن هؤلاء الذين رفع القرآنُ شأنَهم رجلٌ هو أحد أعلام التابعين، كان مُشرِكًا كافرًا من بلادِ فارس، ثم وقع أسيرًا في إحدى معارك الإسلام زمن الصحابة- رضي الله عنهم- فأسلم وتعلَّق قلبُه بالقرآن، يحكي عن نفسه فيقول:" وقعتُ أنا ونفرٌ من قومي أسارى في أيدي المجاهدين، ثم ما لبثنا أن غدونا مملُوكَين لطائفةٍ من المسلمين في البصرة، فلم يمضِ علينا وقتٌ طويلٌ حتَّى آمنَّا بالله وتعلَّقنا بحِفْظ كتاب الله، وكان منَّا مَن يُؤدِّي الضرائب لمالكيه، ومنَّا من يقوم على خدمتهم، وكنتُ واحدًا من هؤلاء، فكُنَّا نختم القرآن كلَّ ليلةٍ مرَّةً، فشقَّ ذلك علينا، فجعلنا نختمُه مرَّةً كلَّ ليلتين، فشقَّ ذلك علينا، فجعلنا نختمُه كلَّ ثلاثٍ، فشقَّ علينا لما كُنَّا نعانيه من جهدٍ في النهار وسهرٍ في الليل، فلقينا بعض أصحاب الرسول ﷺ، وشكونا لهم ما نكابدُه من السهر وقراءة كتاب الله، مع قيامنا بخدمة موالينا، فقالوا لنا: اختموه كلَّ جمعةٍ مرَّةً، فأخذْنا بما أرشدونا إليه، فجعلنا نقرأ القرآن طرفًا من الليل وننام طرفًا، فلم يشقَّ ذلك علينا. وآلَ أمرُ هذا التابعي إلى امرأة من بني تميم، وكانت سيدة فاضلة مؤمنة، فكانت لا تشقُّ عليه في الخدمة، حيث كان يخدمها بعض النهار ويرتاح في بعضه الآخر، فتعلَّمَ- مع حِفْظ القرآن- القراءة والكتابة، وطلب العلم، وعلى رأسه- بعد القرآن- حديث رسول الله ﷺ، ولما ذهب في أحد أيام الجُمُع لصلاة الجمعة، خرجتْ معه وقالتْ أمام الناس: اشهدوا يا معشر المسلمين، أنِّي أعتقتُ غلامي هذا؛ رغبةً في ثواب الله، وطمعًا بعفوه، وليس لأحدٍ عليه من سبيلٍ إلَّا سبيل المعروف، ثم نظرتْ إليه وقالتْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أدَّخِرهُ عندك ليومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون.

فمَن هو هذا الإمام الذي قال عن نفسه: تعلَّمتُ الكتابة والقرآن فما شعُرَ بي أهلي، ولا رُئِيَ في ثوبي مداد قط؟ إنَّه أبو العالية رفيع بن مهران، الإمام المقرئ الحافظ المفسِّر، أحد أعلام التابعين، أدرك زمن النبي ﷺ وأسلم في خلافة أبي بكر الصِّدِّيق- رضي الله عنه-، ودخل عليه، وسمع مِن عددٍ من الصحابة منهم: عمر بن الخطَّاب ، وعلي بن أبي طالب، وأُبيُّ بن كعب، وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن مسعود، وابن عبَّاس، وغيرهم كثير- رضي الله عنهم جميعًا-، وقرأ القرآن على أُبيِّ بن كعب، وابن عبَّاس، وعمر بن الخطَّاب- رضي الله عنهم-، فقد رُوي عنه أنَّه قال: قرأتُ القرآن على عمر- رضي الله عنه- ثلاث مرَّاتٍ.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ:" الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران" متفق عليه[1].

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٦٦) برقم (٤٩٣٧) كتاب تفسير القرآن. باب {يوم يُنفَخُ في الصور فتأتون أفواجًا} النبأ: ١٨. أي زمرًا. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٤٩) برقم (٧٩٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل الماهر في القرآن والذي يتتعتع فيه.

قال الشيخ ابن العثيمين- رحمه الله-: ففيه أنَّ النبي ﷺ أخبر أنَّ الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، الماهر الذي يُجيد القرآن ويُتقنه؛ هذا مع السفرة الكرام البررة، وهؤلاء السفرة الكرام البررة هم الملائكة كما قال تعالى: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾[١]، فالماهر مع الملائكة، وأمَّا الذي يتتعتع فيه- يتهجَّاه وهو عليه شاقٌّ- فله أجران: الأوَّل للتلاوة، والثاني للتعب والمشقَّة، ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة:" أجرُكِ على قدْرِ نَصَبِكِ" رواه البخاري ومسلم[٢]، أي على قدر تعبك، فالذي يتتعتع في القرآن ويشقُّ عليه؛ له أجران: أجر التلاوة وأجر قراءة القرآن، لكن الأوَّل أفضل منه؛ لأنَّ الأوَّل مرتبته عظيمة، وفرْقٌ بين إنسانٍ له مرتبة عالية وإنسانٍ دون ذلك ولكن له أجر. ونضرب مثلًا لهذا، والثواب ليس له نظير، لكن لو أنَّ رجلًا له شرف وسيادة ومنزلة عالية في النَّاس، لكن دراهمه قليلة، وآخر وضيع بين النَّاس ليس له قيمة، لكن دراهمه كثيرة، الأوَّل أفضل، فالمهم أنَّ الماهر بالقرآن المجيد فيه مع السفرة الكرام البررة، وأمَّا الذي يتلوه ويتتعتع فيه وهو عليه شاقٌّ؛ فله أجران، إذًا تالي القرآن ليس بخاسرٍ مهما كان[٣].

ولقد قال ربُّ العالمين سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٤].

آياتُه كُلَّما طالَ المدى جُدَدٌ   يُزيِّنُهُنَ جَلَالُ العِتقِ والقِدَمِ[٥]

والخلاصة: أنَّ قارئ القرآن الكريم يرتقي بتلاوته في الدنيا والآخرة.

يا قارئَ القُرآنِ حسبُكَ أنَّهُ   شرفٌ به تتعاظمُ الحسناتُ

ورسالةٌ قُدسيةٌ ونجابةٌ   ومهابةٌ تعلو بها الدرجاتُ

فَأنعِمْ به عِزًّا وخُذْ   بضيائِهِ قبسًا تُنيرُ له الفلواتُ

واجعلْ مقامَكَ في الحياةِ لغايةٍ   تسمو بها أُممٌ وتشرفُ ذاتُ[٦]

---

(١) عبس ١٣- ١٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥) برقم (١٧٨٧)بلفظ:" ولكنَّها على قدر نفقتِكِ أو نصبِكِ" أبواب العمرة. باب أجْر العمرة على قَدْر النَّصَبِ، ومسلم في صحيحه (٢/ ٨٧٦) برقم (١٢١١) كتاب الحجِّ. باب بيان وجوه الإحرام، وأنَّه يجوز إفراد الحجِّ والتمتُّع والقران، وجواز إدخال الحجِّ على العمرة، ومتى يحلُّ القارن من نُسُكه.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٦٤١) .

(٤) لقمان ٢٧.

(٥) من قصيدة لأحمد شوقي بعنوان: "ريمٌ على القاع بين البان والعلَمِ، البيت السبعون.
toarab.ws/m/poems/poem/859/25.

(٦) لم أقف على قائلها.



١٩ صفر

أفلا يتدبَّرون القرآن

يقول المولى عزَّ وجلَّ في مُحكَم التنزيل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[١]، إنَّ تدبُّر القرآن من أعظم النِّعم، لأنَّه يُشعِر الإنسان بحلاوة القرآن، ويُثمر طمأنينة في القلب وراحة وأُنسًا وسكينة، ومعلومٌ أنَّ شرف الشيء بشرف مُتَعَلَّقِه، ولما كان التدبُّر يتعلَّق بكتاب الله تعالى؛ صار من أشرف الأمور وأَجَلِّها وأفضلِها، وتدبُّرُ القرآن الكريم أمْرٌ من أوامر الله تعالى، وقد جعل الله ذلك مقصودًا من إنزاله؛ كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

قال الشيخ السعدي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ فيه خيرٌ كثيرٌ، وعِلْمٌ غزيرٌ، فيه كلُّ هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يُستضاء به في الظلمات، وكلُّ حُكمٍ يَحتاج إليه المكلَّفون، وفيه من الأدلَّة القطعيَّة على كلِّ مطلوبٍ، ما كان به أجَلَّ كتابٍ طَرَقَ العالَمَ منذ أنشأه الله. ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: هذه الحِكمة من إنزاله، ليتدبَّر النَّاسُ آياته، فيستخرجوا عِلْمها، ويتأمَّلوا أسرارها وحِكَمها، فإنَّه بالتدبُّر فيه، والتأمُّل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ تُدركُ بركته وخيره، وهذا يدلُّ على الحثِّ على تدبُّر القرآن، وأنَّه من أفضل الأعمال، وأنَّ القراءة المشتمِلة على التدبُّر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكَّرون بتدبُّرهم لها كلَّ علمٍ ومطلوبٍ، فدلَّ هذا على أنَّه بحسب لُبِّ الإنسان وعقله يحصل له التذكُّر والانتفاع بهذا الكتاب[٣].

قال الشيخ ابن العثيمين- رحمه الله تعالى- في شرح رياض الصالحين: الذين يقرأون القرآن ينقسمون إلى قسمين: قسم لا يعمل به؛ فلا يؤمنون بأخباره، ولا يعملون بأحكامه، هؤلاء يكون القرآن حُجَّةً عليهم، وقسم آخر يؤمنون بأخباره، ويُصدِّقون به، ويعملون بأحكامه، فهؤلاء يكون القرآن حُجَّةً لهم يُحاجُّ عنهم يوم القيامة، لأنَّ النبي ﷺ قال:" القرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك"رواه مسلم[٤]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ أهمَّ شيءٍ في القرآن العملُ به، ويُؤيِّدُ هذا قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

(١) محمد ٢٤.

(٢) ص ٢٩.

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧١٢).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٣) برقم (٢٢٣) كتاب الطهارة. باب فضْل الوضوء.

إِلَيْكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[١]. أي يتفهَّمون معانيها ويعملون بها، وإنَّما أخَّر العمل عن التدبُّر لأنَّه لا يُمكن العمل بلا تدبُّر[٢]. والتدبُّر هو: تأمُّل معانيه وتَبَصُّر ما فيه كمالٌ، قال ابن القيِّم: هو تَحْدِيقُ نَاظِرِ القلبِ إلى معانيه، وجَمْعُ الفِكْرِ على تَدَبُّره وتَعَقُّله[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في مجموع الفتاوى: فإنَّه قد عُلِم أنَّه مَن قرأ كتابًا في الطِّبِّ أو الحساب أو النَّحو أو الفقه أو غير ذلك؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يكون راغبًا في فهمه وتَصَوُّر معانيه، فكيف بمَن قرأوا كتاب الله تعالى المنزَّل إليهم، الذي به هداهم الله، وبه عَرَّفَهم الحقَّ والباطل، والخير والشرَّ، والهدى والضلال، والرشاد والغي؟!

ولْتعلمْ أنَّه لا سبيل إلى تحصيل المطالب العالية والكمالات إلَّا بالإقبال عليه وتدبُّره وتفهُّمه.

فمن المعلوم أنَّ رغبتهم فِي فهمه وتصوُّرِ معانيه أعظم الرغبات، بل إذا سمع المتعلِّم من العالِم حديثًا، فإنَّه يرغب في فهمه؛ فكيف بمن يسمعون كلام الله مِن المبلِّغ عنه؟ بل من المعلوم أنَّ رغبة الرسول ﷺ في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه؛ فإنَّ معرفة الحروف بدون المعاني لا تُحَصِّل المقصود؛ إذ اللَّفظ إنَّما يُرَاد للمعنى[٤].

ولا بُدَّ للمُتدبِّر أن يظهر عليه من التأثُّر بما يقرأ، والخشوع عند قراءته أو سماعه، والإقبال عليه إقبالًا تامًّا دون الاشتغال بما يصرف عن تدبُّره، والإنصات عند سماعه، والعمل بما يدعو إليه، والكف عمَّا يزجر عنه.

قِفْ إنَّها بجلالِها الآياتُ	فيها هُدىً وسكينةٌ وثباتُ
رتِّلْ وجوِّدْ ما استطعتَ حروفَها	وابسُطْ فؤادَكَ إنَّها النَّفحاتُ
هذا الكتابُ فقُمْ به مُتخشِّعًا	مُتدبِّرًا تصفو هناك عِظاتُ
هذا هو الوحيُ المنزَّلُ لا دُجى	يبقى لديه ولا تُرى ظُلُماتُ[٥]

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ- رضي الله عنها-:" الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ يَتَرَاءَى لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تَتَرَاءَى النُّجُومُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ"[٦]. وَأَخْرَجَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ- رضي الله عنه-:"

(١) ص ٢٩.
(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ٦٣٧).
(٣) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (١/ ٤٤٩).
(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٧).
(٥) لم أقف على قائلها.
(٦) رواه البيهقي في شُعب الإيمان (٣/ ٣٧٠) برقم (١٨٢٩). والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (٧/ ٣٩٦).



نَوِّرُوا مَنَازِلَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ"[١]. وَأَخْرَجَ أيضًا:" يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ؛ لَا تَتَوَسَّدُوا الْقُرْآنَ، وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَفْشُوهُ وَتَدَبَّرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[٢].

وقد قال ﷺ:" إنَّ الله ليرفعُ بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين" رواه مسلم[٣].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنَّه" حَفِظَ البقرة في ثمان سنوات"[٤]، حِفْظَ معرفة وتفسير، وأحكام وفقه، وتطبيق على ما كان من منهج السابقين، كما قال عبد الرحمن السُلمي:" كان الذين يُقرِئوننا القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ لا يتجاوزون بنا العَشْر من الآيات حتَّى نتعلَّم ما فيها من العلم والعمل، فتعلَّمنا العلم والعمل جميعًا"[٥].

يقول حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- في وصف قراءته ﷺ:" وكان إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، أو سؤالٍ سأل، أو تعوُّذٍ تعوَّذَ" رواه مسلم[٦]، هكذا كانت قراءة رسول الله ﷺ قراءة تدبُّر ونظر وتفكُّر، ليست قراءة هذٍ، كما قال ابن مسعود- رضي الله عنه- في وصف القراءة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن، قال:" لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب"[٧].

والخلاصة: أنَّه على المسلم أن يحرص على قراءة القرآن، ليس كأي قراءة، بل قراءة مُتأنِّية، تكتنفها نظرات التدبُّر من كلِّ وجهٍ، فيقف مع القرآن وآياته وكلماته وحروفه، حتَّى يفهم ويتحرَّك قلبه

---

(١) رواه البيهقي في شُعب الإيمان (٣/ ٤٠٣) برقم (١٨٧٥). والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (١٠/ ٢٢٩).

(٢) رواه البيهقي في شُعب الإيمان (٣/ ٣٨٨) برقم (١٨٥٢). والحديث ضعَّفه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١/ ٦٧٦).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٩) برقم (٨١٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل مَن يقوم بالقرآن ويُعلِّمه وفضْل مَن تعلَّم حِكمةً مِن فقه، أو غيره فعمل بها وعلَّمها.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) ذَكَرَه شيخ الإسلام في بعض كتبه، يُنظَّر: الفتوى الحمويَّة الكبرى (ص ٢٩٣). الفتوى الحمويَّة الكبرى، المؤلف: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقِّق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، الناشر: دار الصميعي- الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٣٦) برقم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل.

(٧) رواه الآجري في أخلاق أهل القرآن (ص ٣٨). أخلاق أهل القرآن، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

لتلك المعاني التي تُحرّك الجبال، وحينها يتأثَّر قلبه بآيات الله المسطورة، ويرقُّ فؤاده ويخشع، فيُثمر ذلك ثمرةَ العملِ بهذه الآيات التي بها فلاحُ العبد ورفعتُه في الدنيا والآخرة، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

(١) الحشر ٢١.



٢٠ صفر

وإذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ

إنَّ الإسلام يعتني بالظاهر والباطن، ولكنَّ الاهتمام بالظاهر وحده كالسير بقدمٍ واحدةٍ، فلا بُدَّ من التوازن بين هذا وذاك، ولقد أنزل الله- جلَّ وعلا- في المنافقين سورة سُمِّيتْ باسمهم، تفضح بعض مواقفهم، وتُخبِر عن بعض صفاتهم، وكان من جملة ما نَعَتَهُمْ الله تعالى به قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(١)، فقد وصفهم الله- تعالى- بأنَّ الناظر إليهم يُعجَبُ بجمال أجسامهم، ومَن يسمعُهم يُؤخَذ بفصاحة ألسنتهم، لكنَّهم كالهياكل الفارغة، أشباحٌ بلا أرواحٍ، وأجسامٌ بلا أحلامٍ.

وهذه الصفات تتناسب مع حالة النفاق، إذ إنَّ ظاهر المنافق دائمًا خيرٌ من باطنه، فظاهره الإيمان، وباطنه الكُفْر، وهو ذلق اللسان، لكنَّه يقول غير ما يعتقد؛ فهو كذَّاب، وهو جميل الصورة، لكنَّه عاطل من الصفات النبيلة كالإيمان والمروءة والرجولة، وكلِّ ما يُزيِّن الباطن، وقد رُويَ عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أنَّه قال: كان عبد الله بن أُبي بن سلول (رأسُ النِّفاق) وسيمًا جسيمًا صحيحًا صبيحًا ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته(٢).

ولما كان للظاهر سلطانه القوي في التأثير وانتزاع الإعجاب؛ علَّم النبي ﷺ أصحابه ضرورة تجاوزه إلى المعاني الحقيقية؛ لأنَّها هي الفيصل الحقيقي في تقييم الرجال؛ وقد ورد في الحديث الصحيح: أنَّ رجلًا مرَّ على النبي ﷺ فقال: ما تقولون في هذا ؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكَح، وإن شفع أن يُشفَّع، وإن قال أن يُستمَعَ إليه، قالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِن فُقَرَاءِ المسْلِمِينَ، فقال النبي ﷺ: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خطب ألَّا يُنكَح، وإن شَفَعَ ألَّا يُشفَّع، وإن قال ألَّا يُستمَعَ إليه، فقال رسول الله ﷺ:" هذا خيرٌ مِن ملءِ الأرضِ مثلَ هذا" رواه البخاري(٣).

ففضَّل النبيُّ ﷺ الفقيرَ على الغنيِّ، وذلك لا يلزم منه تفضيل كُلِّ فقيرٍ على كُلِّ غنيٍّ، إنَّما أراد أن يُعلِّمهم أنَّ التفاضل لا يقوم أبدًا إلَّا بميزان مُنضبِطٍ، وما يتبعه من أعمال.

وتطرح هذه الآية الكريمة مسألة خطيرة في حياة الإنسانيَّة عامَّة، وحياة المسلمين خاصَّة، هي قضية العلاقة بين الشكل والمضمون، أو الجوهر والمظهر، فليس الجوهر والمظهر شيئَينِ منفصِلَينِ

---

(١) المنافقون ٤.

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ١٢٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٨) برقم (٥٠٩١) كتاب النِّكاح. باب الأكفاء في الدِّين.

انفصالًا تامًّا، بل بينهما علاقةُ تأثُّرٍ وتأثيرٍ، وأخْذٍ وعطاءٍ، وقد ورد ما يدلُّ على هذا؛ فقد كان النبي ﷺ يمسح مناكب أصحابه في الصلاة، ويقول:" استووا، ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبُكم" رواه مسلم(١)، والمرء حين ينشرح صدره؛ يظهر ذلك على مُحيَّاه، ومن ثَمَّ قيل: مَن كثُرتْ صلاتُه بالليل حسُنَ وجْهُه في النهار.

قال الشيخ السعدي: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها ونضارتها، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: مِن حُسْنِ منطقهم تستلذُّ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيءٌ، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا يُنال منها إلَّا الضرر المحض، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم يخافون أن يطَّلع عليهم، فهؤلاء ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ على الحقيقة، لأنَّ العدوَّ البارز المتميِّز؛ أهونُ من العدوِّ الذي لا يُشعَر به، وهو مخادِعٌ ماكِرٌ، يزعم أنَّه وليٌّ، وهو العدوُّ المبين، ﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يُصرَفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبيَّنتْ أدلَّتُه، واتَّضحتْ معالمِه، إلى الكُفْر الذي لا يُفيدُهم إلَّا الخسار والشقاء(٢).

لقد جعل الإسلام المقياس الشرعي الوحيد في التصنيف الحقيقي للنَّاس؛ هو هذا المعيار الشرعي الوحيد في التمييز بينهم، وتجد أنَّ الله تعالى دلَّل على هذا المقياس أو المعيار في نحو قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣).

فكان أكرمَ النَّاس عند الله جلَّ وعلا وأقربَهم إليه منزلًا هم الأتقياءُ الأنقياءُ الأصفياء.

وقال الله عزَّ وجلَّ أيضًا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٤)، فجعَل الله سبحانه وتعالى التقوى خيرَ ما يَتزوَّد به العبدُ ليوم الرحيل، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٥)؛ فالله تعالى جعَل الخير كُلَّ الخير في التزامِ التقوى، وبمفهوم المخالَفة: فإنَّ الزُّهد في التقوى شرٌّ عظيمٌ ليس بعده شرٌّ.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٢٣) برقم (٤٣٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضْل الأوَّل فالأوَّل منها، والازدحام على الصَّفِّ الأوَّل، والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضْل، وتقريبهم من الإمام.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٦٤).

(٣) الحجرات ١٣.

(٤) البقرة ١٩٧.

(٥) الشعراء ٨٨- ٨٩.

وإنَّ القلب أميرُ البدن وأمينُه؛ فإنْ عَمَّر الإنسانُ قلبَه بتقوى الله تعالى؛ صلحَ قلبُه، ومَن صلحَ قلبُه؛ صلحتْ سائر جوارح بدنه، ومَن فسد قلبُه فسدتْ سائرُ جوارح بدنه، وعلامة فساده: ترْكُ التقوى، وهي رقابة الله جلَّ وعلا، واستشعار معيَّته سبحانه وتعالى، فلا يراك حيث نهاك، ولا يفقِدُك حيث أمرك، وهو العليمُ العلَّام الذي يعلم جهرك وسِرَّك ونجواك.

أخرج البخاريُّ ومسلم عن النُّعمانِ بن بشير- رضي الله عنهما- قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:" ألا وإنَّ في الجسد مُضغةً؛ إذا صلَحَت صلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدتْ فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ" [١].

وأخرج مسلمٌ عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" التقوى ها هنا"، ويشير إلى صدره ثلاث مرَّاتٍ، رواه مسلم[٢].

إنَّ النبي ﷺ جعَل لصاحب الدِّين والخُلق القدْرَ العظيمَ، وفاضَلَ بينهما وبين غيرهما من أصحاب الجاهِ والمال، والحَسَبِ والسُّلطان، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ:" ومَن بطَّأ به عمَلُه لم يُسرِعْ به نسَبُه" رواه مسلم[٣].

أي: مَن لم يرفَعْه حُسْنُ عملِه إلى منزلةِ أهل الطاعة والبِرِّ ممَّن رضي الله عنهم؛ لم يشفَعْ له شرَفُ نسَبِه، ولا حسَبُ آبائه، ولم يُسرِعْ به إلى الجنَّة فيكون مِن أهلها.

إنَّ الله- عزَّ وجلَّ- أعزَّ بلالًا بحُسْنِ إسلامه، وقد كان عبدًا أسودَ حبشيًّا، وأذَلَّ أبا جهلٍ وصناديدَ قريش بكُفْرهم وشِرْكِهم وغَيِّهم، وقد كانوا سادةَ مكَّةَ وكُبَراءَها ووجهاءَها وأسيادَها.

والخلاصة: مَن يُفاضِلون بين الناس، فيرفَعون منهم أقوامًا ويضَعون منهم آخرينَ، ويبذلون الاحترامَ لبعضِهم ويتنكَّرون في بذْله لآخرين، نعم أَمَرَنا الله تعالى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾[٤]؛ ولكن ينبغي أن نعلَم أن أساسَ الاحترام والتبجيل والتعظيم والتقديم والتفصيل عند ربِّ العالَمين هو: التقوى وما يتَّصل بها مِن حُسْنِ السَّمتِ، واستقامة على الدِّين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم (٥٢) كتاب الإيمان. باب فضْل مَنِ استبرأ لدينه. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) كتاب المساقاة. باب أخْذ الحلال وترْك الشبهات.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٦) برقم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤) برقم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل الاجتماع على تلاوة القرآن.

(٤) البقرة ٨٣.

وصدق الشاعر حين نصح فقال:

لَا خَيــرَ فــي وُدِّ امــرِءٍ مُتَمَلِّــقٍ   حُلــوِ اللِّســانِ وقَلبُــهُ يَتَلَهَّــبُ
يُعطيكَ مِن طَرَفِ اللِّسانِ حَلَاوَةً   وَيَـرُوغُ مِنْـكَ كما يَـروغُ الثَّعْلَبُ
فَاختَرْ قَرِيْنَكَ واصْطَفِيهِ مُفَاخِـرًا   إِنَّ القَرِيْنَ إلى المُقَارَنِ يُنْسَبُ[1]

(١) من قصيدة للشاعر صالح عبد القدوس بعنوان: فدعِ الصبا (القصيدة الزينبيَّة) يُنظَر: مجموعة القصائد الزُّهديَّات (٤٨٠/٢).



٢١ صفر

تعدل ثلث القرآن

إنَّ سورة الإخلاص لها من الفضائل ما لها، ويكفي أنَّ قارئها بصدْقٍ يُحِبُّه الله تعالى، ومَن أحبَّها دخل الجنَّة، ومَن قرأها ثلاثًا كان كمَن قرأ القرآن كلَّه، ومَن قرأها عَشرًا بنى اللهُ له في الجنَّة قصرًا، ومَن زاد زادَهُ اللهُ أجرًا وفضْلًا، فسورة الإخلاص سورة عظيمة جمعتْ فضائل سامية جليلة، فقد جمعتْ أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة وتوحيد الأسماء والصفات، وقد جاء في فضْلها أحاديث كثيرة، وورد الحديث بفضْل قراءتها في الصلاة وخارجها، وفي أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم والقيام منه، والرقية بها، وأنَّها تعدل ثلث القرآن إلى غير ذلك من الفضائل، وسورة الإخلاص سورة مكيَّة، وعدد آياتها أربع آيات نزلت بعد سورة النَّاس.

وممَّا يدل على أهمِّيَّة هذه السورة أنَّ بعض أئمة الإسلام أفردها بالتأليف، حتَّى ألف فيها الإمام أبو محمد الحسن بن علي البغدادي الخَلَّال مُؤلَّفًا تحت عنوان" مِن فضائل سورة الإخلاص وما لقارئها".

وممَّا يدلُّ على فضْل هذه السورة كثرةُ أسمائها، وكثرةُ الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى، ولها نحو عشرين اسمًا، تصبُّ كلُّها في فَلَكِ التوحيد، والردِّ على عُبَّاد الأصنام والأوثان وجميع الأديان الباطلة.

وأشهر أسمائها: الإخلاص، وسُمِّيتْ بذلك لأنَّ في قراءتها خلاصًا من عذاب الله، أو لأنَّ فيها إخلاصًا لله من كلِّ عيبٍ ومن كلِّ شريكٍ، أو لأنَّها خالصة لله ليس فيها أمْرٌ ولا نَهْيٌ، وقيل: سُمِّيتْ بالإخلاص لأنَّها أخلصت التوحيد لله، أو لأنَّ قارئها قد أخلص دينه لله.

ومن أسمائها: قل هو الله أحد، وقد بوَّب البخاري في الصحيح باب فضْل" قل هو الله أحد"[(١)]؛ ومن أسمائها: التوحيد، والأساس، والتَّفريد والتَّجريد، والنَّجاة والولاية، والمعرفة والنِّسبة، والصَّمَد والمعوِّذة، والمانعة والمذكِّرة، والنُّور والإيمان، والمقَشْقِشة والمعوِّلة والبراءة.

وقد جاء في سبب نزول هذه السورة الكريمة أنَّها جاءت ردًّا على مُشركي مكَّة أو طائفة من أهل الكتاب، من ذلك ما ورد عن أُبي بن كعب- رضي الله عنه- قال: إنَّ المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربَّك. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[(٢)][(٣)].

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٨٩).

(٢) سورة الإخلاص ١-٤.

(٣) رواه الترمذي في جامعه سُنن الترمذي (٥/ ٣٠٨) برقم (٣٣٦٤) باب ومن سورة الإخلاص. والحديث حسَّنه الألباني بدون زيادة وردت في الترمذي كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٧/ ٣٦٤).



وفي رواية أخرى: عن ابن عبَّاس– رضي الله عنهما– قال: جاءت اليهود إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، منهم كعب بن الأشرف وحُيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد؛ صِفْ لنا ربَّك الذي بعثك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1] [2].

ومن فضائل هذه السورة الكريمة: أنَّها تعدل ثُلُثَ القرآن؛ كما روى مُسلمٌ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ:" قُلْ هُوَ الله أحد" تعدل ثُلُثَ الْقُرْآن" رواه مسلم[3].

ومن ذلك: أنَّ قراءتها والتصديق بها من دلالات الإيمان؛ فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَجُلًا قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى" قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ" حَتَّى انْقَضَتِ السُّورَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" هَذَا عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ"، وَقَرَأَ فِي الْآخِرَةِ" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" حَتَّى انْقَضَتِ السُّورَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" هَذَا عَبْدٌ آمَنَ بِرَبِّهِ"، فَقَالَ طَلْحَةُ: فَأَنَا أَسْتَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ فِي هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ" رواه ابن حبَّان[4].

ومن ذلك أيضًا: مَنْ أحبَّ سورة الإخلاص أحبَّه اللهُ، وهى صِفَةُ الرَّحْمَن، ففي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ– رضى اللهُ عنها– أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابه فِي صلَاتهم فيختم بـ" قل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صفة الرَّحْمَن، وَأَنا أُحِبُّ أَن أَقرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" أَخْبِرُوهُ أَن الله يُحِبُّهُ "[5].

---

(١) سورة الإخلاص ١–٤.

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٨) برقم (٦٠٦) والهروي في ذمّ الكلام وأهله (٣/ ٢١٩) برقم (٦٣٨). الأسماء والصفات للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدَّم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة– المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م. ذمُّ الكلام وأهله، المؤلف: شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي عبد الله بن محمد بن علي بن مت الأنصاري، شهرته : الهروي، المحقِّق: أبو جابر عبد الله بن محمد بن عثمان الأنصاري، دار النشر: مكتبة الغرباء. والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (١١/ ٣٤٩).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٦) برقم (٨١١) كتاب الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل قراءة قل هو الله أحد.

(٤) رواه ابن حبَّان في صحيحه (٦/ ٢١٤) برقم (٢٤٦٠). والحديث صحَّحه الألباني كما في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان (٤/ ٢٠٠).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١١٥) برقم (٧٣٧٥) كتاب التوحيد. باب ما جاء في دعاءِ النبيِّ ﷺ أُمَّتَه إلى توحيد الله تبارك وتعالى. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٥٧) برقم (٨١٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل قراءة قل هو الله أحد.

ومن ذلك أيضًا: أنَّ مَنْ قرأ سورة الإخلاص عَشْر مرَّاتٍ بنى الله له قصرًا في الجنَّة؛ فعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ قَرَأَ " قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ "حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إِذًا نَسْتَكْثِرَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" اللهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ" أخرجه أحمد[١].

ومن ذلك أيضًا: أنَّه ما أُنزِلَتْ في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مِثْلُهُنَّ؛ فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قال رسولُ الله ﷺ: يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ؛ أَلَا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهُنَّ، لَا يَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ لَيْلَةٌ إِلَّا قَرَأْتَهُنَّ فِيهَا" قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" أخرجه أحمد[٢].

قال الشيخ السعدي في تفسيره: ﴿ قُلْ﴾ قولًا جازمًا به، مُعتقِدًا له، عارِفًا بمعناه، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾أي: قد انحصرت فيه الأحديَّة، فهو الأحد المنفرِد بالكمال، الذي له الأسماء الحُسنى، والصفات الكاملة العُليا، والأفعال المقدَّسة، الذي لا نظير له ولا مثيل ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مُفتقِرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهمَّاتهم، لأنَّه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته الذي وسعتْ رحمتُه كُلَّ شيءٍ، وهكذا سائر أوصافه، ومِن كماله أنَّه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾لكمالِ غِناه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا في أسمائه، ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى، فهذه السورة مُشتمِلةٌ على توحيد الأسماء والصفات[٣].

وحين سُئِل سماحة الشيخ ابن باز- رحمه الله-: هل صحيح أنَّ مَن قرأ سورة الإخلاص ثلاث مرَّاتٍ يُعتبَر وكأنَّه ختم المصحف؟ فأجاب بقوله: نعم تعدل ثُلُثَ القرآن، هذه السورة العظيمة أخبر النبي ﷺ أنَّها تعدل ثُلُثَ القرآن، إذا كرَّرها ثلاثًا كان بمثابة مَن خَتَمَ القرآن، فينبغي الإكثارُ من قراءتها، لكن لا نهجر بقيَّة القرآن، نجتهد في قراءة القرآن كلِّه؛ حتَّى يحرزَ الأجرَ أكثرَ من أوَّله إلى آخره، ويُكرِّر ذلك[٤].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٤/ ٣٧٦) برقم (١٧٤٥٢). والحديث حسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ١٣٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٨/ ٦٥٤) برقم (١٥٦١٠). والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٥٢).

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٩٣٧).

(٤) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ الإمام ابن باز. نورٌ على الدرب. فضْلُ قراءة سورة الإخلاص ثلاث مرَّات.

والخلاصة: ما ذكره الشيخ أبو بكر الجزائري في كتابه أيسر التفاسير: إنَّ من هداية هذه الآيات أنَّها تُرشِدُ إلى: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، وتقرير التوحيد والنُّبوَّة، وبطلان نسبة الولد إلى الله تعالى، وإلى وجوب عبادته تعالى وحده لا شريك له فيها، إذ هو الله ذو الألوهيَّة على خلْقه دون سواه[١].

https://binbaz.org.sa/fatwas/10990

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٦٢٩).

٢٢ صفر

ذِكْرُك أخاك بما يَكرَه

إنَّه لمن المحزن أن يفعلَ الإنسانُ بعض الطاعات ثم يُضيِّعها بسهولة مِن دون اكتراثٍ بخطرِ ما يفعل، ويحسبُه البعضُ أمرًا هيِّنًا وهو عند الله عظيم، إنَّه مرض عضال، وداء خبيث، يحصد الحسنات، ويجلب السَّيِّئات، ويُضيِّع الأوقات، ألا وهو داء" الغِيبة"، والذي ساعد على تفشِّيه في المجتمع قِلَّةُ الوازع الديني وكثرةُ أوقات الفراغ، كما أنَّ لسهولة الاتصالات الهاتفية والدخول على مواقع التواصل الاجتماعي سهمًا كبيرًا في ذلك، ويعتبر البعضُ أنَّ الغيبة والتحدُّث عن الناس، والخوضَ في أمورِهم وأعراضِهم من باب التفكُّه والسمر والتسلية والترفيه، ويُطلِق البعض على مثل هذه الأحاديث فاكهة المجالس، وبئستْ هذه الفاكهة.

قال الإمام النووي:" إنَّه لينبغي على كُلِّ مُكلَّفٍ أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلَّا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحة؛ فالسُّنَّة الإمساك عنه؛ لأنَّه قد يجُرُّ إلى حرامٍ أو مكروه، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامة لا يعدلها شيءٌ"[١].

فمَنِ استقام لسانه استقامتْ جوارحه، ومَن عصى لسانه وخاض في أعراض النَّاس عصتْ جوارحه وانتهكت حُرُمات الله، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال:" إذا أصبح ابن آدم فإنَّ الأعضاء كُلَّها تُكفِّر اللِّسان (أي تذلُّ وتخضع) تقول: اتَّقِ الله فينا، فإنَّما نحن بك؛ فإنِ استقمتَ استقمنا، وإنِ اعوججتَ اعوججنا" رواه الترمذي[٢].

لقد حرم الله سبحانه الغيبة وذمَّها وذمَّ مَن يقع فيها، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[٤]، وقال تعالى ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٥].

---

(١) رياض الصالحين ط الرسالة (ص ٤٢٧). رياض الصالحين، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٦) برقم (٢٤٠٧) أبواب الزهد. باب ما جاء في حِفْظ اللِّسان. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٤٠٧).

(٣) الحجرات ١٢.

(٤) الإسراء ٣٦.

(٥) ق: ١٨.

وعن أبي موسى- رضي الله عنه- قال: قلتُ: يا رسول الله؛ أيُّ المسلمين أفضل؟ قال:" مَن سلِمَ المسلمون مِن لسانه ويده" رواه البخاري ومسلم(١).

وعن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- قال: قلتُ: يا رسول الله؛ ما النجاة؟ قال:" أمسِكْ عليك لسانك، ولْيسعْكَ بيتُكَ، وابكِ على خطيئتك" رواه الترمذي(٢).

وفي حديث معاذ بن جبل- رضي الله عنه- عندما أخبره الرسول ﷺ برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؛ ثم قال ﷺ:" ألا أخبرك بِملاك ذلك كلِّه؟ قلتُ: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: كُفَّ عليك هذا، قلتُ: يا رسول الله؛ وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلَّم به؟ فقال: ثكلتك أمُّك!! وهل يكبُّ الناسَ في النَّار على وجوههم إلَّا حصائدُ ألسنتهم؟!" رواه ابن ماجه والترمذي(٣).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال ﷺ:" يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يدخلِ الإيمانُ قلبه؛ لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبعوا عوراتِهم؛ فإنَّه مَن تتبَّع عورة أخيه المسلم تتبَّع الله عورته، ومَن تتبَّعَ الله عورته؛ يفضحه ولو في جوف بيته" رواه أحمد وأبو داود(٤).

قال الشيخ السعدي في تفسيره: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ:" ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكرَهُ ولو كان فيه" رواه مسلم(٥)، ثم ذَكَرَ مثلًا مُنفِّرًا عن الغيبة، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ (شبَّه أكْلَ لحمِه ميتًا، المكروه للنُّفوس غاية الكراهة؛ باغتيابه، فكما أنَّكم تكرهون أكْل لحمه، وخصوصًا إذا كان ميتًا فاقد الروح، فكذلك فلْتكرهوا غيبته، وأكْلَ لحمِه حيًّا، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ والتَّوَّاب الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفِّقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيمٌ بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبِل منهم

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم (١١) كتاب الإيمان. باب أي الإسلام أفضل. ومسلم في صحيحه (١/ ٦٦) برقم (٤٢) كتاب الإيمان. باب بيان تفاضُل الإسلام وأي أموره أفضل.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٥) برقم (٢٤٠٦) أبواب الزهد. باب ما جاء في حفْظ اللِّسان. بلفظ:" املكْ عليك لسانك...". والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٤٠٦).

(٣) رواه ابن ماجه في سُننه (٢/ ١٣١٤) برقم (٣٩٧٣) كتاب الفتن. باب كفِّ اللِّسان في الفتنة. والترمذي في جامعه (٥/ ١٢) برقم (٢٦١٦) أبواب الإيمان. باب ما جاء في حُرمة الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٦/ ١١٦).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ٢٠) برقم (١٩٧٧٦). وأبو داود في سُننه (٤/ ٢٧٠) برقم (٤٨٨٠) كتاب الأدب. باب في الغيبة. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ٣٨٠).

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠١) برقم (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم الغيبة.



التوبة، وفي هذه الآية دليلٌ على التحذير الشديد من الغيبة، وأنَّ الغيبة من الكبائر؛ لأنَّ الله شبَّهها بأكْلِ لحمِ الميتِ، وذلك من الكبائر(١).

قال الإمام ابن قيّم الجوزية: وهذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنَّه شبَّه تمزيق عِرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يُمزّق عِرض أخيه في غيبته؛ كان بمنزلة مَن يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، ولما كان المغتاب عاجزًا عن دفْعه عن نفسه بكونه غائبًا عن مجلس ذمّه؛ كان بمنزلة الميت الذي يُقطع لحمُه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان المغتاب مُحِبًّا لذلك مُعجَبًا به؛ شُبِّه بمَن يُحِبُّ أكْلَ لحمِ أخيه ميتًا، ومحبَّتُه لذلك قدرٌ زائدٌ على مجرد أكْلِه، كما أنَّ أكْلَه قدرٌ زائدٌ على تمزيقه؛ فاحتجَّ عليهم بما كرهوه على ما أحبُّوه. وشبَّه لهم ما يُحِبُّونه بما هو أكره شيءٍ إليهم، وهم أشدُّ شيءٍ نفرة عنه؛ فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة؛ أن يكونوا أشدَّ شيءٍ نفرة عمَّا هو نظيره ومشبهه(٢).

واعلم أنَّ الغيبة لا تقتصر على اللِّسان؛ فالغيبة باللِّسان إنَّما حُرِّمت لأنَّ فيها تفهيم الغير نقصان أخيك، وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء، والغمز والهمز، والكتابة والحركة، وكلُّ ما يُفهِم المقصود فهو داخلٌ في الغِيبة، وهو حرامٌ.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالتْ: دخلتْ علينا امرأةٌ، فلمَّا أومأتُ بيدي أنَّها قصيرةٌ؛ قالﷺ:" اغتبْتِيها" رواه أبو داود(٣).

ومن ذلك أيضًا: المحاكاة، كأن يمشي مُتعارِجًا، أو كما يمشي؛ فهو غِيبة، بل هو أشدُّ من الغيبة؛ لأنَّه أعظم في التصوير والتفهيم، وكذلك الغيبة بالكتابة؛ فإنَّ القلم أحدُ اللِّسانَين.

فإذا وقع شخص في هذه الكبيرة وجب أن يُبادِر بالتوبة، وقد تنازع العلماء في كفَّارة المغتاب، ولكنَّهم اتَّفقوا جميعًا على توبته كخُطوةٍ أولى، والتوبة شروطها ثلاثة: الإقلاع عن المعصية، وأن يندم على فِعْلها، والعزم على ألَّا يعود، والتوبة من الغيبة يُزاد فيها شرطٌ رابعٌ؛ لأنَّ المغتاب جنى جنايتَين:

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٠٢) .

(٢) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين (١/ ١٣٠). إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

(٣) رواه أبو داود (٤/ ٢٦٩) برقم (٤٨٧٥) ولفظه عن عائشة- رضي الله عنها- أنَّها قالت:" قلتُ للنبي ﷺ: حسبُكَ من صفية كذا وكذا، قال غير مسدد: تعني قصيرة، فقال:« لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجتْه» كتاب الأدب. باب في الغيبة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ٣٧٥).

الأولى: على حقِّ الله تعالى، إذ فعَلَ ما نهاه عنه، فكفَّارتُه التوبة والندم، الثانية: على محارم المخلوق. فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجُل؛ جاء إليه واستحلَّه، وأظهر له الندم على فِعْله، وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجُل؛ جعل مكان استحلاله الاستغفار له، لئلَّا يُخبِرَه بما لا يعلمُه فيُوغر صدره.

فإنْ عبتَ قومًا بالذي فيكَ مثلُهُ   فكيفَ يعيبُ الناسَ مَن هو أعورُ

وإنْ عبتَ قومًا بالذي ليسَ فيهمُ   فذلكَ عندَ اللهِ والنَّاسِ أكبرُ(١)

والخلاصة: أن يحرص المسلم على أن يصون لسانه عن كلِّ ما يشينه، وأن يحترز من كلِّ قولٍ يُطيل وقفته يوم القيامة بين يدي الله، وإن كان قد وقع في شيءٍ من هذه الآثام فلْيُبادِرْ بتوبةٍ عاجلةٍ، ولْيَرُدَّ المظالم إلى أهلها قبل أن يأتِيَ يومٌ لا درهم فيه ولا دينار، ولكن الحسنات والسَّيِّئات، ولْيحرصْ كلٌّ على دينه وألَّا يُضيّع حسناتِه؛ قال الحسن البصريُّ- رحمه الله-: واللهِ لَلْغيبةُ أسرعُ في دِينِ الرَّجُلِ مِن الأَكلةِ في الجسد(٢). نسأل الله العافية.

---

(١) يُنظَر: موارد الظمآن لدروس الزمان (٥/ ٢٨). موارد الظمآن لدروس الزمان، خُطب وحِكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، المؤلف: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤هـ.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذمِّ الغيبة والنميمة (ص ٢١). ذمُّ الغيبة والنميمة، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق- سورية، مكتبة المؤيد، الرياض- السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.



٢٣ صفر

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ

إنَّ الماء يُمثِّل أهمَّ عناصر البيئة التى تحتاجها جميع الكائنات الحيَّة على وجه الأرض، فللماء أهمِّيَّة قصوى في الاسلام، إذ يُعتبَر نعمة من الله تهب الحياة وتديمها وتُطهِّر البَشَرَ والأرض، وثمَّة إشارات عدَّة في القرآن الكريم إلى المياه وما يتَّصل بها من ظواهر، فعلى سبيل المثال تتكرَّر فيه كلمة (ماء) ثلاثًا وستين مرَّة، وكلمة (نهر) و(أنهار) أربعًا وخمسين مرَّة، وكذلك فإنَّ القرآن يحوي بين دفتيه كلمات لا تبتعد عن الماء في مضمونها ومقتضاها مثل (العيون) و(الينابيع) و(المطر) و(البرد) و(الغمام) و(الرياح) وقد وردت هذه الكلمات في كثيرٍ من الآيات.

بل حتَّى الجنَّة جعل الله فيها من نعيم أهل الجنَّة؛ وجود الأنهار للذين آمنوا وعملوا الصالحات، كما قال ربُّ العالمين: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾[(١)].

ولقد تحدَّث القرآن الكريم عن الماء بأبلغ الكلام؛ ممَّا يُوضِّح أهمِّيَّته وضرورته، ووصفه الله تعالى في كتابه بأوصافٍ عدَّةٍ، منها: الطهور، والمبارك، والغدق، وغيرها.

فممَّا جاء في القرآن الكريم حول الماء؛ إخبار الله عزَّ وجلَّ فيه أنَّ المخلوقات كلَّها من الماء، كما أخبر أنَّ حياة الأرض وما عليها من كائنات كان بالماء، ولو ذهب الماء لماتت الأرض وماتت الكائنات جميعًا، يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ﴾[(٢)]، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾[(٣)].

كما قرَّر القرآن الكريم حقيقةً مُهمَّةً حول الماء، وهي أنَّ أنواع الثمرات المتكاثرة كلَّها تخرج من ماءٍ واحدٍ لا اختلاف فيه، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[(٤)].

وممَّا ورد في القرآن الكريم حول الماء أيضًا؛ امتنان الله على عباده بنعمةِ جعْلِه الماءَ طهورًا لهم، فبها أصبح الماءُ مُطهِّرًا ومُزيلًا للأوساخ والنَّجاسات، فصلحت بذلك حياة الإنسان، قال تعالى:

---

(١) البقرة ٢٥.

(٢) النور ٤٥.

(٣) النحل ٦٥.

(٤) الرعد ٤.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾[١]، وصدق الشاعر حين قال:

إنَّ السَّماءَ إذا لم تبكِ مُقلتُها لم تضحكِ الأرضُ عن شيءٍ منَ الزَّهرِ[٢]

أمَّا السُّنَّة النَّبويَّة فقد جعل رسول الله ﷺ الماء من الأمور المشتركة بين المسلمين، والتي يحرُم على أحدهم امتلاكها إذا ألحق ذلك ضررًا بهم، وتوعَّد فاعلَ ذلك بوعيدٍ شديدٍ، فقال ﷺ:" المسلمون شركاء في ثلاثٍ: في الماء، والكلإ، والنَّار" رواه ابن ماجه[٣]، وقال أيضًا:" ثلاثة لا يُكلِّمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: رجلٌ على فضْل ماء بطريق يمنع منه ابن السبيل، ورجلٌ بايع رجلًا لا يبايعه إلَّا للدنيا؛ فإن أعطاه ما يريد وفَّى له وإلَّا لم يفِ له، ورجلٌ ساومَ رجلًا بسلعةٍ بعد العصر، فحلف بالله لقد أعطى بها كذا وكذا فأخذها" رواه البخاري[٤].

كما جاءت السُّنَّة النَّبويَّة حاثَّة للمسلمين على ترْك الإسراف بالماء، حتَّى وإن كان ذلك خلال الوضوء والاغتسال الشرعي. فقد مَرَّ ﷺ بسَعدٍ بن أبي وقَّاص- رضي الله عنه- وهو يتوضَّأُ، فقال:" ما هذا السَّرَفُ يا سَعدُ؟ قال: أفي الوُضوءِ سَرَفٌ؟ قال: نعمْ، وإنْ كنتَ على نَهرٍ جارٍ" رواه ابن ماجه[٥].

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٦].

قال الشيخ السعدي في تفسيره: أي: أوَلم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربِّهم، وجحدوا الإخلاص له في العبوديَّة؛ ما يدلُّهم دلالة مشاهدة، على أنَّه الربُّ المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء

---

(١) الفرقان ٤٨ – ٥٠.

(٢) يُنظَر: التمثيل والمحاضرة (ص ٢٣٦). التمثيل والمحاضرة، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقِّق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(٣) رواه ابن ماجه في سُننه (٢/ ٨٢٦) برقم (٢٤٧٢) كتاب الرهون. باب المسلمون شركاء في ثلاث. والحديث صحَّحه الألباني كما صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٥/ ٤٧٢).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٧٨) برقم (٢٦٧٢) كتاب الشهادات. باب اليمين بعد العصر.

(٥) رواه ابن ماجه في سُننه (١/ ١٤٧) برقم (٤٢٥) كتاب الطهارة وسُننها. باب ما جاء في القصْد في الوضوء وكراهية التعدِّي فيه. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (١/ ٤٩٧).

(٦) الأنبياء ٣٠.

والأرض فيجدونهما رتقًا، هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما- السماء بالمطر، والأرض بالنبات-، أليس الذي أوجد في السماء السحاب؛ بعد أن كان الجوُّ صافيًا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلدٍ ميّتٍ قد اغبرَّتْ أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزَّتْ، وتحرَّكتْ، وربَتْ، وأنبتَتْ من كلِّ زوجٍ بهيجٍ، مختلف الأنواع، مُتعدِّد المنافع، أليس ذلك دليلًا على أنَّه الحقُّ، وما سواه باطل، وأنَّه مُحيي الموتى، وأنَّه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إيمانًا صحيحًا، ما فيه شكٌّ ولا شِرْكٌ(١).

وقد اختُلِفَ في معنى الآية: هل المراد بها الكائنات الحيَّة المتحرِّكة فقط، لقوله تعالى:﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾(٢)، أم يدخل فيه الأشجار كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾(٣)، والنَّار على اعتبار العموم يُمكنُ إدخالها فيما كان أصله الماء، ويدلُّ له قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾(٥)، والواقع الآن يشهد باستخراج كثير من المحروقات من الماء كالبترول والغاز وغيرهما، وكونُ الماءِ أصلًا للنَّار وهو يخمدها ويُميتها لا غرابة فيه؛ فالإنسان مخلوقٌ من الماء، والماء يُغرقه ويُهلكه، وفي هذا ردٌّ على مَن ذَكَرَ أنَّ النَّار ليست مخلوقةً من الماء، وإنَّما تُخمَدُ بالماء.

إذا الماءُ يومًا أفاضَ عطاهْ	وصارتْ به أرضُنا زاهيهْ
تدفَّقَ شلَّالُه مِنْ عُلاهْ	تلينُ بِهِ أرضُنا القاسيهْ
فمَن يهدرِ الماءَ كان جزاهْ	عذابًا على نفسِهِ الجانيهْ
تعلَّم بُنيَّ فإنَّ المياهْ	نعيشُ بها نِعمةً هانيهْ
فخصَّه ربِّي بِسِرِّ الحياهْ	بِهِ تجرى أنفاسُنا الجاريهْ
صارَ لِزامًا شُكْرُ الإلهْ	ليحفظَهُ نِعمةً غاليهْ(٦)

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٢٢).

(٢) النور ٤٥.

(٣) الأنعام ٩٩.

(٤) يس ٨٠.

(٥) الواقعة ٧١ – ٧٢.

(٦) لم أقف على قائلها.

والخلاصة: أنَّ الماء أساس الحياة على الأرض، وقد أورد الله تعالى ذلك في كتابه، إذ قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾(١)، فهو سائل الحياة الأوَّل، دبَّ في عروق الإنسان ليُسهِّل العمليَّات الحيويَّة فيه، وفي أوراق الشجر، وجرى أنهارًا وعيونًا على سطح الأرض، وأُخرِجَ الماءُ من الأرض إخراجًا، وتلك حقيقةٌ ذَكَرَها الله تعالى في مُحكَمِ آياته، وجاء العلم الحديث فصدَّقها، والواجب علينا أن نعرف قيمة هذه النعمة العظيمة، وأن نحافظ عليها بعدم إهدارها أو الإسراف فيها أو تلويثها، وأن نشكر الله عليها، فدوامُ النِّعمِ مقرونٌ بشُكْرِها.

(١) الأنبياء ٣٠.

٢٤ صفر

ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ

إن الله تعالى اصطفى لصُحبة رسوله ﷺ خير النَّاس وأفضلهم، وهكذا أتباع الرسل وأصحابهم في كلِّ حقبةٍ من حقب الزمان كانوا أفضل النَّاس، وإنَّ أفضل أصحاب الأنبياء على الإطلاق أصحاب رسول الله محمد ﷺ كما قال ابن مسعود:" إنَّ الله نظر في قلوب العباد؛ فوجد قلب محمدٍ ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمدٍ ﷺ؛ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد؛ فجعلهم وزراء نبيِّه ﷺ يُقاتَلون على دينه"(١).

ورُوي عنه أيضًا أنَّه قال:" مَن كان مُستَنًّا فلْيستنَّ بمَن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنةُ، أولئك أصحابُ محمَّدٍ ﷺ كانوا واللهِ أفضلَ هذه الأُمَّة، وأبرَّها قلوبًا، وأعمقَها عِلْمًا، وأقلَّها تكلُّفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضْلهم، واتَّبعوهم في آثارهم، وتمسَّكوا بما استطعتم مِن أخلاقهم ودينهم، فإنَّهم كانوا على الهُدى المستقيم(٢)، وإنَّ خيرَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أبو بكر- رضي الله عنه- صاحبُ رسول الله ﷺ في الغار، ورفيقُه في الأسفار، وضجيعُه في الروضة المحفوفة بالأنوار.

ورُويَ عن مسروق قال: حُبُّ أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- ومعرفةُ فضْلهما من السُّنَّة(٣).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٨٤) برقم (٣٦٠٠). وقال الألباني عنه:" حَسَنٌ موقوف" كما في تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص٥٣٠). تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٠٥). والبغوي في شرح السُّنَّة (١/ ٢١٤). شرح السُّنَّة، المؤلف: مُحيي السُّنَّة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي- دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣٤٩) برقم (٣١٩٣٧) عن الشعبي رحمه الله. ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضْله (٢/ ١١٧٧) برقم (٢٣٢٩) عن مسروق رحمه الله. الكتاب المصنَّف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥ هـ)، المحقِّق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد– الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ. جامع بيان العلم وفضْله، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

وكان السَّلف يُعلِّمون أولادهم حُبَّ أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- كما يُعلِّمونهم السُّورة من القرآن[(١)].

فمن هو أبو بكر؟

إنَّه الصِّدِّيقُ خليفةُ رسول الله ﷺ، وأوَّلُ مَن آمنَ مِن الرجال.

اسمُه عبد الله، ويقال: عتيق بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: اسمُه الذي سمَّاه أهله به "عبد الله"، ولكن غلب عليه "عتيق"، وقال الليث بن سعد: لقبُه "عتيق" لأنَّ وجهه كان جميلًا، وقال ابن الأعرابي: العرب تقول للشيء قد بلغ النهاية في الجودة:" عتيق".

كان أبيض نحيفًا، خفيف العارضين، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، يخضب شيبه بالحناء والكتم، وكان أعلمَ قريشٍ بأنسابها[(٢)].

وُلِدَ أبو بكر- رضي الله عنه- بعد عام الفيل بسنتين وستَّة أشهر، وكان تاجرًا، وقد سافر إلى الشام في تجارته. والتجارة كانت أشرف مكاسب قريش، ولما وُلِّي أراد أن يتجر لعياله فمنعه المسلمون، وقالوا: هذا يشغلك عن مصالح المسلمين، وفرضوا له درهمين كلَّ يومٍ[(٣)].

وقد وُصف بالصِّدِّيق، وصفه به النبي ﷺ، وفي الحديث عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: صعد رسول الله ﷺ أُحُدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان- رضي الله عنهم جميعًا- فرجف بهم، فقال ﷺ:" اثبُتْ أُحُدُ؛ فإنَّما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدان" رواه البخاري[(١)].

---

(١) رُوي عن الإمام مالك رحمه الله في الموطأ (١/ ٢٥٥) رقم (١٠). وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٧/ ١٣١٣) برقم (٢٣٢٥). الموطأ، المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، المحقِّق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية- أبو ظبي- الإمارات، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م. شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، المؤلف: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ)، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة— السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(٢) يُنظَر: سير أعلام النبلاء (راشدون/ ٧). ويُنظَر ترجمته فيه (راشدون/ ٧-٧٠). سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨ هـ)، المحقِّق: مجموعة من المحقِّقين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٣) يُنظَر: أبو بكر الصديق أفضل الصحابة، وأحقُّهم بالخِلافة (ص ١٤). أبو بكر الصديق أفضَلُ الصَّحَابة، وَأحقُّهم بالخِلافة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي (المتوفى: ١٤٢١هـ).



وهو أوَّل مَن أسلم، وكان إيمانه قويًا عظيمًا، يفوق كلَّ وصفٍ، ولعلَّ أصدق ما يُوصَفُ به قول النبي ﷺ:" ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلَّا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردُّد، إلَّا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم (أي: ما تباطأ) حين ذكرتُ له وما تردَّد" رواه البيهقي(٢).

وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ:" أرحمُ أُمَّتي بأُمَّتي أبو بكر" رواه الترمذي(٣).

وكان له دور كبير في تثبيت دعائم الدين الجديد، فقد كان يبذل من نفسه وماله؛ فقد أعتق سبعة ممَّن كانوا يُعذَّبون في الله؛ منهم بلال بن رباح وعامر بن فهيرة، حتَّى أنَّه أنفق ثروته التي اكتسبها من تجارته، والتي كانت تُقدَّر بنحو أربعين ألف درهم؛ أنفقها كلَّها في سبيل الله، فلمَّا هاجر إلى المدينة بعد نحو عشر سنوات؛ لم يكن معه من ذلك كلِّه غير خمسة آلاف درهم، وقد ذكر له النبي ﷺ ذلك وأثنى عليه فقال:" ما نفعني مالٌ ما نفعني مالُ أبي بكر" رواه الترمذي(٤)، وهو أوَّل من أوذي في الله؛ آذاه الكُفَّار على إيمانه حتَّى خرج من مكَّة مُهاجِرًا إلى أرض الحبشة؛ ولقيه ابن الدغنة فقال له: إنَّ مِثْلَكَ لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَجُ.

ويختار النبي ﷺ أبا بكر- رضي الله عنه- لصحبته في هجرته، وهذا شرفٌ لا يُدانيه شرفٌ، كما قال الله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(٥)، فقلتُ: يا رسول الله؛ لو أنَّ أحدهم رفع قدَمه رآنا؛ فقال ﷺ:" يا أبا بكر؛ ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟!" رواه البخاري ومسلم(٦).

يقول شاعرنا الدكتور عبد الرحمن العشماوي:

قَالوا: هو الصِّدِّيقُ، قلتُ: كفاهُ ... مَا يحفظُ التاريخُ مِن ذكراهُ
يَكفي أبا بكرٍ فخارًا أنَّهُ ... في هجرةِ المختارِ قد آخاهُ

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٩) برقم (٣٦٧٥) كتاب أصحاب النبي ﷺ. باب قول النبي ﷺ:« لو كُنتُ مُتَّخِذًا خليلًا».

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٦٤) جماع أبواب المبعث. دلائل النبوة، تأليف: الإمام البيهقي (٣٨٤- ٤٥٨هـ)، وثَّق أصوله وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: الدكتور/ عبد المعطى قلعجى، الناشر: دار الكتب العلمية- ودار الريان للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٦٦٤) برقم (٣٧٩٠) أبواب المناقب. باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأُبي، وأَبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ٢٩٠).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٦٠٩) برقم (٣٦٦١) أبواب المناقب. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ١٦١).

(٥) التوبة ٤٠.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٤) برقم (٣٦٥٣) باب مناقب المهاجرين وفضْلهم. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٤) برقم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم. باب مِن فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قَطعَ الجبالَ الراسياتِ مُرافِقًا لأعـزِّ خلْـقِ اللهِ حيـنَ دعَـاهُ
وَتعجَّبَتْ منهُ الرِّمالُ وقدْ مَشَى تقفو خُطى الهادي البشيرِ خُطاهُ
يَمـشي أمَـامَ المصطَفَى ووراءَهُ مَشْيَ المحِبِّ تفطَّـرَتْ قدمَـاهُ[١]

قال الشيخ السعدي في تفسيره: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾أي: هو ﷺ وأبو بكر الصِّدِّيق- رضي الله عنه- ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾أي: لما هربا من مكَّة، لجآ إلى غار ثورٍ في أسفل مكَّة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب، فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقَّة، حين انتشر الأعداء من كلِّ جانبٍ يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال ﴿إِذۡ يَقُولُ﴾النبي ﷺ ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أبي بكر لما حزن واشتدَّ قلقُه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بعونه ونصره وتأييده، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلقَ صاحبُه سكَّنه وقال: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرسًا له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإنَّ الذين كفروا قد كانوا على حَردٍ قادرين، في ظنِّهم على قتْلِ الرسول ﷺ وأخْذه، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يُتِمَّ لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئًا منه[٢].

والخلاصة: أنَّه علينا أن نقرأ سيرة هؤلاء العظماء بحقٍّ، بدل هؤلاء التافهين الذين تصدَّروا المشهد، ويُطلَق عليهم ألقاب النُّجوم والأساطير، فهؤلاء الصَّحابة هم القُدوة الحقيقيَّة الذين يجب علينا أن نهتدي بهداهم، ونقتفي آثارهم.

أولئكَ آبائي فجئْنِي بمثلِهِمْ إذَا جمعتْنا يا جريرُ المجامِعُ[٣]

---

(١) من قصيدة للدكتور عبد الرحمن العشماوي بعنوان" أبو بكر الصديق رضي الله عنه".
https://www.aldiwan.net/poem6770.html.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٣٨).

(٣) البيت للفرزدق، من قصيدة له بعنوان "مِنَّا الذي"، وهي في ديوانه (ص ٣٦٠). ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدَّم له: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٢٥ صفر

إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ

يقول ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾[١].

قال الشيخ السعدي في تفسيره: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: رأى كلٌّ منهما صاحبه، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ شاكين لموسى وحزنين ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فـ ﴿قَالَ﴾ موسى، مُثَبِّتًا لهم، ومُخبِرًا لهم بوعد ربّه الصادق: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم أنَّكم مُدركون، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضربَه ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ اثني عشر طريقًا ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الجبل الْعَظِيمِ، فدخله موسى وقومه[٢].

وقد جاءت لفظة المعيَّة في ثمان عشرة آية من آي الذِّكْر الحكيم، تفيد معيَّة الله سبحانه لخلْقه، ودلَّت هذه النصوص القرآنيَّة على ورودها على معنيين اثنين.

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: معيَّة الله عزَّ وجلَّ تنقسم إلى قسمين: عامَّة وخاصَّة، والخاصَّة تنقسم إلى قسمين: مُقيَّدة بشخصٍ، ومُقيَّدة بوصفٍ، أمَّا العامَّة فهي التي تشمل كلَّ أحدٍ من مؤمنٍ وكافرٍ، وبرٍّ وفاجرٍ، ودليلُها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٣]. أمَّا الخاصَّة المقيَّدة بوصف؛ فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٤]، وأمَّا الخاصَّة المقيَّدة بشخصٍ مُعيَّنٍ؛ فمثل قوله تعالى عن نبيِّه ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٥]، وقال تعالى لموسى وهارون- عليهما السلام-: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٦]، وهذه أخصُّ من المقيَّدة بوصفٍ، فالمعيَّة درجات: عامَّة مُطلَقة، وخاصَّة مُقيَّدة بوصفٍ،

---

(١) الشعراء ٦١ – ٦٦.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٩٢).

(٣) الحديد ٤.

(٤) النحل ١٢٨.

(٥) التوبة ٤٠.

(٦) طه ٤٦.

وخاصَّة مُقيَّدة بشخصٍ، فأخصُّ أنواع المعيَّة ما قُيِّد بشخصٍ، ثم ما قُيِّد بوصفٍ، ثم ما كان عامًّا، فالمعيَّة العامَّة تستلزم الإحاطة بالخلْق علمًا وقدرة، وسمعًا وبصرًا، وسلطانًا وغير ذلك من معاني ربوبيَّته، والمعيَّة الخاصَّة بنوعَيْها تستلزم مع ذلك النصر والتأييد(١).

ولقد ذكرتُك والخطوبُ كوالحٌ ... سودٌ ووجْهُ الدَّهرِ أغْبَرُ قاتِمُ

فهتفْتُ في الأسحارِ باسمِكَ صارخًا ... فإذا مُحيًّا كُلِّ فجرٍ باسِمُ(٢)

وإنَّ لمعيَّة الله تعالى لعبده آثارًا تعود عليه بالخير في عاجل أمره وآجله، منها ما يتعلَّق بالمعيَّة الخاصَّة، ومنها ما يتعلَّق بالمعيَّة العامَّة؛ أمَّا بالنسبة للمعيَّة العامَّة فإنَّ من أهمِّ آثارها:

١. تربية المهابة في نفوس النَّاس من هذا الإله العظيم العليم بالسِّرِّ وأخفى.

٢. الإسراع بالطاعة والإقلاع عن المعصية لإحاطة علْمه تعالى بخلْقه.

أمَّا ما يتعلَّق بالمعيَّة الخاصَّة، فمن آثارها:

١. مَن كان الله معه فلا يغلبُه أحدٌ، فهو يتَّصل بمصدر القوَّة، وهي قوَّة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده.

٢. لا يشعر صاحب المعيَّة بوحشة؛ لأنَّ معه ربَّه يُؤنسه ويُثبِّته ويُقوِّيه.

٣. الشعور بالاطمئنان والهدوء النفسي، كما قال موسى- عليه السلام- بكلِّ ثقةٍ واعتزازٍ لما حاصره فرعون وجنوده ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾(٣).

اشدُدْ يديك بحبلِ الله مُعتصِمًا ... فإنَّه الرُّكنُ إنْ خانتْكَ أركانُ

مَنْ يتَّقِ اللهَ يُحمَدْ في عواقِبِهِ ... ويكْفِه شرَّ مَن عَزُّوا ومَن هانُوا

ومَنِ استعانَ بغيرِ اللهِ في طلبٍ ... فإنَّ ناصرَهُ عجزٌ وخُذلانُ(٤)

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (١/ ٤٠١). شرح العقيدة الواسطية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، خرَّج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السادسة، ١٤٢١هـ.

(٢) ذُكِرَ هذان البيتان في أرشيف ملتقى أهل الحديث- ٥ (٧/ ١٧٧). ولم أقف على قائلهما.

(٣) الشعراء ٦٢.

(٤) قصيدة عنوان الحكم (ص ٣٦). قصيدة عنوان الحكم، المؤلف: علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البُسْتي، أَبُو الفَتح (المتوفى: ٤٠٠هـ)، المحقِّق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.



وهناك أسبابٌ لمعيَّة الله الخاصَّة لعباده، وقد ذَكَرَهَا الله في القرآن؛ حيث إنَّه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أدلَّ على الله من الله؛ لذلك فإنَّ هناك أوصافًا مَنِ اتَّصف بها كان الله معه؛ ومنها:

١- الإيمان: فالله سبحانه وتعالى مع أهل الإيمان به وبرسوله ﷺ وكتابه، وجميع أركان الإيمان، وكلُّ ذلك جاء عن الله ورسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، فمَن حصَّل مِن أسباب الإيمان أكثر؛ كان نصيبُه مِن معيَّة الله له بالتأييد والنصر أعلى وأوفى.

٢- التقوى: من الأمور التي رتَّب الله سبحانه وتعالى عليها معيَّته الخاصَّة؛ التقوى، وهي في معناها العام:" امتثالُ الأوامرِ واجتنابُ النَّواهي"، أو كما عرَّفها بعضُ السَّلف: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثوابَ الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقابَ الله؛ لذلك رفع الله من شأن المتَّقين؛ فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

٣- الصبر: فالعبد مُحتاجٌ للصبر في عمل الطاعة، وترْك المعصية، وتحمُّل الأقدار المؤلمة، فكُن ممَّن ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾(٣)؛ لتنال معيَّة الله سبحانه وتعالى بصبرك على طاعة الله، وتحمُّل المشقَّة فيها، ومدافعة الشيطان والهوى والنفس التي تطلب الدعة والراحة، وأيضًا الابتعاد عن المعاصي والشهوات المحرَّمة، والله يُخبرُنا بالمكافأة على ذلك بقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٤)، وإذا كان الله معك فأنت في خيرٍ، ومردُّك إلى خيرٍ.

٤- الإحسان: أخبر الله في كتابه في خواتيم سورة النحل عن معيَّته لفريقين؛ حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٥)، فبإحسانك في عبادتك، وإحسانك إلى غيرك؛ يكون الله معك، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ:"واللهُ في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه" رواه مسلم(٦)، وقوله ﷺ أيضًا:" أحبُّ النَّاسِ إلى الله أنفعُهم للنَّاس" أخرجه الطبراني(٧)؛ فمَن جمَعَ هذين المقامين: الإحسان في عبادة الخالق، والتعامل مع المخلوق؛ فلْيُبشَّرْ بمعيَّة الله له بالنصر والتأييد والتوفيق في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٨).

---

(١) الأنفال ١٩.

(٢) البقرة ١٩٤.

(٣) الرعد ٢٢.

(٤) الأنفال ٤٦.

(٥) النحل ١٢٨.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤) برقم (٢٦٩٩) كتاب الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل الاجتماع على تلاوة القرآن.

(٧) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ١٤٠) برقم (٦٠٢٦). والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٧٤).

(٨) الزمر ٣٤.

والخلاصة: أيُّها المسلم؛ لا تحرم نفسك من الأخْذ بأسباب معيَّة الله؛ فالله تعالى يُعطي على القليل كثيرًا، ويُجازي عباده من حيث لا يحتسبون، ويُضاعِف لهم الأجر؛ فقد قال الله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1].

(١) فاطر ٣٠.



٢٦ صفر

يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا

بعث الله تعالى نوحًا- عليه السلام- إلى قومه بعد أن عبدوا أصنامًا كانت لرجالٍ صالحين منهم؛ تخليدًا لذكراهم بعد مماتهم، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾[١]، فبعث الله فيهم نوحًا نبيًّا ورسولًا.

بدأ نوح- عليه السلام- بعثته بدعوة قومه إلى الإيمان بالله والتوحيد وإفراد العبادة لله تعالى وحده، وذكر لهم فائدة اتِّباع أمره، وطاعته في غفران ذنوبهم، قال تعالى على لسان نبيّه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾[٢]، وترك معاقبتهم، وإمهالهم إن هم آمنوا بالله ورسوله إلى أن يحين أجلُهم الذي كتبه الله لهم، قال تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾[٣].

وقد دعا نوح- عليه السلام- قومَه باستخدام شتّى الأساليب؛ حتَّى يؤمنوا بالله تعالى، قال عزَّ وجلَّ على لسان نبيِّه الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾[٤] وفي هذه الآية وصفٌ لحال قوم نوح- عليه السلام- حينما كان يدعوهم نبيُّهم إلى الإيمان؛ حيث كانوا يَفِرُّون منه، ويجعلون أصابعهم في آذانهم؛ كي لا يسمعوا كلامه، كما أنَّهم كانوا يتغطُّون بثيابهم، مُصِرّين على جحودهم، ومُستكبِرين في عنادهم. دعا نوح- عليه السلام- قومه سِرًّا فيما بينه وبينهم، كما دعاهم عَلنًا بصوتٍ مرتفعٍ، وأمرهم باستغفار الله تعالى، وذكَّرهم بعاقبة التائبين المستغفِرين حينما يرسلُ الله عليهم السماءَ مُتتابعةً بالرزق الوفير، ويُمدِدُهم بالأموال والبنين، ويُصيّرُ أرضَهم جنَّاتٍ وأنهارًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾[٥].

ثم ذكَّر نوح- عليه السلام- قومَه بعظمة الله تعالى التي تتجلَّى في خَلْق الإنسان أطوارًا؛ حيث يبتدِئُ خَلْقَه نُطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم يخلق الله العظام، ويكسوها اللحمَ، وقد قابل قوم نوح-

---

(١) نوح ٢٣.

(٢) نوح ٤.

(٣) نوح ٤.

(٤) نوح ٥-٧.

(٥) نوح ٨-١١.

عليه السلام- دعوته بالعصيان والمخالفة والإصرار على ما فيهم من الجحود والضلالة ومَكروا لنبيِّهم مكرًا عظيمًا.

وحينما استيأس نوح- عليه السلام- من دعوة قومه؛ دعا عليهم، ومن دعائه ما جاء في قوله تعالى على لسان نوح- عليه السلام-: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾(١)؛ أيْ أنْ يطبع الله على قلوبهم بضلالهم فلا يهتدوا إلى الحقِّ، ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(٢)؛ أي ربِّ لا تترك الكافرين على هذه الأرض؛ لأنَّهم إن تُرِكوا أضلُّوا النَّاس عن سبيل الحقِّ والهُدى، ولا يلدون إلَّا الذي لا يؤمن بدينك، ويجحد نعمتك.

ثم أكَّدت قصَّة نوح- عليه السلام- على أنَّ النَّسب والقرابة والرابطة الزوجيَّة لا تشفع لصاحبها إذا أصرَّ على الكفر بالله تعالى والصَّدِّ عن سبيله؛ فقد ضرب الله جلَّ وعلا في كتابه العزيز مَثلًا للذين كفروا، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(٣).

إذ كانت كلٌّ من امرأة نوح وامرأة لوط في عصمة نبيَّين صالحَين من عباد الله، وكانت زوجة نوح- عليه السلام- تُعين قومها على زوجها؛ حين كانت تتَّهمه بالجنون، إلى جانب أنَّها لم تؤمن بدعوته؛ فكان ذلك الأمرُ بمثابة خيانة لزوجها؛ ولذلك استحقَّت تلك المرأةُ العذابَ من عند الله تعالى مع مَن كَفر من قوم نوح، ولم تنفعْها رابطة الزوجيَّة مع رجلٍ كانت مكانته عالية عند ربِّه في دَفْع العذاب عنها؛ فكلُ إنسانٍ مسؤولٌ أمام ربِّه عن نفسه.

أوحى الله إلى نوح- عليه السلام- أن يصنعَ سفينة مصنوعة من الأخشاب، قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾(٤)؛ وبدأ نوح- عليه السلام- في صناعة السفينة بأمْرِ الله تعالى له؛ حيث جلب الأخشاب، وصَنع من مادَّتِها الألواح، ثم وضَع الألواح بجانب بعضها، وثبَّتها بالدُّسُر أي المسامير، وكان قومُه كُلَّما مَرُّوا عليه يسخرون منه؛ لِصُنْعِه السفينة على اليابسة، قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا

(١) نوح ٢٤.

(٢) نوح ٢٦- ٢٧.

(٣) التحريم ١٠.

(٤) القمر ١٣.



﴿تَسۡخَرُونَ﴾[١].حتَّى إذا جاء أمْرُ الله، وفارَ التَّنُّورُ الذي كان مصنوعًا من حجارة، عِلْمًا أنَّ الله سبحانه جَعَلَ فوران الماء منه علامةً على مجيء أمْره، وقد أمَرَ اللهُ نوحًا– عليه السلام– أن يحمل على السفينة من كلِّ شيءٍ حيٍّ زوجَين؛ ذكرًا وأنثى. ثم أبحرتْ سفينة نوح– عليه السلام– بهم عبر المياه المرتفعة، تدفعها الريح الشديدة التي تُشبه الجبال في عُلوِّها وعَظَمَتِها، فقد رُوِي عن ابن كثيرٍ أنَّ طول الماء بلغ خمسة عشر ذراعًا، بينما ورد في رواية أخرى: أنَّه بلغَ ثمانين ذراعًا[٢].

ونهى الله سبحانه وتعالى نوحًا– عليه السلام– أن يتشفَّع للكافرين مهما كانت صلة القرابة به ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[٣].

ثم حدث أنْ رأى نوح– عليه السلام– ولده يغرق، وظنَّ أنَّه من المؤمنين؛ حيث لم يُصرِّحْ له بالكُفر، فدعاه إلى الركوب فى السفينة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٤]، لذا قال: ولا تكن مع الكافرين، ولم يقل: مِن الكافرين. لأنَّه لو علم بكُفره ما ناداه للركوب. وكان ردُّ ولدِه غيرَ صريحٍ فى إعلان الكُفر، بل فيه اعتماد على نفسه وقُوَّته وحيلته التى يمكن أن ينجو بها من الغرق ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي﴾ فردَّ عليه أبوه ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ وكانت النتيجة أن حال بينهما الموج فكان من المغرَقين. وشاء الله أن يغرق الابن بعيدًا عن عين الأب، رحمةً منه سبحانه وتعالى بالأب كي لا يشاهد مصرع ابنه.

ولعدم علْمِ نوحٍ– عليه السلام– يقينًا بكُفْرِ ولده؛ سأل ربَّه مُستوضِحًا: لماذا أُغرِقَ؟ فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[٥]، فردَّ الله عليه بأنَّه ليس من أهله المؤمنين فى الحقيقة.

وإن كان يبدو له أنَّه مُؤمنٌ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[٦]، والمعنى أنَّ القرابة المنجِّية من العذاب هى قرابة الإيمان لا قرابة النَّسَب، وكان عليك أن تتحرَّى حال ولدك وهو يعيش معك أو قريبًا منك لتتأكَّد من

---

(١) هود ٣٨.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٣) .

(٣) هود ٣٧.

(٤) هود ٤٢.

(٥) هود ٤٥.

(٦) هود ٤٦.

إيمانه، فإنَّ مقامك غير مقام عامَّة النَّاس، وليس قوله له: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وصفًا له بأنَّه جاهلٌ والعياذ بالله، بل تحذير له أن يكون في المستقبَل جاهلًا، كما قال الله تعالى لسيِّدنا محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1]، وقوله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]، فلم يكن النبي ﷺ جاهِلًا ولا مُشْرِكًا حين خاطبه الله بذلك، وعلى هذا كان نوحٌ- عليه السلام- بريئًا ممَّا يُخالِف عصمة الأنبياء.

إِنِّي بَرِئتُ مِنَ الأصنامِ قاطبةً ... وآمنتُ باللهِ الذي هو غالبُ[3]

---

(١) الأنعام ٣٥.

(٢) القصص ١٨٧.

(٣) يُنسَبُ هذا البيت لأبي ذَرٍّ رضي الله عنه. يُنظَر: شرح البخاري للسفيري= المجالس الوعظيَّة في شرح أحاديث خير البريَّة (٢/ ٤٤). المجالس الوعظيَّة في شرح أحاديث خير البريَّة ﷺ من صحيح الإمام البخاري، المؤلف: شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفيري الشافعي (المتوفى: ٩٥٦هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: أحمد فتحي عبد الرحمن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.



٢٧ صفر

مطهرةٌ للفم مرضاةٌ للربِّ

لقد جمعت الشريعة الإسلامية من كلِّ شيءٍ أحسنه، وَحَوَتْ من الآداب والشمائل ما لم يجتمع في غيرها من الشرائع، وإنَّ من محاسن الشريعة الإسلامية؛ اعتناءها بنظافة الفرد المسلم باطنًا وظاهرًا، والتأكيد على كلِّ ما يجعل مظهره مثاليًّا، ومن مظاهر هذا الاعتناء؛ الأمْرُ بسُنن الفطرة كالسِّواك حيث أوصى النبي ﷺ بالمداومة عليه.

فالسِّواك من محاسن الشرع الكريم، وهو استعمالُ عودٍ أو نحوه في نظافة الأسنان، لإذهاب التغيُّر ونحوه، وله فوائد دينيَّة وصحيَّة، وهو خصلة من خصال الفطرة، واظب عليه النبي ﷺ ورغَّب فيه، ويتأكَّد استعماله عند الوضوء، وعند الصلاة، وعند القيام من النَّوم، وعند دخول المنزل، وعند تغيُّر الفم واصفرار الأسنان، وهو سُنَّةٌ في كلِّ وقتٍ وعلى كلِّ حالٍ، حتَّى للصائم قبل الزوال وبعده، لعموم النُّصوص الواردة في الحثِّ عليه من غير تخصيص وقتٍ دون آخر، ويجوز أيضًا بحضرة النَّاس وفي المساجد، لأنَّه ﷺ فَعَلَه ولم يختفِ به، وأفضل آلةٍ للسِّواك هي الأراك، لما فيه من طيبٍ وريحٍ وتشعيرٍ يُخرِج بقايا الأطعمة ونحوها، ويُنقِّي ما بين الأسنان، شهد لذلك علماءُ الطِّبِّ بعد أن أجرَوا عليه بُحوثًا أثبتتْ ذلك، واستعمال الفرشاة والمعجون من السِّواك، وهو يقوم مقام السِّواك في التنظيف وإزالة الرائحة والبخر.

وكيفيَّة الاستياك أن يمُرَّ السِّواك عرضًا في ظاهر الأسنان وباطنها، ويمُرَّ به المسلم أيضًا على أطراف أسنانه وكراسيِّ أضراسه وسقْف حلْقه.

والسِّواكُ مَندوبٌ إليه، وهو مِن سُنَنِ الفِطرةِ، وهذا باتِّفاقِ المذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلة، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.

فعن أبي هُرَيرةَ- رَضِيَ اللهُ عنه- أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال:" لولا أن أشُقَّ على أمَّتي- أو على النَّاس- لأمَرتُهم بالسِّواكِ مع كلِّ صلاةٍ" رواه البخاري(١)، وفي روايةٍ:" ومع كلِّ وُضوءٍ"(٢) فلو كان السِّواكُ واجبًا لأمرَهم ﷺ به شقَّ أو لم يشُقَّ.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٤) برقم (٨٨٧) كتاب الجمعة. باب السِّواك يوم الجمعة.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦/ ٢٢) برقم (٩٩٢٨). والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩٤٠). صحيح الجامع الصغير وزياداته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.

وعن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عنها-:" أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا دخَلَ بَيتَه بدأ بالسِّواكِ" رواه مسلم(١).

وعن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عنها- أيضًا قالت: قال رسولُ الله ﷺ:" عَشْرٌ مِن الفِطرة: منها السِّواك" رواه مسلم(٢).

وأفضلُ ما يُستاكُ به العُودُ، فقد كان عبدُ اللهِ بن مسعود- رَضِيَ اللهُ عنه- يجتني سِواكًا من الأراكِ، وكان دقيقَ السَّاقينِ فجعَلَت الرِّيحُ تَكفَؤُه، فضَحِكَ القَومُ منه، فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: ممَّ تَضحكونَ؟! قالوا: يا نبيَّ اللهِ؛ مِن دِقَّةِ ساقَيه، فقال:" والذي نَفسي بِيَدِه؛ لَهُما أثقَلُ في الميزانِ مِن أُحُدٍ" رواه أحمد(٣).

وعن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عنها- قالتْ:" تُوفِّيَ النبيُّ ﷺ في بَيتي وفي يومِي، وبينَ سَحْري ونَحْري، وكانت إحدانا تُعَوِّذُهُ بدُعاءٍ إذا مَرِضَ، فذهبتُ أُعَوِّذُهُ، فرَفَع رأسَه إلى السَّماءِ، وقال: في الرَّفيقِ الأعْلَى، في الرَّفيقِ الأعْلَى، ومرَّ عبدُ الرَّحمنِ بنُ أبي بكرٍ، وفي يدِهِ جَريدَةٌ رَطْبَةٌ، فنظرَ إليه النبيُّ ﷺ، فظَنَنْتُ أنَّ له بها حاجةً، فأخذتُها، فمضَغْتُ رأسَها، ونَفَضْتُها، فدفَعْتُها إليه، فاسْتَنَّ بها كأحسَنِ ما كان مُسْتَنًّا، ثم ناوَلَنِيها، فسقطتْ يدُهُ، أو: سقطتْ مِن يدِهِ، فجمعَ اللهُ بين رِيقي وريقِهِ في آخِرِ يومٍ مِنَ الدُّنيا وأوَّلِ يومٍ مِنَ الآخِرةِ" رواه البخاري(٤).

ويُستَحَبُّ السِّواكُ عند كلِّ صلاةٍ وعند كلِّ وضوءٍ، وعند الاستيقاظ من النَّوم، وعند قراءة القرآن، وقد ورد عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال:" إنَّ أفواهكم طُرُقٌ للقرآن، فطيِّبوها بالسِّواك" رواه ابن ماجه(٥)، ولو كان خارج الصلاة، وألحقَ العلماءُ بهذا عند قراءة الحديث، أو حضور مجالس العلْم، وذِكْرِ الله عمومًا، قال بعضهم: يُندَبُ أن يُزيل قلح الفم، ووسخ الأسنان بالسِّواك لذِكْرِ الله تعالى، والملائكةُ تحضر مجالس العلْم، والملائكةُ تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدم، فإذا كانوا يحضرون مجالس العلْم؛ فإنَّ السِّواك من آداب مجالس العلْم، ولأنَّ الملائكةَ يحضرون الميت، قالوا: لو تسنَّى للمُحتَضِر أن يستاك فلْيستكْ، وقد ورد أنَّ النبي ﷺ تسوَّك قُبيل موته، فقالوا: إذا تمكَّن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٢٠) برقم (٢٥٣) كتاب الطَّهارة. باب السِّواك.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٢٣) برقم (٢٦١) كتاب الطَّهارة. باب خِصال الفطرة.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٧/ ٩٨) برقم (٣٩٩١). والحديث حسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٥٨٢).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣) برقم (٤٤٤٩) كتاب المغازي. باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٥) رواه ابن ماجه في سُننه (١/ ١٠٦) برقم (٢٩١) كتاب الطَّهارة وسُننها. باب السِّواك. والأثر صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (١/ ٣٦٣).

المحتَضِرُ من الاستياك، أو أشار أن يُعطوه سِواكًا فلْيُعطوه سِواكًا قبل الموت، فالملائكة تحضر، حتَّى قالوا: إنَّه يُسهِّل خروج الروح، ونحو ذلك، والله أعلم بهذا، وهو من أمور الغيب، لكنَّ النبي ﷺ ثبتَ أنَّه استاك وهو يَحتضِر، ويُستَحَبُّ كذلك الاستياكُ عند قيام الليل، ويُستَحَبُّ أيضًا لمجامع النَّاس، خصوصًا إذا كان قادمًا من سفر، وهناك مُعانَقة، أو يُسلِّم على عالِمٍ- مثلًا-، ويقترب منه، ويضع وجهه مُقابِل وجهه، أو سائل يُسِرُّ إلى عالِمٍ بشيءٍ، أو نحو ذلك، وكذلك عند الذهاب إلى المسجد؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(١)، وهذا من تمام الزينة، والمسجد- أصلًا- فيه اجتماع الملائكة واجتماع النَّاس، وتطييب الرائحة فيه مُؤكَّد، وقالوا أيضًا: إنَّ السِّواك مُستَحَبٌّ للالتقاء بالأهل، وله دليلٌ قوِيٌّ، وهو حديثُ النبي ﷺ:" كان إذا دخل بيته بدأ بالسِّواك" رواه مسلم(٢)، ولذلك قالوا: حتَّى عند الجماع؛ لأنَّ فيه ملامسة الرجل المرأة والاقتراب منها، ولعموم حديث:" السِّواك مطهرةٌ للفم، مرضاةٌ للرَّبِّ" رواه النسائي(٣)، فمعناه: أنَّه يُمكِن أن يُستعمَل السِّواكُ في أيِّ وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ.

وقال ابن العثيمين- رحمه الله-: والسِّواك ذَكَرَ النبي ﷺ فيه فائدتَينِ عظيمتَينِ كما في حديث عائشة- رضي الله عنها- أنَّ النبي ﷺ قال:" السِّواك مطهرةُ للفم مرضاةٌ للرَّبِّ" رواه النسائي.

(مطهرةٌ للفم) يعني: يُطهِّر الفم من الأوساخ والأنتان وغير ذلك ممَّا يضرُّ، وقوله (للفم) يشمل كلَّ الفمِ؛ الأسنان واللثة واللِّسان، كما في حديث أبي موسى- رضي الله عنه- أنَّه دخل على النبي ﷺ وطرف السِّواك على لسانه(٤)، والفائدة الثانية (مرضاةٌ للرَّبِّ) أي أنَّه من أسباب رضا الله عن العبد(٥).

والخلاصة: كما قال ابن القيِّم- رحمه الله-: في السِّواك عدَّة منافع: يُطيِّب الفم، ويشدُّ اللثة، ويقطع البلغم، ويجلو البصر، ويذهب بالحفر، ويصحُّ المعدة، ويُصفِّي الصوت، ويُعين على هضم

---

(١) الأعراف ٣١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٢٠) برقم (٢٥٤) كتاب الطِّهارة. باب السِّواك.

(٣) رواه النسائي في السُّنن الكبرى (١/ ٧٥) برقم (٤) كتاب الطَّهارة. الترغيب في السِّواك. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن النسائي (١/ ١٤٩).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٢٠) برقم (٢٥٤) كتاب الطَّهارة. باب السِّواك.

(٥) شرح رياض الصالحين (٥/ ٢٢٦).

الطعام، ويُسهِّل مجاري الكلام، ويُنشِّط للقراءة والذِّكْر والصلاة، ويطرد النَّوم، ويُرضِي الرَّبَّ، ويُعجب الملائكة، ويُكثِر الحسنات[١].

وكان- ولا زال- الصالحون يتهادون السِّواك، وقد بعثَ بعضُهم إلى أخٍ له سِواكًا، وكتبَ إليهِ:

جَعلتُ هديّتي لكمُ سِوَاكَا ... ولــمْ أُوثِرْ بِهِ أحدًا سِوَاكَا

بَعثتُ إليكَ عُودًا مِنْ أراكٍ ... رَجاءَ أنْ تعودَ وأَنْ أرَاكَا[٢]

(١) زاد المعاد في هدْي خير العباد (٤/ ٢٩٦). زاد المعاد في هدْي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٢) لم أقف على قائلها.



٢٨ صفر

صَلَاة البَرْدَينِ

إنَّ أهم ما يُميِّز فريضة الصلاة أنَّها كُتبت على المسلمين ليلة أُسري بالنبيِّ ﷺ إلى السَّماء في رحلة المعراج، فهي أهمُّ الفرائضِ وأوجبُ العباداتِ، وشاء الله أن تكون الصلواتُ المكتوباتُ خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلة، وقد وعد الله تعالى المحافِظين على أدائها بالجنَّة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكۡرَمُونَ﴾[1]، وتوعَّد الذين يُفرِّطون فيها ويتقاعسون عن إقامتها بالخسران يوم القيامة؛ حيث قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[2].

ومن الصلوات المفروضة ما يُعرَفُ بصلاة البَرْدَينِ، والبَرْدَانِ في اللغة: اسمٌ مُثنًّى من الفعل بَرَدَ، يقال: طَقْسٌ به بُرودةٌ، فالبرودة: نقيضٌ للحرارة، ومن استخدامات المصطلح عند العرب قولُهم: أذاقَكَ اللهُ البَرْدَينِ، أي: الغنى والعافية، والبَرْدَانِ هما: الظِّلُّ والفيء.

والبَرْدَانِ في الاصطلاح الشرعي: مُثنَّى بَرْد، بفتح الباء وتسكين الراء، وهما صلاة الصُّبح وصلاة العصر، وفي هذا يقول النبي ﷺ:" مَن صلَّى البَرْدَينِ دخلَ الجنَّة" رواه البخاري ومسلم[3]؛ وذلك لأنَّهما يقعان في زمانَينِ يشتركان فيه في الإبراد، فتقع صلاة الفجر في أبردِ ما يكون من اللَّيل، وتقع صلاة العصر في أبردِ ما يكون من النَّهار بعد زوال الشمس، وقال الخطابي: لأنَّهما يُصلَّيَانِ في بَرْدَي النَّهار، أي: طرفَيْه، حيث يطيب فيهما الهواء، وتذهب عنهما سَوْرَةُ الحرِّ[4].

لقد جعل الله تعالى للصلاة أوقاتًا مُحدَّدة شرعًا يجب أن تُؤدَّى فيها؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾[5]، والصلاة إذا أُدِّيتْ في وقتها تُسمَّى أداءً، وإن صلاها العبد بعد خروج وقتها سُمِّيتْ قضاءً، وأوقات الأداء عند الفقهاء هي أوقات الجواز أو التوسعة، والأوقات التي تصِحُّ فيها صلاتا الفجر والعصر أداءً لا قضاء كالآتي:

---

(١) المعارج ٣٤ – ٣٥.

(٢) مريم ٥٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٩) برقم (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل صلاة الفجر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٤٠) برقم (٦٣٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصبح والعصر.

(٤) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/ ٤٤٨). أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)، المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨ هـ)، المحقِّق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، الناشر: جامعة أُمِّ القُرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.

(٥) النساء ١٠٣.

وقت صلاة الفجر: وسُمِّيتْ باسم وقتها من اليوم، لِتَفَجُّرِ النُّورِ بعدها، وتُسمَّى أيضًا صلاة الصُّبح، وأوَّل وقتها طلوع الفجر الصادق، ويُقصَد به: البياض المستطير حين ينتشر في الأُفُق، أمَّا آخر وقتِ صلاة الفجر فيكون بطلوع الشمس؛ لقول النبي ﷺ:" ووقتُ صلاةِ الصُّبحِ مِن طُلوعِ الفَجرِ؛ ما لَم تَطلُعِ الشَّمسُ، فإذا طَلَعتِ الشَّمسُ فأمسِكْ عن الصَّلاةِ؛ فإنَّها تَطلُعُ بين قرنَيْ شَيطَانٍ" رواه مسلم(١).

ووقت صلاة العصر: واسمها مأخوذٌ من طرف النَّهار؛ فالعرب تُسمِّي كُلَّ طرفٍ من النَّهار عصرًا، وقيل: من العشيّ، فالعشِيُّ يُسمَّى في اللغة عصرًا، وأوَّل وقتها: إذا كان ظِلُّ كُلِّ شيءٍ مثلَه، ودليله حديث جبريل- عليه السلام- للنبي ﷺ عن أوَّل أوقات الصلوات، وفيه:" ثم جاء العصرُ فقال، قُمْ فَصَلِّه؛ فصلَّى العصرَ حينَ صار ظِلُّ كُلِّ شيءٍ مثلَه" رواه أبو داود والترمذي(٢)، وأمَّا آخِر وقت العصر فيكون بغروب الشمس؛ فقد جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" ومَن أدرَك ركعةً مِن العصرِ قبْلَ أنْ تغرُبَ الشَّمسُ فقد أدرَك العصرَ" رواه البخاري ومسلم(٣).

وقد جاء في فضْل هاتَينِ الصلاتَينِ أحاديث تدلُّ على أنَّهما من القدْر والفضْل بمكانٍ؛ حيث تشهدُهما الملائكة، وتتعاقب في أوقاتهما، ويشهدان لأهل هاتَينِ الصلاتَينِ أمام ربِّ العِزَّة؛ فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" يتعاقبون فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلُّون، وأتيناهم وهم يُصلُّون" رواه البخاري ومسلم(٤).

ومُحافَظة المسلم على هاتَينِ الصلاتَينِ سببٌ من أسباب دخول الجنَّة؛ فعن أبي موسى- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" مَن صلَّى البَرْدَينِ دخلَ الجنَّة" رواه البخاري ومسلم(٥).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٤٢٧) برقم (٦١٢) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب أوقات الصلوات الخمس.

(٢) رواه أبو داود في سُننه (١/ ١٠٧) برقم (٣٩٣) كتاب الصلاة. باب في المواقيت. الترمذي في جامعه (١/ ٢٧٩) برقم (١٤٩) أبواب الصلاة. باب ما جاء في مواقيت الصلاة عن النبي ﷺ. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح". كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (١/ ١٤٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٠) برقم (٥٧٩) كتاب مواقيت الصلاة. باب مَن أدرك مِن الفجر ركعة. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٢٤) برقم (٦٠٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب مَن أدرك ركعة مِن الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٥) برقم (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل صلاة العصر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٢) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصُّبح والعصر.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٩) برقم (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل صلاة الفجر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٤٠) برقم (٦٣٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصُّبح والعصر.



وقد اختصَّ الله عزَّ وجلَّ وقت هاتَينِ الصلاتَينِ في الآخرة رِزقًا لأهل الجنَّة؛ فقال تعالى ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[١].

كما جاءت البشرى للمؤمنين على لسان النبي ﷺ بالتلذُّذ بالنظر إلى وجه الله ذي الجلال والإكرام يوم القيامة مقرونًا بالحثِّ على أداء هاتَينِ الصلاتَينِ، فقد ثبت في الصحيح قولُه ﷺ:" إنَّكم سترون ربَّكم كما ترَوْن هذا القمرَ، لا تُضامُون في رؤيتِه، فإنِ استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ، وصلاةٍ قبل غروبِ الشمسِ؛ فافعلوا" رواه البخاري ومسلم[٢].

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

قال الشيخ السعدي: يأمرُ تعالى بإقامة الصلاة كاملة، ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ أي: أوَّله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل، فإنَّها ممَّا تُزلِفُ العبدَ، وتُقرِّبُه إلى الله تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: فهذه الصلواتُ الخمسُ- وما أُلحِقَ بها من التطوُّعات- من أكبر الحسنات، وهي مع أنَّها حسنات تُقرِّب إلى الله، وتُوجب الثواب؛ فإنَّها تُذهِب السَّيِّئات وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر، كما قيَّدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله:" الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكفِّراتٌ لما بينهُنَّ ما اجتُنِبَتِ الكبائر" رواه مسلم[٤]، بل كما قيَّدتْها الآية التي في سورة النِّساء، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٥][٦].

وقال الشيخ ابن باز- رحمه الله-: فالبَرْدَانِ هما صلاة العصر وصلاة الفجر، فينبغي أن يُخَصَّا بمزيدِ عنايةٍ؛ الفجر ينام الكثير عنها، والعصر قد يُشغَل النَّاسُ عنها برجوعهم من أعمالهم؛ فالمحافَظة عليهما والعناية بهما من دلائل كمال الإيمان، والواجب على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ المحافَظة على الصلوات الخمس في أوقاتها[٧].

---

(١) مريم ٦٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٥) برقم (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل صلاة العصر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصُّبح والعصر.

(٣) هود ١١٤- ١١٥.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٩) برقم (٢٣٣) كتاب الطهارة. باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مُكفِّراتٌ لما بينهُنَّ ما اجتُنِبَتِ الكبائر.

(٥) النساء ٣١.

(٦) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٩١).

(٧) لم أقف على نص كلام الشيخ هذا، لكنَّه ذُكِرَ بهذا المعنى ضمن فتاواه على أسئلة برنامج نور على الدرب كما في موقع رحمه الله تعالى. السِّرُّ في اقتران رؤية الله بصلاتَيِ الفجر والعصر(binbaz.org.sa) .

والخلاصة: ضرورة التأكيد على المحافَظة على هاتَينِ الصلاتَينِ، كما قال سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[١]، ومَن حافَظَ على هاتَيْنِ الصلاتَينِ سيُحافِظ على غيرهما؛ لأنَّ الأُولى تكون بعد النَّومِ والنَّفْسُ تتراخى عن القيام إليها، فمَن قام وأدَّاها في وقتها الضيِّق خشيةَ أن تفوته؛ دلَّ ذلك على عِنايته بالصلاة وعدم تهاونه فيها، وكذلك الثانية تُؤدَّى بعد جهدٍ كبيرٍ طول النَّهار، وقد يكون طلب الراحة من العمل داعيًا إلى إهمالها، فمَن حافظَ عليها كانتْ مُحافَظَتُه على غَيْرِها أيسرَ، ففي صحيح مسلم:" لن يلجَ النَّارَ أحدٌ صلَّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، يعني الفجر والعصر" رواه مسلم[٢].

(١) البقرة ٢٣٨.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٤٤٠) برقم (٦٣٤) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب فضْل صلاتَيِ الصُّبح والعصر.



٢٩ صفر

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيْلًا

لقد أثنى الله على أهل القيام، ورغَّب في هذه العبادة العظيمة؛ فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾(٢)، وقال أيضًا: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾(٣)، وقال كذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾(٤).

قيامُ اللَّيلِ عُبوديَّةٌ وشُكْرٌ؛ فعن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْها- أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقومُ من اللَّيل حتَّى تَتفطَّرَ قدماه، فقالت عائشةُ- رَضِيَ اللهُ عَنْها-: لِمَ تَصنعُ هذا يا رسولَ اللهِ، وقد غفر اللهُ لك ما تقدَّمَ مِن ذنبِك وما تأخَّر؟! قال:" أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عبدًا شكُورًا" رواه البخاري(٥).

وقيامُ اللَّيلِ من أسبابِ دُخولِ الجَنَّةِ ورفْعِ الدَّرجاتِ فيها؛ فعن عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْه- قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:" يا أيُّها الناسُ؛ أفْشُوا السَّلام، وأطْعِموا الطَّعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نِيام، تَدخلوا الجَنَّةَ بسَلام" رواه الترمذي وابن ماجه(٦).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بن العاص- رَضِيَ اللهُ عَنْهما- عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا" فَقَالَ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ- رَضِيَ اللهُ عَنْه-: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:" لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ" رواه أحمد والترمذي(٧).

وقيامُ اللَّيلِ من أسبابِ تَكفيرِ السَّيِّئاتِ؛ فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ- رَضِيَ اللهُ عَنْه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" عَليكُم بقِيامِ اللَّيلِ؛ فإنَّه دَأَبُ الصَّالحينَ قَبلَكم، وقُرْبةٌ إلى ربِّكم، ومَكْفَرَةٌ للسَّيِّئاتِ، ومَنْهَاةٌ عن الإثمِ"، وفي رواية أخرى زاد فيها:" ومطردةٌ للدَّاءِ عن الجسدِ" رواه الترمذي(٨).

---

(١) الإسراء ٧٩.

(٢) السجدة ١٦.

(٣) الذاريات ١٧.

(٤) الفرقان ٦٤.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٥) برقم (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن. باب {ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ويُتِمَّ نعمته عليك ويهديَك صراطًا مُستقيمًا} الفتح: ٢.

(٦) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٥٢) برقم (٢٤٨٥) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ. باب بدون ترجمة. وابن ماجه في سُننه (١/ ٤٢٣) برقم (١٣٣٤) كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها. باب ما جاء في قيام الليل. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٣/ ٣٣٤).

(٧) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٩) برقم (١٣٣٨). والترمذي في جامعه سُنن الترمذي (٤/ ٣٥٤) برقم (١٩٨٤) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في قول المعروف. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٤/ ٤٨٤).

(٨) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٥٢) برقم (٣٥٤٩) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني من حديث أبي أمامة كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ٤٩).

وقيامُ اللَّيلِ أفضَلُ الصلاةِ بعدَ الفريضةِ؛ فعن أَبِي هُرَيرَة- رَضِيَ اللهُ عَنْه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" أفضلُ الصَّلاةِ بعدَ الصلاةِ المكتوبةِ؛ الصلاةُ في جَوفِ اللَّيلِ" رواه مسلم[١].

وقراءة القرآن في قيام الليل غنيمة عظيمة؛ لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن قام بعَشْرِ آياتٍ لم يُكتَبْ من الغافلين، ومَن قام بمائةِ آيةٍ كُتِبَ من القانتين، ومَن قام بألفِ آيةٍ كُتِبَ مِن المقنطِرين" رواه أبو داود[٢].

وقيامُ الليلِ شرفُ المؤمنِ؛ ففي الحديث عن سهل بن سعد- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" واعلمْ أنَّ شرفَ المؤمنِ قيامُه باللَّيل، وعزَّه استغناؤه عن النَّاس" رواه الحاكم[٣].

ولقيام اللَّيل آدابٌ ينبغي أن يتأدَّب بها كُلُّ مُسلِمٍ:

١- أن ينوي عند نومه قيام اللَّيل، وينوي بنومه التَّقوِّي على الطاعة؛ ليحصل على الثَّواب على نومه، لحديث أبي الدرداء- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" مَن أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يُصلِّي من اللَّيل فغلبتْهُ عيناه حتَّى أصبح، كُتِبَ له ما نوى، وكان نومُهُ صدقةً عليه مِن ربِّه عزَّ وجلَّ" رواه النَّسائي[٤].

٢- أن يمسحَ النَّوم عن وجهه عند الاستيقاظ، ويذكرَ الله، ويشوصَ فاه بالسِّواك، ويقولَ كما في حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنَّه قال: مَن تعارَّ من اللَّيل فقال:" لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، ثم قال: اللَّهُمَّ اغفرْ لي، أو دعا؛ استُجيبَ له" رواه البخاري[٥].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٢١) برقم (١١٦٣) كتاب الصيام. باب فضْل صوم المحرَّم.

(٢) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٥٧) برقم (١٣٩٨) أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله. باب تحزيب القرآن. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (٣/ ٣٩٨).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/ ٤٦٩) برقم (٨٠٠٢). والحديث حسَّنه الألباني بمجموع طُرُقِه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٤٨٣).

(٤) رواه النسائي في سُننه (٣/ ٢٥٨) برقم (١٧٨٧) كتاب قيام الليل وتطوُّع النَّهار. باب مَن أتى فراشه وهو ينوي القيام فنام. المجتبى من السُّنن= السُّنن الصُّغرى للنَّسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النَّسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية– حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن النَّسائي (٤/ ٤٣١).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٤) برقم (١١٥٤) كتاب التهجُّد. باب فضْل مَن تعار مِن الليل فصلَّى.

٣- أن يفتتح تهجُّدَه بركعتَينِ خفيفتَينِ؛ لفِعْلِ النبي ﷺ، ففي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت:" كان رسولُ الله ﷺ إذا قام من الليل ليُصلِّي؛ افتتح صلاته بركعتَينِ خفيفتَينِ" رواه مسلم(١).

٤- المداومة على قيام الليل، وإذا فاته قضاه؛ لحديث عائشة- رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال:" خُذُوا من الأعمال ما تُطيقون، فإنَّ الله لا يملُّ حتَّى تملُّوا" رواه البخاري ومسلم(٢)، ولحديث عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال لي النبي ﷺ: يا عبد الله؛ لا تكُنْ مثلَ فلانٍ كان يقوم اللَّيل، فترك قيام اللَّيل" رواه البخاري ومسلم(٣).

٥- يُستحَبُّ له أن يُوقظَ أهلَه؛ لأنَّ النبي ﷺ كان يُصلِّي من اللَّيل، فإذا أوتر قال لعائشة- رضي الله عنها-:" قومي فأوتري يا عائشة" رواه مسلم(٤)؛ ولحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" رحِمَ الله رجلًا قام من الليل فصلَّى، ثم أيقظ امرأتَه فصلَّتْ، فإن أبتْ نضحَ في وجهها الماءَ، ورحِمَ الله امرأةً قامتْ من الليل فصلَّتْ، ثم أيقظتْ زوجَها، فإن أبى نضحَتْ في وجهه الماءَ" رواه أبو داود وابن ماجه(٥).

ولا أطيبَ من كلام الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى:﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٦).

قال الشيخ السعدي: هذه مُقابَلَةٌ بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالِمِ والجاهل، وأنَّ هذا من الأمور التي تقرَّر في العقول تبايُنُها، وعُلِمَ علمًا يقينًا تفاوتُها، فليس المعرِضُ عن طاعة ربِّه، المتَّبع لهواه، كمن هو قانتٌ أي: مُطيعٌ لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات اللَّيل،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٣٢) برقم (٧٦٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٤) برقم (١١٥١) كتاب التهجُّد. باب بدون ترجمة. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٤٠) برقم (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٤) برقم (١١٥٢) كتاب التهجُّد. باب ما يُكرَه مِن ترْكِ قيام الليل لمن كان يقومه. ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٤) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام. باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرَّر به.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥١١) برقم (٧٤٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل، وأنَّ الوتر ركعة، وأنَّ الركعة صلاة صحيحة.

(٥) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٣٣) برقم (١٣٠٨) أبواب قيام الليل. باب قيام الليل. وابن ماجه في سُننه (١/ ٤٢٤) برقم (١٣٣٦) كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها. باب فيمَن أيقظ أهله من الليل. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (٣/ ٤٥٠).

(٦) الزمر ٩.

فوصَفَه بكثرة العمل وأفضلِه، ثم وصَفَه بالخوف والرجاء، وذَكَرَ أنَّ مُتعلِّقَ الخوفِ عذابُ الآخرة، على ما سلف من الذُّنوب، وأنَّ مُتعلِّق الرجاء رحمة الله، فوَصَفَه بالعمل الظاهر والباطن[١].

وهذا الإمام أحمد بن حنبل كان يُحيي اللَّيل هو وغلامُه، والإمام الشافعي قسَّم الليل أثلاثًا، وأبو حنيفة كان يُصلِّي عامَّة اللَّيل، وأبو هريرة- رضي الله عنه- قسَّم اللَّيل أثلاثًا هو وزوجُه وخادمُه، فإذا قام هذا نام هذا، وكانت له في النَّهار اثنتا عشرة ألف تسبيحة، ويقول: إنَّما أُسبِّحُ بقدر ذُنوبي[٢]، وقيل للحسن البصري: ما بالُ القائمين بالليل مِن أحسنِ النَّاسِ وجوهًا؟ قال: لأنَّهم خَلَوا بالرحمن فألبسهم من نوره[٣]، وقال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[٤].

والخلاصة: أن يحرص المسلم على قيام اللَّيل، وأن يعلم أنَّ قيام اللَّيل شرفٌ له، ورِفعةٌ لدرجته، وأنَّه يُكسِبه نورًا يملأ قلبه، ويسطر على صفحة وجهه، وهو أمرٌ يحتاج لمجاهدة النَّفْس ومُكابَدة القيام حتَّى يُحِسَّ بلذَّته، كما ورد عن بعض السَّلف أنَّه كان يقول: كابدتُ قيام الليل عشرين سنة، واستمتعتُ به عشرين سنة.

بكى الباكونَ للرحمنِ ليلًا ... وباتوا سُجَّدًا لا يسأمونا
بِقاعُ الأرضِ مِن شوقٍ إليهم ... تَحِنُّ متى عليها يسجدونا[٥]

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٢٠).

(٢) تاريخ الإسلام (٢/ ٥٦٦).

(٣) رواه الدينوري في المجالَسة وجواهر العلم (١/ ٤٤٦).

(٤) عبس ٣٨- ٣٩.

(٥) يُنظَر: الرِّقَّة والبُكاء لابن أبي الدنيا (ص ١١٢). الرِّقَّة والبُكاء، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار النشر: دار ابن حزم، بيروت- لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣٠ صفر

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ (سلامة الصدر)

لا شكَّ أنَّ بعثة مُحمَّدٍ ﷺ أعظم حدثٍ عرفه التاريخ، فببعثته ﷺ صلحت الأرض، وزكت النفوس، وتطهَّرت القلوب، وعُرِفت الحياة على حقيقتها، والغاية منها، كما صلحت أحوال النَّاس وتعاملاتهم.

إنَّ البرية يومَ مَبعثِ أحمد نَظَرَ الإلَهُ لَهَا فَبَدَّلَ حَالَهَا[(١)]

ومن أعظم اهتماماته ﷺ إصلاح القلوب؛ لأنَّ القلب هو مَلِكُ الأعضاء وقائدُها، لذلك علَّق الرسول ﷺ صلاح الجسد كلِّه بصلاح القلب، ففي حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنهما- قال ﷺ:" ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب" رواه البخاري ومسلم[(٢)].

ونجاةُ العبد يوم القيامة مُرتبِطةٌ بسلامة قلبه، قال تعالى عن إبراهيم- عليه السلام-: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[(٣)]، وقد نهى النبي ﷺ عن التدابُر؛ فقال ﷺ:" لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ" رواه البخاري ومسلم[(٤)]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قيل: يا رسول رسول الله؛ أيُّ النَّاسِ أفضلُ؟ قال: كُلُّ مخمومِ القلبِ، صدوقِ اللِّسانِ. قالوا: صدوق اللِّسان نعرفه؛ فما مخمومُ القلبِ؟ قال:" هو التَّقيُّ النَّقيُّ، الذي لا إثم فيه، ولا بغي ولا غلَّ ولا حسد" رواه ابن ماجه[(٥)]، والمخموم: مِن خممتَ البيت إذا كنستَه، أي: أنَّه يُنظِّفُ قلبَه في كلِّ وقتٍ.

وهذا هو حال صحابة رسول الله ﷺ الذين أثنى الله على أخلاقهم وجعل لهم نصيبًا من الفيء والغنائم، فقال سبحانه: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ وهم المهاجرون ثم

---

(١) يُنظَر: دروس الشيخ عائض القرني (٣/ ٦، بترقيم الشاملة آليًّا). دروس الشيخ عائض القرني، المؤلف: عائض بن عبد الله القرني، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم (٥٢) كتاب الإيمان. باب فضْل مَنِ استبرأ لدينه. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) كتاب المساقاة. باب أخْذ الحلال وترْك الشبهات.

(٣) الشعراء ٨٨- ٨٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٩) برقم (٦٠٦٥) كتاب الأدب. باب ما يُنهَى عن التدابُر والتحاسُد. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٣) برقم (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة والآداب. باب النَّهْي عن التحاسُد والتباغُض والتدابُر.

(٥) رواه ابن ماجه في سُننه (٢/ ١٤٠٩) برقم (٤٢١٦) كتاب الزهد. باب الورع والتقوى. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٩/ ٢١٦).



قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١)، وهم الأنصار، فيا لها من شهادة حيث يكشف الله عن مكنون صدورهم، وأنَّ نفوسهم طاهرة وقلوبهم سليمة.

قال الله تعالى:﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(٢)، قال العلَّامة السعدي- رحمه الله-: فتبقى قلوبهم سالمة من كلِّ غلٍّ وحسدٍ، مُتصافية مُتحابَّة، ذلك على تزاوُرهم واجتماعهم وحُسْنِ أدبِهم فيما بينهم، في كون كلٍّ منهم مُقابِلًا للآخر، لا مُستدبِرًا له، مُتَّكئين على تلك السُّرر المزيَّنة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر(٣).

قال ابن القيِّم- رحمه الله-: الفرْق بين سلامة الصدر والبله والتغفُّل؛ أنَّ سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشرِّ بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعمل به، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنَّها جهلٌ وقِلَّة معرفة، وهذا لا يُحمَد إذ هو نقصٌ، وإنما يَحمَدُ النَّاسُ مَن هو كذلك لسلامتهم منه، والكمالُ أن يكون عارفًا بتفاصيل الشَّرِّ سليمًا من إرادته، قال عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه-: لستُ بِخِبٍّ ولا يَخدَعُني الخِبُّ، فكان أعقلَ مِن أن يُخدَعَ، وأورعَ من أن يَخدَعَ(٤).

وسلامة الصدر من أسباب دخول الجنَّة؛ فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: كُنَّا جلوسًا مع الرسول ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنَّة؛ فطلع رجلٌ من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلَّق نعليه في يده الشمال، فلمَّا كان الغد؛ قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجلُ مثل المرَّة الأولى، فلمَّا كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجلُ على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- فقال: إنِّي لاحيتُ أبي فأقسمتُ ألَّا أدخلَ عليه ثلاثًا، فإن رأيتَ أن تؤويني إليك حتَّى تمضي؛ فعلتَ، قال: نعم، قال أنس: وكان عبد الله يُحدِّث أنَّه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من اللَّيل شيئًا، غير أنَّه إذا تعارَّ وتقلَّب على فراشه ذَكَرَ الله عزَّ وجلَّ وكبَّر حتَّى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أنِّي لم

---

(١) الحشر ٨-٩.

(٢) الحجر ٤٧.

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٣٢).

(٤) الروح (ص ٢٤٣- ٢٤٤). الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسُّنَّة، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيِّم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

أسمعه يقول إلَّا خيرًا، فلمَّا مضت الثلاث ليالٍ وكدتُ أن أحتقر عمله؛ قلتُ: يا عبد الله؛ إنِّي لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجرٌ، ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرَّاتٍ:" يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنَّة" فطلعتَ أنت الثلاث مرار، فأردتُ أن آويَ إليك لأنظرَ ما عملُك فأقتديَ به، فلم أركَ تعمل كثيرَ عملٍ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلَّا ما رأيتَ، قال: فلمَّا ولَّيتُ دعاني فقال: ما هو إلَّا ما رأيتَ؛ غير أنِّي لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشًّا، ولا أحسد أحدًا على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه. فقال عبد الله:" هذه التي بلغتْ بك، وهي التي لا نُطيقُ" رواه أحمد(١).

ولقد كان الرسول ﷺ أحرص الناس على سلامة قلبه، فكان يقول في صلاته:" اللَّهُمَّ إِنِّي أسألُك الثباتَ في الأمْر، والعزيمةَ على الرشد، وأسألُك شُكْرَ نعمتِك، وحُسْنَ عبادتِك، وأسألُك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألُك من خيرِ ما تعلم، وأعوذ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرُك لما تعلم" رواه النسائي(٢)، وكان ﷺ يقول:" لا يُبلغْني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئًا؛ فإنِّي أُحِبُّ أن أخرجَ إليكم وأنا سليمُ الصدر" رواه أبو داود(٣).

وسلامة الصدر سببٌ في قبول الأعمال، ففي الحديث أنَّ النبي ﷺ قال:" تُعرَضُ الأعمال كُلَّ يوم اثنين وخميس، فيَغفرُ الله عزَّ وجلَّ في ذلك اليوم لكُلِّ امرئٍ لا يُشرِكُ بالله شيئًا؛ إلَّا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: أنظِروا هذَينِ حتَّى يصطلحا" رواه مسلم(٤).

قال الفضيل بن عياض- رحمه الله-: ما أدرك عندنا مَن أدركَ بكثرة نوافل الصلاة والصيام، وإنَّما أدركَ عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنُّصح للأُمَّة(٥).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٠/ ١٢٤) برقم (١٢٦٩٧). والحديث حسَّن إسناده الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (١/ ٢٦).

(٢) رواه النَّسائي في سُننه (٣/ ٥٤) برقم (١٣٠٤) كتاب السَّهو. نوع آخر من الدُّعاء. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن النَّسائي (٣/ ٤٤٨).

(٣) رواه أبو داود في سُننه (٤/ ٢٦٥) برقم (٤٨٦٠) كتاب الأدب. باب في رفْع الحديث من المجلس. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (١٠/ ٣٦٠).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٧) برقم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة والآداب. باب النهي عن الشحناء والتهاجُر. وأوَّله: "تُفتَحُ أبوابُ الجنَّة يوم الاثنين ...".

(٥) يُنظَر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٥).

والخلاصة: أنَّ سلامة الصدر مِن أدلِّ العلامات على الإيمان، وهذه العبادة العظيمة تُطلَب بالدُّعاء؛ فهو من أعظم الأسباب، وفي دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[(١)].

كذلك بحُسْنِ الظَّنِّ بالنَّاس ، وحمْلِ الكلامِ على أحسنِ المحاملِ، قال عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه-: لا تظُنَّ بكلمةٍ خرجتْ من أخيك شرًّا، وأنتَ تجدُ لها في الخيرِ محْمَلًا[(٢)].

كذلك: بالبُعْد عن مُجالَسة النَّمَّامين الذين ينقلون الكلامَ بغرضِ الإفسادِ، فهم رسل إبليس في الوقيعة بين النَّاس.

كذلك: بإهداءِ الهديَّة، فإنَّ لها أثرًا في تطييب الخواطر، وإذهاب وغر الصدور، وقد جاء في الحديث: "تهادوا تحابُّوا" أخرجه البخاري في الأدب المفرد[(٣)].

كذلك: بالرِّضا عن الله وبما قَسَمَه للعبد، فهو من أفضل العلاج.

كذلك: باستحضار ما لسليم الصدر عند الله من الأجر العظيم، والنعيم المقيم.

لما عفوتُ ولم أحقِدْ على أحدٍ أرحتُ نفسي مِن هَمِّ العَدَاوَاتِ[(٤)]

---

(١) الحشر ١٠.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في مداراة النَّاس (ص ٥٠). مداراة النَّاس، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقِّق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم- بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٠٨) برقم (٥٩٤). والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح الأدب المفرد (ص ٢٢١). صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦ هـ)، حقَّق أحاديثه وعلَّق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

(٤) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٧/ ١٢٢، بترقيم الشاملة آليًّا).




تمت بحمد الله



٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري

فوائد شهر ربيع الأول

كتبه الفقير إلى عفو ربه

أ. د. خالد بن عبد الغفار آل عبد الرحمن

الجزء الثالث

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ

ح خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن ، ١٤٤٥هـ

عبد الرحمن ، أ.د. خالد عبد الغفارعبد الله
فوائد شهر ربيع الأول الجزء الثالث من سلسلة كتاب ٣٦٠ فائدة علي مدار العام الهجري./ أ.د. خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن
ط ١.- الرياض ، ١٤٤٥هـ
١٢٥ ص ! ١٧ x ٢٤ سم.- (٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري)

رقم الإيداع : ٢٠٢١٩ / ١٤٤٥
ردمك :٣-٤٠٥٠-٠٥-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم





إهــداء

إلى زوجتي وأبنائي الأوفياء الذين كان لهم الفضل بعد الله عزَّ وجلَّ بتشجيعي ودعمي المتواصل لإعداد هذه السلسلة من الفوائد التي تُحفِّز المسلم والمسلمة للعمل الصالح واغتنام أيام العمر فيما ينفع ويُرضِي الله عزَّ وجلَّ.





مُقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. فبين يديك أخي القارئ الكريم الجزء الثالث من كتاب " ٣٦٠ فائدة " على مدار العام الهجري، وهو كتاب يضمُّ فوائد ودروسًا تُحفِّز المسلم والمسلمة على العمل الصالح واغتنام أيَّام العمر فيما يَنفع ويُرضِي اللهَ عزَّ وجلَّ . تمَّ تقسيمها على أيَّام السنة الهجرية بحيث يستطيع القارئ أن يبدأ بالقراءة من تاريخ اليوم الذي عزم أن يقرأ الكتاب فيه، ويقطف من ثمرات وفوائد ذلك اليوم. وفي كل يوم يجد القارئ جملة من المقتطفات التي تدور حول موضوع واحد قد يكون له ارتباط بذلك اليوم أو الأيَّام أو الشهر تحديدًا وقد لا يكون. ولكن الموضوعات تُشكِّل في مجملها خلاصة الفوائد والخواطر والدروس التي تُعين المسلم على التجارة مع الله والعمل الصالح الذي يكون بإذن الله زادًا له في الدنيا ونجاة له في الآخرة برحمة الله ومِنَّته وفضْله. وهذا الجزء مُخصَّصٌ لفوائد شهر ربيع الأول، أسأل الله أن يكون فيه النفع والفائدة وحُجَّة لكاتبه وقارئه وكلِّ مَن أعان على نشْره وتوزيعه.

كتبه الفقير إلى عفو ربِّه

أ.د.خالد بن عبد الغفَّار آل عبد الرحمن

drkhalid63@gmail.com

الرياض

شهر ربيع الأول ١٤٤٥هـ



فهرس فوائد شهر ربيع الأول



١ ربيع الأول

عليكم بسُنَّتي

وقف رسول الله ﷺ ذات يوم بين أصحابه خطيبًا فقال:" يا أيُّها الناس؛ تركتُ فيكم ما إنْ تمسَّكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا؛ كتاب الله وسُنَّتي" رواه الحاكم بسند صحيح[١].

لقد حثَّ الإسلام في مواطن كثيرة جدًّا على التمسُّك بالسُّنَّة، وحثَّ على الجماعة والوحدة الإسلامية، ونهى عن التفرُّق والتعادي والتقاطع، وأمر بالتمسُّك بالصراط المستقيم، والأدلَّة على ذلك واضحة ظاهرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[٢] ، فأمَرَ بالاتِّباع وبالتمسُّك بالصراط المستقيم، كما أمَرَنا سبحانه وتعالى بأن ندعو به في صلاتنا بقولنا: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[٣]، وهو الطريق الذي سارت عليه الأُمَّة الإسلامية، وتبعه أهل السُّنَّة.

والسُّنَّة هي الطريقة القويمة التي تجري على السنن، وهي السبيل الواضح.

وسُنَّتُه ﷺ هي: طريقته التي يسير عليها؛ عقيدة، وخُلُقًا، وعملًا، وعبادةً وغير ذلك، فعلينا أن نلزم سُنَّته، ونجعل التحاكُم إليها سبيل الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[٤]، فسُنَّة رسول الله ﷺ هي سبيل النجاة لمن أراد الله نجاته من الخلافات والبدع، وهي- ولله الحمد والمنَّة- موجودة في كتب أهل العلم الذين ألَّفوا في السُّنَّة، مثل:" الصحيحين" البخاري ومسلم، والسُّنن والمسانيد وغيرها، مما ألَّفه أهل العلم وحفظوا به سُنَّة رسول الله ﷺ.

يقول العلَّامة السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾[٥]:" كما أنَّ في اتِّباع أمْر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمَرَ الله

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ١٦١). المستدرك على الصحيحين للحاكم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥ هـ)، المحقِّق: أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار النشر: دار الحرمين، البلد: القاهرة– مصر، سنة الطبع: ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م. والحديث حسَّن إسناده الألباني كما في منزلة السُّنَّة في الإسلام (ص ١٨). منزلة السُّنَّة في الإسلام، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ).

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) الفاتحة: ٦.

(٤) النساء: ٦٥.

(٥) الحشر: ٧.

بالقاعدة الكليَّة والأصل العامّ، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وهذا شاملٌ لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأنَّ ما جاء به الرسول ﷺ يتعيَّن على العباد الأخْذ به واتِّباعه، ولا تحلُّ مُخالَفَتُه، وأنَّ نصَّ الرسول ﷺ على حُكم الشيء كنصِّ الله تعالى، لا رخصة لأحد، ولا عذر له في ترْكه، ولا يجوز تقديم قول أحدٍ على قوله ﷺ"[(١)].

وقال الإمام ابن كثير:" وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[(٢)]؛ أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنَّه إنَّما يأمر بخيرٍ، وإنَّما ينهى عن شرٍّ[(٣)]. وقد ثبت في الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" إذا أمرتُكم بأمْرٍ فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتُكم عنه فاجتنبوه"[(٤)].

وعن مجاهد بن جبر التابعي الجليل أنَّه قال في قوله سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[(٥)].

قال:" الردُّ إلى الله الردُّ إلى كتابه، والردُّ إلى الرسول الردُّ إلى السُّنَّة"[(٦)].

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٥١). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦ هـ)، المحقِّق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٢) الحشر: ٧.

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٦٧). تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)، المحقِّق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٤) رواه البخاري (٩/ ٩٤) برقم (٧٢٨٨) كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة. باب الاقتداء بسُنن رسول الله ﷺ، ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٧٥) برقم (١٣٣٧) كتاب الحج. باب فرْض الحج مرَّة في العمر. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيَّامه= صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقِّق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصوَّرة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقِّق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

(٥) النساء: ٥٩.

(٦) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ٥٠٥). جامع البيان في تأويل القرآن؛ المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقِّق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.



وعن الزهري رحمه الله أنَّه قال:" كان مَن مضى مِن علمائنا يقولون: الاعتصام بالسُّنَّة نجاة"[١]، وقال ابن قدامة رحمه الله:" والأصل الثاني من الأدلَّة؛ سُنَّةُ رسول الله ﷺ، وقولُ رسول الله ﷺ حُجَّة؛ لدلالة المعجِز على صدقه، وأمْرِ اللهِ بطاعته وتحذيرِه من مُخالَفة أمْره"[٢].

وقد نهى الله تعالى عن التفرُّق في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[٣]، ويقول أيضًا: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[٤]، وينهى عن الاختلاف كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[٥]، (شيعًا) يعني: أحزابًا.

فإذا عرفنا أنَّ الإسلام يأمر بالاجتماع، فهذا الاجتماع لا بُدَّ أن يكون على السُّنَّة وعلى الطريق المستقيم، أمَّا إذا كان المجتمعون قد اجتمعوا على ضلالة أو على بدعة؛ فإنَّ اجتماعهم لا قيمة له؛ وذلك لأنَّهم تركوا الحقَّ جانبًا، وأعرضوا عن صراط الله الذي أمَرَ بالتمسُّك به، وهو الذي سارت عليه الأُمَّة الإسلامية، وهو صراط المنعَم عليهم، الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٦].

ومن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة الاعتراف بخلافة الخلفاء الراشدين، وأنَّ ترتيبهم في الفضْل كترتيبهم في الخلافة، فأوَّل الخلفاء هو أبو بكر الصديق، ثم الفاروق عمر، ثم ذو النُّورين عثمان، ثم علي بن أبي طالب- رضي الله عنهم جميعًا-؛ هؤلاء هم الخلفاء الراشدون الذين أمَرَ النبي ﷺ باتِّباعهم، وسمَّاهم الخلفاء في قوله ﷺ:"عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي،

---

(١) رواه الدارمي في سننه (١/ ٢٣٠) برقم (٩٧) باب اتِّباع السُّنَّة. وذكر مُحقِّق الكتاب أنَّ إسناده صحيح. مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ- ٢٠٠٠م.

(٢) روضة الناظر وجنة المناظر (١/ ٢٧٣)؛ روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠ هـ)، الناشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

(٣) آل عمران: ١٠٥.

(٤) آل عمران: ١٠٣.

(٥) الأنعام: ١٥٩.

(٦) النساء: ٦٩.

عضُّوا عليها بالنواجذ" رواه أبو داود والترمذي[١]، شهادة نبويَّة لهؤلاء بأنَّهم خلفاء، وبأنَّهم راشدون، وبأنَّهم مهديون، أي: على الهدى والصراط المستقيم، وأمْرُه ﷺ بالثبات على سُنَّة الخلفاء الراشدين لأمْرين؛ أحدهما: التقليد لمن عجز عن النظر، والثاني: الترجيح لما ذهبوا إليه عند اختلاف الصحابة.

قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله في كتابه أعلام الموقعين:" قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[٢]، فأمَرَ تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلامًا بأنَّ طاعة الرسول ﷺ تجِبُ استقلالًا من غير عرض ما أَمَرَ به على الكتاب، بل إذا أَمَرَ وجبت طاعتُه مطلقًا؛ سواء كان ما أَمَرَ به في الكتاب أم لم يكن فيه، فإنَّه أوتي الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالًا؛ بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول ﷺ؛ إيذانًا بأنَّهم إنَّما يُطاعون تبعًا لطاعة الرسول ﷺ، فمَن أَمَرَ منهم بطاعة الرسول ﷺ وجبت طاعتُه، ومَن أمر بخلاف ما جاء به الرسول ﷺ فلا سمع له ولا طاعة"[٣].

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٤/ ٢٠١) برقم (٤٦٠٧) كتاب السُّنَّة. باب في لزوم السُّنَّة؛ سُنن الترمذي (٥/ ٤٥) برقم (٢٦٧٦) أبواب العلم. باب ما جاء في الأخْذ بالسُّنَّة واجتناب البدع؛ وابن ماجه في سُننه (١/ ١٥) برقم (٤٢) افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم. باب اتِّباع سُنَّة الخلفاء الراشدين. والحديث صحَّحه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٨/ ١٠٧). سُنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية- فيصل عيسى البابي الحلبي. سُنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥ هـ)، المحقِّق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت. سُنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي– بيروت/ الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين (٢/ ٨٩). إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، قدَّم له وعلَّق عليه وخرَّج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.



الخلاصة: أنَّنا مأمورون باتِّباع سُنَّة النبي ﷺ قولًا وعملًا وعِلْمًا ، فالعِلم آيةٌ مُحكَمة أو سُنَّة قائمةٌ، والفقيهُ كلُّ الفقيهِ ذلك الذي فتَحَ الله عليه، فانتزعَ الأحكامَ للمسائلِ المعروضة عليه مِن نصوصِ الكتابِ والسُّنَّة وآثارِ الصحابة وُرَّاثِ عِلمِ النُّبوَّة، فذلك هو العِلم الحقيقي؛ وكما قيل:

العِلْـــمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُـــــــولُهُ ... قَالَ الصَّحابَةُ هُمْ أُولُو العِرْفَانِ

مَا العِلمُ نَصْبُكَ للخِلَافِ سَفَاهَةً ... بَينَ الرَّسُـــولِ وَبَينَ رَأيِ فُلَانِ[١]

---

(١) نونية ابن القيِّم= الكافية الشافية (ص ٢٢٦).متن القصيدة النونية، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٧هـ.



٢ ربيع الأول
صلُّوا عليه وسلِّموا تسليمًا

أرسل الله سبحانه وتعالى نبيَّنا محمَّدًا ﷺ رحمةً للعالمين، ونجاةً لمن آمَن به من الموحِّدين، وإمامًا للمتَّقين، وحُجَّة على الخلائق أجمعين، وشفيعًا في المحشَر، أرسله الله على فترة من الرسل، فهدى به لأقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته وتوقيره ورعايته والقيام بحقوقه، والصلاة عليه والتسليم، قال بعض العلماء: ومن خواصِّه ﷺ أنَّه ليس في القرآن ولا غيره صلاةٌ من الله على غيره، فهي خصيصة اختصَّه الله بها دون سائر الأنبياء. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[١].

وفي معنى الصلاة في الآية الكريمة، قال الإمام ابن كثير- رحمه الله-:" قال البخاري- رحمه الله تعالى-: قال أبو العالية- رحمه الله تعالى-: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة عليهم الصلاة والسلام، وصلاة الملائكة: الدعاء، وقال ابن عبَّاس- رضي الله تعالى عنهما-: يُصلُّون: يُبرِّكون، هكذا علَّقه البخاري- رحمه الله تعالى-"[٢].

وقال الإمام السعدي- رحمه الله تعالى- في تفسير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[٣] اقتداءً بالله سبحانه وملائكته عليهم الصلاة والسلام، وجزاءً له ﷺ على بعض حقوقه عليكم، وتكميلًا لإيمانكم، وتعظيمًا له ﷺ، ومحبَّةً وإكرامًا، وزيادةً في حسناتكم، وتكفيرًا من سيئاتكم"[٤].

وقال علماء اللجنة الدائمة للإفتاء:" المراد بالصلاة هنا الدعاء، ومعنى الحديث الحثُّ على الإكثار من الصلاة والسلام على النبي ﷺ؛ لِما في ذلك من الأجر العظيم"[٥].

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضْل الصلاة على النبي ﷺ:

---

(١) الأحزاب: ٥٦.

(٢) يُنظَر: صحيح البخاري (٦/ ١٢٠).

(٣) الأحزاب: ٥٦

(٤) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٧١).

(٥) فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الأولى (٢٤/ ١٥٧). فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الأولى، المؤلف: اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش.



منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ"(١).

وروى أبو داود في سُننه من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ"(٢).

وروى الترمذي في سُننه من حديث أُبي بن كعب- رضي الله عنه- قال:" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: مَا شِئْتَ، قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ؛ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: النِّصْفَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ؛ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ:" مَا شِئْتَ؛ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ:" إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ"(٣).

قال ابن القيِّم- رحمه الله-: سُئِل شيخُنا- رحمه الله- عن تفسير هذا الحديث فقال: كان لأُبي بن كعب دعاء يدعو به لنفسه، فسأل النبيَّ ﷺ هل يجعل له منه رُبعَه صلاة عليه ﷺ، فقال: إن زدتَ فهو خيرٌ لك، فقال له: النصف، فقال: إن زدتَ فهو خيرٌ لك، إلى أن قال: أجعل لك صلاتي كلَّها، أي أجعل دعائي كلَّه صلاة عليك، قال: إذًا تُكفى همَّك ويُغفر لك ذنبُك، لأنَّ من صلَّى على النبي

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٩/ ٥٧) برقم (١١٩٩٨). والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٣٠) برقم (٩٨٠٨) كتاب عمل اليوم والليلة. ثواب الصلاة على النبي ﷺ. والحديث صحَّحه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١/ ٢٩١). مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١ م. السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م. مشكاة المصابيح، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقِّق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥ م.

(٢) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٢١٨) برقم (٢٠٤٢) كتاب المناسك. باب زيارة القبور. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن أبي داود (٥/ ٤٢). صحيح وضعيف سُنن أبي داود، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة بالإسكندرية.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٣٧) برقم (٢٤٥٧) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٤٥٧). صحيح وضعيف سُنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة بالإسكندرية

ﷺ صلاة؛ صلَّى اللهُ عليه بها عشرًا، ومن صلَّى اللهُ عليه كفاه همَّه وغفر له ذنبَه، هذا معنى كلامه- رحمه الله-[1].

قال الإمام ابن الجوزي:

إنَّ الصَّلَاةَ عَلى النَّبِيِّ وَسِيلَةٌ فِيهَا النَّجَاةُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُسْلِمِ
صَلُّوا عَلَى القَمَرِ المنِيرِ فَإِنَّهُ نُورٌ تَبَدَّا فِي الغَمَامِ المظْلِمِ[2]

ومن فوائد الصلاة على النبي ﷺ:-

أوَّلًا: امتثال أمْر الله سبحانه وتعالى.

ثانيًا: موافقته سبحانه وتعالى في الصلاة عليه، وإن اختلفت الصلاتان، فصلاتُنا عليه دعاءٌ وسؤالٌ، وصلاة الله تعالى عليه ثناءٌ وتشريفٌ.

ثالثًا: أنَّها ترفع الدرجات وتُكفِّر السَّيِّئات كما وردت بذلك الأحاديث السابقة.

رابعًا: أنَّه يُرجى إجابة دعاء السائل إذا ختم بها، فبها يصعد الدعاء إلى ربِّ العالمين. فقد روى الترمذي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ- رضي الله عنه- أنَّه قَالَ:" إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؛ لا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ"[3].

خامسًا: أنَّها سببٌ لكفاية العبد ما أهمَّه، ففي حديث أُبي بن كعب السابق لما قال للنبي ﷺ: أجعل لك صلاتي كلَّها؟ قال له: إذًا تُكفَى همَّك، ويُغفر ذنبُك[4].

سادسًا: أنَّ الصلاة عليه ﷺ من حقوقه على أُمَّته مقابل الخير العظيم الذي حصل لهم بسببه.

وأمَّا صيغ الصلاة عليه ﷺ فهي كثيرة، نكتفي باثنتين منها:

---

(١) جلاء الأفهام (ص ٧٩). جلاء الأفهام في فضْل الصلاة على محمَّدٍ خير الأنام، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقِّق: شعيب الأرناؤوط- عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة- الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

(٢) بستان الواعظين ورياض السامعين (ص ٣٠٤). بستان الواعظين ورياض السامعين، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقِّق: أيمن البحيري، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٢/ ٣٥٦) برقم (٤٨٦) أبواب الوتر. باب ما جاء في فضْل الصلاة على النبي ﷺ. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (١/ ٤٨٦).

(٤) تقدَّم قريبًا.



أولًا: ما رواه البخاري ومسلم في صحيحَيْهما من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ- رضي الله عنه- فَقَالَ: أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ: بَلَى فَأَهْدِهَا لِي، فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله؛ كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ؟ قَالَ:" قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ"[(١)].

ثانيًا: ما رواه البخاري من حديث أبي حميد الساعدي- رضي الله عنه- أَنَّهم قالوا: يَا رَسُولَ الله؛ كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ؛ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ؛ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ"[(٢)].

وقد سُئل الشيخ العلَّامة ابن عثيمين عن كيفيَّتها؛ فقال: كيفيَّة الصلاة أن يقول:" اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ"، والكامل منها أن يقول:" اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ؛ كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيد، وبارك على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ؛ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيد" لا سيَّما إذا كان يُصلِّي، فهذه هي الكيفيَّة المطلوبة[(٣)].

الخلاصة: أنَّ الصلاة من الله عزَّ وجلَّ على النبي ﷺ قيل: إنَّها الثناء على المصلَّى عليه في الملأ الأعلى، وقيل: إنَّها منزلة عالية فوق الرحمة، ولكنَّنا لا ندري ما هي، وقيل: إنَّ الصلاة من الله هي الرحمة، لكنَّ هذا القول ضعيفٌ لقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾[(٤)]، فعطف الرحمة على الصلوات، فدل هذا على أنها ليست هي الرحمة، أما الإنسان إذا دعا الله أن يُصلِّي على نبيِّه ﷺ فمعناه أن يجعل عليه صلاته.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٤٧) برقم (٣٣٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء. باب بدون ترجمة. ومسلم في صحيحه (١/ ٣٠٥) برقم (٤٠٦) كتاب الصلاة. باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهُّد، مع اختلافٍ يسيرٍ عمَّا في البخاري.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٤٦) برقم (٣٣٦٩) كتاب أحاديث الأنبياء. باب بدون ترجمة. ومسلم في صحيحه (١/ ٣٠٦) برقم (٤٠٧) كتاب الصلاة. باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهُّد، مع اختلافٍ يسيرٍ عمَّا في البخاري.

(٣) فتاوى نور على الدرب للعثيمين (٥/ ٢، بترقيم الشاملة آليًّا). فتاوى نور على الدرب، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ).

(٤) البقرة: ١٥٧.

٣ ربيع الأول

وإنَّك لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

وصَفَ الله تعالى في القرآن الكريم خُلُق نبيّه ﷺ بأنَّه عظيم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١)، فقد اتَّصفَ ﷺ بجميع مكارم الأخلاق، وأخَذَ من كلِّ نبيٍّ قبله أحسنَ ما اتَّصفَ به، فأخَذَ توبة آدم، وشُكْر نوح، ووفاء إبراهيم، ووعْد إسماعيل، وحلْم إسحاق، وحُسْنَ ظَنِّ يعقوب، واحتمال يوسف، وصبْر أيوب، إلى غيرها من الصِّفات.

والخُلُق لغة: اسمٌ لسجيَّة الإنسان وطبيعته التي خُلِقَ عليها، وهو مأخوذ من مادة (خ ل ق) التي تدلُّ على تقدير الشيء. والخليقة: الطبيعة، والجمع الخلائق. قال لبيد:

فاقنعْ بما قَسَمَ المليكُ فإنَّما قَسَمَ الخلائقَ بيننا علَّامُهَا(٢)

وحُسْن الخُلُق اصطلاحًا: كما قال القزويني رحمه الله: ومعنى حُسْن الخُلُق: سلامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال، وقد يكون ذلك في ذات الله تعالى، وقد يكون فيما بين النَّاس(٣).

قال الشيخ السعدي في تفسيره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٤)، أي: عاليًا به، مُستعليًا بخُلُقك الذي منَّ الله عليك به، وحاصلُ خُلُقِه العظيم ما فسَّرتْه به أُمُّ المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- لمن سألها عنه، فقالت:" كان خُلُقُه القرآن" رواه مسلم(٥)، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٦)، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾(٧) الآية،﴿لَقَدْ

---

(١) القلم: ٤.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص ١١٦). ديوان لبيد بن ربيعة العامري، المؤلف: لَبِيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري الشاعر معدودٌ من الصحابة (المتوفى: ٤١هـ)، اعتنى به: حمدو طمَّاس، الناشر: دار المعرفة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤ م.

(٣) شعب الإيمان (١٠/ ٣٥٠). شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي- الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٣ م.

(٤) القلم: ٤.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥١٣) برقم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب جامع صلاة الليل ومَن نام عنه أو مرض، ولفظه أنَّه لما سأل حكيمُ بن أفلح أُمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:" يا أُمَّ المؤمنين؛ أنبئيني عن خُلُقِ رسول الله ﷺ، قالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلتُ: بلى، قالت: فإنَّ خُلُق نبي الله ﷺ كان القرآن".

(٦) الأعراف: ١٩٩.

(٧) آل عمران: ١٥٩.



جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالَّات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثَّات على الخُلُق العظيم فكان له منها أكملها وأجَلُّها، وهو في كلِّ خصلةٍ منها في الذروة العُليا، فكان ﷺ سهلًا ليِّنًا، قريبًا من النَّاس، مُجيبًا لدعوة مَن دعاه، قاضيًا لحاجة مَن استقضاه، جابرًا لقلب مَن سأله، لا يَحرِمه، ولا يَردُّه خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه؛ إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمرٍ لم يستبدَّ به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من مُحسنهم، ويعفو عن مُسيئهم، ولم يكن يُعاشر جليسًا له إلَّا أتمَّ عِشْرَتَه وأحسنها، فكان ﷺ لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بِشْرَه، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يُؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يُحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ[٢].

وقال الإمام القرطبي: إن المراد بالخلق العظيم أدب القرآن، وقيل: هو رفقه بأُمَّته وإكرامه إياهم، وقيل المراد: إنَّك على طبع كريم، وقيل أيضًا: حقيقة الخُلُق في اللغة هو: ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب لأنَّه يصير كالخلقة فيه، وأمَّا ما طُبِعَ عليه الإنسان من الأدب فهو الخيم أي السجية والطبع، وعلى ذلك يكون الخُلُق: الطبع المتكلَّف، والخيم: الطبع الغريزي، وقد ذكر الأعشى ذلك في شعره فقال:

وإذا ذو الفضول ضنَّ على الـ مولى وعادت لخيمها الأخلاق

أي رجعت الأخلاق إلى طبيعتها[٣].

وقد رجَّح القرطبي تفسير عائشة- رضي الله عنها- للخلق العظيم؛ فقد سُئلت ذات مرَّةٍ عن خلق الرسول ﷺ فقالت:" كان خُلُقُهُ القُرآنَ" رواه مسلم[٤]، ولعلَّ أبلغ وصف وأدق تصوير لخُلُق الرسول الكريم ﷺ ما وصفه به القرآن بقوله الجامع الموجز: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٥]، وهي شهادة من الله، وما عند الله لا يبلغ إلى إدراك مداه أحدٌ من العالمين.

أمَّا عن أخلاق النبي ﷺ مع أصحابه:

---

(١) التوبة: ١٢٨

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٧٨).

(٣) يُنظَر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٢٧). الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية– القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٤ م.

(٤) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٥) القلم: ٤.



فعن أنس– رضي الله عنه– قال:" كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، ولا يصرف وجهه من وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه، ولم يُرَ مُقدِّمًا ركبتيه بين يدي جليس له" رواه الترمذي(١).

وكان من هديه ﷺ أن يمزح مع أصحابه؛ فعن الحسن البصري– رضي الله عنه– قال:" أتتْ عجوزٌ للنبي ﷺ فقالت: يا رسول الله؛ ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: يا أُمَّ فلان؛ إنَّ الجنَّة لا يدخلها عجوز. فولَّت وهي تبكي، فقال: أخبروها أنَّها لا تدخلها وهي عجوز؛ إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾(٢)" رواه الترمذي(٣).

وانظر إلى أخلاقه ﷺ مع الأطفال:

فقد روى البخاري عن أنس– رضي الله عنه– أنَّه قال:" كان ﷺ يمرُّ بالصِّبيان فيُسلِّم عليهم"(٤).

وكان ﷺ" يحمل أمامة بنت زينب– ابنة رسول الله ﷺ– وهو يُصلِّي بالناس؛ إذا قام حملها، وإذا سجد وضعها" متفق عليه(٥).

وعن أخلاق النبي ﷺ مع الخدم:

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٥٤) برقم (٢٤٩٠) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع. باب بدون ترجمة. والحديث قال عنه الألباني:" ضعيف إلَّا جملة المصافحة فهي ثابتة". ضعيف سُنن الترمذي (ص ٢٨٤). ضعيف سُنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طباعته والتعليق عليه: زهير الشاويش، بتكليف: من مكتب التربية العربي لدول الخليج– الرياض، توزيع: المكتب الاسلامي– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

(٢) الواقعة: ٣٥-٣٧.

(٣) رواه الترمذي في الشمائل المحمديَّة (ص ١٤٤). الشمائل المحمديَّة، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت. والحديث صحَّحه الألباني بمجموع طرقه وشواهده كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ١٢٢١). سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عام النشر: جـ ١- ٤: ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦ م، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٥٥) برقم (٦٢٤٧) كتاب الاستئذان. باب التسليم على الصبيان. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٠٨) برقم (٢١٦٨) كتاب السلام. باب استحباب السلام على الصبيان.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٠٩) برقم (٥١٦) كتاب الصلاة. باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة. ومسلم في صحيحه (١/ ٣٨٥) برقم (٥٤٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب جواز حمل الصبيان في الصلاة.



يقول أنس بن مالك- رضي الله عنه-:" خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين؛ والله ما قال: أفٍّ قط، ولا قال لشيء: لمَ فعلتَ كذا، وهلَّا فعلتَ كذا" متفق عليه(١).

حتى أخلاقه ﷺ مع أعدائه كانت ولا زالت مضرب المثل:

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّه قال: عندما قيل له ﷺ: ادعُ على المشركين، قال:" إِنِّي لم أُبْعَثْ لعَّانًا؛ وإنَّما بُعِثْتُ رحمةً" رواه مسلم(٢).

الخلاصة: هذا غيضٌ من فيضٍ من أخلاق البشير النذير السراج المنير، فما أحوجنا أن نملأ قلوبنا بمحبَّته، وما أحوجنا أن نُربِّي على هذه السُّنَّة والأخلاق الكريمة صغارنا وكبارنا، وأن نضع أخلاق النبي ﷺ نُصْب أعيننا؛ لتظهر آثارها علينا ليلًا ونهارًا، فبحسب متابعته تكون العزَّة والكفاية، والنصرة والولاية والتأييد، والهداية والفلاح والنجاة، وطيب العيش في الدنيا والآخرة.

مِنْ أينَ أبدأُ في مديحِ مُحمدٍ ... لَا الشِّعرُ يُنصفُهُ وَلَا الأَقْلَامُ
هُو صَاحِبُ الخُلُقِ الرَّفِيعِ عَلَى المدَى ... هُو قَائِدٌ للمُسلمينَ هُمَامُ
هُو سَيِّدُ الأَخْلَاقِ دُونَ مُنَافِسٍ ... هُو مُلهِمٌ هُو قَائِدٌ مِقْدَامُ
ماذَا نَقُولُ عَنِ الحَبِيبِ المصْطَفَى ... فمحمدٌ للعالمينَ إمَامُ
ماذَا نَقُولُ عَنِ الحَبِيبِ المجْتَبَى ... فِي وَصْفِهِ تَتَكَسَّرُ الأَقْلَامُ (٣)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٤) برقم (٦٠٣٨) كتاب الأدب. باب حُسْن الخُلُق والسخاء وما يُكرَه من البخل. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٠٤) برقم (٢٣٠٩) كتاب الفضائل. باب كان رسول الله ﷺ أحسنَ النَّاس خُلُقًا.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠٦) برقم (٢٥٩٩) كتاب البر والصلة والآداب. باب النهي عن لعن الدواب وغيرها.

(٣) لم أقف على قائلها.



٤ ربيع الأول

أُمُّ القُرَى

لذكر مكَّة وقْعٌ خاصٌّ في النفوس؛ فهي مهوى الأفئدة، وقُرَّة العيون، لها مع مواسم الطاعة التصاق وثيق، ففريضة الصلاة إلى كعبتها، ومناسك الحج لا تصحُّ إلَّا بزيارتها، وأمَّا الصيام والقيام في حرمها فله مذاقه الخاصُّ الذي لا يُدانيه شيءٌ.

مكَّة المكرَّمة بلد الله المعظَّم، التي طالما قصدها الزائرون عبر القرون، وكتب عنها وأرَّخ لها المصنِّفون والمؤرِّخون، وتغنَّى بجمالها وروحانيتها الشعراء المبدعون.

والأرواح دومًا في لهفٍ واشتياقٍ لمكَّة، فقد عطف الله تعالى القلوب إلى بيته الحرام وجعله مثابة للنَّاس، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[١]. أي: يثوبون إليه على تعاقُب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطرًا، بل كلَّما ازدادوا زيارة له ازدادوا له اشتياقًا، قال الشاعر:

لَا يَرجِعُ الطَّرفُ عَنهَا حِينَ يَنظُرُهَا حَتَّى يَعُودَ إِلَيهَا الطَّرفُ مُشْتَاقًا[٢]

ولبلد الله الحرام الذي حرَّمه وشرَّفه أسماء كثيرة، وردتْ في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ، وكثرة المسمَّيات للشيء تدلُّ على شرف وعِظم المسمَّى، ومن هذه الأسماء: مكَّة؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[٣]، وأيضًا: بكَّة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٤]، وأيضًا: الحرم؛ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[٥]، البلد والبلد الأمين والبلدة؛ قال تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾[٦]، وقال ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾[٨]، وغير هذه الأسماء.

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) ذكره ابن القيِّم في عددٍ من كتبه وكذا ذكره غيره دون نسبته لأحدٍ. يُنظَر: زاد المعاد في هدْي خير العباد (١/ ٥٢). زاد المعاد في هدْي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت– مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥ هـ/١٩٩٤ م.

(٣) الفتح: ٢٤.

(٤) آل عمران: ٩٦.

(٥) العنكبوت: ٦٧.

(٦) البلد: ١.

(٧) التين: ٣.

(٨) النمل: ٩١.



ومن فضائل مكَّة؛ أنَّها أحبُّ البلاد إلى الله: ومن تفضيل الله تبارك وتعالى لمكَّة أن جعلها خير البلاد، وأحبَّها إليه وإلى رسوله ﷺ، فعن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أنَّ رسول الله ﷺ قال لمكَّة: ما أطيبَكَ من بلدٍ، وما أحبَّكِ إليَّ، ولولا أنَّ قومَكِ أخرجوني منكِ ما سكنْتُ غيرَكِ" رواه الترمذي(١).

ومن فضائلها أنَّ فيها بيت الله الحرام: قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾(٢)، فوضع فيها قواعد البيت بمعيَّة ابنه إسماعيل عليهما السلام وهما يسألان الله سبحانه القبول، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(٣).

ومن فضائلها أنَّ الله تعالى جعلها حرمًا آمنًا حرَّم فيه القتال: عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم فتْح مكَّة:" إنَّ هذا البلد حرَّمه الله يوم خَلَق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحُرمة الله إلى يوم القيامة، وإنَّه لم يحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلَّا ساعةً من نهارٍ، فهو حرامٌ بحُرمة الله إلى يوم القيامة". رواه البخاري ومسلم(٤).

ومن فضائلها أنَّه لا يدخلها الدَّجَّال: رُوي عن أنس- رضي الله عنه- أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ قال:" ليس من بلدٍ إلَّا سيطؤه الدَّجَّال، إلَّا مكَّة والمدينة، ليس له من نقابها نقبٌ إلَّا عليه الملائكة صافِّين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيُخرج الله كلَّ كافرٍ ومنافقٍ" رواه البخاري ومسلم(٥).

ومن فضائلها أنَّها مأرز الإيمان: رُوي عن ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال:" إنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين: المسجد الحرام والمسجد النبوي، كما تأرز الحية في جحرها" رواه مسلم(٦).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٧٢٣) برقم (٣٩٢٦) أبواب المناقب. باب في فضْل مكَّة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ٤٢٦).

(٢) إبراهيم: ٣٧.

(٣) البقرة: ١٢٧.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠٤) برقم (٣١٨٩) كتاب الجزية. باب إثم الغادر للبر والفاجر. ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٨٦) برقم (١٣٥٣) كتاب الحج. باب تحريم مكَّة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلَّا لمنشدٍ على الدوام.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٢) برقم (١٨٨١) كتاب فضائل المدينة. باب لا يدخل الدَّجَّال المدينة. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٦٥) برقم (٢٩٤٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب قصَّة الجسَّاسة.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٣١) برقم (١٤٦) كتاب الإيمان. باب بيان أنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنَّه يأرز بين المسجدين.



ومن فضائلها مُضاعَفة الثواب والحسنات: عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد؛ إلَّا المسجد الحرام" رواه البخاري(١).

وقال الحسن البصري رحمه الله: ما على وجه الأرض بلدة يرفع الله فيها الحسنة الواحدة غاية ألف حسنة إلَّا مكَّة، ومن صلَّى فيها صلاة رُفِعَتْ له مائة ألف صلاةٍ، ومَن صام فيها كُتِبَ له صومُ مائة ألف يومٍ، ومَن تصدَّق فيها بدرهم كُتِبَ له مائة ألف درهمٍ صدقة(٢).

دعوني أُقلِّبْ ها هنا دفتر المدى ... ففيه من الآياتِ ما سوفَ يُذْهِلُ
هنا كان (إبراهيمُ) كانَ هُنا (ابنُه) ... بكفَّيْهمـا يعلـو البِنـاءُ ويكْمُـلُ
وكان هنا خيرُ البرايا محمَّدٌ ... يُناجِي وفي ثَوْبِ التعبُّدِ يَرْفُلُ
هنا انسكبتْ أَنْوارُ خيرٍ ورحمةٍ ... وطـابَ مقـامٌ للمُحِـبِّ ومَنْـزِلُ
فضاءٌ فسيحٌ طِرْتُ فيه مُحلِّقًا ... أُصلِّي إلى كلِّ الجهـــاتِ وأُقْبِلُ(٣)

وممَّا يدل على فضْلها أنَّ الله سبحانه أضاف البيت الحرام في مكَّة إلى نفسه، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾(٤). فاقتضتِ هذه الإضافة الخاصَّة من الإجلال والتعظيم والمحبَّة ما اقتضتْه، ولو لم يكن له شرفٌ إلَّا إضافته إيَّاه لنفسه لكفى بهذه الإضافة فضْلًا وشرفًا.

وممَّا يدلُّ على فضْلها ومكانتها: ما جاء في المعاقبة على الهَمِّ بالسَّيِّئة فيها وإن لم تُفعَلْ، لِقَولِهِ تَعَالَى : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٥).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم مُوجِبٌ للعذاب، وإن كان غيره لا يُعاقَبُ العبدُ عليه إلَّا بعمل الظلم، وفي الآية الكريمة: وجوب احترام الحرم، وشدَّة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها(٦).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٦٠) برقم (١١٩٠) كتاب فضْل الصلاة في مسجد مكَّة والمدينة. باب فضْل الصلاة في مسجد مكَّة والمدينة. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١٢) برقم (١٣٩٤) كتاب الحج. باب فضْل الصلاة بمسجدَيْ مكَّة والمدينة.

(٢) فضائل مكَّة (ص ٢١). فضائل مكَّة والسكن فيها، المؤلف: الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد (المتوفى: ١١٠هـ)، المحقِّق: سامي مكي العاني، الناشر: مكتبة الفلاح– الكويت.

(٣) من قصيدة للشاعر د. عبد الرحمن العشماوي بعنوان في جوف الكعبة. في جوف الكعبة - عبدالرحمن العشماوي - الديوان (aldiwan.net)

(٤) الحج: ٢٦.

(٥) الحج: ٢٥.

(٦) يُنظَر: تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٣٦).



وكان لعبد الله بن عمرو بن العاص- رضي اللهُ عنهما- فسطاطان: أحدهما في الحِلِّ والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يُعاتب أهله عاتبهم في الحِلِّ، وإذا أراد أن يُصلِّي صلَّى في الحرم[١]، وفي هذا تحذيرٌ شديدٌ لمن يرتكب المنكرات العظيمة والكبائر الموبقة في مكَّة كالرِّبا، والزِّنا، واستعمال المخدِّرات، ونشْر القنوات الفضائية السَّيِّئة، والاستماع إلى الغناء، وغير ذلك من المعاصي والمنكرات.

والخلاصة: أنَّ لمكَّة فضائل وردت في كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، وأقوال السلف، فهي أحبُّ البقاع إلى الله، والقلوبُ مُنجذبةٌ إليها، لا يدخلها الدَّجَّال، والحسنات تُضَاعَف في مكَّة؛ وذلك لأنَّ شرف المكان له من الخصوصية في تعظيم العبادة ما ليس في غيره، وأنَّ هذه المضاعَفة ليس لها حدٌّ محدودٌ إلَّا في الصلاة.

---

(١) أخبار مكَّة للأزرقي (٢/ ١٣٢). أخبار مكَّة وما جاء فيها من الآثار، المؤلف: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المكي المعروف بالأزرقي (المتوفى: ٢٥٠هـ)، المحقِّق: رشدي الصالح ملحس، الناشر: دار الأندلس للنشر– بيروت.



٥ ربيع الأول

طَيبة الطَّيِّبة

إنَّ مدينة الرسول ﷺ طَيبة الطَّيِّبة، مَأرِز الإيمان، ومُلتَقَى المهاجرين والأنصار، ومُتَنَزَّل جبريل الأمين على النبي ﷺ، وقد سَمَّاهَا رسول الله ﷺ طَيْبَةَ وَطَابَةَ، روى مسلم في صحيحه مِن حَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنتِ قَيسٍ- رضي اللهُ عنها- فِي حَدِيثِ الجَسَّاسَةِ قَوْلُهُ ﷺ:" هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، يَعْنِي الْمَدِينَةَ"(١).

وأمَّا طابة وطيبة فمن الطِّيب، وهو الرائحة الحسنة، فهي آمِنة مستقرَّة، وهي طيبة العيش، حسنة المسكن، وقد نهى النبي ﷺ عَنْ تَسْمِيَتِهَا بِيَثْرِب فقال:" مَنْ سَمَّى الْمَدِينَةَ يَثْرِب؛ فَلْيَسْتَغْفِرْ اللهَ عزَّ وجلَّ، هِيَ طَابَةُ، هِيَ طَابَة" رواه أحمد(٢).

هذه المدينة المباركة قد شرَّفها الله وفضَّلها وجعلها خير البقاع بعد مكَّة، وقد وردت النصوص الكثيرة في فضْلها وحُرمتها ومكانتها، إخبارًا ودعاءً، وترغيبًا وترهيبًا.

على ثرى طيبة تأسَّست أوَّل دولة في الإسلام، تحمل كلمة التوحيد عقيدةً وسلوكًا ومنهج حياة، على ثراها تآخى المهاجرون والأنصار؛ إنَّها طيبة التي ضمَّت في أحشائها رهط السابقين من الرجال المؤمنين الذين خرجوا من رحابها إلى الدنيا الواسعة، ففتحوا الأمصار، وعمَّروا الديار، ونشروا العدل، وملأوا الأقطار، تَقدُّمًا وعلمًا ورخاءً.

بلدةٌ آمِنة، ومدينة ساكنة، لا يُهراق فيها دم، ولا يُحمَل فيها سلاحٌ لقتال؛ فعن سهل بن حنيف- رضي الله عنه- قال: أهوى رسول الله ﷺ بيده إلى المدينة فقال:" إنَّها حَرَمٌ آمِنٌ" رواه مسلم(٣).

فهي دارةُ المحاسن، ودائِرة الميامن، طيبة الغرَّاء، وطابةُ الفيحاء، تُوسِعُ العينَ قُرَّة، والنَّفْسَ مَسرَّة، الفضائل مجموعةٌ فيها، والإيمان يأرِز في نواحيها؛ فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" إنَّ الإيمانَ ليأرِز إلى المدينة كما تأرِز الحيَّة إلى جحرها" متفق عليه(٤).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٦٢) برقم (٢٩٤٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب قصَّة الجسَّاسة.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٠/ ٤٨٣) برقم (١٨٥١٩). والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (١٠/ ١٢١). سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، دار النشر: دار المعارف، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٠٣) برقم (١٣٧٥) كتاب الحج. باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٢١) برقم (١٨٧٦) كتاب فضائل المدينة. باب الإيمان يأرز إلى المدينة. ومسلم في صحيحه (١/ ١٣١) برقم (١٤٧) كتاب الإيمان. باب بيان أنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنَّه يأرز بين المسجدين.



وهي متنفَّس الخواطِر، ومَرتع النواظر، بلدةٌ معشوقَة السكنى، طيِّبة المثوى، سكنُها مع الإيمان شرفٌ بالغٌ، واستيطانها مع التَّقوى عِزٌّ شامخٌ؛ فعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" مَن استطاعَ أن يموتَ بالمدينة فلْيفعلْ، فإنِّي أشفع لمن مات بها" رواه أحمد[١]، وقال أيضًا:" مَن مات بالمدينة كنتُ له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة"[٢].

ومن فضائل المدينة: أنَّ الله جعلها حرمًا، فقد روى مسلم مِن حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ- رضي اللهُ عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَجَعَلَهَا حَرَمًا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ حَرَامًا، مَا بَيْنَ مَأْزِمَيْهَا، أَنْ لَا يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ، وَلَا يُحْمَلَ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ، وَلَا تُخْبَطَ فِيهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لِعَلْفٍ"[٣].

وحَرَمُ المدينة هو ما بين لابتيها، واللابتان الحرتان وهي الأرض التي تغطيها الحجارة السوداء، فهي بين الحرتين شرقًا وغربًا، وما بين عير إلى ثور يمنًا وشامًا، روى البخاري ومسلم في صحيحَيْهما مِن حَدِيثِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ- رضي اللهُ عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" الْمَدِينَةُ حَرَامٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ"[٤].

ومنها: ما جاء عن النبيِّ ﷺ من الدعاء لها بالبركة، روى مسلم في صحيحه مِن حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ- رضي اللهُ عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ مَا مِنَ الْمَدِينَةِ شِعْبٌ وَلَا نَقْبٌ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكَانِ يَحْرُسَانِهَا حَتَّى تَقْدَمُوا إِلَيْهَا "[٥].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٩/ ٣٢٠) برقم (٥٤٣٧). والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ١٠٣٤).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٣٣١) برقم (٨٢٣). المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية- القاهرة، الطبعة: الثانية. وصحَّح إسناده صاحب كتاب "الأحاديث الواردة في فضائل المدينة" كما في المختصر (ص ٢٦). مختصر كتاب "الأحاديث الواردة في فضائل المدينة" المؤلف: الدكتور صالح بن حامد بن سعيد الرفاعي. تلخيص: أُمُّ الليث.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٠١) برقم (١٣٧٤) كتاب الحج. باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (١٥٤/٨) برقم (٦٧٥٥) كتاب الفرائض. باب إثم مَن تبرأ من مواليه. ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٩٤) برقم (١٣٧٠) كتاب الحج. باب فضْل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٠١) برقم (١٣٧٤) كتاب الحج. باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها.

ومنها: أنَّ في المدينة مسجد قباء، والصلاة فيه تعدل عمرة، فقد جاء مِن حَدِيثِ سَهْلِ بنِ حُنَيْفٍ- رضي اللهُ عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" مَنْ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ هَذَا الْمَسْجِدَ؛ يَعْنِي مَسْجِدَ قُبَاءَ، فَيُصَلِّيَ فِيهِ كَانَ كَعَدْلِ عُمْرَةٍ "رواه النسائي(١).

ومنها: فضْل الروضة الشريفة، عن أَبِي هُرَيرَةَ- رضي اللهُ عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي" متفق عليه(٢).

ومنها: أنَّ مَن أرادَ أهلَها بسوءٍ أهلكه الله، روى البخاري ومسلم عن حَدِيثِ سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ- رضي اللهُ عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" مَنْ أَرَادَ أَهْلَ الْمَدِينَةَ بِسُوءٍ أَذَابَهُ اللهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ"(٣).

وهي محبوبة رسول الله ﷺ من البلاد: كيف لا؟ وقد آوته، ونصره أهلها فأحبَّها وأحبَّهم، بل وأحبَّ جبالها وآطامها، ففي صحيح البخاري أنَّه ﷺ دعا ربَّه قائِلًا:" اللَّهُمَّ حبِّبْ إلينا المدينة كحُبِّنا مكَّة أو أشدَّ"(٤)، وقال في جبل أُحُد:" هذا جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه" رواه البخاري(٥)، فأيُّ حُبٍّ هذا الذي غمر النبي ﷺ فغدا يُصرِّح به ولا يكتمه، أمَّا حُبُّه لأهلها فقد بلغ مبلغًا عظيمًا، حتَّى صرَّح بمكنونه لهم فقال:" لو سلكَ النَّاسُ واديًا، وسلكتِ الأنصارُ واديًا أو شِعْبًا؛ لسلكتُ وادي الأنصار أو شِعْبَ الأنصار" رواه مسلم(٦).

أنا المدينةُ مَن في الكونِ يجهلُني ... ومَن تراه درى عني وما شغلا

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٥/ ٣٥٨) برقم (١٥٩٨١). والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٣٨٧) برقم (٧٨٠) كتاب المساجد. فضْل مسجد قباء والصلاة فيه. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن النسائي (٢/ ٣٤٣). صحيح وضعيف سُنن النسائي، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنَّة بالإسكندرية.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦١/٢) برقم (١١٩٦) كتاب فضْل الصلاة في مسجد مكَّة والمدينة. باب فضْل ما بين القبر والمنبر. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١١) برقم (١٣٩١) كتاب الحج. باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنَّة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢١/٣) برقم (١٨٧٧) كتاب فضائل المدينة. باب إثم مَن كادَ أهل المدينة. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٠٨) برقم (١٣٨٧) كتاب الحج. باب مَن أراد أهل المدينة بسوءٍ أذابه الله. واللفظ لمسلم.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢٣/٢) برقم (١٨٨٩) كتاب فضائل المدينة. باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٠٣) برقم (١٣٧٦) كتاب الحج. باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٣٥/٤) برقم (٢٨٨٩) كتاب الجهاد والسِّيَر. باب فضْل الخدمة في الغزو. ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٩٣) برقم (١٣٦٥) كتاب الحج. باب فضْل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٨٦/٩) برقم (٧٢٤٤) كتاب التَّمنِّي. باب ما يجوز من اللَّو.



تتلَّمـذَ (المجدُ) طفـلًا عنـد مدرسـتي	حـتَّى تخـرَّج منهـا عالمِـا رجُـلا
فتحـتُ قلـبي (لخـير الخلْـق) قاطبـة	فلـم يُفـارقْه يومًـا منـذ أن دخـلا
وصـرتُ (سـيدة الـدنيا) بـه شـرفًا	واسمـي لكـلِّ حـدودِ الأرضِ قـد وصـلا
ومسجدي كان- بل مـا زالَ- أُمنيةً	تصبـو إليهـا قلـوبٌ ضـلَّتِ السُّـبُلا
وفي هـواي (ملايين) تنامُ على	ذِكـري وتصـحو علـى طيفـي إذا ارتحـلا
تنافسُوا في غرامـي، أرسـلوا كُتبًا	وأنفقـوا عندهـا الرُّكبـانَ والرُّسـلا
أنا (المنوَّرةُ) الفيحـاءُ ذا نسـبي	إذا البـدورُ رأتْـني أطرقـتْ خَجَـلا[١]

وأمَّا عن فضيلة العيش فيها وتفضيلها عمَّا سواها من البلاد فقد قال ﷺ:" تُفتَح اليمنُ فيأتي قومٌ يُبِسُّون- أي يُزيّنون لهم البلاد ويُحبّبُونها إليهم ويدعونهم إلى الرحيل إليها- فيتحملُّون بأهليهم ومَن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتَح الشام فيأتي قومٌ يُبِسُّون فيتحملُّون بأهليهم ومَن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتَح العراق فيأتي قومٌ يُبِسُّون فيتحملُّون بأهليهم ومَن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون" متفق عليه[٢].

والخلاصة: أنَّ المدينة كانت حبيبةً لقلب النبي ﷺ وهي حرمٌ، وأرضٌ مُباركَةٌ، وفي طعامها وشرابها وسُكناها وأهلها، ولا يسكنها ويقرُّ فيها إلَّا الطَّيِّبون، فهي تنفي خبثها، ولدخولها وسُكناها فضائل عظيمة، وفوائد كثيرة، نسأل الله أن يُعجِّل لنا بزيارة لها، والصلاة في مسجد النبي ﷺ.

---

(١) الأبيات للشاعر عبد المحسن حليت المحمادي الحربي، ولم أقف على ديوان له.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/٢١) برقم (١٨٧٥) كتاب فضائل المدينة. باب مَن رغب عن المدينة. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٠٨) برقم (١٣٨٨) كتاب الحج. باب الترغيب في المدينة عند فتْح الأمصار. مع اختلافٍ يسيرٍ بينهما.

٦ ربيع الأول

المسجد الحرام

لقد اهتمَّ القرآن الكريم بالحديث عن المساجد بصفة عامة، وعن المسجد الحرام بصفة خاصة، ومن مظاهر هذا الاهتمام؛ أنَّ القرآن الكريم قد نوَّه بعلو شأنها كما في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]، كذلك من مظاهر هذا الاهتمام أنَّ الله تعالى قد بيَّن أنَّ هذه المساجد التي تُقام فيها العبادات؛ يجب أن تُنسَب إليه وحده، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[٢].

والمسجد الحرام بأُمِّ القُرى بمكَّة المكرَّمة أشرف المساجد، بأفضل بقعة في الأرض، فخيرُ البِقاعِ عندَ اللهِ وأحبُّها إليه مكَّة، وقد قال ﷺ:" واللهِ إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللهِ، وأحبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ، ولولا أنِّي أُخرِجتُ منكِ ما خَرجتُ" رواه أحمد[٣].

ومسجِدُها أشرفُ المساجِد، وهو أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ في الأرضِ، قال أبو ذرٍّ– رضي الله عنه–: يا رسول الله؛ أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرضِ أوَّلَ؟ قال: المسجدُ الحرامُ، قال: قُلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصَى، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً" متفقٌ عليه[٤]. والمقصود من الحديث الإشارة إلى أوَّل بناء المسجدين، وقد قيل: بناهما جميعا آدمُ– عليه السلام–، وقيل: بَنَى آدمُ المسجد الحرام، وبنى بعضُ أبنائه المسجد الأقصى، فكان بين البناءين أربعون سنة، ثم بعد ذلك جدَّدَ بناءَ المسجد الحرام إبراهيمُ– عليه السلام–، وجدَّدَ بناءَ المسجد الأقصى سليمانُ– عليه السلام–.

وجعلَ اللهُ البيتَ الحرام مثابةً للناسِ وأمنًا، فإليه يفِدُ الخَلْقُ على تعاقُبِ الأعوامِ من كلِّ فجٍّ عميقٍ، تشتَاقُ له الأرواحُ، وتحِنُّ إليه النفُوس، وإن زارُوه زادَ شوقُهم إليه، قصَدَه الأنبياءُ؛ فحجَّ موسى ويونُسُ ومحمدٌ– عليهم جميعًا الصلاة والسلام–، قال ﷺ:"كأني أنظرُ إلى موسى– عليه السلام–

---

(١) النور: ٣٦–٣٨.

(٢) الجن: ١٨.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣١/ ١٠) برقم (١٨٧١٥). والترمذي في جامعه (٥/٧٢٢) برقم (٣٩٢٥) أبواب المناقب. باب في فضْل مكَّة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ٤٢٥).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/١٤٥) برقم (٣٣٦٦) كتاب أحاديث الأنبياء. باب بدون ترجمة. ومسلم في صحيحه (١/ ٣٧٠) برقم (٥٢٠) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.



هابِطًا من الثنيَّةِ وله جُؤارٌ إلى اللهِ بالتلبيةِ، وكأنِّي أنظرُ إلى يُونسَ بن متَّى- عليه السَّلامُ- على ناقةٍ حمراءَ وهو يُلبِّي" رواه مسلم(١).

وشرَّفَ اللهُ البيتَ الحرام فأضافَه إلى نفسهِ، وأمَرَ بتطهيرِه مما يُضادُّ ذلك من الأصنام وعبادةِ الأوثان، فقال: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(٢).

وجعَلَ قصدَه مُكفِّرًا لما سَلَفَ من الخطايا والذنوب، قال ﷺ كما في الصحيحين:" مَن حجَّ هذا البيتَ فلم يَرفُثْ ولم يَفسُقْ رَجَع كما ولَدَتْه أمُّه"(٣)، ولم يرضَ اللهُ لقاصِدِه ثوابًا دونَ الجنَّة قال ﷺ:" العمرةُ إلى العمرةِ كفَّارةٌ لما بينهمَا، والحجُّ المبرورُ ليسَ لهُ جزاءٌ إلَّا الجنَّةُ" متفقٌ عليه(٤).

وهو قِبلةُ أهلِ الأرضِ جميعًا، يتوجَّهُ كلُّ مسلمٍ إلى جِهتِه كلَّ يومٍ مرارًا، قال سبحانه: ﴿ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾(٥)، ومَن ماتَ مِن المسلمين وُجِّه قبرُهُ إليه، وقد عَظَّم سبحانه حُرمَتَه، فلا تُستقبَلُ جهةُ البيتِ الحرامِ حالَ البولِ أو الغائِطِ، قال ﷺ:" لا تستقبِلُوا القبلةَ بغائطٍ أو بولٍ، ولكن شرِّقوا أو غرِّبوا " متفقٌ عليه(٦).

وإليه يُساق الهَدْيُ والقرابين، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴾(٧).

وفي بيتِ اللهِ الحرامِ الحجرُ الأسودُ، وفيه يقول النبي ﷺ:" نزَلَ مِن الجنَّة أشدَّ بياضًا من اللبنِ فسوَّدَته خطايا بني آدم" رواه أحمد(٨).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٥٢) برقم (١٦٦) كتاب الإيمان. باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات.

(٢) الحج: ٢٦.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١٤٥/٤) برقم (١٨١٩) أبواب المحصر. باب قول الله تعالى ﴿فلا رفث﴾. ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٨٣) برقم (١٣٥٠) كتاب الحج. باب في فضْل الحج والعمرة ويوم عرفة.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/٣) برقم (١٧٧٣) أبواب العمرة. باب وجوب العمرة وفضْلها. ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٨٣) برقم (١٣٤٩) كتاب الحج. باب في فضْل الحج والعمرة ويوم عرفة.

(٥) البقرة: ١٤٤.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٨٨/١) برقم (٣٩٤) كتاب الصلاة. باب قبلة أهل المدينة والشام والمشرق. ومسلم في صحيحه (١/ ٢٢٤) برقم (٢٦٤) كتاب الطهارة. باب الاستطابة.

(٧) الحج: ٣٣.

(٨) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٤٧٢) برقم (٣٥٣٧). والترمذي في جامعه (٣/ ٢١٧) برقم (٨٧٧) أبواب الحج. باب ما جاء في فضْل الحجر الأسود والركن والمقام. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٢/ ٣٧٧).

وهو حجرٌ لا ينفَعُ ولا يضُرُّ، وإنما يُقبَّلُ امتِثالًا للسُنَّة، قال عمر- رضي الله عنه-:" إنِّي أعلمُ أنَّك حجَرٌ لا تضُرُّ ولا تَنفَعُ، ولولا أنِّي رأيتُ النبي ﷺ يُقبِّلُك ما قبَّلتُك" متفقٌ عليه[1].

وفي البيتِ آياتٌ بيّناتٌ؛ منها مقامُ إبراهيم- عليه السلام-، الذي أمرَنا الله تعالى أنْ نتَّخِذَ منه مُصلَّى، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

قال العلَّامة السعدي: يُخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنَّه أوَّلُ بيتٍ وضعه اللهُ للنَّاس، يتعبَّدون فيه لربِّهم فتُغفَر أوزارهم، وتُقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقُربات ما ينالون به رضا ربِّهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ﴾[3]، ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ والهُدَى نوعان: هُدى في المعرفة، وهُدى في العمل، فالهُدى في العمل ظاهرٌ، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبُّدات المختصَّة به، وأمَّا هُدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحقِّ بسبب الآيات البيِّنات التي ذكر الله تعالى في قوله ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: أدلَّة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهيَّة والمطالب العالية، كالأدلَّة على توحيده ورحمته وحِكمته وعظمته، وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما مَنَّ به على أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يحتمل أنَّ المراد به المقام المعروف وهو الحَجَر الذي كان يقوم عليه الخليل لبنيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقًا في جدار الكعبة، فلمَّا كان عمر- رضي الله عنه- وضعه في مكانه الموجود فيه الآن.

والآية فيه قيل: أثر قدمَيْ إبراهيم؛ قد أثَّرتْ في الصخرة، وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأُمَّة، وهذا من خوارق العادات، وقيل: إنَّ الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أنَّ المراد بمقام إبراهيم أنَّه مُفرَدٌ مُضافٌ يُرادُ به مقاماتُه في مواضع المناسك كلِّها،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/١٤٩) برقم (١٥٩٧) كتاب الحج. باب ما ذُكِرَ في الحجر الأسود. ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٢٥) برقم (١٢٧٠) كتاب الحج. باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف.

(٢) آل عمران: ٩٦- ٩٧.

(٣) الحج: ٢٨.

فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذْل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمُّل كلِّ مشقَّةٍ لأجْلِها(١).

يَا أرْضَ مكَّةَ فوقَ ثَغْرِكِ بسمةٌ ... نشـوى وفي عينيـكِ مـَا أهـواهُ

يَا أرْضَ مكَّةَ في رِحابِكِ راحةٌ ... تمحـو عـن القلـبِ الحـزينِ أسَـاهُ

شـــوقٌ تضجُ به مواطنُ لهفتي ... يَـا ربِّ بلِّغْ مَن يُحِبُّ مُنَاهُ(٢)

والخلاصة: أن يعلم المسلم شرف المسجد الحرام، ويعرف قدره، ورفعة شأنه وعظيم حُرمته؛ فيُعظِّم ما عظَّمه الله ورسوله، ويُحِبُّه لحُبِّ الله ورسوله ﷺ له، ويعرف كيف ارتباط المسلم به كمسجدٍ مُقدَّسٍ وقبلة لعموم المسلمين، تهفو إليه الأفئدة وتشتاقه الأرواح ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾(٣).

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ١٣٨).

(٢) لم أقف على قائل هذه الأبيات.

(٣) الحج: ٣٢.

٧ ربيع الأول

المسجد النبوي

يُعَدُّ المسجد النبوي في المدينة المنوَّرة ثاني أقدس المواقع الدينية الإسلامية على الإطلاق، وكان إمامَه الأوَّلَ النبيُّ محمَّدٌ ﷺ شخصيًّا، فقد أسَّس النبي ﷺ المسجد في السنة الأولى للهجرة. وكان ثاني المساجد التي تُبنَى في المدينة، فقد سبقه مسجد قباء.

أُسِّس المسجد النبوي في ربيع الأوَّل من العام الأوَّل من الهجرة، وكان طوله سبعين ذراعًا، وعرضه ستين ذراعًا، أي ما يقارب ٣٥ مترًا طولًا، و٣٠ مترًا عرضًا، وكان أساسه من الحجارة، والدار من اللَّبِن وهو الطوب الذي لم يُحرَق بالنَّار، وكان النبي ﷺ يبني مع صحابته اللَّبِن والحجارة، وجعل له ثلاثة أبواب، وسقفه من الجريد.

ولما ازدحم المسجد وكثر المسلمون قام النبي ﷺ بتوسيعه؛ وذلك في السنة السابعة من الهجرة بعد عودته من خيبر، فزاد في طوله عشرين ذراعًا وفي عرضه كذلك، وكان عثمان بن عفان- رضي الله عنه- هو الذي اشترى هذه البقعة التي أضافها النبي ﷺ.

والمسجد النبوي هو المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أوَّل يوم؛ قال الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[١].

روى الإمام أحمد عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ- رضي الله عنه- قَالَ: اخْتَلَفَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: هُوَ مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ، وَقَالَ الْآخَرُ: هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءٍ، فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: هُوَ مَسْجِدِي هَذَا[٢].

والصلاة في المسجد النبوي بألف صلاةٍ فيما سواه إلَّا المسجد الحرام؛ قال ﷺ:" صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه إلَّا المسجد الحرام" رواه البخاري ومسلم[٣].

---

(١) التوبة: ١٠٨.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٧/ ٤٦٤) برقم (٢٢٨٠٥). والحديث جاء معناه في صحيح مسلم (٢/ ١٠١٥) برقم (١٣٩٨) كتاب الحج. باب بيان أنَّ المسجد الذي أُسِّس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٦٠) برقم (١١٩٠) كتاب فضْل الصلاة في مسجد مكَّة والمدينة. باب فضْل الصلاة في مسجد مكَّة والمدينة. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١٢) برقم (١٣٩٤) كتاب الحج. باب فضْل الصلاة بمسجدَيْ مكَّة والمدينة.



والمسجد النبوي آخر مساجد الأنبياء؛ ففضْله على غيره من المساجد كفضل نبيّه ﷺ، عن أبي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنِّي آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ مَسْجِدِي آخِرُ الْمَسَاجِدِ" رواه مسلم(١).

وفي المسجد النبوي روضةٌ من رياض الجنَّة؛ كما أخبر بذلك النبي ﷺ عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال:" ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنَّة، ومنبري على حوضي" رواه البخاري ومسلم(٢).

وإنَّ اختيار مدينته ومكان بنائه من عند الله تعالى، عن أَبِي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ المدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ" رواه البخاري ومسلم(٣).

ولما دخل رسولُ الله ﷺ المدينة أَخذوا خطامَ راحلته، فكان يقول لهم:" خَلُّوا سبيلَها فإنَّها مأمورة"(٤)، فلم تزل تسير به حتَّى وصلت إلى موضع المسجد النبوي.

وعلى المسلم أن يتحلَّى بآدابٍ مُعيَّنةٍ عند دخوله المسجد النبوي، ومن ذلك:

يُسَنُّ للزائر أن يدخُلَهُ برجلهِ اليمنى، وأن يقرأ دعاء دخول المسجد، كما يُسَنُّ له أن يُؤدِّي ركعتَيْ تحية المسجد، وزيارة قبر رسول الله ﷺ وقبر أبي بكر الصِّدِّيق وعمر- رضي الله عنهما-.

وأن لا يرفع صوته عند قبر رسول الله ﷺ؛ فقد أَمَر اللهُ المؤمنين بأن يغُضُّوا أصواتهم عندَ رسوله ﷺ. فعن السائب بن يزيد- رضي الله عنه- قال: كُنْتُ قَائِمًا فِي المسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ- رضي الله عنه-، فَقَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ، فَجِئْتُهُ بِهِمَا، قَالَ:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠١٢) برقم (١٣٩٤) كتاب الحج. باب فضْل الصلاة بمسجدَيْ مكَّة والمدينة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦١/٢) برقم (١١٩٦) كتاب فضْل الصلاة في مسجد مكَّة والمدينة. باب فضْل ما بين القبر والمنبر. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١١) برقم (١٣٩١) كتاب الحج. باب ما بين القبر والمنبر روضةٌ من رياض الجنَّة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢٠/٣) برقم (١٨٧١) كتاب فضائل المدينة. باب فضْل المدينة وأنَّها تنفي الناس. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٠٦) برقم (١٣٨٢) كتاب الحج. باب المدينة تنفي شرارها.

(٤) ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٤٩١). البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧ م، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.

مَن أنْتُما؟ أوْ: مِن أيْنَ أنْتُمَا؟ قَالَا: مِن أهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: لو كُنْتُما مِن أهْلِ البَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أصْوَاتَكُما في مَسْجِدِ رسول الله ﷺ! رواه البخاري(١).

والابتعادُ عن البدع، كالتوسُّل، أو التمسُّحِ والتبرُّكِ بالقبرِ، أو ما شابهَ ذلك.

والملاحِظُ الجيِّدُ لسيرة النبي ﷺ يجد أنَّ أوَّل عملٍ قام به ﷺ في قباء كان بناء المسجد، وأنَّ أوَّل عملٍ قام به الرسول ﷺ في المدينة كان بناء المسجد أيضًا، وهذا الأمر لم يكن على سبيل المصادفة، ولم يكن مجرد إشارة عابرة، بل هو منهج أصيل، فلا قيام لأُمَّة إسلاميَّة بغير تفعيل دور المسجد؛ لأنَّ المساجد الآن كثيرة، لكنَّ الكثير منها غير مُفعَّل، ولا يقوم بدوره المنوط به.

وأهمُّ دورٍ للمسجد هو الحفاظ على إيمان المسلمين، فهذا المسجد يحفظ على المسلمين دينهم؛ لأجل هذا كانت حياة المسلمين تدور في مجملها حول المسجد، فالصلاة في المسجد، ولا تُقبَل الأعذارُ في التخلُّف عن الصلاة إلَّا في ظروفٍ ضيقةٍ ومحدودةٍ جدًّا.

- المسجد مكان التقاء المسلمين وتقوية الأواصر بينهم.

- المسجد يُقوِّي ويُنمِّي الروابط والأواصر بين المسلمين، ويُذيب الفوارق بينهم، فالحاكم يُصلِّي بجوار المحكوم، والغني بجوار الفقير، فالمسجد يتعاون فيه المسلمون على البرِّ والتقوى دون النظر إلى الفوارق الطبقيَّة التي بينهم.

- المسجد يُعَدُّ مدرسة لتعليم المسلمين كلَّ أمورِ حياتهم.

- المسجد مكانٌ لقيادة الأُمَّة، فزعماء الأُمَّة الإسلاميَّة كانوا دائمًا في زمان ازدهار الأُمَّة الإسلاميَّة، سواء أيَّام الرسول ﷺ أو أيَّام الخلفاء الراشدين، أو في أيِّ عصرٍ من عصور النهضة والحضارة الإسلاميَّة؛ كانوا دائمًا يرتبطون بالمسجد ارتباطًا قويًّا.

- لم يكن المسجد مقرًّا للحُكم والسياسة والقضاء فحسب، بل كان المسجد أيضًا مكانًا لإعلان أفراح المسلمين، ومكانًا لتربية الأطفال، ومكانًا للترفيه أيضًا.

- كان المسجد مأوى للفقراء وعابري السبيل، وكان مكانًا لمداواة المرضى.

وعن المدينة المنوَّرة عامَّة، ومسجدها النبوي خاصَّة؛ يقول الشاعر محمد أحمد العمري:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٠١/١) برقم (٤٧٠) كتاب الصلاة. باب رفْع الصوت في المساجد.



أبَعَـدَ رَوضـتِها الغَنَّـا وَقُبَّتِهـا الـْ   خَضَـراءِ يَحلُـو بعَيـنَيْ مُسـلِمٍ وَطَـنُ؟!
كلُّ المنَى فِي رِحَاب المصطفى جُمِعتْ   دِينًـــا ودُنيا فمـــا فى مِثلِها ثَمَنُ
ما كُنتُ أعرِفُ مَا للشـوقِ مِنْ أثرٍ   حتَّى ترحَّلَ بى عن رَبْعِهـــا البَدَنُ[1]

والخلاصة: أنَّ المسجد النبوي كان مصنعًا للرجال وللقادة، وهكذا ينبغي أن تكون المساجد حتَّى تعود الأُمَّة الإسلاميَّة لسابق عهدها، وترجع لأوج مجدها، فالمسجد النبوي كان منبع نور وهداية في كلِّ مناحي الحياة، ومأوى لكلِّ الحائرين والتائهين، وملاذًا للفقراء والضعفاء، ومدرسة لقاصدي العلوم من منبعها النبوي النوراني.

(١) لم أقف عليها.

٨ ربيع الأول

المسجد الأقصى

تأتي أهمِّيَّة المسجد الأقصى لدى المسلمين نظرًا لقيمته الدينيَّة، فهو أوَّل القبلتين ومسرى رسول الله محمَّدٍ ﷺ، والمسجدُ الأَقصى المبارَكُ مَعلَمٌ دينيٌّ وتاريخيٌّ، ومِن أهمِّ المقدَّساتِ في تاريخِ المسلمين، وتَرتَبِطُ قُدسيَّتُه بحوادِثَ دينيَّةٍ وعَقديَّة أكثَر من مُجرَّد ارتباطِهم بالمكان الجغرافيِّ المتمثِّلِ بأرضِ فِلسطينَ ذات الحضاراتِ الدينيَّة المتواترةِ، والمتمثِّلةِ بزياراتِ الأنبياءِ أو إقامتهم وبَعثِهم، وقَد كانَ المسجِدُ الأقصى قِبلَةَ جَميعِ أنْبياءِ اللهِ، كَما كان قِبلَةَ المسلِمين الأولى، وحَولهُ تَدورُ حادِثةُ الإسراءِ؛ المعجِزةُ التي شرَّف الله بها نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ مِن مكَّةَ إلى المسجِدِ الأقصى، وفيه صلَّى نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ إمامًا بجميع الأنبياء، ثمَّ أُسري به إلى السَّماءِ السابعةِ في مُعجِزةٍ أُخرى سُمِّيت المِعراج.

والله سبحانه وتعالى- لحِكمة ربانيَّة ومنحة إلهيَّة- يُحِبُّ ويصطفي مِن خلْقه ما شاء من الرسل والأنبياء، والبلاد والبقاع، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾(١)، وإنَّ ممَّا اجتباه الله، وقدَّسه وشرَّفه، وعظَّمه وكرَّمه؛ المسجد الأقصى وقُدسه المقدَّس، فقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم بلفظ التقديس والأرض المقدَّسة والمسجد الأقصى، وباركه وبارك ما حوله، ففاضت بركته الدينيَّة والدنيويَّة، وأقسم الله بثمرته فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾(٢)، إشارة إلى المسجد الأقصى.

وآيات القرآن الكريم ناطقةٌ بشرف هذا المسجد المبارك في غير موضع، ووَصَفَ بيت المقدس ومسجده بالبركة، وهي النماء والزيادة في الخيرات والمنح والهبات؛ حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾(٤)، حكاية عن الخليل إبراهيم عليه السلام في هجرته الأولى إلى بيت المقدس وبلاد الشام.

قال العلَّامة السعدي: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ وذلك أنَّه لم يؤمن به من قومه إلَّا لوط عليه السلام، وقيل: إنَّه ابن أخيه، فنجَّاه الله، وهاجر ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: الشام، فغادر

---

(١) القصص: ٦٨.

(٢) التين: ١.

(٣) الإسراء: ١.

(٤) الأنبياء: ٧١.



قومه في " بابل " من أرض العراق، ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١]، ومن بركة الشام أنَّ كثيرًا من الأنبياء كانوا فيها، وأنَّ الله اختارها مُهاجرًا لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدَّسة، وهو بيت المقدس[٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾[٣]، وفي قصَّة سليمان عليه السلام يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ﴾[٤]، وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٥]، وعند حديث القرآن عن هناءة ورغد عيش أهل سبأ يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾[٦]، وهي قُرى بيت المقدس كما رُوي عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-. ولقد وصف القرآن أرضها بالرَّبوة ذات الخصوبة، وهي أحسن ما يكون فيه النبات، وماءها بالمعين الجاري. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[٧]، وهو بيت المقدس.

وقد ذكر عددٌ كبيرٌ من المفسّرين في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾[٨] أنَّها نزلت في (بختنصَّر) لأنَّه كان خرَّب بيت المقدس[٩].

ومن فضائل المسجد الأقصى: عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" لَا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد الأقصى" رواه البخاري ومسلم[١٠].

---

(١) العنكبوت: ٢٦.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٢٧).

(٣) الأعراف: ١٣٧.

(٤) الأنبياء: ٨١.

(٥) المائدة: ٢١.

(٦) سبأ: ١٨.

(٧) المؤمنون: ٥٠.

(٨) البقرة: ١١٤.

(٩) ذكره الطبري في تفسيره، تفسير الطبري= جامع البيان (٢/ ٥٢١).

(١٠) رواه البخاري في صحيحه (٢/٦٠) برقم (١١٨٩) كتاب فضْل الصلاة في مسجد مكَّة والمدينة. باب فضْل الصلاة في مسجد مكَّة والمدينة. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١٤) برقم (١٣٩٧) كتاب الحج. باب لا تُشدُّ الرِّحالُ إلَّاإلى ثلاثة مساجد.



فالمسلم منهيٌّ عن السفر إلى أيِّ مكانٍ لقصْد العبادة؛ مسجدًا كان أو غيره ما عدا المساجد الثلاثة المستثناة في أســـلوب الحصر.

ومن فضائله أيضًا أنَّه يُرجَى لمن صلَّى في رحابه مغفرة ذنوبه، فعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال:" لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثًا: حُكْمًا يُصادِفُ حُكمه، ومُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وألَّا يأتِيَ هذا المسجدَ أحدٌ لا يُرِيدُ إلَّا الصلاة فيه إلَّا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمُّه، فقال رسول الله ﷺ: أمَّا اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أُعطِيَ الثالثة" رواه النسائي(١). والصلاة فيه أجرُها مُضاعَفٌ: عن ميمونة بنت سعد- رضي الله عنها- قالت: قلتُ: يا رسول الله؛ أفتِنا في بيت المقدس، قال:" أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلُّوا فيه، فإنَّ صلاةً فيه بألفِ صلاةٍ في غيره" رواه ابن ماجه(٢).

وكان من تعظيم موسى عليه السلام للأرض المقدَّسة وبيت المقدس أن سأل الله تبارك وتعالى عند الموت أن يُدنيه منها. روى البخاري أنَّ النبي ﷺ:" سألَ موسى اللهَ أن يُدنيَه من الأرض المقدَّسة رمية بحجر، فلو كنتُ ثَمَّ لأريتُكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر"(٣). قال الإمام النووي: وأمَّا سؤاله- أي موسى عليه السلام- الإدناء من الأرض المقدَّسة فلشرفها(٤).

ومن أروع ما قيل عن القدس ومسجدها وأهلها؛ ما قاله الدكتور الشاعر عبد الرحمن العشماوي في قصيدته" يا قُبَّة المسجد الأقصى":

أقوى مِنَ الشَّمسِ في الآفاقِ إشراقُ   دِيـنٌ حنيـفٌ يُرينا الحـقَّ برَّاقـا
أقوى مِنَ الوَهمِ في عقلٍ بلا رشدٍ   حـقٌّ يزيـدُ مـع الأيَّـامِ إحقاقـا

---

(١) هذا لفظ ابن ماجه، رواه في سُننه (١/٤٥٢) برقم (١٤٠٨) كتاب إقامة الصلاة والسُنَّة فيها. باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس. والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٣٨٥) برقم (٧٧٤) كتاب المسجد. فضْل المسجد الأقصى والصلاة فيه. قريبًا من لفظ ابن ماجه. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٣/ ٤٠٨). صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُنَّة بالإسكندرية.

(٢) رواه ابن ماجه في سُننه (١/٤٥١) برقم (١٤٠٧) كتاب إقامة الصلاة والسُنَّة فيها. باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس. والحديث مُنكَرٌ كما قال الألباني في صحيح وضعيف سُنن ابن ماجه (٣/ ٤٠٧).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/٩٠) برقم (١٣٣٩) كتاب الجنائز. باب مَن أحبَّ الدفن في الأرض المقدَّسة أو نحوها. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٤٢) برقم (٢٣٧٢) كتاب الفضائل. باب مِن فضائل موسى ﷺ.

(٤) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٢٨). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.



أقـــوى منَ الظـالمِ المقطـــوعِ دابـِرُهُ　　شَعْبٌ تحمَّلَ في مولاهُ ما لاقَى

شَعْبٌ بأكنافِ بيتِ القُدسِ مسكَنُهُ　　مـا زالَ في سـاحةِ الإقـدامِ سبَّاقا

إِنِّي أُبَجِّــلُ هــذا الشَّـعْــبَ أحمـلُــهُ　　في القلبِ حُبًّا وإحساسًا وأشواقا

لاقى عـــدُوًّا بلا وعــــيٍّ ولا خُلُـقٍ　　فكـانَ أحسـنَ في الميـدانِ أخلاقـا

صـارتْ فلســـطينُ رَمزًا للإبـاءِ ومـا　　زالــتْ تُواجِـهُ ضُـلَّالًا وفُسَّاقـا

في قلبها سـاحــةُ الأقصــــى وقُبَّتُهُ　　وبيرقٌ للهُدى ما زالَ خـفَّــاقـا(١)

والخلاصة: أنَّ المسجد الأقصى مَسجِدٌ مُقدَّسٌ ومكانٌ مُبارَكٌ، وأنَّ أرضه ليست قضية دولة ولا حدود، وإنَّما قضية عقيدة، فهو ضاربٌ في جذور العقيدة، وصلته بها وثيقة، وعلى الأجيال الحالية والقادمة أن تعلم هذا جيدًا، مهما تعاقبت الأزمنة ودار فلك الزمان وتقادمت عليه الأيَّام.

---

(١) من قصيدة للشاعر د. عبد الرحمن العشماوي بعنوان" يا قُبَّة المسجد الأقصى". يا قُبَّة المسجد الأقصى- عبد الرحمن العشماوي – الديوان(aldiwan.net)

٩ ربيع الأول
أُحُدٌ.. جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه

لم تقف الدلائل والمعجزات النبويَّة مع الجمادات عند حدود النطق والكلام والحركة، بل امتدَّت لتشمل الحُبَّ والشوق، والمشاعر والأحاسيس، نعم؛ لقد سمع الجبل كلام النبي ﷺ وأطاعه، وأحبَّه واشتاق إليه، إنَّها دلائل ومعجزات مع الجمادات التي لا روح فيها، أعطاها الله لنبيّه وحبيبه ﷺ، تأييدًا لدعوته، وإعلاءً لقدره، الأمر الذي ترك أثره في النفوس، ولفتَ انتباه أصحابه نحو دعوته التي جاء بها، وأثبت لهم أنَّها دعوة صادقة مُؤيَّدة من الله.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: خرجتُ مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلمَّا قدِم النبي ﷺ راجعًا وبدا له أُحُدٌ، قال:" هذا جبلٌ يُحِبُّنا" رواه البخاري[١]، وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" إنَّ أُحُدًا جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه" رواه مسلم[٢].

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على حُبِّ وشوقِ الجماد للنبي ﷺ، فإذا كان عجيبًا أن يُحِبَّ النبيَّ ﷺ ما فيه روحٌ ممَّا لا يعقل، كالشجر الذي كان يعرفه ويُسلِّم عليه، وجذع النَّخلة الذي اشتاق إليه وبكى لفراقه؛ فالأعجب حقًّا أن يُحِبَّ النبيَّ ﷺ ما ليس فيه روحٌ ولا عقل، شيءٌ إن نظرتَ إليه ظنَّنتَ أنَّه جماد، لا يسمع ولا يرى، ولكنَّه في الحقيقة يسمع ويعقل، بل يشتاق ويُحِبُّ، إنَّه جبلُ أُحُدٍ الذي أحبَّ النبي ﷺ وسمع كلامه حين قال له:" اثبتْ أُحُد" رواه البخاري[٣]، فأطاع أمره فسكن وثبت. وقد رجَّح الإمام ابن حجر أنَّ حُبَّ النبي ﷺ لأُحُدٍ، وحُبَّ أُحُدٍ له هو على حقيقته، فقد قال في كتابه فتح الباري: الحُبُّ من الجانِبَينِ على حقيقته وظاهره، وقد خاطبه ﷺ مخاطبة مَن يعقل، فقال له لما اضطرب: اسكُنْ أُحُد[٤]، وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم: الصحيح المختار أنَّ معناه أنَّ أُحُدًا يُحِبُّنا حقيقة، جعل الله فيه تمييزًا يُحِبُّ به[٥].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٥/٤) برقم (٢٨٨٩) كتاب الجهاد والسِّيَر. باب فضْل الخدمة في الغزو. ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٩٣) برقم (١٣٦٥) كتاب الحج. باب فضْل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١٠٥/٩) برقم (٧٣٣٣) كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة. باب ما ذَكَرَ النبي ﷺ وحضَّ على اتفاق أهل العلم. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١١) برقم (١٣٩٣) كتاب الحج. باب أُحُدٌ جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١١/٥) برقم (٣٦٨٦) كتاب المناقب. باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي رضي الله عنه.

(٤) يُنظَر: فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٧٨). فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩ هـ، رقَّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصحَّحه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلَّامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٥) شرح النووي على مسلم (٩/ ١٣٩).



وأُحُدٌ: جبلٌ سُمِّي بذلك لتفرُّده عن الجبال، يقع في شمال المدينة المنوَّرة، وهو جبل مبارك كان النبي ﷺ يُحِبُّه، وجبل أُحُد عبارة عن جبل صخري، ولونه ذو صبغة حمراء، وطوله من الشرق إلى الغرب يبلغ ستَّة آلاف متر تقريبًا، وبه رؤوس كثيرة وهضبات مُتعدِّدة، وتوجد بجبل أحد المهاريس، وهي عبارة عن نقر طبيعية في الجبل لحفْظ المياه المنسابة من أعاليه.

هذا الجبل صعِده النبي ﷺ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان؛ الخلفاء الراشدون بعده، رضي الله عنهم جميعًا، فلمَّا صعِدوا إلى الجبل رجَف بهم، والسؤال: لِمَ رجفَ الجبلُ بهم؟

قال العلماء في تعليل ذلك : إنَّ الجبل رجف فرحًا بمَن رَقِيَه من الشُّرفاء، ولا ريب أنَّ النبي ﷺ أشرف الخَلْق، وأصحابه أشرف الناس بعد الأنبياء والمرسلين، فالجبل فرِح فرجف فسكَّنه النبي ﷺ بقدَمِه، وقال:" اثبُتْ أُحُد"، فإنَّما عليك نبيٌّ- يعني نفسه عليه الصلاة والسلام-، وصِدِّيقٌ- يقصد أبا بكر- وشهيدان[1]، وهذا من الغيب؛ لأنَّ عمر وعثمان آنذاك لم يُقتُلا؛ وإنَّما أخبر ﷺ أنَّهما شهيدان دلالةً على أنَّهما سيموتان شهيدَين، وقد وقع بعد ذلك كما أخبر عليه الصلاة والسلام.

وقد وقعتْ عند أُحُدٍ غزوة عظيمة سطَّر القرآن أحداثها، وهي الغزوة التي تُعرَف في كتب السِّيَر بغزوة أُحُد، وقد وقعت بعد غزوة بَدْر، في السنة الثالثة، وكان جبل أُحُد عن يمين جيش النبي ﷺ، وجبل الرماة عن يساره، وفيها وقعت أحداثٌ عِظامٌ؛ منها: شجُّ رأسِه الشريف ﷺ، وكسْرُ رَباعيَته، وسَيلان الدم على وجنتيه، كما أنَّه قُتِل في تلك المعركة عمُّه حمزة، وهو من أحبِّ الناس إلى رسول الله ﷺ، قتَله وحشيٌّ غلامٌ لبعض بني أُميَّة.

كما وقع في تلك المعركة قتلٌ كثيرٌ للصحابة؛ قال الله عزَّ وجلَّ في القرآن: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾[2]، فقد قُتِل من أصحابه ﷺ يوم أُحُد سبعون، وكان المسلون قد قَتلوا يوم بدر سبعين من المشركين، وأَسَرُوا سبعين، ولعلَّ هذا من أقرب المعاني لقول الله جلَّ وعلا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾[3].

وقد أمر النبي ﷺ الصحابة أن يَدفنوا الشهداء في أرض المعركة، وإلى اليوم ما تزال قبورهم باقيةً بجوار الجبل، ولما شعر النبي ﷺ بدنُوِّ أجَلِه وقُرْب رحيله؛ أتى قبور هؤلاء الشهداء الكرام فسلَّم عليهم، واستغفَر لهم، ودعا لهم كالمودِّع.

فسبحان الخالق العظيم، هذا الجبل يسمع ويُطيع لرسول الله ﷺ، بل ويُحِبُّ رسول الله ﷺ.

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٢) آل عمران: ١٤٠.

(٣) آل عمران: ١٦٥.

لله في الآفـــــاقِ آيــــــاتٌ لعـلَّ أقلَّهـا هـو مـا إليـه هـداكَ
والكـــونُ مشحـــونٌ بأســرارٍ إذا حاولــت تفســيرًا لهـــا أعيـــاكَ
ولعلَّ ما في الكــــونِ مِــن آياتِه عـجــبٌ عُـجابٌ لو ترى عيناكَ[١]

والجبل بوجه عام عجيبٌ في شدَّة صلابته وقسوته؛ إلَّا أنَّه يتصدَّع من خشية الله، فقد تكون قلوب بني آدم أحيانًا أشدَّ منه قسوة، فالحجر والحجارة خلْقٌ من خلْق الله، أكثرَ اللهُ مِن ذكْرها على أنَّها آيةٌ عظيمةٌ تدلُّ على عظمة خالقها وبديع صنعه ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾[٢]، وهي وإن كانت قاسية إلَّا أنَّها أحيانًا ألينُ وأرقُّ من بعض بني الإنسان كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

وعن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال: إنَّ الحجر ليقع على الأرض ولو اجتمع عليه فئامٌ من الناس ما استطاعوه، وإنَّه ليهبط من خشية الله[٤]، وقال مجاهد: كلُّ حجرٍ تفجَّر منه الماء أو تشقَّق عن ماء أو تردَّى من رأس جبل؛ فهو من خشية الله تعالى. نزل به القرآن[٥].

---

(١) موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (ص٢٢١). موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (قصص تربوية من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين) المؤلف: ياسر عبد الرحمن. الناشر: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

(٢) الغاشية: ١٧ - ١٩.

(٣) البقرة: ٧٤.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١/ ٤٢٦). الدر المنثور في التفسير بالماثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفي: ٩١١هـ)، تحقيق : مركز هجر للبحوث، الناشر: دار هجر- مصر، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣م.

(٥) ذكره عنه الواحدي كما في التفسير الوسيط (١/ ١٥٩). الوسيط في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدَّمه وقرَّظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

بل أخبر الله جلَّ وعلا أنَّ القرآن لو أُنزِل على جبلٍ من جبال الدنيا لتشقَّق وتصدَّع خشيةً لله عزَّ وجلَّ قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

والخلاصة: أنَّنا أولى بحُبِّه ﷺ من جبل أُحُد، فإذا كان الجبلُ يُحِبُّ النبيَّ ﷺ حُبًّا على سبيل الحقيقة لا المجاز، والنبي ﷺ لم يُبْعَثْ إليه، وليس له عليه مِنَّة ظاهرة، كمِنَّته ﷺ على جميع الأُمَّة، فكيف يجب أن يكون حُبُّنا للنبي ﷺ؟! والذي شملتنا مِنَّتُه من كلِّ وجهٍ، كما أنَّ من السُّنَّة أن نُحِبَّ جبل أُحُدٍ لحُبِّ النبي ﷺ إيَّاه.

---

(١) الحشر: ٢١.

١٠ ربيع الأول

عجوة المدينة

نسمع أحيانًا عن بعض الشُّبهات التي يُثيرها البعض فيما يتعلَّق بما ورد في فضل التمر، فمنهم من ينفي حقيقة أنَّ التمر يفيد في الوقاية من السُّمِّ والسِّحر، ومنهم من يُشكِّك أو يتوقَّف في هذا الأمر، وكُلُّ هذه الشُّبهات لا يُلتفَت إليها ولا يُعتدُّ بها، وهي مردودةٌ على أصحابها؛ لأنَّ الحديث الذي بيَّن هذا الأمر صحيحٌ باتِّفاق العلماء.

ففي الحديث الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ قال:" مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً؛ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ"(١).

وقد اختلف العلماء في بيان المراد من ذلك الحديث:

فذهب أكثر أهل العلم إلى اختصاص تمر المدينة، بل إلى اختصاص نوعٍ مُعيَّنٍ من تمر المدينة، وهو تمر العجوة في عالية المدينة.

ومِن أهل العلم مَن رأى أنَّ هذه الفضيلة تحصل بالتصبُّح بأيِّ نوعٍ من أنواع التمر، وأنَّ التنصيص على" العجوة" في الحديث؛ لا يلزم منه اختصاصه بالحكم.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ويُرجى أن ينفع الله بذلك التمر كلِّه، لكن نصَّ على المدينة؛ لفضْلِ تمرها والخصوصية فيه، ويُرجى أنَّ الله ينفع ببقية التمر إذا تصبَّح بسبع تمرات، وقد يكون ﷺ ذَكَرَ ذلك لفضْلٍ خاصٍّ، ومَعلَمٍ خاصٍّ لتمر المدينة، ولا يمنع من وجود تلك الفائدة من أنواع التمر الأخرى التي أشار إليها ﷺ، وأظنَّه جاء في بعض الروايات:" من تمر" من غير قيد(٢).

وهو اختيار الشيخ ابن عثيمين أيضًا، فقد قال رحمه الله: كان شيخنا ابن سعدي رحمه الله يرى أنَّ ذلك على سبيل التمثيل، وأنَّ المقصود التمر مُطلقًا(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٨٠) برقم (٥٤٤٥) كتاب الأطعمة. باب العجوة. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٦١٨) برقم (٢٠٤٧) كتاب الأشربة. باب فضْل تمر المدينة.

(٢) مجموع فتاوى ابن باز (٨/ ١٠٩). مجموع فتاوى العلَّامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، المؤلف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

(٣) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٥/ ١٢٣). الشرح الممتع على زاد المستقنع، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، دار النشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ - ١٤٢٨هـ.



وإنَّ في هذا الحديث لحِكمًا عظيمة، وفوائد كثيرة، فهي ثمرة من ثمار الجنة، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" العجوة من الجنَّة، وفيها شفاء من السُّم" رواه أحمد والترمذي وغيرهما(١).

وهناك جانب إيماني في تناول سبع تمرات؛ لأنَّه تنفيذ لهذا التوجيه النبوي، قال النووي: في هذه الأحاديث فضيلة تمر المدينة وعجوتها، وفضيلة التصبُّح بسبع تمرات منه، وتخصيص عجوة المدينة دون غيرها، وعدد السبع من الأمور التي علمها الشارع ولا نعلم نحن حِكمتَها، فيجب الإيمان بها، واعتقاد فضْلها، والحِكمة فيها، وهذا كأعداد الصلوات، ونُصُب الزكاة وغيرها.

وهناك جانبٌ صحيٌّ؛ فقد أثبتَت الدراسات الطِّبِّيَّة ما جاء في هذا التوجيه النبوي، والعلمُ يتوافق مع الإيمان في كلِّ أحكام الشرع الحنيف، فهو مُليِّنٌ طبيعيٌّ ممتاز، يمنع الإمساكَ، ويُقوِّي العضلات، ويُعالِج فقرَ الدم، ويُقوِّي السمعَ والبصر، ويُهدِّئ الأعصاب، كما أنَّه يحتوي على كمِّيَّةٍ عاليةٍ من الألياف الغذائية، والمعادن الضرورية لصِحَّة الجسم؛ مثل: البوتاسيوم والمغنيسيوم، وتُعادل ثلاث حبَّات تمر حصةَ فاكهة واحدة.

وفيه أيضًا جانب اجتماعي؛ وذلك أنَّ أهل المدينة المنوَّرة قد أكرموا النبيَّ ﷺ عندما هاجر إليهم، ومدينتهم قد اشتهرت بزراعة النخيل، فأراد أن يُكافئهم على إكرامهم بأحبِّ ما يملكون؛ فأرشد كُلَّ مسلم أن يتناول سبع تمرات من عجوتهم أو تمرهم، وهذا غاية الإكرام لهم.

وفيه كذلك ملمح اقتصادي، بتوجيه المؤمنين للشراء منها؛ لأنَّ تمرها له خواصٌّ مميَّزة عن باقي أنواع التمور، وهو مبارك بدعاء النبي ﷺ، وفي أرض مباركة، يدلُّ على ذلك ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّه قال: كان النَّاسُ إذا رأَوا أوَّل الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال:" اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ" رواه مسلم(٢).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٧٩/١٣) برقم (٨٠٠٢). والترمذي في جامعه (٤/٤٠٠) برقم (٢٠٦٦) أبواب الطِّبِّ. باب ما جاء في الكمأة والعجوة. والنسائي في السنن الكبرى (٦/٢٣٣) برقم (٦٦٣٦) كتاب الوليمة. الاختلاف على قتادة. وابن ماجه في سننه (٢/١١٤٢) برقم (٣٤٥٣) كتاب الطِّبِّ. باب الكمأة والعجوة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٧٥٨). صحيح الجامع الصغير وزيادته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٠٠) برقم (١٣٧٣) كتاب الحج. باب فضْل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة.



وقال ﷺ أيضًا:" اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنْ الْبَرَكَةِ" رواه البخاري ومسلم[١].

والتمر من الأطعمة الطَّيِّبة التي امتنَّ الله بها على عباده، وأحلَّها لهم، وهو ثمر النَّخْل الذي ذكره الله في كتابه بأحسن الذِّكْر، فقال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[٣]، أي ونخل ثمرُها ليّنٌ لطيفٌ، وقال تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾[٤]، أي فيها الأشجار التي تثمر الفواكه، ومنها النَّخل.

ولقد كان النبي ﷺ حريصًا على ربط بعض العبادات بالتمر لما له من فوائد كثيرة، وليس مجرد التصبُّح فقط، ومن هذه العبادات:

١- السحور: روى أبو داود عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال: نِعْمَ سَحُورُ الْمُؤْمِنِ التَّمْرُ[٥].

٢- الفطر للصائم: روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُفْطِرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُطَبَاتٌ فَتَمَرَاتٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَمَرَاتٌ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ[٦].

٣- قبل الخروج لصلاة عيد الفطر: روى البخاري عن أنس- رضي الله عنه- قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ، وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا[٧].

والتمر غذاءٌ كما روى مسلم من حديث عائشة- رضي الله عنها- أنَّ النبي ﷺ قال: يَا عَائِشَةُ؛ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ، يَا عَائِشَةُ؛ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ أَوْ جَاعَ أَهْلُهُ. قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا[٨].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/٢٣) برقم (١٨٨٥) كتاب فضائل المدينة. باب المدينة تنفي الخبث. ومسلم في صحيحه (٢/ ٩٩٤) برقم (١٣٦٩) كتاب الحج. باب فضْل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة.

(٢) ق: ١٠.

(٣) الشعراء: ١٤٨.

(٤) الرحمن: ١١.

(٥) رواه أبو داود في سننه (٢،٣٠٣) برقم (٢٣٤٥) كتاب الصيام. باب مَن سمَّى السحور الغداء. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٥/ ٣٤٥).

(٦) رواه أحمد في مسنده (٢٠/ ١١٠) برقم (١٢٦٧٦). والحديث صحَّحه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٤/ ٤٥).

(٧) رواه البخاري في صحيحه (١٧/٢) برقم (٩٥٣) أبواب العيدين. باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج.

(٨) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٦١٨) برقم (٢٠٤٦) كتاب الأشربة. باب في ادِّخار التمر ونحوه من الأقوات للعيال.



وقصَّ الله علينا من خبر مريم البتول عليها السلام؛ قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾[١]، وذكر الأطباء أنَّ الرُّطب- وعند عدمه التمر- من أنفع الأغذية للحامل، لا سِيَّما قبل الولادة وبعدها.

قال الربيع بن خثيم: ما للنُّفساء عندي خيرٌ من الرُّطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئًا هو أفضل من الرُّطب للنُّفساء لأطعمه مريم[٢].

والخلاصة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يترك خيرًا إلَّا ودلَّ أُمَّته عليه، ومن هذا الخير العظيم أنَّه ﷺ قد دلَّ أُمَّته على هذه الثمرة الطَّيِّبة عظيمة النفع، التي كُلَّما مرَّ الوقت اكتشف العلم الحديث لها من الفوائد ما يجعلنا نقول: حقًّا إنَّه رسول الله ﷺ الذي علَّمه ربُّه وما ينطق عن الهوى.

---

(١) مريم: ٢٥-٢٦.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره= الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٧/ ٣٦٤)؛ تفسير القرطبي (١١/ ٩٦). الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (المتوفى: ٤٢٧ هـ)، أشرف على إخراجه: د. صلاح باعثمان، د. حسن الغزالي، أ. د. زيد مهارش، أ. د. أمين باشه، تحقيق: عدد من الباحثين (٢١) مُثبَتٌ أسماؤهم بالمقدِّمة (ص ١٥)، أصل الكتاب: رسائل جامعية (غالبها ماجستير) لعدد من الباحثين، الناشر: دار التفسير، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.



١١ ربيع الأول

الحبَّة السوداء

إنَّ المتأمِّل في أحوال أُمَّتِنا الإسلامية وما آلت إليه أمور المسلمين هذا الزمان يرى شدَّة ما أُصيبَ به المسلمون من أمراض وأوبئة؛ فذا محسود، وهذا مسحور، وذاك ممسوس إلَّا مَن رحم ربِّي؛ وما ذاك إلَّا بسبب الإعراض والبُعد عن كتاب الله تعالى وسُنَّة نبيِّه ﷺ؛ اللَّذين فيهما الهُدى والشِّفاء والنُّور، فلو تسلَّح المسلم بالقرآن العظيم والأذكار الصحيحة الواردة في السُّنَّة النَّبوِيَّة؛ ما أُصيبَ أحدٌ بهذه الأمراض- بإذن الله تعالى-، ومِن فضْل الله تعالى على هذه الأُمَّة أن جعل شفاءها في كتاب ربِّها وسُنَّة نبيِّه ﷺ.

ومِن فضْل الله تعالى أنَّه جعَل لكلِّ داءٍ دواءً، وجعَل في قُرآنه وسُنَّة رسوله ﷺ آياتٍ مِن الإعجاز التي تَشفي كُلَّ الأمراضِ؛ إنْ أخلص العبد النِّيَّةَ في توكُّله عليه؛ قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[١]، وفي الحديث:" ما أنْزل الله داءً إلَّا أنزل له شفاءً" أخرجه البخاري[٢].

قال عامر الشعبي: قيل لعائشة- رضي الله عنها-: يا أُمَّ المؤمنين؛ هذا القرآنُ تلقيتِه عن رسول الله ﷺ، وكذلك الحلال والحرام، وهذا الشِّعْر والنَّسب والأخبار سمعتِها من أبيك وغيره؛ فما بال الطِّبِّ؟ قالتْ: كانت الوفود تأتي رسولَ الله ﷺ فلا يزال الرجل يشكو عِلَّةً، فيسأله عن دوائها، فيُخبره بذلك، فحفظتُ ما كان يصفه لهم وفَهِمْتُه[٣].

ومن أنواع الطِّبِّ النَّبويِّ: العلاج بالحبَّة السوداء:

روى البخاري عَنْ خَالِدِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: خَرَجْنَا وَمَعَنَا غَالِبُ بْنُ أَبْجَرَ فَمَرِضَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَعَادَهُ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ فَقَالَ لَنَا: عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحُبَيْبَةِ السَّوْدَاءِ فَخُذُوا مِنْهَا خَمْسًا أَوْ سَبْعًا، فَاسْحَقُوهَا ثُمَّ اقْطُرُوهَا فِي أَنْفِهِ بِقَطَرَاتِ زَيْتٍ فِي هَذَا الْجَانِبِ وَفِي هَذَا الْجَانِبِ؛ فَإِنَّ عائشة- رضي الله عنها- سمعتِ النبيَّ ﷺ يقول: إنَّ هذه الحبَّة السوداء شفاءٌ مِن كُلِّ داء إلَّا مِن السَّام، قلتُ: وما السَّام؟ قال: الموت[٤].

---

(١) الإسراء: ٨٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٢) برقم (٥٦٧٨) كتاب الطِّبِّ. باب ما أنزل الله داء إلَّا أنزل له شفاء.

(٣) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٧). سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ)، المحقِّق: مجموعة من المحقِّقين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (١٢٤/٧) برقم (٥٦٨٧) كتاب الطِّبِّ. باب الحبَّة السوداء.



قال ابن القيم في زاد المعاد: تُسمَّى الحبَّة السوداء بأسماء عديدة؛ منها: حبَّة البركة، الكمُّون الأسود، والكمُّون الهندي[١].

قوله:" الحبَّة السوداء"، وفي رواية مسلم:" إنَّ في الحبَّة السوداء شفاءً"[٢]. وفي رواية أحمد في المسند:" عليكم بهذه الحبَّة السوداء؛ فإنَّ فيها شفاءً من كُلِّ داءٍ"[٣]. وقد فسَّر الحبَّة السوداء ابن شهاب (بالشونيز)[٤]. قال ابن حجر: وتفسير الحبَّة السوداء بالشونيز لشهرة الشونيز عندهم إذ ذاك، وأمَّا الآن فالأمر بالعكس، والحبَّة السوداء أشهر عند أهل هذا العصر من الشونيز بكثير[٥].

قوله:" من كُلِّ داءٍ": هذا أوسع من أن تُستعمَلَ على وجهٍ واحدٍ، وكيفيَّة واحدة، بل تستعمل مُفرَدة أي وحدها بلا إضافة، ومُركَّبة بإضافتها إلى غيرها من المواد، ومسحوقة، وقد تُستعمل أكْلًا، وشُرْبًا، وسعوطًا، وضمادًا، وغير ذلك"[٦].

وقال أبو بكر بن العربي: العسل عند الأطباء أقرب إلى أن يكون دواءً من كُلِّ داءٍ من الحبَّة السوداء، ومع ذلك فإنَّ من الأمراض ما لو شرب صاحبُه العسلَ لتأذَّى به، فإن كان المراد بقوله في العسل:" فيه شفاءٌ للنَّاس" الأكثر الأغلب؛ فحمْلُ الحبَّة السوداء على ذلك أولى.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة:" تكلَّم الناس في هذا الحديث وخصُّوا عمومه، وردُّوه إلى قول أهل الطِّبِ والتجربة، ولا خفاء بغلط قائلِ هذا، لأنَّا إذا صدَّقنا أهل الطِّبِ- ووافق علمهم غالبًا إنَّما هو على التجربة التي بناؤها على ظنٍّ غالبٍ- فتصديق مَن لا ينطق عن الهوى أولى، وكلامه أولى بالقبول من كلامهم"[٧].

---

(١) يُنظَر: زاد المعاد في هدْي خير العباد (٤/ ٢٧٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١٢٤/٧) برقم (٥٦٨٨) كتاب الطِّبِّ. باب الحبَّة السوداء. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٣٥) برقم (٢٢١٥) كتاب السلام. باب التداوي بالحبَّة السوداء.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٢/ ٢٣٣) برقم (٧٢٨٧). والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥١٩).

(٤) وقد جاء في حديثٍ عن النبي ﷺ تسميتها بذلك كما في مسند أحمد (٣٨/ ١٠٥) برقم (٢٢٩٩٩) ولفظه:" عليكم بهذه الحبَّة السوداء، وهي الشونيز، فإنَّ فيها شفاءً". وقال عنه الألباني:" إسناد صحيح على شرط مسلم" سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٢١)

(٥) فتْح الباري لابن حجر (١٠/ ١٤٥).

(٦) يُنظَر: فتح الباري لابن حجر (١٠/ ١٤٤).

(٧) يُنظَر: فتح الباري لابن حجر (١٠/ ١٤٥).

وروى الإمام الطبراني أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال للأنصار وهو يُعلِّمُهم ما يقولون في أعراسهم: أتيناكم أتيناكم، فحيُّونا نُحييكم، ولولا الذهب الأحمر لما حلَّتْ بواديكم، ولولا الحبَّة السوداء ما سمنتْ عذاريكم[١].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-" أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا اشتكى تقمَّحَ (أي استفَّ) كفًّا من شونيز ويشرب عليه ماءً أو عسلًا" رواه الطبراني[٢].

فوائد الحبَّة السوداء:

إنَّ للحبَّة السوداء فوائدَ كثيرةً ذَكَرَها العلماء، فمن الأمراض التي تُعالِجها حبَّة البركة (الحبَّة السوداء):

تساقط الشَّعر- الصداع- الأرق- للقمل وبيضه- للدوخة وآلام الأذن- للقراع والثعلبة — للقوباء- لأمراض النساء والولادة- للأسنان وآلام اللِّوَز والحنجرة- لحَبِّ الشباب- للأمراض الجلدية- للثآليل- للبهاق والبرص- لسرعة التئام الكسور- للكدمات والرضوض- لمرض السكر- لارتفاع ضغط الدم- لإذابة الكوليسترول في الدم- للالتهابات الكلوية- لتفتيت الحصوة وطردها- لعُسْر التبوُّل- لمنع التبوُّل اللا إرادي— للاستسقاء- لالتهابات الكبد- للحُمَّى الشَّوكيَّة- للمرارة وحصوتها— للطحال- لأمراض الصدر والبرد- للقلب والدورة الدموية- للمغص المعوي— للإسهال- للقيء والغثيان- للغازات والتقلُّصات— للحموضة- للقولون- لأمراض العيون— للأميبا— للبلهارسيا- لطرد الديدان— للعقم— للبروستاتا— للقرحة— للسرطان- للضعف الجنسي- للضعف العام- لفتْح الشهية للطعام- لعلاج الخمول والكسل- للتنشيط الذهني وسرعة الحفظ- لعلاج الإيدز.

هذا وكيفيَّة استعمال الحبَّة السوداء موجودة في الكتب الخاصَّة بالأعشاب، والله تعالى هو الشافي.

ويذكر الدكتور حسام عرفة أنَّ أكثر من ١٥٠ بحثًا، تمَّ نشْرُها مُؤخَّرًا في الدوريَّات العلميَّة المختلفة عن فوائد استخدام حبَّة البركة، والتي تُؤَكِّد الفوائد العديدة التي ذكرها القدماء عن هذا النبات، وتأتي معظم هذه الأبحاث من أوربا وتحديدًا النمسا وألمانيا، والتي تأتي في مُقدِّمة الدول الداعية لإحياء طبِّ الأعشاب كطبٍّ بديلٍ، وهكذا ظهرتْ حبَّة البركة في مُستحضَرات طِبِّيَّة مُتنوِّعة

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٣١٥). المعجم الأوسط، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقِّق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين— القاهرة. والحديث حسَّنه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٧/ ٥١).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٤٠). والحديث قال عنه الألباني:" موضوع" كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (٩/ ١٩٢).



بين أقراص وكبسولات وأشربة وزيوت في العديد من الدول الأوربية، وكذلك الولايات المتحدة، هذا بالإضافة إلى بلدان العالم العربي والإسلامي.

والخلاصة: أنَّه علينا أن نطلب الدواء من الأطبَّاء، على ألَّا نُهمِل جانبًا مُهِمًّا جدًّا وهو الطِّبُّ النَّبوِيُّ الذي أرشد ووجَّه له رسول الله ﷺ، وأنَّ الطِّبَّ يشهد كُلَّ يومٍ تقدُّمًا واسعًا. ولعلَّ الغد يحمل لنا الكثير والكثير من الدلائل والبراهين على صدْق وفاعليَّة الطِّبِّ النَّبوِيِّ، لكن شتَّان ساعتها بين مَن يؤمن بها لأنَّها مِن عند رسول الله ﷺ، ومَن صدَّقها لأقوال الأطبَّاء.

١٢ ربيع الأول

لا تَسُبُّوا أصحابي

إنَّ خيرَ النَّاس وأفضلَهم بعد الأنبياء- عليهم السَّلام- هم صحابةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، الأخيارُ الذين اصطفاهم الله لصُحبة نبيِّه ﷺ، ونقْلِ دينه، وحفْظ شريعته، فكانوا أعمق النَّاس علمًا، وأبرَّهم قلوبًا، وأقلَّهم تكلُّفًا، وأزكاهم نفوسًا، وأصدقهم لهجةً، بذلوا النَّفس والنَّفيس في نصرة النَّبيِّ الكريم ﷺ، وإقامة الدِّين، ورفع راية التَّوحيد، فضلُهم عظيمٌ، وخيرُهم كبيرٌ، وهم كما قال رَسُولُ اللهِ ﷺ:" خَيرُ النَّاسِ قَرْنِي" رواه البخاري ومسلم(١).

وقد أثْنى الله علَيْهم ووَعَدهم بالنَّعِيم المقيم، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢).

قال الشيخ السعدي:" ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأُمَّة وبدروها إلى الإيمان والهجرة، والجهاد، وإقامة دين الله ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾(٣) {و} من ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٤)﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذَّمِّ، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنَّة، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجارية التي تُساق إلى سَقْيِ الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يبغون عنها حولًا، ولا يطلبون منها بدلًا، لأنَّهم مهما تمنَّوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم فيه كلُّ محبوبٍ للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كلُّ محذورٍ"(٥).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/١٧١) برقم (٢٦٥٢) كتاب الشهادات. باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٦٣) برقم (٢٥٣٣) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب فضْل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

(٢) التوبة: ١٠٠.

(٣) الحشر: ٨.

(٤) الحشر: ٩.

(٥) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٥٠).



دَخَلَ عَائِذَ بْنَ عَمْرٍو- رضي الله عنه- وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ على عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ؛ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ"- أَي الَّذِي يكون عنيفًا فِي رعيه الْإِبِل فيحطمها، أَي يُلقِي بَعْضهَا على بعض لاستعجاله عليها، وَقلَّة رفقه بهَا، وَلَا يُمْهلهَا حَتَّى تستوفي رعيها-، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ وَفِي غَيْرِهِمْ" رواه مسلم(١).

فالصحابة حُبُّهم والذَّبُّ عنهم ديانة؛ كما قال النبي ﷺ:" لَا يُحِبُّ الأَنْصَارَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ" متفق عليه(٢).

حُبُّ الصحابةِ كلِّهم لي مذهبٌ ... ومودةُ القُربى بها أتوســـلُ

ولكلِّهم قـــدرٌ وفضْـلٌ ساطعٌ ... لكنَّما الصِّدِّيقُ منهم أفضلُ(٣)

ووجود الصحابة وبقاؤهم أمانٌ للأُمَّة من الفتن والجهل، عَنْ أَبِي مُوسَى- رضي الله عنه- قَالَ: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ، قَالَ: فَجَلَسْنَا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ: أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ:" النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ" رواه مسلم(٤).

ولا يحلُّ لأحدٍ أن يسُبَّ أحدًا من الصَّحابة جميعًا، مَن شهد منهم الوقائع ومَن لم يشهد، المتقدِّم منهم والمتأخِّر، كلُّهم سواءٌ في عدمِ جوازِ التَّعرُّض لجنابهم بالسَّبِّ أو التَّنقُّص.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٦١) برقم (١٨٣٠) كتاب الإمارة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٥/٣٢) برقم (٣٧٨٣) كتاب مناقب الأنصار. باب حُبِّ الأنصار. ومسلم في صحيحه (١/ ٨٥) برقم (٧٥) كتاب الإيمان. باب الدليل على أنَّ حُبَّ الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته.

(٣) القصيدة اللامية المنسوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢). القصيدة اللامية المنسوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية، المحقِّق: عبد الله بن محمد الشمراني.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٦١) برقم (٢٥٣١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب بيان أنَّ بقاء النبي ﷺ أمانٌ أصحابه.

فالطَّعن في الصَّحابة- رضي الله عنهم- إنَّما هو طعنٌ في الله ورسوله ﷺ وشريعته؛ فيكون طعنًا في الله؛ لأنَّه طعنٌ في حِكمتِه واختيارِه؛ حيثُ اختار لأفضلِ خلْقِه ﷺ أسوأَ خلْقِه- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-؛ وطعنًا في النَّبي ﷺ؛ لأنَّهم أصحابُه، والمرءُ على دينِ خليلِه، والإنسان يُعرَف صلاحُه أو فسادُه بقرينِه، وطعنًا في الشَّريعة؛ لأنَّهم الواسطةُ بيننا وبين رسول الله ﷺ في نقْلِ الشَّريعة، وإذا كانوا بهذِه المثابةِ؛ فلا يُوثقُ بهذه الشَّريعة؛ لأنَّ الطَّعنَ في النَّاقلِ طعنٌ في المنقُولِ.

فعن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:" مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالملائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِين" أخرجه الطبراني(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ:" لَا تَسُبُّوا أصْحابِي؛ فلوْ أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ ولَا نَصِيفَهُ" رواه البخاري(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ويُمسكون عمَّا شجر بين الصحابة، ويقولون إنَّ هذه الآثار المروية في مساوئهم؛ منها ما هو كَذِبٌ، ومنها ما قد زيد فيه ونقص، وغُيِّرَ عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون؛ إمَّا مُجتهدون مُصيبون، وإمَّا مُجتهدون مُخطئون، ثم قال: ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر، حتَّى إنَّهم يُغفَر لهم من السيئات ما لا يُغفَر لمن بعدهم؛ لأنَّ لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ممَّا ليس لمن بعدهم(٣).

عن عبد الله بن مغفل المزني- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتَّخذوهم غرضًا بعدي، فمَن أحبَّهم فبحُبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٤٢) برقم (١٢٧٠٩). والحديث حسَّنه الألباني بمجموع طرقه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٥/ ٤٤٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٥/٨) برقم (٣٦٧٣) كتاب أصحاب النبي ﷺ. باب قول النبي ﷺ:" لو كنتُ مُتَّخِذًا خليلًا". ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٦٧) برقم (٢٥٤١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب تحريم سَبِّ الصحابة رضي الله عنهم.

(٣) العقيدة الواسطية (ص ١٢٠). العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السُّنَّة والجماعة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقِّق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف- الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.



ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه" صحيح ابن حبان[(١)].

وجاء رجلٌ إلى عبد الله بن المبارك وسأله: أمعاوية أفضل أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لترابٌ في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خيرٌ وأفضل من عمر بن عبد العزيز[(٢)].

وجاء رجلٌ إلى الإمام أبي زرعة الرازي رحمه الله؛ فقال: يا أبا زرعة؛ أنا أبغض معاوية؛ قال: لِمَ؟ قال: لأنَّه قَاتَلَ عليًّا، فقال أبو زرعة: إنَّ ربَّ معاوية ربٌّ رحيمٌ، وخصمَ معاوية خصمٌ كريمٌ، فما دخولُك أنت بينهما؟!![(٣)]

وقال الإمام أحمد رحمه الله: إذا رأيتَ رجلًا يذكر أصحاب ﷺ بسوءٍ؛ فاتَّهِمْه على الإسلام[(٤)].

والخلاصة: أنَّه يجب على كلِّ مسلمٍ أن يعرف للصحابة قدرهم وفضْلهم، وأن يُجلَّهم ويتَّبع آثارهم، فقد كانوا على الهدى المستقيم، وأن يُمسِك عمَّا شجر بينهم، فهم مُجتهدون، للمجتهد المصيب منهم أجران، وللمخطئ منهم أجرٌ واحدٌ، وأن نُردِّد ما علَّمنا رب العالمين في قرآنه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[(٥)].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٤/١٦٩) برقم (٢٠٥٤٩)؛ والترمذي في جامعه (٥/٦٩٦) برقم (٣٨٦٢) أبواب المناقب. باب مَن سبَّ أصحاب النبي ﷺ؛ وابن حبَّان في صحيحه (١٦/ ٢٤٤) برقم (٧٢٥٦). والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (٦/ ٤٤٣).

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٤٤٩).

(٣) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٤٢٧).

(٤) ذكره ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص ٢١٦). مناقب الإمام أحمد، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقِّق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ.

(٥) الحشر: ١٠.

١٣ ربيع الأول

أبو بكر الصِّدِّيق

كان" أبو بكر الصديق"- رضي الله عنه- هو أوَّل مَن آمَنَ مِن الرِّجال، وأوَّل المبشرين بالجنَّة، وأوَّل الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول ﷺ، وكان ممَّن رافقوا النبى ﷺ منذ بدء الإسلام، ويُعتبَر الصَّدِيق المقرَّب له. وُلِدَ سنة ٥١ ق. هـ. (٥٧٣ م) بعد عام الفيل بحوالي ثلاث سنوات. كان سيِّدًا من سادة قريش وغنيًّا من كبار أثريائهم، وكان ممَّن رفضوا عبادة الأصنام فى الجاهليَّة، بل كان حنيفًا على ملَّة إبراهيم- عليه السلام-.

واسمه: عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، وينتهي نسبه إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ويلتقي في نسبه مع النبي ﷺ عند مرة بن كعب.

وأُمُّه سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم وهي بنت عمِّ أبيه، وتُكنَّى أُمَّ الخير.

كان أبو بكر- رضي الله عنه- يُسمَّى في الجاهليَّة" عبد الكعبة"؛ فسمَّاه النبي ﷺ عبد الله، ولقَّبه عتيقًا؛ لأنَّ النبي ﷺ قال له:" أنت عتيق الله من النَّار" رواه الترمذي[١]. وقيل: لجمال وجهه، وقيل: لأنَّه لم يكن في نسبه شيءٌ يُعابُ به.

كما سُمِّي بالصِّدِّيق لتصديقه خبر الإسراء والمعراج.

نشأ أبو بكر- رضي الله عنه- في مكَّة، فلمَّا جاوز الصبا إلى الشباب عمل في التجارة، فكان بزَّازًا يبيع الثياب، واستطاع أن يُحقِّق نجاحًا كبيرًا في تجارته، فتزوَّج في بداية شبابه من قتيلة بنت عبد العُزَّى، فولدت له عبد الله وأسماء- رضي الله عنهما-، ثم تزوَّج بعد ذلك أُمَّ رومان بنت عامر بن عويمر، فأنجب منها عبد الرحمن وعائشة- رضي الله عنهما-.

كان- رضي الله عنه- رجلًا رَضِيَ الخُلُق، رقيق الطبع، رزينًا لا يغلبه الهوى، ولا تملكه الشهوة، يتميَّز برجاحة العقل وسداد الرأي، وكان لا يُشارِك قومه في عقائدهم وعاداتهم، فلم يشرب خمرًا قط في الجاهليَّة، وكان وجيهًا من وجهاء قريش ورؤسائها، عارفًا بالأنساب بل أعلم قريش بها، وقد كانت إليه الأشناق (الديات) في الجاهليَّة.

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٦١٦/٥) برقم (٣٦٧٩) أبواب المناقب. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ١٧٩).

وهو أوَّل الرجال إسلامًا، وأفضل الأُمَّة على الإطلاق، وأمَّا فضْله فقال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[2]، وقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾[3]، وقد حكى جماعة من المفسرين أنَّها نزلتْ في أبي بكر الصِّدِّيق- رضي الله عنه-.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:" مَن أنفقَ زوجَينِ مِن شيءٍ مِن الأشياء في سبيل الله؛ دُعِيَ مِن أبواب الجنَّة: يا عبد الله؛ هذا خير، فمَن كان مِن أهل الصَّلاة دُعِيَ مِن باب الصَّلاة، ومَن كان مِن أهل الجهاد دُعِيَ مِن باب الجهاد، ومَن كان مِن أهل الصَّدقة دُعِيَ مِن باب الصَّدقة، ومَن كان مِن أهل الصِّيام دُعِيَ مِن باب الصِّيام وباب الرَّيَّان. فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدعَى مِن تلك الأبواب مِن ضرورةٍ. وقال: هل يُدعَى منها كُلِّها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر" رواه البخاري ومسلم[4].

وقد كان أبو بكر- رضي الله عنه- أحبَّ الصحابةِ لقلب رسول الله ﷺ، فعن عمرو بن العاص- رضي الله عنه-" أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيتُه فقلتُ: أيُّ النَّاسِ أحبُّ إليك؟ قال: عائشة، فقلتُ: مِن الرِّجال؟ فقال: أبوها. قلتُ: ثم مَن؟ قال: ثم عمر بن الخطاب، فعدَّ رجالًا" رواه البخاري ومسلم[5].

كما كان أبو بكر- رضي الله عنه- سبَّاقًا إلى الخيرات، عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال:" أمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نتصدَّق، ووافق ذلك عندي مالًا، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكرٍ إن سبقتُه يومًا. قال: فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيتَ لأهلك؟ قلتُ: مثلَه. وأتى أبو

---

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) الزمر: ٣٣.

(٣) الليل: ١٧- ٢١.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٥/٦) برقم (٣٦٦٦) كتاب أصحاب النبي ﷺ. باب قول النبي ﷺ:" لو كُنتُ مُتَّخِذًا خليلًا". خليلًا". ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١١) برقم (١٠٢٧) كتاب الزكاة. باب من جمع الصدقة وأعمال البر.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٥/٥) برقم (٣٦٦٢) كتاب أصحاب النبي ﷺ. باب قول النبي ﷺ:" لو كُنتُ مُتَّخِذًا خليلًا". ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٦) برقم (٢٣٨٤) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

بكر- رضي الله عنه- بكُلِّ ما عنده فقال: يا أبا بكر؛ ما أبقيتَ لأهلِك؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله. قلتُ: لا أسبقه إلى شيءٍ أبدًا" رواه أبو داود والترمذي(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن أصبح منكم اليوم صائمًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: مَن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمَن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمَن عاد منكم اليوم مريضًا؟ قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئٍ إلَّا دخل الجنَّة" رواه مسلم(٢).

ولقد كان أبو بكر- رضي الله عنه- أعلم الصحابة برسول الله ﷺ، عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ جلس على المنبر، فقال: إنَّ عبدًا خيَّره الله بين أن يُؤتيَه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده؛ فاختار ما عنده، فقال أبو بكر: فديناك يا رسول الله بآبائنا وأُمَّهاتنا، قال: فعجبنا، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ؛ يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّره الله، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأُمَّهاتنا، قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر- رضي الله عنه- أعلمنا به، فقال النبي ﷺ:" إنَّ مِن أمَنِّ النَّاس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كُنتُ مُتَّخِذًا خليلًا لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ولكن أُخوَّة الإسلام، لا تبقين في المسجد خوخة إلَّا خوخة أبي بكر" متفق عليه(٣).

وعنه يقول شاعرنا المفضال معالي الدكتور عبد الرحمن العشماوي:

قالوا: هو الصِّدِّيق، قلتُ: كفاهُ	ما يحفظ التاريخُ مِن ذِكراهُ
يكفيه" تصديقُ" النَّبيّ، وأنَّهُ	في كُلِّ موقِفِ هِمَّةٍ زكَّاهُ
يكفي أبا بكر فخارًا أنَّهُ	في هجرةِ المختارِ قد آخاهُ
قطعَ الجبالَ الراسياتِ مُرافِقًا	لأعزِّ خلْقِ اللهِ حينَ دعاهُ

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٢/١٢٩) برقم (١٦٧٨) كتاب الزكاة. باب في الرُّخْصة في ذلك. والترمذي في جامعه (٥/٦١٤) برقم (٣٦٧٥) أبواب المناقب. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ١٧٥).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٧) برقم (١٠٢٨) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٥/٥٧) برقم (٣٩٠٤) كتاب مناقب الأنصار. باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٤) برقم (٢٣٨٢) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.



وتعجَّبتْ منهُ الرمالُ وقد مشى	تقفو خُطا الهادي البشيرِ خُطاهُ
تلميذُ مدرســـةِ النُّبوَّةِ والهُــدى	خيرِ الأنامِ على التُّقى ربَّـــاهُ
يا رحلةَ الصِّدِّيقِ في دَرْبِ الهُدَى	أحييتَ في قلبِ المحبِّ رِضاهُ[(١)]

والخلاصة: أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق- رضي الله عنه- من كبار الصحابة وأكثرهم فضْلًا، وأكثرهم قُرْبًا من النبي ﷺ؛ إذ كان ثاني اثنين في الغار، وفي الدعوة، وفي الخلافة، وحتى في قبره، وأعزَّ الله به الإسلام، وأيَّد به الدين، وحمى الله به حوزة الإسلام أيَّام المرتدِّين، فرضي الله عنه وأرضاه.

(١) من قصيدة للدكتور عبد الرحمن العشماوي بعنوان (أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه). أبو بكر الصِّدِّيق . رضي الله عنه . – عبد الرحمن العشماوي — الديوان (aldiwan.net)

١٤ ربيع الأول

عمر الفاروق

ثاني الخلفاء الراشدين، أمير المؤمنين، أبي حفص، الفاروق عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه- المجاهد بالحق، الذي لا يخاف في الله لومة لائم، الذي أظهر الإسلام وفرَّق بين الحق والباطل، وبه سمَّاه النبي ﷺ الفاروق. وقال عنه:" أرحمُ أُمَّتي بأُمَّتي أبو بكر، وأشدُّهم في دينِ الله عمر" أخرجه أحمد والترمذي والنسائي(١).

وهو- رضي الله عنه- أحد المبشَّرين بالجنَّة، وأحد كبار علماء الصحابة وزُهَّادهم.

اسمه عمر بن الخطَّاب بن نُفيل بن عبد العزَّى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدرِكة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان، أبو حفص العدوي.

وأُمُّه: حنتمةُ بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ أخت أبي جهل.

وقد ذُكِرَ في سبب إسلامه: أنَّه كان شديدًا على مَن أسلم، فلمَّا علِم أنَّ أُخته فاطمةَ وزوجَها سعيد بن زيد أسلَما؛ جاء إليهما وعندهما خبَّاب يُقرِئهما القرآن، فاختبأ خبَّاب، فبطش بخَتَنِه وأقبلَتْ أُختُه لتكُفَّه عن زوجِها فشجَّها، فأدْماها، ثم ندم فقال: أعطِني هذه الصحيفة التي سمعتُكم تقرأون آنِفًا، فقالت له: إنَّك نَجَسٌ مُشرِكٌ، وإنَّه لا يمسُّها إلَّا الطاهر، فقام فاغتسل، ثم قرأ منها سطرًا واحدًا، وقال: ما أحسَنَ هذا الكلامَ، يُقال: إنَّها سورة طه، فلمَّا قال ذلك؛ خرَج إليه خبَّاب ووعَظه، وقال له: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ أمسِ يقول: اللَّهُمَّ أيِّدِ الإسلامَ بأحبِّ العُمَرَينِ إليكَ؛ عمرو بن هشام (أبو جهل) أو عُمرَ بن الخطَّاب، فاللهَ اللهَ يا عمر، فقال له: دُلَّني على محمَّدٍ، فقال له: هو في بيت عند الصفا مع نفرٍ من أصحابه، فجاء فاستأذن، فارتاع مَن هناك لاستئذانه، فقال حمزة- رضي الله عنه-: نأذَنُ له، فإن كان يريد خيرًا بذَلناه له، وإن كان يريد شرًّا قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ. فأخذه الرسول ﷺ من مجمع ردائه وجذبه جذبة شديدة وقال: ما جاء بك يا ابن الخطَّاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتَّى يُنزِل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله؛ جئتُك لأومنَ بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، فكبَّر رسولُ الله ﷺ وكبَّر المسلمون معه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤٠٦/٢١) برقم (١٣٩٩٠)؛ والترمذي في جامعه (٦٦٤/٥) برقم (٣٧٩٠) أبواب المناقب. باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي عبيدة بن الجرَّاح؛ والنسائي في السنن الكبرى (٧/ ٣٤٥) برقم (٨١٨٥). والحديث ممَّا تراجَعَ الألباني عن تصحيحه كما في تراجعات العلَّامة الألباني في التصحيح والتضعيف (ص ٢٩).



وقد كان عمرُ شديدًا في أمر الدِّين، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ:" وإنَّ مثلَكَ يا عمر كمثل نُوحٍ قَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[١]. ومثلك يا عمر مثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾[٢]" أخرجه أحمد[٣].

ثانيه في الفضل بلا ارتيابِ ... الصادعِ الناطقِ بالصوابِ

أعني به الشهم أبا حفصٍ عُمَر ... مَن ظَاهرَ الدينَ القويمَ ونَصَرْ

الصارم المنكي على الكفَّارِ ... وموسع الفتوح في الأمصارِ[٤]

قال عنه رسول الله ﷺ:" بَيْنا أنا نائِمٌ أُتِيتُ بقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ منه، ثُمَّ أعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، قالوا: فَما أوَّلْتَهُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: العِلْمَ" رواه البخاري ومسلم[٥].

وفي رواية أخرى:" بَيْنا أنا نائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ عُرِضُوا عَلَيَّ، وعليهم قُمُصٌ، فَمِنْها ما يَبْلُغُ الثَّدْيَ، ومِنْها ما يَبْلُغُ دُونَ ذلكَ، وعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ وعليه قَمِيصٌ اجْتَرَّهُ، قالوا: فَما أوَّلْتَهُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: الدِّينَ" رواه البخاري ومسلم[٦].

ولقد بلغ مِن فضْله- رضي الله عنه- وشدَّته في دين الله أنَّ الشياطين كانت تخاف منه، فقد قال له رسول الله ﷺ:" إيه يا ابن الخطَّاب، والذي نفسي بيده؛ ما لقيَكَ الشيطانُ سالكًا فجًّا إلَّا سلك فجًّا غير فجِّك" رواه البخاري ومسلم[٧].

---

(١) نوح: ٢٦.

(٢) يونس: ٨٨.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٣٩/٦) برقم (٣٦٣٢).

(٤) مِن أبياتٍ للشيخ حافظ حكمي في نظمه سلم الوصول، يُنظَر: معارج القبول بشرح سلم الوصول (١/ ٤٣). معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، المؤلف: حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى : ١٣٧٧ هـ)، المحقِّق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر : دار ابن القيم— الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٢٧/١) برقم (٨٢) كتاب العلم. باب فضْل العلم. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٩) برقم (٢٣٩١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل عمر رضي الله عنه.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (١٢/٥) برقم (٣٦٩١) كتاب أصحاب النبي ﷺ. باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٩) برقم (٢٣٩٠) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل عمر رضي الله عنه.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٢٣/٨) برقم (٦٠٨٥) كتاب الأدب. باب التبسُّم والضحك. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٦٣) برقم (٢٣٩٦) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل عمر رضي الله عنه.

وفي رواية:" إِنِّي لأنظر إلى شياطين الجنِّ والإنس قد فرُّوا من عمر" رواه الترمذي والنسائي(١).

قال رسول الله ﷺ:" لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر بن الخطَّاب" رواه الترمذي(٢).

وقال رسول الله ﷺ:" إن اللهَ جعَل الحقَّ على لسان عُمرَ وقلبِه" رواه الترمذي(٣).

وقال ﷺ:" قد كان يكونُ في الأُمم قبلكم مُحدَّثون؛ فإن يَكُنْ في أُمَّتي منهم أحدٌ؛ فإنَّ عُمرَ بن الخطَّاب منهم" رواه مسلم(٤).

وقد وافق ربَّه سبحانه وتعالى في أشياء كثيرة، وفي ذلك يقول- رضي الله عنه-:" وافقتُ ربي في ثلاثٍ: قلتُ: يا رسول الله؛ لو اتَّخذنا من مقام إبراهيم مُصلَّى! فنزلتْ ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ ﴾(٥)، وقلتُ: يا رسول الله؛ يدخل على نسائك البَرُّ والفاجرُ، فلو أمرتَهُنَّ يحتجبْنَ؛ فنزلتْ آية الحجاب ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾(٦)، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة، فقلتُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾(٧)، فنزلت كذلك" رواه البخاري ومسلم(٨).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٥/٦٢١) برقم (٣٦٩١) أبواب المناقب. باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٨/١٨٢) برقم (٨٩٠٨) كتاب عِشْرة النِّساء. إباحة الرجل لزوجته النظر إلى اللعب. والحديث حسَّن إسناده الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٨١٩).

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٥/٦١٩) برقم (٣٦٨٦) أبواب المناقب. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ١٨٦).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/٦١٧) برقم (٣٦٨٢) أبواب المناقب. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ١٨٢).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٦٤) برقم (٢٣٩٨) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل عمر رضي الله عنه.

(٥) البقرة: ١٢٥.

(٦) الأحزاب: ٥٣.

(٧) التحريم: ٥.

(٨) رواه البخاري في صحيحه (١/٨٩) برقم (٤٠٢) كتاب الصلاة. باب ما جاء في القبلة ومَن لم يرَ الإعادة. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٦٥) برقم (٢٣٩٩) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل عمر رضي الله عنه.



وعندما تولَّى الخلافة؛ كانت سيرتُه في رعيته وفي مال المسلمين تقوم على القاعدة التي بيَّنها– رضي الله عنه– بقوله: إِنِّي أنزلتُ نفسي من مال الله منزلة والي اليتيم من ماله، إن أيسرتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف، فإن أيسرتُ قضيتُ(١).

وكان يبدأ بنفسه وأهل بيته فيما يأمر به أو ينهى عنه؛ يقول ابنه عبد الله: كان عمر إذا أراد أن ينهى الناس عن شيءٍ تقدَّم إلى أهله فقال: لا أعلمنَّ أحدًا وقع في شيءٍ ممَّا نهيتُ عنه إلَّا أضعفتُ عليه العقوبة.

وصدق فيه شاعرُ النيل حافظ إبراهيم حين قال:

يَا رافعًا رايةَ الشورى وحارسَها ... جــزاكَ ربُّـكَ خـيرًا عـن مُحبِّيهَـا
رأْيُ الجماعةِ لا تشقى البلادُ بهِ ... رغـمَ الخلافِ، ورأْيُ الفـردِ يُشـقيهَا
إن جَاعَ في شِدَّةٍ قومٌ تُشاركُهمْ ... في الجوعِ أو تنجلي عنهـم غواشِيهَا
جـُـوعُ الخليفةِ والدُّنيــا بقبضتِه ... في الزُّهـــدِ منزلةٌ سبحـانَ مُوليهَا
يومَ اشتهتْ زوجُهُ الحَلْوَى فقال لها: ... مِـن أيـن لي ثمـنُ الحلوى فأَشْـرِيهَا؟
مَا زادَ عــن قُوتِنا فالمســلمون به ... أَولى، فقُومِي لبيتِ المــالِ رُدِّيهَا
كذاك أخلاقُه كانتْ وما عُهِـدتْ ... بعد النُّبـــوَّةِ أخلاقٌ تُحـاكِيهَا(٢)

والخلاصة: أنَّ الذي يقرأ ما جُمِعَ مِن تاريخ عمر بن الخطَّاب– رضي الله عنه–، ويتدبَّر أعماله وأقواله ويشرحها؛ يراه كالمِئْذنة العالية منتصبة في الجوِّ، والطباع الإنسانيَّة من دونه كالدُّور القائمة تستشرف إليه ولا تبلُغُه، فإن كانت فيها الحياة؛ فإنَّ فيه هو جلال الحياة.

---

(١) مسند الفاروق لابن كثير (١/ ٣٥٣). مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وأقواله على أبواب العلم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقِّق: عبد المعطي قلعجي، دار النشر: دار الوفاء– المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ– ١٩٩١ م.

(٢) أبيات للشاعر حافظ إبراهيم من قصيدةٍ له بعنوان: يا رافعًا راية الشورى وحارسها– حافظ ابراهيم– الديوان (aldiwan.net).



١٥ ربيع الأول

ذو النُّورَين عثمان بن عفَّان

لقد منَّ الله على سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ بالصحابة الكرام الذين ناصروه في أوقات الشِّدَّة والعُسرة، ومن هؤلاء الصحابة عثمان بن عفَّان- رضي الله عنه-، فهو من السابقين الأوَّلين، وأوَّل المهاجرين، وأحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة.

هو عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، حيث يلتقي مع النبي ﷺ عند جدِّه عبد مناف، وأُمُّه هي أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف أيضًا، وأُمُّها البيضاء أُمُّ حكيم بنت عبد المطَّلب عمَّة رسول الله ﷺ، وُلِد بعد عام الفيل بِستِّ سنوات، ونشأ في مدينة الطائف والتي تُعتبَر مُنتجَعًا لأثرياء مكَّة لكثرة مائها وتنوُّع فاكهتها، فعاش في صباه وشبابه حياة موسرة، فقد كانت أسرته ذات نسب وجاه، ولها حظٌّ من مقاليد الزعامة والسلطان على العرب.

كنيته أبو عبد الله وأبو عمرو، ولُقِّب بذي النُّورَينِ، وهو ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد السِّتَّة الذين استخلفهم عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- قبل موته.

إسلامه: بعد أن أسلم سيِّدُنا أبو بكر الصِّدِّيق- رضى الله عنه- بدأ القيام بالدعوة إلى الإسلام لكلِّ مَن كان يجلس معه في مجالسه ومَن يثق به مِن الرجال، وكان سيِّدُنا عثمان بن عفَّان- رضى الله عنه- في الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه سيِّدُنا أبو بكر الصِّدِّيق- رضى الله عنه- إلى الإسلام. وقد استجاب لدعوته كُلٌّ مِن: عثمان بن عفَّان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام- رضي الله عنهم جميعًا- وغيرهم، وقد ذهبوا إلى رسول الله ﷺ، وتلا عليهم القرآن الكريم، وعرض عليهم الإسلام فآمنوا به، وقد كان عثمان بن عفَّان- رضي الله عنه- رابع الرجال الذين آمنوا بالإسلام. وله الكثير من الأعمال التي قام بها في سبيل الله، منها أنَّه أوَّل مَن هاجر إلى الحبشة مع زوجته، وتجهيزه- رضي الله عنه- جيش العُسْرة في غزوة تبوك، كما قام بتوسيع مسجد النبي ﷺ، وكذا شراؤه لبئر رومة وجعلها وقفًا للمسلمين.

ومن مناقبه العديدة؛ كتابته للوحي بين يدي رسول الله ﷺ وحفْظه لكتاب الله، فقد كان من بين الذين جمعوا القرآن حفْظًا على عهد رسول الله ﷺ.

وأيضًا روايته للحديث عن رسول الله ﷺ وعن أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما-، وقد حدَّث عنه جمعٌ كبيرٌ من الصحابة والتابعين، وأبناؤه ومواليه، وروى أئمة الحديث لعثمان- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ مئة وستَّة وأربعين حديثًا.

كما كان مِن أعلم الناس بكتاب الله وأقرئهم له، وأكثرهم معرفة بسُنَّة النبي ﷺ وأحسنهم اجتهادًا في الأحكام، وكان يُفتي الناس في عهد رسول الله ﷺ وفي زمن أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما-، واجتهد وقت خلافته في كثيرٍ من المسائل.

وقد جمع بين العلم والعمل، والصيام والتهجُّد، والإنفاق والجهاد في سبيل الله، وصلة الأرحام، فكان يُقيم الليل بركعةٍ واحدةٍ يختم فيها القرآن الكريم كاملًا، وكان يصوم الدهر، وحَجَّ اثنتي عشرة حجَّة.

وكان- رضي الله عنه- من أشد الناس تواضعًا؛ فكان ينام في المسجد وهو خليفة، ورداؤه تحت رأسه، ويقوم وأثر الحصباء في جنبه، وكان يجرُّ بغلته وعليها غلامه نائل، وكان يُطعِم الناس طعام الإمارة، ويأكل في بيته الخَلَّ والزيت(1).

بعد مبايعته- رضي الله عنه- بالخلافة؛ بدأ إدارة شؤون الدولة، واتَّخذ من الصحابة- رضوان الله عليهم- أعوانًا يساعدونه على ذلك؛ وحقَّق العديد من الإنجازات خلال فترة خلافته، نستعرض منها ما يلي:

١- في مجال القضاء: كان ينظر في الخصومات بنفسه، ويستشير الصحابة- رضوان الله عليهم- فيما يحكم به، ومن مآثره اتخاذه دارًا للقضاء. كما أقرَّ الولاة الذين قد تمَّ تعيينهم من قِبل عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه- في ولاياتهم عامًا كاملًا، بعد ذلك أبقى البعض وعزل آخرين.

٢- في الشؤون الإدارية: قام بضمِّ بعض الولايات إلى بعضها لما يراه في مصلحة المسلمين، فقد ضمَّ البحرين إلى البصرة، وضمَّ بعض ولايات الشام إلى بعضها. وكان دائم النصح لولاته بالعدل والرحمة وإعطاء الحقوق للمسلمين ومطالبتهم بما عليهم من واجبات.

---

(١) يُنظَر ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١٠٣٧)؛ الإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ١٠٢). الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقِّق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م. الإصابة في تمييز الصحابة، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (٧٧٣- ٨٥٢ هـ)، تحقيق: مركز هجر للبحوث، الناشر: دار هجر.



٣- في الشؤون المالية: كان عهده عهد رخاء على المسلمين؛ من خلال الأُسُس العامَّة التالية لسياسته المالية: تطبيق سياسة مالية عامَّة إسلامية، وعدم إخلال الجباية بالرعاية، وأخْذ ما على المسلمين بالحقِّ لبيت مال المسلمين، وإعطاء المسلمين ما لهم من بيت مال المسلمين، وأخْذ ما على أهل الذِّمَّة لبيت مال المسلمين بالحقِّ وإعطاؤهم ما لهم وعدم ظلمهم، وتخلُّق عُمَّال الخراج بالأمانة والوفاء. وتفادي أيَّة انحرافات ماليَّة يُسفر عنها تكامُل النِّعم لدى العامَّة. وكُلُّ هذه السياسات تُدرَّس اليوم في أرقى جامعات العالم، ممَّا يدلُّ على حنكة عثمان بن عفَّان- رضي الله عنه-، ودرايته بالأمور السياسية والاقتصادية بالفطرة.

وكانت خلافته مليئة بالإنجازات منها: الاعتناء بالقرآن الكريم، ونسْخُه إلى عِدَّة نسخ، وإرسالها إلى مختلف الأمصار، والعناية بالمساجد، فقد قام بتوسعة المسجد الحرام والمسجد النبوي. كما أنشأ أوَّل أسطولٍ بحريٍّ للمسلمين. وفتَحَ اللهُ على يديه العديد من البلدان؛ مثل: أرمينيا، وقبرص، وطرابلس، وأجزاء من إفريقيا.

تولَّى عثمان بن عفَّان- رضي الله عنه- الخلافة لمدَّة اثنتي عشرة سنة، وقد بدأت الفتنة في النصف الثاني من خلافته، وهذه الفتنة هي التي أدَّت إلى مقتله واستشهاده وهو يقرأ في المصحف في داره، وكان ذلك يوم الجمعة الموافق الثامن عشر من شهر ذي الحجَّة سنة خمسة وثلاثين هجريًّا. بعد أن حوصر أربعين يومًا على يد كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي وآخرين، ودُفِن- رضي الله عنه- قُرب البقيع.

والخلاصة: من ذا الذي يُضاهي عثمان بن عفَّان- رضي الله عنه- شرفًا وفضلًا، فما علمنا أحدًا تزوَّج بنتَيْ نبيٍّ غيره. فقد تزوَّج رقية بنت رسول الله ﷺ فلما ماتتْ تزوَّج أختها أُمَّ كلثوم ، لذا لُقِّب بذي النُّورَين. وكانت الملائكة تستحيي منه، فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ مُضَّطجِعًا في بيته كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، ثم عمر، وهو على تلك الحال فتحدَّثا، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه، فدخل فتحدَّث، فلما خرج قلتُ: يا رسول الله؛ دخل أبو بكر فلم تجلس له، ثم دخل عمر فلم تهش له، ثم دخل عثمان فجلستَ وسوَّيتَ ثيابك، قال:" ألا أستحي مِن رجلٍ تستحي منه الملائكة؟" رواه مسلم(١).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٦٦) برقم (٢٤٠١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل عثمان بن عفَّان رضي الله عنه.

١٦ ربيع الأول

أبو تراب عليُّ بن أبي طالب

عليُّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- رابع الخُلفاء الراشدين، ومن السابقين الأوَّلين، ومن العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وأوَّل مَن أسلم من الصِّبيان، وهو زوج فاطمة سيِّدة نساء العالمين، وبنت رسول الله ﷺ، وأبو السِّبْطَين الكريمَين الحَسن والحُسَين، سيِّدَيْ شباب أهل الجنَّة.

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف؛ ابن عمِّ رسول الله ﷺ، له في الإسلام السابقة العظيمة، والمآثر الجليلة، وُلِد قبل البعثة بعشر سنين، وتربَّى في بيت النُّبوَّة، فكان أوَّل مَن أسلم مِن الصبيان، أسلم وعمره عشر سنين.

ولما هاجر النبيُّ ﷺ من مكَّة إلى المدينة أمر عليًّا- رضي الله عنه- أن يبيت على فراشه، وأجَّله ثلاثة أيَّام ليُؤدِّي الأمانات التي كانت عند النبيِّ ﷺ إلى أصحابها، ثم يلحق به إلى المدينة، فهاجر من مكة إلى المدينة المنوَّرة ماشيًا.

قال له النبي ﷺ:" أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي" متفق عليه[(١)].

وقال له أيضًا:" لا يُحبُّكَ إلَّا مُؤمِنٌ ولا يبغضك إلَّا منافقٌ" رواه مسلم[(٢)].

قال عليٌّ- رضي الله عنه-:" واللهِ إنَّه مما عهد إليَّ رسولُ الله ﷺ أنَّه لا يُبغضُني إلَّا منافقٌ، ولا يُحبُّني إلَّا مؤمنٌ" أخرجه أحمد[(٣)].

وصفه أهل السِّيَر بأنَّه كان أسمر اللون، كثيف شعر اللحية، ربعة من الرجال، ضخم البطن، حسن الوجه، إلى القصر أقرب، ويُكنَّى أبا الحسن أو أبا تراب. وقد شهد المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ عدا غزوة تبوك.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥/١٩) برقم (٣٧٠٦) كتاب أصحاب النبي ﷺ. باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٠) برقم (٢٤٠٤) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٨٦) برقم (٢٣٩٩) كتاب الإيمان. باب الدليل على أنَّ حُبَّ الأنصار وعليٍّ رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته. ولفظه: والذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة إنَّه لعهدُ النَّبيِّ الأُمِّيِّ ﷺ إليَّ: «أن لا يُحِبَّني إلَّا مُؤمنٌ، ولا يبغضني إلَّا مُنافقٌ».

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٧١) برقم (٦٤٢).



فضائله جمَّة لا تُحصى، كان- رضي الله عنه وأرضاه- غزير العلم، زاهدًا ورعًا شجاعًا، وقد ورد عن الإمام أحمد رحمه الله أنَّه قال: لم يُنقَلْ لأحدٍ مِن الصحابة من الفضائل ما نُقِلَ لعلي- رضي الله عنه-(١).

أخرج البخاري عن البراء بن عازب- رضي الله عنه-: أنَّ النبي ﷺ قال لعليِّ بن أبي طالب - رضي الله عنه-:" أنتَ مِنّي وأنا مِنكَ "(٢).

ولقد سمَّاه النبيُّ ﷺ أبَا تراب، فقد جاء رسولُ الله ﷺ بيتَ فاطمة- رضي الله عنها-، فلم يجِدْ عليًّا في البيت، فقال: أين ابنُ عمّك؟ فقالت: كان بيني وبينه شيءٌ فغاضبني، فخرج فلم يَقِلْ عندي، فقال رسول الله ﷺ لإنسان: انظر أين هو؟ فجاء فقال: يا رسولَ الله؛ هو في المسجد راقدٌ، فجاءه رسول الله ﷺ وهو مُضطجِعٌ، قد سقط رداؤُه عن شِقِّه، فأصابه ترابٌ، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، ويقول:" قُمْ أبا التراب، قُمْ أبا التراب" أخرجه البخاري ومسلم(٣).

قال سهل بن سعد- رضي الله عنه-:" مَا كان لِعَلِيٍّ اسمٌ أَحَبَّ إليه من أبي تراب، وإِنْ كَانَ لَيَفْرحُ به إذا دُعِيَ به، وَمَا سماهُ" أبو تراب" إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ" متفق عليه(٤).

اشتهر- رضي الله عنه- بالفروسية والشجاعة والإقدام، وكان اللواء بيده- رضي الله عنه- في أكثر المشاهد، منها يوم خيبر؛ حيث قال النبي ﷺ:" لَأُعْطِيَنَّ هذِه الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ علَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَه، ويُحِبُّهُ اللَّهُ ورَسولُهُ، قالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ: أيُّهُمْ يُعْطَاهَا؟ فَلَمَّا أصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا علَى رسول الله ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أنْ يُعْطَاهَا، فَقالَ: أيْنَ عَلِيُّ

---

(١) يُنظَر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٢٢٠). وهذه الرواية قال عنها شيخ الإسلام:" وأحمد بن حنبل لم يقل: إنَّه صح لعلي من الفضائل ما لم يصح لغيره، بل أحمد أجَلُّ من أن يقول مثل هذا الكذب، بل نقل عنه أنَّه قال: روي له ما لم يرو لغيره، مع أنَّ في نقل هذا عن أحمد كلامًا ليس هذا موضعه". منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٧/ ٣٧٤). منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشيعة القدريَّة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقِّق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١٨٤/٣) برقم (٢٦٩٩) كتاب الصلح. باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان، وفلان بن فلان، وإن لم ينسبْه إلى قبيلته أو نسبه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٩٦/١) برقم (٤٤١) كتاب الصلاة. باب نوم الرجال في المسجد. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٤) برقم (٢٤٠٩) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٦٣/٨) برقم (٦٢٨٠) كتاب الاستئذان. باب القائلة في المسجد. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٤) برقم (٢٤٠٩) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بنُ أبِي طَالِبٍ؟ فقِيلَ: هو- يا رَسولَ اللَّهِ- يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فأرْسَلُوا إلَيْهِ، فَأُتِيَ به فَبَصَقَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ في عَيْنَيْهِ ودَعَا له، فَبَرَأَ حتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وجَعٌ، فأعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقالَ عَلِيٌّ: يا رَسولَ اللَّهِ؛ أُقَاتِلُهُمْ حتَّى يَكونُوا مِثْلَنَا؟ فَقالَ: انْفُذْ علَى رِسْلِكَ حتَّى تَنْزِلَ بسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسْلَامِ، وأَخْبِرْهُمْ بما يَجِبُ عليهم مِن حَقِّ اللَّهِ فِيهِ؛ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بكَ رَجُلًا واحِدًا؛ خَيْرٌ لكَ مِن أنْ يَكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ" رواه البخاري(١).

ولذا قال عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه-:" ما أحببتُ الإمارة إلَّا يومئذ" رواه مسلم(٢).

وكان- رضي الله عنه- من أزهد الناس، فقد كان يقبض على لحيته ويبكي بُكاءَ الخاشع الحزين، وكان يقول:" إنَّ الآخرة قد ارتحلَتْ مُقبِلة، وإنَّ الدنيا قد ارتحلتْ مُدبِرةً، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليوم عملٌ ولا حسابٌ، وغدًا حسابٌ ولا عملٌ" رواه البخاري(٣).

وكان- رضي الله عنه- لا يملك مِن متاع الدنيا إلَّا النَّذر اليسير، تمضى عليه الأيَّام والليالي لا يجد طعامًا يأكله، يصفُ الحسن بن عليّ أباه عليًّا- رضي الله عنهما- بعد مقتله فيقول:" ما تَرَكَ مِن صفراء ولا بيضاء، إلَّا سبعمائة درهم من عطائه، كان يرصدها لخادم لأهله" رواه أحمد(٤).

ومن أقواله العظيمة أنَّه كان يقول: ليس الخير أن يكثُرَ مالُك وولدُك، ولكن الخير أن يكثُر علمُك، ويعظم حلمُك، وأن تُباهِي الناس بعبادة ربِّك، فإنْ أحسنتَ حمدتَ الله، وإنْ أسأتَ استغفرتَ الله(٥).

وقد كان علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ذا ذكاءٍ لماح، وعبقرية فذَّة، وبديهةٍ حاضرة، يَنظرُ في وجه المرءِ فيقرأ فيه مخبوء نفسه، ويسمع الكلام فيشمُّ منه رائحة صدْقِهِ أو كذبِهِ، ويأتيه السائل المتِعنِّت، فلا يجد من عليٍّ إلَّا الحُجَّة الدامغة والجواب الشافي.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٣٤/٥) برقم (٤٢١٠) كتاب المغازي. باب غزوة خيبر. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٢) برقم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧١) برقم (٢٤٠٥) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨٩/٨) تعليقًا في كتاب الرقاق. باب في الأمل وطوله.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٤٧) برقم (١٧٢٠).

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٧٥). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: مطبعة السعادة- بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

جاءه رجلٌ فقال له: ما بال خلافة أبي بكر وعمر كانت صافية وخلافتك أنت وعثمان مُتكدِّرة! فقال: إنَّ أبا بكر وعمر كنتُ أنا وعثمان من أعوانهما، وكنتَ أنتَ وأمثالك من أعواني وأعوان عثمان[١].

وجاءه رجلٌ من يهود فقال له: ما أتى عليكم بعد نبيكم إلَّا نيِّفٌ وعشرون سنة حتَّى ضرب بعضُكم بعضًا بالسيف، فقال- رضي الله عنه-: فأنتم ما جفَّتْ أقدامُكم من البحر حتَّى قُلتُم: يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة[٢].

وتُوفِّي عام ٤٠ هجريًا على يد عبد الرحمن بن ملجم عندما ضربه بسيفٍ مسمومٍ.

قُلْ لابنِ ملجمَ والأقدارُ غالبةٌ ... هدمتْ للدِّينِ والإسلامِ أركانَا
قتلتَ أفضلَ مَن يمشي على قدمٍ ... وأوَّلَ النَّاسِ إسلامًا وإيمانَا
وأعلمَ الناسِ بالقُرآنِ ثم بما ... سَنَّ الرَّسولُ لنا شرعًا وتبيانَا
صهرَ النَّبيِّ ومولاهُ وناصِرَهُ ... أضحتْ مناقبُهُ نُورًا وبُرهانَا
وكانَ منه على رغمِ الحَسودِ لهُ ... مكانَ هارونَ مِن موسى بنِ عِمرانَا[٣]

والخلاصة: أنَّ جيل الصحابة جيلٌ عظيمٌ، ومن هؤلاء العظماء علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- وهو من الذين لهم قدمُ صدْقٍ، وكان من أهل السبق إلى الإسلام وتربَّى في حجر رسول الله ﷺ. فرضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) يُنظَر: شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب (١/ ٢٢٦). شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، حقَّقه: محمود الأرناؤوط، خرَّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

(٢) رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٧٢٥). فضائل الصحابة، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقِّق: د. وصي الله محمد عبَّاس، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٣) الأبيات لبكر بن حمَّاد في رثاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه. يُنظَر: الحماسة المغربيَّة (٢/ ٧٩٥). (الحماسة المغربيَّة) مُختصَر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، المؤلف: أبو العبَّاس أحمد بن عبد السلام الجرَّاوي التادلي (المتوفى: ٦٠٩هـ)، المحقِّق: محمد رضوان الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩١م.



١٧ ربيع الأول
أمين الأُمَّة (أبو عُبيدة بن الجرَّاح)

هو صحابي جليل، وأحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة، أسلم مُبكِّرًا على يد أبي بكر الصِّدِّيق-رضي الله عنهما-، كان ممَّن هاجر إلى الحبشة، وصبر على أذى قريش.

هو أبو عُبيدة عامر بن عبد الله بن الجرَّاح الفهري القرشي- رضي الله عنه-، مشهور بكنيته وبالنسبة إلى جدِّه الجرَّاح، وأُمُّه أميمة بنت غنم، وُلِدَ سنة ٤٠ قبل الهجرة، ٥٨٤ م. وكان رجلًا نَحِيفًا مَعْرُوقَ الوجه، خَفِيفَ اللِّحْيَةِ، طُوَالًا.

لم تذكر المصادر التاريخيَّة شيئًا كثيرًا عن حياة أبي عُبيدة- رضي الله عنه- قبل الإسلام أو عن أُسرته برغم كونه قُرشيًّا، وذلك يُؤكِّد أنَّ حياة ذلك الصحابي الحقيقيَّة؛ بدأتْ مع إسلامه؛ فقد سارع- رضي الله عنه- إلى الإسلام في أيَّامه الأولى ليكون من السابقين الأوَّلين إلى الإسلام، فقد أسلم في اليوم التالي لإسلام أبي بكر- رضي الله عنه-، وكان إسلامه على يدي الصِّدِّيق نفسه، فمضى به وبعبد الرحمن بن عوف وبعثمان بن مظعون وبالأرقم بن أبي الأرقم- رضي الله عنهم- إلى النبي ﷺ، فأعلنوا إسلامهم بين يديه.

هاجر الهجرتين وشهد بدرًا وما بعدها، وثبت يوم أُحُد مع رسول الله ﷺ حين انهزم الناس، وهو الذي انتزع حلقتَي المغفر من وجه رسول الله ﷺ فسقطتْ ثنيتاه بسبب ذلك. يقول أبو بكر الصِّدِّيق- رضي الله عنه-: لما كان يوم أُحُد؛ ورُمِي رسول الله ﷺ حتَّى دخلتْ في وجنته حلقتان من المغفر، أقبلتُ أسعى إلى رسول الله ﷺ، وإنسانٌ قد أقبل من قِبَلِ المشرق يطير طيرانًا، فقلتُ: اللَّهُمَّ اجعلْه طاعة، حتَّى إذا توافينا إلى رسول الله ﷺ إذا هو أبو عُبيدة بن الجرَّاح قد سبقني، فقال: أسألك بالله يا أبا بكر أن تتركني فأنزعها من وجه رسول الله ﷺ فتركتُه، فأخذ أبو عُبيدة بثنيته إحدى حلقتَي المغفر، فنزعها وسقط على الأرض وسقطت ثنيته معه، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت، فكان أبو عُبيدة في الناس أثرم[1]، وكانت هذه الثرمة جعلتْ من ثغره أحسن ثغر.

وشهد له النبي ﷺ بالجنَّة: فعن عبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٤١١). الطبقات الكبرى، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، المحقِّق: إحسان عبَّاس، الناشر: دار صادر- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨ م.



الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ" رواه الترمذي(١).

كما لُقِّب بأمين الأُمَّة، لقَّبه بذلك رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فعن أَنَس بْن مَالِكٍ- رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ" متفق عليه(٢).

ولما قدم أهل نجران على النبيّ ﷺ وطلبوا منه أن يرسل إليهم رجلًا أمينًا، قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لَأَبْعَثَنَّ معكُمْ رَجُلًا أمِينًا حَقَّ أمِينٍ، فاسْتَشْرَفَ له أصْحابُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالَ: قُمْ يا أبا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ، فَلَمَّا قامَ؛ قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: هذا أمِينُ هذِه الأُمَّةِ" رواه البخاري ومسلم(٣).

كما كان لأبي عُبيدة مكانة عالية عند عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنهما-؛ فقد قال عنه عمر وهو يجود بأنفاسه:" لو كان أبو عُبيدة بن الجرَّاح حيًّا لاستخلفتُه، فإن سألني ربِّي عنه؛ قلتُ: استخلفتُ أمين الله وأمين رسوله ﷺ(٤).

وكان أبو عُبيدة زاهدًا في متاع الدنيا ورعًا؛ لما دخل أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب-رضي الله عنه- الشام تلقَّاه أُمراء الأجناد، فقال: أين أخي أبو عُبيدة؟ فقالوا: يأتي الآن، فجاء على ناقة مخطومة بحبل، فسلَّم عليه وأتى معه إلى منزله، فلم يَرَ فيه شيئًا إلَّا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر: لو اتَّخذتَ متاعًا؟ قال: يا أمير المؤمنين؛ إنَّ هذا يُبلغنا المقيل، فقال: كلُّنا غيَّرتْه الدنيا غيرَك يا أبا عُبيدة(٥).

وأرسل إليه عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنهما- يومًا بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار وقال لرسوله: انظرْ ما يصنع؟ فقسَّمها أبو عُبيدة، فلما أُخبِر عمر بما صنع أبو عُبيدة بالمال قال: الحمد لله الذي جعل في الإسلام مَن يصنع هذا(٦).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٥/٦٤٧) برقم (٣٦٨٦) أبواب المناقب. باب مناقب عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف الزهري رضي الله عنه. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٨/ ٢٤٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٥/١٧٢) برقم (٤٣٨٢) كتاب المغازي. باب قصَّة أهل نجران. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٨١) برقم (٢٤١٩) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل أبي عُبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٥/١٧١) برقم (٤٣٨٠) كتاب المغازي. باب قصَّة أهل نجران. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٨٢) برقم (٢٤٢٠) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل أبي عُبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٣/٣٢٥) برقم (٥٢٣١).

(٥) رواه معمر في جامعه (١١/ ٣١١). الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزَّاق)، المؤلف: معمَّر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن (المتوفى: ١٥٣هـ)، المحقِّق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

(٦) الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٣).



ومن مواقف أبي عُبيدة أيضًا؛ ما حدث بينه وبين عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنهما-، فإنَّه لما بلغ عمرَ أنَّ أبا عُبيدة حُصِر بالشام وتألَّب عليه العدو، فكتب إليه عمر: أمَّا بعد؛ فإنَّه ما نزل بعبدٍ مؤمنٍ شدَّة إلَّا جعل الله بعدها فرجًا، وإنَّه لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]. فكتب إليه أبو عُبيدة: أمَّا بعد، فإنَّ الله يقول: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2]، قال: فخرج عمر بكتابه فقرأه على المنبر فقال: يا أهل المدينة؛ إنَّما يُعرِّضُ بكم أبو عُبيدة أو بي، ارغبوا في الجهاد[3].

وعند فتح بيت المقدس عرضتْ لعمر مخاضة، فنزل عن بعيره ونزع خُفَّيْه فأمسكَها بيده وخاضَ الماءَ ومعه بعيره، وكان أبو عُبيدة في استقباله، فقال له أبو عُبيدة: قد صنعتَ اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض؛ صنعتَ كذا وكذا، فصكَّ عمر في صدره وقال: أوه، لو غيرك قالها يا أبا عُبيدة، إنَّكم كنتم أذلَّ الناس، وأحقرَ الناس، وأقلَّ الناس، فأعزَّكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزَّ بغيره؛ يذلَّكم الله عزَّ وجلَّ[4].

وكان رجلًا من الرجال الذين على أكتافهم انتشر الإسلام وقامت دولته، ولذلك تمنَّى عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه- أن يكون معه رجال أمثاله، فيُروى أنَّه قال لأصحابه ذات يوم: تمنَّوا، فقال بعضهم: أتمنَّى لو أنَّ لي هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله وأتصدَّق، وقال رجل: أتمنَّى لو أنَّها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه في سبيل الله وأتصدَّق، ثم قال عمر: تمنَّوا، فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنَّى لو أنَّها مملوءة رجالًا مثل أبي عُبيدة بن الجرَّاح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حُذيفة وحُذيفة بن اليمان[5].

---

(١) آل عمران: ٢٠٠.

(٢) الحديد: ٢٠.

(٣) رواه ابن المبارك في الجهاد (ص ١٦٤). الجهاد لابن المبارك، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١هـ)، حقَّقه وقدَّم له وعلَّق عليه: د. نزيه حماد، الناشر: الدار التونسية- تونس، تاريخ النشر: ١٩٧٢م.

(٤) يُنظَّر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٤/ ٥). تاريخ دمشق، المؤلف: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقِّق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١٠٢).



وقد تُوفِّيَ أبو عُبيدة بن الجرَّاح- رضي الله عنه- في طاعون عمواس (وهي قرية بين الرملة وبيت المقدس) سنة ثماني عشرة من الهجرة، عن ثمان وخمسين سنة، وقيل: مات بالأردن، وصلَّى عليه معاذ بن جبل- رضي الله عنهما-.

والخلاصة: أنَّ أبا عُبيدة صحابي جليل من السابقين الأوَّلين للإسلام؛ كان خامس خمسة أسلموا على يد أبي بكر الصِّدِّيق- رضي الله عنه-، وهو أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة، أمضى حياته مجاهدًا في سبيل الله، ومات في أرض الفتوح، كان ممَّن حضر غزوة بدر الكبرى، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، وحضر غزوة أحُد، وكان من الذين ثبتوا في ميدان المعركة، وكان من المدافعين عن النبي ﷺ.



١٨ ربيع الأول

عمر بن عبد العزيز

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو حفص القرشيّ الأموي، وأُمُّه أُمُّ عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنهما، كان حاكمًا عادلًا زاهدًا ورِعًا، مُحِبًّا للعلم والسُّنَّة، واشتُهر بذلك منذ صغره. كان يُلقَّب بأشجِّ بني أُميَّة؛ لأنَّه وقع عن فرس أبيه وهو صغيرٌ وشُجَّ رأسُه، وهو اللقب الأشهر له، كما كان يُلقَّب بالمهدي وبإمام الهُدى، وبخامس الخلفاء الراشدين.

وُلِدَ عُمر بن عبد العزيز في المدينة، وكان كثير التَّردُّد على عبد الله بن عُمر- رضي الله عنه-؛ لمحبَّته له، وكثرةِ تعلُّقهِ به، وكان يقولُ لأُمِّه: إنَّهُ يريدُ أن يُصبح مثله، وكان مولده في السنة الحادية والسِّتِّين للهجرة، ونشأ في نعيمٍ ورفاهيَّة، حيثُ كان أبوه أميرًا على مصر، وعمُّه الخليفة عبد الملك، ولكن هذا لم يمنعه من حفظ القُرآن الكريم، وتلقِّيه للعلم على يد أكابر الصَّحابة الكرام؛ كعُبادة بن الصَّامت، وعبد الله بن عُمر- رضي الله عنهما-. كما أنَّه تلقَّى العلم من كِبار التَّابعين؛ كسعيد بن المسيَّب، بالإضافةِ إلى تعلُّمه اللغة العربية، وممَّا زاد في استقامته ودينه تعلُّقهِ بِعَمِّ أُمِّه عبد الله بن عُمر- رضي الله عنه-، وذات يومٍ بعث أبوه إلى أُمِّه أن تَحْضر معه إلى مصر، فلمَّا عزمت على السَّفر مع ابنها عُمر جاءها عبد الله بن عُمر- رضي الله عنه- واستأذنها في بقاء ابنها معه، فوافقتْ على طلبه وأبقتْه معه، ولما وصلتْ إلى زوجها وأخبرتْه بذلك سُرَّ وكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان ليجعل له في كُلِّ شهرٍ ألفَ دينار. وقد نشأ عُمرُ في المدينة بين أخواله، وتعلَّم كثيرًا من الصَّحابة الكرام وتأثَّر بهم، كما كان كثير البُكاء من خشية الله تعالى، وخاصَّةً عند قراءتهِ للقُرآن، كما تأثَّر بوالده في طلب الحديث، وكان يذهب إلى العلماء والفقهاء؛ ليتعلَّم منهم، ممَّا دفعه إلى ترْك صُحبة أقرانه من الشباب، وكان يُكثِر الجلوس في مجالس العلم، ولا يُهدِر وقته إلَّا في القراءة أو الكِتابة أو المذاكرة، ممَّا أكسبه الذكاء والعلم والبصيرة والحِكمة والفقه، وكان لأُسرتِهِ فضلٌ كبيرٌ في تكوينِ شخصيته وعلمه، بالإضافةِ إلى إقباله على العلم منذ صغره، وتأثُّره ببيئته في المدينة، حيث عاش في مُجتمعٍ يسوده التقوى والصلاح.

تولَّى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد أن تولَّى سليمان بن عبد الملك الخلافة وعيَّنه مُستشارًا وناصحًا له، فلمَّا حضرتْ سليمان الوفاة أوصى بأن يكون عمر الخليفة من بعده؛ لِما رأى منه من



قُدرةٍ على تولِّي الحُكم، ورأى أيضًا صلاحه وتقواه، وكان عمر بن عبد العزيز قبل ذلك قد وِلي خلافة المدينة المنوَّرة في عهد الوليد بن عبد الملك، ونشَر فيها العدل والأمن، وساد فيها الهدوء والاستقرار، وجدَّد بناء المسجد النَّبويِّ، فأحبَّه أهل المدينة لِما بدا لهم من حُسْن خُلُقه وإتقان عمله، فأوصى سُليمان بالخلافة له مِن بعده، وأشهدَ مَن كان عنده، فلمَّا تُوفِّي أصبح عُمرُ أميرًا للمؤمنين، وصعد المنبر وقال:" إنَّ هذا لأمرٌ ما سألتُه اللهَ قط"، لكنَّ عُمر بخبرته في ولاية المدينة قُرابة سبعِ سنوات؛ اكتسب المهارة في ولاية الدولة، واشترط ثلاثة شروطٍ للولاية، وهي:

١- أن يعمل بالحق والعدل بين الناس، وأن لا يظلم أحدًا.

٢- أن لا يأخذ من بيت مال المسلمين، وألَّا يعطي إلَّا من كان له حقٌّ.

٣- أن يُسمَح له بالحجِّ في أوَّل سنةٍ من تولِّيه الخلافة وأن يبقى في المدينة.

وافق الجميع على هذه الشُّروط، فأصبح خليفةً للمُسلمين، وعيَّن عشرةً من فُقهاء المدينة للشُّورى، وحرص على أموال الدولة، وكان دقيقًا في اختيار ولاته على الأمصار بناءً على معرفته الكاملة بأخلاقهم وقُدراتهم، وكان يُراقبُ أعمالهم ويُتابعها، ومَنَعهم من الأعمال الأُخرى كالتِّجارة، وأعطاهم من المال ما يكفيهم ويُغنيهم عن طلب الرِّزق، واكتفى هو بالحياة الخشنة؛ استشعارًا منه بحجم المسؤولية التي أُوكلتْ إليه، فكان يُفكِّر بالجائع والمريض والمظلوم، الأمر الذي جعل منه شخصًا نحيف الجسم، خشن اليد. وذات يومٍ أراد النَّوم، فجاءهُ ابنه يسأله عمَّا يُريدُ فعله، فأجابه: أيْ بُنيَّ؛ أريد أن أغفو قليلًا، فلم تبق في جسدي طاقة، فقال له: أتنام قبل أن تَرُدَّ المظالم؟ فقام مع ابنه، وأعانه على ذلك، وقال: الحمد لله الذي أخرجَ مِن صُلبي مَن يُعينُني على ديني، وكانت مُدَّة خلافتهِ سنتين وخمسةَ أشهرٍ وأربعة أيَّام، كان خلالها حاكمًا عادلًا، ورعًا، لا تأخُذهُ في الله تعالى لومة لائم، وكانت مُبايعتُهُ بالخلافة سنة إحدى وستِّين من الهجرة.

حرص عمر بن عبد العزيز خلال مدَّة خلافته على الأمور الماليَّة للدولة الإسلاميَّة، فلم يتصرَّف في المال العام إلَّا بحِكمة وبدقَّة عالية، حتَّى فاضت الأموال وعاش المسلمون برخاءٍ وراحةٍ، فاستطاع عمر بن عبد العزيز على سبيل المثال أن يُعيِّن لكلِّ شخصٍ أعمى مُرافِقًا يقوده ويخدمه، ولكلِّ مريضٍ مُعينًا له يقضي حوائجه، ولكلِّ يتيمٍ مَن يخدمه ويعاونه في شؤونه، كما أنَّه قضى الدَّيْن عن الغارمين، وفكَّ رِقاب الأسرى، وجعل رواتب للعلماء وطلَّاب العلم والمؤذِّنين، وأعان مَن يريد الزواج.



ولكن يبقى تدوين السُّنَّة من أهمِّ الأعمال التي قام بها الخليفة، حيث كتب إلى علماء الأمصار بأن يجمعوا الأحاديث التي دوَّنوها ليجمعوها في دفاتر لتُحفَظ من النسيان والضياع، فجُمعتْ في دفاتر، فبُوِّبت السُّنَّة وصُنِّفتْ وحُفظتْ، وظهرت المصنَّفات الكبرى الخاصَّة بالسُّنَّة النَّبويَّة وتنوَّعتْ مناهجها.

تُوفِّي عمر بن عبد العزيز ١٠١هـ مسمومًا؛ حيث كان له مولى قد وضع له السُّمَّ في طعامه أو شرابه، وأخذ على فِعْلته هذه ألف دينار، وقد علم عمر بفِعْلته هذه فسأله عن السبب الذي حمله على فعل ذلك، فلمَّا علم أنَّه مِن أجل المال أخذه منه وأودعه بيت مال المسلمين، ثم طلب منه أن يختبئ خوفًا من أن يراه أحدٌ، ولما شعُر أنَّ أجله قد اقترب جمع أولاده وأوصاهم بتقوى الله تعالى، وأخبرهم بأنَّه ترك الدنيا وتجارتها لينال رضا الله تعالى ويفوز بالآخرة.

فلمَّا مات رثاه كثيرٌ من الشعراء؛ كان أبرزهم جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي، أحد أشهر شعراء العصر الأموي؛ حين قال:

تنعي النُّعاةُ أميرَ المؤمنينَ لنا ... يَا خيرَ مَن حجَّ بيتَ اللهِ واعتمرا

حُمِّلتَ أمرًا عظيمًا فاصطبرتَ له ... وقُمتَ فيه بأمرِ اللهِ يَا عُمرا

فالشَّمسُ كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ ... تبكي عليك نُجومُ الليلِ والقَمرا[١]

---

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (٢/ ٧٣٦). ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، المحقِّق: د. نعمان محمد أمين طه، الناشر: دار المعارف، القاهرة– مصر، الطبعة: الثالثة.



١٩ ربيع الأول

المرأة الصالحة

من الواجب على الشخص المؤمن أن يكون الدين مطمحَ نظرِه في كلِّ شيءٍ؛ خاصَّة في أمر المرأة التي يختارها زوجةً له، وأن يُؤثِر ذات الدين على غيرها، ثم يجب أن يلحظ صلاح المرأة ومنشأها والبيئة التي عاشت فيها، لأنَّ صلة الزوجيَّة أشدُّ وأقوى صلة حيويَّة اجتماعيَّة. قال ﷺ:" مَن رزقَه اللهُ امرأةً صالحةً فقد أعانه على شطر دينه، فلْيتقِ الله في الشطر الباقي" أخرجه الطبراني والبيهقي وصحَّحه الألباني(١).

ورحم الله الإمام الشافعي حيث يقول:

وإن تزوجتَ فكُن حـــاذِقًا ... واسألْ عن الغُصنِ وعن مَنبتِه

وابحثْ عن الصهرِ وأخوالِهِ ... من عُنصر الحيِّ وذي قُربتِه(٢)

ونظرًا لأهمِّيَّة صلاح الزوجة وما يعود على الزوج والأسرة من نفعٍ، فقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، فجاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾(٣)، فمِن طبيعة الزوجة المؤمنة الصالحة، ومن صفتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها؛ أن تكون قانتة مطيعة.

قال العلَّامة السعدي: وظيفتها: القيام بطاعة ربِّها وطاعة زوجها فلهذا قال: ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مُطيعات لله تعالى ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي: مُطيعات لأزواجهنَّ حتَّى في الغيب،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٢٩٤). والبيهقي في شُعب الإيمان (٧/ ٣٤١) برقم (٥١٠١). المعجم الأوسط، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقِّق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين– القاهرة. شُعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي– الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ– ٢٠٠٣ م. والحديث ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٢٠٠).

(٢) يُنظَر: مجموعة القصائد الزُّهديَّات، لا توردنَّ على سمعي من الكلم (ص ٤٢٨). مجموعة القصائد الزُّهديَّات، المؤلف: أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان (ت١٤٢٢هـ)، الناشر: مطابع الخالد للأوفسيت– الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ.

(٣) النساء: ٣٤.



تحفظ بعلها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهنَّ وتوفيقه لهنَّ، لا من أنفسهنَّ، فإنَّ النفس أمارةٌ بالسوء، ولكن مَن توكَّل على الله كفاه ما أهمَّه من أمر دينه ودنياه[١].

والسعادة مشروطة بما إذا كانت الزوجةُ صالحةً؛ قال ﷺ:" ثلاثٌ من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح" رواه أحمد[٢].

وقال أيضًا:" الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة" أخرجه مسلم[٣]؛ أي: الدنيا متاع زائل، وخير ما فيها من هذا المتاع المرأة الصالحة؛ لأنَّها تُسعِد صاحبها في الدنيا، وتُعينه على أمر الآخرة، وهي خير وأبقى.

سعادةُ المرءِ في خمسٍ إذا اجتمعتْ ... صلاحِ جيرانِه والبِرِ في ولدِه
وزوجةٍ حسُنتْ أخلاقُها وكذا ... خِلٌّ وفيٌّ ورزقٌ طاب في بلدِه[٤]

فالزوجة الصالحة إلى جوار ذلك تستقبل أوامر زوجها بكلِّ رحابةِ صدرٍ؛ ما لم يأمرْها بمعصية لله الواحد الدَّيَّان، تفعل ذلك لأنَّها ترجو من أن تكون ممن شهد النبيُّ ﷺ لهنَّ بالخيريَّة؛ ففي مسند الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- قَالَ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ: الَّتِي تَسُرُّهُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَهَا، وَلَا تُخَالِفُهُ فِيمَا يَكْرَهُ فِي نَفْسِهَا وَلَا فِي مَالِهِ[٥].

والمرأة الصالحة تتكلَّم مع زوجها بكلِّ أدبٍ واحترامٍ، لعلْمها بعظيم حقِّه عليها؛ مُتذكِّرةً قول النبي ﷺ:" لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ؛ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا" رواه ابن ماجه[٦].

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ١٧٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٥٥) برقم (١٤٤٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١٧١/٥) برقم (٤٣٨٠) كتاب المغازي. باب قصَّة أهل نجران. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٩٠) برقم (١٤٦٧) كتاب فضائل الرضاع. باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة.

(٤) يُنظَر: الهدي النبوي في تربية الأولاد في ضوء الكتاب والسُّنَّة (ص ٣٨). الهدي النبوي في تربية الأولاد في ضوء الكتاب والسُّنَّة، المؤلف: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

(٥) رواه أحمد في مسنده (١٥/ ٣٦٠) برقم (٩٥٨٧). والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٤٥٣).

(٦) رواه أحمد في مسنده (١٨/٤١) برقم (٢٤٤٧١). وأبو داود في سننه (٢٤٤/٢) برقم (٢١٤٠) كتاب النكاح. باب في حقِّ الزوج على المرأة. والترمذي في جامعه (٣/ ٤٥٧) برقم (١١٥٩) أبواب الرضاع. باب ما جاء في حقِّ الزوج على المرأة. وابن ماجه في سننه (٥٩٥/١) برقم (١٨٥٢) كتاب النكاح. باب حقِّ الزوج على المرأة. والحديث صحَّحه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٧/ ٥٤).



كما أنَّ المرأة الصالحة تسعى لكسب رضا زوجها بشتَّى الوسائل، لأنَّها تعلم أنَّ في رضاه رضا الرحمن، وفي سخطه سخط الجبَّار، علَّمها ذلك خير البرية ﷺ حينما أوصى تلك المرأة فقال لها: أَذَاتُ زَوْجٍ أَنْتِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ أَنْتِ لَهُ؟ قَالَتْ: مَا آلُوهُ إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ، قَالَ:" فَانْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ"رواه أحمد(١).

ولذلك قال أيضًا:" أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ "رواه الترمذي(٢).

وقد ضرب الله تعالى لعباده المؤمنين مثلًا بامرأة، فقال الله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣).

قال العلامة السعدي: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ وهي آسية بنت مزاحم- رضي الله عنها- ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرُّع لربِّها، وسؤالها لربِّها أجلَّ المطالب، وهو دخول الجنَّة، ومجاورة الربِّ الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كلِّ ظالمٍ، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمانٍ كاملٍ، وثباتٍ تامٍّ، ونجاةٍ من الفتن(٤).

والسؤال الذي يشغل بال الكثيرين: كيف يصل المسلم إلى الزوجة الصالحة؟

أوَّلًا: عليه بالدعاء؛ فهو وسيلةٌ نافعةٌ في كلِّ الأحوالِ، فدعاء زكريا ربَّه: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾(٥). فبسبب دعائه وهبَهُ اللهُ تعالى يحيى، وأصلح له زوجه بأن جعلها ولودًا بعد العقر؛ حسنة الخَلْق والخُلُق.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣١/ ٣٤١) برقم (١٤٤٥). والحديث صحَّح إسناده الألباني كما في آداب الزفاف في السُّنَّة المطهَّرة (ص ٢٨٥). آداب الزفاف في السُّنَّة المطهَّرة، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار السلام، الطبعة الشرعية الوحيدة ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢ م.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٤٥٨) برقم (١١٦١) أبواب الرضاع. باب ما جاء في حقِّ الزوج على المرأة. وابن ماجه في سننه (١/٥٩٥) برقم (١٨٥٤) كتاب النكاح. باب حقِّ الزوج على المرأة. والحديث قال عنه الألباني: منكر. كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (٣/ ٦١٦).

(٣) التحريم: ١١.

(٤) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٧٥).

(٥) الأنبياء: ٨٩-٩٠.



ثانيًا: البحث عن ذات الدين؛ فلا يتوقَّف المسلم عند الدعاء فقط، بل عليه أن يأخذ بالأسباب، ويبحث عن ذات الدين؛ لأنَّها هي التي تُسعِد زوجها، وتُرضي ربَّها، وتُربِّي أبناءها، ولا ينشغل بجمال المظهر فقط.

ليس الجَمالُ بأثوابٍ تُزيِّننا　　　إنَّ الجَمالَ جَمالُ العلمِ والأدبِ[١]

ثالثًا: الاستخارة الشرعيَّة؛ فإذا وجد ذات الدين فعليه أن يستخير الله تعالى فيها، فالله عزَّ وجلَّ يعلم خفايا الأمور وخبايا النفوس، فتقول كما علَّمَنا رسولُنا ﷺ:" اللَّهُمَّ إِنِّي أستخِيرُك بعِلمِكَ، وأسْتَقْدِرُكَ بقدرتِكَ، وأسأَلُكَ مِن فَضْلِكَ العَظِيمِ، فإنَّك تَقدِر ولا أقْدِر، وتعْلَمُ ولا أعْلَم، وأنتَ علَّامُ الغُيوبِ، اللَّهُمَّ إن كُنت تعْلَمُ أنَّ فِي زَوَاجِي مِنْ فُلَانةٍ (ويُسمِّيها) خيرًا لي في دِينِي ومَعَاشِي وعاقِبَةِ أمْرِي؛ فاقْدُره لي ويسِّرْهُ لي ثمَّ بَارِك لي فِيه، وإن كُنتَ تعْلَمُ أنَّ في زَوَاجِي مِنْهَا شَرًّا لي في دِينِي ومعاشِي وعاقبةِ أمْرِي؛ فاصرِفْهُ عنِّي واصْرِفْنِي عنه واقْدر لي الْخَيرَ حيثُ كان، ثمَّ أرْضِنِي بِهِ" وأصل الحديث في البخاري[٢].

والخلاصة: أنَّه على المسلم أن يُحسن اختيار زوجته، لأنَّه متى أحسنَ الاختيار نتجَ عن ذلك سعادةٌ له، وعونٌ على دينه، وجيل منضبط مستقيم، وإذا أساء الاختيار جنى المرَّ والحنظل، وخرج لنا جيلٌ مُعوَّج.

وقد أجمل النبي ﷺ شروط اختيار الزوجة في الحديث الذي قال فيه:" تُنْكَحُ المرْأَةُ لأرْبَعٍ: لِمالِها، ولِحَسَبِها، وجَمالِها، ولِدِينِها، فاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَداكَ " رواه البخاري[٣].

---

(١) يُنظَر: موارد الظمآن لدروس الزمان (٢/ ١٥). موارد الظمآن لدروس الزمان، خُطب وحِكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حِسان، المؤلف: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤هـ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/٨١) برقم (٦٣٨٢) كتاب الدعوات. باب الدعاء عند الاستخارة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٧/٧) برقم (٥٠٩٠) كتاب النكاح. باب الأكفاء في الدين. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٨٦) برقم (١٤٦٦) كتاب الرضاع. باب استحباب نكاح ذات الدين.



٢٠ ربيع الأول

وكان أبوهما صالحًا

صلاح الولد قرة عين الوالد، ومُنَى نفسِه حين يغدو صلاح ولده- ابنًا كان أو بنتًا- بركةً عليه؛ يتفيَّؤ ظلالها، وينعم برُوحها، ويرجو بِرَّها وذُخْرَها في الدارين. ولذلك يسعى الوالد باحثًا أسبابَ صلاح ولده.

والقرآن الكريم والواقع المشاهَد يُؤَكِّدان على أنَّ صلاح الآباء واستقامتهم؛ له دورٌ كبيرٌ في صلاح الأبناء وتوفيقهم، ذلك لأنَّ للآباء دورًا كبيرًا في تنشئة الأبناء، وأثرًا عميقًا في صلاحهم، والوالد مرآة ابنه، ومحلُّ النظر الأوَّل في الأسوة والقدوة، فصلاح الأبناء مُرتبِطٌ بصلاح الآباء، وإذا فسد الآباء فسد الأبناء، وفي سورة الكهف في قصَّة موسى مع الخضر- عليهما السلام- قال تعالى على لسان الخضر: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾(١)، لقد حفظ الله الكنز لليتيمَينِ ببركة صلاح أبيهما، وأرسل الله رَجُلَينِ عظيمَينِ موسى والخضر- عليهما السلام-، فحينما نزل الرجلان إلى القرية وطلبا من أهلها الضيافة، وكان أهلها بخلاء أشحاء فضنُّوا عليهما حتَّى بشربة ماء، ومع هذا عندما وجد العبد الصالح جدارًا أوشك على السقوط؛ شمَّر عن ساعده وقابل البخل بالكرم والمعروف، وأعاد بناء هذا الجدار، ولما سُئل في ذلك قال: إنَّ الجدار كان لغلامين يتيمين في المدينة، وأنَّ هناك كنزًا تحت هذا الجدار، وأنَّ أبوَيْهما صالحان، فأبقى الله تعالى أثر صلاح الوالدَينِ في أولادهما، وقد ذكر بعض المفسرين أنَّه كان الجدَّ السادس، أو السابع، أو العاشر، وقال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-:" حُفِظا بصلاح أبيهما، ولم يُذكَر لهما صلاح" أي: لم يُبيِّن لنا القرآن: هل كان الأولاد صالحِينَ كآبائهم كي يستحقُّوا هذه المكافأة أم لا ؟!!

فصلاح الأبناء ينسحب خيرًا للآباء، وكذلك صلاح الآباء، فقد كان تحت هذا الجدار كنزٌ لهما، وَرِثَاه عن أبيهما الصالح فيما يظهر، والكنز هو المال الكثير المدفون في باطن الأرض، وهذا الكنز مُضيَّعٌ إن لم يُستخرَج، وقد أراد الله تعالى أن يستخرج كنزهما.

(١) الكهف: ٨٢.

إنَّ هذه الآية الكريمة تُمثِّل قاعدةً ربانيَّةً، لكلِّ أبٍ أو أُمٍّ يُريدان الصلاح والنجاح لأبنائهما، فعليهما أن يُصلحا من أنفسهما أوَّلًا، ويجِدَّا في طاعة الله والاستقامة على منهجه، ليحفظ الله ذرِّيَّتهما، وأولادهما من بعدهما.

والغلامان كانا صغيرَين كما يدلُّ على ذلك وصفهما باليُتم، فإنَّه لَا يُتم بعد البلوغ إلَّا أن تكون آفة في العقل أو النفس، واللفظ يُطلَق على ظاهره ما لم يقم دليلٌ يُوجب تحويله عن الحقيقة إلى المجاز، وإطلاق اليُتم على البالغ مجاز، ولقد قال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- في هذا المجاز: الرجل يتيم ما لم يرشد ولو بلغ الأربعين، ولكنَّ ذلك مجازٌ لا حقيقة. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ الأب هو الأب القريب؛ لأنَّه لا يكون يتيمًا إلَّا إذا كان قد فَقَدَ الأب القريب، وكما يكون الصلاح مُمتدًّا من الآباء إلى الأبناء فإنَّ العكس أيضًا صحيح؛ فصلاح الأبناء ينفع الآباء، كما قال النبي ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلَّا من ثلاثٍ: صدقة جارية، وعلم يُنتفَع به، وولد صالح يدعو له" رواه مسلم[١].

و يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: فيه دليلٌ على أنَّ الرجل الصالح يُحفَظ في ذرِّيَّته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنَّة لتقرَّ عينُه بهم[٢].

وقد جرت العادة في الغالب أن يفسد الناس بفساد كبرائهم وأن يستقيموا باستقامتهم، ويرتبط صلاح الأبناء بتقوى الآباء؛ لأنَّ الولد يتبع أباه في أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته؛ فالولد ظلُّ أبيه ولا يستقيم الظلُّ والعود أعوج، فإذا فسد الآباء فسد الأبناء، ولو تأمَّلْنا هذه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[٣]؛ لوجدنا أنَّ القرآن يضع لنا قاعدة ربانيَّة هي: أنَّ مَن أراد أن يُنجي نفسه ويُنقذ أبناءه مِن بعده؛ فعليه بتقوى الله ومخافته؛ فالذين يتَّقون الله في الذُّرِّيَّة الضعيفة يضمنون أنَّ الله سيرزقهم بمَن يتَّقي الله في ذُرِّيَّتهم الضعيفة، ومعنى الآية أَي: ولْيخشَ مَن كان له أولادٌ صغارٌ خافوا عليهم من بعدهم الضيعة؛ أن يتَّقوا الله وسوف يرزقهم بمَن يتَّقي الله في ذُرِّيَّتهم الضعيفة؛ فتقوى الآباء وصلاحهم لها دورٌ كبيرٌ في صلاح أبنائهم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/٧) برقم (٥٠٩٠) كتاب النكاح. باب الأكفاء في الدين. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢٥٥) برقم (١٦٣١) كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ١٨٦).

(٣) النساء: ٩.



إنَّ تقوى الوالدَينِ وأعمالهم الصالحة لها أثرٌ عظيمٌ في صلاح أبنائهم ونفعهم في الدنيا والآخرة، وقد ورد عن بعض السلف أنَّه قال لابنه:" يا بُنيَّ؛ لأزيدنَّ في صلاتي من أجلك"[١]، فقال بعض العلماء: معناه سأُصلِّي كثيرًا وأدعو الله لك كثيرًا في صلاتي، وورد عن عمر بن عبد العزيز عندما سُئل وهو على فراش الموت: ماذا تركتَ لأبنائك يا عمر؟ قال: تركتُ لهم تقوى الله، فإن كانوا صالحين فالله تعالى يتولَّى الصالحين، وإن كانوا غير ذلك فلن أترك لهم ما يُعينهم على معصية الله تعالى[٢].

وقال الإمام ابن القيِّم: أكثر الأولاد إنَّما جاء فسادُهم من قِبَل الآباء، وإهمالهم لهم، وترْك تعليمهم فرائض الدين وسُننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوهم كبارًا[٣].

وقد ورد في قصَّة الرَّجُل الصالح والد عبد الله بن المبارك الذي كان يعمل حارسًا لبستان أحد الأثرياء، وذات يوم طلب منه صاحب البستان أن يُحضِر له رمانًا حُلوًا فأحضره فإذا هو حامض، فغضب مولاه ثم تكرَّر ذلك ثلاث مرَّات وفي كلِّ مرَّةٍ يكون الرمان حامضًا؛ فقال له مولاه: أنت لا تعرف الحامض من الحُلو؟ فقال المبارك: ما أكلتُ منه شيئًا حتَّى أعرفه؛ فقال: لمَ لمْ تأكل؟ قال المبارك: لأنَّك ما أذِنتَ لي بالأكل منه؛ فعجب صاحب البستان وعظم في عينه وزاد قدره عنده، وكان لصاحب البستان له بنت خُطِبت كثيرًا، وذات يوم قال لمبارك: يا مبارك؛ مَن ترى نُزوِّج هذه البنت؟ فقال: أهل الجاهلية كانوا يُزوِّجون للحسب، واليهود للمال، وهذه الأُمَّة للدين؛ فأعجبه عقله وأخبر الرجل زوجته، وقال لها: ما أرى لهذه البنتِ زوجًا غير المبارك، فتزوَّجَها وكان من ثمرة ذلك" عبد الله بن المبارك"[٤].

---

(١) ذكره ابن رجب عن سعيد بن المسيب رحمهما الله. يُنظَر: جامع العلوم والحكم (١/ ٤٦٧). جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقِّق: شعيب الأرناؤوط- إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(٢) ذكره بهذا المعنى ابن عثيمين كما في تفسير العثيمين النساء (ص ٣٢٨). تفسير القرآن الكريم (سورة النساء) ، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩ م.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود (ص ٢٢٩). تحفة المودود بأحكام المولود، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقِّق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان- دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٩١ هـ- ١٩٧١ م.

(٤) يُنظَر: الرزق أبوابه ومفاتحه (ص ٢٧، بترقيم الشاملة آليًّا). الرزق أبوابه ومفاتحه، المؤلف: عبد الملك بن محمد القاسم، الناشر: دار القاسم.

والخلاصة: أنَّ مَن أرادَ أن يحفظ الله له ذُرِّيَّته مِن بعده؛ فلْيتقِ الله وليُحسنْ ولْيعلمْ أنَّ بصلاح الآباء تنصلح الذُّرِّيَّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[١].

(١) النساء: ٩.

٢١ ربيع الأول

إنَّهم فتية آمنوا بربِّهم

ما ارتقت الأُمَّة الإسلاميَّة إلى ذروة المجد والعَظمة إلَّا بفتية آمنوا بربِّهم فزادهم هُدًى، كان الإيمان يملأ صدورهم، والإسلام هو الذي يُسيِّر حياتهم، فرفعوا راية الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فلمَّا تخلَّى هؤلاء الفتية عن رسالتهم، وتنازلوا عن قيمهم ومبادئهم؛ هوت أُمَّة الإسلام من ذروة المجد والعظمة إلى حضيض الذُّلِّ والهوان، ولكنَّها ما زالت خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجت للنَّاس.

قال تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[1].

قال العلَّامة السعدي: هذا شروعٌ في تفصيل قصَّتهم، وأنَّ الله يقصُّها على نبيِّه بالحقِّ والصدق، الذي ما فيه شكٌّ ولا شُبهةٌ بوجهٍ من الوجوه، ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾وهذا من جموع القِلَّة، يدلُّ ذلك على أنَّهم دون العشرة، ﴿ ءَامَنُواْ﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدًى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان؛ زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾[2].[3]

فمَن هؤلاء الفتية؟ وما شأنهم؟ ولماذا اعتزلوا قومهم، وهجروا ديارهم، وفارقوا أهلهم؟ لماذا تجرَّدوا من زينة الأرض ومتاع الحياة؟ ما هي القضية التي تشغلهم؟

إنَّهم أشدَّاء في أجسامهم، أشدَّاء في إيمانهم، أشدَّاء في استنكار ما كان عليه القوم، كانوا بين خيارين: إمَّا أن يرضوا بمتاع الحياة الدنيا وزخرفها، أو يفرُّوا بدينهم وعقيدتهم، فاختاروا ما جعل لهم قيمة وشأنًا، إنَّه الإيمان، قال عنهم سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾[4]

فبالإيمان انقلب الكهف إلى مأوى كما قال الله: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[5]، ومن آثار الإيمان وثمراته تثبيت الله لأهله، قال الله: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[6].

---

(١) الكهف: ١٣.

(٢) مريم: ٧٦.

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٧١).

(٤) الكهف: ١٣.

(٥) الكهف: ١٦.

(٦) الكهف: ١٤.



إنَّ الاعتراف بالعبودية عزَّةٌ يعتزُّ بها أصحاب الكهف كما قال الله عنهم: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١]، وليست عزَّة أعظم من أن تكون عبدًا لله.

إنَّ القلوب المؤمنة تعلم أنَّ ما على الأرض إنَّما جُعِل للابتلاء والامتحان، وأنَّ نهاية هذا الكون إلى الفناء والزوال، قال الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[٢].

والشباب أقبل للحقِّ، وأهدى للسبيل، ولقد كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ هم الشباب، فكُتَّاب الوحي هم الشباب، وحفظة السُّنَّة هم الشباب، وسفراء رسوله ﷺ هم الشباب، وشعراؤه ﷺ هم الشباب، وقادة الجيوش يمنة ويسرة هم الشباب، فعلى أكتافهم تقوم الحضارات، وتنهض الأمم.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[٣]، فالشباب هو قوَّةٌ بين ضَعْفَين: قوَّةٌ بين ضعف الطفولة، وضعف الشيخوخة، وما بكت العرب على شيءٍ كما بكت على الشباب، حتَّى قال قائلهم:

ألَا ليتَ الشبابَ يعودُ يومًا ... فأخبرَه بما فعلَ المشيبُ[٤]

الشباب فترةٌ زمنيَّةٌ لها قيمتها ومكانتها في الحياة، فهي باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله، كما أنَّ أطيب الثمار بواكيرها، والشباب مرحلة الفتوَّة والنضارة، فالشباب هم رجال الغد، وآباء المستقبل، وعليهم مهمَّة تربية الأجيال القادمة، وإليهم تؤول قيادة الأُمَّة في جميع مجالاتها.

ومن هنا يتأتَّى دور الأسرة والمربِّين في توجيهها إلى الخير، وبذْل مزيدٍ من التربية والرعاية والاهتمام.

وينشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ منَّا ... على ما كانَ عوَّدَه أبوهُ

---

(١) الكهف: ١٤.

(٢) الكهف: ٧،٨.

(٣) الروم: ٥٤.

(٤) البيت لأبي العتاهية. يُنظَر: نهاية الأرب في فنون الأدب (٢/ ٢٦). نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤلف: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.



وما دانَ الفتى بحُجا ولكن   يُعوِّدُه التديُّنَ أقربُوهُ[١]

وفي تعليم الآداب الشرعيَّة؛ يقول ﷺ لعمر بن أبي سلمة- رضي الله عنه:" يا غلام؛ سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ ممَّا يليك" رواه البخاري ومسلم[٢]، وقال لابن عبَّاس- رضي الله عنهما- :" يا غلام؛ إنِّي أُعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك" رواه أحمد والترمذي[٣].

وقد اهتمَّ الإسلام بالشباب؛ فجاء ذِكْرهم في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لبيان فضْل هذه المرحلة وأهميتها ولفت الأنظار إليها، فيذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم من قصص المرسلين، والصالحين الأوَّلين ما فيه هداية للبشر، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[٤]، والقدوة بهم في إيمانهم ودعوتهم وصبرهم، وقد قال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-: ما بعثَ اللهُ نبيًّا إلَّا شابًّا، ولا أوتي العلمَ عالمٌ إلَّا وهو شابٌّ[٥].

ومن حديث القرآن عن قصص الشباب التي تَروي مآثر جليلة؛ قصَّة الخليل إبراهيم- عليه السلام- فيحكي القرآن ما قال قومه عنه: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[٦]، قال ابن كثير:" أي شابًّا [٧]".

---

(١) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٨/ ٢١٦، بترقيم الشاملة آليًّا). مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، المؤلف: أحمد قبش بن محمد نجيب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٨/٧) برقم (٥٣٧٦) كتاب الأطعمة. باب التسمية على الطعام والأكل باليمين. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٥٩٩) برقم (٢٠٢٢) كتاب الوصية. باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٤٨٧) برقم (٢٧٦٣). والترمذي في جامعه (٤/ ٦٦٧) برقم (٢٥١٦) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع. باب بدون ترجمة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٦/ ١٦).

(٤) الممتحنة: ٤.

(٥) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقِّه (٢/ ١٧٧). الفقيه والمتفقِّه، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقِّق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي– السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١ هـ. والأثر قال عنه الألباني:" موقوف ضعيف" كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيِّئ في الأُمَّة (٩/ ٤٢٤).

(٦) الأنبياء: ٦٠.

(٧) تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٣٤٩).



وفي القرآن سورة تتحدَّث عن قصَّة يوسف- عليه السلام-، وفيها من العِبَر والفوائد الشيءُ الكثيرُ، وهو أحسن قدوة للشابِّ في العفَّة والطُهر، وإيثار مرضاة الله، وإن ناله في الدنيا ما ناله من تعبٍ وعناءٍ.

وقد اشتدَّ حرصه ﷺ وتوجيهه للشباب، وظهرت عنايته الفائقة بهم، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" سبعةٌ يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه، منهم : شابٌّ نشأ في طاعة الله" رواه البخاري ومسلم[1].

الخلاصة: أنَّ الشباب هم أمل الأُمَّة، وعلى أكتافهم تُرفَع كلمة الإسلام، وتعلو خفاقَّة في كلِّ مكانٍ، لذلك ينبغي أن تُولي المؤسَّسات كلُّها اهتمامًا بالغًا بالشباب، فهم سواعد الأُمَّة التي تبني وتُعمِّر، وهم حملة الدين، وهم شباب اليوم، صانعو المستقبل.

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/١٣٣) برقم (٦٦٠) كتاب الأذان. باب مَن جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضْل المساجد. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة. باب فضْل إخفاء الصدقة.



٢٢ ربيع أول
سبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ

روى البخاري ومسلم في صحيحَيْهما عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال:" سبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ، يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبُه مُعلَّقٌ في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله؛ اجتمعا عليه، وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجَمالٍ، فقال: إنِّي أخاف الله، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتَّى لا تعلم شمالُه ما تُنفِقُ يمينُه، ورجلٌ ذَكَرَ الله خاليًا ففاضتْ عيناه"(١).

إنَّ لهذا الحديث أهمية عظيمة، جعلت العلماء يفردونه بالتأليف والشرح والبيان، بل لو أُفرِد كُلُّ واحدٍ من هؤلاء السبعة برسالةٍ مُستقِلَّةٍ لكان حريًّا بذلك، كما قال ابن عبد البَرِّ رحمه الله. وقد ألَّف في ذلك ابن حجر كتابًا أسماه" معرفة الخصال الموصِّلة إلى الظلال"، وللسيوطي كتاب" تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش"، وللسخاوي كتاب" الاحتفال بجمع أولي الظلال" وغيرهم.

واختُلفَ هل ذِكْر العدد سبعة في هذا الحديث له مفهومٌ فيُفيدُ الحصر، أم أنَّه لا مفهوم له؟

فقيل: إنَّ العدد في حديث الباب لا مفهوم له، فلا ينحصر عددهم بهؤلاء السبعة، ولذا جمع العلماء مَن ورد فيه هذا الفضل أن يُظِلَّه في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه؛ حتَّى أوصلوا عددهم إلى السبعين. وقيل: إنَّ العدد في الحديث له مفهوم، والفضل مقصور على هؤلاء السبعة، وأمَّا غيرهم ممَّا ذكر في الأحاديث الأخرى فيندرج تحت صنف من هذه الأصناف السبعة.

وهؤلاء الأصناف الذين ذُكِروا في الحديث؛ يستظلُّون يوم القيامة بظلٍّ ظليلٍ، فهم إمَّا أن يستظلُّوا بظلِّ العرش، أو أنَّ الله تعالى يخلق لهم ظلًّا جزاءً لهم على طاعتهم.

وأمَّا الأصناف السبعة فهم كالتالي:

الأوَّل: إِمَامٌ عَادِلٌ: والمراد به الحاكم أو السلطان، ويدخل فيه القاضي أيضًا، وكُلُّ مَنْ له ولايةٌ على غيره، وفي الحديث:" إنَّ المقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ علَى مَنابِرَ مِن نُورٍ، عن يَمِينِ الرَّحْمَنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِمْ وأَهْلِيهِمْ وما ولوا " رواه مسلم(٢)، وهو الذي يتبع أمْر الله تعالى

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/١٣٣) برقم (٦٦٠) كتاب الأذان. باب مَن جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضْل المساجد. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة. باب فضْل إخفاء الصدقة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٥٨) برقم (١٨٢٧) كتاب الإمارة. باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر.



بوضع كُلِّ شيءٍ في موضعه من غير إفراطٍ ولا تفريطٍ، وقد قُدِّم الإمام العادل في الذِّكْر لعموم النفع به؛ فنفعُه مُتعدٍّ، فإن عدل عدل مَنْ تحته وصلحت أحوال الناس.

الثاني: وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ: وخصَّ الله تعالى الشابَّ دون الصغير أو الكبير في السِّنِّ؛ لأنَّ الشباب مظنَّة غلبة الشهوة، فباعث الهوى والشهوة والانحراف فيه قوي، فإذا لازم العبادة مع ذلك كان أدلَّ على غلبة التقوى، ومعلومٌ أنَّه لا عصمة إلَّا للأنبياء، فلا يمكن أن يوجد مسلم بلا ذنوب؛ شابًّا كان أو غير شابٍّ، لأنَّ بني آدم خطَّاؤون لا محالة.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: والثاني شابٌّ نشأ في عبادة ربِّه، فمنذ الصغر وهو في العبادة، فهذا صارت العبادة كأنَّها غريزةٌ له، فألِفَها وأحبَّها، حتَّى إنَّه إذا انقطع يومًا من الأيام عن عبادةٍ تأثَّر[١].

الثالث: وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ: أي مُحِبٌّ للمساجد حُبًّا شديدًا، ومن شدَّة حُبِّه تعلَّق قلبُه بها؛ وإن كان جسده خارجًا عنها، فالمقصود طول الملازمة بالقلب حتَّى يعود إليها، ويتردَّد إلى صلاة الجماعة والقراءة والذِّكْر فيها، ويشهد لذلك رواية مسلم الأخرى:" ورجلٌ مُعلَّقٌ في المسجد إذا خرج منه حتَّى يعود إليه"[٢]، قال الإمام النووي: (مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ) وفي بعضها (مُتعلِّقٌ) بالتاء، وكلاهما صحيح، ومعناه شديد الحُبِّ لها والملازَمةِ للجماعة فيها، وليس معناه دوام القعود في المسجد[٣].

الرابع: وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ: أي داما على الحُبِّ في الله، ولم يقطعاه أبدًا سواء اجتمعتْ أجسادهم أم لم تجتمع في الدنيا حتَّى فرَّق بينهما الموت.

وهذه الخصلة مع السبعة؛ فيها بيانُ فضْلِ الله تعالى على عباده حتَّى عدَّها البعض من أيسر الخصال تحقُّقًا، وهذا بحمد الله تعالى مُشاهَدٌ كثيرًا بين مَن يستشعرون هذه العبادة.

الخامس: وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، أي طلبتْه لفعْل الفاحشة والزنا بها، وهذه أوَّل الدواعي في هذه الخصلة: الطلب جاء منها، وثاني الدواعي: أنَّها ذات منصب أي أصل وشرف ومال، وثالثها: أنَّها ذات جمال، ولا يمتنع عن ذلك مع وجود هذه الدواعي؛ إلَّا

---

(١) شرح صحيح البخاري (٧٩/٣). شرح صحيح البخاري لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، قسم التحقيق والبحث العلمي بالمكتبة الإسلامية، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧١٦) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة. باب فضْل إخفاء الصدقة.

(٣) شرح النووي على مسلم (٧/ ١٢١).

قلبٌ عظُمَ فيه الخوف من الله، وخُصَّ المنصب والجمال لشّدة رغبة الناس فيهما وحرصهم عليهما وصعوبة حصولهما.

السادس: وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُه: والمقصود من ذلك هو المبالغة في الإخفاء والاستتار بالصدقة عند بذلها، بحيث لا تعلم الشمال بما تصدَّقت اليمين مع قُربها وملازمتها له، فضرب المثال هنا لبيان المبالغة في الإخفاء وطلب الإخلاص، وليس المراد ظاهر المثال بأن يُخفي شماله عند بذْل يمينه للصدقة، وقوله: تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ؛ جاءت نكرة لتفيد العموم، فيشمل كُلَّ ما يُتصدَّق به من قليلٍ أو كثيرٍ، وفي صدقة السِّرِّ خيرٌ عظيمٌ، فإنَّ صدقة السِّرِّ أقربُ إلى الإخلاص وأبعدُ عن الرياء، وفي صدقة السِّرِّ مراعاةٌ لحال الفقير واحترامٌ لشعوره لا سيَّما المتعفِّف منهم.

السابع: وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ: أي سالتْ دموع عينيه، وفي إيراد هذه الخصلة فضْل البكاء من خشية الله تعالى، أو شوقًا لما عند الله . وأعظمه النظر إلى وجهه الكريم، وللبكاء عند ذكر الله تعالى فضلٌ عظيمٌ، فعَند الترمذي عن ابْنِ عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"(١).

والخلاصة: أنَّ يوم القيامة ليس فيه ظِلٌّ إلَّا ظل الله، لا أشجار، لا استراحات، لا صالات، لا مُكيّفات، الشمس دانيةٌ من الرؤوس، بيننا وبينها مقدار ميل، فعلى المسلم أن يبادر إلى أبواب الخير والبِرِّ والطاعات؛ حتَّى يأتي آمنًا يوم القيامة، وفي ظِلِّ عرش الملِك سبحانه وتعالى.

وقد نظم العلَّامة أبو شامة هؤلاء السبعة فقال:

وقال النبيُّ المصطفى إنَّ سبعةً ... يُظلُّهم اللهُ الكريمُ بظلِّهِ

مُحبٌ عفيفٌ ناشئٌ مُتصدِّقٌ ... وباكٍ مُصلٍّ والإمامُ بعدلِهِ

ثم زاد الإمام ابن حجر بَيتَينِ ذَكَرَ فيهما سبعة آخرين فقال:

وَزِدْ سبعةً: إظلالُ غازٍ وعَوْنُه ... وإنْظارُ ذي عُسْر وتخفيفُ حِمْلِهِ

وإرفادُ ذي غُرْمٍ وعَونُ مُكاتَبٍ ... وتَاجِرُ صِدْقٍ في المقالِ وفعلِهِ(٢)

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ١٧٥) برقم (١٦٣٩) أبواب فضائل الجهاد. باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٤/ ١٣٩).

(٢) يُنظَر هذه الأبيات التي لأبي شامة مع الزيادات للحافظ ابن حجر في فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٤٣- ١٤٤).



٢٣ ربيع الأول

واعبدْ ربَّك حتَّى يأتيك اليقين

يَمتازُ دِينُنا الحَنيفُ أنَّهُ دَائِمُ الصِّلَةِ باللهِ تعالى؛ فلا يَنفكُّ المسلِمُ عن ربِّهِ بمُجرَّدِ ذَهابِ شَعِيرةٍ أدَّاها، بل يَظَلُّ الإسلامُ مُلازمًا لكَ في كلِّ أوقاتِكَ وأحوالِكَ، في بيتِكَ وسُوقِكَ وعمَلِكَ، في شعبان ورمضان وشوَّال، وَفي كلِّ زمانٍ ومَكَانٍ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١].

فالواجب على الإنسان أن يكون عبدًا لله في أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، وفي كلِّ شأنٍ مِن شؤون حياته، يتحرَّى صحَّة العمل وإخلاص العبودية لله تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٢].

والطاعة بالنسبة للمؤمن كالماء للسمك وكالهواء للإنسان، فلا تُتصوَّر حياة حقيقيَّة في غيبة معاني الإيمان والعمل الصالح ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٣]وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤].

بل هو إذا ما حيل بينه وبين طاعة ربِّه يحزن ويُشفق على نفسه، حتَّى وإن كان معذورًا كحالة السبعة الذين أرجعهم النبي ﷺ من غزوة تبوك، رجعوا وهم يبكون، فذَكَر ربُّنا حالتهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[٥].

يقول عروة بن الزبير- رضي الله عنهما-: إذا رأيتَ الرجل يعمل بطاعة الله فاعلمْ أنَّ لها عنده أخوات، وإذا رأيتَ الرجل يعمل بمعصية الله فاعلم أنَّ لها عنده أخوات، فإنَّ الطاعة تدلُّ على أختها، وإنَّ المعصية تدلُّ على أختها[٦] ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[٧].

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) الكهف: ١١٠.

(٣) الأنعام: ١٢٢.

(٤) الشورى: ٥٢.

(٥) التوبة: ٩٢.

(٦) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٠١). الكتاب المصنَّف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقِّق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ.

(٧) الليل: ٥-١٠.



ولذلك فالمؤمن الكيّس الفطن هو الذي ينتقل من طاعة إلى طاعة، ومن عبادة إلى عبادة، رائده في ذلك قول الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[١] واليقين هو الموت، ومعنى الآية: لا تنفك عن طاعة الله، ولا تفارق هذا حتَّى تموت، وهذا كما قال عيسى ابن مريم- عليه السلام-: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾[٢].

قال الشيخ السعدي: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أي: الموت أي: استمر في جميع الأوقات على التقرُّب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثَّل ﷺ أمر ربّه، فلم يزل دائبًا في العبادة، حتَّى أتاه اليقين من ربّه ﷺ تسليمًا كثيراً[٣].

وبعض الناس يُقبِلون على العبادة والطاعة في بعض المواسم كرمضان وأشباهه، ثم إذا انقضى موسم الطاعة؛ ترك العبادة ونسي الطاعة؛ كَمَا حَذَّرَ اللهُ مِن ذَلِكَ فَقَال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾[٤].

قالَ الشَّيخُ السَّعديُّ رَحِمهُ اللهُ: فلا تَتَّصِفوا بِأَسوأِ الأَمثَالِ وأَقبَحِها وأَدَلِّها على سَفَهِ مُتَعَاطِيها، كَمَنْ تَغزِلُ صُوفًا قَوِيًّا، فَإِذَا استَحكَمَ وَتَمَّ نَقَضَتْهُ فَفَكَّكتْهُ! فَتَعِبَتْ في غَزْلِهِ ثُمَّ على نَقْضِهِ، ولَمْ تَستَفِدْ سِوى الخَيبَةِ والعَناءِ ونَقْصِ الرَّأيِ والعَقلِ[٥].

واليقين هو الموت، فقد روى البخاري من حديث أُمِّ العلاء الأنصاريَّة- رضي الله عنها- وكانت من المبايعات، وكانت قد قالت حينما مات عثمان بن مظعون- رضي الله عنه-: شهادتي عليه أنَّ الله أكرمه، فقال رسول الله ﷺ: أمَّا عثمان فقد جاءه اليقين من ربِّه، وإِنِّي لأرجو له الخير، واللهِ ما أدري- وأنا رسول الله- ما يُفعل بي[٦].

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: ما رأيتُ يقينًا أشبهَ بالشكِّ من يقين النَّاس بالموت، ثم لا يستعدُّون له- يعني: كأنَّهم فيه شاكون-[٧].

---

(١) الحجر: ٩٩

(٢) مريم: ٣١.

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٣٥).

(٤) النحل: ٩٢.

(٥) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٤٨).

(٦) رواه البخاري في صحيحه (١٨١/٣) برقم (٢٦٨٧) كتاب الشهادات. باب القرعة في المشكلات.

(٧) ذكره عنه القرطبي في تفسيره (١٠/ ٦٤).



ولكنَّ كثيرًا من الناس يُقبِلون على الطاعة ثم يتركونها بعد فترة، والنبي ﷺ أنكر على أناسٍ كانوا يجتهدون في الطاعات ثم تقاعسوا عنها، فقد قال ﷺ كما في الصحيحَينِ لعبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- ناصحًا له: لا تكنْ كفُلانٍ، كان يقوم من الليل ثم تركه[1].

وكانت عائشة تصف عبادة النبي ﷺ كما في مسلم: بأنَّه كان يحرص على الطاعة، فإن فاتَه مِن حزبه شيءٌ؛ صلَّى في النهار ثنتي عشرة ركعة[2].

وإنَّ ممَّا يُعينُ الإنسان على طاعة الله تعالى والمداومة عليها:

١- الدعاء فهو سببٌ للتوفيق، وهو يصطرع في السماء مع البلاء، ولا يردُّ القدر إلَّا الدعاء، ولذلك على الإنسان أن يحرص على دعاء الله سبحانه وتعالى الاستقامة والتوفيق والثبات، وكان النبي ﷺ يُكرِّر ذلك فكان يقول:" اللَّهُمَّ يا مُصرِّف القلوب؛ صرِّفْ قلوبنا على طاعتك" رواه مسلم[3]. ويقول أيضًا:" اللَّهُمَّ يا مُقلِّب القلوبِ؛ ثبِّتْ قلوبنا على دينك" رواه الترمذي والنسائي[4].

٢- ملازمة أهل الخير، لأنَّهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[5]، وقال رسول الله ﷺ في فضل الصحبة الصالحة:" المرءُ على دينِ خليلِه؛ فلْينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ" رواه أحمد وأبو داود والترمذي[6].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/٥٤) برقم (١١٥٢) كتاب التهجُّد. باب ما يُكره مَن ترَك قيام الليل لمن كان يقومه. ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٤) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام. باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرَّر به أو فوَّت حقًّا.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥١٣) برقم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب جامع صلاة الليل ومَن نام عنه أو مرض.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٤٥) برقم (٢٦٥٤) كتاب القدر. باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٣٨) برقم (٣٥٢٢) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٧/ ١٥٦) برقم (٧٦٩٠) قوله ﴿ولِتُصنعَ على عيني﴾ كتاب النعوت. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٨/ ٢٢).

(٥) الكهف: ٢٨.

(٦) رواه أحمد في مسنده (١٤/١٤٢) برقم (٨٤١٧). وأبو داود في سننه (٤/٢٥٩) برقم (٤٨٣٣) كتاب الأدب. باب مَن يُؤمَر أن يُجالس. والترمذي في جامعه (٤/ ٥٨٩) برقم (٢٣٧٨) أبواب الزهد. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٣٧٨).



٣- أن يعلم الإنسان أنَّ الموت قريب، وأنَّه يمكن أن يموت على أيِّ حالٍ من الأحوال، فعليه أن لا يكون على حالٍ لا يُحِبُّ أن يأتيه الموت عليه، فالموت سيأتيه راغمًا لا يستطيع ردَّه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[1].

٤- التفكُّر في آثار الطاعات الحميدة؛ مِن راحة القلب، وطمأنينة النفس، وسعة الرزق، وتيسير الأمور، والتفكُّر في عواقب المعاصي القبيحة المذمومة؛ من ظُلمة الوجه، وسواد القلب، وضيق الرزق، وتعسير الأمور، وغير ذلك.

٥- لزوم ذِكْر الله تعالى، ومجاهدة النفس على فعْل العبادات، والتقرُّب بعد الفرائض بنوافل العبادات؛ فإنَّ مَن لا يزال كذلك ينال درجة المحبَّة من الله تعالى، حتَّى يكون سبحانه هو سمعه الذي يسمَع به، وبصره الذي يُبصِر به، ويده التي يبطِش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سأله ليُعطينَّه، ولئن استعاذه ليُعيذنَّه، كما ثبت في الحديث القدسي الصحيح[2].

والخلاصة: أن يُطيع المسلمُ ربَّه حتَّى آخر لحظات حياته، ولا يتوانى أبدًا عن طاعةٍ أو قُربةٍ، وأن يعمل بطاعة الله جاهدًا حتَّى يختم له بطاعةٍ، فقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أنَّ مَن عاش على شيءٍ مات عليه، ومَن مات على شيءٍ بُعِث عليه.

---

(١) الأعراف: ٣٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢) كتاب الرقاق. باب التواضع.



٢٤ ربيع أول

إصلاح ذات البَين

إنَّ إصلاح ذات البَين شُعبةٌ إيمانيَّةٌ، وشِرعةٌ إسلاميَّةٌ، وعبادة جليلة، وخُلُقٌ جميلٌ، يُحِبُّه الله ورسوله ﷺ، وهو خيرٌ كلُّه ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾[١]، وبالإصلاح تكون الأُمَّة وحدةً متماسكةً، يسعى بعضها في إصلاح بعض، والإصلاح عنوان الإيمان بين الإخوة ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾[٢]، وإذا فقد الإصلاح هلكت الشعوب والأمم، وفسدت البيوت والأسر، وتبدَّدت الثروات، وانتُهكت الحُرُمات، وعمَّ الشرُّ القريب والبعيد.

ومن عظيم بركة الربِّ سبحانه وتعالى ومن كريم عفوه ورحمته؛ أنَّه يُصلِح بين المؤمنين يوم القيامة، عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال:" بينا رسول الله ﷺ جالسٌ إذ رأيناه ضحك حتَّى بدتْ ثناياه، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: رجُلانِ من أُمَّتي جثيا بين يدي ربِّ العِزَّة، فقال أحدهما: يا ربِّ؛ خُذْ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تبارك وتعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبقَ من حسناته شيءٌ؟ قال: يا ربِّ؛ فلْيحملْ مِن أوزاري، قال: وفاضتْ عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: إنَّ ذاك اليوم يحتاج الناس إلى مَن يحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفعْ بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا ربِّ؛ أرى مدائن من ذهب، وقصورًا من ذهبٍ مُكللة باللؤلؤ، لأيِّ نبيٍّ هذا؟ أو لأيِّ صِدِّيقٍ هذا؟ أو لأيِّ شهيدٍ هذا؟ قال: هذا لمِن أعطى الثمن، قال: يا ربِّ؛ ومَن يملك ذلك؟ قال: أنتَ تملكُه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا ربِّ؛ فإنِّ قد عفوتُ عنه، قال الله عزَّ وجلَّ: فخُذْ بيد أخيك فأدخِلْه الجنَّة، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: اتَّقوا الله وأصلِحوا ذاتَ بَينِكم، فإنَّ الله يُصلِح بين المؤمنين. رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد[٣].

---

(١) النساء: ١٢٨.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) رواه الحاكم في المستدرَك على الصحيحين (٥/ ٤٠) برقم (٨٧٨١). والحديث قال عنه الألباني:" ضعيف جدًّا" كما في ضعيف الترغيب والترهيب (٢/ ١٣٦- ١٣٧). ضَعيفُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، المؤلف: محمد ناصر الدِّين الألباني، الناشر: مكتَبة المعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.



ولقد كان النبي ﷺ يسعى في الإصلاح بين الأفراد والجماعات والقبائل والأقارب، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالْحِجَارَةِ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ:" اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ" رواه البخاري[١].

ويسعى بالصلح بين الأزواج والزوجات؛ فقد جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ:" أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟ قَالَت: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟ فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ وَأَصَابَهُ تُرَابٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ" رواه البخاري ومسلم[٢].

ويسعى كذلك في الصلح بين المتداينين؛ فعن كَعْبٍ بن مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّه تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِه، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمَا حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ فَنَادَى كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فَقَالَ: يَا كَعْبُ، فَقَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، فَأَشَارَ بِيَدِهِ أَنْ ضَعْ الشَّطْرَ، فَقَالَ كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" قُمْ فَاقْضِه" رواه البخاري ومسلم[٣].

قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٦].

قال الشيخ العلّامة السعدي رحمه الله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلّا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشرّ والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٨٣) برقم (٢٦٩٣) كتاب الصلح. باب قول الإمام لأصحابه: اذهبوا بنا نُصلِح.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/٩٦) برقم (٤٤١) كتاب الصلاة. باب نوم الرجال في المسجد. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٤) برقم (٢٤٠٩) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/٩٩) برقم (٤٥٧) كتاب الصلاة. باب التقاضي والملازمة في المسجد. ومسلم في صحيحه (٣/ ١١٩٢) برقم (١٥٥٨) كتاب المساقاة. باب استحباب الوضع من الدَّين.

(٤) البقرة: ١٨٢.

(٥) البقرة: ٢٢٤.

(٦) النساء: ١١٤.



حثَّ الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾(٣)، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلِح لا بدَّ أن يُصلِح الله سعيه وعمله، كما أنَّ الساعي في الإفساد لا يُصلِح الله عمله ولا يتمُّ له مقصوده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٤)، فهذه الأشياء حيثما فُعِلتْ فهي خيرٌ، كما دلَّ على ذلك الاستثناء، ولكنَّ كمال الأجر وتمامه بحسب النِّيَّة والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٥)، فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويُخلص العمل لله في كُلِّ وقتٍ، وفي كُلِّ جزءٍ من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعوَّد الإخلاص فيكون من المخلِصين، وليتمَّ له الأجر، سواء تمَّ مقصوده أم لا، لأنَّ النِّيَّة حصلت واقترن بها ما يُمكن من العمل(٦).

إنَّ المكارمَ كلَّها لو حصلتْ ... رجعتْ جُملتُها إلى شيئَينِ
تعظيمُ أمرِ اللهِ جلَّ جلالُهُ ... والسعيُ في إصلاحِ ذاتِ البَينِ(٧)

وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾(٨).

قال الشيخ ابن العثيمين رحمه الله: لا صلح مع المشاحة، يعني أنَّ الإنسان إذا أراد أن يُعامِل أخاه بالمشاحة، فإنَّه لا يمكن الصُّلحُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾(٩)،

---

(١) آل عمران: ١٠٣.
(٢) الحجرات: ٩.
(٣) النساء: ١٢٨.
(٤) يونس: ٨١.
(٥) النساء: ١١٤.
(٦) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٢٠٢).
(٧) الأبيات لمحمد بن أيمن الرهاوي كما ذكره في يتيمة الدهر (٥/ ٤٠). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقِّق: د. مفيد محمد قمحية، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.
(٨) النساء: ١٢٨.
(٩) النساء: ١٢٨.



يشير إلى أنَّ الصلح ينبغي للإنسان أن يبتعد فيه عن الشُّحِّ، وأن لا يُطالِبَ بكامِلِ حقِّه؛ لأنَّه إن طالَبَ بكامِلِ حقِّه؛ طالب الآخرُ بكامِلِ حقِّه، ولم يحصل بينهما صُلحٌ؛ بل لا بدَّ أن يتنازل كُلُّ واحدٍ منهم عن بعض حقِّه[1].

والخلاصة: أنَّ الشقاق والخلاف من أخطر أسلحة الشيطان الفتَّاكة؛ الَّتي يوغر بها صدور الخلْق، لينفصلوا بعد اتِّحادٍ، ويتنافروا بعد اتِّفاقٍ، ويتعادوا بعد أُخُوَّة، وقد اهتمَّ الإسلام بمسألة احتمال وقوع الخلاف بين المؤمنين وأخذها بعين الاعتبار؛ وذلك لأنَّ المؤمنين بَشَرٌ يُخطئون ويُصيبون، ويعسر أن تتَّفق آراؤهم، أو تتوحَّد اتِّجاهاتهم دائمًا، ولهذا عالج الإسلام مسألة الخلاف على اختلاف مستوياتها بدءًا من مرحلة المشاحَنة والمجادَلة، ومرورًا بالهجر والتباعُد، وانتهاءً بمرحلة الاعتداء والقتال، والإسلام دينٌ يتشوَّفُ إلى الصُّلح، ويسعى له، ويُنادي إليه، وليس ثمَّة خطوة أحبَّ إلى الله عزَّ وجلَّ من خطوة يُصلِح فيها العبد بين اثنين، ويُقرِّب فيها بين قلبين، فبالإصلاح تكون الطمأنينة والهدوء، والاستقرار والأمن، وتتفجَّر ينابيع الأُلفة والمحبَّة.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٦). شرح رياض الصالحين، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، طبعة ١٤٢٦هـ.



٢٥ ربيع أول

إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة

إنَّ المال والأولاد نعمةٌ من أجَلِّ نعم الله على العباد؛ إذا وُظِّفت في طاعة الله سبحانه وتعالى، وسُخِّرت لخدمة دين الله، وأُنفقت في مرضات الله سبحانه وتعالى، فإنَّ هذه الحياة الدنيا التي خلقها الله لنا قائمة على متاع الحياة الدنيا، من أزواج وأولاد وأموال وزينة وشهوات، فهنيئًا لمن استخدمها في طاعة ربِّ الأرض والسماوات، وتعسًا لمن وقع فيها فغرق، فلم يفز إلَّا بغضب الله سبحانه وتعالى.

قَالَ الله سبحانه وتَعَالَى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[١]، وقال سبحانه- مُبيِّنًا أنَّ الذين تُحِبُّهم لعلَّهم أعداؤك، والذين تحتضنهم وتؤويهم ربما يكونون فتنةٌ لك-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما- أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾[٣]، قَالَ: هَؤُلَاءِ رِجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَبَى أي رفض أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ يَدعُوهُمْ يَأْتُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فيما بعد رَأَوْا النَّاسَ الذين سبقوا في الهجرة، قَدْ فَقُهُوا فِي الدِّينِ، فَهَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤][٥]، وقال الشنقيطي رحمه الله: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٦]، أمر الله سبحانه وتعالى الناس في هذه الآية الكريمة أن يعلموا أنَّ أموالهم وأولادهم فتنة

---

(١) طه: ١٣١.

(٢) التغابن: ١٤، ١٥.

(٣) التغابن: ١٤.

(٤) التغابن: ١٤.

(٥) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٤١٩) برقم (٣٣١٧) أبواب تفسير القرآن. باب ومن سورة التغابن. والأثر حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٧/ ٣١٧).

(٦) الأنفال: ٢٨.

يُختبَرون بها، هل يكون المال والولد سببًا للوقوع فيما لا يُرضِي الله؟ وزاد- سبحانه وتعالى- في مواضع أُخر أنَّ الأزواج فتنة، فصارت الفتنة في ثلاث: الأموال والأولاد والأزواج؛ فأمر الإنسان بالحذر منهم أن يُوقِعوه فيما لا يُرضِي الله[١].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"إِنَّ فِي مَالِ الرَّجُلِ فِتْنَةً، وَفِي زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ فِتْنَةً" رواه الطبراني[٢].

وقال سبحانه وتعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٣]، والمراد بالفتنة في هذه الآيات- فتنة الأموال والأزواج والأولاد-، إنَّما هو: الاختبار والابتلاء، وهو أحد معاني الفتنة في القرآن.

والله قد خلَق زينة الدنيا فتنة واختبارًا للناس قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا﴾[٤]، فمَن أخذها بحقِّها وأنفقها في حقِّها وقام بدينه نجا في الآخرة، ومن أخذها من غير حقِّها وصرَّفها في غير حقِّها وترك دينه لأجلها هلك في الآخرة، والناس في فتنتها ما بين مُقِلٍّ ومُستكثِر، والموفَّق مَن حماه الله مِن فتنتها، وقد بيَّنَ النبي ﷺ أنَّ الله مُبتلينا بزينة الدنيا ليختبر إيماننا فقال ﷺ:" إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كيفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ" رواه مسلم[٥].

وَعَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيّ- رضي الله عنه- قَالَ:"كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُنَا على المنبر إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ- رضي الله عنهما- عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ، يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، من بين الصفوف فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ الْمِنْبَرِ فَقَطَعَ كَلَامَهُ، فَحَمَلَهُمَا ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمِنْبَرِ، وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٥١). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت– لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٦٩) برقم (٣٠٢٤). والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤٢٨).

(٣) المنافقون: ٩.

(٤) الكهف: ٧.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٨) برقم (٢٧٤٢) كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء، وأكثر أهل النَّار النِّساء وبيان الفتنة بالنِّساء.



قَالَ: صَدَقَ اللهُ ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[١]، يقول ﷺ: نَظَرْتُ إِلَى هَـذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا" رواه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه[٢].

قال العلَّامة السعدي: لما كان العبد مُمتحَنًا بأمواله وأولاده؛ فربَّما حمله محبَّة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، فأخبر الله تعالى أنَّ الأموال والأولاد فتنة، يبتلي الله بهما عباده، وأنَّها عاريةٌ ستُؤدَّى لمن أعطاها، وتُردُّ لمن استودعها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[٣]، فإن كان لكم عقلٌ ورَأْيٌ؛ فآثِروا فضْله العظيم على لذَّةٍ صغيرةٍ فانيةٍ مُضمحِلةٍ، فالعاقل يُوازن بين الأشياء، ويُؤثِر أولاها بالإيثار، وأحقَّها بالتقديم[٤].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى: في تعليقه على حديث" إنَّ الولدَ مَبخلةٌ مَجبنةٌ" رواه أحمد وابن ماجه[٥]: أي إذا نادى منادي الجهاد يقولون له: انتظر إلى أين ستذهب؟ إنَّ لديك أولادًا صغارًا، فمَن سيُربِّيهم؟ مع أنَّ هؤلاء الأولاد هم الذين سيُدمِّرونه ويُضيِّعونه، فهو لن يطلب العلم بسبب العيال، ولن يُجاهد حتَّى يُجاهد في العيال، فالولد هو سببُ كُلِّ بليَّةٍ، والذكي هو من يُعطي لكلِّ ذي حظٍّ حظَّه، ثم يدع الأمر بعد ذلك لله عزَّ وجلَّ، وكم من شخصٍ حرص كُلَّ الحرص على تربية أبنائه، ثم ما ربَّاهم في النهاية؛ لأنَّه لم يتقِ الله تبارك وتعالى فيما تعيَّن عليه هو أوَّلًا، بل جعل كُلَّ همِّه في أولاده، وليست هذه دعوة لترك الأولاد والتفريط في حقِّهم، أبدًا، بل هذا ممَّا قد تعيَّن عليك، ولكنَّه تعيَّن بقدْرٍ، فينبغي ألَّا تزيد عليه ولا أن تنقص منه[٦].

---

(١) التغابن: ١٥.

(٢) رواه بهذا اللفظ الترمذي في جامعه (٥/٦٥٨) برقم (٣٧٧٤) أبواب المناقب. باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٢/ ٢٨٦) برقم (١٧٤٣) كتاب الجمعة. نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعه كلامه ورجوعه إليه. وقريبًا من لفظها رواه أبو داود في سننه (١/ ٢٩٠) تفريع أبواب الجمعة. باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث. وابن ماجه في سننه (٢/١١٩٠) برقم (٣٦٠٠). كتاب اللباس. باب لبس الأحمر للرجال. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٨/ ٢٧٤).

(٣) الأنفال: ٢٨.

(٤) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣١٩).

(٥) رواه أحمد في مسنده (٢٩/١٠٤) برقم (١٧٥٦٢). وابن ماجه في سننه (٢/١٢٠٩) برقم (٣٦٦٦) كتاب الأدب. باب برِّ الوالد والإحسان إلى البنات. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٨/ ١٦٦).

(٦) يُذكَر هذا عن الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه لأصول اعتقاد أهل السُّنَّة، ولم أقف على كتاب الشيخ رحمه الله.



فالمال والولد والزوجة نعمةٌ تُستثمَر بطاعة الله، وإلَّا كانت وبالًا على صاحبها، فالوليد بن المغيرة كما هو مشهور عند المفسرين؛ نزل فيه قوله تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾[١]، فقد أخرجه الله من بطن أمه وحيدًا، لا مال له ولا ولد، فرزقه الله المال والولد، والثروة والنماء، ولكنَّه جنَّدَ جنوده لمحاربة دين الله سبحانه وتعالى، نعوذ بالله من الخذلان.

وصدق الشاعر إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان حين يقول:

احفظْ صبِيَّك إنْ تُرِدْ تنجو به ... وترقَّبنَّه واسْعَ في تنجيبـــه

واعلمْ بأنَّ خــيرَ ما تَهدِي به ... أن تبذل المجهود في تهذيبه[٢]

والخلاصة: أنَّه يجب على كُلِّ مسلمٍ أن يشكر الله على نعمه الوفيرة، ومِن شُكرِ النعمة أن يستخدمها المسلم في طاعة الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾[٣]، نسأل الله من واسع فضْله، وأن يجعلنا من أهل شُكْره، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

---

(١) المدثر: ١١.

(٢) يُنظَر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١/ ٣٠، بترقيم الشاملة آليًّا).

(٣) سبأ: ١٣.

٢٦ ربيع أول

كُلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ

إنَّ المنهمِكَ في الدنيا، المكبَّ على شهواتها وملذَّاتها؛ يغفل قلبه عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[(٣)].

قال الشيخ السعدي في تفسيره: لما كان أعداء الرسول ﷺ يقولون: تربَّصوا به ريب المنون؛ قال الله تعالى: هذا طريق مسلوك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْخُلْدَ﴾في الدنيا، فإذا متَّ فسبيلُ أمثالِكَ من الرسل والأنبياء والأولياء وغيرهم ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ أي: فهل إذا متَّ خُلِّدُوا بعدك، فليهنهم الخلود إذًا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كُلُّ مَن عليها فانٍ، ولهذا قال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإنَّ هذا كأسٌ لا بُدَّ من شُرْبه وإن طال بالعبد المدى، وعُمِّرَ سنين، ولكنَّ الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشَّرِّ، بالغنى والفقر، والعزِّ والذُّلِّ، والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليبلوهم أيُّهم أحسنُ عملًا، ومَن يُفتتَن عند مواقع الفتن، ومن ينجو، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾فنجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[(٤)].

وأمَّا العارف بربِّه فإنَّه يذكر الموت دائمًا، أخْذًا بوصية رسول الله ﷺ عندما قال:" أكثِروا ذِكْرَ هادم اللَّذَّات- يعني الموت-" رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه[(٥)].

---

(١) الجمعة: ٨.

(٢) النساء: ٧٨.

(٣) الأنبياء: ٣٥.

(٤) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٢٣).

(٥) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٥٣) برقم (٢٣٠٧) أبواب الزهد. باب ما جاء في ذِكْر الموت. والنسائي في السنن الكبرى (٣٧٩/٢) برقم (١٩٦٣) كثرة ذِكْر الموت. وابن ماجه في سننه (١٤٢٢/٢) برقم (٤٢٥٨) كتاب الزهد. باب ذِكْر الموت والاستعداد. والحديث قال عنه الألباني:" حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سُنن الترمذي (٥/ ٣٠٧).



وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنَّه قال:" جاء رجلٌ من الأنصار فسلَّم على النبي ﷺ ثم قال: يا رسول الله؛ أيُّ المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنُهم خُلُقًا، قال: فأيُّ المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرُهم للموت ذِكْرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا، أولئك الأكياس" رواه ابن ماجه(١).

قال الحسن البصري- رحمه الله-: فضح الموت الدنيا، فلم يتركْ لذي لُبٍّ فيها فرحًا(٢)، وما ألزم عبدٌ قلبَه ذكر الموت إلَّا صغُرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها(٣).

لا طيبَ للعيشِ ما دامتْ مُنغَّصةً　　　لذاتُهُ بادِّكار الموتِ والهرمِ(٤)

وقال عمر بن عبد العزيز- رحمه الله-: إذا غفل قلبي عن ذكْر الموت ساعة فسد، وقال بعضهم: مَن أكثر ذكْر الموت أُكرِم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومَن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترْك الرضا بالكفاف، والكسل في العبادة(٥).

وذكْر الموت يُحدِث في القلب رجفة، ومن أسماء الموت: المنون، الحتف، الحِمام، السام، الوفاة، الردى، الهلاك.

والموت له سكرات وكربات، وهي تعتري كُلَّ مخلوقٍ، وقد يُهوِّنها الله على بعض عباده، وقد تُشدَّد على بعض العباد تخفيفًا من الذنوب، ورحمة وزيادة في الدرجات، كالأنبياء، وفي مُقدَّمتهم خاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ، فإنَّه قد لقي من الموت شدَّة، وهو أحبُّ الخلْقِ إلى الله.

ففي صحيح الإمام البخاري من حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: كان بين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يُدخِل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، ويقول: لا إله إلَّا الله، إنَّ للموت سكراتٍ، ثم نصب يده فجعل يقول: في الرفيق الأعلى. حتَّى قُبِض ومالتْ يده(٦).

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢/١٤٢٣) برقم (٤٢٥٩) كتاب الزهد. باب ذكْر الموت والاستعداد له. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٩/ ٢٥٩).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٤٩).

(٣) ذكره أبو العباس ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٨٣). مُخْتَصَر مِنْهَاجِ القَاصِدِيْنْ، المؤلف: نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٨٩هـ)، قدَّم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتَبَةُ دَارِ البَيَانْ، دمشق، عام النشر: ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.

(٤) البيت من الشواهد النحوية. ذكره ابن عقيل في شرحه على ألفيَّة ابن مالك (١/ ٢٧٤). شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك، المؤلف: ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى : ٧٦٩هـ)، المحقِّق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر : دار التراث- القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

(٥) يُنظَر: الدرر المنتقاة من الكلمات الملقاة (٣/ ٧٦٨). الدرر المنتقاة من الكلمات الملقاة، المؤلف: أمين بن عبد الله الشقاوي، الناشر: [بدون] الطبعة: جـ ١ - ٣ / الثامنة، ١٤٣٤ هـ- ٢٠١٣ م.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٦/١٣) برقم (٤٤٤٩) كتاب المغازي. باب مرض النبي ﷺ ووفاته.



وحينما ثقُلَ النبي ﷺ جعل يتغشَّاه، فقالت فاطمة- رضي الله عنها-: واكربَ أباه، فقال لها:" ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم" رواه البخاري(١).

حتَّى إنَّه مِن شدَّة كربه قال:" هريقوا عليَّ مِن سبْعِ قُرَبٍ، لم تحلل أوكيتهن، لعلِّي أعهد إلى الناس" رواه البخاري(٢).

وكان كلَّما اغتسل ﷺ وهمَّ بالصلاة مع الناس يُغمى عليه- ثلاث مرَّات- وتقول عائشة- رضي الله عنها-:" مات النبي ﷺ وإنَّه لبَيْنَ حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدَّة الموت لأحدٍ أبدًا بعد النبي ﷺ" رواه البخاري(٣).

وتُشدَّد هذه السكرات على الكُفَّار، وكذلك على عصاة المسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾(٥).

وحقٌّ على كُلِّ إنسانٍ أن يستعدَّ للموت قبل نزوله، وذلك بالمبادرة بالعمل الصالح قبل حلول الأجل، لقد حثَّنا ربُّنا- عزَّ وجلَّ- أعظم الحثِّ، ودعا إلى اغتنام الفرص في زمن المهلة، وأخبرنا أنَّ مَن فرَّط في ذلك تمنَّاه، وقد حيل بينه وبينه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٧).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦/١٥) برقم (٤٤٦٢) كتاب المغازي. باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/٥٠) برقم (١٩٨) كتاب الوضوء. باب الغسل والوضوء في المخضب والقدح والخشب والحجارة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٦/١٢) برقم (٤٤٤٦) كتاب المغازي. باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٤) الأنعام: ٩٣.

(٥) الأنفال: ٥٠.

(٦) المؤمنون: ٩٩ — ١٠٠.

(٧) المنافقون: ٩ — ١٠.

روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال:" كُنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ"، وكان ابن عمر- رضي الله عنهما- يقول:" إذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وخُذْ مِن صحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك"(١). وفي رواية للترمذي:" وعُدَّ نفسك من أهل القبور، فإنَّك لا تدري يا عبد الله ما اسمُك غدًا"(٢).

والخلاصة: أنَّ الموت هو الحقيقة التي لا يُمكن لأحدٍ أن يُنكرها، فقد أنكر البعض وجود الله تعالى، وأنكر آخرون البعث، وغيرهما من الحقائق القطعيَّة التي لا شكَّ فيها، أمَّا الموت فلا يُمكن إنكاره. قال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾(٣). وقال أيضًا: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾(٤)، وفلسفة هؤلاء للحياة أنَّها بطونٌ تدفع، وأرضٌ تبلع، فلا بعثَ ولا مرجعَ.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/٨٩) برقم (٦٤١٦) كتاب الرقاق. باب قول النبي ﷺ: كُنْ في الدنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٦٧) برقم (٢٣٣٣) أبواب الزهد. باب ما جاء في قِصَر الأمل. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٣٣٣).

(٣) الأنعام: ٢٩.

(٤) الجاثية: ٢٤.



٢٧ ربيع أول

ألَا فزوروها فإنَّها تُذكِّركم الآخرة

إنَّ ذكْر الموتِ وزِيارة الموتَى والقُبورِ تُذكِّرُ بِالآخرَةِ وَبالنِّهايةِ المحتومةِ لكُلِّ إنسانٍ، وذَلك يُحفِّزُ عَلى عمَلِ الخيرِ والسَّعيِ إليه، وقد قال تعالى في سورة التكاثر: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾(١).

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: يقول تعالى مُوبِّخًا عباده عن اشتغالهم عمَّا خُلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقديم محبَّته على كُلِّ شيءٍ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ولم يذكر المتكاثَر به، ليشمل ذلك كُلَّ ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يُقصَد منه مكاثرة كُلِّ واحدٍ للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى، فاستمرَّتْ غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن بعد ما تعذَّر عليكم استئنافه، ولهذا توعَّدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة(٢).

روى الحاكم في المستدرك وأصله في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتَدْمَعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ، وَلا تَقُولُوا هُجْرًا"(٣).

فهذا الحديث يدلُّ على مشروعيَّة زيارة القبور للاتِّعاظ، وتَذكُّرِ الآخرة، شريطةً ألَّا يقول عندها ما يُغضِبُ الربَّ سبحانه كدعاء المقبور، والاستغاثة به من دون الله تعالى، أو تزكيته والقطع له بالجنَّة.

---

(١) التكاثر: ١-٨.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٩٣٣).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ٥٢٦) برقم (١٣٩٤). والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٨٤١).



قال النووي رحمه الله: الهجر كلام الباطل، وكان النهي أوَّلًا لقُرْب عهدهم من الجاهلية، فربَّما كانوا يتكلَّمون بكلام الجاهلية الباطل، فلمَّا استقرَّت قواعد الإسلام، وتمهَّدت أحكامه، واشتهرت معالمه، أُبيح لهم الزيارة، واحتاط ﷺ بقوله:" ولا تقولوا هجرًا "[١].

وروى أحمد من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" إِنِّي نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً، وَلا تَقُولُوا مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ"[٢].

قال الصنعاني عقب أحاديث الزيارة: الكُلُّ دالٌّ على مشروعيَّة زيارة القبور وبيان الحِكمة فيها، وأنَّها للاعتبار، فإذا خلتْ من هذه لم تكن مُرادة شرعًا[٣].

وذهب بعض أهل العلم إلى جواز زيارة القبور للرِّجال والنِّساء، فقد ورد في الصحيحَينِ من حديث أنس- رضي الله عنه- أَنّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِامْرَأَةٍ عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: اتْقِي الله، واصْبِرِي[٤].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: وموضع الدلالة منه أنَّ النبي ﷺ لم يُنكِرْ على المرأة قعودها عند القبر، وتقريره حُجَّة[٥]، وذهب جمْعٌ من أهل العلم إلى المنع، لقوله ﷺ فيما رواه الترمذي في سُننه من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-: لَعَنَ اللَّهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ[٦]، وقال بعضهم: إنَّما كره زيارة القبور للنِّساء لقِلَّة صبرهنَّ، وكثرة جزعهنَّ، وهذا ما تُفتي به اللجنة الدائمة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية.

---

(١) المجموع شرح المهذب (٥/ ٣١٠). المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي))، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار الفكر، (طبعة كاملة معها تكملة السبكي والمطيعي).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤٢٩/١٧) برقم (١١٣٢٩). والحديث صحَّحه الألباني كما في أحكام الجنائز (١/ ١٧٩). أحكام الجنائز، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الاسلامي، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

(٣) سبل السلام (١/ ٥٠٢). سبل السلام، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (المتوفى: ١١٨٢هـ)، الناشر: دار الحديث، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٧٣/٢) برقم (١٢٥٢) كتاب الجنائز. باب قول الرجل للمرأة عند القبر: اصبري. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٣٧) برقم (٩٢٦) كتاب الجنائز. باب في الصبر على المصيبة عند أوَّل الصدمة.

(٥) فتح الباري لابن حجر (٣/ ١٤٨).

(٦) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٣٦٢) رقم (١٠٥٦) أبواب الجنائز. باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء ولفظه:" أنَّ رسول الله ﷺ لعن زوَّارات القبور". والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣/ ٥٦).

والمقصود من زيارة القبور شيئان: الأوَّل: انتفاع الزائر بذكْر الموت والموتى، وأنَّ مآلهم إمَّا إلى جنَّةٍ، وإمَّا إلى نارٍ، وهو الغرض الأوَّل من الزيارة كما يدلُّ عليه ما سبق من الأحاديث ، الثاني: نفع الميت والإحسان إليه بالسلام عليه، والدعاء والاستغفار له، وهذا خاصٌّ بالمسلم، وقد دلَّ على هذا الدليل؛ من ذلك ما رواه أحمد في مسنده من حديث عائشة- رضي الله عنها- أنَّ النبي ﷺ كان يخرج إلى البقيع فيدعو لهم، فسألتْه عائشة- رضي الله عنها- عن ذلك، فقال:" إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَدْعُوَ لَهُمْ "[١]. وأيضًا: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث بريدة- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يُعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر، فكان قائلهم يقول:" السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّه بِكُمْ للاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ "[٢].

ومن البدع والشركيَّات التي تحصل عند القبور:

١- الذبح والنحر عند القبور، وهو من أعظمها، لقوله ﷺ:" لَا عَقْرَ فِي الْإِسْلَامِ " رواه أحمد وأبو داود[٣]، قال الشيخ الألباني رحمه الله: وهذا إذا كان الذبح هناك لله تعالى، وأمَّا إذا كان لصاحب القبر كما يفعله بعض الجهال فهو شِرْكٌ صريحٌ، وأكلُه حرامٌ وفسقٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾[٤]. [٥]

٢- رفْع القبور زيادة على التراب الخارج منها، وفي صحيح مسلم من حديث علي- رضي الله عنه- أنَّه قال لأبي الهياج الأسدي:" ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألَّا تدع صورة إلَّا طمستُها، ولا قبرًا مُشرِفًا إلَّا سويتُه"[٦].

٣- القعود عليها، وفي ذلك أحاديث منها ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ نَهَى أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ، أو يُزاد عليه أو يُكتب عليه[١]، لأنَّ تعظيم القبور بالبناء عليها ونحوه هو أصل شِرْك العالم.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٤٠/٤٣) برقم (٢٦١٤٩). والحديث قال عنه الألباني:" أخرجه أحمد بسندٍ صحيحٍ على شرط الشيخين" كما في أحكام الجنائز (١/ ١٨٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٦٩) برقم (٩٧٤) كتاب الجنائز. باب ما يُقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣٣٣/٢٠) برقم (١٣٠٣٢). وأبو داود في سننه (٢١٦/٣) برقم (٣٢٢٢) كتاب الجنائز. باب كراهية الذبح عند القبر. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٧/ ٢٢٢).

(٤) الأنعام: ١٢١.

(٥) أحكام الجنائز (ص ٢٠٣).

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٦٦) برقم (٩٦٩) كتاب الجنائز. باب الأمر بتسوية القبور.

وغيرها من البدع والمخالفات.

أتيتُ القُبورَ فناديتُها فأينَ المعظَّمُ والمحْتَقَر

وأينَ المدِلُّ بسُلْطانِهِ وأينَ المزكَّى إذَا ما افْتَخَرْ

تَفانَوا جميعًا فما مُخبِرٌ ومَاتُوا جميعًا ومَاتَ الخَبَرْ

وَصَارُوا إلى مَالِكٍ قَاهرٍ عَزِيزٍ مُطَاعٍ إذا مَا أَمَرْ

تَروحُ وتغدُو بناتُ الثَّرى فَتَمْحُو محاسنَ تلك الصُّوَرْ

فيَا سائلِي عنْ أُناسٍ مَضَوْا أمَا لَكَ فيما مضى مُعتَبَرْ(٢)

والخلاصة: أنَّ زيارة القبور جائزة بضوابط يجب الالتزام بها، وإنَّما كان نَهيُ النَّبيِّ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لهم في أوَّلِ الأمرِ؛ لِقُربِ عَهدِهم بالجاهليَّةِ وما يَفعَلونه ويتَكلَّمون به مِن أُمورٍ تُخالِفُ الإسلامَ؛ مِن تَعظيمِ القُبورِ، وغيرِ ذلك، فلمَّا استَقرَّ الإسلامُ في نُفوسِهم، ومَحا آثارَ الجاهليَّةِ، وعَلِموا أحكامَ الشَّرعِ؛ أمَرَهم بزِيارتِها، فقالَ:" ألَا فزُورُوها "، فنسَخَ حُكْمَ النَّهيِ إلى الإباحةِ والحَثِّ على الزِّيارةِ؛ وذكر علَّة الإباحة" فإنَّها تُرِقُّ القلْبَ"، أي: تَجعَلُه يخضَعُ ويَخشَعُ،" وتُدمِعُ العينَ"، أي: تُبكيها،" وتُذكِّرُ الآخرةَ"، أي: إنَّ ثَمرةَ الزِّيارةِ وعِلَّةَ إباحتِها أنَّها تُذكِّرُ بمنازِلِ الآخرةِ؛ مِن وعْدٍ ووعيدٍ، وجنَّةٍ ونارٍ،" ولا تقولوا هُجْرًا"(٣)، أي: كلامًا قَبيحًا فاحِشًا، وفيهِ: أنَّ زِيارةَ القُبورِ تُذَكِّرُ بالموتِ وبالآخِرَةِ، وسَببٌ في رِقَّةِ القَلبِ.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٦٧) برقم (٩٧٠) كتاب الجنائز. باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه. قال الألباني:" والزيادتان لأبي داود والنسائي" أي قوله:" أو يُزاد عليه أو يُكتَب عليه". أحكام الجنائز (١/ ٢٠٤).

(٢) يُنظَر: مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن (٢/ ٣١٨). مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقِّق: مرزوق علي إبراهيم، تقديم: حماد بن محمد الأنصاري، الناشر: دار الراية، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(٣) تقدَّم تخريجه قريبًا.



٢٨ ربيع أول

حُسْنُ الخاتِمة

في الحياة ومواقفها عِبرٌ لمِن اعتبر، وفي تقلُّب الناس وتبدُّل أحوالهم ذكرى لمِن تذكَّر، يسير الناس كُلُّ الناس في هذه الدنيا فرحين يتسابقون في دنياهم، ويلهثون وراء أمانيهم، كُلٌّ بحسبه؛ الصغير والكبير، الرجال والنساء، ترمقهم مِن حولك يجرون ويلهثون كُلٌّ يسعى لشأنه، والمعظَّم منهم قد غرق في غيِّه ولهوه، وشهوته وأمانيه، لكنَّ أعظم فوزٍ ليس الفوز باللَّذَّات الفانية، بل الفوز بلحظة السعادة حين الخاتمة.

وحُسْنُ الخاتِمة أن يموت الإنسان على عملٍ من أعمال الخير، يدلُّ على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عَنْ أَنَسٍ- رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ "[١].

إنَّ مَن كتب الله له السعادة وفاز بحُسن الخاتِمة؛ كان مِن أوَّل البشرى له في ساعة الاحتضار؛ بشرى من الملائكة الكرام حيث أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[٢]، بشرى لما بعد الموت وطمأنينة لما خلف من أهل وأولاد، فإنَّ العبد الصالح إذا حضرته الوفاة ورأى البشرى بالنجاة أحبَّ لقاء الله، فيُحِبُّ الله لقاءه، ففي الصحيحين عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ- رضي الله عنه- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ- رضي الله عنهنَّ-: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ: لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ[٣].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٤٦/١٩) برقم (١٢٢١٤). والحديث صحَّحه الألباني كما في ظلال الجنَّة في تخريج السُّنَّة لابن أبي عاصم (١/ ١٨٣). ظلال الجنَّة في تخريج السُّنَّة لابن أبي عاصم، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١٠٦/٨) برقم (٦٥٠٧) كتاب الرقاق. باب مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٥) برقم (٢٦٨٤) كتاب الذِّكر والدُّعاء والتوبة والاستغفار. باب مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه.



وهذا خير البرية ﷺ في سكرات موته كان يقول: بل الرفيق الأعلى؛ تقول السيدة عائشة- رضي الله عنها-:" إذًا لا يختارُنا" رواه البخاري ومسلم(١).

وهذا بلال- رضي الله عنه- بينما كان يعتبر بعضُ أهله أنَّ موته مُصيبةٌ وحُزنٌ ويقولون: واحزناه؛ كان يردُّ عليهم في سكرة موته: بل وافرحتاه، غدًا نلقى الأحبَّة، محمَّدًا وصحبه(٢).

ولحُسن الخاتمة علاماتٌ كثيرةٌ؛ منها:

١- النُّطق بالشهادتَين: فعَنْ مُعَاذ بْن جَبَل- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ: رَسُول اللَّه ﷺ:" مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامه لَا إِلَه إِلَّا اللَّه دَخَلَ الْجَنَّة" رواه أبو داود(٣).

٢- رشح جبينه عرقًا: لما رواه الترمذي عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ- رضي الله عنه- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" الْمُؤْمِنُ يَمُوتُ بِعَرَقِ الْجَبِينِ"(٤).

٣- الموت ليلة الجمعة أو نهارها: لما أخرجه أحمد والترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو- رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ"(٥).

٤- أن يموت شهيدًا في سبيل الله بأيِّ نوعٍ من أنواع الشهادة: لما رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ"(٦).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٥) برقم (٤٤٦٣) كتاب المغازي. باب آخر ما تكلَّم به النبي ﷺ. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٩٤) برقم (٢٤٤٤) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم. باب فضل عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٢) يُنظَر: شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب (١/ ١٧١). شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، حقَّقه: محمود الأرناؤوط، خرَّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

(٣) رواه أبو داود في سننه (٣/ ١٩٠) برقم (٣١١٦) كتاب الجنائز. باب التلقين. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٧/ ١١٦).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٣٠١) رقم (٩٨٢) أبواب الجنائز. باب ما جاء أنَّ المؤمن يموت بعرق الجبين. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢/ ٤٨٢).

(٥) رواه أحمد في مسنده (١١/ ١٤٧) برقم (٦٥٨٢). والترمذي في جامعه (٣/ ٣٧٨) رقم (١٠٧٤) أبواب الجنائز. باب ما جاء فيمَن مات يوم الجمعة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣/ ٧٤).

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٢١) برقم (١٩١٥) كتاب الإمارة. باب بيان الشهداء.



ولا يلزم من وقوع ذلك؛ الجزم له بأنَّه مِن أهل الجنَّة، وإنَّما يُستبشَر له بذلك، كما أنَّ عدم وقوع شيءٍ منها للميت؛ لا يلزم الحكم بأنَّه غيرُ صالحٍ، أو أنَّه قد خُتِم له بغير الصلاح.

بل يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾(١).

قال الشيخ السعدي رحمه الله: يُخبِر اللهُ تعالى أنَّه يُثبِّت عباده المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويُثمرها، فيُثبِّتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يُحِبُّه الله على هوى النفس ومراداتها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكَينِ للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: مَن ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَن نبيُّك؟ هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربِّي، والإسلام ديني، ومُحمَّد نبيِّي، (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنَّهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر، وعذابه ونعيمه، كما تواترتْ بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها، ونعيم القبر وعذابه(٢).

وقال ابن باز رحمه الله: التثبيت في القبر وعند خروج الروح، فالمؤمن إذا حضره الأجلُ بُشِّر بالجنَّة، فتأتيه الملائكةُ تُبشِّره برحمة الله، فيُحِبُّ لقاء الله، ويُحِبُّ اللهُ لقاءه، والكافر بضدِّ ذلك؛ يكره لقاءَ الله، ويكره اللهُ لقاءَه(٣).

ومن الأسباب التي تُعين على حُسْنِ الخاتمة:

١- أن يلزم الإنسان طاعة الله وتقواه، ورأس ذلك وأساسه تحقيق التوحيد، والحذر من ارتكاب المحرَّمات، والمبادرة إلى التوبة، ممَّا تلطَّخ به المرء منها؛ كبيرها وصغيرها.

٢- أن يُلِحَّ المرء على ربِّه بطلب حُسْن الخاتمة، وقد ذُكِر عن رجلٍ من السلف أنَّه كان يُكثِر في سجوده من سؤال الله الميتة الحسنة، فتوفَّاه الله وهو ساجدٌ بين يديه.

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٢٥).

(٣) يُنظَر: الموقع الرسمي لسماحة الشيخ ابن باز عليه رحمة الله. معنى قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}.. (binbaz.org.sa)

٣- أن يعمل الإنسان جهده وطاقته في إصلاح ظاهره وباطنه، ولْيُولِ إصلاح الباطن الجانب الأكبر، فإنَّ عليه المدار، ومتى ما علم الله منه الصلاح والإخلاص والإقبال عليه؛ فحاشاه سبحانه أن يخذله في آخر لحظات عمره.

٤- تغليب حُسْنِ الظَّنِّ بالله في ساعة السكرة، فإنَّ أحدنا لا يعلم متى تكون نهايته، ومتى تأتيه تلك اللحظة، فينبغي أن نحرص على الاستقامة، وعلى طاعة الله.

والخلاصة: أن يحرص الإنسان كُلَّ الحرص على عمل الصالحات، ومجانبة السَّيِّئات، ويعمل جاهدًا على إرضاء ربِّه بكلِّ سبيلٍ، حتَّى يرضى اللهُ تعالى عنه، ويُكرِمه بحُسنْ الخاتمة، ويلقى ربَّه سعيدًا هانئًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [1].

يَا ربِّ إنْ عَظُمتْ ذنوبيَ كثرةً	فلقد علمتُ بأنَّ عفوَكَ أعظمُ
إنْ كانَ لَا يَرجُوكَ إلَّا مُحسنٌ	فمَنْ ذا الذي يَدعُو ويَرجُو المجرمُ
أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تضرُّعًا	فإذا رددَّتَ يدي فمنْ ذا يَرحَمُ
مَا لي إليكَ وسيلةٌ إلَّا الرَّجا	وجميلُ عفوِكَ ثُمَّ إنِّي مُسلِمُ [2]

(١) سورة هود: ١٠٨.

(٢) يُنظَر: كشف الخفاء (٢/ ٧٢). كشف الخفاء ومُزيل الإلباس، المؤلف: إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (المتوفى: ١١٦٢هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.



٢٩ ربيع أول

آية الكُرسيّ

قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾(١).

قال الشيخ السعدي: هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجَلُّها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة، والصفات الكريمة، فلهذا كثُرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها، وجعلها وِردًا للإنسان في أوقاته؛ صباحًا ومساءً، وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾أي: لا معبودَ بحقٍّ سواه، فهو الإله الحقُّ الذي تتعيَّن أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتألُّه له تعالى؛ لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مُستحِقًّا أن يكون عبدًا لربِّه، مُمتثِلًا أوامره، مُجتنِبًا نواهيه، وكُلُّ ما سوى الله تعالى باطلٌ، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقًا ناقصًا مُدبَّرًا فقيرًا من جميع الوجوه، فلم يستحقَّ شيئًا من أنواع العبادة، وقوله: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ هذان الاسمان الكريمان يدُلَّان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمُّنًا ولزومًا، فالحيُّ مَن له الحياة الكاملة المستلزِمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزِمٌ لجميع الأفعال التي اتَّصف بها ربُّ العالمين مِن فعْله ما يشاء؛ مِن الاستواء والنزول، والكلام والقول، والخلق والرزق، والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كُلُّ ذلك داخلٌ في قيوميَّة الباري، ولهذا قال بعض المحقِّقين: إنَّهما الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميَّته أن ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾والسِّنة النُّعاس ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك، وهو الخالق الرازق المدبِّر، وغيره مخلوقٌ مرزوقٌ مُدبَّرٌ، لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقالَ ذرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، فلهذا قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كُلُّها لله تعالى، ولكنَّه تعالى إذا أراد أن يرحم مَن يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يُكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن، ثم قال: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ

---

(١) البقرة: ٢٥٥.



﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء، ولا من العلم مثقال ذرَّةٍ إلَّا ما علَّمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهذا يدلُّ على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكُرسيِّ أنَّه يسعُ السماوات والأرض على عظمتهما وعظمة مَن فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلَّا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكلُّ الأبصار، وتُقلقَل الجبال، وتكعُّ عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومُبدِعها، والذي أودع فيها من الحِكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعبٍ ولا نصبٍ، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: لا يُثقِلُه ﴿حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العليُّ بقهره لجميع المخلوقات، العليُّ بقدره لكمال صفاته ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي تتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغُر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان مَن له العظمة العظيمة، والكبرياء الجسيمة، والقهر والغلبة لكُلِّ شيءٍ، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الربوبيَّة، وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة مُلكه، وإحاطة علمه، وسعة سلطانه، وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه، وعُلوِّه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، مُتضمِّنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العُلا(١).

وقد كان النبي ﷺ يقرؤها كثيرًا في مواضع كثيرة، فكان يقرأها كلَّ صباحٍ ومَساءٍ، ودُبُرَ كُلِّ صلاةٍ وعند النوم، وعندما يريد أن يَرقي نفسه أو يَرقي غيره ﷺ.

وهذه الآية هي آية الكُرسيِّ سُمِّيتْ بذلك؛ لأنَّها الوحيدة في كتاب الله التي ذُكِر فيها الكُرسيُّ، ولها شأنٌ عظيمٌ، وقد صحَّ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ بأنَّها أعظمُ آيةٍ في كتاب الله؛ فَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ"رواه مسلم(٢).

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ١١٠).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٦) برقم (٨١٠) كتاب صلاة المسافرين وقِصَرها. باب فضْل سورة الكهف وآية الكُرسيِّ.



وفي راويةٍ أخرى؛ قال النبي ﷺ:" وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ" رواه أحمد(١).

وقراءة آية الكُرسيّ تَحفظ بإذن الله من الشياطين، فليس شيءٌ أشدَّ على الشياطين من آية الكُرسيّ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ. وفيه: قَالَ:" إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيّ" اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ"(٢).

ومن قرأ آية الكُرسيّ بعد الصلوات المكتوبة لم يكن بينه وبين دخول الجنَّة إلَّا الموت، فقد أخرج النسائي وغيره عن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن قرأ آية الكُرسيَّ عقب كُلِّ صلاةٍ لم يمنعْه من دخول الجنَّة إلَّا أن يموت"(٣)، قال ابن تيمية رحمه الله: ما تركتُها بعد كُلِّ صلاةٍ إلَّا نسيانًا.

سأتلو آية الكُرسي لأجني طيبَ العُرسِ
سأتلوها مُكرَّرةً ففيها الحصنُ والكرسي
سأتلوها مع الجَلَوَاتِ بعد الفرضِ بالأُنسِ
سأتلوها مع الخَلَوَات منها مُترعًا كأسي
سأتلوها قُبيلَ النَّومِ في سِرّي وفي همسي
تُحصِّنُني من الشيطانِ من غَيري ومن نفسي(٤)

---

(١) رواها أحمد في مسنده (٣٥/ ٢٠٠) برقم (٢١٢٧٨). والحديث صحَّحه الألباني كما في مختصر العُلوّ للعلي العظيم (ص ٩٢).
مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، حقَّقه واختصره: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/١٠١) برقم (٢٣١١) كتاب الوكالة. باب إذا وَكَّلَ رجلًا فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز.

(٣) رواه النسائي في السنن الكبرى (٩/ ٤٤) برقم (٩٨٤٨) كتاب عمل اليوم والليلة. ثواب مَن قرأ آية الكُرسيّ دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١١٠٣).

(٤) لم أقف عليها.



والخلاصة: أنَّ آية الكُرسيِّ هي أعظم آية في كتاب الله، وقد جمعتْ في كلماتها أنواع التوحيد، وهي حصنٌ لقارئها من الشيطان سائر يومه، ولنا في هدي نبيّنا ﷺ الأسوة والقدوة، فقد كان يقرأها ويُردِّدها كثيرًا.



٣٠ ربيع أول

فاتحة الكتاب

إنَّ ممَّا خُصَّت به هذه الأُمَّة سورةٌ عظيمةٌ لم تنزل على أحدٍ من الأنبياء من قبلُ، ومن أهمية هذه السورة أن فرض الله علينا قراءتها يوميًّا، إنَّها سورة الفاتحة، سورة الحمد، ولها أسماء عدَّة، وكثرة الأسماء دليلٌ على شرف المسمَّى.

إنَّها أفضل سورة في القرآن؛ روى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: فَقَرَأَ أُمَّ الْقُرْآنِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا"(١).

ومن عِظَم فضْلها جُعلتْ رُكنًا من أركان الصلاة، لا تصحُّ الصلاة إلَّا بها؛ روى البخاري ومسلم عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ- رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ"(٢).

وهي السبع المثاني التي قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾(٣)، وروى البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى- رضي الله عنه- أنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ له:" لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُه"(٤).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ١٥٥) رقم (٢٨٧٥) أبواب فضائل القرآن. باب ما جاء في فضْل فاتحة الكتاب. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ٣٧٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/١٥١) برقم (٧٥٦) كتاب الأذان. باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلِّها في الحضر وفي السفر وما يجهر فيها وما يخافت. ومسلم في صحيحه (١/ ٢٩٥) برقم (٣٩٤) كتاب الصلاة. باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلِّ ركعةٍ وأنَّه إذا لم يُحسِن الفاتحة ولا أمكنه تعلُّمها قرأ ما تيسَّر له مِن غيرها.

(٣) الحجر: ٨٧.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٦/٨١) برقم (٤٧٠٣) كتاب تفسير القرآن. باب قوله: ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم﴾ الحجر: ٨٧.



قال الحافظ ابن حجر: اخْتُلِفَ فِي تَسْمِيَتِهَا" مَثَانِي" فَقِيلَ: لِأَنَّهَا تُثَنَّى كُلَّ رَكْعَةٍ أَيْ تُعَادُ، وَقِيلَ: لِأَنَّهَا يُثْنَى بِهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ: لِأَنَّهَا اسْتُثْنِيَتْ لِهَذِهِ الْأُمَّة، لَمْ تَنْزِل عَلَى مَنْ قَبْلهَا(١).

إذا ما كنتَ مُلتمِسًا لرزقٍ ونجحِ القصْدِ من عبدٍ وحُرٍّ
وتظفر بالذي ترجو سريعًا وتأمن من مُخالَفةٍ وغدرِ
ففاتحةُ الكتابِ فإنَّ فيها لِما أمَّلْتَ سِرًا أيَّ سِرِّ
فالازمْ درسَهَا في كُلِّ وقتٍ بصبحٍ ثم ظُهرٍ ثم عصرِ
كذلكَ بعد مغْربِ كُلِّ ليلٍ إلى تسعين تتبعُها بعشرِ
تنلْ ما شئتَ من عزٍّ وجاهٍ وعظمِ مهابةٍ وعُلوِّ قدْرِ(٢)

قال العلَّامة السعدي رحمه الله: هذه السورة على إيجازها؛ قد احتوت على ما لم تحتوِ عليه سورة من سور القرآن، فتضمَّنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبيَّة يُؤخَذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وتوحيد الألوهيَّة وهو إفراد الله بالعبادة، يُؤخَذ من لفظ: {اللَّهِ} ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ من غير تعطيلٍ ولا تمثيلٍ ولا تشبيهٍ، وقد دلَّ على ذلك لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ كما تقدَّم. وتضمَّنت إثبات النُّبوَّة في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنَّ ذلك ممتَنعٌ بدون الرسالة، وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وأنَّ الجزاء يكون بالعدل، لأنَّ الدِّين معناه الجزاء بالعدل، وتضمَّنت إثبات القدْر، وأنَّ العبد فاعلٌ حقيقةً، خلافًا للقدريَّة والجبريَّة، بل تضمَّنت الردَّ على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنَّه معرفة الحقِّ والعمل به. وكُلُّ مُبتدِعٍ وضالٍّ فهو مُخالِف لذلك، وتضمَّنت إخلاص الدين لله تعالى، عبادة واستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالحمد لله ربِّ العالمين(٣).

وهي شفاء الأبدان؛ كما في حديث البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أنَّ ناسًا من أصحاب النبي ﷺ كانوا في سَفَرٍ، فمرُّوا بحيٍّ من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يُضيِّفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؟ فإنَّ سيِّد الحيِّ لديغٌ، أو مُصابٌ، فقال رجلٌ منهم: نعم، فأتاه فرَقَاه بفاتحة

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٥٨).

(٢) الأبيات تُنسَبُ لأبي حامد الغزالي، ولم أقف عليها في كتبه. ويُنظَر: بوابة الشعراء - أبو حامد الغزالي - إذا ما كنتَ مُلتمِسًا لرزق(poetsgate.com)

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٠).

الكتاب؛ فبرأ الرجل، فأُعطِيَ قطيعًا من غنم، فأبى أن يقبلها، وقال: حتَّى أذكر ذلك للنبي ﷺ ، فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله؛ والله ما رقيتُ إلَّا بفاتحة الكتاب، فتبسَّم، وقال: وما أدراك أنَّها رقية؟ ثم قال: خذوا منهم، واضربوا لي بسهمٍ معكم[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تأمَّلتُ أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيتُه في الفاتحة في:" إيَّاك نعبدُ وإيَّاك نستعينُ[٢]".

والفاتحة هي أعظم مناجاة بين العبد وربِّه في صلاته، روى مسلم عن حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله ربِّ العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجَّدني عبدي، وفي رواية: فوَّض إليَّ عبدي، فإذا قال: إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالِّين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل[٣].

روى مسلم عن عبد الله بن عبَّاسٍ- رضي الله عنهما- قال: بينَما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ ﷺ سمِع نقيضًا من فوقِه، فرفع رأسه فقال: هذا بابٌ من السماءِ فُتِح اليومَ، لم يُفتَح قطُّ إلَّا اليوم، فنزل منه ملكٌ فقال: هذا مَلكٌ نزل إلى الأرضِ لم ينزِل قطُّ إلَّا اليوم، فسلَّم وقال: أبشِرْ بنورَينِ أوتيتَهما لم يؤتاهما نبيٌّ قبلَك: فاتحةُ الكتاب وخواتيمُ سورة البقرة، لن تَقرَأَ بحرفٍ منهما إلَّا أُعطيتَه[٤].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/٩٢) برقم (٢٢٧٦) كتاب الإجارة. باب ما يُعطَى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٢٧) برقم (٢٢٠١) كتاب السلام. باب جواز أخْذ الأجرة على الرقية.

(٢) المستدرَك على مجموع الفتاوى (١/ ١٧٥). المستدرَك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، جمعه ورتَّبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٩٦) برقم (٣٩٥) كتاب الصلاة. باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلِّ ركعةٍ وأنَّه إذا لم يُحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلُّمها قرأ ما تيسَّر له مِن غيرها.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٤) برقم (٨٠٦) كتاب صلاة المسافرين وقِصَرها. باب فضْل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحثِّ على قراءة الآيتَينِ من آخر البقرة.



قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: حريٌّ بطلبة العلم أن يحرصوا في كُلِّ مُناسَبَةٍ إذا اجتمعوا بالعامَّة أن يأتوا بآيةٍ من كتاب الله يُفسِّرونها، لا سيَّما ما يكثُر ترداده على العامَّة مثل الفاتحة، فإنَّك لو سألتَ عاميًّا بل كثيرًا من الناس عن معنى سورة الفاتحة لم يعرفْ شيئًا منها[1].

والخلاصة: سورةٌ من القرآن كريمة، فضائلُها كثيرة وعظيمة، فيها نورٌ مُبينٌ، وكنز ثمين، فيها الجلال والجمال، فيها خبر المهتدي والضال، فيها الإجابة والدعاء، والحساب والجزاء، فيها مراتب السعداء ومنازل الأشقياء، فيها وَعد ووعيد، وعبادة وتوحيد، هي السبع المثاني والنور العظيم، نزل بالبشارة بها ملَكٌ كريمٌ، وهي سورةٌ قصيرةُ الآياتِ، عظيمةُ المعاني، عديدةُ البركات، كثيرةُ الأسماء، جليلةُ العظات.

---

(١) تفسير العثيمين: جزء عمَّ (ص ٧). تفسير جزء عم، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢ م.




تم بحمد الله

٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري

فوائد شهر ربيع الآخر



كتبه الفقير إلى عفو ربه

أ. د. خالد بن عبد الغفار آل عبد الرحمن

الجزء الرابع

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ

ح خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن ، ١٤٤٥هـ

عبد الرحمن ، أ.د. خالد عبد الغفارعبد الله
فوائد شهر ربيع الآخر الجزء الرابع من سلسلة كتاب ٣٦٠ فائدة علي مدار العام الهجري./ أ.د. خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن
ط ١.- الرياض ، ١٤٤٥هـ
١٣٥ ص ! ١٧ x ٢٤ سم.- (٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري)

رقم الإيداع : ٢٠٠٩٩ / ١٤٤٥
ردمك :٣-٠٣٨٠-٠٥-٦٠٣-٩٧٨





إهــداء

إلى زوجتي وأبنائي الأوفياء الذين كان لهم الفضل بعد الله عز وجل في تشجيعي ودعمي المتواصل لإعداد هذه السلسلة من الفوائد التي تُحفّز المسلم والمسلمة للعمل الصالح واغتنام أيام العمر فيما ينفع ويرضي الله ﷻ.





مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. فبين يديك أخي القاري الكريم الجزء الرابع من كتاب " ٣٦٠ فائدة " على مدار العام الهجري، وهو كتاب يضم فوائد ودروسًا تُحفِّز المسلم والمسلمة على العمل الصالح واغتنام أيام العمر فيما يَنفع ويُرضي اللهَ عزَّ وجلَّ . تمَّ تقسيمها على أيام السنة الهجرية؛ بحيث يستطيع القارئ أن يبدأ بالقراءة من تاريخ اليوم الذي عزم أن يقرأ الكتاب فيه، ويقطف من ثمرات وفوائد ذلك اليوم. وفي كل يوم يجد القارئ جملة من المقتطفات التي تدور حول موضوع واحد؛ قد يكون له ارتباط بذلك اليوم أو الأيام أو الشهر تحديدًا وقد لا يكون. ولكن الموضوعات تُشكِّل في مجملها خلاصة الفوائد والخواطر والدروس التي تُعين المسلم على التجارة مع الله والعمل الصالح الذي يكون بإذن الله زادًا له في الدنيا ونجاة له في الآخرة برحمة الله ومِنَّته وفضله. وهذا الجزء مخصص لفوائد شهر ربيع الآخر، أسأل الله أن يكون فيه النفع والفائدة وأن يكون حجة لكاتبه وقارئه وكل من أعان على نشره وتوزيعه.

كتبه الفقير إلى عفو ربِّه
أ.د.خالد بن عبد الغفَّار آل عبد الرحمن
drkhalid63@gmail.com
الرياض
شهر ربيع الآخر ١٤٤٥هـ



فهرس فوائد شهر ربيع الآخر

م	أيّام السنة الهجرية	عنوان الفائدة	الصفحة
١	١ ربيع الآخر	حُسْنُ الظنِّ بالله	٧
٢	٢ ربيع الآخر	بين الخوف والرجاء	١٢
٢	٣ ربيع الآخر	مَن تواضع لله رفعه	١٦
٤	٤ ربيع الآخر	القدوة الحسنة	٢٠
٥	٥ ربيع الآخر	صنائع المعروف	٢٤
٦	٦ ربيع الآخر	أتدرون ما المفلس؟	٢٨
٧	٧ ربيع الآخر	فيه شفاءٌ للنَّاس (العسل)	٣٢
٨	٨ ربيع الآخر	اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة	٣٦
٩	٩ ربيع الآخر	لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا	٤٠
١٠	١٠ ربيع الآخر	خيرُ جليسٍ (القراءة)	٤٥
١١	١١ ربيع الآخر	لا تغضبْ	٤٩
١٢	١٢ ربيع الآخر	اتَّقوا الشُّبهات	٥٣
١٣	١٣ ربيع الآخر	فتنٌ كقطع الليل المظلم	٥٨
١٤	١٤ ربيع الآخر	ماء زمزم لما شُرِب له	٦٣
١٥	١٥ ربيع الآخر	أنا وكافل اليتيم كهاتين	٦٨
١٦	١٦ ربيع الآخر	الأيَّام البيض	٧٣
١٧	١٧ ربيع الآخر	أفشوا السَّلام بينكم	٧٨
١٨	١٨ ربيع الآخر	الحياء شُعبةٌ من الإيمان	٨٢
١٩	١٩ ربيع الآخر	كنتم خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجتْ للنَّاس	٨٦
٢٠	٢٠ ربيع الآخر	كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه	٩١
٢١	٢١ ربيع الآخر	قل هُو من عند أنفسِكم	٩٥
٢٢	٢٢ ربيع الآخر	وجعلنا الليل لباسًا	٩٩
٢٣	٢٣ ربيع الآخر	اللَّهُمَّ باركْ لأُمَّتي في بُكورها	١٠٣
٢٤	٢٤ ربيع الآخر	العينُ حقٌّ	١٠٧
٢٥	٢٥ ربيع الآخر	فجاءتْه إحداهما تمشي على استحياء (صفات المرأة المسلمة)	١١١
٢٦	٢٦ ربيع الآخر	إنَّ الشِّركَ لظلمٌ عظيمٌ	١١٥
٢٧	٢٧ ربيع الآخر	الشِّرْكُ الخفيُّ	١٢٠
٢٨	٢٨ ربيع الآخر	إنَّ لنفسك عليك حقًّا	١٢٤
٢٩	٢٩ ربيع الآخر	وإنَّ لأهلك عليك حقًّا	١٢٨
٣٠	٣٠ ربيع الآخر	الدالُّ على الخير كفاعله	١٣٢



١ ربيع الآخر

حُسْن الظنّ بالله

حُسْنُ ظنِّ العبد بربِّه هو أن يظنَّ العبد بأنَّ الله سيرحمه، ويعفو عنه، بالإضافة إلى اعتقاده بما يليق بجلال الله عزَّ وجلَّ، وما تقتضيه أسماؤه الحُسنى، وصفاته العُلا مِن ظنِّ الإجابة والمغفرة والقبول، وإنفاذ الوعد والمجازاة، الأمر الذي يُؤثِّر على حياة المؤمن، بحيث تصبح على الوجه الذي يَرضى الله عزَّ وجلَّ عنه به، حيث إنَّ حُسْنَ الظنِّ بالله من العبادات التي لا يتمُّ التوحيد إلَّا بها، فهو من واجبات التوحيد الرئيسة.

وقد عرَّفه الشيخ محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله- بأنَّه: رجاءٌ بالله يقود صاحبه للعمل الصالح، ويشحذ هِمَّته للعبادة والتطلُّع لما عند الله تعالى من فضْل[١].

والظنُّ بالله عزَّ وجلَّ نوعان:

الأول: الظنُّ المُنجي؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[٢].

الثاني: الظنُّ المُردِي؛ كقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾[٣].

وروي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يُدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلَّمون على المغفرة، حتَّى خرجوا من الدنيا مفاليس، ثم قرأ:﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤].

---

(١) نسبه لشرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٣/٣٣٥) الباحث سبيل ملهي الحربي في مقالته (حسن الظن بالله تعالى).
ولم أقف عليه في شرح رياض الصالحين، , وإنما في الموضع المذكور قول الشيخ العثمين: " متى يحسن الظن بالله عز وجل؟ يحسن الظن بالله إذا فعل ما يوجب فضل الله ورجاءه، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن الله تعالى يقبله، أما أن يحسن الظن وهو لا يعمل؛ فهذا من باب التمني على الله، ومن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني فهو عاجز. حسن الظن بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضي حسن الظن بالله عز وجل، فمثلاً إذا صليت أحسن الظن بالله بأن الله يقبلها منك، إذا صمت فكذلك، إذا تصدقت فكذلك، إذا عملت عملاً صالحاً أحسن الظن بأن الله تعالى يقبل منك، أما أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مالٍ يرجعون إليه". شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٣٥).

(٢) البقرة: ٤٦.

(٣) فصلت: ٢٣.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٥٣). الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

وهناك مواطنُ لحُسْن الظنِّ بالله؛ نذكر منها:

١- عند الموت: فعن جابر- رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول:" لا يموتَنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسن الظنَّ بالله عزَّ وجلَّ " رواه مسلم(١).

٢- عند الشدائد والكَرْب: فإنَّ الثلاثة الذين تخلَّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك لم يُكشف عنهم ما بهم من كربٍ وضيقٍ إلَّا بعد ما أحسنوا الظنَّ بربهم، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢).

٣- عند ضيق العيش: فعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" مَن نزلتْ به فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقتُه، ومن نزلتْ به فاقةٌ فأنزلها بالله فيوشِكُ الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجلٍ". رواه الترمذي (٣). وإنزالها بالله معناه: أن توقن وتظنَّ أن الله تعالى يُفرّجُ عنك ويزيلها.

٤- عند الدعاء: فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة " رواه الترمذي(٤).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٠٦) برقم (٢٨٧٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) التوبة: ١١٧،١١٨.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٦٣) برقم (٢٣٢٦) أبواب الزهد باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٣٢٦) وقال: "صحيح بلفظ: "... بموت عاجل أو غنى عاجل"". سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م. صحيح وضعيف سنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب : برنامج منظومة التحقيقات الحديثية –المجاني– من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥١٧) برقم (٣٤٧٩) أبواب الدعوات باب بدون ترجمة. والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٣، كتاب الدعاء باب لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه، والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٤٧٩).



وقال الشاعر:

وإِنِّي لأدعو الله حتَّى كأنَّني أرى بجميلِ الظنِّ ما اللهُ صانعُ[(١)]

٥- عند التوبة: فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال:" أذنب عبدٌ ذنبًا، فقال: اللهمَّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك ". متفق عليه[(٢)]. أي: ما دمتَ أنَّك تُذنب وتتوب فإنِّي أتوب عليك ولو تكرَّر الذنب منك[(٣)].

وإنِّي لآتي الذنبَ أعرفُ قدرَه وأعلمُ أنَّ اللهَ يعفو ويغفرُ
لئنْ عظَّمَ النَّاسُ الذنوبَ فإنَّها وإنْ عظُمتْ في رحمةِ اللهِ تصغُرُ[(٤)]

---

(١) البيت منسوب إلى محمد بن وهيب الحميري كما في الكامل في اللغة والأدب، لمحمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ) الكامل في اللغة والأدب (٢/ ٦)، وكذلك في المنتحل لأبي منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) (١/١١١)، وفي خاص الخاص (ص: ١١٩)، وفي ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٣/ ٢٨٥) وقال الثعالبي في لباب الآداب (ص: ١٨٦): "محمد بن وهيب الحِميري: غرة شعره وأمير كلامه قوله: وإني لأرجو اللهَ حتى كأنني ... أرى بجميلِ الظنِّ ما اللهُ صانعُ.
والبيت نسب أيضا لمسكين الدارمي كما في الفرج بعد الشدة للتنوخي (٥/ ١٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٥) برقم (٧٥٠٧) كتاب التوحيد باب قول الله تعالى {يريدون أن يبدلوا كلام الله} [الفتح: ١٥]. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١١٢) برقم (٢٧٥٨) كتاب التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٣) قال الحافظ في (الفتح) : "قال القرطبي: وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله والاعتراف أنه لا غافر للذنب سواه، قال الحافظ: وقال النووي: في الحديث أن الذنوب ولو تكررت مائة مرة بل ألفا وأكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته، وقوله: " اعمل ما شئت " معناه: ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك". فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤٧١).

(٤) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٦). حسن الظن بالله، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: مخلص محمد، الناشر: دار طيبة – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.



وهناك تلازم بين حُسْن الظنِّ بالله والعمل، وهذا التلازم مستقرٌ عند أهل السُّنَّة والجماعة، فلا يوجد من يقول بتجريد أحدهما عن الآخر، بل تتابعوا على القول بالتلازم بينهما.

قال الشيخ ابن باز- رحمه الله- في معرض التعليق على حديث:" لا يموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسن الظنَّ بالله تعالى "، قال:" هذا حديث صحيح، رواه مسلم في الصحيح: لا يموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسن ظنَّه بالله، والله يقول: أنا عند ظنِّ عبدي بي، والمعنى: أنَّه يُحسن ظنَّه بالله، أنَّ ربَّه جوادٌ، وأنَّه كريمٌ، وأنَّه غفورٌ رحيمٌ سبحانه، وأنَّه يتوب على عباده إذا تابوا إليه، وأنَّ فضله عظيمٌ، يُحسِن ظنَّه بربِّه، مع الجِدّ في العمل الصالح مع التوبة "[١].

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله-: لا شكَّ في أنَّ العبد المسلم ينظر إلى حُسْن الظنِّ بالله تعالى على أنَّه مُعينٌ له على عبادة الله سبحانه؛ فحُسْن الظنِّ بالله والعبادة في قناعة المسلم متلازمان لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر ... إلى أن قال: ومُخطئٌ مَن اعتقد أنَّ حُسْن الظنِّ بالله يُغني عن العمل والعبادة، ومَن اعتقد ذلك فقد أساء لنفسه، وأساء الظنَّ والأدب مع الله سبحانه؛ فالذي يُجاهر بالمعاصي ولا يستقيم على فعل الطاعات، فهو عاجز لا يدرك حقيقة حُسْن الظنِّ بالله[٢].

يقول الحسن البصري: ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، وإنَّ قومًا غرَّهم حُسْن الظنِّ بالله حتَّى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، يقولون: نُحسن الظنَّ بالله، كذبوا والله؛ لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل[٣].

ومن الأمثلة على حُسن الظنِّ بالله تعالى:

إبراهيم- عليه السلام-: وذلك عندما أُوقدتْ له نارٌ لم يُوقدْ مثلها قط، لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، جُمع لها الحطب شهرًا، حتَّى إنَّ الطير ليمرُّ بجنباتها فيحترق من شدَّة وهجها، يُلقى فيها مربوطًا من بعيد، فيقول وهو في الهواء مُناديًا مَن في السماء: (حسبُنا الله ونعم الوكيل)؛ فكانت نتيجة حُسن ظنِّه بربِّه تعالى أن يأتيَ الأمر من رب سميع ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[٤].

---

(١) موقع الشيخ ابن باز عليه رحمة الله. معنى حسن الظن بالله(binbaz.org.sa)

(٢) نسبه لشرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٣٣٥/٣) الباحث سبيل ملهي الحربي في مقالته (حسن الظن بالله تعالى). ولم أقف عليه في شرح رياض الصالحين، فالله أعلم.

(٣) ينظر: الدين الخالص أو إرشاد الخلق إلى دين الحق (٧/ ٢١). والأثر أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٦٣) برقم: ٣٠٣٥١.

(٤) الأنبياء: ٦٩، ٧٠.



وأيضًا نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم: وذلك حين هجرته من مكة إلى المدينة، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾[١] ؛ يقول أبو بكر الصديق- رضي الله عنه-: " نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله؛ لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال عليه السلام: يا أبا بكر؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟" متفق عليه[٢]؛ فكانت النتيجة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

الخلاصة: لا أجد في حُسن الظنِّ بالله بعد ذلك؛ أفضل من قول الإمام ابن القيم- رحمه الله-:

فلا تُظنَّنَّ بربِّك ظنَّ سَوءٍ ... فإنَّ اللهَ أولى بالجميلِ

ولا تَظُنَّنَّ بنفسِك قطُّ خيرًا ... فكيف بظالمٍ جانٍ جهولِ

وقُلْ: يا نفسُ مأوى كلِّ سَوءٍ ... أترجو الخيرَ من ميْتٍ بخيلِ

وظُنَّ بنفسِك السُوأى تجدْها ... كذاكَ وخيرَها كالمستحيلِ

ومَا بِكَ من تُقىً فيها وخيرٍ ... فتلكَ مواهبُ الرَّبِّ الجليلِ[٤]

---

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٦٦) برقم (٤٦٦٣) كتاب تفسير القرآن باب قوله: {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا} [التوبة: ٤٠]. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٤) برقم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) التوبة: ٤٠.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢١١). زاد المعاد في هدي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

٢ ربيع الآخر
بين الخوف والرجاء

الخوف والرجاء من أجَلِّ أعمال القلوب، والمراد بالخوف ما يجده الإنسان في قلبه من ألمٍ بسبب توقُّعه للمكروه في المستقبل، وأخوف الناس مَن كان أعرفَهم بنفسه وبربِّه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[١]، ويظهر أثر الخوف على العبد من خلال جوارحه وذلك بكفِّها وامتناعها عن المعاصي والتزامها للطاعات.

والخوف قسمان: محمودٌ ومذموم؛ فمتى كان الخوف مُعتدِلًا لا إفراطَ ولا مبالغة فيه كان محمودًا، ومتى تجاوز حد الاعتدال حتى يصل إلى القنوط واليأس كان مذمومًا.

أما الرجاء فهو ارتياح الشخص لانتظار ما هو محبوب إليه، فإذا لم يكن هناك سبب معلوم لانتظاره كان رجاؤه تمنِّيًا[٢]، ولا يتمُّ إطلاق الخوف والرجاء إلَّا على الأمر الذي يُتردَّد فيه، والرجاء أمر محمودٌ يحثُّ الشخص ويبعثه على العمل، ويجعله يواظب على فعل الطاعات، ويورث التلذُّذ بمداومة الإقبال على الله تعالى ومناجاته.

وحُبُّ المؤمن لله تعالى مقرون بالإجلال والتعظيم، إنَّه حُبُّ المملوك لمالكه، حُبُّ العبد لسيده، حُبُّ المخلوق المقهور الضعيف لخالقه الله الواحد القهار، ولذلك فإنَّ المُحبِّين الصادقين في مقام متوازن بين الرجاء والخوف.

فرجاؤهم مُعلَّق برحمة الله تعالى ولا يخافون إلَّا الله، فهم أشدُّ الناس خوفًا من الله تعالى، وقد جمع الله تعالى أركان هذا المقام الإيماني الرفيع في وصفه للملائكة المُقرَّبين، والأنبياء المرسلين، والصالحين العابدين، فقال جلَّ جلاله:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[٣]، لكي يبقى المُسلم مُطمئنًا ومُتيقِّظًا، يحدوه الأمل والرجاء في رحمة الله ومغفرته، وهو كذلك يخشى ويخاف عذاب الله سبحانه، وهذا هو المنهج الوسط.

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) جاء في "شرح المفصل" لابن يعيش (٤/ ٥٧٠) في الفرق بين الرجاء والتمني: "الفرقُ بينهما : أنّ الترجّي توقُّعُ أمر مشكوك فيه أو مظنونٍ، والتمنّي طلبُ أمر موهوم الحصول، وربما كان مستحيلَ الحصول، نحوَ قوله تعالى: {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}، وهذا طلبُ مستحيل، إذ كان الواقع بخلافه".

(٣) الإسراء: ٥٧.

فالرجاء منزلة عظيمة من منازل العبودية، وهي عبادة قلبيَّة تتضمَّن ذُلًّا وخضوعًا، أصلها المعرفة بجود الله وكرمه وعفوه وحلمه، ولازمها الأخذ بأسباب الوصول إلى مرضاته، فهو حُسْن ظنٍّ مع عملٍ وتوبةٍ وندمٍ.

والخوف كذلك؛ منزلة عظيمة من منازل العبوديَّة، وهو من عبادات القلوب التي لا تكون إلَّا لله سبحانه، وصرْفُها لغيره شركٌ أكبر. إذ إنه مِن تمام الاعتراف بملكه وسلطانه، ونفاذ مشيئته في خلقه.

والخوف من عقاب الله نوع من أنواع العبادة، ورجاء ثوابه نوع آخر من أنواع العبادة، فلا بُدَّ أن يجمع المسلم بين الخوف والرجاء دائمًا، فلا يُغلِّب جانب الخوف؛ فيشابه الخوارج الذين يُكفِّرون بالمعاصي ويُخلِّدون أصحابها في النار، ولا يُغلِّب جانب الرجاء؛ فيشابه المُرجئة الذين يَزهَدون في الأعمال ويُزهِّدون فيها، ولا يُقيمون لها وزنًا، بل ويُقلِّلون من شأنها؛ لقولهم: "لا يضر مع الإيمان ذنب".

وتغليب الخوف قنوط من رحمة الله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[١]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢]، وتغليب الرجاء وحده أمْنٌ من مكْر الله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٣]، فالله سبحانه وتعالى أمرَنا بالجمع بين الخوف والرجاء، وهذه طريقة الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا﴾[٤].

هذه طريقة الأنبياء؛ الجمع بين الخوف والرجاء، لا يعتمدون ولا يُرجِّحون جانبًا دون الآخر، فلا يَيئسون من رحمة الله مهما عظمت الذنوب، ولا يُيئِّسون غيرَهم ويقنطونهم من رحمة الله؛ بل يتوبون إلى الله من جميع الذنوب، والله يغفر الذنوب جميعًا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[٥].

---

(١) الحجر: ٥٦.

(٢) يوسف: ٨٧.

(٣) الأعراف: ٩٩.

(٤) الأنبياء: ٩٠.

(٥) الزمر: ٥٣،٥٤.

وممَّا رواه الترمذي أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دخلَ على شابٍّ وَهوَ في الموتِ فقالَ: كيفَ تجدُكَ؟ قالَ: واللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ؛ إنِّي أرجو اللَّهَ وإنِّي أخافُ ذنوبي، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: لَا يجتَمِعانِ في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطِنِ إلَّا أعطاهُ اللَّهُ ما يرجو، وآمنَهُ ممَّا يخافُ[(١)].

وجاء في الحديث أن رجلًا من بني إسرائيل قتل مائة نفسٍ ظُلمًا وعُدوانًا (والحديث متفق عليه)، فسأل: هل لي من توبة؟ فدلُّوه على عالِمٍ مِن علمائهم، فسأله أنَّه قتل مائة نفسٍ؛ فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومَن يحول بينك وبين التوبة، ولكنَّك بأرض سوء، فاذهب إلى أرض كذا وكذا؛ فإنَّ فيها أناسًا صالحين يعبدون الله فاعبد الله معهم، فتاب الرجل، وخرج مُهاجِرًا من أرض السوء إلى الأرض الصالحة فأدركته الوفاة في الطريق بينهما، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ملائكة الرحمة يقولون: إنه جاء تائبًا مُقبلًا بقلبه إلى الله عزَّ وجلَّ، وملائكة العذاب يقولون: إنَّه لم يعمل خيرًا قط، فأرسل الله إليهما ملكًا بصورة رجل يحكم بينهما، فقال: قيسوا ما بين البلدتين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا ما بين البلدتين فوجدوه أقرب إلى الأرض الطيبة بشبرٍ، فقبضته ملائكة الرحمة[(٢)].

فالمسلم لا ييئس من رحمة الله، فإنَّه إذا أيس من رحمة الله استمر في الذنوب والمعاصي، وإذا رجا رحمة الله فإنَّه يتوب ويعمل الطاعات والخيرات، والله يقبل من تاب وأناب.

وفي الحديث أن رجلًا من بني إسرائيل كان يرى أخاه على المعصية فينهاه، ثم يراه مرة ثانية فينهاه، ثم بعد ذلك لما لمْ ينتهِ؛ قال هذا الرجل: واللهِ لا يغفر الله لفلان، قال الله سبحانه:" مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ ـ أي يحلف عليَّ ـ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَه وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ". رواه

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٣٠٢) برقم (٩٨٣) أبواب الجنائز باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٣٩٠) برقم (١٠٨٣٤) كتاب عمل اليوم والليلة ما يقول المريض إذا قيل له: كيف تجدك؟. وابن ماجه في سننه (١٤٢٣/٢) برقم (٤٢٦١) كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢/ ٤٨٣). السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة — بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م. سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٤) برقم (٣٤٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١١٨) برقم (٢٧٦٦) كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله.

مسلم[١]. لماذا؟ لأنَّه يئس من رحمة الله للمذنب، فقال: والله لا يغفر الله لفلان، حلف أنَّ الله لا يغفر لفلان، فهو آيس من رحمة الله، فبسبب ذلك غضِبَ الله عليه، فقال الله له: إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَه وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ.

والخلاصة: أن الإنسان لا يقنط من رحمة الله، كما أنَّه لا يأمن من عذاب الله عزَّ وجلَّ، فيكون بين الخوف والرجاء، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة؛ الجمع بين الخوف والرجاء، وهذا هو الصراط المستقيم الذي يسير عليه المسلم، فيخاف من ذنوبه فيتوب، ويرجو رحمة الله فيُكثر من الحسنات والطاعات، فمن خالف ذلك فهو والعياذ بالله تعالى إما من الخوارج وإما من المرجئة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: القلبُ في سيره إلى الله عزَّ وجلَّ بمنزلة الطائر، فالمحبَّة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلِم الرأس والجناحان فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قُطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر[٢].

أمـــامَ بَابِـــك يَا ربَّـــاهُ أوقَفَنـــــي ... رجاءُ صفحِك ما أخطأتُ في حَدْسِي
أخـافُ إن أبعــدتْ بي عنـكَ راحلـتي ... وإنْ دنتْ منكَ يَحيَا القلبُ فـي أُنْسِ
في هـــدأةِ الليـلِ أتلـو ضـارعًا وجـلًا ... وأسكبُ الـدمعَ فـي أوقـاتيَ الخَمْسِ
أخشــــــى لقاكَ وأدعو أنْ يُرافقَـهُ ... مَــوتٌ أُزفُّ بــه في ليـلـةِ العُـرْسِ[٣]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٣) برقم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٥١٣). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

(٣) الأبيات للدكتور محمد علي الطبلاوي في قصيدة له بعنوان:" خوف ورجاء". https://al-omah.com/459320-2.

٣ ربيع الآخر
مَن تواضع لله رفعه

التواضعُ صفة حميدةٌ، وخُلَّة مجيدة، ترفعُ الرأس، وتُؤلِّفُ بينَ قلوبِ الناسِ، وتزيدُ المحبةَ والمودةَ، وتنشرُ الإخاءَ والصَّفاءَ الذي هو مطلبٌ للمسلمِ فِي كلِّ أحوالِهِ، وفي إقامتِهِ وتجوالِهِ، فهو رابطُ المسلمِ مَعَ كلِّ الناسِ مِنَ المسلمينَ وغيرِ المسلمينَ، كبيرِهِمْ وصغيرِهِمْ، غنيِّهِمْ وفقيرِهِمْ، فالنَّاسُ كلُّهُمْ سواسية لا فرق بيْنَ عربِيٍّ وأعجمِيٍّ، ولَا بيْنَ أبيضَ ولَا أسودَ إلَّا بالتَّقْوَى والعملِ الصَّالِحِ، ففي صحيح مسلم يقول النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ"[١].

فالمتواضع يبدأ مَن لقيه بالسلام، ويُجيب دعوة مَن دعاه، وهو كريم الطبع، جميلُ العِشْرة، طلقُ الوجه، رقيق القلب، متواضع عن رفعة، ليّن من غير ذِلَّة، جواد من غير إسراف.

خُلُقُ التواضع مَنْ تخلَّقَ بِهِ رفعَهُ اللهُ، ومَنْ تمسَّكَ بِهِ أسعدَهُ اللهُ، قَالَ سبحانَه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

قال الإمام السعدي:﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾التي أخبر الله بها في كُتبه، وأخبرتْ بها رسله، التي قد جمعتْ كل نعيم، واندفع عنها كلُّ مُكدِّر ومُنغِّص،﴿ نَجْعَلُهَا ﴾ دارًا وقرارًا﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبُّر عليهم وعلى الحق ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح[٣].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٩٨) برقم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٢) القصص: ٨٣.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٢٥). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.



ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلَّا تَواضُعًا فكَمْ تحتَها قومٌ هُمْ منك أرفعُ
فإنْ كنتَ في عزٍّ وخيرٍ ومَنعةٍ فكمْ ماتَ مِن قومٍ هُمْ منك أمْنَعُ[١]

فمَنْ أرادَ الرفعةَ عندَ اللهِ، والمكانةَ عندَ الناسِ؛ فعليهِ بالتواضعِ، وعليه بحُسْنِ الخلقِ، فهُمَا السبيلُ إلَى ذلكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: " ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ ". رواه مسلم[٢]، وقالَ الخليفةُ الصديق أبُو بكرٍ- رضيَ اللهُ عنه-: وجدْنَا الْكَرَمَ فِي التَّقْوَى، والْغِنَى فِي اليقينِ، وَالشَّرَفَ فِي التَّوَاضُعِ[٣].

ومن كان يُحبُّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ويرجو قُرْبَهُ، وأَنْ يُحشَرَ معَهُ؛ فليتأسَّ بأخلاقِهِ صلى الله عليه وسلم، وقد أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّهُ الكريمَ مُحمَّدًا صلى الله عليه وسلم بمعاملَةِ أصحابِهِ جميعًا بالتَّواضعِ واللِّينِ، وخفضِ الجناحِ لَهُمْ، فقالَ تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[٤]، بل إنَّ الدعوةَ إلى اللهِ ما قامتْ إلَّا باللينِ والتواضعِ والرحمةِ، قالَ تعالى﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[٥].

وكانَ النبي صلى الله عليه وسلم يزورُ ضُعَفَاءَ المُسْلِمِينَ، وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ، وَيَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ، ومِنْ تواضعِهِ- صلى الله عليه وسلم-: أَنَّهُ كانَ يَزُورُ الصحابةَ، وَيُسَلِّمُ عَلَى صِبْيَانِهِمْ، وَيَمْسَحُ بِرُءُوسِهِمْ، يتمثَّلُ- صلى الله عليه وسلم قولَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٦].

قال الإمام القرطبي- رحمه الله-: ألِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضعْ لهم، وأصله أنَّ الطائر إذا ضمَّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفًا لتقريب الإنسان أتباعه[٧].

وفِي البخاري يقول أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ- رضيَ اللهُ عنهُ-:" كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ "[٨].

---

(١) ينظر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ (١/ ٢٥٦).
(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠١) برقم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب باب استحباب العفو والتواضع.
(٣) ذكره عنه الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٣). إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت.
(٤) الكهف: ٢٨.
(٥) آل عمران: ١٥٩.
(٦) الشعراء: ٢١٥.
(٧) تفسير القرطبي (١٠/ ٥٧).
(٨) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٠) برقم (٦٠٧٢) كتاب الأدب باب الكبر.

وقال سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[1]، قال الإمام القرطبي- رحمه الله-: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نَهْيٌ عن الخيلاء، وأمْرٌ بالتواضع[2].

وقال الشيخ السعدي- رحمه الله-: أي كِبْرًا وتيهًا وبطَرًا، مُتكبّرًا على الحقّ، ومُتعاظمًا على الخَلْق، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ في تكبُّرك، بل تكون حقيرًا عند الله، ومُحتقَرًا عند الخَلْق، مبغوضًا ممقوتًا، قد اكتسبتَ أشرَّ الأخلاق، واكتسيتَ أرذلَها من غير إدراكٍ لبعض ما تروم[3].

وإنَّ من الأمور التي يكتسب بها الإنسان التواضع:

- مجالسة المساكين والفقراء، فهذا يكسر ما في نفسه من الكبر قطعًا لو كان فيه، ويزيده تواضعًا، وكذلك إجابة دعوتهم؛ لأنَّ هؤلاء الضعفة يرغب عنهم الناس، ولذلك لما جاء صناديد قريش إلى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وكان جالسًا مع العبيد والضُّعفاء؛ كصهيب وبلال وعمَّار وخبَّاب- رضي الله عنهم جميعًا-، قالوا: أنجلس مع هؤلاء الأعبد؟! هَمَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لشيءٍ رآه في مصلحة الدَّعوة أن يقوم عن هؤلاء، ويجلس معهم في مجلسٍ منفصلٍ، فأنزل الله الآية: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[4][5].

- قد يحدث للإنسان حادثٌ يُصاب به فيزداد به تواضعًا، فقد يكون فيه أحيانًا شيءٌ من الانكسار، كفقرٍ أو مرضٍ، وقد يكون إنسانًا جبارًا فيمرض فيتواضع، وفي هذا تربيةٌ على التَّواضع.

وفي قصَّة العضباء شاهدٌ على ذلك، فعن أنس- رضيَ اللهُ عنهُ- قال:" كانت ناقةٌ لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- تُسمَّى العضباء، وكانت لا تُسبَق، فجاء أعرابيٌّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتدَّ ذلك على المسلمين إذ كيف تُسبَق ناقة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، فاشتدَّ ذلك عليهم ووجدوا في

---

(١) الإسراء: ٣٧.

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٦٠).

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥٧).

(٤) الكهف: ٢٨.

(٥) رواه ابن ماجه في سننه (١٣٨٢/٢) برقم (٤١٢٧) كتاب الزهد باب مجالسة الفقراء. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٨٧٤). سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عام النشر: جـ ١ - ٤: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، جـ ٦: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، جـ ٧: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

أنفسهم، وقالوا: سُبِقت العضباء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ حقًّا على الله ألَّا يرفع شيئًا من الدُّنيا إلَّا وضعه ". رواه البخاري[١].

– ومن ذلك التأسِّي بأخلاقه صلى الله عليه وسلم في تواضعه مع الصغار والكبار، فقد جاء في الحديث الصَّحيح المتفق عليه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا مرَّ بصبيانٍ سلَّم عليهم[٢].

وكذلك جاء في الحديث:" أنَّ امرأةً سوداء كانت تقُمُّ المسجد؛ أي تنظِّفه على عهد النَّبي– صلى الله عليه وسلم–، امرأةٌ سوداء فقيرةٌ، عملها تنظيف المسجد، فلمَّا ماتت ودفنوها ليلًا؛ عاتبهم النَّبيُّ– صلى الله عليه وسلم– لأنهم لم يخبروه، وخرج وصلَّى على قبرها". متفق عليه[٣].

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يحكي لأصحابه ما كان في ماضيه من رعيه للغنم، فقال:" ما بعث الله نبيًّا إلَّا رعى الغنم. قال أصحابه: وأنتَ؟ قال: نعم، كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة". رواه البخاري[٤]، وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلم.

تَواضعْ تكُنْ كَالنجمِ لَاحَ لناظرٍ ... على صفحاتِ الماءِ وهُوَ رفيعُ
وَلَا تَكُ كَالدُّخانِ يَرفعُ نفسَهُ ... إلى طبقاتِ الجوِّ وهُوَ وضيعُ[٥]

والخلاصة: من أراد التواضع فليحتقِرْ نفسه في جنب الله، وليذكرْ هفواته وخلواته، قال مالك بن دينار:" لو أنَّ مناديًا يُنادي بباب المسجد ليخرجْ شرُّكم رجلًا، والله ما كان أحدٌ يسبقني إلى الباب إلَّا رجلًا بفضْل قوةٍ أو سعْيٍ"، فلما بلغ ابن المبارك قوله قال:" بهذا صار مالك مالكًا "[٦].

وقال عليُّ بن ثابت : ما رأيتُ سفيان الثوري في صدر المجلس قط، إنما كان يقعد إلى جانب الحائط ويستند إليه، ويجمع بين ركبتيه[٧].

فالتواضع الحقُّ ألَّا يرى الإنسانُ لنفسه على أحد فضْلًا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠١) كتاب الرقاق باب التواضع.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٥٥) برقم (٦٢٤٧) كتاب الاستئذان باب التسليم على الصبيان. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٠٨) برقم (٢١٦٨) كتاب السلام باب استحباب السلام على الصبيان.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٩٩) برقم (٤٦٠) كتاب الصلاة باب الخدم للمسجد. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٥٩) برقم (٩٥٦) كتاب الجنائز باب الصلاة على القبر.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٨٨) برقم (٢٢٦٢) كتاب الإجارة باب رعي الغنم على قراريط.

(٥) انظر: أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي (٤٧٩/٥). وموارد الظمآن لدروس الزمان (٤/ ١٩٢). موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، المؤلف: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤هـ.

(٦) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٢).

(٧) رواه ابن الجعد في مسنده (ص: ٢٨٠). مسند ابن الجعد، المؤلف: علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة نادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ – ١٩٩٠. وانظر: صفة الصفوة (٢/ ٢٦٢).

٤ ربيع الآخر

القدوة الحسنة

القدوة الحسنة هي من أنجع الوسائل وأقربها للنجاح وأكثرها فاعلية في حياة المُربِّين، وتظل كلمات المُربِّين مجرد كلمات، ويظل المنهج الإسلامي مجرد حبرٍ على ورق، ما لم يتحوَّل إلى حقيقة واقعة تتحرَّك في واقع الناس، وما لم يُترجَم إلى تصرُّفات وسلوك ومعايير ثابتة، عندئذ يتحوَّل المنهج إلى حقيقة، وتتحوَّل الكلمات إلى سلوك وأخلاق، وعندئذٍ تؤتي ثمارها في حياة المُربِّين.

فكيف يكون قدوةً حسنةً ذلك الأبُ الذي يُدخِّن أمام أبنائه أو يكذب أو يشتم أو ينظر إلى الحرام؟! وكيف يكون قدوةً حسنةً ذلك المُعلِّمُ الذي يُقصِّر في أداء واجباته مع تلاميذه؟ وكيف يكون قدوةً حسنةً ذلك المديرُ الذي يتأخَّر في الحضور إلى العمل أو يُقصِّر في واجبات عمله على مرأى ومسمع من موظفيه؟ فينبغي على القدوة أن يتَّصف بفعل المعروف وترْك المُنكَر من الأقوال والأفعال في نفسه ابتداءً، ومن ثَمَّ فإنه سيظهر بمظهر القدوة الحسنة لمن هم دونه سنًّا أو مكانةً.

وقد أوصى أحدُ السلف مُعلِّمَ ولده قائلًا:" ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإنَّ عيونَهم معقودةٌ بعينك، فالحَسَن عندهم ما صنعتَ، والقبيح عندهم ما تركتَ "(١).

والقدوة الحسنة هي خُلُق من أخلاق الأنبياء والمرسلين- عليهم الصلاة والسلام-، ولأهمِّيَّتها أورد الله عزَّ وجلَّ في القرآن الكريم صورًا عديدة من الاقتداء بالأنبياء.

فقد أرشد القرآن الكريم إلى أهمِّيَّة القدوة في حياة الأمَّة، فالله سبحانه وتعالى قد أرشد نبيَّه مُحمَّدًا صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء بمَن سبقه من الأنبياء والمرسلين؛ لأنَّهم صفوة الخَلْق، جبلهم على مكارم الأخلاق، وكمال الدين، ولهذا جاء الأمر بالاقتداء بهم واتِّباعهم، فقال الله تعالى بعد أن ذكر مجموعة من الرسل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾(٢)، وأرشد الله عزَّ وجلَّ الأمَّة إلى التأسِّي برسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع

---

(١) ذكره في العقد الفريد عن عمرو بن عتبة أنه قاله لمعلِّم ولده، ينظر: العقد الفريد (٢/ ٢٧٢). العقد الفريد، المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.

(٢) الأنعام: ٩٠.



أقواله وأفعاله وأحواله، وسلوكيات حياته صلى الله عليه وسلم. فقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١].

قال العلامة السَّعْديّ: حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، والبطل الباسل، فكيف تشحُّون بأنفسكم، عن أمر جَادَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فيه؟ فَتأَسَّوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون بهذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم، إلَّا ما دلَّ الدليل الشرعيُّ على الاختصاص به[٢].

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيِّئة، فالأسوة الحسنة في الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنَّ المُتأسِّي به سالك الطريق المُوصِّل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم، وأمَّا الأسوة بغيره إذا خالفه فهو الأسوة السيِّئة، كقول الكفار حين دعتْهم الرسل للتأسِّي بهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[٣].

وهذه الأسوة الحسنة إنَّما يسلكها ويُوَفَق لها مَن كان يرجو الله واليوم الآخر، فإنَّ ما معه من الإيمان وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه؛ يحثُّه على التأسِّي بالرسول صلى الله عليه وسلم.

مَشَى الطاووسُ يومًا باعْوجاجٍ ... فقلدَ شكلَ مَشيتهِ بنوهُ
فقالَ: علامَ تختالونَ ؟ قالوا: ... بَدَأْتَ به، ونحنُ مُقلِّدوهُ
فخالِفْ سيرَكَ المعوجَّ واعدلْ ... فإنَّا إن عدلْتَ مُعدلوه
أمَا تدري أبانا كلَّ فرعٍ ... يُجاري بالخُطى مَن أدَّبوه؟
وينشَأُ ناشئُ الفتيانِ منَّا ... على ما كان عوَّدَه أبوه[٤]

ومُقوِّمات القدوة الحسنة خمسة أمور:

---

(١) الأحزاب: ٢٢.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٦١).

(٣) الزخرف: ٢٢.

(٤) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١/ ١٠، بترقيم الشاملة آليًا).



الأول: الإخلاص: وهو أن يقصد المسلم بأقواله وأفعاله التقرُّب إلى الله، والتوصُّل إلى دار كرامته، وهذا مُقوِّم عظيم من مُقوِّمات القدوة الحسنة إن لم يكن هو أساسها ولبَّها، وجميع المُقوِّمات التي تليه مبنية عليه تابعة له.

والثاني: العمل الصالح وفق منهج الاتِّباع: فلا يكون قدوة حسنة مَن يُخالِف عملُه سُنَّةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا يكون قدوة حسنة مَن يبتدع في دين الله ما ليس منه، ولا يكون قدوة حسنة مَن يُجاهر بالمعاصي وعمل السوء.

والثالث: موافقة العمل للقول: فهما قرينان، ولا يكون قدوة حسنة أبدًا مَن تُخالِف أفعالُه أقوالَه، وأعمالُه كلامَه، قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[١]، ولذلك ينبغي أن يكون الآمر بالخير أول الناس إليه مبادرة، والناهي عن الشر أول الناس عنه بُعدًا، كما قال تعالى عن شعيب- عليه السلام-: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾[٢].

روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" يُؤتَى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النَّار فتندلق أقتابُه[٣]، فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع إليه أهل النار ويقولون: مالكَ يا فلان؛ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى؛ ولكن كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه"[٤].

والرابع: علو الهِمَّة: وهي نوع من التميُّز، ولهذا ينبغي لصاحبها أن يكون صاحب هِمَّة عالية، وعزيمة مُتوقِّدة.

والخامس: التحلِّي بالأخلاق الحميدة: وخاصَّة أمَّهات الأخلاق كالحلم والصبر والصدق، والشجاعة والوفاء، والحكمة والعدل، وغيرها.

وقد كان نبيُّنا صلى الله عليه وسلم قدوة في عبادته ودعوته، وصبره وزهده، وعدله ووفائه، وكرمه وتواضعه، ومعاملته لأهل بيته، ومعاملته لغير المسلمين.

---

(١) الصف: ٢.

(٢) هود: ٨٨.

(٣) قوله: "أقتابه" أي أَمْعَاءَهُ.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢١) برقم (٣٢٦٧) كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٠) برقم (٢٩٨٩) كتاب الزهد والرقائق باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله.



والاقتِداء الحسن والاتِّباع الصالح المحمود في الدنيا والآخِرة؛ إنَّما يكون من اللاحق بالسابق في الإيمان بالله والعمل الصالح الذي يُحبُّه ويَرضاه، والخُلُق الجميل الذي مدَحَه الله تعالى كما قال سبحانه عن يوسف- عليه السلام- أنَّه قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[١].

والخلاصة: أنَّه من المتفق عليه أنَّ للقدوة أهمِّيَّةً عظيمة لا تُنكَر، فهي من وسائل التربية سواء أكانت على مستوى البيت أم على مستوى المجتمع بشكل عام، فبالقدوة تنتشر الفضائل أو تشيع الرذائل، فإذا كانت القدوة حسنة فستعمُّ الفضائل، وإذا كانت سيِّئة فستشيع الرذائل، وغياب القدوة في حياة المسلمين عامل رئيس في فشو الجهل وانتشار المنكرات واستفحالها؛ وذلك لأنَّ العاملين بالعلم والقائمين بدين الله هم في الحقيقة دعاة يُعلنون الحق بأفعالهم، وينشرون الدين الحقَّ حين ينتشرون بين الناس، وقد نُقل عن إبراهيم بن أدهم أنه قال يومًا لأصحابه:" ادعوا الناس وأنتم صامتون، قالوا: كيف ذلك؟ قال: ادعوا الناس بأفعالكم "[٢].

---

(١) يوسف: ٣٧ ، ٣٨

(٢) ينظر: دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٢٠/ ٥، بترقيم الشاملة آليا). دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي، المؤلف: محمد بن محمد المختار الشنقيطي، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٥ ربيع الآخر
صنائع المعروف

إنَّ فعْل الخير، وبذْل المعروف، وإسداءه للخَلْق؛ لَهُوَ مِن أحبِّ الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ، ويقي به الله تعالى عبده من مصارع السُّوء في الدُّنيا، يقول صلى الله عليه وسلم:" صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السُّوءِ، وصدَقةُ السِّرِّ تطفِئُ غضبَ الرَّبِّ، وصِلةُ الرَّحِمِ تزيدُ في العمُرِ ". أخرجه الطبراني(١).

فخدمة الناس وقضاء حوائجهم، ونفْعهم بصور النفع المختلفة؛ كالإطعامِ وسقاية الماء، وسدادِ الديون، والإصلاحِ بين المتخاصمين، وبذْلِ الشفاعةِ لتحصيل خير أو دفْع شرٍّ، والسعْي في شأن الأرملة والمسكين، وكفالة اليتيم، وإعانة الضعيف، وإغاثة الملهوف، وغير ذلك من سائر المصالح التي يحتاجها الناس، وهو ما نسميه بصناعة المعروف للآخرين؛ كلُّ ذلك كان من خُلُقِ النبي، صلى الله عليه وسلم.

وقد أمَرَ الإسلامُ بالتَّعاوُنِ على البِرِّ والتَّقْوى بيْنَ النَّاسِ، وحثَّ على عَمَلِ ما أمَرَ به اللهُ تَعالى، وشدَّدَ على الانتِهاءِ عمَّا نَهى اللهُ عنه، وفي هذا الحَديثِ يقولُ النَّبيُّ- صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-:" صَنائِعُ المعْروفِ "، وهي ما اصْطَنَعتَهُ من خَيرٍ وأسْدَيتَهُ لِغَيرِكَ،" تَقي مَصارِعَ السُّوءِ "، أي: يُجازيهم اللهُ تَعالى على مَعْروفِهِم، فيُنجِّيهم من السُّقوطِ في الهَلَكاتِ، ومَواطِنِ الزَّلَلِ.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بفعل الخير في كثير من الآيات، منها:

قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ ۩ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧.]، فقوله: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾أمر يشمل كلَّ خير.

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[النساء: ١١٤].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنَّ رجلًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله؛ أيُّ الناس أحبُّ إلى الله؟ وأيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٦١) برقم (٨٠١٤). المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية. والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٧٠٨). صحيح الجامع الصغير وزياداته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.



أحبُّ الناس إلى الله عزَّ وجلَّ أنفعُهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله سرورٌ تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخٍ لي في حاجة؛ أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا (أي في مسجد المدينة)، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غضبه– ولو شاء أن يُمضيه أمضاه– ملأ الله قلبه رخاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيَّأ له؛ ثبَّت الله قدمه يوم تزول الأقدام". رواه ابن أبي الدنيا(١).

وعن أنس بن مالك– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إنَّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشرّ، وإنَّ من الناس مفاتيح للشرّ مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشرِّ على يديه ". رواه ابن ماجه(٢).

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" يا نساء المسلمات؛ لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرسِن(٣) شاة ". رواه البخاري مسلم(٤).

وقد ذمَّ الله تعالى الذين لا يفعلون الخير ولا يأمرون به؛ فقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾(٥)، وقال تعالى:﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣٤ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾(٧).

قال العلامة السعدي: أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم من ماله، ولا يَحضُّ غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأنَّ مدار السعادة ومادتها أمران:

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (ص: ٤٧) برقم (٣٦). والطبراني في المعجم الأوسط (١٣٩/٦) برقم (٦٠٢٦). والحديث حسنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٩٧).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٨٦) برقم (٢٣٧) افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم باب من كان مفتاحًا للخير. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١/ ٣٠٩). صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب : برنامج منظومة التحقيقات الحديثية – المجاني – من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

(٣) الفِرْسِنُ: بكسر الفاء والسين، عَظْم قليل اللحم، وهو للشاةِ والبعير بمنزلة الحافر للدَّابَّة. وهو لحم بين ظلفي الشاة. وكل حافر منشق منقسم فَهُوَ ظلف. المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث (٢/ ٦٠٥).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٥٣) برقم (٢٥٦٦) كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٤) برقم (١٠٣٠) كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بالقليل ولا تمتنع من القليل لاحتقاره.

(٥) الماعون: ٤–٧.

(٦) المدثر: ٤٢–٤٤.

(٧) الحاقة: ٣٤–٣٦.

الإخلاص لله الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخَلْق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوَّتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقُّوا ما استحقُّوا(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" ثلاثة لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم " فذكر منهم" ورجلٌ منع فضْل ماء فيقول الله: اليوم أمنعك فضلي كما منعتَ فضل ما لم تعمل يداك ". متفق عليه(٢).

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة والمثال فنبيُّنا- صلوات الله وسلامه عليه- من قبل بعثته ومن بعدها كان أكثرَ الناس نفعًا للآخرين، وأشدَّهم حرصًا على قضاء حوائجهم، وتصفه أمُّ المؤمنين خديجة- رضي الله عنها- في أول بعثته، فتقول:" واللهِ لا يُخزيكَ الله أبدًا، إنَّك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسِب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق " متفق عليه(٣).

وقال عمرو بن العاص- رضي الله عنه-: في كلِّ شيءٍ سرفٌ إلَّا في إتيان مكرمةٍ، أو اصطناع معروفٍ، أو إظهار مروءةٍ(٤). وقد قيل: اصنع المعروف إلى كلِّ أحدٍ، فإن كان من أهله فقد وضعتَه في موضعه، وإن لم يكن من أهله كنتَ أنت أهله(٥). قال ابن عبد ربه: أشرف ملابس الدنيا وأزين حُللها وأجلبها لحمدٍ، وأدفعها لذمٍّ، وأسترها لعيبٍ؛ كرمُ طبيعةٍ يتحلَّى بها السمحُ السريُّ، والجواد السخيُّ، وكفى بالكرم فخرًا وشرفًا أنَّه صفةٌ من صفات الله تعالى تسمَّى بها، فهو الكريم عزَّ وجلَّ، ومَن كان كريمًا مِن خلقه فقد تسمَّى باسمه، واحتذى بصفته(٦).

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٨٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١١٢) برقم (٢٣٦٩) كتاب المساقاة باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه. وأخرجه مسلم في الصحيح ١/ ١٠٣، برقم (١٠٨). كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٧) برقم (٣) كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومسلم في صحيحه (١/ ١٣٩) برقم (١٦٠) كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) ينظر: بهجة المجالس وأنس المجالس (ص: ٦٤، بترقيم الشاملة آليا). بهجة المجالس وأنس المجالس، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ).

(٥) ينظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ٣١٠). الآداب الشرعية والمنح المرعية، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، الناشر: عالم الكتب.

(٦) ينظر: العقد الفريد (١/ ١٨٨).

الناسُ بالناسِ مَا دامَ الحياءُ بهم	والسعدُ لا شكَّ تاراتٌ وهِبَّاتُ
وأفضلُ الناسِ مِن بينَ الورى رجلٌ	تُقضى على يدِهِ للناسِ حاجاتُ
لا تمنعنَّ يدَ المعروفِ عنْ أحدٍ	مَا دُمتَ مُقتدِرًا فالسَّعدُ تاراتُ
واشكرْ فضائلَ صُنْعِ اللهِ إذْ جُعلتْ	إليكَ لَا لكَ عندَ الناسِ حاجاتُ
قدْ ماتَ قومٌ ومَا مَاتتْ مكارِمُهم	وعاشَ قومٌ وهُمْ في الناسِ أمواتُ[١].

وقال تعالى عن نبيِّه موسى- عليه السلام-: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾[٢].

قال الشيخ السعدي: قَالَ لهما موسى: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقْي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ أي: لا قوة له على السقْي، فليس فينا قوة نقتدر بها، ولا لنا رجال يُزاحمون الرعاء، فرقَّ لهما موسى- عليه السلام- ورحمهما فَسَقَى لَهُمَا غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدَّة حرٍّ، وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مستريحًا لذلك الظلال بعد التعب، فَقَالَ في تلك الحالة مُسترزقًا ربَّه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ أي: إنِّي مفتقِرٌ للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسِّره لي[٣].

والخلاصة: أنَّ مِن أعظم ما ينفع العبدَ في حياته وبعد مماته، ويدفع عنه من السوء ما يعلمه وما لا يعلمه؛ بذْل المعروف للناس، ومحبَّة الخير لهم، والإحسان إليهم؛ فإنَّ ذلك لا يكون إلَّا نتاج قلب طيِّب طاهر، يُحبُّ الخير للغير، والله تعالى يُحبُّ أصحاب القلوب السليمة، الرحماء لخَلْقه، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: " إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ "متفق عليه[٤]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٥].

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان (٣/ ٥١٦).
(٢) القصص: ٢٤،٢٣.
(٣) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١٤).
(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم (١٢٨٤) كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٣٥) برقم (٩٢٣) كتاب الجنائز باب البكاء على الميت.
(٥) الأعراف: ٥٦.

٦ ربيع الآخر

أتدرون ما المفلس؟!

يحرص الجميع على زيادة مدَّخراتهم وممتلكاتهم، والمحافظة عليها، بل وتنميتها واستثمارها، ولا ضير في هذا الأمر طالما كان بالطرق المشروعة ولم يصرفنا عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، ولم ينس العبد موقفه في الآخرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾(١)، لذلك ينبغي أن نلتفت إلى رصيد آخر علينا أن نزيده وألا نغفل عنه.

عن أبي هريرة– رضي الله عنه– أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَن لَا دِرْهَمَ له وَلَا مَتاعَ، فقالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلَاةٍ وصِيَامٍ وزَكَاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ". رواه مسلم(٢).

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إلى أصحابه يُبيِّن لهم الحقائق، ويُصحِّح لهم المفاهيم، ويلفت انتباههم إلى ما غاب عنهم أو التبس عليهم، وكثيرًا ما كان يُجلي لهم الفارق بين قوانين الدنيا وقوانين الآخرة.

ففي هذا الحديثِ سأَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابَهُ: أَتدْرونَ مَا المُفلِسُ؟ فَأجابوا: المُفلِسُ فينا مَن لا يملكُ مالًا، ولا متاعًا من متاع الدنيا، فقد أجابوا بما عندَهم مِنَ العِلمِ بِحسَبِ عُرْفِ أهْلِ الدُّنْيا، وغَفلُوا عَنْ أمْرِ الآخرةِ، فقال– صلى اللهُ عليه وسلم–: إنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتِي، أي: المفلس الحقيقيَّ، أوِ المُفْلِس في الآخرةِ، مَن يأتي يومَ القيامةِ بِصيامٍ وصلاةٍ وزكاةٍ، أي: مَقبولاتٍ، ويأتي أيضًا، أي: ويَحضُرُ وقد شَتمَ هذا، أي: وَقعَ له شَتْمٌ وسبٌّ لِأحدٍ، وقذَفَ هذا، أي: بالزِّنا ونحوِه، وَأكلَ مالَ هذا، أي: بِالباطلِ، وسفَكَ دمَ هذا، أي: أَراقَ دمَه بِغيرِ حقٍّ، وضرَبَ هذا، فَيُعْطى المظلومُ مِن حسناتِ الظالِمِ، وهذا، أي: ويُعطَى المظلومُ الآخَرُ بعضَ حَسناتِه، فإنْ فَنِيَتْ حَسناتُه أي: نَفِدَتْ قَبْلَ أنَّ يُؤدِّيَ ما عليه مِنَ الحقوقِ؛ أَخَذَ الظالِمُ مِن خطاياهم، أي: مِن سيِّئاتِ

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧) برقم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم.



أصحابِ الحقوقِ؛ فَطُرِحتْ على هذا الظالِمِ أو وُضعَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ، أي: أُلْقِيَ ورُمِيَ في النَّارِ، وفيه إشعارٌ بِأنَّه لا عَفوَ ولا شفاعةَ في حقوقِ العبادِ إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ، فَيُرضِي المظلومَ بِمَا أرادَ، وفيه بيانُ مَعنى المُفلِسِ الحقيقيّ، وهو مَنْ أخَذَ غُرماؤُه أعمالَه الصَّالحةَ.

إن هذه الحياة دار سعي وعمل، وإن الآخرة دار حساب وجزاء، وإن يوم القيامة هو يوم العدل المطلق، فيه تُوفَّى الحقوق وتُسترَد المظالم ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[١].

قال الشيخ السعدي: وفي ضمن إخبار الله عن علمه وقدرته؛ الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي تُوفَّى به النفوس بأعمالها فلهذا قال ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: كاملًا موفرًا لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[٢]، والخير: اسم جامع لكل ما يُقرِّب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يُسخط الله من الأعمال السيّئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، أي: مسافة بعيدة، لعظم أسَفِها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بدَّ أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[٣]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾[٤]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[٥]، فوالله لترْك كل شهوة ولذَّة- وإن عسُر ترْكها على النفس في هذه الدار- أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلَّا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور[٦].

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) الزلزلة: ٧.

(٣) الزمر: ٥٦.

(٤) النساء: ٤٢.

(٥) الفرقان: ٢٧، ٢٨.

(٦) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(١)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:" لَتُؤَدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتَّى يُقاد للشاة الجَلحاء من الشاة القَرناء" رواه مسلم(٢).

إنَّ المتأمِّل في أسباب الإفلاس التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم يجد أنَّها كلها دائرة على سبب واحد وإن تنوَّعت صوره، ألا وهي الاعتداء على حقوق الخلق وظلمهم ". شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مالَ هذا، وسفك دمَ هذا، وضرب هذا "، وإنَّما يحمل على الاستخفاف بها والجرأة عليها أمور؛ منها الغفلة عن الحساب الأخروي، وإهمال محاسبة النفس في الدنيا، والاغترار بالقوة وأمْن العقوبة الدنيوية، والتعويل على العفو، والصحبة والمخالطة.

لذا ينبغي للإنسان أن يستحضر مراقبة الله وموقفه بين يديه وسؤال الله تعالى له يوم القيامة، فيكون على حذر من أن يزل بفعل أو قول، وقد أسمع رجلٌ عمرَ بنَ عبدِ العزيز- رحمه الله- كلامًا مؤلما فقال له: أردتَ أن يستفزني الشيطانُ بعزِّ السلطان فأنالَ منك اليوم ما تنالُ مني غدًا، انصرفْ رحمك الله(٣).

فما أقبحَ التفريطَ في زمن الصِّبا ... فكيف به والشيبُ نـازلُ؟
ترحَّل عن الدنيا بزادٍ من التُّقى ... فعُمرُك أيّـامٌ تُعَدُّ قلائـلُ(٤)

قال الشيخ العثيمين- رحمه الله تعالى- في شرحه على رياض الصالحين: وصدق النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنَّ هذا هو المفلس حقًّا، أمَّا مفلس الدنيا فإنَّ الدنيا تأتي وتذهب، ربما يكون الإنسان فقيرًا فيُمسي غنيًا، أو بالعكس، لكنَّ الإفلاس كلَّ الإفلاس أن يُفلس الإنسان من حسناته التي تعب عليها، وكانت أمامه يوم القيامة يشاهدها، ثم تؤخذ منه لفلان وفلان.

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧) برقم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٥٤٩) برقم (٧٩٧١). شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

(٤) ينظر: التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٢٦٦). التبصرة لابن الجوزي، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.



وفي هذا تحذير من العدوان على الخلق، وأنَّه يجب على الإنسان أن يُؤدِّي ما للناس في حياته قبل مماته، حتى يكون القصاص في الدنيا مما يستطيع، أمَّا في الآخرة فليس هناك درهم ولا دينار حتي يفدي نفسه، ليس فيه إلَّا الحسنات، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:" فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم، ثم طرح عليه، وطرح في النار"، ولكن هذا الحديث لا يعني أنه يُخلَّد في النار، بل يُعذَّب بقدر ما حصل عليه من سيِّئات الغير التي طرحت عليه، ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة؛ لأن المؤمن لا يُخلَّد في النار، ولكن النار حرُّها شديد، لا يصبر الإنسان على النار ولو للحظة واحدة، هذا على نار الدنيا فضلًا عن نار الآخرة، أجارنا الله وإياكم منها[١].

والخلاصة: أنَّ هذا الحديث يُبيِّن لنا هذه الصورة الرهيبة التي أطلع الله تعالى رسوله- صلى الله عليه وسلم- عليها من خلال الوحي؛ والتي ليست من مشاهد الدنيا، بل من مشاهد يوم القيامة، جديرة بأن يلفت الرسول صلى الله عليه وسلم انتباه أصحابه إليها، كما أنها جديرة بأن يُسمِّي صاحبها بالمفلس الحقيقي، وأن يكون الإنسان حذِرًا كلَّ الحذر من أن يكون من الحمقى الذين يُضيِّعون جهدهم وتعبهم وأعمالهم الصالحة في الدنيا بأمور لا يفيده ولا ينفعه فعلها أو قولها، وليبادر الإنسان بردِّ المظالم إلى أهلها قبل أن يأتي يوم ليس فيه درهم ولا دينار، بل سداد التبعات بالحسنات والسيِّئات.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٢٩).

٧ ربيع الآخر

فيه شفاء للناس (العسل)

يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)، جاءَتْ هذه الآيات في جملةٍ من الآيات، فيها تذكيرٌ من الله سبحانه وتعالى للإنسان بنِعَمِه؛ بأنْ أنزَل الكتاب رحمةً وهُدًى، يُحيِي به النفوس الميتة، فهو غذاء روحي مثلما أنزل من السماء الماءَ فيُحيِي به الأرض بعد موتها، وحياة الأرض فيها حَياةٌ للإنسان، كما ذكَّر الإنسان أيضًا بالعبر في الأنعام وثمرات النخيل والأعناب، ثم ذكَر الله تعالى ما في (عسل النحل) من فوائد مادِّيَّة وفوائد روحيَّة تُذكِّر الإنسان بنِعَمِ الله وآلائه.

والنحلة حشرةٌ صغيرةٌ، ومع ذلك فهي سجلٌّ حافلٌ بآيات الله البيِّنات، ففيها من الغَرائب في خِلقتها ومعيشتها ما جذَب العلماء الأجانب فأفنَوا حياتهم في دِراستها، وكلَّ يومٍ تتكشَّف لنا فيها آياتُ الله.

قال الشيخ السعدي في تفسيره: في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسَّر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها، ثم يُخرِج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنَّه الذي لا ينبغي أن يُحبَّ غيره ويُدعَى سواه(٢).

وقد ذكر الله تعالى العسل في القرآن الكريم في سياق بعض ما يتنعَّم به أهل الجنة فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾(٣).

---

(١) النحل: ٦٨ ، ٦٩.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٤٤).

(٣) محمد: ١٥.

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعسل لما فيه من فوائد عظيمة ؛ ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أنَّ رجلًا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنَّ أخي استَطلَق بطنه، فقال: اسقِهِ عسَلًا، فذهب فسقاه عسَلًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله؛ سقيتُه عسَلًا فما زاده إلا استِطلاقًا، قال: اذهَبْ فاسقِه عسَلًا، فذهب فسقاه عسَلًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله؛ ما زاده إلا استِطلاقًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" صدَق الله وكذَب بطنُ أخيك، اذهَبْ فاسقِه عسَلًا"، فذهب فسَقاه عسَلًا فبَرَأ[١].

ويبدو من هذا الحديث أنَّ الاستِشفاء بالعسَل يتطلَّب مُداوَمة تناوُله فترةً، بمثابة جرعات مُحدَّدة للعلاج، وهذا ما ثبَت طبِّيًّا.

وروى البخاري عن عبد الله بن عبَّاس- رضي الله عنهما- أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الشفاء في ثلاثة: في شَرطة مِحجَم، أو شَربة عسل، أو كيَّة بنار، وأَنْهَى أمَّتي عن الكيِّ"[٢].

وروي عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أَنَّهُ كَانَ لَا يَشْكُو قُرْحَة وَلَا شَيْئًا إِلَّا جَعَلَ عَلَيْهِ عَسَلًا، حَتَّى الدُّمَّل إِذَا خَرَجَ عَلَيْهِ طَلَى عَلَيْهِ عَسَلًا[٣].

وَحَكَى النَّقَّاش عَنْ أَبِي وَجْرَة أَنَّهُ كَانَ يَكْتَحِل بِالْعَسَلِ، فَكَانُوا يَسْتَشْفُونَ بِالْعَسَلِ مِنْ كُلّ الْأَوْجَاع وَالْأَمْرَاض، وَكَانُوا يُشْفَوْنَ مِنْ عِلَلهمْ بِبَرَكَةِ الْقُرْآن وَبِصِحَّةِ التَّصْدِيق وَالْيقين[٤].

وَمِنْ الْعِبْرَة فِي النَّحْل؛ أَنَّهَا تَأْكُل الْحَامِض وَالْمُرّ، وَالْحُلْو وَالْمَالِح، وَالْحَشَائِش الضَّارَّة، فَيَجْعَلهُ اللَّه تَعَالَى عَسَلًا حُلْوًا وَشِفَاءً بمختلف ألوانه وأنواعه مِنْ الْأَحْمَر وَالْأَبْيَض وَالْأَصْفَر، وَالْجَامِد وَالسَّائِل.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٣) برقم (٥٦٨٤) كتاب الطب باب الدواء بالعسل. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٣٦) برقم (٢٢١٧) كتاب السلام باب التداوي بسقي العسل.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٣) برقم (٥٦٨١) كتاب الطب باب الشفاء في ثلاث.

(٣) شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٤٨).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٠/ ١٣٦- ١٣٧)؛ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ٦١٠). المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، الناشر: (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.



ويتكوَّنُ العسل من سُكريَّات وأملاحٍ، وكثيرٍ من المعادن، وبعض الأحماض العضويَّة والفيتامينات، كما يحتوى على بعض الخمائر التي تجعَلُه غذاءً مهضومًا سهْل الامتصاص.

وعن العسل يقول الشاعر فأجاد وأحسن:-

غِــذاءٌ شِفــاءٌ كَــذا بَلسَــمٌ ... رَحيــقٌ مِــنَ الــوردِ يغْــدُو عَــسَلْ
بِتَقْديــرِ رَبّــي وَحِكْمَتِــهِ ... هَــدَى النَّحْـل كَـي تسْـتنيرَ الـذُّلَلْ
لِيَمْتَــصَّ هَــذا الــرَّحِيقَ غِــذاءً ... لِيَغــدُوَ شهْــدًا وَيشفــي العِلَــلْ
هَــدَى الكَــوْنَ كُــلَّ لِخِدْمَتِــنا ... كِرامًــاَ عَــنِ الخَــلْقِ مُنــذُ الأزَلْ
لَكَ الحَمْدُ رَبّاهُ أكرَمْتَنــا ... لك الكوْنُ طوْعًا بدونِ جَــدَلْ[١]

كما أنَّ العسل له قدرةٌ عجيبةٌ على التعقيم، فهو مُضادٌّ للجراثيم ويقتُلها؛ ولذلك استعمَله قُدَماء المصريين في تحنيط أجسادهم، واستعمَلَه الإغريق والرومان لحِفظ اللحوم لمُدد طويلة محتفظة بطَعْمِها الطبيعي.

وتحقيقًا لقول الله تعالى ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[٢]، فإنَّ فوائد العسل الطبيعي هي:

١- العسل علاجٌ للأمراض الجلديَّة؛ فهو يشفي الجُروح والدَّمامل والخراريج العميقة.

٢- العسل علاجٌ للجهاز التنفُّسي؛ وذلك باستِنشاق محلولٍ من العسل والماء بتركيز ١٠ في المائة.

٣- العسل علاجٌ للزكام؛ وذلك باستِعمال العسَل مع اللبن الدافئ، أو مع عَصِير الليمون.

٤- العسل علاجٌ لأمراض الرِّئة؛ ولقد ثبَت علميًّا أنَّ تَعاطِي العسل له أكبرُ الأثر في سُرعة شِفاء الأمراض الصدريَّة كالسُّلِّ.

٥- العسل علاجٌ لأمراض القلب؛ فقد ثبت طِبِّيًّا أنَّ استعمال العسل لمدَّة شهرين للمَرضى الذين يَشكُون من عِلَلٍ خطيرة في القلب يُحدِث تحسُّنًا مَلحوظًا في حالتهم، ويُرجِع حالة الدَّم إلى الحالة العاديَّة، ويزيد من الهيموجلوبين وقُدرة الجهاز الدوري، والعسل يمنَح عضلة القلب أحسَن الظروف لتغذيتها، ويجبُ أنْ يدخُل العسل في الطعام اليومي لمرضى القلب.

٦- العسل علاجٌ لأمراض المعدة والأمعاء؛ لأنَّ العسل أحسن صَديقٍ للمعدة، فهو يُساعِد على الهضم، ويُقلِّل الحموضة لدى المرضى الذين يَشكُون من الحموضة العالية في المعدة، وقد أثبتت الأبحاث الطبِّيَّة أنَّ العسل مُهمٌّ للأشخاص الذين يَشكُون من قُرَحِ المعدة والاثني عشر، وفي هذه الحالة يُؤخَذ العسل في كوب ماء دافئ قبل الأكل بساعتين.

---

(١) لم أقف على قائلها، إلا أنها ذكرت في بعض المواقع على الشبكة. العسل الأصلي – غِذاءٌ شِفاءٌ كذا بَلسَمٌ رَحيقٌ مِنَ... | فيسبوك(facebook.com)

(٢) النحل: ٦٩.



كما أنَّ الأبحاث الحديثة أثبتَت أنَّ العسل له فوائد أخرى كثيرة؛ مثل: مُقاوَمة الشيخوخة وتأخير ظُهورها، ومُساعَدة الأطفال على التسنين، وعِلاج الصِّداع العصبي، ومُقاوَمة شلل الأطفال، ومُساعدة الحوامل أثناءَ الحمل، وفي حالات فقْر الدم، كما يدخُل في مُركَّباتٍ طِبِّيَّة عديدة.

وقد اكتشف العلم الحديث أنَّ النحل يُخرِج من بطونه سائلًا أبيض يُشبِه اللبن ويُسمَّى لبن النحل، وله خَواصٌّ علاجيَّة عجيبةٌ؛ ولذلك سموه "إكسير الحياة"، وتُفرزِه غددٌ خاصَّة تُحوِّل الغذاء إلى ذلك اللبن.

والخلاصة: أن العسل من أقوى الأسباب الماديَّة للشفاء (وليس دواء فقط)، لأنَّ مرجعيته الوحي من القرآن العظيم والسنة الصحيحة، ويقبله العقل السليم. وصدق ابن مسعود- رضي الله عنه- حين قال: إِنَّ العَسَل فِيهِ شِفَاء من كل دَاء، وَالقُرْآن شِفَاء لما فِي الصُّدُور(١).

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٢٦) برقم (٣٠٠٢٠). الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.



٨ ربيع الآخر

اتَّقُوا النَّار ولو بِشقِّ تمرة

عَنْ عَدِيِّ بنِ حاتِمٍ- رَضْيَ اللهُ عَنْه- قَالَ: سَمِعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ:" ما منْكم مِنْ أحدٍ إلَّا سُيكلِّمُه ربُّه ليس بينه وبينه ترْجُمان؛ فينظرُ أيمنَ منه فلا يرَى إلَّا ما قدَّم، وينظرُ أشأم منه فلا يرَى إلَّا ما قدَّم، وينظرُ بينَ يديِه فلا يرَى إلَّا النَّار تلقاءَ وجهِهِ، فاتَّقُوا النَّار ولو بشقِّ تمرةٍ، فمَنْ لم يجِدْ فبكلِمةٍ طيِّبةٍ". متفق عليه[١].

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النار، واستعاذ بالله منها، ثمّ أعرض بوجهه ثلاث مرَّاتٍ، علمًا بأنَّه كان دائم التحذير لأمَّته من النار؛ شفقةً عليهم، ورحمةً بهم، وذلك من خلال حَثِّهم على أداء العبادات والطاعات التي تَقيهم منها؛ حيث حَثَّهم على البذل من المال، والأخلاق الحسنة التي تَقي من النار؛ ولو كانت يسيرةً قليلةً، كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القليلَ بنصف التمرة، ودلَّ الحديث النبويُّ على أنَّ الكلام الطيِّب النافع من أفعال الخير التي يُؤدِّيها المسلم؛ إذ جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كالتصدُّق بالمال، ومشتركًا معه في تحقيق الأثر في النفس؛ فهما يُدخِلان السرور إليها، وأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالتقوى، والتي يُراد بها: أداء الأعمال الصالحة، واجتناب الأعمال التي ورد النهي عنها، ولا بدَّ من ذلك في الأعمال كلِّها؛ سواءً كانت عظيمةً أم لا.

ويَحمل الحديث النبوي تأكيدًا لما دلَّ عليه قول الله سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٢]، في الحثِّ والترغيب في أداء الأعمال الصالحة، وعدم التقليل من شأنها، وبذلك تحصل الوقاية للعبد من النار.

وفي ذلك يقول ابن حجر العسقلاني- رحمه الله-: " وفي الحديث الحثُّ على الصدقة بما قلَّ وبما جلَّ، وأن لا يحتقر ما يتصدَّق به، وأنَّ اليسير من الصدقة يستر المتصدِّق من النار"[٣]، وبذلك يعتاد العبد على الصدقة دون النظر إلى قيمتها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٨) برقم (٧٥١٢) كتاب التوحيد باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣) برقم (١٠١٦) كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار.

(٢) الزلزلة: ٧، ٨.

(٣) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٨٤). فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.



قال العلَّامةُ ابنُ عثيمينَ- رحمه الله-: هذا الحديث في بيانِ شيءٍ من طرق الخيرات، لأنَّ طرق الخيرات – ولله الحمد- كثيرة، شرعها الله لعباده ليصلوا بها إلى غاية المقاصد، فمن ذلك الصدقة، فإنَّ الصدقة كما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم:" تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفِئُ الماءُ النَّارَ"(١). يعني كما لو أنَّك صببت ماءً على النار فانطفأت، فكذلك الصدقة تُطفئ الخطيئة(٢).

ولقد أوجب الله سبحانه وتعالى علينا اتقاء النار فقد قال في كتابه المبارك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾(٣)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾(٤)، ورحمةً من الله على العباد أنَّه ذكر الأسباب المؤدِّية إلى النار وذلك للبُعد عنها، وذكر الأسباب التي تقي من النار لكي نتبعها فنفوز بالجنة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾(٥)، وهذا يدلُّ على عدْل الله سبحانه وتعالى؛ حيث إنَّه أنزل الكتاب وقام بإرسال الرسل؛ بالإضافة إلى خَلْقه للجنة والنار، وذلك ليقوم العباد بالاجتهاد لمعرفة سبل الهداية للجنة والوقاية من النار، وتُعتبر النجاة من النار من أكبر وأعظم منن الله علينا، ويشعر بذلك أهل الجنة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾(٦)، ولهذا يجب على كل مسلم أن يكون مُلمًّا بأسباب الوقاية من النار وكيفيه اتِّقائها.

ومن أسباب النجاة من النار: أداء الأوامر والواجبات، والانتهاء عن النواهي والمحرَّمات، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٥/٢٣) برقم (١٥٢٨٤). والترمذي في جامعه (٥١٢/٢) برقم (٦١٤) أبواب السفر باب ما ذكر في فضل الصلاة. والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٢١٤) برقم (١١٣٣٠) كتاب التفسير، قوله تعالى: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع} [السجدة: ١٦]، وقوله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} [السجدة: ١٧]. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٨) برقم (٤٢١٠) كتاب الزهد باب الحسد. والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩١٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٠١).

(٣) التحريم: ٦.

(٤) آل عمران: ١٣١.

(٥) التوبة: ١١٥.

(٦) الطور: ٢٥-٢٧.

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١]، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم أيضًا:" كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَى، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَمَن يَأْبَى؟ قالَ: مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فقَدْ أَبَى" رواه البخاري[٢].

وهناك العديد من الأعمال التي تُحرِّم النار على العبد وتُنجِّيه، منها:

- الخوف من الله تعالى والخشية منه، قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[٣] ، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم :" عَينانِ لا تَمَسَّهما النَّارُ: عينٌ بكت من خشيةِ اللهِ، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيل اللهِ". رواه الترمذي[٤].
- اللجوء إلى الله تعالى وطلب النجاة من النار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[٥].
- التحلّي بالصبر على فَقْد الولد، فقد ورد عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبيّ- صلى الله عليه وسلم أنَّه قال:" لا يَمُوتُ لأحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ تَمَسُّهُ النَّارُ، إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ". متفق عليه[٦].
- الالتزام بأداء الصلاة والمداومة عليها، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم :" تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إلَّا أثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ علَى النَّارِ أنْ تَأْكُلَ أثَرَ السُّجُودِ". رواه البخاري ومسلم[٧].

---

(١) النساء: ١٣،١٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ٩٢) برقم (٧٢٨٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٣) الرحمن: ٤٦.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (١٧٥/٤) برقم (١٦٣٩) أبواب السفر باب ما جاء في فضل اللحرس في سبيل الله. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٤/ ١٣٩).

(٥) الفرقان: ٦٥.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٣٤) برقم (٦٦٥٦) كتاب الأيمان والنذور باب قول الله تعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم} [الأنعام: ١٠٩]. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٨) برقم (٢٦٣٢) كتاب البر والصلة والآداب باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢٨) برقم (٧٤٣٧) كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} [القيامة: ٢٣]. ومسلم في صحيحه (١/ ١٦٣) برقم (١٨٢) كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية.



- توحيد الله تعالى بإخلاصٍ ويقينٍ، فعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه-: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ- صلى الله عليه وسلم يقولُ:" مَن شَهِدَ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ؛ حَرَّمَ اللَّهُ عليه النَّارَ". رواه مسلم[١].
- تحقُّق محبَّة الله في القلب، ويمكن تحقيق محبَّة الله بالعديد من الأسباب، يُذكر منها: تلاوة القرآن الكريم، اتِّباع النبيِّ محمدٍ صلى الله عليه وسلم قولًا وفعلًا وخُلُقًا، الحرص على أداء النوافل من العبادات؛ إذ إنَّ أداء الفرائض سببٌ لنَيل محبَّة العبد لله، أمَّا النوافل فسببٌ في تحقُّق مَحبَّة الله للعبد، يقول الله تعالى في الحديث القدسيِّ:" وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ". رواه البخاري[٢]، الزُّهد في الحياة الدنيا، والسعي والعمل للحياة الآخرة، التوكُّل والاعتماد على الله سبحانه في الأمور كلِّها، مع الحرص على الأخذ بالأسباب وعدم إهمالها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٣].

الخلاصة: أنَّه ممَّا يُستفاد من الحديث الشريف:

- الحضُّ على الزيادة من صالح العمل، والابتعاد عن سيِّئه، وأنَّ الصدقة حجاب من النار، ولو كانت قليلة.
- كثرة طرق الخيرات التي شرعها الله لعباده ليصلوا بها إلى غاية المقاصد.
- الكلمة الطيبة تشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلَّ ما يتقرَّب به الإنسان إلى ربِّه عزَّ وجلَّ من القول.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٧) برقم (٢٩) كتاب الإيمان باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢) كتاب الرقاق باب التواضع.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

٩ ربيع الآخر

لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا

العمل اليسير من المعروف قد يكون كبيرًا عند الله عزَّ وجلَّ، وذلك بحسب ما قام بالعمل أو العامل من الأحوال، فلربما عظُم العمل بسبب النية الصالحة؛ كما قال عبد الله بن المبارك- رحمه الله تعالى-: " رُبَّ عملٍ صغيرٍ تُعظِّمه النية، ورُبَّ عمل كبير تُصغِّره النية"[١]، أو لأنَّ ذلك غاية ما يستطيعه العامل، أو لأنَّه آثر به مع حاجته، ولربما كان سبب التعظيم ما قارنه من شدَّة حال العمل، كما لو كان العمل متعلِّقًا بشدَّة حاجة الشخص، أو موضع حاجة، أو بسبب قرابة محتاج ونحو ذلك؛ فإنَّ العمل في مثل هذه الأحوال يتضاعف ويعظم أجره عند الله عزَّ وجلَّ؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[٣].

قال الشيخ السعدي في تفسيره: وهذا شامل عامٌّ للخير والشرِّ كلِّه، لأنَّه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء وجوزي عليها، فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾[٤]، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾[٥]، وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلًا والترهيب من فعل فعل الشرّ ولو حقيرًا[٦].

فلذلك ينبغي للمسلم أن يحرص على فعل المعروف بجميع أنواعه ولا يحتقر منه شيئًا، فلربما كانت نجاته في عمل يسير؛ فعن عدي بن حاتم- رضي الله عنه- أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال:" اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة" متفق عليه[٧].

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٧١). جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) البلد: ١١- ١٦.

(٣) الزلزلة: ٧، ٨.

(٤) آل عمران: ٣٠.

(٥) الكهف: ٤٩.

(٦) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٣٢).

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٨) برقم (٧٥١٢) كتاب التوحيد باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣) برقم (١٠١٦) كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار.



وعن جَابِرِ بْنِ سُلَيْمٍ الْهُجَيْمِيِّ- رضي الله عنه- قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ- صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ مُحْتَبٍ بِبُرْدَةٍ لَهُ قَدْ تَنَاثَرَ هُدْبُهَا عَلَى قَدَمِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَوْصِنِي قَالَ:" اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ المُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ". رواه النسائي(١).

ولا أدلَّ على ذلك من قِصَّة المرْأَةِ السَّوْدَاءِ، الَّتِي كَانَتْ تَقُمُّ وَتُنَظِّفُ الْمَسْجِدَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فهي امْرَأَةٌ صَغُرَ أَمْرُهَا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، لَكِنَّ اللَّهَ تعالى خَلَّدَ ذِكْرَهَا بَعْدَ مَوْتِهَا، لَا لِسَابِقَتِهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا لِأَنَّهَا قَدَّمَتْ عَمَلًا جَلِيلًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا بَقِيَ ذِكْرُهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، وَتَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهِ، وَبَقِيَتْ عَلَى هَذَا حَتَّى مَاتَتْ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي، فَبَادَرُوا بِتَجْهِيزِهَا وَدَفْنِهَا فِي اللَّيْلِ، ومَضَتْ أَيَّامٌ وَرَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَا يَرَى هَذِهِ الْمَرْأَةَ، فَسَأَلَ عَنْهَا فَأُخْبِرَ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِوَفَاتِهَا فَقَالَ:" أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي- فَكَأَنَّ النَّاسَ صَغَّرُوا أَمْرَهَا- ثُمَّ قَالَ: دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا؟ فَدَلُّوهُ، فَوَقَفَ عَلَى قَبْرِهَا، وَصَلَّى عَلَيْهَا". متفق عليه(٢).

ووَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَقَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا، قَالُوا: تَذَكَّرْ، قَالَ: كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ، وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمُوسِرِ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَجَوَّزُوا عَنْه"(٣).

وبالْعَمَلِ الْيَسِيرِ بُشِّرَ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِالْجَنَّةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ:" يَا بِلَالُ؛ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ". متفق عليه(٤).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٤/ ٢٣٤) برقم (٢٠٦٣٢). والنسائي في السنن الكبرى (٨/ ٤٣١) برقم (٩٦١١) كتاب الزينة الاختلاف على أبي إسحاق فيه. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٣٩٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٩) برقم (٤٥٨) كتاب الصلاة باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٥٩) برقم (١٠١٦) كتاب الجنائز باب الصلاة على القبر.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٧) برقم (٢٠٧٧) كتاب البيوع باب من أنظر معسرًا. ومسلم في صحيحه (٣/ ١١٩٤) برقم (١٥٦٠) كتاب المساقاة باب فضل إنظار المعسر.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٣) برقم (١١٤٩) كتاب التهجد باب فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩١٠) برقم (٢٤٥٨) كتاب الفضائل باب من فضائل بلال رضي الله عنه.



فَهَذَا عَمَلٌ يَسِيرٌ، قَدْ لَا يَنْتَبِهُ لَهُ الْكَثِيرُ مِنَّا، كَانَ عِنْدَ بِلَالٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَرْجَى عَمَلٍ نَالَ بِهِ بِشَارَةَ الْحَبِيبِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَهُ بِالْجَنَّةِ.

فالخير مهما قلَّ أو صغُر فإنَّه محبوبٌ لله، وإذا تقبَّله الله فهو عند الله عظيم، فلا تحتقرْ أيَّ عمل، فقد تدخل الجنة بعمل يسير، أو تؤثر بالناس بعمل قليل، والأمثلة في الشرع كثيرة منها:

- الرجل الذي سقى كلبًا فشكر الله عمله وغفر له، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:" في كل كبد رطبة أجر" متفق عليه[١].
- المرأة الزانية من بني إسرائيل التي سقت كلبًا فغفر الله لها، وكانت المرأة من البغايا المومسات، والحديث متفق عليه[٢].
- وفي صحيح مسلم يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" رأيتُ رجلًا يتقلَّب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين"[٣].
- وفي الصحيحين يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إنَّ الله لَيُربِّي صدقة أحدكم كما يُربِّي أحدكم فلُوَّه" متفق عليه[٤]. كما جاء أيضًا أنَّه " سبق درهم مائة ألف درهم" رواه النسائي[٥].

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾[٦]، فقدَّم النفقة الصغيرة لئلا تعظم ويعجب بها صاحبها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١١١) برقم (٢٣٦٣) كتاب التهجد باب فضل سقي الماء. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٦١) برقم (٢٢٤٤) كتاب السلام باب فضل ساقي البهائم المحترمة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٣) برقم (٣٤٦٧) كتاب الأحاديث الأنبياء باب حديث الغار. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٦١) برقم (٢٢٤٥) كتاب السلام باب فضل ساقي البهائم المحترمة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢١) برقم (١٩١٤) كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن الإشارة بالسلام إلى مسلم.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٠٨) برقم (١٤١٠) كتاب الزكاة باب الصدقة من كسب طيب لقوله: {ويربي الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: ٢٧٧]. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٢) برقم (١٠١٤) كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب.

(٥) رواه النسائي في السنن الكبرى (٣/ ٤٧) برقم (٢٣١٨) كتاب الزكاة صدقة جهد المقل. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٦/ ١٧١). صحيح وضعيف سنن النسائي، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب : برنامج منظومة التحقيقات الحديثية – المجاني – من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

(٦) التوبة: ١٢١.



فالعبرة بحسن العمل والإخلاص والإتقان؛ وإن قلَّ العمل مثل صلاة ركعتي الطواف وعدم الإطالة فيهما والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم أفضل من عشر ركعات طويلة بعد الطواف، و" ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها ". رواه مسلم(١)، وأفضل من ركعات كثيرة سواها.

- بل إن إمساك الإنسان الشر عن الناس يعتبر صدقة منه على نفسه كما جاء في الحديث المتفق عليه(٢).
  و" من دل على خير فله مثل أجر فاعله" رواه مسلم(٣)، و" مَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ؛ كُتِبَ له مِثْلُ أَجْرِ مَن عَمِلَ بهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِن أُجُورِهِمْ شيءٌ ". رواه مسلم(٤).
- والأذكار الشرعية منها كلمات يسيرة يبلغ بها الإنسان فضلًا كبيرًا، مثل:" كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ، ثقيلتانِ في الميزانِ، حَبيبَتانِ إلى الرحمنِ: سُبحانَ اللَّه وبحمدِهِ سُبحانَ اللَّهِ العظيمِ ". متفق عليه(٥)، و"سيد الاستغفار ...". رواه البخاري(٦). و " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر أحب إلي ممَّا طلعت عليه الشمس". رواه مسلم(٧).

ويأتي رجلٌ إلى النبي- صلَّى الله عليه وسلَّم- قد امتلأ نشاطًا، وتحرَّكت همَّته للمسابقة في أبواب الأعمال الصالحات، فيسأَل النبيَّ- صلَّى الله عليه وسلَّم- عن المعروف فيأتيه الجواب:" لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئًا ولو أنْ تُعطِي صلة الحبل، ولو أنْ تُعطِي شِسعَ النَّعل، ولو أنْ تَنْزِع من دَلوِك في إناء المُستَسقِي، ولو أنْ تُنحِّي الشيءَ من طريق الناس يُؤذِيهم، ولو أنْ تَلقَى أخاك ووجهُك إليه مُنطَلِق، ولو أنْ تلقى أخاكَ فتُسلِّم عليه، ولو أنْ تُؤنِس الوَحشان في الأرض". رواه أحمد(٨).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٠١) برقم (٧٢٥) كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما.

(٢) ولفظه: «تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك» رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٤٤) برقم (٢٥١٨) كتاب العتق باب أي الرقاب أفضل. ومسلم في صحيحه (١/ ٨٩) برقم (٨٤) كتاب الإيمان باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٠٦) برقم (١٨٩٣) كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٩) برقم (١٠١٧) كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم (٦٤٠٦) كتاب الدعوات باب فضل التسبيح. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٢) برقم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم (٦٣٠٦) كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار.

(٧) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٢) برقم (٢٦٩٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٨) رواه أحمد في مسنده (٢٥/ ٣٠٩) برقم (١٥٩٥٥). وأبو داود في سننه (٤/ ٥٦) برقم (٤٠٨٤) كتاب اللباس باب ما جاء في إسبال الإزار. والترمذي في جامعه (٥/ ٧٢) برقم (٢٧٢١) أبواب الاستئذان والآداب باب ما جاء في كراهية أن يقول عليك السلام مبتدئًا. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٣٩٣).

والخلاصة: أنه ينبغي أن يفعل المسلم الخير حتى ولو صغُر في عينه، وليجعل شعاره في صبحه ومسائه:" لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا "، فلا تبخَل على نفسك ببَذْل ابتسامة، أو دفع هديَّة، أو رفع أذيَّة، لا تستَقلِ ثواب الشَّفاعة الحسنة، وقَضاء الحوائج، وحل المشاكل، لا تَزهَد في قُربات وطاعات ولو كانت يسيرة؛ كمُواسَاة مكلوم، وتعزية مُصاب، وتشييع جنازَة، وعِيادَة مريض، وإنظار مُعسِر، وإدخال البهجة في النُّفوس، فلا تدري، فلعلَّ ذلك العمل- وإنْ كان صغيرًا- تكون به ومعه سعادَتُك ونجاتُك في أخراك، وبقاء ذكرك الحسن في دنياك.

١٠ ربيع الآخر

خير جليس (القراءة)

كثير منا مَن يبحث عن صديق ذي أخلاق طيِّبة، يستفيد منه وينهل من بحر علمه، ولكل باحث عن مثل هذا الصديق يجده في مكان واحد وهو المكتبة، والصديق هو الكتاب، لن يجد الإنسان جليسًا يجالسه ويقضي معه أجمل الأوقات أفضل من الكتاب، فإنَّه كما قال المتنبي:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنى سَرجُ سابحٍ *** وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ(١)

لذلك يجب علينا أن نهتم بالقراءة ونجعلها منهاج حياتنا، فلا تجعل يومًا يمرُّ عليك دون قراءة، وتخيّر الكتاب الجيِّد، لأنَّه مثل الصديق الجيِّد، فعليك أن تعتني باختيار الكتب التي تريد أن تقرأها، حتى تبني أفكارًا إيجابيَّة تساعدك علي إنارة طريقك في الحياة، والتغلُّب على المشاكل، فتختار الكتب المفيدة التي تبني ولا تهدم، لأنَّ بالقراءة تنهض الأمم وتبنى الحضارات، كما عليك أن تبتعد عن الكتب الهدَّامة، التي تحمل أفكارًا هادمة؛ فمثل هذه الكتب تهدم ولا تبني.

قيل لابن المبارك- رحمه الله-: يا أبا عبد الرحمن؛ لو خرجت فجلست مع أصحابك، قال: إني إذا كنت في المنزل جالست أصحاب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، يعني قراءة الكتب(٢).

إذن فكيف نقرأ؟ هناك ضوابط عديدة للقراءة المفيدة، نذكر منها:

- الاختيار الجيد للكتب: وذلك من خلال اختيار المؤلف والكتاب المناسبَين.
- التدرُّج في القراءة: فالمبتدئ لا ينبغي أن ينشغل بالمجلدات والكتب الكبار، بل ينبغي له أن يتدرَّج من الأسهل إلى الصعب إلى الأصعب، وإذا أدركت أنَّك تفهم ما في الكتاب وتستوعبه فاقرأه، ثم انتقل إلى ما هو أعلى منه، وحين تسلك هذا المسلك وتتدرَّج في القراءة فإنَّك ربما لا تجد تلك الصعوبة التي يجدها البعض حين يقرأ ما لا يناسبه؛ فيصاب بصدمات عنيفة قد تكون عائقًا له عن القراءة. جاء في تفسير قوله تعالى: { كُونُوا رَبَّانِيِّينَ}: "الرباني هُوَ الَّذِي رُبِّي بصغار الْعلم حَتَّى بلغ كباره"(٣).

---

(١) ينظر: الحماسة المغربية (١/ ٧٠٩). الحماسة المغربية = مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي (المتوفى: ٦٠٩هـ)، المحقق: محمد رضوان الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩١م.

(٢) ينظر: تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٢٦). تقييد العلم للخطيب البغدادي، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، الناشر: إحياء السنة النبوية – بيروت.

(٣) تفسير السمعاني (١/ ٣٣٦).

- التنوُّع في القراءة: فلا يسوغ أن تقتصر قراءتنا على فنٍّ معيَّن أو كاتب معيَّن أو موضوع مُحدَّد؛ فتقرأ في التفسير والحديث والفقه والعقيدة وعلوم الحديث واللغة والأدب والتراجم والقصص وغيرها من الكتب المفيدة.
- الجلسة الصحيحة تُعين على القراءة: لأن الجلسة أحيانًا قد تكون سببًا للنوم، وقد تكون سببًا لتشتيت الذهن، فاختر لنفسك الجلسة التي تساعدك على التركيز.
- التسجيل والتلخيص: فقد تأتيك فوائد فتستوعبها وتحفظها، لكن حين لا تسجلها قد تنساها.
- اختيار الوقت المناسب للقراءة: حيث يكون الإنسان حاضر الذهن، مرتاح البال.
- القراءة النقدية والاعتدال فيها، وألا تكون مجرد حاطب ليل.

مُعوِّقات القراءة: هناك مُعوِّقات قد تُعيق عن القراءة، يمكن أن نذكر منها:

أولًا: عدم إدراك أهمِيَّتها: فمعظمنا لا يدرك أهمِيَّة القراءة وحاجتنا إليها، بل وضرورتها لنا، ولو أنَّا أدركنا أن القراءة لنا كالماء للسمك، وكالهواء للطير؛ لاجتزنا كثيرًا من العقبات.

ثانيًا: الكسل ودنو الهمَّة: فالقراءة تحتاج من المرء أن يُفرغ جزءًا من وقته، وأن يمسك كتابًا ولا يفارقه، ويجمع فكره حوله، وهذا أمر قد لا تُعيننا أنفسنا الضعيفة عليه.

ثالثًا: عدم العناية بالوقت: ولهذا لا نجد وقتًا نقرأ فيه، وليس السبب في الحقيقة هو ضيق الوقت، بل عدم اعتنائنا به، ولعل خير وسيلة تُعيننا على ذلك هي أن نُخصِّص وقتًا كل يوم نقرأ فيه، ونعتبره واجبًا يوميًّا علينا، ينبغي ألَّا تغيب شمس اليوم إلَّا وقد أدَّينا هذا الواجب وقضيناه.

وعن فوائد القراءة يقول المُفكِّر الكبير عباس محمود العقاد: القراءة وحدها هي التي تُعطي الإنسان الواحد أكثر من حياة واحدة، لأنَّها تزيد الحياة عمقًا(١). وقال أيضًا: القراءة تضيف إلى عمر الإنسان أعمارًا أخرى(٢).

فهي من أكثر مصادر العلم والمعرفة، وأهم وسائل نقل أفكار العقل البشرى، وهى الصفة التي تُميِّز الشعوب التي تسعى للرُّقي والتقدُّم، ووسيلتها في ذلك الكتاب، فالإنسان حينما يريد أن يدرس ويتعلَّم في مجال من مجالات الحياة المتنوَّعة والكثيرة؛ فإنَّه يستخدم الكتاب لأنَّه سجل نعرف مِن

---

(١) ذكرت هذه المقولة في عدد من المواقع ولم أقف عليها في كتاب له. ينظر: عباس محمود العقاد - لست أهوى القراءة لأكتب ، ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً... - حكم(hekams.com)

(٢) ينظر: القراءة وأهميتها للفرد والمجتمع(alukah.net)



خلاله ما كتبه المؤرخون، وكذلك العالم والمدرِّس يعتمد على الكتاب في تدريسه للطَّلبة وتعليمهم المناهج المختلفة، فالكتاب هو محور العمليَّة التَّعليميَّة والتَّربويَّة وأداتها الرَّئيسة.

كما أنَّ الكتاب يمكن أن يكون وسيلة سياحيَّة تُمكِّن القارئ من التعرُّف على البلدان والمجتمعات، فهناك الكثير من كتب الآثار التي تذهب بالقارئ إلى بلدان بعيدة؛ ما كان يُمكن للإنسان التعرُّف عليها لولا الكتاب، ومثال على ذلك الرحلات التي كان يقوم بها ابن بطوطة ودوَّنها في كتابه الشهير" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، والكتاب يعتبر بمثابة أداة ترفيه عن النفس، ومثال على ذلك كتب النكت والقصص المضحكة عن البخلاء والأغبياء وغيرهم ككتاب البخلاء للجاحظ ، وكتاب الأذكياء لابن الجوزي، وكذلك كتب الألغاز والتشويق التي تعمل على استثارة العقل وتحفيزه للتفكير في الحلول، وكتب الأطفال التي تُزوِّدهم بالمعلومات عن الحيوانات والطيور وما شابه ذلك.

ومن فوائد القراءة:

- القضاء على الجهل والأمِّيَّة والتخلُّف ومحاربة الشعوذة والخزعبلات بالفكر والعقل المستنير.
- تُكسب القارئ خبرات وتجارب السابقين وتدفع بالقارئ إلى أخذ العِبَر.
- تملأ وقت الفراغ وتُمرِّن العقل على الفهم والإدراك والاستيعاب والتحليل والتصوُّر والتنبُّؤ بالنتائج.
- تُدخِل المتعة والسرور على النفس، وتقضي على التوتر والملل، وخاصَّة عند قراءة الروايات والكتب المُفضَّلة لدى القارئ.
- تُقوِّي الذاكرة وتحارب الخَرَف وتُحسِّن المزاج.
- تُقوِّي اللغة لدى القارئ، وتُمِدُّه بالقدرة على الكتابة والتعبير بشكل صحيح، وبكمٍّ هائل من المترادفات والكلمات والمصطلحات والتعابير.
- القراءة تزوِّد القارئ بأفكار جديدة وطرق متنوِّعة لحل المشاكل وتحقيق الأهداف، فهي أساسيَّة لمواكبة متطلبات حياتنا المعاصرة.
- العزوف عن القراءة خصوصًا في الجانب الديني قد يجعل البعض يقع فريسة أفكار هدَّامة.

الخلاصة: لقد كانت أول آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [(١)]، وهذا دليل على فضل القراءة وأهمِّيَّتها وعظم منزلتها، ومن الجميل أن تحرص على اقتناء الكتب

---

(١) العلق: ١.

وقراءتها، ومن المهمّ جدًّا أن تختار النافع منها، الذي يغرس في النفوس والقلوب حبَّ الدِّين والوطن والقيم الرفيعة، المُتمثِّلة في الوسطيَّة والاعتدال وقيم الخير والأخلاق الفاضلة والمبادئ الرصينة والسلوكيَّات السويَّة، حتى تكون القراءة إيجابيَّة هادفة، تبني ولا تهدم.

وأخيرًا؛ قسِّم قراءتك بين ٥٠ % في مجال تخصُّصك، و ٥٠ % في مجالات أخرى مهمَّة.

وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي عندما قال:

أنا مَن بدَّل بالكتب الصحابا ... لمْ أجدْ لي وافيًا إلَّا الكتابا

صاحبٌ إنْ عبتَه أو لم تعِبْ ... ليس بالواجدِ للصاحبِ عابا

كلَّما أخلقتُه جدَّدني ... وكساني من حُلَى الفضلِ

صحبةٌ لمْ أشكُ منها ريبةً ... ثيابا ووِدادٌ لمْ يُكلفني عِتابا[١]

(١) ينظر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٩/ ٢٥، بترقيم الشاملة آليا).



١١ ربيع الآخر

لا تغضب

كثيرًا ما نشتكي في حياتنا من طائفة مُعيَّنة من الناس يتملَّكها الغضب ويتحكَّم في أفعالها وتصرُّفاتها، ويُعتبَر الغضب حالة تعبير عن مشاعر إنسانيَّة كامنة تجاه مواقف مُعيَّنة تستثير الإنسان وتُحفِّزه للقيام بردِّ فعلٍ مُعيَّن يتَّسم بالشدَّة، وغالبًا ما يترافق مع الغضب أعراض جسدية مثل احمرار وجه الغاضب وارتفاع نبرة صوته، بحيث يعرف الناس ذلك منه فيقال: غضب فلان فبدا عليه ذلك.

وقد حذَّر الإسلامُ المسلمَ من الغضب، وحثَّه على الحلم وكظم الغيظ، وذلك لما للحلم من آثار حسنة على شخصيَّة الإنسان، ولما للغضب من إفرازات ونتائج سيِّئة عليه، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال " لا تغضب" فردَّد مرارًا، قال:" لا تغضب" رواه البخاري(١).

والغضب هو: انفعال أو تغيُّر يحصل عند غليان دم القلب؛ ليحصل عنه التشفِّي للصدر بإيذاء الغير. ويشمل التأثير الجسدي للغضب زيادة في معدل ضربات القلب وضغط الدم.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكثر من دعاء:" اللهمَّ إنِّي أسألك كلمة الحق في الرضا والغضب". رواه أحمد(٢)، فإنَّ الغضب إذا اعترى العبد، فإنَّه قد يمنعه من قول الحق أو قبوله.

وقد شدَّد السلف الصالح- رضوان الله عليهم- في التحذير من هذا الخُلُق المشين، فهاهو عليُّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- يقول:" أول الغضب جنون وآخره ندم، وربما كان العطب في الغضب"(٣).

وأُثر عن أحد الحكماء أنَّه قال لابنه:" يا بُنيَّ، لا يثبت العقل عند الغضب، كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة، فأقلُّ الناس غضبًا أعقلهم"(١).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٨) برقم (٦١١٦) كتاب الأدب باب الحذر من الغضب.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٠/ ٢٦٤) برقم (١٨٣٢٥). والنسائي، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٣/٥٥). والحديث صححه الألباني كما في تحقيق الاحتجاج بالقدر لابن تيمية (ص: ٩٠). الاحتجاج بالقدر، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الرابعة – ١٤٠٤، تحقيق: تحقيق المحدث العلامة محمد ناصر الدين الألباني.

(٣) ذكره ابن مفلح عن علي رضي الله عنه، ينظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ١٨٣). الآداب الشرعية والمنح المرعية، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، الناشر: عالم الكتب.

وقال آخر:" ما تكلمتُ في غضبي قط بما أندم عليه إذا رضيت"[٢].

ومن الصفات التي امتدح الله بها عباده المؤمنين في كتابه؛ ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٣]، فهذه الآية تشير إلى أن الناس ينقسمون إلى ثلاثة مراتب: فمنهم من يكظم غيظه ويوقفه عند حدِّه، ومنهم من يعفو عمَّن أساء إليه، ومنهم من يرتقي به سموُّ خُلُقه إلى أن يُقابل إساءة الغير بالإحسان إليه.

وللغضب أسباب كثيرة منها:

- ضعف صلة المرء بالكتاب والسُّنَّة، وعدم الاطِّلاع على هدي الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الباب.
- قلَّة العقل وضيق التفكير، وفرق كبير بين العقلاء والمجانين، وبين الصغار والكبار، فمَن يثور لأتفه الأسباب وأحقر الأمور ففيه شبَهٌ بالأطفال والمجانين، والعقلاء يمتازون بالصبر والتحمُّل وطلب الآخرة وانتظار الثمرة.
- ظروف الحياة ومتاعبها ومُتطلَّباتها الكثيرة ممَّا يُسبِّب القلق والتوتر، وعلى قدر لهث الإنسان وراءها وطلبه لها؛ بقدر ما يحصل التكدير ويعظم الغضب.
- التكبُّر والغرور بمال أو جاه أو منصب أو شهادة، والمغرور سريع الغضب لا يتحمَّل أدنى زلَّة من الآخرين، بل إنَّه لا يسمع نصحًا ولا يقبل رأيًا.
- الشعور بالنقص قد يدفع المرء للغضب، لأنَّه يشعر بالقصور والضعف، فيُعوِّض ذلك بالغضب لئلَّا يكتشفه الناس.
- ومن أهم الأسباب التي تجلب الغضب؛ إثارة النعرات والعصبيَّات والقوميَّات والحزبيَّات والولاءات والانتماءات، فكل ذلك يدفع للانتقام والتعالي، ويشتدُّ الغضب ويعظم، وقد يقع هؤلاء في المهالك.
- وتختصُّ النساء بالغيرة الشديدة التي تجعل المرأة سريعة الغضب؛ فتنقلب حياتها إلى جحيم، وقد تُشرِك زوجها في هذا الأمر، فتكون سببًا لهدم بيتها وتفريق أسرتها.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٦).

(٢) ينظر: الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٥٥). الزهد، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) آل عمران: ١٣٤.

أما عن علاج الغضب فهناك أمور يُراعَى فعلُها عند الإحساس بالغضب: حيث جاءت الوصايا النبويَّة التي تحثُّ على عدم الانفعال، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأمور التي تُساعد على ذلك، والتي يُستحبُّ فِعْلُها، نذكر بعضًا منها:

- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم: فقد تشاجر رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدأ الغضب يفور منهما، فقال صلى الله عليه وسلم:" إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالَهَا لَذَهَبَ هذَا عنْه: أَعُوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ". متفق عليه [١].
- تغيير الموضع الذي هو فيه: جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إذا غضِبَ أحَدُكم وهو قائمٌ فلْيَجلِسْ، فإنْ ذهَبَ عنه الغَضبُ وإلَّا فلْيَضطَجِعْ". رواه أبو داوود[٢].
- الوضوء: وإخماد غضب وثوران النفس بالماء، قال صلى الله عليه وسلم:" إنَّ الغضب من الشيطان، وإنَّ الشيطان خُلِق من النار، وإنَّما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ". رواه أبو داوود[٣].
- التأسِّي بهديه صلى الله عليه وسلم في الغضب : فهو أسوتنا وقدوتنا، ومواقفه واضحة في أحاديث كثيرة، ومن أبرزها:

عن أنس- رضي الله عنه- قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم (ما بين العنق والكتف) وقد أثَّرت بها حاشية البرد، ثم قال: يا محمد؛ مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفتُ إليه- صلى الله عليه وسلم فضحك، ثم أمر له بعطاء، متفق عليه[٤].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٨) برقم (٦١١٥) كتاب الأدب باب الحذر من الغضب. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١٥) برقم (٢٦١٠) كتاب البر والصلة والآداب باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٥/ ٢٧٨) برقم (٢١٣٤٨). وأبو داود في سننه (٢٤٩/٤) برقم (٤٧٨٢) كتاب الأدب باب ما يقال عند الغضب والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ٢٨٢).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٩/ ٥٠٥) برقم (١٧٩٨٥). وأبو داود في سننه (٢٤٩/٤) برقم (٤٧٨٤) كتاب الأدب باب ما يقال عند الغضب والحديث ضعفه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ٢٨٤).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٩٤) برقم (٣١٤٩) كتاب فرض الخمس باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٣٠) برقم (١٠٥٧) كتاب الزكاة باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة.



ومن التأسِّي بالنبي صلى الله عليه وسلم أن نجعل غضبنا لله، وإذا انتهكت محارم الله، وهذا هو الغضب المحمود، فقد غضب صلى الله عليه وسلم لما أخبروه عن الإمام الذي يُنفِّر الناس من الصلاة بطول قراءته، متفق عليه[١].

وغضب لما رأى في بيت عائشة- رضي الله عنها- سترًا فيه صور ذوات أرواح، رواه البخاري[٢].

وغضب لما كلمه أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- في شأن المخزوميَّة التي سرقتْ، وقال له: أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟ متفق عليه[٣].

وغضب لما سُئل عن أشياء كرهها، وغير ذلك. فكان غضبه صلى الله عليه وسلم لله وفي الله.

والخلاصة: كن هادئًا؛ فالهدوء سمة من سمات النجاح، والهدوء تعبير عن شخصية قويَّة متماسكة، والهدوء عنوان لإنسان واعٍ مُتحضِّرٍ، والأمر فيما هو خلاف ذلك على العكس تمامًا؛ فإن ذلك الإنسان الذي يثور لأتفه الأسباب، ويهيج لأسخف الأمور، فإنَّه يعبر عن إنسان ضعيف الشخصية، ضعيف العقل، ضعيف الإرادة. تمامًا كالشجرة الضعيفة التي تُؤثِّر عليها أبسط هبَّة من الريح، أمَّا الإنسان القويُّ فكالشجرة القويَّة الممتدَّة الجذور في أعماق الأرض، حيث تزداد ثباتًا كلَّما عصفت الرياح بها.

واعلم أنَّ الغضب يُولِّد الغضب، أمَّا الهدوء فإنَّه يُطفئ الغضب، كما يُطفئ الماءُ النار، فكن هادئًا في تعاملك مع الآخرين، استخدم لباقتك مع المُسيئين إليك، تكلَّمْ بعبارات رزينة ووديَّة. فهذا هو أقصر طريق لكسب الآخرين، ونيل إعجابهم.

وفي هذا يقول العرجي الشاعر:

وإذا غضبتَ فكنْ وقورًا كاظمًا ... للغيظِ تُبصرُ ما تقولُ وتسمعُ
فكفَى به شـــرفًا تبصُّرُ ساعةٍ ... يرضَى بها عنك الإلهُ وتُرفعُ[١]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٤٢) برقم (٧٠٢) كتاب الأذان باب تخفيف الإمام في القيام، وإتمام الركوع والسجود. ومسلم في صحيحه (١/ ٣٤٠) برقم (٤٦٦) كتاب الصلاة باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٦٣) برقم (٢١٠٥) كتاب البيوع باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٦٦٨) برقم (٢١٠٧) كتاب اللباس والزينة باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٥) برقم (٣٤٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣١٥) برقم (١٦٨٨) كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود.

١٢ ربيع الآخر

اتقوا الشبهات

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير- رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" إنَّ الحلال بيّن وإنَّ الحرام بَيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناسِ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يُوشك أن يقع فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملك حمى، ألا وإنَّ حمى الله محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب" رواه البخاري ومسلم(٢).

هذا الحديث من الأحاديث الهامَّة التي عليها مدار الإسلام، حتى قال عنه الإمام النووي: أَجْمَعَ العلماء عَلَى عِظَمِ وَقْعِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ، وَأَنَّهُ أَحَدُ الأَحَادِيثِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الإِسْلامِ، قَالَ جَمَاعَةٌ: هُوَ ثُلُثُ الإِسْلامِ، وَأَنَّ الإِسْلامَ يَدُورُ عَلَيْهِ، وَعَلَى حَدِيثِ:" الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ"(٣)، وَحَدِيثِ:" مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المرء تركه ما لا يَعْنِيهُ"(٤)(٥).

ونظم بعضهم هذه الأحاديث فقال:

عُمْدَةُ الدِّينِ عِنْدَنا كَلِمَاتٌ ... أَرْبَعٌ مِنْ كَلامِ خَيْرِ الْبَرِيَّهْ
اتَّقِ الشُّبُهَاتِ وَازْهَدْ وَدَعْ مَا ... لَيْسَ يَعْنِيكَ وَاعْمَلَنَّ بِنِيَّهْ(٦)

---

(١) الأبيات ذكرها عدد من أهل العلم عن العرجي. ينظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم (٥٢) كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٦) برقم (١) بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٥١٥) برقم (١٩٠٧) كتاب الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنية»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٥٩) برقم (١٧٣٧) والترمذي في جامعه (٤/٥٥٨) برقم (٢٣١٧) أبواب الزهد باب بدون ترجمة. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣١٥) برقم (٣٩٧٦) كتاب الفتن باب كف اللسان في الفتنة. والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٠٢٧).

(٥) ينظر: شرح النووي على مسلم (١١/ ٢٧). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢.

(٦) ينظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٦٣).

إنَّ القلب هو مَلِكُ الجوارح جميعها وهو مُسيِّرٌ لها، ولكي ينشغل بالعبادة الحقَّة ويضبط بقية الحواس؛ يجب أن يكونَ طاهرًا نقيًّا خاليًا، إلَّا مَن حُبِّ الله ومن والاه وسار على نهجه المستقيم، مُتخلِّصًا من جميع الأمراض المُفسدة له، والمشقية لجميع جوارح صاحبه.

إنَّ من اعتاد التساهل وتمرَّن عليه، واجترأ على شبهة ثمَّ على شبهة أغلظ منها، وهكذا؛ فسيقع في الحرام لا شكَّ، لأنَّ الشبهة باب الحرام، ومَن ولج مِن هذا الباب لا بدَّ وأن يقع في الحرام، والذي يمنع من ذلك الورع.

يقول القاسمي: من العجائب أنَّا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا وتاجرنا وركبنا البحار والبراري، وخاطرنا واجتهدنا في طلب أرزاقنا أشد الاجتهاد، ثم إذا طمعتْ أعيننا نحو الملك الدائم المُقيم في جنات لا نصب فيها ولا وصب؛ طمعنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا(١).

قال الشيخ العثيمين- رحمه الله-: قسَّم النبي صلى الله عليه وسلم الأمور إلى ثلاثة أقسام: حلال بيِّن، وحرام بيِّن، ومشتبه؛ الحلال البيِّن كَحِلِّ بهيمة الأنعام، والحرام البيِّن كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أشبه ذلك، وكلُّ ما في القرآن من كلمة (أحلَّ) فهو حلال، ومن كلمة (حرَّم) فهو حرام، فقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾(٢)؛ هذا حلال بيِّن، وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾(٣) ؛ هذا حرامٌ بيِّن.

وهناك أمور مشتبهات تخفى على الناس، وأسباب الخفاء كثيرة منها: ألَّا يكون النصُّ ثابتًا عند الإنسان، يعني يتردَّد: هل يصحُّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم أم لا يصحُّ؟ ثم إذا صحَّ؛ قد تشتبه دلالته: هل يدلُّ على كذا أم لا يدلُّ؟ ثم إذا دلَّ على شيء مُعيَّن؛ فقد يشتبه: هل له مُخصِّص إن كان عامًّا؟ هل له مُقيِّد إن كان مطلقًا؟ ثم إذا تبيَّن فقد يشتبه: هل هو باقٍ أم منسوخ؟(٤).

وفي هذا الحديث يرشدنا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم إلى ما هو خيرٌ لنا في ديننا وأعراضنا، وهو الابتعاد عن مواطن الريب، ليسلم الدين من النقص، والعِرْض من الطعن، فذكر أنَّ

---

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (ص: ٢٩٣). موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: مأمون بن محيي الدين الجنان، الناشر: دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) البقرة: ٢٧٥.

(٤) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٩٢).



الحلال بيّن واضح، وهو ما أذن الشارع في فعله بنصٍّ في القرآن أو في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك الحرام واضح، وهو ما منع الشارع فعله بنصٍّ قرآنيٍّ أو حديث نبويٍّ، وبعبارة أخرى: الحلال هو الطيِّب النافع، والحرام هو الخبيث الضارُّ، وبيْن الحلال والحرام أمور خفيَّة مشتبهة، لا يدري كثير من الناس أهي من الحلال أم من الحرام.

وممَّا يندرج تحت الشبهات؛ الأمور التي لا تطمئن إليها نفسك الطيِّبة، فدعْها إلى ما تطمئن إليه؛ عملًا بحديث: " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ". رواه الترمذي(١).

يقول وابصة بن معبد- رضي الله عنه-:" أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البِرِّ والإثم إلَّا سألته عنه، وإذا عنده جمع فذهبتُ أتخطَّى الناس، فقالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، إليك يا وابصة، فقلتُ: أنا وابصة؛ دعوني أدنو منه، فإنَّه من أحبِّ الناس إليَّ أن أدنو منه، فقال لي: ادنُ يا وابصة، ادنُ يا وابصة، فدنوتُ منه حتَّى مسَّت ركبتي ركبته، فقال: يا وابصة؛ أخبرُك ما جئتَ تسألني عنه أو تسألني؟ فقلت: يا رسول الله؛ فأخبرني، قال: جئتَ تسألني عن البِرِّ والإثم، قلتُ: نعم، فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري، ويقول:" يا وابصة؛ استفت نفسك، البِرُّ ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردَّد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك". رواه أحمد(٢).

ولقد كان الصالحون من أبناء أمَّتنا يدركون هذا، فقد قال رجل للحسن البصري: أمؤمن أنت؟ قال: إن كنتَ تريد قول الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ (٣)؛ فنعم، وإن أردتَ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾(٤)؛ فلا أدري(٥).

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٤٨) برقم (١٧٢٣) والترمذي في جامعه (٤/٦٦٨) برقم (٢٥١٨) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ١١٧) برقم (٥٢٠١) كتاب الفتن الحث على ترك الشبهات. والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٦٣٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٩/ ٥٢٨) برقم (١٨٠٠١). وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤):حسن لغيره.

(٣) البقرة: ١٣٦.

(٤) الأنفال: ٢.

(٥) جاء في شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٦٩) برقم: (٧٥): " سَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: " الْإِيمَانُ إِيمَانَانِ، فَإِنْ كُنْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، فَأَنَا مُؤْمِنٌ، وَإِنْ كُنْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ. . .} [الأنفال: ٢] الْآيَةَ قَرَأَ إِلَى قوله {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال: ٤] فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَنَا مِنْهُمْ أَوْ لَا ".

إنَّ ترْك المتشابه- وهو الشيء المشكوك في حِلِّه- من صفات عباد الله المتقين الذين يحتاطون لأنفسهم بألَّا يقعوا فيما حرَّم الله تعالى حتى من غير قصد، "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع ما لا بأس به، حذرا لما به البأس". رواه الترمذي وابن ماجه(١).

وقد ضرب نبيُّنا صلى الله عليه وسلم لنا مثلًا على ذلك، وهو مُعلِّم الأمَّة وقدوة المتقين، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: أَخَذَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: كِخْ كِخْ ؛ لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ:" أَمَا علمتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ "(٢).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ- رضي الله عنه- غُلاَمٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلاَمُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أُحْسِنُ الكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِه". رواه البخاري(٣).

وقد روي أنَّ عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- كان يقول: كنَّا علي زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام(٤).

وكان أنس بن مالك- رضي الله عنه- يقول: إنَّكم لتعملون أعمالًا هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعر كنَّا نعدُّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات. رواه البخاري(٥).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٦٣٤/٤) برقم (٤٢٥١) أبواب صفة القيامة والرقائق والوع باب بدون ترجمة. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٩) برقم (٤٢١٥) كتاب الفتن باب الورع والتقوى. والحديث ضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته ٦٣٢٠، وفي ضعيف سنن الترمذي (٤٣٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٦) برقم (١٤٨٥) كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل وهل يترك الصبي فيمس تمر الصدقة. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٥١) برقم (١٠٦٩) كتاب الزكاة باب تحريم الزكاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون غيرهم.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٤٣) برقم (٣٨٤٢) كتاب مناقب الأنصار باب أيام الجاهلية.

(٤) ينظر: الكبائر للذهبي (ص: ١٢٠). الكبائر، المؤلف: تنسب لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الندوة الجديدة — بيروت.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم (٦٤٩٢) كتاب الرقاق باب ما يتقى من محقرات الذنوب.



والخلاصة: فِي هذا الحديث: التأكيدُ عَلَى السَّعْيِ فِي صَلاحِ الْقَلْبِ، وَحِمَايَتِهِ مِنَ الْفَسَادِ، وَاحْتُجَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ فِي الْقَلْبِ لا فِي الرَّأْسِ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[1].

كذلك يجب على المسلم أن يحذر كل الحذر من الاقتراب من الشبهات، فإِنَّ مَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ؛ إِمَّا مِنْ كَثْرَةِ تَعَاطِيهِ الشُّبُهَاتِ فيُصَادِفُ الْحَرَامَ وَإِنْ لَمْ يَتَعَمَّدْهُ، وَقَدْ يَأْثَمُ بِذَلِكَ إِذَا نُسِبَ إِلَى تَقْصِيرٍ، أو أَنَّهُ يَعْتَادُ التَّسَاهُلَ وَيَتَمَرَّنُ عَلَيْهِ، وَيَجْسُرُ عَلَى شُبْهَةٍ، ثُمَّ شُبْهَةٍ أَغْلَظَ مِنْهَا، ثُمَّ أُخْرَى أَغْلَظَ، وَهَكَذَا حَتَّى يَقَعَ فِي الْحَرَامِ عَمْدًا، ولذلك ورد عن السَّلَفِ قولهم: " الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ "[2] أَيْ تَسُوقُ إِلَيْهِ.

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٨٤). شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.



١٣ ربيع الآخر

فتن كقطع الليل المظلم

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " بَادِرُوا بالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا". رواه مسلم(١).

تَظْهَرُ فِتَنٌ عَظِيمَة، مُدْلَهِمَّةٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ؛ فِتَنٌ تَمُوجُ كمَوْجِ الْبَحْرِ؛ فِتَنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، والثباتُ في المُدلهِمَّات الحوادث والأزمان عزيز، ولا تظهر فتنةٌ إلَّا ويسقطُ فيها رجال، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾(٢). وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " تكون فتنٌ؛ القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، من يستشرفها تستشرفه". رواه البخاري(٣).

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمَّتَه بالتعوُّذ من الفتن قبل ظهورها وعند نزولها، فقال: "تعوَّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بَطَن". رواه مسلم(٤).

وكانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يحثُّ على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذُّرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة والمتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم نوعًا من شدائد تلك الفتن، وهو أنَّه يُمسي مؤمنًا ثم يصبح كافرًا، أو عكسه، وهذا لعظم الفتن، ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا التقلُّب.

والفتن هي الابتلاء والاختبار بالمحن والمنكرات والشدائد؛ التي تحول بين العبد وبين العمل الصالح، وهي قسمين: فتن شبهات؛ وعلاجها العلم، وفتن شهوات؛ وعلاجها الإيمان والصبر.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٠) برقم (١١٨) كتاب الإيمان باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن.

(٢) الحج: ١١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٨) برقم (٣٦٠١) كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢١١) برقم (٢٨٨٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة باب نزول الفتن كمواقع القطر.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٩٩) برقم (٢٨٦٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.



وممَّا يدلُّ على خطر الفتن؛ ما حذَّر الرسول صلى الله عليه وسلم منه أمَّته، فقد أنذرهم كثيرًا من هذه الأمور العظيمة والفتن الكبيرة، كما قالت أم سلمة- رضي الله عنها-: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم ليلةً من منامه فزعًا وهو يقول: "سبحان الله! ماذا أُنزل من الفتن؟ وماذا فُتِحَ من الخزائن؟ أيقِظوا صواحب الحجرات، فربَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة". رواه البخاري(١)، فمراده بالفتن العذاب، وبالخزائن الرحمة والخير الذي حصل للمسلمين بالفتوحات الإسلامية.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما-: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزلنا منزلًا فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاة جامعة، فاجتمعنا، فقال صلى الله عليه وسلم: " ما بعث الله نبيًّا قبلي إلَّا كان حقًّا عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم، وإنَّ الله جعل عافية أمَّتي في أولها، وسيصيب آخرَها بلاءٌ وفتن، يُرقِّق بعضها بعضًا، تأتي الفتنة فيقول المسلم: هذه مهلكتي، فتنكشف، ثم تأتي أخرى فيقول: هذه هذه، فمَن أحبَّ أن يُزحزح عن النار ويُدخلَ الجنَّة؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ للناس ما يُحبُّ أن يُؤتوا إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فلْيُطِعْهُ قدر ما استطاع، فإن جاء آخَرُ ينازعه فاضربوا عنق الآخر". رواه مسلم(٢).

ومن الفتن فتنة الناس بعضهم بعضًا، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾(٣)، يقول ابن القيم- رحمه الله تعالى-: وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض؛ فامتحن الرسل بالمرسَل إليهم، والمرسَل إليهم بالرسل، وامتحن العلماء بالجهَّال، وامتحن الجهَّال بالعلماء، وامتحن الأغنياء بالفقراء، وامتحن الفقراء بالأغنياء(٤).

وقال حذيفة- رضي الله عنه-: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكِتَ

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٣٤) برقم (١١٥) كتاب العلم باب العلم والعظة بالليل.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٧٢) برقم (١٨٤٤) كتاب الإمارة باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول.

(٣) الفرقان: ٢٠.

(٤) ينظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٦٠). إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.



فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تعود القلوب إلى قلبين، قلب أسود مربادًا كالكوز مُجَخِّيًا[١]، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرًا؛ إلَّا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض كالصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض". رواه مسلم[٢].

وقد ضُلِّلت الأمَّة بكثيرٍ من الآراء والفتن، ورُوِّجت ضلالات ودعايات انخدع بها مَن انخدع، وظنَّوا الحقَّ باطلًا، ولم يتبصَّروا في عواقب الأمور ومآلاتها

عجبًا لها تغــوي بألفِ لســــانِ ... يحوي الســـمومَ كلدغةِ الثعبانِ
حتَّى إذا ما استشـــرفت وتزيَّنت ... جمعت رِعاعًا حول كل خَـــوانِ
ملعونـةٌ بحبالهـــا وعيالهـــا ... مَن أيقظَ الملعـونَ دونَ تـــوانِ
فرســـولُنا المُختارُ حـــذَّرَ فِتنةً ... تأتي على الدهمـــاءِ كالطوفـــانِ
صمَّاءُ لا تُصغي إلى صـوتِ الهُدى ... ولها ذراعٌ شاســـعُ الشـطآنِ
عميـــاءُ كلَّ عظيمةٍ ليست ترى ... بحِراكِهـا تدعـو إلى الأضغـانِ
بكمـــاءُ في فمها المياهُ فما سوى ... صمتٌ لديهِ الحـــقُّ دونَ بيـانِ
ســـوداءُ كالليلِ البهيمِ فلا تعي ... غير لوقاحـــةِ منطقَ الطغيـانِ[٣]

ولا شك أن الإسلام قد أرشد المسلم إلى أمور كثيرة يتقي بها خطر الفتن:

منها: التعوُّذ بالله تعالى من الفتن؛ ما ظهر منها وما بطن: ودعاء الله تعالى أن يُجَنِّبنا الفتن، وهذا يُعدُّ علاجًا وقائيًّا للفتنة قبل حصولها، فالمسلم ينبغي عليه أن يُكثر من هذا الدعاء النبوي الكريم: " اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترْك المنكرات، وحُبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليَّ، وإن أردتَ بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون". رواه الترمذي[٤]، وأرشد الرسول صلى الله عليه وسلم أمَّته إلى الالتجاء إلى الله تعالى من الفتن، فقال:" تعوَّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن". رواه مسلم[٥].

---

(١) المجخي: المائل عن الاستقامة والاعتدال. يشبه القلب الذي لا يعي خيراً بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٨) برقم (١٤٤) كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنه يأرز بين المسجدين.

(٣) لم أقف على قائلها.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٦٨) برقم (٣٢٣٥) أبواب تفسير القرآن باب ومن سورة ص. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٢٣٥).

(٥) تقدم تخريجه قريبًا.



ومنها: تحقيق التوحيد الخالص لله، واعتقاد أنَّ كلَّ ما يُصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقدر الله وقضائه، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[١].

ومنها: الاعتصام بالكتاب والسنة؛ لأن ذلك مما يدفع عن العبد كثيرًا من الفتن التي تصيبه، فبالاتحاد تقوى الشوكة، ويعزُّ الدين، ويذلُّ الكفر، يقول تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢]، وقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: " تركتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما إن تمسَّكتم بهما: كتاب الله وسُنَّتي، ولن يتفرقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض". رواه مالك والحاكم[٣].

ومنها: الحرص على العبادة أيام الفتن، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم فضل العبادة أيام الهرج والقتل واختلاف الأمور، فقال: "العبادة في الهرج كهجرة إليَّ" رواه مسلم[٤].

ومنها: لزوم التوبة والاستغفار والإكثار من ذكر الله، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٥]، وقال عليٌّ- رضي الله عنه-: ما نزل بلاءٌ إلَّا بذنب، ولا رُفع إلَّا بتوبة[٦].

ومنها: العلم الشرعي المبني على الكتاب والسنة، فإن العلم نور يضيء طريق الظلمات والفتن، وبالعكس فالجهل ظلام حالك يقود الإنسان إلى الهاوية والعياذ بالله. كما قال صلى الله عليه وسلم: "إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويظهر الجهل" رواه البخاري ومسلم[٧].

---

(١) التغابن: ١١.

(٢) آل عمران: ١٠٣

(٣) رواه مالك في «الموطأ» ٢/ ٨٩٩، ووصله ابن عبد البر في «التميهد» ٢٤/ ٣٣١ بإسناد عن أبي هريرة مرفوعا، وأيضا عن عمرو بن عون، وقال: وهذا أيضا محفوظ معروف مشهور عن النبي – صلى الله عليه وسلم – عن أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد. ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ١٧٢) برقم (٣١٩). والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٦٦).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٦٨) برقم (٢٩٤٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة باب فضل العبادة في الهرج.

(٥) الأنعام: ٤٣.

(٦) ذكره عنه شيخ الإسلام في قاعدة في الصبر (ص: ٩٥). قاعدة في الصبر، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد ١١٦ – السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٧) برقم (٨٠) كتاب العلم باب رفع العلم وظهور الجهل. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٦) برقم (٢٦٧١) كتاب العلم باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل.



والخلاصة: أن يحذر المسلم من الاستشراف للفتن والاقتراب منها والتطلُّع لها، وعليه أن يتعوَّذ بالله تعالى منها، وأن يبتعد عنها قدر استطاعته، وأن يسأل الله النجاة منها.



١٤ ربيع الآخر

ماء زمزم لما شُرِبَ له

ماء زمزم ماء ينبع من بئر زمزم في الحرم المكي في مكة المكرمة، إذ يقع إلى جوار الكعبة، وماء زمزم صالح للشرب وله مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، فقد خصه الله تعالى بمزايا إعجازية هامة.

ووجود ذلك الماء في هذا الوادي القاحل كرامة خصَّ الله بها سيدنا إسماعيل وأمه هاجر- عليهما السلام-، بل وكل من جاء وسكن تلك البلدة المباركة أو زارها، وهي سبب لعمران وحياة مكة المكرمة، ومن الآيات البينات في الحرم.

وقد ورد في فضلها ما رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إنها مباركة، وإنها طعام طُعْم(١)، وشفاء سقم"(٢).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من طوافه يوم العيد يوم النحر أتاها وشرب منها.

ومن ذلك حديث جابر- رضي الله عنه- أنه صلى الله عليه وسلم قال:" ماء زمزم لما شُرب له." رواه أحمد(٣).

وقد قال صلى الله عليه وسلم كما ذكر الحافظ المنذري عن ابن عباس- رضي الله عنهما-:" خيرُ ماءٍ على وجهِ الأرضِ ماءُ زمزمَ فيه طعامُ الطعمِ وشفاءُ السُّقمِ"(٤).

وقد ذكروا في سبب تسمية ماء زمزم بهذا الاسم أقوال عديدة؛ منها:

- لكثرة مائها وحركته.
- لزمزمة جبريل- عليه السلام- بقربه أي تكلُّمه.
- لزمِّ هاجر للماء عند انفجاره، أي أنها ضمَّته وحصرته بالتراب لئلَّا يتشتَّت ويضيع.
- يُقال بأنها سمِّيت لكثرة فوائدها ومنافعها التي لا تُقارن بماء آخر.

---

(١) (طعامُ طعمٍ) يقال: هذا طعامُ طعم، أي: طعام شبع، يعني، أنه يُشْبِع ويكفُّ الجوع ويكفي منه.

(٢) أصله في صحيح مسلم (٤/ ١٩١٩) برقم (٢٤٧٣) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه دون قوله "شفاء سقم".

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٣/ ١٤٠) برقم (١٤٨٤٩). وابن ماجه في سننه (٢/ ١٠١٨) برقم (٣٠٦٢) باب الشرب من زمزم. والحديث صححه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٤/ ٣٢٠).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ١٧٩) برقم (٣٩١٢). والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٤٤).

وقد جُعل ماء زمزم طعامًا وشرابًا، فأول ما تفجَّر لإسماعيل وأمه- عليهما السلام- كان الطعام والشراب الوحيد لهما، وكانت قبيلة قريش في الجاهلية تطلق على زمزم شُبَاعة؛ لأنه مشبع لمن شرب منه، وقال ابن القيم رحمه الله: "شاهدتُ من يتغذَّى به الأيام ذوات العدد، قريبًا من نصف الشهر أو أكثر، ولا يجد جوعًا، ويطوف مع الناس كأحدهم"[(١)].

وقد جعل الله ماء زمزم شفاء للأمراض بإذن الله، وقد وصفتها العرب قديمًا بالعافية، لأنها سبب للشفاء من الأمراض، وتزداد بركة ماء زمزم وفضله في التداوي إذا قرأ عليها ما تيسَّر من القرآن الكريم.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: كان رسولُ صلى الله عليه وسلم: "يَحْمِلُ مَاَء زَمْزَمَ فِي الأَدَاوَى وَالقِرَبِ، وَكَانَ يَصُبُّ عَلَى المرْضَى وَيَسْقِيهِم" رواه الترمذي[(٢)].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل- رحمهما الله- عن بعض أحوال أبيه: ورأيتُه غيرَ مرَّة يشرب من ماء زمزم يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه[(٣)].

ومن السُنَّة تسمية الله قبل الشرب، وحمْد الله بعده، والتنفُّس ثلاثًا، والتضلُّع من الماء عند شربه، وهو الإكثار من الشرب حتَّى يتمدَّد الجنب والأَضلاع، وعند أبي داوود عن أنس بن مالك – رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا شرب تنفَّس ثلاثًا، وقال: هو أهنأ وأمرأ وأبرأ[(٤)].

وقد روى ابن ماجهْ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: إذا شربتَ منها – أي من زمزم – فاستقبل القبلة، واذكر اسم الله، وتنفَّس ثلاثًا، وتضلَّع منها، فإذا فرغتَ فاحمد الله عزَّ وجلَّ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلَّعون من زمزم[(٥)].

---

(١) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٦١).

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٢٨٦) برقم (٩٦٣) أبواب الحج باب بدون ترجمة ولفظه: عن عائشة، أنها كانت تحمل من ماء زمزم وتخبر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحمله». والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٤٣). ولم أقف عليه باللفظ المذكور.

(٣) ينظر: مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبد الله (ص: ٤٤٧). مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١هـ ١٩٨١م

(٤) رواه أبو داود في سننه (٣/ ٣٣٨) برقم (٣٧٢٧) كتاب الأشربة باب في الساقي متى يشرب. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٨/ ٢٢٧).

(٥) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٠١٧) برقم (٣٠٦١) كتاب المناسك باب الشرب من ماء زمزم. والحديث ضعفه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٤/ ٣٢٥).



وأن يُكثر من الدعاء فيدعو بخيري الدنيا والآخرة، فقد روى الدارقطني عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه كان إذا شرب ماء زمزم قال: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء(١).

وكان هذا حال السلف الصالح فقد كانوا يحرصون على الإكثار من شُرب ماء هذه البئر المباركة، فقد مكث الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري- رضي الله عنه- في مكة ثلاثين يومًا لا يطعم إلا زمزم حتى سمن وتكسَّرت عكن بطنه وذهب عنه الجوع(٢).

ولا يشترط في حصول بركته أن يُشرَب في الحرم أو مكة، بل أثره فعَّال وباق بإذن الله إذا نُقِل وأُخرِج إلى بلاد بعيدة.

وقال الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول: فالشَّارب لزمزم إنْ شَربه لِشَبَعٍ أشبعه الله، وإنْ شَربَه لِرِيٍّ أرواه الله، وإن شربه لشفاءٍ شفاه الله، وإن شَربَه لِسوء خُلُقٍ حَسَّنه الله، وإنْ شَربَه لِضِيقِ صدرٍ شرَحَه الله، وإنْ شَرِبَه لانغلاقِ ظلماتِ الصدرِ فَلَقَها الله، وإنْ شَربَه لِغِنَى النَّفْس أغناه الله، وإنْ شَربَه لحاجةٍ قضاها الله، وإنْ شَربَه لأمرٍ نابه كفاه الله، وإنْ شَربَه لكُربةٍ كشَفَها الله، وإنْ شَربَه لِنُصْرةٍ نصَرَه الله، وبأيَّةِ نيَّةٍ شَربَها من أبواب الخير والصَّلاح وفَّى اللهُ له بذلك؛ لأنَّه استغاثَ بما أظهره اللهُ تعالى من جَنَّتِه غِياثًا(٣).

---

(١) رواه الدارقطني في سننه (٣/ ٣٥٤) برقم (٢٧٣٨). والحديث لا يصح فقد ذكره الألباني في بدع الحج كما في حجة النبي (ص: ١١٦). سنن الدارقطني، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.. حجة النبي صلى الله عليه وسلم كما رواها عنه جابر رضي الله عنه، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الخامسة – ١٣٩٩.

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/ ١٩٠). سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، المؤلف: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

(٣) ينظر: نوادر الأصول في أحاديث الرسول (٣/ ٢٧٤). نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، المؤلف: محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي (المتوفى: نحو ٣٢٠هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار النشر: دار الجيل، مكان النشر: بيروت، سنة النشر: ١٩٩٢م.

وقد ورد أنَّ الإمام أبا حنيفة- رحمه الله-: شَرِبَ ماء زمزم ليكون من أعلم العلماء، فكان كذلك، وناهيك به علمًا وصلاحًا وفضلًا.

قال ابن حجر- رحمه الله-: واشتُهر عن الإمام الشافعيِّ- رحمه الله- أنه شرب ماءَ زمزم للرَّمي، فكان يُصيب من كلِّ عشرة تسعةً[1].

وشَرِبَه الحاكم أبو عبد الله لحُسْنِ التَّصنيف ولغير ذلك، فصار أحسنَ أهل عصره تصنيفًا.

وصلَّى بأركان المقام حجيجُنا ... وفي زمـزم مـاء طهـور وردناه
وفيه الشفا، فيه بلـــوغ مرادنا ... لما نحن ننويه إذا ما شـربناه[2]

ئوقيل أيضًا:

وزمـزم ماؤهـا يطـوي غليلـي ... ويشفي كـل ذي سقم عليـل
فإن رُمتَ الشفا فاحرص عليها ... فما لك غير زمزم من سبيل[3]

ومن إعجاز بئر زمزم : أنها تكفي الشَّاربين ولو بلغوا الملايين، وإذا توقَّفوا عن الشُّرب توقَّفت عن الضَّخ، ولم تَجْرِ على وجه الأرض وتفور.

وقد اكتشف بعض الباحثين أن ماء زمزم ماء عجيب يختلف عن غيره من المياه في التركيب، وكلَّما أُخذ منه زاد عطاءً، وهو نقيٌّ طاهر، لا يوجد فيه جرثومة واحدة.

والخلاصة: أن ماء زمزم هو نفسه الماء الذي يأتينا من بئر زمزم، وهذه البئر توجد في الحرم المكيِّ في مكة المكرَّمة بالمملكة العربية السعوديَّة. وهذه الماء هي ماء مقدَّسة عند المسلمين، وقد خصَّها الله تعالى بمزايا إعجازيَّة خطيرة، فحسب الدين الإسلاميَّ أنَّ بئر زمزم هو البئر الذي فجَّره الله سبحانه

---

(١) لم أقف عليه عند ابن حجر، لكن نقله السخاوي في الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١/ ١٦٦)، قال: "بل رُوي عن إمامنا الشافعي -رحمه الله- أنه قال: شربتُه لثلاث: للرَّمْي، فكنت أصيب العشرة من العشرة، والسبعة من السبعة، وللعلم، فها أنا كما ترون، ولدخول الجنة، وأرجو حصول ذلك". الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، المؤلف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، المحقق: إبراهيم باجس عبد المجيد، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م. واللفظ المذكور نقله عن الشافعي بعض الحنفية والمالكية.

(٢) ينظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (٢/ ٣٤٨). شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، المؤلف: محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (المتوفى: ٨٣٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م

(٣) الأبيات للأستاذ الشاعر/ محمد ضياء الدين الصابوني الحلبي. https://tall-alsafi.ahlamontada.com/t178-topic



وتعالى لسيدنا إسماعيل وأمِّه هاجر– عليهما السلام–، وذلك عندما تركهما سيدنا إبراهيم– عليه السلام– في منطقة الكعبة وحدهما، وقد تفجَّرت عيون الماء هذه ليسقيهما الله من عنده. وبئر زمزم يعتبر أحد أهم العناصر الموجودة في الحرم المكيِّ، وهي أشهر بئر على سطح الكرة الأرضيَّة، حيث لها مكانتها الروحيَّة للمسلمين وارتباطهم بهذا المكان خاصَّة للحجَّاج والمعتمرين.

١٥ ربيع الآخر

أنا وكافل اليتيم كهاتين

لقد أولى الإسلام باليتيم عناية فائقة واهتمامًا كبيرًا، حتى جاءت وصايا القرآن به متضافرة، وآيات الإحسان إليه متكاثرة، ولم ينس رسول الله صلى الله عليه وسلم اليتيم، بل أوصى به وشدَّد على من يُسيىء إليه، وألحق الإثم الكبير فيمن يعتدي على اليتيم؛ بالقول أو الفعل أو يعتدي على ماله أو يُسيىء إليه بأي نوع من أنواع الإساءة، فهو على خطر عظيم.

قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[(١)].

قال العلامة السعدي: ذكر الله تعالى المُنفَق عليهم، وهم أولى الناس ببرِّك وإحسانك. من الأقارب الذين تتوجَّع لمصابهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمِن أحسنِ البرِّ وأوفقه؛ تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم، ومنهم اليتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد، الدالَّة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم، الإحسان إلى مَن فُقِدَ آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزاء من جنس العمل؛ فمَن رحم يتيم غيره رُحِمَ يتيمُه[(٢)].

فالإحسان إلى اليتيم ذو ثواب مُعجَّل في الدنيا مع ما يُدخَّر في الآخرة، وإن كان مسحة على رأس؛ فذلك الإحسان سببٌ للين القلب ونداوة العين، شكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه، فقال له:" امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين". رواه أحمد[(٣)].

---

(١) البقرة: ١٧٧.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣).

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٤/ ٥٥٨) برقم (٩٠١٨). والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٠٧) بلفظ: "إن أردت تليين قلبك، فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم".



وضمان النصر والرزق قرين الإحسان لليتيم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" هل تُنصَرون وتُرزَقون إلَّا بضعفائكم؟" رواه البخاري[١].

وذلك الإحسان مطهرة للمال، والمال حين ينفق منه يغدو نعمة على صاحبه، قال النبي صلى الله عليه وسلم:" إن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل". رواه البخاري[٢].

ولقد جاء الإسلام واليتيم ليس له حظ في الحياة فأمر بإكرامه والإحسان إليه، وحينما هاجر المسلمون إلى الحبشة وأرادت قريش إرجاعهم، وقف جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ- رضي الله عنه- أمام النجاشي ملك الحبشة يشرح له محاسن الإسلام وأخلاقه الراقية، فَقَالَ لَهُ من جملة ما قال:" وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ". أخرجه أحمد[٣].

قالوا: اليتيمُ، فَمَاجَ عطرُ	قصيدتي وتلقَّتْ كلماتُها تَعظيمَا
وسمعْتُ منها حكمةً أزليَّةً	أهدتْ إليَّ كتابَها المرقوما
حَسْبُ اليتيمَ سعادةً أنَّ الذي	نَشَرَ الهُدَى في النَّاسِ عاشَ يَتيمَا[٤]

ولقد أكَّد القرآن الكريم على حقيقة الإحسان إلى اليتيم، وعدم الاعتداء على ماله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٥]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٦].

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٦) برقم (٢٨٩٦) كتاب الجهاد والسير باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢١) برقم (١٤٦٥) كتاب الزكاة باب الصدقة على اليتامى.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٦٣) برقم (١٧٤٠). والحديث صححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص: ١٧٤).
صحيح السيرة النبوية، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتبة الإسلامية – عمان – الأردن، الطبعة: الأولى.

(٤) الأبيات للشاعر إيليا أبو ماضي كما في https://kayanaytam.org/

(٥) الأنعام: ١٥٢.

(٦) الإسراء: ٣٤.



وجعل الإسلام من السبع الموبقات- التي توبق صاحبها وتدخله نار جهنم- أكل مال اليتيم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ:" اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ". رواه البخاري ومسلم(١).

وحذَّر القرآن من إهانة اليتيم وأذاه بأي نوع من أنواع الإهانة والأذى، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾(٢)، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾(٣)، وقال: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾(٤).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما- قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾(٥). وَ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾(٦)، قَالَ: اجْتَنَبَ النَّاسُ مَالَ الْيَتِيمِ وَطَعَامَهُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَأَعۡنَتَكُمۡ﴾(٧). أخرجه أحمد وأبو داود(٨).

واليُتم ليس سُبة في جبين صاحبه، فإن الله سبحانه قد ارتضى لليتيم ما ارتضى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم، واليُتم مظنة نبوغ ومسؤوليَّة وعصاميَّة، فكم من يتيم خلَّد التاريخ مآثره! من لدن محمد

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠) برقم (٢٧٦٦) كتاب الوصايا باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} [النساء: ١٠]. ومسلم في صحيحه (١/ ٩٢) برقم (٨٩) كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٢) الفجر: ١٥-١٧.

(٣) الضحى: ٩.

(٤) الماعون ١-٣.

(٥) الإسراء: ٣٤.

(٦) النساء: ١٠.

(٧) البقرة: ٢٢٠.

(٨) رواه أحمد في مسنده (٥/ ١٤٠) برقم (٣٠٠٠). وأبو داود في سننه (٣/ ١١٤) برقم (٢٨٧١) كتاب الوصايا باب مخالطة اليتيم في الطعام. والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ١٦٨) برقم (٦٤٦٣) كتاب الوصايا، ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٨/ ٢٤١).



صلى الله عليه وسلم إلى حاضر العصر: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، والشافعي والبخاري وعبد العزيز بن باز؛ كلهم كانوا أيتامًا غدوا أنجمًا في سماء المجد؛ فحري باليتيم أن يسعى ليكون واحدًا من أولئك الركب الميمون؛ فما أحراك بذلك! وما أجدرك به!

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[1]، بهذا الشعور المرهف ينطلق المؤمن في تعامله مع اليتيم، كما قال قتادة: " كن لليتيم كالأب الرحيم".

ولقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[2].

ويستصحب في ذلك الإحسان رجاء حسن العاقبة، كما بشَّر النبي صلى الله عليه وسلم كافل اليتيم بقوله:" أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما شيئًا". رواه البخاري[3]. فلنعم الجار! ولنعم الدار!

ويحضه على بذل مزيد الإحسان علْمُه أنَّه سببٌ لنيل الكتاب باليمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[4] .

وفي حقيقة الأمر وللأسف؛ ثمة أيتام لكنَّ آباءهم أحياء، قد تخلَّوا عن واجبهم، وأهملوا تربية فلذات الأكباد، كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

ليس اليتيمُ من انتهى أبواه ... من همِّ الحياة وخلَّفاه ذليلا
إنَّ اليتيمَ هو الذي تلقى له ... أُمًّا تخلَّتْ أو أبًا مشغولا[5]

(١) النساء: ٩.

(٢) النساء: ٣٦.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٥٣) برقم (٥٣٠٤) كتاب الطلاق باب اللعان.

(٤) البلد: ١٢- ١٨.

(٥) ينظر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١/ ٢٩، بترقيم الشاملة آليا).

والخلاصة: أنَّ لكفالة اليتيم وإكرامه فوائد كثيرة منها: صحبة الرَّسول- صلى الله عليه وسلم- في الجنَّة، وكفى بذلك شرفًا وفخرًا، وكفالة اليتيم صدقة يُضاعف لها الأجر، إن كانت على الأقرباء فله أجر الصدقة وأجر القرابة، وكفالة اليتيم والإنفاق عليه دليل طبع سليم وفطرة نقيَّة، وكفالة اليتيم والمسح على رأسه وتطييب خاطره يُرقّق القلب ويزيل عنه القسوة، وكفالة اليتيم تعود على الكافل بالخير العميم في الدنيا فضلًا عن الآخرة.



١٦ ربيع الآخر

الأيام البيض

يُعدُّ الصيام من العبادات التي لم يتقرَّب بها إنسان لأي معبود سوى الله عزَّ وجلَّ، وقد وصى النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا أمامة- رضي الله عنه- بالصوم حينما سأله:" أي العمل أفضل؟ قال: عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَا عِدْلَ لَهُ". رواه النسائي[1]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ". رواه أحمد[2].

وقد اتَّفق الأئمة على أنَّه من السُنَّة صوم الأيام البيض من كل شهر، وذهب جمهور الفقهاء من الحنفيَّة والشافعيَّة والحنابلة إلى استحباب صيام الأيام البيض؛ لورود الأحاديث النبويَّة التي تحثُّ على صيام هذه الأيام.

ويُقصد بالأيام البيض أيام الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، من كل شهر عربي، وسُمِّيت الأيام البيض بهذا الاسم لاكتمال القمر بها ورؤيته بشكل واضح ناصع البياض فى السماء، وتُسمَّى لياليها بالليالي المقمرة.

ومَن يصُم الأيام البيض فكأنما صام الدهر كلَّه، ويُؤجر على صيامها بأجر عظيم ومضاعف، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:" صم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر" رواه البخاري[3]، وإن تركها المسلم فلا إثم عليه، ولكنه سيُحرَم من الأجر العظيم الذي يضاعفه الله تبارك وتعالى لمن يشاء من عباده الصالحين. وعن أبي ذر الغفاري- رضي الله عنه-

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٦/ ٤٦٥) برقم (٢٢١٤٩). والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٣٤) برقم (٢٥٤٣) كتاب الصيام، ذكر الاختلاف على محمد بن أبي يعقوب في حديث أبي أمامة في فضل الصيام. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٥/ ٣٦٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٧/ ٥٣٩) برقم (٢٢٩٠٥). والحديث صححه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١/ ٣٨٨). مشكاة المصابيح، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٠) برقم (١٩٧٦) كتاب الصوم باب صوم الدهر. ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٢) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به.



قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إذا صمتَ شيئًا من الشهر فصم ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة". رواه الترمذي(١).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال النبي- صلى الله عليه وسلم-:" صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كُلِّه"(٢).

وروى مسلم عن أبي قتادة الأنصاري- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" صوم ثلاثة أيام من كل شهر، ورمضان إلى رمضان؛ صوم الدهر"(٣).

وروى الترمذي عن أبي ذر الغفاري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من صام من كُل شهر ثلاثة أيام فذلك صيام الدهر، فأنزل الله عزَّ وجلَّ تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٤)، اليوم بعشرة أيام"(٥).

وروى أبو داوود عن قدامة بن ملحان - رضي الله عنه- قال:" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نصوم الأيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة، قال: وقال: هُنَّ كهيئة الدهر"(٦).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (١٢٥/٣) برقم (٧٦١) أبواب الصيام باب ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر. النسائي في سننه (٤/ ٢٢٢) برقم (٢٤٢٤) كتاب الصيام، ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر في صيام ثلاثة أيام من الشهر. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٦/ ٦٨). المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٠) برقم (١٩٧٩) كتاب الصوم باب صوم داود عليه السلام. ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٧) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٩) برقم (١١٦٢) كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس.

(٤) الأنعام: ١٦٠.

(٥) رواه الترمذي في جامعه (١٢٦/٣) برقم (٧٦٢) أبواب الصيام باب ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر. وابن ماجه في سننه (١/ ٥٤٥) برقم (١٧٠٨) كتاب الصيام، باب ما جاء في صيام ثلاثة أيام من كل شهر. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢/ ٢٦٢).

(٦) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ٤٢٩) برقم (٢٠٣٢٠). وأبو داود في سننه (٢/ ٣٢٨) برقم (٢٤٤٩) كتاب الصوم باب في صوم الثلاث من كل شهر. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٥/ ٤٤٩).



وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال:" أوصاني خليلي بثلاثٍ لا أدعهنَّ حتَّى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر"(١).

والخليل هو الصديق الخالص، الذي تخلَّلتْ محبَّته القلب، فصارت في خلاله أي: في باطنه، فهي نصيحة مُحبٍّ صادق المحبَّة، والمراد بالبيض الليالي، وهي التي يكون فيها القمر من أول الليل إلى آخره.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال:" قال لي رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: يا عبد الله، ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل؛ صُم وأفطر، وقُم ونَمْ، فإنَّ لجسدك عليك حقًّا، وإنَّ لعينك عليك حقًّا، وإنَّ لزوجك عليك حقًّا، وإنَّ لزورك عليك حقًّا، وإنَّ بحسبك أن تصوم كُلَّ شهر ثلاثة أيام، فإنَّ لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإنَّ ذلك صيام الدهر كلِّه، فشدَّدتُ فشدَّد عليَّ، قُلت: يا رسول الله؛ إنِّي أجد قوَّة، قال: فصم صيام نبيِّ الله داوود- عليه السلام- ولا تزد عليه، قُلت: وما كان صيام نبيِّ الله داوود- عليه السلام-؟ قال: نصف الدهر، فكان عبد الله- رضي الله عنه- يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلتُ رُخصة النبيِّ صلى الله عليه وسلم"(٢).

وقد جاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال:" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدع صوم أيام البيض في سفر ولا حضر". رواه النسائي(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٨) برقم (١١٧٨) كتاب التهجد باب صلاة الضحى في الحضر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٩٨) برقم (٧٢١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب صلاة الضحى، وأن أقلها ركعتان، وأكملها ثمان ركعات، وأوسطها أربع ركعات، أو ست، والحث على المحافظة عليها.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٩) برقم (١٩٧٥) كتاب الصوم باب حق الجسم في الصوم. ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٧) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم، وإفطار يوم.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١١) برقم (١٢٣٢٠). والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٣) برقم (٢٦٦٦) كتاب الصيام صوم النبي صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي، وذكر اختلاف الناقلين في ذلك، بلفظ: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفطر أيام البيض في حضر ولا سفر». والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٨٧٦).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب قد شواها، فأمرهم أن يأكلوا وأمسك الأعرابيُّ، فقال: ما منعك أن تأكل؟، فقال: إِنِّي أصوم ثلاثة أيام من كل شهر، قال: إن كنتَ صائمًا فصم الغُرَّ؛ أي: البيض[١].

هذا وقد أثبتت أبحاث علميَّة كثيرة أنَّ القمر له أثرٌ في نفسيَّة الإنسان، يظهر عندما يكون بدرًا، أي في أيام الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من كل شهر قمريٍّ، حيث إنَّه في هذه الفترة يزيد لدى الإنسان التهيُّج العصبيُّ والتوتُّر النفسيُّ، ويرجع سبب ذلك وتفسيره علميًّا إلى أنَّ جسم الإنسان يتكوَّن من ٨٠% من الماء، أما الباقي فهو فقط المواد الصلبة، تمامًا كسطح الأرض، وبما أنَّ قوة جاذبيَّة القمر تُسبِّب المدَّ والجزر في البحار والمحيطات، فإنَّها تُسبِّب أيضًا هذا المدَّ في جسم الإنسان، وهذا يحصل عندما يكون القمر مكتمِلًا في الأيام البيض؛ فذلك يُدلِّل على أنَّ للقمر في دورته الشهرية أثرًا ظاهرًا وحقيقة ثابتة من حيث التأثير الفعلي في سلوك الإنسان، فتتأثَّر الحالة المزاجيَّة عنده بناءً على حركة القمر، وقد تمَّ وصف بعض الحالات عند الإنسان بناءً على ذلك باسم الجنون القمريّ، ففي هذه الحالات يبلغ اضطراب السلوك عند الإنسان أقصى مدى له في الأيام التي يكون القمر فيها مكتمِلًا، أي في الأيام البيض، وقد جاء في السُّنَّة ما يدلُّ على هذه الحقيقة، فقد روت أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-" أنَّ النَّبيَّ- صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ- نظرَ إلى القمَرِ، فقالَ: يا عائشةُ؛ استَعيذي باللَّهِ من شرِّ هذا، فإنَّ هذا هوَ الغاسِقُ إذا وقَبَ". رواه الترمذي[٢].

ومن هنا كان التوجيه النبوي في صيام تلك الأيام كعلاجٍ لتلك الظاهرة، وحَلٍّ لها إذ إنَّ الصيام فيه امتناعٌ عن السوائل، وبالتالي خفض نسبة الماء في الجسم في الفترة التي يُؤثِّر فيها القمر على الإنسان، وبالتالي يستطيع الإنسان السيطرة على قوى جسده ونزعاته، فيكتسب بذلك صفاءً نفسيًّا، واستقرارًا وراحةً وصحةً وطمأنينةً.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٤/ ١٥٤) برقم (٨٤٣٤). والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٩٩) برقم (٢٧٤٢) كتاب الصيام ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر في صيام ثلاثة أيام من الشهر. والحديث حسنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٩٣).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤٣/ ٨) برقم (٢٥٨٠٢). والترمذي في جامعه (٥/ ٤٥٢) برقم (٣٣٦٦) أبواب تفسير القرآن باب ومن سورة المعوذتين. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ١٢٢) برقم (١٠٠٦٤) كتاب عمل اليوم والليلة ما يقول إذا رفع رأسه إلى السماء. والحديث قال عنه الألباني: "حسن صحيح". صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٣٦٦).



كما أثبتت الدراسات المعاصرة أنَّ الصيام يؤدِّي إلى منع تراكم المواد السامة في الجسم، مثل: حمض البول، والبولة، والمنجنيز، وفوسفات الأمونياك في الدم، فإنَّ ما تؤدِّي إليه هذه المواد من تراكمات مؤذية تؤثر سلبًا في أعضاء جسم الإنسان كالمفاصل والكُلى، كما أنَّ في الصوم وقاية من داء الملوك المُسمَّى (النقرس)، وصيام يوم واحد فقط يؤدِّي إلى تطهير الجسم من فضلات عشرة أيام، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر يؤدِّي إلى تخليص الجسم من فضلات وسموم ثلاثين يومًا.

وأيضًا فإنَّ للصوم أهمِّيَّة حيويَّة؛ فبالصوم يتحرَّك المخزون الحيويُّ من المواد الضروريَّة لجسم الإنسان مثل الفيتامينات، والأحماض الأمينيَّة، وبالتالي استهلاكه قبل أن يفسد، ثم يقوم بتجديده بعد الإفطار.

والخلاصة: أنَّه ينبغي أن يضرب المسلم بسهمٍ في كل عبادة من العبادات وينوّع بينها، وألَّا يهمل صيام النوافل بل عليه أن يأخذ بحظٍّ وافرٍ منها، لا سيما الأيام البيض، فقد كانت من سُنَّته صلى الله عليه وسلم التي لا يتركها حضرًا ولا سفرًا.

١٧ ربيع الآخر

أفشوا السلام بينكم

تحيَّة الإسلام هي التحيَّة التي شرعها النبيُّ الكريم لأمَّته؛ وهي إرث أبيه آدم -عليه السلام- التي علَّمها الله- سبحانه وتعالى- له، وأمره بإلقائها على الملائكة أول لقائه بهم في الجنة؛ لتكون تحيَّته وتحيَّة ذرِّيَّته من بعده، وقد واظب النبيُّ- عليه الصلاة والسلام- عليها وحثَّ أصحابه على إفشائها.

قال الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين في كتابه شرح رياض الصالحين: ومعنى تحيَّة الإسلام: الدعاء بالسلامة؛ فأنت تدعو لمن تُلقي عليه السلام بأن يُسلِّمه الله من كل آفة؛ أي من الأمراض والشرور والمعاصي ومن عذاب النار(١)، ولذلك قيل للجنَّة: دار السلام؛ لأنَّها دار السلامة من كلِّ مكروهات النفس، قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنَّة حتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابوا، أوَلَا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم". رواه مسلم(٣).

ويتعلَّق بهذا الحديث فوائد:

الفائدة الأولى: قد شرع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لنا تحيَّة تُميِّزنا عن غيرنا، ورتَّب على فعْلها الثواب، وجعلها حقًّا من حقوق المسلم على أخيه، فتحولت التحيَّة من عادة من العادات إلى عمل يفعله العبد تقرُّبًا إلى الله تعالى، واستجابة لأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وهي: "السلام عليكم"، وبلفظ: "السلام عليكم ورحمة الله"، وبلفظ: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"؛ فعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال:" كنتُ رَديفَ أبي بكرٍ، فيمرُّ على القومِ فيقول: السلامُ عليكم،

---

(١) ينظر هذا المعنى: شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٨٠).

(٢) الأنعام: ١٢٧.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٩) برقم (١٩٧٥) كتاب الصوم باب حق الجسم في الصوم. ومسلم في صحيحه (١/ ٧٤) برقم (٥٤) كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سببا لحصولها.



فيقولون: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ، ويقول: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ، فيقولون: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، فقال أبو بكرٍ: فضَلَنا الناسُ اليومَ بزيادةٍ كثيرةٍ"[١].

فلا ينبغي أن تُبدَّل هذه التحيَّة العظيمة بعبارات أخرى لا تؤدِّي ما تؤدِّيه تحيَّة الإسلام المُبارَكة، مثل: صباح الخير، أو مساء الخير، أو مرحبًا، أو غير ذلك، ممَّا قد يستعمله بعض الناس جهلًا أو إعراضًا، مُكتفين به عن السلام المشروع، وعن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" ما حسدتْكم اليهود على شيء؛ ما حسدتكم على السلام والتأمين". رواه ابن ماجه[٢].

الفائدة الثانية: تحيَّة الإسلام الكاملة هي: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وأقلُّها: (السلام عليكم)، وكلُّ جملة منها بعشر حسنات، وهي ثلاث جُمَل، فمن جاء بها كاملة فله ثلاثون حسنة؛ فعن عمران بن حصين- رضي الله عنهما- قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم، فردَّ عليه ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: عشرٌ، ثم جاء رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردَّ عليه ثم جلس، فقال: عشرون، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه وجلس، فقال: ثلاثون؛ رواه أبو داود[٣].

الفائدة الثالثة: السُّنَّة إفشاء السلام وإظهاره وإعلانه بين الناس، حتَّى يكون شعارًا ظاهرًا بين المسلمين، لا تُخصُّ به فئة دون أخرى، أو كبير دون صغير، ولا مَن يَعرف دون مَن لا يَعرف؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أنَّ رجلًا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خيرٌ؟ قال:" تُطعِم الطعام، وتقرأ السلام على مَن عرفت ومَن لم تعرف". متفق عليه[٤].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٣٤٢) برقم (٩٨٧). والأثر صحح إسناده الألباني كما في صحيح الأدب المفرد (ص: ٣٧٩). الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ – ١٩٨٩. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٢٧٨) برقم (٨٥٦) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب الجهر بـ(آمين). والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٢/ ٤٢٨).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ١٧٠) برقم (١٩٩٤٨). وأبو داود في سننه (٤/ ٣٥٠) برقم (٥١٩٥) كتاب الأدب باب كيف السلام. والترمذي في جامعه (٥/ ٥٢) برقم (٢٦٨٩) أبواب الاستئذان والآداب باب ما ذكر في فضل السلام. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١١/ ١٩٥).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم (١٢) كتاب الإيمان باب إطعام الطعام من الإسلام. ومسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم (٣٩) كتاب الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل.

وقال عمار بن ياسر- رضي الله عنهما-: ثلاثٌ مَن جمعهنَّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسه، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار[(١)].

ولبيان أهمِّيَّة إفشاء السلام فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإفشاء السلام، وأخبر أنَّه سبيلٌ لنشْر المحبَّة والمودة، كما أنَّ إفشاء السلام هو سبيلٌ للتواضع وإظهار خفض الجناح للمسلمين.

قال الإمام النووي مبيِّنًا أهمِّيَّة إفشاء السلام:" والسلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم الـمُميِّز لهم مِن غيرهم مِن أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين"[(٢)].

كما أنَّ السلام سبب من أسباب حصول البركة والعلو، ورفعة الدرجات، ومن موجبات المغفرة.

وللبدء بالسلام فضلٌ عظيم، وبذْل السلام من حقِّ المسلم على أخيه.

وفيما يأتي جملة من الفوائد التي تزيد في أهمية إفشاء السلام وفضله:

- السلام من أسماء الله تعالى، وهو الـمُسلِّم لعباده والـمُسلِّم على أوليائه.
- دار السلام هو اسم من أسماء الجنة، فهي دار السلامة من الآفات.
- السلام أمان الله في الأرض، وهو تحيَّة المؤمنين في الجنة، وتحيَّة أهل الإسلام في الدنيا.
- الإسلام هو طريق المحبَّة والتعارُف بين المسلمين.
- إفشاء السلام بين المسلمين يُنشئ المودة والمحبَّة، ويُشعِر كلَّ مسلم بالاطمئنان تجاه الآخرين.
- البخل بالسلام أشدُّ من البخل بالمال.
- إفشاء السلام قد يُزيل العداوة ويُنهي الخصومة ويُذهب سخيمة الصدور.
- المداومة على السلام تُميِّز المسلمين وتكيد أعداء الدين.
- المحافظ على السلام ينال فضل الاتباع وجزاء الطاعة.
- زيادة كلمات التحيَّة تزيد في الحسنات.

وللسلام آداب وأحكام؛ منها:

---

(١) رواه البخاري تعليقًا (١/ ١٥) باب إفشاء السلام من الإسلام.

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٦).

١- أن يكون التسليم بصوت مسموع يسمعه اليقظان ولا ينزعج منه النائم.

٢- أن يُسلِّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والصغير على الكبير، والقليل على الكثير؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم:" يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ". متفق عليه(١).

٣- أن يُعيد إلقاء السلام إذا فارق أخاه ولو يسيرًا لقوله صلى الله عليه وسلم:" إذا لقي أحدكم أخاه فلْيُسلِّم عليه، فإنْ حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فلْيُسلِّم عليه". رواه أبو داود(٢).

٤- أن يُسلِّم على أهل بيته عند الدخول عليهم.

٥- عدم الاكتفاء بالإشارة باليد أو بالرأس، فإنَّه مُخالِفٌ للسُّنَّة، إلَّا إذا كان المُسلَّم عليه بعيدًا، فإنَّه يُسلِّم بلسانه ويُشير بيده ولا يكتفي بالإشارة.

الخلاصة: أن السلام من أسماء الله تعالى، وتحيَّة المؤمنين في الدنيا وفي الجنة، وأنه من شرائع وشعائر الدين الإسلامي، فعلى المسلم أن يواظب على إفشاء السلام حتى تعم فوائد إفشاء السلام وينتشر الأمن والسلام بين الجميع.

صدقْتَ أيا رسولَ اللَّهِ إنِّي   فـديْتُك واتخـذتُك لي إمامَـا
تقـولُ لنا: إذا رمْتُمْ إخاءً   وحُبًّا بينَكم؛ أفشُوا السلامَا(٣)

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٥٢) برقم (٦٢٣٢) كتاب الاستئذان باب تسليم الراكب على الماشي. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٠٣) برقم (٢١٦٠) كتاب الإيمان باب يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير.

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٣٥١) برقم (٥٢٠٠) كتاب الأدب باب في الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه؟. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١١/ ١٩٥).

(٣) قصيدة عن السلام. ينظر: https://www.alukah.net/literature_language/0/123921/.

١٨ ربيع الآخر

الحياء شعبة من الإيمان

الحياء خصلة من خصال الإيمان، وخُلق من أخلاق الإسلام، مَن اتَّصف به حسُن إسلامه، وعلت أخلاقُه، ومَن اتَّصف به هجر المعصية خجلًا من ربِّه، وأقبل على طاعته بوازع الحبِّ والتعظيم، إنَّها خصلة تُبعدك عن فضائح السيئات وقبيح المنكرات، إنَّها من شُعب الإيمان، إنَّها تكسوك وقارًا واحترامًا، خصلة هي دليل على كرم السجيَّة وطيب النفس، بل هي صفة من صفات الأنبياء والصالحين والصالحات، إنَّها صفة جميلة في الرجال، وفي النساء أجمل، كسْبُها يجعل القبيح جميلًا، وفقْدُها يجعل الجميل قبيحًا.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الإِيمانُ بضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، فأفْضَلُها قَوْلُ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ" رواه البخاري ومسلم[١].

الحياء هو رأس الأخلاق، ودليل على بقيَّة الأخلاق، مَن تحلَّى به استطاع أن يتحلَّى بباقي الأخلاق الفاضلة، ويتخلَّى عن كل خُلُق قبيح، ومَن حُرِم الحياء عجز عن التحلِّي ببقيَّة الأخلاق الفاضلة، وانغمس في كلِّ خُلُق مذموم.

عرَّفه بعضُهم بأنَّه: تغيُّرٌ وانكسارٌ يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به ويُذمُّ، ومحلُّه الوجه، ومنبعه من القلب.

والحياء صفة من صفات الله عزَّ وجلَّ الثابتة في الكتاب والسُّنَّة، وهي صفة كمال تدلُّ على الكرم والفضل والجود والجلال، عَنْ سَلْمَانَ الفارسيِّ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:" إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إذا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا". رواه ابن ماجه[٢].

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه (١/ ٦٣) برقم (٣٥) كتاب الإيمان باب شعب الإيمان. ورواه البخاري مختصرًا في صحيحه (١/ ١١) برقم (٩) كتاب الإيمان باب أمور الإيمان.

(٢) رواه أبو داود في سننه (٢/ ٧٨) برقم (١٤٨٨) باب تفريع أبواب الوتر باب الدعاء. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٧١) برقم (٣٨٦٥) كتاب الدعاء باب رفع اليدين في الدعاء. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣/ ٤٨٨).

وينقسم الحياء باعتبار مَحلِّه إلى قسمين:

١- حياء فطري: وهو الذي يولد مع الإنسان متزوِّدًا به، ومن أمثلته: حياء الطفل عندما تنكشف عورته أمام الناس، وهذا النوع من الحياء منحة أعطاها الله لعباده.

٢- حياء مُكتسَب: وهو الذي يكتسبه المسلم من دينه، فيمنعه من فعل ما يُذمُّ شرعًا، مخافة أن يراه الله حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وينقسم باعتبار مُتعلِّقه إلى قسمين:

١- الحياء الشرعي: وهو الذي يقع على وجه الإجلال والاحترام، وهو محمود.

٢- الحياء غير الشرعي: وهو ما يقع سببًا لترْك أمر شرعي، وهذا النوع من الحياء مذموم، وهو ليس بحياء شرعي، وإنما هو ضعف ومهانة.

قال العلامة ابن باز- رحمه الله-: الحياء خُلُق كريم في القلب، يقتضي أن يكف صاحبه عمَّا لا ينبغي من المعاصي، يستحيي فلا يفعل المعاصي ولا يفعل الأشياء التي تنتقد عليه، يمنعه حياؤه من ذلك، فهو من الإيمان، وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم على رجل يعظ أخاه في الحياء، يقول له: دع عنك الحياء، فقال له- صلى الله عليه وسلم-:" دعه فإنَّ الحياء من الإيمان". متفق عليه[١]، فالحياء خُلُقٌ قلبيٌّ يمنع صاحبه من الخصال الذميمة والأخلاق المُنحرِفة، ويحمله على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال[٢].

خيرُ الشمائلِ للفتاةِ حياؤها ... وكذا الفتى بحيائِهِ يزدانُ
وركازُ أخلاقِ الورى وأساسُها ... خُلُقُ الحياءِ دعا له الإيمانُ[٣]

ومن مظاهر قلة الحياء:

- المجاهرة بالذنوب والمعاصي وعدم الخوف من الله.
- لبْس النساء الكاسيات العاريات الملابس التي تصف الأجسام، أو الملابس الضيقة أو المفتوحة من الأعلى والأسفل.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٤) برقم (٢٤) كتاب الإيمان باب الحياء من الإيمان. ومسلم (١/٦٣) رقم (٣٦) في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أبيات في الحياء، ينظر: https://forum.ashefaa.com/showthread.php?t=30105.



– حديث المرأة مع الرجل الأجنبيِّ عند خروجها واختلاطها به مثل البائع وغيره.

– التلفُّظ والتفوُّه بالألفاظ البذيئة والسيِّئة التي تجرح الآخرين.

– كلام الرجل مع غيره بالأسرار الزوجيَّة والأمور الخاصَّة التي تحصل بينه وبين زوجته.

– عدم ستر العورات، فقد رَأَى رسول الله صلى الله عليه وسلم رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ:" إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإذا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ". رواه أبو داود(١).

ومن أروع الأمثلة على الحياء حياء ابنة شعيب؛ قال تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

قال الشيخ السعدي في تفسيره: فجاءته ﴿تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾وهذا يدلُّ على كرم عنصرها، وخُلُقها الحسن، فإنَّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء، ويدلُّ على أنَّ موسى– عليه السلام– لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يُستحيي منه عادة، وإنَّما هو عزيز النفس، رأتْ من حُسْن خُلُقه ومكارم أخلاقه؛ ما أوجب لها الحياء منه، فـ ﴿قَالَتۡ﴾ له:﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أي: لا لِيَمُنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنَّما قصْده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى، عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ مِن ابتداء السبب المُوجِب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿قَالَ﴾ مُسكِّنًا روعه، جابرًا قلبه: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾أي: ليذهب خوفك وروعك، فإنَّ الله نجَّاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان(٣).

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٣٩) برقم (٤٠١٢) كتاب الحمام باب النهي عن التعري. والنسائي في سننه (١/ ٢٠٠) برقم (٤٠٦) كتاب الغسل والتيمم باب الاستتار عند الاغتسال. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٢/ ٥٠).

(٢) القصص: ٢٥.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١٤).



والخلاصة: كما قال الإمام ابن القيم- رحمه الله-: خُلُق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصَّة الإنسانية، فمَن لا حياء فيه فليس معه من الإنسانيَّة إلَّا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنَّه ليس معه من الخير شيء[١].

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤه ... ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤه
حياءَكَ فاحفظْه عليك وإنَّما ... يدلُّ على وجهِ الكريمِ حياؤه[٢]

---

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٧٨٨). مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ هـ - ٧٥١ هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد (وفق المنهج المعتمد من بكر بن عبد الله أبو زيد - رحمه الله -)، راجعه: مُحَمَّدْ أَجْمَل الإصْلاحِي، سليمان بن عبد الله العمير، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ.

(٢) ينظر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ (١/ ٢٨٥) بتقديم البيت الثاني على الأول. لباب الآداب، المؤلف: أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري (المتوفى: ٥٨٤هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٩ ربيع الآخر
كنتم خير أمّة أُخرجت للنَّاس

لقد أرسل الله خير رسله صلى الله عليه وسلم بأفضل كتبه إلى خير أمّة أُخرِجت للناس، ولكنَّ ذلك مرهون بأن تقوم الأمَّة بمُقوِّمات خيريَّتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

يقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[(١)].

يقول الشيخ السعدي: يمدح الله تعالى هذه الأمَّة ويُخبِر أنَّها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المُستلزِم للقيام بكلِّ ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ المُتضمِّن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردِّهم عن ضلالهم وغيِّهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمَّة أُخرِجت للناس، لَمَّا كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[(٢)] ؛ أمرًا منه تعالى لهذه الأمَّة، والأمر قد يمتثله المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخبر في هذه الآية أنَّ الأمَّة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتثلت أمر ربها واستحقَّت الفضل على سائر الأمم[(٣)].

إنَّ المعاصي والمنكَرات هي الداء العضال والوباء القتَّال الذي به خراب المجتمعات وهلاكها، وإنَّ التفريط في تغيير المنكرات ومكافحتها والقضاء عليها من أعظم أسباب حلول العقاب ونزول العذاب، فعن أم المؤمنين زينب بنت جحش- رضي الله عنها- أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعًا وهو يقول:" لا إله إلَّا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ويأجوج مثل هذه، وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، فقلت: يارسول الله؛ أنهلك وفينا الصالحون؟ قال صلى الله عليه وسلم: نعم؛ إذا كثُرَ الخَبَثُ". متفق عليه[(٤)]. والخبث هو الفسوق والفجور.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٤٣).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٣٨) برقم (٣٣٤٦) كتاب أحاديث الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٠٧) برقم (٢٨٨٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج.



ويقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إنَّ الله لا يُعذِّب العامَّة بعمل الخاصَّة حتَّى يروا المنكر بين ظهرانَيْهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذَّب الله الخاصَّة والعامَّة". رواه أحمد(١).

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا:" ما مِن قومٍ يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يُغيِّروا ثم لا يُغيِّروا إلَّا يوشك أن يعمَّهم الله بعقاب." رواه أبو داود(٢).

وكتب عمر بن عبد العزيز- رحمه الله تعالى- إلى بعض عُمَّاله: أما بعد؛ فإنَّه لم يظهر المنكر في قوم قط، ثم لم ينههم أهلُ الصلاح بينهم إلَّا أصابهم الله بعذاب من عنده، أو بأيدي مَن يشاء مِن عباده، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنقمات ما قُمِع أهل الباطل واستخفى فيهم بالمحارم(٣).

وعدم التناهي عن المنكر بين المسلمين مِن أعظم أسباب اللعن والطرد والإبعاد عن رحمة أرحم الراحمين، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إنَّ أوَّل ما دخل النقص على بني إسرائيل؛ كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا؛ اتق الله؛ ودعْ ما تصنع، فإنَّه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾(٤)، ثم قال صلى الله عليه وسلم:" واللهِ لتأمرُنَّ بالمعروف، ولتنهوُنَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد الظالم، ولتأطرُنَّه على الحق أطرًا، ولتقصرُنَّه على الحق قصرًا، أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننَّكم كما

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٩/ ٢٥٨) برقم (١٧٧٢٠). والحديث ضعفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٧/ ١٠٨).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤/ ١٢٢) برقم (٤٣٣٨) كتاب الملاحم باب الأمر والنهي. والحديث صححه الألباني كما في وضعيف سنن أبي داود (٩/ ٣٣٨).

(٣) ينظر: سيرة عمر بن عبد العزيز (ص: ١٤٣). سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، المؤلف: عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، أبو محمد المصري (المتوفى: ٢١٤هـ)، المحقق: أحمد عبيد، الناشر: عالم الكتب - بيروت – لبنان، الطبعة: السادسة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٤) المائدة: ٧٨- ٧٩.

لعنهم". رواه أبو داود والترمذي[١]، ويقول نبيُّنا صلى الله عليه وسلم:" أنتم توفون سبعين أمَّة، أنتم خيرها وأكرمها على الله". رواه الترمذي وابن ماجه[٢].

والله سبحانه وتعالى عندما شرط لخيريَّة هذه الأمَّة التزامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد جعله فرضًا فقد قال سبحانه:﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[٣].

والحديث عن خيريَّة الأمَّة وبيان فضلها ومكانتها يمنح أبناءها الثقة في مواجهة التحدِّيات، ويكون دافعًا لهم نحو التقدُّم والتحضُّر، والجدِّ والاجتهاد في العمل والإنتاج، وإن مِن أوجب الواجبات على الأمَّة الآن أن تسعى جاهدة لتحقيق الخيريَّة التي ميَّزها الله بها، وأن تتحمَّل مسئوليَّتها، وتؤدِّي رسالتها على الوجه الأكمل.

أُمَّـتِي يَا خَيْـرَ أُمَّـه ... انْهَضِـي عَزْمًـا وَهِمَّـهْ
رَغْـمَ جُـرْحٍ وَمُلِمَّـهْ ... وَالْخُطُـوبِ المُدْلَهِمَّـهْ
اخْلَعِي ثَوْبَ السُّبَاتْ ... وَاجْمَعِي شَمْلَ الشَّتَاتْ
وَاجْعَلِـي بَعْثَ الْحَيَاةْ ... فِي خَلاَيَاكِ مُهِمَّـهْ[٤]

يقول الإمام الغزالي: إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله به النبيِّين أجمعين، ولو طُوي بساطه وأُهمل عمله وعلمه لتعطَّلت النبوة، واضمحلت

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ١٢١) برقم (٤٣٣٦) كتاب الملاحم باب الأمر والنهي. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٢٧) برقم (٤٠٠٦) كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والحديث ضعفه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٩/ ٣٣٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ٢١٩) برقم (٢٠٠١٥). والترمذي في جامعه (٥/ ٢٢٦) برقم (٣٠٠١) أبواب تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٣٣) برقم (٤٢٨٨) كتاب الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٩/ ٢٨٨).

(٣) التوبة: ٧١.

(٤) الأبيات من قصيدة بعنوان يا خير أمة. ينظر: https://www.alukah.net/literature_language/0/42060/.



الديانة، وعمَّت الفترة، وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، وانتشر الفساد، واتَّسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد[١].

ومع ذلك فالخيريَّة ثابتة لهذه الأمة ولا تنتفي عنها إطلاقًا، فيُوجد دائمًا في هذه الأمَّة مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، صحيح أنَّ الخيريَّة في هذه الأمَّة قد قلَّت كثيرًا عمَّا كانت عليه إلَّا أنَّها موجودة، فلا تزال طائفة من هذه الأمَّة قائمة بأمر الله تعالى حتَّى قيام الساعة.

ولقد كان السلف الصالح يرون مَن لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر في عداد أموات الأحياء، سُئل حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- عن ميت الأحياء قال:" مَن لا يُنكر المُنكَر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه "[٢]، وقيل لابن مسعود- رضي الله عنه-: مَن ميت الأحياء؟ فقال:" الذي لا يعرف معروفًا، ولا يُنكر مُنكَرًا "[٣].

فإنكار المُنكَر ليس وقفًا على أناس بعينهم، بل هو وظيفة كل مسلم قادر على ذلك بيده ولسانه، وبحسب المصلحة الشرعية، وأمَّا الإنكار بالقلب فلا يُعذَر أحدٌ في تركه، قال صلى الله عليه وسلم:" مَن رأى منكم مُنكَرًا فلْيغيّرْه بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". رواه مسلم[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: فأمَّا الإنكار بالقلب فيجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومَن لم يفعله فليس بمؤمن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:" وذلك أضعف الإيمان"، قال:" وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل". رواه مسلم[٥]. [٦]

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٦).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٧٢) برقم (٧١٨٤).

(٣) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٢٤٨).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٦٩) برقم (٤٩) كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٦٩) برقم (٥٠) كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

(٦) ينظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢٧). مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.



ودرجة الإنكار بالقلب تستلزم المفارقة؛ بمعنى أن يُفارق المُنكَر بقلبه، ويُفارق أهل المُنكَر ومُنكَرهم كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾(١).

ذَهَبَ الرِّجَالُ المُقتدَى بفعالِهم ... والمنكِرون لكلِّ أمرٍ مُنكَرِ
وَبَقِيتُ فِي خُلْفٍ يُزَكِّي بعضُهم ... بعضًا ليدفعَ معورٌ عن معورِ(٢)

والخلاصة: أنَّ الأمَّة يجب عليها ألَّا تتخلَّى عن ريادتها ولا عن سيادتها وخيريَّتها، وأن تحرص كلَّ الحرص على القيام بمُقوِّمات هذه الخيريَّة؛ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتمسُّك بالإيمان بالله.

---

(١) النساء: ١٤٠.

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي (ص: ٣٩٧). ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعه: أبو سعيد الحسن السكري (المتوفى: ٢٩٠هـ)، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، ١٩٩٨م - ١٤١٨هـ. معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٤/ ١٤٧٣).



٢٠ ربيع الآخر

كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته

إنَّ من القيم العظيمة التي أرساها الإسلام ودعا إليها، وربَّى عليها أتباعه؛ تحمُّل المسؤولية، خاطب بذلك الأفراد والمجتمع والأمُّة كلَّها، وجعلها سببًا للحياة السعيدة الطيِّبة، والنجاة في الآخرة.

فتزكية النفس والمحافظة عليها مسؤوليَّة، والقيام بالحقوق الأسريَّة مسؤوليَّة، وإتقان الأعمال والقيام بالواجبات الوظيفيَّة مسؤوليَّة، وتقلُّد المناصب والمراكز الهامَّة مسؤوليَّة، وهكذا المسؤوليَّة في حياتنا تظهر في جميع سلوكيَّاتنا وتصرُّفاتنا، رجالًا ونساءً، شبابًا وشيوخًا، حُكَّامًا ومحكومين، وأخصُّ ما يُوصف به الإنسان البالغ الرشيد أنَّه مسؤول.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١]، **وقال تعالى**﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[٢]، فكلُّ عملٍ يُكلَّف به المسلم شرعًا؛ فهو مسؤوليَّة ينبغي عليه القيام بها على أحسن أحسن حال، فالمسؤوليَّة فرديَّة لأنَّ التكليف فرديٌّ، والحساب كذلك يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[٣].

وإنَّ من كمال هذه الشريعة اهتمامها بجميع شؤون الحياة التي تتعلَّق بالإنسان، ولهذا أمرت كلَّ فرد بالقيام بمسئوليَّاته على قدر موقعه ومكانه، وعن ابن عمر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-:" كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ". رواه البخاري ومسلم[٤].

في هذا الحديث يُبيِّن صلى الله عليه وسلم كثيرًا من أصناف المسئولين عن رعاية المجتمع المسلم: فيبدأ بالإمام، والإمام كلُّ مَن يُقتدَى به، وكلُّ مسئولٍ قلَّت مسئوليَّته أو كثُرت، ولا شكَّ أنَّ الإمام العامَّ هو أولى بتلك المسئوليَّة، لكمال مكانته، وعلو شأنه.

---

(١) الحجر: ٩٢،٩٣.

(٢) الصافات: ٢٤.

(٣) مريم: ٩٣ — ٩٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥) برقم (٨٩٣) كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٤٥٩) برقم (١٨٢٩) كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم.

فالإمام العامُّ وهو المسئول عن الأمَّة، والمسئول عن رعيّته، فيسوسهم سياسة حكيمة في شؤونهم وأمورهم، سياسة تفرض من الصلاح قدر الاستطاعة.

ومن حقِّ الرعيَّة عليه: حل مشاكلهم، وما يواجهونه وما يعانونه من مشاكل، بقدر الاستطاعة والإمكان، ومن حقِّهم عليه: تأمين حاجاتهم كلِّها، والسعي في تحقيقها، وتسهيل المهمة قدر ما استطاع، ومن حقِّهم عليه: أن يسوسهم بالعدل في المعاملة والرعاية، ولا يُفرِّق بينهم بغير سبب شرعي؛ فإنَّ العدل سبب لصلاح المجتمع، والعدل سبب لصلاح الأمَّة، وانتظام الدولة وشؤونها، وبالعدل تتآلف القلوب، وتجتمع الكلمة، ويقلُّ الشر والفساد .

والإمام العادل له في هذا العدل فضل كبير، وشأن عظيم، فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل الإمام العادل أحد السبعة الذين يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه، فقال صلى الله عليه وسلم: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تحت ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ" رواه البخاري(١).

وجعل الإمام العادل أحد الثلاثة المُستجاب دعاؤهم، يقول صلى الله عليه وسلم:" ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا الله فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الله: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ". رواه الترمذي وابن ماجه(٢).

والرجل راعٍ في بيته، ومسئول عن رعيته، نعم، هو راعٍ في بيته؛ على زوجته، وعلى أولاده من بنين وبنات، وعلى مَن تحت يده ممن له عليهم الولاية مِن إخوة وأخوات صغار، -وكذلك خادم بيته، فهو راع ومسئول عن رعيته، مسئول عنهم، فالأب أوَّلًا مأمور بأنْ يؤدِّب أبناءه الأدب الخدم- بأن يُربِّيهم على معرفة ربِّهم ونبيِّهم ودينهم، على العقيدة الصافية، مأمور بأنْ يحثَّهم على الأوامر الشرعيَّة للقيام بها، يقول الله جلَّ وعلا: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم (٦٦٠) كتاب الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة. وهو عندهما بلفظ: "يظلهم الله في ظله"، ولم أقف عليها عندهما بلفظ: "تحت ظله".

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٣/ ٤١٠) برقم (٨٠٤٣). والترمذي في جامعه (٤/ ٦٧٢) برقم (٢٥٢٦) أبواب تفسير القرآن باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها. وابن ماجه في سننه (١/ ٥٥٧) برقم (١٧٥٢) كتاب الصيام باب في الصائم لا ترد دعوته. والحديث ضعفه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٤/ ٢٥٢).

(٣) طه: ١٣٢.



ويقول الله تعالى عن إسماعيل- عليه السلام-: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾[١].

ويقول صلى الله عليه وسلم:" مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ". رواه أبو داود[٢].

حَرِّضْ بنيك على الآدابِ في الصِّغَر ... كيما تقرَّ بهم عيناك في الكِبَر
وإنَّما مثل الآدابِ تجمعُها ... في عِنفُوانِ الصِبا كالنقش في الحَجَر
هي الكنوز التي تنمو ذخائرُها ... وَلَا يُخافُ عليها حَادِثُ الغِيَر
الناس اثنان: ذُو عِلْمٍ وَمُسْتَمِعٍ ... وَاعٍ وَسَائِرُهُمْ كاللَّغْو والعَكَر[٣]

ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[٤].

يقول الشيخ السعدي في تفسيره: يا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالًا ونَهْيِه اجتنابًا، والتوبة عمَّا يُسخِط الله ويُوجِب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلَّا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممَّن هم تحت ولايته وتصرُّفه، ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره فقال:﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[٥]، ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾أي: غليظة أخلاقهم، عظيم انتهارهم، يُفزِعون بأصواتهم، ويُخيفون بمرآهم، ويُهينون أصحاب النار بقوَّتهم، ويمتثلون فيهم أمر الله، الذي حتم عليهم العذاب، وأوجب عليهم

---

(١) مريم: ٥٥.

(٢) رواه أبو داود في سننه (١/ ١٣٣) برقم (٤٩٥) كتاب الصلاة باب متى يؤمر الغلام بالصلاة. والحديث قال عنه الألباني: "حسن صحيح"كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١/ ٤٩٥).

(٣) ينظر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١/ ١٨، بترقيم الشاملة آليا).

(٤) التحريم: ٦.

(٥) الأنبياء: ٩٨.

شدة العقاب، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ وهذا فيه أيضًا مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به(١).

والمرأة المسلمة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، نعم، ترعى أبناءها وبناتها، وتُعين الأب على التربية والتوجيه، وكلما غفل الأب عن شيء؛ فإنَّ الأمَّ تقوم مقامه، فتوجِّه الأبناء والبنات توجيهًا سليمًا، فتُرشدهم إلى الخير، وتحثُّهم عليه، والمرأة المسلمة في بيتها عونٌ لزوجها على برِّ أبويه، وعونٌ لزوجها على صلة رحمه، وعونٌ لزوجها على كلِّ خُلُق كريم.

وبعض النساء تُفرِّق بينه وبين أبويه، وبينه وبين إخوته وأخواته، وبينه وبين أرحامه، أمَّا المرأة الطيِّبة فهي امرأة صالحة، تُؤلِّف وتجمع وتُوفِّق، وتسعى في الخير جهدها، هذه المرأة الصالحة بركة على زوجها، وعلى بيتها، وعلى أولادها، وعلى الأسرة جميعًا.

والخادِمُ أي: العَبدُ، ويَدخُلُ فيه الأجيرُ عُمومًا في مالِ سَيِّدِه؛ راعٍ بالقيامِ بحِفظِ ما في يَدِه مِنه وخِدمتِه، وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه.

فكُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، فعمَّمَ- صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- في أوَّلِ الحديثِ، ثمَّ خصَّصَ، وَقسَّم الخُصوصيَّةَ إلى جِهةِ الرَّجُلِ وجِهةِ المرْأةِ، وهَكَذا، ثمَّ عمَّمَ آخِرًا تأْكيدًا لِبَيانِ الحكْمِ أوَّلًا وآخِرًا.

والخلاصة: أنَّ الناس جميعا صغيرهم وكبيرهم؛ من علتْ رُتبُه أو نزلت؛ منوط في عنقه مسئوليَّة، وسوف يُسأل عنها يوم القيامة بين يدي ربِّه سبحانه وتعالى، لذا يجب أن يتَّقي الله فيما استرعاه الله تعالى إياه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من راع يسترعيه الله رعيَّة يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيَّته إلَّا حرم الله عليه الجنة " متفق عليه(٢).

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٧٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ٦٤) برقم (٧١٥٠) كتاب الأحكام باب من استرعي رعية فلم ينصح. ومسلم في صحيحه (١/ ١٢٥) برقم (١٤٢) كتاب الإيمان باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.



٢١ ربيع الآخر

قل هو من عند أنفسكم

في هذه الأيام نمرُّ بأحداث عظام، وبلايا جسام، وفتن ومحن، وتبدُّل للحقائق، وسوء وظلم، وأمراض وأسقام، وقحط وجدب، وغلاء وعناء.

وهذا يجعل الناظر بعين البصر والبصيرة؛ ينظر إلى أسباب هذه البلايا والرزايا، فيا ترى ما سبب كثرة البلايا والفتن؟ والقحط والجدب؟ والأمراض والأسقام؟ والغلاء المتزايد؟

عند التأمُّل في آيات الله البينات نصل إلى حقيقة جليَّة، وبيان ظاهر، ممَّا يجعلنا نضع أيدينا على الداء، ومن ثم نسعى للعلاج.

من ذلك قول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، فظهور الفساد في البر إمَّا أن يكون بالقحط، وقلة النبات كما قاله ابن عطية، وإمَّا أن يكون بنقصان البركة كما قاله ابن عباس- رضي الله عنهما-، وظهوره في البحر أي: البلاد التي على الأنهار بقلة مائها، وذلك كله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ من المعاصي والآثام، فتحلُّ بهم العقوبة على شيء من أعمالهم لا على أعمالهم كلِّها، كلُّ ذلك لعلَّهم إلى ربهم يرجعون، وعن المعاصي يكُفُّون ويتوبون، ويقول ربنا تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[2]، والظلم هنا شامل للمعاصي، وأعظم المعاصي الشرك. قال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

يقول الشيخ السعدي في تفسيره: هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم "أحد" وقُتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ من المشركين ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فلْيهُن الأمر ولْتخِفَّ المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار، ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهُزمنا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا

---

(١) الروم: ٤١.

(٢) الكهف: ٥٩.

(٣) آل عمران: ١٦٥.

على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتمُّ الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم ﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾(١)(٢).

في أُحد عبَّأ النبي صلى الله عليه وسلم الناس للقتال، وحدَّد مواقع جيشه، وكان من حنكته العسكرية أن اختار من جيشه خمسين رجلًا يجيدون الرمي بالنبل، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير-رضي الله عنه-، وأصدر أوامره المشدَّدة الصريحة للرماة، فقال: انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا، لا تبرحوا وإن تخطَّفنا الطير، وأكَّد على ابن جبير- رضي الله عنه-، فقال:" إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نُؤتينَّ من قِبَلك ".

ويلتقي الجيشان، وتدور رحى الحرب، ويضرب السيف القنا، فيتنزَّل مدد الله وينصر جنده، ويُجيد الرماة دورهم في حماية الظهر وردِّ خيل المشركين، وألقي الرعب في المشركين، فهربوا فزعين في مشهد يصوِّره لك البراء بن عازب- رضي الله عنه- حيث قال:" فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتدِدن في الجبل، رفعنَ عن سوقهنَّ، قد بدت خلاخلهنَّ، فلما رأى الرماة المشهد أخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، ونزلوا عن مواقعهم، فصاح بهم عبد الله بن جبير- رضي الله عنه-: مكانكم، عهد رسول صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا، فأبوا إلَّا النزول(٣)(٤).

نزلوا وهم يظنون أن الحرب قد وضعت أوزارها، ناسين بذلك الأوامر المشدَّدة من النبي- صلى الله عليه وسلم- بلزوم المواقع وعدم البروح عنها.

لقد عصوا بذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وتركوا حماية الظهر، فوقعت السُّنَّة الإلهية عليهم، السُّنَّة لا تُحابي أحدًا ولا تُداريه، فدارت الدائرة عليهم، وانقلبت رحى المنون إلى دارهم، فكانت نتيجة هذه المعصية أن قُتِل من الصحابة سبعون، وكان يوم بلاء وتمحيص، خلص فيه

---

(١) محمد: ٤.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٥٦).

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام (١/ ١٠٦). تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٩٤) برقم (٤٠٤٣) كتاب المغازي باب غزوة أحد.

المشركون إلى رسول صلى الله عليه وسلم، فرُجم بالحجارة حتى وقع لشقِّه، وأصيبت رباعيته، وشُجَّ وجهه، وكلمت شفته، فدخل في وجنته حلقتان من حلَق المِغْفَر.

فالمعاصي لها أكبر الأثر على قلب المسلم، فإنها لا تزال تطبق على قلبه حتى تغلفه بغلاف من الران، فلا يسمع حقًّا، ولا يميز هدى من ضلال، ولا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلَّا ما كان موافقًا لهواه.

فالقلب ينتابه مرض معنوي تمامًا كما يصيبه المرض الحسي، فإذا ما أصيب بهذا المرض المعنوي من شرك أو نفاق أو بدعة أو إصرار على معصية وغفلة قلَّ نفعه أو تعطَّل عمله، وهذا مزلق خطير، وبلاء كبير، ويزيد من خطورته كون هذا المرض خفيًّا قد لا يشعر به صاحبه، وإن علم به صعب عليه الصبر على مرارة الدواء، إذ لا صبر لهذا الصنف على مخالفة الهوى الذي هو علاجه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[(١)]، وكان ميمون بن مهران يقول: رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمَّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله فكان لها قائدًا[(٢)].

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: " تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ" رواه مسلم[(٣)].

لا تحقرنَّ من الذنوبِ صغيرًا ... إنَّ الصغيرَ غدًا يعودُ كبيرًا
إنَّ الصغيرَ وإنْ تقادمَ عهدُهُ ... عندَ الإلهِ مُسطَّرٌ تسطيرًا
فازجرْ هواك عن البطالةِ لا تكنْ ... صعبَ القيادِ وشَمِّرْ تشميرًا
إنَّ المُحبَّ إذا أحبَّ إلهَهُ ... طارَ الفؤادُ وأُلهِمَ التفكيرًا
فاسألْ هدايتَكَ الإلهَ بنيَّةٍ ... فكفى بربِّكَ هاديًا ونصيرًا[(٤)]

---

(١) النازعات: ٤٠-٤١.

(٢) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (١/ ٢٨). اعتلال القلوب للخرائطي، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ)، تحقيق: حمدي الدمرداش، الناشر: نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة-الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٨) برقم (١٤٤) كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وأنه يأرز بين المسجدين.

(٤) ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ٣٠١). تاريخ دمشق، المؤلف: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.



إن مكة هي بلد الله الحرام، وإن الله تعالى قد أجاب نبيَّه إبراهيم الخليل- عليه السلام- بأن يجعل مكة بلدًا آمنًا، وأن يرزق أهلها من الثمرات لكن بشرط مَن آمن بالله، وهذا البلد على حرمته، وعلو منزلته، قد عاقب الله أهله وأنزل فيهم قرآنًا لما كذَّبوا الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[1].

والخلاصة: إذا أرادت الأمَّة النجاح والفلاح، والفوز والسعادة، والهناءة والعيش الرغيد؛ فلن يتحقق لها ذلك إلَّا بالعودة إلى الله وتصحيح المسار، وهذا الأمر ليس أمرًا اختياريًّا، بل واجبًا شرعيًّا، فلا الخطط الاقتصادية، ولا رفع دخل الفرد، ولا التفكير والتخطيط؛ ينفع مع العصيان، ومبارزة الديَّان، ومحاربة القوِّي المنَّان، فما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فالعودة إلى الله مهما تكرَّرت الذنوب هو المخرج من هذا التيه الذي نعيشه، وهذه البلايا المتتابعات.

(١) النحل: ١١٢.



٢٢ ربيع الآخر

وجعلنا الليل لباسًا

النوم آية من آيات الله، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[1]، ويقول جلَّ في علاه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[2].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: أي: من رحمته بكم ولطفه؛ أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتَّى تستقرُّوا فيه وتهدؤوا بالنوم وتسبت حركاتكم، أي: تنقطع عند النوم، فلولا الليل لما سكن العباد، بل يستمرُّون في حركتهم وتصرُّفهم، فيضرُّهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضًا الظلام لتعطَّلت عليهم معايشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشورًا، ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح[3].

ويقول أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: راحة لكم، وقطعًا لأشغالكم، التي متى تمادت بكم أضرَّت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس لتنقطع حركاتهم الضارَّة، وتحصل راحتهم النافعة[4].

فالمتأمِّل لهذه الآيات يجد أنها جاءت في سياق الإنعام والامتنان، الأمر الذي يجعل المؤمن المتدبِّر يقف عند هذا الامتنان وقفة إجلال لله وتعظيم، وَلِذَا كَانَ النَّوْمُ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الإِنْسَانُ، وَالأَرَقُ مِنَ النِّقَمِ الَّتِي يُبْتَلَى بِهَا، وَمَنْ لا يَنَامُ أَبَدًا لا يَلْبَثُ أَنْ يَمُوتَ.

وَالأَصْلُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ لِلنَّوْمِ وَالهُدُوءِ وَالسُّكُونِ، وَجَعَلَ النَّهَارَ لِلسَّعْيِ وَالحَرَكَةِ وَالكَسْبِ، فَسُكُونُ اللَّيْلِ وَظُلْمَتُهُ يَدْعُوَانِ لِلْهُدُوءِ وَالنَّوْمِ، وَنُورُ النَّهَارِ وَصَخَبُهُ يَدْعُوَانِ لِلنَّشَاطِ وَالاسْتِيقَاظِ، وَهَذِهِ السُّنَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِهِ سُبْحَانَهُ فِي الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا مِنْ أَحْيَاءٍ، حَتَّى كَانَتْ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ؛ قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

---

(١) الروم: ٢٣.

(٢) الفرقان: ٤٧.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٨٤).

(٤) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠٦).

حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾[٢].

وبرغم أن الإنسان يقضي حوالي ثلث حياته نائمًا؛ إلَّا أنَّ أكثر الناس لا يعرف الكثير عن النوم، ولا يعرف لماذا ينام ؟!

فهناك اعتقاد سائد بأنَّ النوم عبارة عن خمول في وظائف الجسم الجسديَّة والعقليَّة يحتاجه الإنسان لتجديد نشاطه.

والواقع المُثبَت علميًّا خلاف ذلك تمامًا، حيث إنه:

- يحدث خلال النوم العديد من الأنشطة المُعقَّدة على مستوى المخ والجسم بصفة عامَّة، وليس كما يعتقد البعض، بل على العكس، فإنَّ بعض الوظائف تكون أنشط خلال النوم كما أنَّ بعض الأمراض تحدث خلال النوم فقط وتختفي مع استيقاظ المريض، وخلال هذا الوقت الطويل تحدث العديد من التغيُّرات والوظائف العضويَّة الهامَّة للجسم من إعادة بناء لأنسجة الجسم وإفراز هرمونات وغيرها.

- يحصل الكثير من أعضاء الجسم على راحته كالقلب والدماغ وغيرهما.

وآليَّة النوم عمليَّة مُعقَّدة ترتبط فيها مختلف الأعضاء ارتباطًا وثيقًا، فعندما يكون الإنسان مستيقظًا فإنَّ المخ يكون لديه نشاط كهربائيٌّ مُعيَّن، ومع حلول النوم يبدأ هذا النشاط بالتغيُّر، فالنائم يمرُّ خلال نومه بعدَّة مراحل من النوم، لكلٍّ منها دورها، فهناك:

- المرحلة الأولى والثانية: ويكون النوم خلالهما خفيفًا، ويبدآن مع بداية النوم، وبعد ذلك تبدأ المرحلة الثالثة والرابعة: أو ما يُعرَف بالنوم العميق، وهاتان المرحلتان مهمَّتان لاستعادة الجسم نشاطه، ونقص هاتين المرحلتين من النوم ينتج عنه النوم الخفيف غير المريح والتعب والإجهاد خلال النهار، وبعد حوالي تسعين دقيقة تبدأ مرحلة الأحلام أو ما يُعرَف بمرحلة حركة العينين السريعة، وتحدث الأحلام خلال هذه المرحلة، وهذه المرحلة مهمَّة لاستعادة الذهن نشاطه، والمرور بجميع مراحل النوم يُعرَف بدورة النوم الكاملة.

---

(١) الأنعام: ٩٦.

(٢) يونس: ٦٧.



وخلال نوم الإنسان الطبيعي (٦-٨ ساعات) يمرُّ الإنسان بحوالي ٤-٦ دورات نوم كاملات، وهنا تظهر عظيم نعمة الله تعالى في أنْ وصف النوم بـ (سباتًا) قال المفسرون: سباتًا أي: قطعًا للتعب والنصَب[١]، ممتدًّا في السكن والراحة[٢].

إنَّ آفَةَ السَّهَرِ قَدِ انْتَشَرَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ، وَسَلِمَ مِنْهَا الغَرْبِيُّونَ مَعَ أَنَّهُمْ أَسْبَقُ إِلَى التَّمَتُّعِ بِالطَّاقَةِ وَمُنْتَجَاتِ الحَضَارَةِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ جِدُّهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَشِدَّةُ مُحَاسَبَتِهِمْ عَلَى الإِخْلَالِ بِهَا، وَجِدُّهُمْ فِي مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى صِحَّةِ أَبْدَانِهِمْ؛ ذَلِكَ أَنَّ لِقَلْبِ الفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ آثَارًا مَأْسَاوِيَّةً على صحة الإنسان.

إنَّ الأصل في السهر أنَّه مذموم إلَّا لمصلحة راجحة، وبشرط ألَّا يُخلَّ بشعيرة واجبة؛ لأنَّ عمومات القرآن دالَّة على أنَّ الله تعالى جعل الليل للسكن والنوم، وجعل النهار للحركة والانتشار، ثم جاءت السُّنَّة النبويَّة تعزِّز هذه الآية الربانيَّة في البشر لتجعلها وفق الفطرة السوية؛ فعن أبي برزة- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم" كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها". متفق عليه[٣]. وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت:" ما نام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل العشاء ولا سمر بعدها". رواه أحمد[٤].

فهذا هديه الدائم- عليه الصلاة والسلام-، وما نُقِل من سهره وحديثه بعد العشاء فهو عارضٌ لحاجة دعت لذلك.

ولذا كان صلى الله عليه وسلم يذمُّ السّهر ويعيبه؛ كما روى أحمد عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدب لنا السمر بعد العشاء"[٥] أي: يعيبه ويذمُّه.

---

(١) انظر: "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس ٣/ ١٢٥، "لسان العرب" لابن منظور ٢/ ٣٧ سبت.

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٨) برقم (٥٦٨) كتاب مواقيت الصلاة باب ما يكره من النوم قبل العشاء. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٤٧) برقم (٦٤٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها، وهو التغليس، وبيان قدر القراءة فيها.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٤٣/ ٣١٥) برقم (٢٦٢٨٠). وابن ماجه في سننه (١/ ٢٣٠) برقم (٧٠٢) كتاب الصلاة باب النهي عن النوم قبل صلاة العشاء. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٢/ ٢٤٧).

(٥) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢١٢) برقم (٣٦٨٦). وابن ماجه في سننه (١/ ٢٣٠) برقم (٧٠٣) كتاب الصلاة باب النهي عن النوم قبل صلاة العشاء. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٢/ ٢٧٥).



ولم يرخِّص صلى الله عليه وسلم في السهر إلَّا لمن له حاجةٌ تدعو للسهر، كمن يُصلِّي أوَّل الليل يخشى ألَّا يقوم آخره فيُقدِّم الوتر، أو من كان مسافرًا؛ لأنَّ المسير في الليل أبرد وأهون، وفيه تُطوى الأرض، ويقلُّ العطش، أو لحديث يُذكِّر بالآخرة، كما فعل النّبيُّ- عليه الصلاة والسلام- غير مرَّة، أو لعمل لا بدَّ منه كحراسة أو نحوها من مصالح المسلمين، أو لعمل لا يمكن إنجازه إلَّا في اللّيل، أو لا يحتمل التأخير، أو لتفقُّد أحوال الرعيَّة من الإمام أو نُوَّابه، أو لحفظ الأمن والأعراض من أهل الحسبة والشُّرَط ونحوهم.

وأما السهر للحديث في الدنيا، ومؤانسة الأصحاب، والاستجمام في الاستراحات ونحوها، واتِّخاذ ذلك عادةً دائمةً لا تنقطع؛ فهو إلى الكراهة أقرب منه للإباحة، فإنْ ترتَّب عليه منكرٌ- وأغلبه كذلك؛ كالاجتماع على المعازف وما تبثُّه الفضائيَّات من سوء المشاهد، أو على الغيبة والقيل والقال- فهو سهرٌ مُحرَّمٌ واجتماعٌ على مُحرَّم، ويعظم خطره وتشتدُّ حرمته إنْ ترتَّب عليه تضييع الصلوات المفروضة؛ فقومٌ يسهرون الليل حتّى إذا ما بقي على الفجر إلَّا ساعةٌ أو بعضها ناموا إلى موعد الوظيفة، وقومٌ يواصلون سهرهم إلى نحر الضحى ثم ينامون إلى المساء، فيُضيِّعون صلاتي الظُّهر والعصر، وكلُّ أولئك على خطر عظيم بتضييعهم فرائض الله تعالى، واجتماعهم على ما حرَّم عليهم.

وفي مسند أحمد عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا سمر بعد الصلاة - يعني: العشاء الآخرة - إلَّا لأحد رجلين: مصلٍّ، أو مسافر"[١]. وقد أخذ به الإمام أحمد، فكره السمر في حديث الدنيا، ورخَّص فيه للمسافر.

والخلاصة: أنَّ النوم نعمة عظيمة مَنَّ الله بها على عباده تستوجب الشكر، وينبغي على الناس أن يحافظوا على هذه النعمة باستخدامها واستعمالها الاستعمال الأمثل، وألَّا يوظِّفوها إلَّا في طاعة الله تعالى، فكم من أناس حرموا من هذه النعمة لمرض أو لشيء أصابهم، فنسأل الله أن يديم علينا نعمه، وأن يجعلنا من القائمين بشكرها حق قيام.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٩٠) برقم (٣٦٠٣).

٢٣ ربيع الآخر

اللهمَّ بارك لأمَّتي في بكورها

إنَّ من مفسدات القلب المانعة من نزول البركة في الرزق؛ والمورثة خسارة منافع دنيويَّة وأجور أخرويَّة، والتي تحرم الإنسان السرور أيامه ولياليه، وتكتب عليه الهمَّ الدائم والاكتئاب، ومرارة العيش، وضيق النفس، وقلق القلب، وفقدان الشعور بلذَّة الحياة وجمالها، والتي تنزع البركة من العمر؛ إضاعة باكورة اليوم، والنوم أول النهار، وتضييع صلاة الفجر.

فأكثر الناس ينامون قبل الفجر، ويمرُّ عليهم الفجر وهم نائمون، ويمرُّ أول النهار وهم نائمون، ويمرُّ وقت الضحى وهم نائمون، إلى الظهيرة وقت القيلولة، حيث يبدأ يومهم ونهارهم، لينتهي في منتصف الليل وقرب الفجر، ليبدأ ليلهم بعد ذلك، ويستمرُّ إلى وقت الظهر، وهكذا كل يوم، فلا يشعرون بقلوبهم ونفوسهم وأبدانهم؛ كيف أنها تضمحل، وتهزل وتضعف، وتصيبها الأمراض الحسيَّة والمعنويَّة ببطء، ولا يفيقون إلَّا بعد التبدُّل مرضًا وضيقًا وقلقًا.

روى أبو داوود عن صخر بن وداعة الغامدي- رضي الله عنه- عن النبي- صلى عليه وسلم- قال:" اللهمَّ بارك لأمَّتي في بكورها". وكان إذا بعث سريَّة أو جيشًا بعثهم من أول النهار، وكان صخر رجلًا تاجرًا، وكان يبعث تجارته من أول النهار، فأثرى وكثر ماله(١).

لقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم حريصًا على أمَّته، ومن حرصه عليها أنَّه كان يدعو لها بالبركة وسائر الخيرات، وفي هذا الحديث: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:" اللَّهمَّ بارك لأمَّتي في بكورها"، والبكور هو صدر النهار وأوله، وهذا دعاءٌ معناه: اللَّهمَّ أكثِرْ لها الخير والبركة بالزيادة والنماء، حين تخرج لأعمالها في الصباح وأوَّل النهار.

يقول صخر- رضي الله عنه- رواي الحديث: وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم " إذا بعث سريّةً أو جيشًا "، بمعنى إذا أراد النبيُّ صلى الله عليه وسلم إرسالهم إلى الغزو، والسريَّة: الجزء من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة جنديٍّ،" بعثهم من أوَّل النهار"؛ وذلك لتحصيل تلك البركة التي تكون في أوَّله.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٤/ ١٧٧) برقم (١٥٤٤٣). وأبو داود في سننه (٣/ ٣٥) برقم (٢٦٠٦) كتاب الجهاد باب في الابتكار في السفر. وابن ماجه في سننه (٢/ ٧٥٢) برقم (٢٢٣٦) كتاب التجارات باب ما يرجى من البركة في البكور. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٦/ ١٠٦).



ويقول عمارة بن حديد- وهو أحد رواة الحديث-:" وكان صخر رجلًا تاجرًا"، يعمل بالتّجارة،" وكان يبعث تجارته من أوَّل النهار"، عملًا بوصيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى ينال بركة دعاء النبيِّ- صلى الله عليه وسلم-، " فأثرى وكثر ماله " أي: فصار غنيًّا.

وفي الحديث: بيان حرص النبيِّ صلى الله عليه وسلم على الخير لأمَّته، وفيه: الترغيب في العمل بسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أوصى به، وأنَّ ذلك سببٌ للبركة.

يقول تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[١]، قال الإمام الطبري في تفسيره: وأما الإبكار فإنه مصدر من قول القائل: أبكر فلان في حاجة فهو يبكر إبكارًا، وذلك إذا خرج فيها من بين مطلع الفجر إلى وقت الضحى فذلك إبكار، يقال فيه: أبكر فلان وبكر يبكر بكورًا[٢].

وذلك لأنَّ بين هذين كان وقت ابتداء العمل في زمن النبوة وما بعده إلى عصر قريب، ولهذا خُصَّ بالدعاء، قال ابن بطال: ما روي عنه صلى الله عليه وسلم:" اللهمَّ بارك لأمَّتي في بكورها " لا يدلُّ على أنَّ غير البكور لا بركة فيه، لأنَّ كل ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم فيه البركة، ولأمَّته فيه أكبر الأسوة، وإنما خَصَّ- صلى الله عليه وسلم- البكور بالدعاء بالبركة فيه من بين سائر الأوقات - والله أعلم- لأنه وقت يقصده الناس بابتداء أعمالهم، وهو وقت نشاط وقيام من دعة فخصه بالدعاء، لينال بركة دعوته جميع أمته[٣].

قال ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين عند شرح هذا الحديث: لكن وللأسف؛ أكثرنا اليوم ينامون في أول النهار ولا يستيقظون إلا في الضحى فيفوت عليهم أول النهار الذي فيه بركة[٤].

وإنَّ من محاسن هذه الشريعة المطهرة: مراعاة جانب بركة البكور في مواضع كثيرة من أحكامها: منها: البكور في المحافظة على الجانب العباديِّ كالصلوات وغيرها.

---

(١) آل عمران: ٤١.

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (٥/ ٣٩١). تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٣) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٥/ ١٢٤). شرح صحيح البخارى لابن بطال، المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٤) شرح رياض الصالحين (٤/ ٥٨٢).



ومنها: البكور في المحافظة على الجانب العلميِّ كطلب العلم وتحصيله وقراءة القرآن والأذكار.

ومنها: البكور في المحافظة على جانب المعاملات الأخلاقيَّة كالبيع والشراء وغيرهما.

ومنها: التنصيص والدعاء لهذه الأمَّة في بكورها لنيل خيرَي الدنيا والآخرة.

فهذه المواطن وغيرها في الشريعة المُطهَّرة توحي بأهمِّيَّة بركة البكور لما فيه من إقامة الدين والدنيا، ولأن أعمار هذه الأمة المحمديَّة الإسلاميَّة تتراوح بين الستين إلى السبعين، فحرصت الشريعة على إشغال هذا الجانب المهمِ في شخصيَّة المسلم؛ ليأخذ بجانب الأهمِّ فالمهمِّ حسبما يُوفَّق له من أعمال الخير والصلاح في الدنيا والآخرة.

ومَن حرَص على البكور وعلى العمل في هذه الأوقات وبكَّر وبادر إلى الصالحات؛ كان ذلك سببًا في حصول الخير له، ومن ذلك:

- أنَّه سبب في سعادة العبد في الدنيا والآخرة، قال العلامة ابن رجب الحنبليُّ رحمه الله: لما سمع القوم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[١]، وقوله: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]؛ فهموا أن المراد من ذلك: أن يجتهد كلُّ واحدٍ منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة، والمسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية، فكان تنافسُهم في درجات الآخرة واستباقهم إليها، ثم جاء مِن بعدهم قومٌ فعكسوا الأمر، فصار تنافسُهم في الدنيا الدنيئة وحظوظها الفانية[٣].

- أنَّه سبب لاغتنام الأوقات وعدم تضييعها: قال صلى الله عليه وسلم- كما عند الإمام مسلم:" بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل مؤمنًا، ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، يبيع دينه بعرَض من الدنيا قليل"[٤]، وقال صلى الله عليه وسلم أيضًا- كما في صحيح البخاري- عن ابن عباس- رضي الله عنهما-: " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ"[٥].

---

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) الحديد: ٢١.

(٣) ينظر: لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢٤٤). لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، الناشر: دار ابن حزم للطبتعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٠) برقم (١١٨) كتاب الإيمان باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٨) برقم (٦٤١٢) كتاب الرقاق باب لا عيش إلا عيش الآخرة.

فالذي ينام نهاره قد ضيَّع غنيمتين عظيمتين: الأولى: واجب الله عليه بصلاة الفجر في جماعة، والغنيمة الثانية: بركة أول النهار، الوقت الذي تُقسَّم فيه الأرزاق، فيُحرَم ذلك الرزق الإلهيُّ في يومه لنومه.

فمَن ضيَّع حق الله الواجب عليه، فلا عجب أن يعيش في قلق وثبور، ونقصان وكدر؛ لما يجده من عقاب الله عليه، لإهماله ما وجب عليه، أرأيتم إنسانًا لا يقوم بوظيفته كما يجب، فيجد توبيخًا من صاحب العمل، وربما خصم شيئًا من أجرته، ألا يجد ألمًا في نفسه من التوبيخ، وحرمان الأجر؟!!

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه الطب النبوي: ونوم الصبحة يمنع الرزق، لأنَّ ذلك وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها، وهو وقت قسمة الأرزاق، فنومه حرمان إلَّا لعارض أو ضرورة، وهو مُضرٌّ جدًّا بالبدن لإرخائه البدن، وإفساده للعضلات التي ينبغي تحليلها بالرياضة، فيُحدِث تكسُّرًا وعيًّا وضعفًا. وإن كان قبل التبرُّز والحركة والرياضة وإشغال المعدة بشيء، فذلك الداء العضال المولِّد لأنواع من الأدواء[1].

والخلاصة: أنَّ في البكور بركة وزيادة ونماء لخيرَي الدنيا والآخرة، وأنَّه ينبغي لكل مسلم أن يحشد همَّته ويقوِّي إرادته للمسابقة لفعل الأعمال الصالحة في كل الأوقات، وخاصَّة في بداية النهار، وأوَّله الفجر للصلاة وقراءة القرآن بعدها وقراءة الأذكار، ثم التوجُّه لبقيَّة الأعمال الدنيويَّة والدينيَّة النافعة له في معاشه ومعاده.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٢٢٢).



٢٤ ربيع الآخر

العينُ حقٌّ

العين والحسد مسألة من المسائل المشهورة بين الناس، ثابتة بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، بيَّنها الله سبحانه وتعالى، وانقسم الناس في قبولها إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأول: مُفْرِطون موسوسون في تعليق وربط كلِّ ما يحدث معهم بالعين والحسد، بل وقد يلجأون في العلاج إلى الكُهَّان والمبتدعة، بل قد يصلون إلى الشرك والردَّة. والقسم الثاني: مُنكرون لوجود العين والحسد، ولا يؤمنون بالعلاج حتَّى عن طريق الرقية الشرعيَّة، ويعتبرون كلَّ ذلك من الشعوذة، والقسم الثالث: هو وسطٌ بين الطرفين؛ يؤمن بوجود الحسد والعين وتأثيرهما على الإنسان، وفي نفس الوقت يتَّبع الطرق الشرعيَّة في علاجها بعيدًا عن البدع والتجارب ووصفات العطَّارين، ودجل المشعوذين، وهو المنهج الحقُّ منهج أهل السُّنَّة والجماعة.

العين من الأخلاق السيئة، والخصال القبيحة، والأمراض المقيتة التي تقود إلى النزاع والخصام والعداوة والبغضاء، وفيما يأتي تعريف هذا الخلق الذميم للابتعاد عنه واجتنابه:

العين: عرَّفها ابن القيم بأنها: "سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة، فإن صادفته مكشوفًا لا وقاية عليه؛ أثَّرت فيه ولا بدَّ، وإن صادفته حذرًا شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام لم تؤثِّر فيه"[(١)].

ولا يقتصر أثر العين الحاسدة على الإنسان، بل ربَّما يمتدُّ إلى الحيوان والجماد، وقد أمر النبي- صلى الله عليه وسلم- بالاسترقاء من العين، ودليل ذلك ما روت أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-:" كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يأمرني أن أسترقي من العين". رواه مسلم[(٢)].

وقد سئل فضيلة الشيخ العلامة ابن باز: هل للعين- أعني: الحسد- أنواع، بمعنى: أنَّه فيه عين تضرُّ بالمِعان بشدَّة، وعين تضرُّ بالمِعان بأضرار بسيطة؟

فأجاب: العين حقٌّ مثل ما قال صلى الله عليه وسلم:" العين حق، ولو كانَ شيءٌ سابَقَ القَدَرَ سَبَقَتْهُ العَيْنُ". رواه مسلم[(٣)]، قد تقع العين فتضرُّ بعض الناس، وليس باختيار الإنسان، قد يكون عنده عندما يرى شيئًا يعجبه، قد يصاب المعيون بشيء يضرُّه، فالإنسان يتعوَّذ بكلمات الله التامَّات

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٥٤).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٢٥) برقم (٢١٩٥) كتاب السلام باب استحباب الرقية من العين والنظرة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧١٩) برقم (٢١٨٨) كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى.

من شرِّ ما خلق صباحًا ومساء ثلاث مرَّات، فهذا من أسباب الوقاية، ويقول:" باسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم" ثلاث مرَّات صباحًا ومساء، هذا من أسباب الوقاية.

والعين حقٌّ قد تصدُر من الإنسان بغير اختياره، قد يرى ما يعجبه من صحَّة إنسان أو كثرة ماله، أو غير هذا؛ فيحصل له أن يعينه، نعم، يعني ينظره، نعم.

وسُئل الشيخ محمد الصالح العثيمين: هل العين تصيب الإنسان؟

فأجاب بقوله: رأينا في العين أنَّها حقٌّ ثابت شرعًا وحسًّا، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾[1]، قال ابن عباس- رضي الله عنهما- وغيره في تفسيرها: أي يعينوك بأبصارهم، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم:" العين حق، ولو كان شيء سابقَ القدر سبقت العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا". رواه مسلم[2]. [3].

وهناك أسباب عديدة، ورُقًى مباركة تمنع من الحسد منها:

١- الإكثار من قراءة المعوِّذتين، والتعوُّذ بالله من شرِّ الحاسد إذا حسد.

٢- ستر ما يُخشى عليه من العين من منظر باهر، أو شيء ملفت، أو تحصينه بالأوراد والأذكار، مع اليقين التام أنَّه لا يضرُّه أحدٌ إلَّا بإذن الله تعالى.

٣- الاحتراز من العائن، قال القاضي عياض: قال بعض العلماء: ينبغي إذا عُرِف واحدٌ بالإصابة بالعين أن يُجتنب، وأن يُحترز منه[4]، لذلك على الإنسان أن يحتاط قدر الإمكان، ويبذل الأسباب؛ فهاهو يعقوب-عليه السلام- حينما خاف على أبنائه من الحسد أمرهم أن لا يدخلوا من باب واحد، بل من أبواب مُتفرِّقة؛ لكي لا يلفتوا الأنظار إليهم، ولكي لا يعترضهم أهل الحسد والشرِّ؛ لأنهم كانوا في قمَّة الحُسن والجمال والهيبة.

---

(١) القلم: ٥١.

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

(٣) ينظر: فتاوى أركان الإسلام (ص: ١٣٢). فتاوى أركان الإسلام، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

(٤) ينظر: شرح سنن أبي داود لابن رسلان (١٥/ ٦٠١). شرح سنن أبي داود، المؤلف: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن رسلان المقدسي الرملي الشافعي (المتوفى: ٨٤٤هـ)، تحقيق: عدد من الباحثين بدار الفلاح بإشراف خالد الرباط، الناشر: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم – جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧هـ – ٢٠١٦م.



وانظر إلى هذه المعاني البديعة التي ترسيها نصيحة يعقوب لأبنائه، وهو يحتاط ويبذل الأسباب؛ ويجب- مع بذلها- حُسن التوكُّل عليه تعالى لا على الأسباب﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[١].

٤- تقوى الله تعالى وحفظه في أمره ونهيه، والتوكُّل عليه تعالى، والثقة بنصره.

٥- الدعاء له بالبركة، كما جاء في حديث سهل بن حنيف، كأن يقول:" بارك الله "(٢)، أو" اللهمَّ باركْ له فيما أعطيته "ونحو ذلك.

هذه هي الأسباب التي بأمر الله تعالى تمنع وقوع العين والإصابة بها، وتمنع الحسد بكل أشكاله.

وإنَّ هناك أمورًا هامة لدفع حسد الحاسد عمومًا، إضافة إلى ما سبق، ومن أهمها:

١- كثرة الصدقة والإحسان، فإن لها تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء، ودفع العين، ودفع شر الحسد، قال صلى الله عليه وسلم:" صنائع المعروف تقي مصارع السوء" أخرجه الطبراني[٣].

٢- وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يُوفَّق له إلَّا من عظم حظُّه، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والحاقد بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرًا وبغيًا وحسدًا؛ ازددتَ إليه إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾[٤].

---

(١) يوسف: ٦٧.

(٢) لعل المراد حديث عبد الله بن عامر، قال: انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل، قال: فانطلقا يلتمسان الخمر، قال: فوضع عامر جبة كانت عليه من صوف، فنظرت إليه، فأصبته بعيني، فنزل الماء يغتسل، قال: فسمعت له في الماء فرقعة فأتيته، فناديته ثلاثا فلم يجبني، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته قال: فجاء يمشي فخاض الماء كأني أنظر إلى بياض ساقيه، قال: فضرب صدره بيده ثم قال: " اللهم أذهب عنه حرها، وبردها، ووصبها " قال: فقام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا رأى أحدكم من أخيه، أو من نفسه، أو من ماله ما يعجبه، فليبركه فإن العين حق". مسند أحمد (٢٤/ ٤٦٥) برقم (١٥٧٠٠). والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ١٤٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٦١) برقم (٨٠١٤). والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٧٠٨).

(٤) فصلت: ٣٤، ٣٥.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله؛ إنَّ لي قرابة، أصلهم ويقطعوني، وأُحسن إليهم ويُسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال:" لئن كنتَ كما قلتَ فكأنَّما تسفهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمتَ على ذلك". أخرجه مسلم[١].

٣- وهذا هو الجامع لكل الأسباب والأساس لكل الرُّقى؛ وهو تحقيق التوحيد لله تعالى، واليقين الجازم بأنَّ هذه الأسباب جميعها بإرادة الله تعالى وقدرته، وأنَّ بيده مقاليد السموات والأرض، وأنَّه خالق كلِّ شيء وبارئه، وأنَّه لا ينفعه شيء ولا يضرُّه إلَّا بإذنه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

والخلاصة: أن العين حق، ولكنها لا تضر إلَّا بإذن الله، فعلينا باليقين في الله وحُسْن التوكُّل عليه، يقول صلى الله عليه وسلم:" يا غلام؛ إنِّي أُعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله؛ واعلمْ أنَّ الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعتْ الأقلام، وجفَّت الصحف" أخرجه الترمذي[٣].

والحسد قلَّما ينجو منه أحد، فكلُّ ذي نعمة مغبون ومحسود.

إنْ يَحسُدوني فَإِنّي غَيرُ لائِمِهِمْ ... قَبلي مِنَ الناسِ أَهلُ الفَضلِ قَدحُسِدُوا
فَدامَ لي وَلَهُمْ ما بي وَمـــا بِهِمُ ... وَمــــــاتَ أَكثَرُنا غَيظًــا بِما يَجِدُ[٤]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٢) برقم (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.

(٢) يونس: ١٠٧.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٦٧) برقم (٢٥١٦) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع باب بدون ترجمة. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ١٦).

(٤) شرح حماسة أبي تمام للفارسي (٢/ ٢٣٣). شرح كتاب الحماسة للفارسي (مطبوع مع: شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها)، المؤلف: أبو القاسم زيد بن علي الفارسيّ (المتوفى: ٤٦٧هـ)، المحقق: د. محمد عثمان علي، الناشر: دار الأوزاعي – بيروت، الطبعة: الأولى.



٢٥ ربيع الآخر

فجاءته إحداهما تمشي على استحياء

حياء المرأة المسلمة من أهم ما يكسبها جمالًا يُزيِّنها ويرفع قيمتها، فالمرأة الحييَّة لا تراها في مجتمع مزدحم بالرجال؛ تضاحك هذا أو تتمتم مع هذا، بل تراها غاضة طرفها، خافضة صوتها، لا تتكلم إلَّا فيما اضطرت إلى قوله بكل أدب وعفَّة وحياء. والحياء من أهم الصفات التي تتميَّز بها المرأة المسلمة عن غيرها من نساء الأرض وتجعلها كأنها درة فريدة ليس لها مثيل.

ولقد ضرب القرآن الكريم لنا في آياته مثلًا من أروع الأمثلة بابنتَيْ شعيب، اللتين كانتا من أدق أوصافهما ما ذكره القرآن الكريم من حيائهما.

يقول الله تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

يقول العلامة السعدي رحمه الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: دون تلك الأمة ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِ﴾غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿ قَالَ ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾أي: قد جرت العادة أنَّه لا يحصل لنا سقي حتَّى يُصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء، فرقَّ لهما موسى– عليه السلام– ورحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلمَّا سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حرٍّ، وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مستريحًا لذلك الظلال بعد التعب، ﴿ فَقَالَ﴾ في تلك الحالة، مسترزقًا ربَّه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ أي: إنِّي مفتقرٌ للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسِّره

---

(١) القصص:٢٣. ٢٥.

لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيًا ربه متملِّقًا. وأمَّا المرأتان فذهبتا إلى أبيهما وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ وهذا يدلُّ على كرم عنصرها، وخُلُقها الحسن، فإنَّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء[١].

وقال الجاحظ في تهذيب الأخلاق: الحياء من قبيل الوقار وهو غضُّ الطَّرف والانقباض عن الكلام حشمة للمُستحيا منه، وهو عادة محمودة ما لم تكن عن عيٍّ ولا عجز[٢].

والحياء يتمثَّل في مراقبة الله عزَّ وجلَّ، فإن المرأة المسلمة التقيَّة تستشعر مراقبة الله عزَّ وجلَّ فتستحي من مخالفته، وتُطهِّر ظاهرها وباطنها ممَّا يُغضب الله عزَّ وجلَّ، فعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" استحيوا من الله تعالى حقَّ الحياء، من استحيا من الله حقَّ الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل فقد استحيا من الله حق الحياء". رواه أحمد والترمذي[٣].

أما المرأة المسلمة فهي التي لا تغفل عن مراقبة الله عزَّ وجلَّ لها، واطلاعه عليها، فيحملها ذلك على اجتناب حرمات الله فلا تعصيه غير مبالية، بل تظل مراعية لحدود الله.

قال الحارث المحاسبي: المراقبة علم القلب بقُرْب الرب ، وكان الإمام أحمد يُنشد:

إذا ما خلوتَ الدهر يومًا فلا تقلْ ... خلوتُ ولكن قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أن ما تُخفي عليه يغيبُ[٤]

إنَّ ما نراه اليوم من سوء أدب وقلة حياء؛ إنَّما ينمُّ عن ضعف في الإيمان، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول:" الحياء والإيمان قرناء، فإن ذهب أحدهما ذهب الآخر ". أخرجه الحاكم والبيهقي[٥]،

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١٤).

(٢) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٥/ ١٧٩٧). نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، المؤلف: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١٨٧) برقم (٣٦٧١). والترمذي في جامعه (٤/ ٦٣٧) برقم (٢٤٥٨) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع باب بدون ترجمة. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٤٥٨).

(٤) ذكرها البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٤١٧) أن الشافعي أنشدها.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٧٣) برقم (٥٨) بلفظ: «الحياء والإيمان قرنا جميعا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر». والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ١٦٧) برقم (٧٣٣١). والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٣٣١).



كما أن الحياء شعبة من شعب الإيمان كما قال صلى الله عليه وسلم: " الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة؛ فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان". رواه مسلم(١)، ولقد مر صلى الله عليه وسلم على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :" دعْه؛ فإنَّ الحياء من الإيمان ". رواه البخاري(٢).

ولهذا لما ضعف الإيمان في نفوس بعض المسلمات؛ رأينا قلَّة الحياء تظهر على كلماتهم وسلوكياتهم وأخلاقهم، فانظر إلى حالهم في الطرقات والمواصلات، وفي المدارس والمعاهد والجامعات، وفي الأندية والمنتزهات، وداخل المنازل وعلى الشاشات، وفي الصحف والمجلات والإعلانات، ستجد أننا أمام ظاهرة تستدعي الوقوف معها ودراسة أسبابها.

فتلك المرأة التي تصاحب أجنبيًّا عنها وتجلس معه في الجامعة، أو تسير معه في الطرقات، أو تسافر معه هنا وهناك، أو تلك المرأة التي تسمع منها تلك الضحكات الرنانة والكلمات البذيئة، أو تلك المرأة التي تجلس مع قريناتها يتسامرن ويتحدثن في أشياء تخدش حياء الرجل فضلًا عن حياء المرأة، أو تلك المرأة التي تختلط بالرجال اختلاطًا مُحرَّمًا بل وتسعى إلى ذلك الاختلاط ولا تحاول تجنُّبه، أو تلك المرأة التي تتزيَّن وتلبس ثيابًا غير شرعيَّة فيها من السفور والتبرُّج ما فيها، أو تلك المرأة التي تفرح بمعاكسة الآخرين لها لتشعر بأنوثتها، أو التي تُظهِر خصيلات من شعرها لتبرز جمالها وجمال شعرها ونعومته ونضارته، أو تلك المرأة التي تشاهد الصور العارية والأفلام الخليعة، وتُقلِّب صفحات المجلات الماجنة والجرائد ومواقع الإنترنت بحثًا عن أخبار التافهين والتافهات، ورغبة في التحدُّث إلى أصحاب القلوب المريضة والنفوس الأمَّارة بالسوء، أو تلك المرأة التي تخرج إلى الشواطيء وتنزع عنها الكثير من لباسها بدعوى التنزه والترفيه، أو تلك المرأة التي تلتقط خيوط الكلام لتتحدَّث مع الرجال وتضحك معهم .... الخ.

والنبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن حال هؤلاء وعن سبب تلك الأفعال فيقول صلى الله عليه وسلم:" إنَّ ممَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحي فاصنع ما شئتَ ".رواه البخاري(٣).

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه (١/ ٦٣) برقم (٣٥) كتاب الإيمان باب شعب الإيمان. ورواه البخاري مختصرًا في صحيحه (١/ ١١) برقم (٩) كتاب الإيمان باب أمور الإيمان.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٤) برقم (٢٤) كتاب الإيمان باب الحياء من الإيمان.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٧) برقم (٣٤٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار.

ففقْدُ الحياء يستدعي أن يصنع المرء ما يشاء، كما أن الفعل الذي لا يستحي المرء من فعله؛ يصنعه ويُقدم عليه، وكلاهما معنيان ذكرهما أهل العلم لهذا الحديث، وعليه فإنَّ المرأة التي ضاع حياؤها وصار مفقودًا وغائبًا عن حياتها؛ ستجدها تفعل ما تشاء، وقديمًا قال الشاعر:

إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي ... ولم تستحِ فاصنعْ ما تشاءُ
فلا واللهِ ما في العيشِ خيرٌ ... ولا الدنيا إذا ذهبَ الحياءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ... ويبقى العودُ ما بقي اللحاءُ[(١)]

والخلاصة: كما قال الإمام ابن القيم- رحمه الله-: وَعَلَى حَسَبِ حَيَاةِ الْقَلْبِ، يَكُونُ فِيهِ قُوَّةُ خُلُقِ الْحَيَاءِ، وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ أَحْيَى كَانَ الْحَيَاءُ أَتَمَّ[(٢)]. والمرأة المسلمة تتلخَّص صفاتها في الحياء سواء من الله أو من الناس. فحياؤها رأسمالها؛ فيه عزُّها، وبه تحفظ كرامتها، وشرف أهلها، حياء في كل شيء؛ في الملبس، في الحركة والكلام، في المعاملة والسلوك، وحياؤها يجعلها أكثر التزامًا بدينها وتعاليم دينها الإسلامي.

(١) الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (ص: ٣٠٦). الإشراف في منازل الأشراف، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: د نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٢٤٨).



٢٦ ربيع الآخر

إنَّ الشرك لظلم عظيم

أشدُّ المعاصي ضررًا وأعظمها خطرًا هو الشرك بالله تعالى، إنَّه أقبح الذنوب وأشر العيوب، وما عُصِيَ الله بذنب أسوأ منه، إنَّه ظلم كبير، وخلل عسير، وشرٌّ مستطير! أُرسِلت الرسل للتحذير منه، وأُنزِلت الكتب للزجر عنه، وتوالت نداءات القرآن للتوبة منه فلا يصحُّ الدين إلا بالبُعد عنه، ولا يُقبَل عملٌ إلَّا بالخلاص منه، فإنه مُغضِب للملك الجبار، ومُوجِب للخلود في النار، وقائدٌ لبئس القرار، فما فعل إنسان ذنبًا أشدَّ منه، وما اقترف آدميٌّ خطيئة أسوأ منه، وما كُتِب في ديوان مُكلَّفٍ سيئةٌ أخزى منه.

فالشرك شؤم يفتك لظاه بالفرد والمجتمع؛ فهو أعظم ذنب عُصِيَ الله به، يقول الله تعالى حكاية عن وصية لقمان الحكيم الصالح لولده: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١].

يقول العلامة السعدي رحمه الله: قال له قولًا به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه عظيمًا، أنَّه لا أفظع وأبشع ممَّن سوَّى المخلوقَ من تراب؛ بمالك الرقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا؛ بمَن له الأمر كلُّه، وسوَّى الناقص الفقير مِن جميع الوجوه؛ بالرَّبِّ الكامل الغنيّ من جميع الوجوه، وسوَّى مَن لم يُنعمْ بمثقال ذرة من النعم؛ بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقلوبهم وأبدانهم إلَّا منه، ولا يصرف السوءَ إلَّا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟ وهل هناك أعظم ظلمًا ممَّن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أخس المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا[٢].

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: سألتُ النبيَّ- صلى الله عليه وسلم-:" أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك، قلت: إنَّ ذلك لعظيمٌ، قلت: ثمَّ أيُّ؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثمَّ أيُّ؟ قال: أن تُزاني بحليلة جارك ". متفق عليه[٣].

---

(١) لقمان: ١٣.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٤٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٨) برقم (٤٤٧٧) كتاب تفسير القرآن باب قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون} [البقرة: ٢٢]. ومسلم في صحيحه (١/ ٩٠) برقم (٨٦) كتاب الإيمان باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده.

فالشرك ذنب لا يُغفر﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾[١] .

وهو مانع من الجنة ومُوجِب لخلود النار ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾[٢].

والشرك أعظم المظالم ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾[٣].

والشرك ضلال بعيد ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[٤].

والشرك افتراء مبين ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[٥].

والشرك مُحبِطٌ للعمل ومُوجِب لخسار صاحبه كائنًا مَن كان ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[٦].

والشرك سببٌ لتخلِّي المولى عن العبد، وإسلامه لعدوٍ لا يرحمه ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾[٧].

والشرك نجاسة تُدنِّس مَن تلطَّخ بوضرها ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾[٨].

والشرك سبب لاختلال التصوُّر واستجلاب الخرافة وارتعاب القلب، قال الله تعالى ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾[٩].

وانتشار الشرك مُؤذِن بالخراب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتَّى لا يُقال في الأرض: الله، الله ". رواه مسلم[١٠].

وإنَّما كان الشرك أعظم الذنوب عند الله لأنَّه أقبح القبح وأظلم الظلم، إذ مضمونه تنقيص ربِّ العالمين، وصرف خالص حقِّه لغيره، وعدل غيره به، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾[١١] .

---

(١) النساء: ٤٨، ١١٦.

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) لقمان: ١٣.

(٤) النساء: ١١٦.

(٥) النساء: ٤٨.

(٦) الزمر: ٦٥.

(٧) الحج: ٣١.

(٨) التوبة: ٢٨.

(٩) آل عمران: ١٥١.

(١٠) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٣١) برقم (١٤٨) كتاب الإيمان باب ذهاب الإيمان آخر الزمان.

(١١) الأنعام: ١.



والتحذير من الشرك هو أساس دعوة الأنبياء- عليهم السلام-، وذلك أنَّه لا يصحُّ دينٌ إلَّا بالتوحيد، ولا يسلم التوحيد إلَّا بالتبرِّي من الشرك، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٢).

فالتحذير من الشرك؛ بعث الله به رسله وأنزل لأجله كتبه، فهل نحن واعون لهذا الأمر الخطير؟ أم أنَّنا في غفلة وجهل؟

والبراءة من المشركين من أعظم أسباب التنائي عن الشرك؛ لبراءة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم منهم كما أعلم بقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾(٣)، وأصل البراءة البغض، كما أبداه الخليل وأتباعه المؤمنون لقومهم المشركين إذ قالوا: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(٤).

ويزيد في خطر الشرك دقَّة المسارب المُفضية إليه، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أيُّها الناس؛ اتَّقوا هذا الشرك، فإنَّه أخفى من دبيب النمل". رواه أحمد(٥).

وممَّا يزيد خطره كثرة الواقعين فيه، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾(٦)، وذلك ما جلب خوف الراسخين؛ فهذا خليل الرحمن يسأل ربَّه النجاة له ولبنيه من عبادة الأصنام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾(٧).

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) التوبة: ٣.

(٤) الممتحنة: ٤.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٣٢/ ٣٨٣) برقم (١٩٦٠٦).

(٦) إبراهيم: ٣٦.

(٧) إبراهيم: ٣٥.

قال إبراهيم التيميُّ: ومَن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟[١] وقال: ما عرضتُ قولي على عملي إلَّا خشيتُ أن أكون مُكذِّبًا، وقال ابن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم كلُّهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحدٌ يقول: إنَّه على إيمان جبريل وميكائيل[٢].

وقال الحسن عن النفاق: ما خافه إلَّا مؤمنٌ، ولا أمِنَه إلَّا منافقٌ[٣].

هذا، وقد بوَّب الإمام البخاري في صحيحه: باب خوف المؤمن من أن يُحبَط عملُه وهو لا يشعر[٤].

وهذا يعقوب- عليه السلام- يخاف على بنيه من بعده أن يحيدوا عن التوحيد، وأن يواقعوا الشرك بالله العظيم، فيجمعهم كما حكى الله تعالى عنه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٥]، وكيف لا يخاف يعقوب وقد خاف أبوه إبراهيم من قبل؟!

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله؛ وما هنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات". رواه البخاري ومسلم[٦].

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَن لقِيَ الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومَن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار". رواه مسلم[٧].

والخلاصة: أن الغاية التي خُلِق من أجلها هذا المخلوق الضعيف أن يكون شكورًا، يُفرِد الله تعالى بالعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٨]، ومن أظلم الظلم وأقبح القبائح أن يُشرك العبد مع الله غيره بعد أن خلقه الله واصطفاه، وسخَّر له المخلوقات، وأرسل إليه الرسل، وأنزل

---

(١) أخرجه الطبري في تفسير الطبري (١٣/ ٦٨٨).

(٢) رواهما البخاري في صحيحه معلقًا (١/ ١٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه بصيغة التمريض (١/ ١٩).

(٤) صحيح البخاري (١/ ١٨).

(٥) البقرة: ١٣٣.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠) برقم (٢٧٦٦) كتاب الوصايا باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} [النساء: ١٠]. ومسلم في صحيحه (١/ ٩٢) برقم (٨٩) كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٧) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٩٤) برقم (٩٣) كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة.

(٨) الذاريات: ٥٦.

عليه الكتب، فكان أعظم الذنوب الشرك بالله تعالى، بأن يُساوَى غيرُ الله بالله فيما هو من خصائص الله تعالى، فكيف يُساوَى الخالق الرازق الملك المدبر؛ بالمخلوق الذي لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!.

٢٧ ربيع الآخر
الشرْك الخفيُّ

الرياء وصف ممقوتٌ عند الله، وممقوتٌ عند أصحاب الفطرة السليمة، والقلوب النظيفة الطاهرة، وذوي الألباب من الخلق، فقد سأل رجلٌ سعيد بن المسيّب- رحمه الله تعالى- فقال: إنَّ أحدنا يصطنع المعروف يُحبُّ أن يُحمد ويُؤجر، فقال له: أتُحبُّ أن تُمقَت؟ قال: لا، قال: فإذا عملتَ لله عملًا فأخلصْه(١).

وكيف لا يكون الرياء خُلُقًا ذميمًا ممقوتًا؛ وصاحبه قد ابتغى بعمله غير الله تعالى؟ وسعى لإرضاء الخَلْق بعمل لا ينبغي أن يكون إلَّا للخالق سبحانه.

وكلُّ ما يوصل إلى الشرك فقد حرمه الله تعالى، فقد نهى الشرع عمَّا هو وسيلة وذريعة إلى الشرك الأكبر، وجاء في الكتاب أو السنَّة تسميته شِرْكًا.

فالرياء ضد الإخلاص، والإخلاص: أن تقصد بعملك وجه الله تعالى، أمَّا الرياء فمشتقٌّ من الرؤية، وهو أن يعمل العمل ليراه الناس، والسمعة مشتقَّة من السمع وهو: أن يعمل العمل ليسمعه الناس.

والرياء: هو تحسين العبادة في الظاهر أو إظهارها، أو الإخبار عنها بقصد رؤية الناس، وكسب الثناء منهم.

قال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً". رواه أحمد(٢).

والرياء كبيرة من الكبائر العظام، وذنب من الذنوب الجسام؛ توعَّد الله عليه بالوعيد الشديد، فقال سبحانه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾(٣)، والويل: وادٍ في جهنم بعيدٌ قعرُه، شديدٌ حرُّه، توعَّد الله به من يُرائي الناس بعمله؛ لأنَّ عمل الطاعات والقُرُبات لا ينبغي أن يكون لغير الله سبحانه.

---

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٢٩٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٩/ ٣٩) برقم (٢٣٦٣٠). والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٦٣٤).

(٣) الماعون: ٤- ٧.



فالمراءون ينتظرون من الناس أن يشكروهم، وينتظرون من الناس أن يمدحوهم، أمَّا أهل الإخلاص فلا ينتظرون من أحدٍ شكرًا ولا مدحًا، بذلك وصفهم الله تعالى فقال سبحانه:﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[١]، ومدْحُ الله عزَّ وجلَّ للمُخلصين في أعمالهم يقتضي ذمَّه للمُرائين، الذين لا يعملون العمل إلَّا وهم يريدون الثناء والشكر من الناس.

وفي الصحيحين عن جندب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من سمَّع سمَّع الله به، ومن يُرائي يُرائي الله به"[٢].

وممَّا يدخل في الشرك الأصغر ما يلي:

الاعتقاد في شيء أنَّه سببٌ لجلب النفع أو دفع الضرِّ، ولم يجعله الله سببًا لذلك؛ قال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ الرُّقى والتمائم والتولة شرْكٌ " رواه أبو داود[٣].

والمقصود بالرقى التي في الحديث : الرقى التي لا يُفهَم معناها، أو الرقى المشتملة على الشرك بالله. والتمائم : هي كلُّ ما يُعلّق على الإنسان أو الحيوان أو الممتلكات لدفع العين وغيرها. والمراد بالتولة : نوع من السحر يزعمون أنَّه يُحبِّب الزوجة إلى زوجها، والزوج إلى زوجته.

الشرْك في الألفاظ : كالحلف بغير الله، وقول القائل: ما شاء الله وشئتَ، ولولا الله وفلان، ونحوهما، قال صلى الله عليه وسلم: " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك". رواه الترمذي[٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: " لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلانٌ، ولكن قولوا: ما شاء الله ثمَّ ما شاء فلانٌ". رواه أبو داود والنسائي[٥].

---

(١) الإنسان: ٨، ٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٤) برقم (٦٤٩٩) كتاب الرقاق باب الرياء والسمعة. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٩) برقم (٢٩٨٦) كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١١٠) برقم (٣٦١٥). وأبو داود في سننه (٤/ ٩) برقم (٣٨٨٣) كتاب الطب باب في تعليق التمائم. وابن ماجه في سننه (٢/ ١١٦٦) برقم (٣٥٣٠) كتاب الطب باب تعليق التمائم. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٦٤٨).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ١١٠) برقم (١٥٣٥) كتاب الطب باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٤/ ٣٥).

(٥) رواه أحمد في مسنده (٣٨/ ٣٧٠) برقم (٢٣٣٤٧). وأبو داود في سننه (٤/ ٢٩٥) برقم (٤٩٨٠) كتاب الأدب باب لا يقال خبثت نفسي. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٣٦١) برقم (١٠٧٥٥) كتاب عمل اليوم والليلة ذكر الاختلاف على عبد الله بن يسار فيه. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٢٦٣).



والرياء قسمان: رياء المنافق ورياء المسلم.

فرياء المنافق هو رياء في أصل من أصول الدين، يعني أنَّه راءى بإظهار الإسلام وإبطان الكفر، مثل ردِّ الجهاد والحدود ونحوها، قال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(١).

ورياء المسلم : وهو مثل أن يُحسن صلاته من أجل نظر الناس أو بعض الناس له أو أن يُحسن تلاوته لأجل التسميع ليُمدح لا لأجل التأثير، أو يقوم الليل لأجل أن يقول الناس عنه إنَّه يقوم الليل أو ليقال مستقيم، ونحوها، والعياذ بالله.

فهذا كلُّه شرك أصغر أي رياء المسلم؛ والشرك الأصغر قد يكون مُحبِطًا لأصل العمل الذي تَعبَّد به، وقد يكون مُحبِطًا للزيادة التي زادها، فيكون مُحبِطًا لأصل العمل الذي تعبَّد به إذا كان ابتدأ النية بالرياء، أي من بدايتها كالذي يفعل العبادة كالصلاة وطلب العلم لأجل أن يُرى أنَّه يفعل ويُمدَح وينافس، فهذه تُحبط العمل وليس له فيها ثواب، ولكن إذا عرض له الرياء أثناء العبادة فيكون ما زاده لأجل الرؤية باطلًا قال صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى في الحديث القدسيِّ: " أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه". رواه مسلم(٢).

والرياء شِرْك خفيٌّ، فعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: " خرج علينا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ونحن نتذاكر الدجال، فقال: ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من الدجال؟ قلنا: بلى، فقال: الشرك الخفيُّ، أن يقوم الرجل يُصلِّي فيُزيِّن صلاته لما يرى من نظر رجل". رواه ابن ماجه(٣).

ثوبُ الرِّياءِ يكشفُ عمَّا تحتَه ... وإذا التحفتَ به فإنَّك عاري(٤)

وعن شداد بن أوس- رضي الله عنه- قال: "كنا نَعُدُّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر". أخرجه الحاكم(١).

---

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٩) برقم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٧/ ٣٥٤) برقم (١١٢٥٢). وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٦) برقم (٣٥٣٠) كتاب الطب باب الرياء والسمعة. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٩/ ٢٠٤).

(٤) ينظر: الحماسة المغربية (٢/ ١٢٦٣).



وللرياء أسباب كثيرة، منها:

الجهل: نعم، إنَّه الجهل بحقيقة الرياء ومآلاته، والجهل بقيمة الإخلاص وفوائده.

الطمع فيما في أيدي الناس: فما من شيء أفسد لدين المرء من الطمع في شهوات الدنيا، من مال أو منصب أو جاه.

لذَّة الحمد والثناء: محبَّة المُرائي لمدح الناس له، ورغبته في ثناء الناس عليه؛ سببٌ في وقوعه في الرياء، أمَّا المُخلص فلا يعمل إلَّا لله تعالى، ولا يلتفت إلى مدح الناس أو ذمِّهم له؛ إذ لا كمال بمدحهم ولا نقص بذمِّهم.

قال عليُّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-: للمُرائي ثلاث علامات؛ يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثنِيَ عليه، وينقص إذا ذُمَّ[٢].

والخلاصة: أنَّ الرياء مُحبِط للأعمال الصالحة؛ ولو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة؛ لكفى في شؤمه وضرره وقُبحه، وصدق الله إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٣].

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/ ٣٦٥) برقن (٧٩٣٧) وقال عقبه: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٢) ينظر: الكبائر للذهبي (ص: ١٤٥). الكبائر، المؤلف: تنسب لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الندوة الجديدة – بيروت.

(٣) البقرة: ٢٦٤.



٢٨ ربيع الآخر
إنَّ لنفسك عليك حقًّا

ديننا الإسلاميُّ دين سماحة ويسر، ودين توازن واتِّزان؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾(١)، فلا بدَّ وحتما من التوازن في الحياة، ولا بدَّ من ضرورة التوفيق بين الحقوق والواجبات، وأن يكون المسلم متَّزِنًا في تعامله، لا يهتمُّ بأمرٍ فيكون اهتمامه به على حساب غيره، ولا يُقدِّم المهمَّ على الأهمِّ، والفاضل على المفضول.

عن أبي جحيفة- رضي الله عنه- قال: " آخى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداء متبذِّلةً، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجةٌ في الدنيا ، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ، قال: فإنِّي صائمٌ، قال: ما أنا بآكل حتَّى تأكل، قال: فأكل، فلمَّا كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثمَّ ذهب يقوم، فقال: نم، فلمَّا كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصلَّيا ، فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: " صدق سلمان". رواه البخاري(٢).

لم يأمر الله سبحانه وتعالى هذه الأمَّة بالانقطاع للعبادة؛ فلا رهبانيَّة في الإسلام كالتي ابتدعها النصارى في دينهم.

وفي هذا الحديث يروي أبو جحيفة- رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم آخى بين سلمان الفارسيِّ وأبي الدرداء- رضي الله عنهما- مؤاخاة مواساة، وليست كالتي في أوَّل الهجرة التي كانت عقدت بين المهاجرين والأنصار ليتوارثوا بها؛ فقد نسخت، فزار سلمان الفارسيُّ أبا الدرداء- رضي الله عنهما- ذات يوم، فوجد أمَّ الدرداء متبذِّلةً، يعني تلبس ثياب الخدمة وعمل البيت وتترك التزيُّن، فسألها عن سبب هذه الحالة، فقالت له: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجةٌ في الدنيا؛ استحياءً من أن تُصرِّح بعدم حاجته إلى مباشرتها، وكانت هذه الزيارة وهذا الحوار قبل أن يُفرَض الحجاب على المسلمات، ثمَّ دخل أبو الدرداء فصنع لسلمان طعامًا يأكله، فقال سلمان لأبي الدرداء: كُلْ معي،

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٨) برقم (١٩٦٨) كتاب الصوم باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له.



فردَّ عليه أبو الدرداء أنَّه صائمٌ، فقال له سلمان: ما أنا بآكل من طعامك شيئًا حتَّى تأكل، وغرضه بذلك صرْف أبي الدرداء عمَّا يصنعه من الجهد في العبادة وغير ذلك ممَّا تضرَّرت منه زوجته أمُّ الدرداء، فأكل معه أبو الدرداء نزولًا على رغبته، ثمَّ بات سلمان عند أبي الدرداء، فلمَّا انقضى جزءٌ من الليل قام أبو الدرداء ليصلِّي، فأمره سلمان أن ينام، فنام أبو الدرداء، ثمَّ ذهب يقوم في وقت آخر، فقال له سلمان: نم، فلمَّا كان من آخر الليل، قال له سلمان: قم الآن، وقام معه سلمان فصلَّيا، ثمَّ نصحه سلمان وبيَّن له أنَّ لله عليه حقًّا بالعبادة، ولنفسه وجسده عليه حقًّا بالراحة ونحوها، وأنَّ لأهله من الزوجة والأولاد عليه حقًّا، كحسن المعاشرة والتربية، وتعهُّدهم بما يُصلح حال دينهم ودنياهم، وأرشده أن يُعطي كلَّ صاحب حقٍّ حقَّه، ثمَّ أتى أبو الدرداء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فذكر له ما قال سلمان- رضي الله عنه-، فقال صلى الله عليه وسلم:" صدق سلمان " فيما قاله وما ذهب إليه.

إنَّ القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فبعد تعب وجهد وعناء؛ تميل النفوس إلى التجديد والتنويع، وترنو إلى الترويح واللهو المباح؛ دفعًا للكآبة، ورفعًا للسآمة؛ ليعود الطالب بعدها إلى مقاعد الدراسة بهمَّة وقَّادة، ويرجع الموظَّف إلى عمله بعزيمة وثَّابة، ذلك أنَّ القلوب إذا سئمتْ عميتْ.

لأنَّ السآمة والملل يفضيان إلى النفور والضجر، يقول عليُّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-: " إنَّ القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم"[١]. ويقول أيضًا: "روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإنَّ القلب إذا أكره عمي"[٢]. ويقول أبو الدرداء- رضي الله عنه-: " إنِّي لأستجمُّ قلبي باللهو المباح ليكون أقوى لي على الحقِّ"[٣]، وقال عمر بن عبد العزيز- رحمه الله-: " تحدَّثوا بكتاب الله وتجالسوا عليه، وإذا مللتم فحديثٌ من أحاديث الرجال"[٤].

---

(١) ينظر: التمثيل والمحاضرة (ص: ٣٠). التمثيل والمحاضرة، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) ينظر: موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (٢/ ٣٣٨). موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (قصص تربوية من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين)، المؤلف: ياسر عبد الرحمن، الناشر: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٣) ذكره القاضي عياض في كتابه بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد (ص ١١٩). بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، المؤلف: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: ٥٤٤ هـ(، المحقق: أبو داود أيمن بن حامد بن نصير الدسوقي، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، الناشر: دار الذخائر.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص: ١١٨).

وهذا إمامهم وقدوتهم مُحمَّد صلى الله عليه وسلم يقول: " ياحنظلة؛ ساعةٌ وساعة". رواه مسلم[١]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[٢].

يقول الشيخ السعدي في تفسيره: يقول تعالى مُنكِرًا على من تعنَّت، وحرَّم ما أحلَّ الله من الطيبات ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، أي: مَن هذا الذي يُقدِم على تحريم ما أنعم الله به على العباد؟ ومَن ذا الذي يُضيِّق عليهم ما وسَّعه الله؟ وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات؛ جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يُبحه إلَّا لعباده المؤمنين، ولهذا قال:﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها[٣].

والخوارج عندما اعتزلوا عليًّا- رضي الله عنه- أرسل إليهم ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- لكي يناقشهم، فلما رأوه كان ممَّا قالوه: إيه يا ابن عبَّاس! ما جاء بك؟ وما هذه الحُلَّة؟ قال: ما تعيبون عليَّ! لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس أحسن ما يكون من هذه الحُلل[٤]، ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾[٥].

فالإسلام دين السماحة واليسر، وهو يُساير فطرة الإنسان وحاجاته، فحين شاهد النبيُّ- صلى الله عليه وسلم الحبشة يلعبون، قال: " لتعلم يهود أنَّ في ديننا فسحةً، إنِّي أُرسِلت بحنيفيَّة سمحة". رواه أحمد[٦].

فلا نجعل من العبادة التي هي سبب خَلْقنا شقاءً لنا؛ كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[٧]، قال الإمام الشنقيطي- رحمه الله- في أضواء البيان

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٠٦) برقم (٢٧٥٠) كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا

(٢) الأعراف: ٣٢.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٨٧).

(٤) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٤٥) برقم (٤٠٣٧) كتاب اللباس باب لباس الغليظ. والحديث حسن إسناده الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٩/ ٣٧).

(٥) الأعراف: ٣٢.

(٦) رواه أحمد في مسنده (٤١/ ٣٤٩) برقم (٢٤٨٥٦). والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٤٤٣).

(٧) طه: ٢.



عند تفسيره لهذه الآية: أي لتنهك نفسك في العبادة وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثناك إلَّا بالحنيفيَّة السمحة(١).

وكان الصحابة يُروِّحون عن أنفسهم بالمرح والمزاح والتسلية، ولا يُقصِّرون في شيء من حقِّ الله تعالى، وإذا جدَّ الجدُّ كانوا هم الرجال، كما ثبت من فعلهم أنَّهم كانوا يتبارحون – أي يترامون – بالبطيخ فإذا جدَّ الجدُّ كانوا هم الرجال(٢)، وكما قال الأوزاعيُّ عن بلال بن سعد- يرحمهما الله-: أدركتُ أقوامًا يشتدُّون بين الأغراض؛ يضحك بعضهم إلى بعض، فإذا كان الليل كانوا رهبانًا "(٣). وهكذا كانوا- رضي الله عنهم- كما قيل: " فرسانًا بالنهار رهبانًا بالليل "(٤)، وقال عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه-: "كان القوم يضحكون؛ والإيمان في قلوبهم أرسى من الجبال"(٥).

والخلاصة: أنَّ المسلم ينبغي أن يوازن بين أموره كلِّها، فلا يطغى جانب على جانب، ولكن يُعطي لكلِّ شيءٍ حقَّه ومستحقَّه، ويضع الأمور في نصابها الصحيح، فإذا قلنا إن النفس تتكوَّن من روح (قلب) وعقل وجسد، كان على الإنسان أن يوازن بين مطالب كلِّ واحد منها، ويسعى في إشباع كلِّ جانب بما يحتاجه دون إفراط أو تفريط.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٤). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص: ١٠٢) برقم (٢٦٦) ولفظه: "عن بكر بن عبد الله قال: كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال". والأثر صححه الألباني كما في صحيح الأدب المفرد (ص: ١١٧).

(٣) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٠٦) برقم (١١٨٥٥) كتاب المواعظ.

(٤) في البداية والنهاية (٧/ ٧): "وعند ابن إسحاق والمدايني أيضا أن وقعة أجنادين قبل وقعة اليرموك وكانت واقعة أجنادين لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وقتل بها بشر كثير من الصحابة وهزم الروم وقتل أميرهم القيقلان، وكان قد بعث رجلا من نصارى العرب يجس له أمر الصحابة فلما رجع إليه قال: وجدت قوما رهبانا بالليل فرسانا بالنهار والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه".

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣١١). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها، ١ - دار الكتاب العربي – بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق).



٢٩ ربيع الآخر
وإنَّ لأهلك عليك حقًّا

إن واجب المسئولية يُحتِّم على كلِّ مَن ولَّاه الله مسئولية صغرت أم كبرت؛ أن يتَّقي الله فيها، فهناك موقف رهيب، ولحظات حرجة، ولقاء مهيب، ويوم عصيب، ذلك يوم السؤال عن كل شيء، والحساب على كل شيء، أمام ملك عادل لا يظلم الناس شيئًا، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال أيضًا: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إنَّ الله سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه؛ حفظ ذلك أم ضيَّع". رواه النسائي[١]، وقوله أيضًا: "كلُّكم راعٍ ومسؤول عن رعيته ". رواه البخاري[٢].

فهذا المصير المحتوم يُحتِّم على كلِّ من ولي شيئًا أن يتَّقي الله فيما ولَّاه وما استرعاه، فالمسؤولية تكليف لا تشريف، وأمانة لا مكانة.

إنَّ الإسلام ليس شعائر فقط بل مشاعر وحسن أخلاق ، وأولى الناس بهذه المشاعر والأخلاق الحسنة أقرب الناس إليك من والد وولد، وحبيب وقريب، فهم أولى الناس برحمتك وعطفك، وضحكاتك ومزاحك الصادق، وأنت بهذا تكون خير الناس كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: " خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي". رواه ابن ماجه والترمذي[٣].

فمن حقِّ زوجتك وأهلك أن يفرحوا بك، فبعض الناس أهله لا يرون منه شيئًا، أهله يريدون بعضًا من وقته فلا يجدون، وكلما طلبوا منه شيئًا قال: لا أستطيع؛ أنا مشغول، زوجته معه في عذاب، تتمنَّى زوجته أن ينتكس من أجل أن يعود ليجلس معها، بل ربما تدعو عليه.

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٨/ ٢٠٨) برقم (٩١٢٩) كتاب عشرة النساء مسألة كل راع وما استرعى. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ١٧٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥) برقم (٨٩٣) كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٤٥٩) برقم (١٨٢٩) كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٧٠٩) برقم (٣٨٩٥) أبواب المناقب باب في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. وابن ماجه في سننه (١/ ٦٣٦) برقم (١٩٧٧) كتاب النكاح باب حسن معاشرة النساء. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٥٧٥).



وهم أولى الناس بنصحك وإرشادك، وبَذْلِك وعطائك، فقد كان صلى الله عليه وسلم يشتغل بأعظم أمور الأمَّة وأدقِّها ومن ذلك: أمور الجهاد والاقتصاد والإدارة والتوجيه، ومع ذلك يُعطي كلَّ امرأة من نسائه- وكُنَّ تِسْعًا- حقَّها وكلامها، ومزاحها ووقتها، ولكن تجد البعض عنده زوجة واحدة وقد قصَّر في وقتها وفي حقِّها.

ومن حقِّ أهلك عليك أن تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، وتحثَّهم على الصلاة وتصطبر عليها، وتُرغِّبهم في الصدقة وتُعينهم على فعلها، وتأخذ بأيديهم إلى الله رب العالمين.

وما أروع أن تجلس مع أولادك وأهلك متأمِّلين الدروس والعِبَر من سيَر الصحابة الكرام، وما أطيبها من صلاة؛ يوم يجتمع البيت بكامله لأداء ركعتين ثم صلاة الوتر ولو مرَّة في الأسبوع؛ فتتنزَّل الرحمات، وينطلق الدعاء بالبركة والخير، والتوفيق والصلاح للراعي والرعية، فيؤمِّن الصغار والكبار، فهل ستخيب هذه الدعوات ؟!

وصدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : " رحم الله رجلًا قام من الليل فصلَّى، وأيقظ امرأته فصلَّت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّت، ثم أيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء". رواه أحمد وأبو داود(١).

فبهذه الروح الطيبة تجد بيوتًا تغمرها السعادة والطمأنينة، بيوتًا أُسِّست على التقوى والصلاح والخير، بيوتًا تُقرَأ فيها سورة البقرة لتكون حصنًا حصينًا أمام السحرة وشياطين الإنس والجن.

لقد تمثَّل المصطفى صلى الله عليه وسلم صورة المعاشرة مع أهله في أبهى حُللها، فكان- عليه الصلاة والسلام- خير زوج لخير أهل، كيف لا؟ وقد حباه الله تعالى بأكمل الأخلاق وأنبل الصفات، فكان- عليه الصلاة والسلام- لزوجاته الزوج الحبيب، والموجِّه الناصح، والجليس المؤانس.

فكان- عليه الصلاة والسلام- يُمازح نساءه في السراء، ويُواسيهنَّ في الضراء، وكان يسمع شكواهنَّ، ويكفكف دموعهنَّ، لا يؤذيهنَّ بلسانه، ولا يجرح مشاعرهنَّ بعباراته، يتحمَّل منهنَّ الأذى وغلظة القول، وما ضرب بيده امرأة قط، لا يتصيَّد الأخطاء، ولا يتتبَّع العثرات، ولا يُضخِّم الزلَّات، ولا يُديم العتاب، يتحمَّل الهفوة، ويتغاضى عن الكبوة، قليل الملامة، كثير الشكر والعرفان.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٢/ ٣٧٢) برقم (٧٤٠٩). وأبو داود في سننه (٢/ ٣٣) برقم (١٣٠٨) أبواب قيام الليل باب قيام الليل. والنسائي في السنن الكبرى (٢/ ١١٥) برقم (١٣٠٢). والحديث قال عنه الألباني: "حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣/ ٣٠٨).

ينظر إلى أحسن طباع المرأة، ويُظهِر حُبَّه بهذا، ولا غرو في ذلك، فهو القائل: " لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر". رواه مسلم[١].

وحينما نقترب من بيوت النبوة نرى بعض المشاهد التي دوَّنتها كتب السُّنَّة، وحفظت لنا شيئًا من عِشرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته، ليتَّضح لنا بعد ذلك عظمة الخُلُق، وبساطة الحياة، ومثالية القوامة.

وأول إطلالة نقترب منها؛ هي مع ذلك البيت الصغير الذي مُلئ إيمانًا وحكمة، وأذهب الله عنه الرجس وطهَّره تطهيرًا، نطلُّ إلى ذلك المنزل المتواضع من كوة فتحتها لنا أمُّنا أمُّ المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- حينما تواردت عليها سؤالات الناس: ماذا كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته عندك؟ فأجابت- رضي الله عنها-: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مهنة أهله (يخصف نعله، ويَرقَع ثوبه، ويخدم نفسه) فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة". رواه البخاري[٢].

وقد كان صلى الله عليه وسلم وهو خير الخلق تهجره إحدى زوجاته يومًا كاملًا فلا تكلمه، قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: كنَّا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدِمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، قال عمر: فصخبتُ على امرأتي، فراجعتْني فأنكرتُ أن تراجعني، فقالتْ: ولِمَ تُنكِرُ أن أراجعك؟! فوالله إنَّ أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم ليراجعنَه، وإنَّ إحداهنَّ لتهجره اليوم حتَّى الليل، ففزع عمر، وقال: لقد خاب من فعل ذلك منهنَّ، ثم انطلق إلى ابنته حفصة أمِّ المؤمنين ليتثبَّت الخبر منها، قال: يا حفصة؛ أتُغاضب إحداكنَّ رسول الله؟! قالت: نعم، قال: وتهجره حتَّى الليل؟! قالت: نعم؟! قال لها: قد خبتِ وخسرتِ، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتهلكي؟! رواه البخاري ومسلم[٣].

وكان صلى الله عليه وسلم من حُسْن أخلاقه أنَّه يشاور نساءه ويستمع إليهنَّ ولا يُسفِّه كلماتهنَّ، فها هو في يوم الحديبية -كما روى البخاري في صحيحه- يُصدُّ صلى الله عليه وسلم عن البيت، ويُصالِح المشركين بالحديبية، فيأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، بعدما أحرموا بأن ينحروا ويحلقوا، فثقُل هذا الأمر على نفوس أصحابه- رضي الله عنهم-، فما خرجوا من ديارهم إلَّا لأجل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٩١) برقم (١٤٦٩) كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٦) برقم (٦٧٦) كتاب الأذان باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٣) برقم (٢٤٦٨) كتاب المظالم والغصب باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة. ومسلم في صحيحه (٢/ ١١٠٦) برقم (١٤٧٩) كتاب الطلاق باب في الإيلاء واعتزال النساء.



العمرة، فلم يمتثلوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم خيمته وقد عُرِف في وجهه الأسى والغضب، فتسأله أمُّ المؤمنين أم سلمة- رضي الله عنها- فيقول: ما لي آمر بالأمر فلا يُتَّبع؟! وأخبرها الخبر، فأشارت عليه- رضي الله عنها- بمشورة طابت لقلب النبي- صلى الله عليه وسلم-، قالت: اخرجْ ولا تُكلِّمْ أحدًا، ثم انحرْ هديك واحلقْ رأسك، فإنَّهم سيفعلون كما تفعل.

فأخذ المصطفى صلى الله عليه وسلم بمشورة زوجته وصنع كما أشارت، فثار الصحابة- رضي الله عنهم- يحلق بعضهم لبعض حتى كاد يقتل بعضهم بعضًا من الغم[1]، وكُفِي الناسُ شرَّ مخالفة أمْر رسول الله- صلى الله عليه وسلم ببركة مشورة امرأة من نسائه صلى الله عليه وسلم.

والخلاصة: أنَّ المسلم ينبغي عليه أن يعرف حقوق أهله عليه، وأن يعلم أنَّه مسئول بين يدي الله تعالى عن هذه الحقوق؛ هل أداها أم فرَّط فيها وضيَّعها؟ فلْيُحسن القيام بهذه الحقوق ومراعاتها حتَّى لا يندم يومًا، ولات ساعة مندم.

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٩٣) برقم (٢٧٣١) كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

٣٠ ربيع الآخر
الدالُّ على الخير كفاعله

من بديع روح الشريعة، وحسن جوهرها؛ أنها جعلت من يدلُّ على عمل من أعمال البرِّ بمثابة الفاعل له، فعن أبي مسعود عقبة بن عمرو- رضي الله عنه- قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ- صلى الله عليه وسلم- فقال: إنِّي أبدِع بي- أي كلَّت راحلتي وتعبت- فاحملني، فقال: ما عندي، فقال رجلٌ: يا رسول الله؛ أنا أدلُّه على من يحمله، فقال رسول الله- صلى اللّه عليه وسلم-:" من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله". رواه مسلم[١].

وسبب ورود الحديث: أنَّه قدِم رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد انقطع عن الطريق، فسأل النبيَّ- عليه الصلاة والسلام- شيئًا يحمله عليه من دابَّة وغيره، ولم يكن يملك- عليه الصلاة والسلام- شيئًا، فأجابه أنَّه لا يملك شيئًا، فإذ برجل قام وقال: أنا أدلُّك على مَن يستطيع مساعدتك مِن أغنياء المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دلَّ على الخير فله مثل أجر مَن يفعل الخير، والخير في الحديث يتضمَّن كلَّ أشكاله، ويدخل فيه هداية الناس، وتعليمهم أمور الدين وأحكامه، وكذلك إرشاد الناس لمن يُعينهم في دنياهم، وغيرها من الأمور.

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: مَن دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله، والدلالة نوعان:

إمَّا أن يدلَّه بنفسه على الخير فيقول مثلًا: يُسنُّ لك أن تصلِّي ركعتين في الضحى، يُسنُّ لك أن تختم صلاة الليل بالوتر، وما أشبه ذلك، هذه دلالة مباشرة.

أو دلالة غير مباشرة بحيث يدلُّه على من يدلُّه على الخير مثل:

أن يسألك إنسان عن مسألة دينيَّة وأنت لا تعرفها فتقول: اسأل فلانًا من العلماء الموثوقين[٢].

وطرق الدلالة على الخير كثيرة ومتنوِّعةٌ، وبيان بعضها فيما يأتي:

- الدعاء للناس بالهداية والصلاح والمغفرة: وهذه الطريقة وردت عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم عندما قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-: "كأنِّي أنظر إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم يحكي

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٠٦) برقم (١٨٩٣) كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير.

(٢) ينظر: فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٦/ ٢٩٨). فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، تحقيق وتعليق: صبحي بن محمد رمضان، أم إسراء بنت عرفة بيومي، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.



نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهمَّ اغفر لقومي؛ فإنَّهم لا يعلمون". رواه البخاري[١]، وقد ذُكِر هذا الأسلوب أيضًا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[٢].

- القول: وذلك باستخدام الكلام الهادف الذي يعود على الغير بالخير والصلاح، وتكون الدلالة على الخير بالقول أيضًا عن طريق الكتب، والمواعظ، والخطب في المساجد، والنصيحة، ومجالس العلم، وغيرها.
- القدوة الحسنة: إذ إنَّ الناس يقتدون بغيرهم في شتَّى الأمور، لذلك يجب الحرص على الإحسان والعمل الصالح ليكون الإنسان سببًا في اقتداء الناس به، وبذلك يكون قد دلَّ على الخير بالقدوة.
- النشْر: من خلال الحرص على نشْر كلِّ ما يُساهم في الدلالة على الخير، واستخدام جميع الوسائل المتاحة لذلك كالكتب، وكتابة المقالات، أو عن طريق التلفاز والهاتف، وغيرها من الوسائل، واستخدام مواقع الإنترنت المتعدِّدة وإرشاد الناس لطريقة الوصول لكلِّ من يدعو ويدلُّ على الخير.
- المشاريع الخيريَّة: كالحثِّ على المشاريع الخيريَّة التكافليَّة، وتشجيع الناس عليها؛ من كفالة يتيم أو طالب علم وغيره، والتشجيع على الإنفاق والصدقة والبذل في سبيل الله تعالى.
- الإشارة: كالإشارة بتحريك اليد أو استخدام الإيماءات للفت نظر الغير إلى كلِّ ما يدلُّ على الخير، فلا يقتصر الدالُّ على الخير على القول والعمل فقط، وقد ذكر الإمام النووي- رحمه الله-: دلَّ بالقول واللسان، والإشارة والكتابة.
- افتتاح المدارس: وليس المراد المدارس العلميَّة فقط؛ بل المدارس القرآنيَّة والفقهيَّة، وبالتالي تُخرج أجيالًا يحرصون على الدلالة على أعمال الخير والصلاح.

والدلالة على الخير لها فضائل كثيرة، أهمُّها ما يلي:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدخل ضمن الدلالة على الخير، وهي فضيلة اختصَّها الله تعالى بأمَّة محمد صلى الله عليه وسلم وحده، حيث قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٣].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٥) برقم (٣٤٧٧) كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٤١٧) برقم (١٧٩٢) كتاب الجهاد والسير باب غزوة أحد.

(٢) الأعراف: ٨٩.

(٣) آل عمران: ١١٠.

- ترسيخ العلاقات الاجتماعيَّة بين أفراد المجتمع المسلم، وتحقيق التكافل والتعاون فيما بينهم، وتحقيق المنفعة للجميع بما فيهم المجتمعات غير الإسلاميَّة، والحرص على درء المفاسد التي تُؤثِّر سلبًا على الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة وغيرها.
- السير على النهج الواضح الصحيح بدفع الشبهات عن العقيدة وأحكام الدين، وتصحيح المفاهيم التي تدور حوله، إذ إنَّ الدلالة على الخير نوع من التوعية والتعليم، ويدخل فيها تعليم أمور الدين الصحيحة وأحكامه التي هي أساس حياة الفرد المسلم.
- الثواب والأجر العظيم الذي يحظى به الدَّال على الخير، ويكون الأجر بنفس مقدار أجر فاعل الخير، فقد روى جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: " من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فعُمِل بها بعده؛ كُتِبَ له مثل أجر مَن عمل بها، ولا ينقص مِن أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيِّئة فعُمِل بها بعده، كُتِبَ عليه مثل وزر مَن عمل بها، ولا ينقص مِن أوزارهم شيءٌ". رواه مسلم(١).

الخلاصة: أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالتعاون على البر والتقوى، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾(٢)، والإرشاد إلى الخير وفعْل المعروف هو مِن التعاون على البر والتقوى، كما أن الدلالة على الشرِّ أو الإعانة عليه جالبة للوزر. فما أحوجنا في هذا الزمان الذي انتشر فيه الشرُّ، وانحسر فيه الخير، وقلَّ المعينون عليه؛ أن نُحيي هذه الشعيرة العظيمة، وندعو إليها ونحثَّ عليها؛ لما فيها من الخير العظيم، والنفع العميم، من إقامة أمر الدين، وتقوية المُصلحين، وكسر الشرِّ ومُحاصرة المُفسدين.

المـــرءُ يُعـــــرفُ فِي الأَنَـــامِ بِفِعْلِهِ ... وَخَصَائِلُ المرْءِ الكَرِيم كَأَصْــلِهِ
اصْــــبِرْ عَلَى حُلْوِ الزَّمَـــــانِ وَمُرِّهِ ... وَاعْلَـمْ بِأَنَّ اللهَ بَالِـغُ أَمــــْرِهِ
فِي الجَوِّ مَكْتُوْبٌ عَلَى صُحُفِ الهَوَى ... مَنْ يَعْمَلِ المعْرُوْفَ يُجْزَ بِمِثْلِهِ(٣)

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٩) برقم (١٠١٧) كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سنة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة.
(٢) المائدة: ٢.
(٣) الأبيات منسوبة للإمام الشافعي، ولم أقف عليها في ديوانه. والله أعلم.


تم بحمد الله